



0106673



Bibliotheca Alexandrina

الإلف كتاب

(٥٧٩)

General Organization of the Algerian Republic
المنظمة العامة للجمهورية الجزائرية



بُقوط الأُسَر الحاكِمة

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالي

تصديق هذه السلسلة بموافقة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب

(٥٧٩)

340.28

٣٥٠
٣٥٠

هَقُوطِ الْأُسْرِ الْحَاكِمَةِ

تأليف
إدموند تيلور

ترجمة

علي عزت الأنصاري

مراجعة

الدكتور محمد أنيس

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التسجيل	٩٤٥
رقم التسجيل	٣٩٢٧٧

الناسخ
مؤسسة سجل العرب
٢٦ شارع شريف باشا - القاهرة
تليفون ٤٩٩٩٩ ٥٢٣٠٩

١٩٦٥

هذه ترجمة كتاب

THE FALL OF THE DYNASTIES

تأليف

EDMOND TAYLOR

مُجْهُوَاتُ الْكِتَابِ

صفحة

٩	— سراجيفو د بُلُقَات الرصاص التي	الفصل الاول
٣٩	— لا تزال تَقْرَعُ أَسْمَاعُ الْعَالَمِ	الفصل الثاني
٦٩	— رجعة بالبصر إلى العالم الغارب	الفصل الثالث
٨٥	— الأسرات المالكة ورجال السياسة	الفصل الرابع
١٢٣	— عام الديك الأحمر	الفصل الخامس
١٦٥	— الملكية المتحجرة	الفصل السادس
٢٠١	— تراث الرجل المزيف	الفصل السابع
٢٢١	— إرهاب بالكارثة القادمة	الفصل الثامن
٢٥٧	— غليوم الثاني على حافة الهاوية	الفصل التاسع
٢٧٩	— حافرو قبر الحكم المطلق	الفصل العاشر
٣٢٥	— قتل وفوضى وخداع	الفصل الحادى عشر
٣٦٩	— فشل السياسة	الفصل الثانى عشر
٣٨٩	— فشل الحروب	الفصل الثالث عشر
٤١٥	— انتحار الملكية فى روسيا	الفصل الرابع عشر
٤٤٣	— الثورة الضالة	الفصل الخامس عشر
	— عصر الطبيعة الساحرة	

صفحة

٤٧٣	الفصل السادس عشر — إلى النهاية المرة
٥١٩	الفصل السابع عشر — نهاية آل هوهنزولرن
٥٥١	الفصل الثامن عشر — سقوط بيت هابسبرج
٥٨٧	الفصل التاسع عشر — عصر الاضطرابات
٦١٣	الفصل العشرون — السلام الذى ولد ميتاً

فهرست الخرائط والاسر الحاكمة

٩	مقابل صفحة	أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى
٢٥	»	البوسنة
٤١	»	أوروبا في عام ١٩١٤
٧٣	»	أسرة رومانوف
١٠٥	»	أسرة هابسبرج لورين
١٣٧	»	النمسا والمجر عام ١٩١٤
٢٤٩	»	أسرة هوهنزولرن
٦٥٧	»	أوروبا في عام ١٩٢٧

الفصل الأول

سراجيفو

« طلقاء الرصاص التي لا تزال
تقرع آسماع العالم » .

من أشهر الصور الفوتوغرافية الحديثة للدوق فرانسيس فرديناند سليل بيت
 «هابسبرج ووريث عمه الذي نيف على الثمانين - الإمبراطور فرانسيس جوزيف
 إمبراطور النمسا والمجر - صورته التي يرى فيها وهو ينزل درج قاعة المدينة في
 سراييفو بعد بضع دقائق مضين من الساعة الحادية عشرة من صباح الأحد
 الثامن والعشرين من يونيو سنة ١٩١٤ . يرى في هذه الصورة جسمه الصخيم
 المتين تحت لباسه الرسمي الزاهي الذي تعلوه قبعة مزدانة بالريش ، كما يبدو فيها
 احتقان وجهه وتورم رقبته البارزة من بنيقته الخائفة . وأما شواربه الكثيفة
 المثلنية فكانت تشبه شوارب خنزير برى . وتخطر ببجانبه زوجته صوفى التي
 لاتدانيه في منزلته السامية ، وهي سليلة أسرة هوهنبرج ، ولا يخفى ما في وجهها
 الممتنى من الاحتقان وما هي عليه من الاضطراب ، وما يهمان بدخول العربية
 التي كانت في انتظارها ويبدو على الزوجين معاً شيء من القلق ، ولكنه قلق
 لا يبلغ حد الرعب . ولم يكن يبدو شيء من الرعب كذلك على أعيان البوسنة
 الذين كانوا على جانبي الطريق الذي يجتازه الزوجان اللذان أعد القدر لهما مأعد ،
 وكثير من هؤلاء مسلمون . ومن سخرية الأقدار أنهم دون غيرهم هم الأصدقاء
 لبيت هابسبرج الكاثوليكي في هذه المقاطعة النائرة نصف الشرقية ، الذين خلعوا
 عن أنفسهم نير الحكم التركي حديثاً . ولكنهم يجأرون بقيام دولة يوجوسلافيا
 التي لم تكن قد قامت بعد - وهم يعتقدون ألا مهرب للانسان مما قدز
 عليه . وعقيدتهم هذه كانت تبدو على وجوههم ، وقد سجلت آلة التصوير

صورهم وقد رفعوا أيديهم بإزاء قبعاتهم في شيء من الذعر مع استسلام للقضاء .
كأنما يؤدون التحية الجنائزية لأحد الراحين .

إن هذا المنظر كله الذى سجله أحد المصورين المجهولين لباقي عبر السنين .
المديدة في وضوح تام ، حتى كأن الناظر إليه يذكر كابوساً مرعباً سبق أن ألقاه
في إحدى الليالى السالفة ، وقد ينزع الإنسان إلى عدم تصديق ما يراه ، إذ يكون
هذا الشعور في صراع مع ما يخاله قدراً محتملاً . ولا شك في أن أحد الناس قد
يصيح صيحة تحذير قبل فوات الأوان . ولا شك كذلك في أن أحد الناس
قد يحاول القيام بعمل شيء ما . وفي الواقع أن أحد الناس قد عمل شيئاً . ولكن
الذى عمله كان هو الخطأ بعينه ، وكان بعد فوات الأوان . وفي خمس دقائق
كان فرانسيس فرديناند وصوفى في غيبوبة تامة في عربتهما المسرعة ، ينزفان دم
الحياة من إثر الرصاصات التى أطلقتها عليهما القاتل .

وهاهى ذى أسرة عريقة — ومعها أسلوبها الكامل للحياة — أخذت تساقط
وسيتلوها غيرها وغيرها وغيرها . ولقد قضى نحبها ما يقرب من تسعة ملايين
نسمة في الحرب العالمية الأولى نتيجة لهاتين الرصاصتين اللتين أطلقتا في إحدى
مدن البلقان المغبرة منذ حوالى نصف قرن ، كما قضى نحبها خمسة عشر مليوناً في
حرب ثانية أشد هولاً من سابقتها مترتبة على نتيجة الحرب الأولى . إن زيارة
وريث أسرة هابسبرج وزوجه إلى سراييفو لم تستغرق أكثر من ساعة واحدة
وبضع دقائق — وهى مدة عرض شريط سينمائى — ولكن مأساة هذه الدقائق
الستين أو السبعين قد غيرت فعلاً كل مجرى التاريخ الحديث . وإن إعادة النظر
في هذه المأساة لتعين على فهم كثير من المآسى المحزنة التى شهدتها العالم
منذ وقوعها .

إن منظر سراييفو في ناحية الجنوب الغربى رائع .. فالجبال المرتفعة ذات ..

الأنحدار السهل تكاد تحيط بها من كل جانب . ويقسمها قسمين وادى هر
ملجا كا — القليل النور — الذى يضيق عند حدودها الشرقية حتى يصبح ملا
وعراً يطل عليه الحصن التركى للهدم الذى سى باسمه . وفى أعلى هذا المدرج
الطبيعى الذى ترتفع جوانبه حوالى ستمائة قدم ، تقع أحياء المسلمين التى تحلق فيها
مئات مآذن المساجد ، فوق الفيلات البيضاء التى تحيط بها الحدائق المسورة ،
أما المدينة الحديثة البناء فى أسفل هذا المدرج فكأنها ما أقيمت إلا لتزيد من
سحرها وبهائها ، هذه هى سراجيفو اليوم وهى — فيما عدا الآثار البسيطة التى
خلفتها القذائف التى ألقتها عليها الخلفاء فى الحرب العالمية الثانية — التى تراءت
لفرانس فرديناند فى مطلع الصباح المشرق ، عندما حملته إلى محطة سكة الحديد
عربته المفتوحة ، ترفرف عليها أعلام أسرة هابسبرج ذات اللونين الأسود والذهبي ،
يعبث بها التسمم الجبلى العليل .

ولا شك أن المنظر قد ملأ الدوق بهجة وسروراً رغم أنه لم يكن ممن يأسره
الجمال . ولم يبد من الاهتمام أكثر مما اعتاد إبداءه فى مسرح الأوبرا أو حفلات
الرقص فى السراى ، مما كان موضع الشكوى من أهالى فينا المعجبين للفن والمولعين
بالمرح . ولكنه بينما كان مستنداً إلى مقعده المكسو بالجلد ليتفضل برؤية
المنظر كان وجهه الذى تستشف فيه الكبرياء وحدة الطبع — وكذلك جسمه
المتهدل من أثر السنين ، وقد بلغ من العمر الواحدة والخمسين — معبراً عما
يشعر به من المرح على غير عادته . والواقع أنه كان لدى فرانسيس فرديناند كل
ما يجعله راضياً فى حياته بل ما يجعله راضياً بعض الشيء فى صباح ذلك النهار
المشرق من يونيو .. فالمناورات العسكرية الهائلة على الحدود الصربية التى كانت
الحجة الرسمية لزيارته للبومسنة — بصفته المفتش العام للقوات المسلحة — تمت
على ما يرام على الأقل من وجهة نظر النمسا والمجر ، إذ لم يحدث فيها أى إهمال ،

لا شيء مما يشبه ذلك الحدث المزرى الذى وقع قبل ذلك بشهرين على مقربة من ترست ، إذ قبض هو على أحد الحرس البحريين يدخن لفاقة تبغ وراء أحد الأسوار ، فأمر أن يسجن مدة أسبوعين . وكان فرانسيس فرديناند لا يميل للفكاهة كتوماً، يحب المحافظة على الرسميات ، مع واعي شديد بالنظافة والنظام ، كما يأخذ مأخذ الجد كل ما يتعلق بالمسائل العسكرية والإدارية ، وهو أشبه بألمان بروسيا في كرههم للاهمال والتراخي^(١) مما برع فيه النمساويون .

وكانت حاشية الدوق التى كانت فى المنزل القريب من إيلدز (Ilidze) العين المعدنية هناك ، هائلة بتمضية الليلة السابقة فيها ، ولم يلقوا هناك أى تقصير أو إهمال . وكانت صوفى التى صحبها وجاء بها على خلاف ما تقضى به التقاليد ، سعيدة بما حظيت به من اهتمام صغار الضباط المقرون بالاحترام . وهذه الزيارة الرسمية إلى سراييفو رغم ما فيها من إجهاد ونصب ، كانت أدعى إلى الارتياح ، إذ كان للوعود التى حدثت فيه جانب خاص فى تفكير الدوق ، ربما كان أهم من الجانب السياسى ، إذ كان الخامس والعشرون من شهر يونيه ذكرى يوم من أهم الأيام فى حياته .

فمنذ أربعة عشر عاماً اقترن الدوق فرانسيس فرديناند من النمسا الشرقية (Austria Este) (وهذا أحب الأسماء إليه) من صوفى شوتك ، وهى من أسرة تشيكية نبيلة، وإن كانت غير ذات جاه عريض . وكانت وصيفة لابنة عمه الدوقة إيزابلا . ولربما كان أولى بها — من وجهة نظر الأسرة الملكية — أن تكون إحدى الوصيفات .

(١) يبدو أن هذا أحد عيوب أسرة هابسبرج الإمبراطورية ، وليس أحد العيوب القومية النمساوية ، ومن يزور النمسا اليوم فلما يجد إهمالا فى الجمهورية النمساوية المتقدمة فى الحافة السابعة من هذا القرن .

« والحب من شأنه أن يفقد الإنسان كل معنى للكرامة » كانت الكلمة التي قالها الإمبراطور فرانسيس جوزيف عندما سمع الخبر . ولم يغفر الإمبراطور طول حياته هذا الاقتران غير اللائق . ولقد لبث سنة كاملة في مفاوضات قاسية حتى حصل آخر الأمر على موافقة الإمبراطور على القران . ولم يستطع حتى الإمبراطور نفسه أن يخفف من صرامة قانون نظام أسرة هابسبرج المكتوب ، الذي يعتبر القانون الأسمى لشئون الأسرة .

وفي إحدى جلسات مجلس البلاط في قصر هوفبرج العتيق في الثامن والعشرين من يونيه سنة ١٩٠٠ أجبر فرانسيس فرديناند على أن ينزل عن جميع الحقوق الوراثية قبل أن يتم بينهما ذلك القران غير المبتكافي* . ولم ينس هذه المذلة أبداً . ونظراً إلى حبه لصوفي اضطر إلى ابتلاعها ولكنها ظلت تؤرقه طول حياته . ولم يكن الدوق ممن يخرجون على التقاليد الملكية ، بل كان متعالياً متمسكاً بجميع المزايا الملكية وبحقوقه المستمدة من أسرته العريقة بصفة خاصة ، رغم زواجه بامرأة من عامة الشعب . ومن العجيب أن هذا الزواج كانت ترفرف عليه السعادة .

وعند ما أصيب فرانسيس فرديناند بذات الرئة ، وعده بلاط عمه الإمبراطور في عداد الموتى - وهى إساءة لم ينسها طول حياته - ظلت صوفي ترعاه دون أدنى ملل ، حتى عوفي من مرضه واسترد صحته . وقد أنجبا ثلاثة أبناء . إرنست وماكس وصوفي . وكان الأخيران يدعيان في الأسرة ما كسل وصوفي وكان يعبدها الدوق .

وكثيراً ما كان الدوق في غاية السعادة جالساً على أرض الحجر رغم كل التقاليد يلعب مع أولاده ويستقبل وهو في هذه الحالة ذوى المكانة من الزائرين-

والويل لزاثر منهم لا يحذو حذو صاحب السمو الملكي فيما هو فيه من جلوس ولعب . ويبدو أن قران سليل أسرة هابسبرج — الذى سيؤول إليه الملك — بائنة أحد أفراد الأقلية السلافية التى يزدهر فيها الإمبراطور ، كان ينطوى على نمط من السعادة الشعبية .

والواقع أنه كان أكثر من ذلك . إن ركب الزوجين معاً فى يومهما الأخير كان لا يزال مشهداً للحب بين الزوجين .

والواقع أن هذين الزوجين فى بساطتهما — فرانسيس فرديناند الذى كان أكثر شبيهاً بالفلاح البروسى منه بأحد السادة فى عاصمة النمسا ، وصوفى ربة البيت ذات الوجه المربع التى جاوزت سن الشباب والتى لم تكسبها أية مسحة من الجمال قبعها البالغة الأناقة وبنيتها العالية الضيقة وهما جالسان على المقعد الخلفى ل عربتهما الكبيرة فى طريقهما إلى موعدهما مع الموت . الواقع أن الزوجين كان يربطهما رباط من الحب الرومانتيكى الذى لا يهدأ أواره ولا يقل عن أى رباط من الحب المذكور فى صفحات التاريخ . وكانت الابتسامات التى تبادلها الزوجان عندما كان الركب يقترب من وسط المدينة بين التكبير والتهليل ، حارة وصادقة . إن تدير الدوق لهذه الرحلة كان إرضاء لصوفى وكانت هى على علم به .

ولم يكن لصوفى مكان فى الحفلات الرسمية التى يقيمها البلاط النمساوى فى فينا والتى ترجع فيها قواعد البروتوكول إلى عهد مارياتريزا . وفى عام ١٩٠٦ منحها الإمبراطور لقب دوقة هوهنبرج ، ومنذ ذلك الحين سمح لها أن تدعى إلى الحفلات فى قصر شو نبرون ، ولم تكن مطلقاً على قدم المساواة مع زوجها .

.. وقد استخدم أعداء الدوق العديدون كل سلاح من أسلحة البروتوكول للكيد لها .. وإذلالها . ففي حفلات البلاط مثلاً — عندما تقتضى الرسميات أن يكون للمداخل نظام خاص — كانت الأوامر تصدر بالألا يفتح للدوقة إلا إحدى الضلفتين ، .. وترتب على هذا أن فرانسيس فرديناند — وهو رجل حقود لا يسكت عما يصيبه .. حتى يثار لنفسه ، فضلاً عن رغبته غير الخافية في أن يموت عمه ، وعن نوبات الحزن .. والنصب التي تعتريه والتي تخشى صوفي أن تؤدي به إلى الجنون — أقام بلاطاً منافساً لبلاط الإمبراطور في قصره المسمى بلقدير في أعلى التل الذي يشرف على .. فيينا . ولم تكن الأسر الألمانية والجرية الإقطاعية ممثلة في هذا البلاط إلا من قبيل .. تأدية الواجب . وكان الدوق يكره نبلاء الجر المتفطرسين بسبب نزعتهم الاستقلالية ، .. وكان يحيط نفسه بخليط عجيب من السلافيين ورجال الكنيسة الرجعيين والألمان .. الكاثوليك الاشتراكيين . وكان من شأن هذا شطر طبقة النبلاء إلى فريقين ، .. ومع هذا فلم تحل مشكلة المكافحة التي توضع فيها الدوقة بصفة رسمية .

ولم يكن من المحتمل — كما يبدو لنا الآن — أن هذا الموقف الذي ينطوى على كثير من الخطأ ويدعو إلى كثير من النصب ، كان إحدى السمات التي بنى عليها .. مسرح المأساة العالمية . لقد كانت رغبة الدوق في توقيع العقاب على شائثيه ، وفي .. التكفير عن سير صوفي في آخر المواكب الرسمية ، بينما يكون هو على رأس .. الموكب ، تصحبه دوقة أخرى عالقة بإحدى ذراعيه ، هي التي دعت إلى أن يتدع له .. بروتوكولا خاصا . وقد استغل فرصة تعيينه مقتشاً عاماً للقوات المساحة — وقد عين .. في هذه الوظيفة سنة ١٩١٣ — فأراد أن يشهد المناورات القادمة في إيالة البوسنة .. والمهرسك التي ضمت حديثاً إلى النمسا . ويستطيع بصفته هذه لا بوصفه وريثاً للعرش أن يزور سراييفو عاصمة الإيالة . ولكنه بطبيعة الحال كان لابد من أن يعامل .. على أساس مستواه الإمبراطوري . ورأى أن يصحب صوفي في ذكرى عيد قرانه ،

وبهذا تستقبل بوصفها حرم المقتش العام الذى صادف أن كان وريث العرش، -
أى أنها تستقبل كملكة .

ولم تكن الدوافع السياسية لزيارة الدوق لسراجيفو أقل تعقيداً من الدوافع الشخصية . إنها كانت متأصلة في تاريخ أسرة هابسبرج ، وفي الجغرافيا البشرية المعقدة لحوض نهر الطونة . ومع أن هذين الموضوعين يستحقان مزيداً من الدرس إلا أنه يكفي الآن التنويه ببعض جوانبهما البارزة. ومن أوليات الحقائق التى تتجلى بها الأمور أن النمسا - المجر كانت تسمى المملكة الثنائية لأنها لم تكن مكونة من شعب واحد بل من شعبين منفصلين يعد كل منهما من الناحية النظرية دولة ملكية ، ويحكمها حاكم واحد هو الإمبراطور - الملك ، ويربطهما رباط بسيط أو إدارات ومصالح الإمبراطورية (بما في ذلك الجيش) . وهذا - فى الواقع - تبسيط كبير فى تحديد العلاقة بينهما ، فإن النمسا والمجر أقرب إلى أن تكونا إمبراطوريتين متحدتين من أن تكونا شعبين متحدتين - وفى كل منهما جنس له السيادة . ففي النمسا الألمان ، وفى المجر المجرىون. ولكل منهما السيادة على الشعوب الخاضعة له . (ومع أن المجر كانوا هم السادة فى بلادهم ، إلا أنهم لم يمتنعوا عن الشكوى من أن الألمان يظلمونهم ، أو على الأقل يستغلونهم فى سائر أنحاء الإمبراطورية) . وكان معظم الأهالى ينتمون إلى الجنس السلافى (ولو أن فيهم كثيراً من الإيطاليين والرومانين) ولكنهم قد تفرعوا من أصول مختلفة منه . وبدلاً من أن يتجمعوا فى صعيد واحد تبعثروا فى أنحاء متفرقة من الإمبراطورية مع غيرهم من الأقليات العنصرية الأخرى ، كما تختلط الرسوم فى إحدى الصور المرسومة على النمط السوربالي .

وكان التشيك يقيمون فى المناطق الشمالية من النمسا التى كانت تعرف من قبل

بدولة بوهيميا السلافية المستقلة. وكان السلوفاك وهم من ذوى قرابتهم يقيمون. شرق هؤلاء، أى أنهم واقعون تحت نفوذ المجر الشديدي البطش. وكانت المجر تمتلك أيضاً جزءاً كبيراً من دولة يوجوسلافيا الحالية. وهكذا كان بالمجر أقلية من. من السلافيين والكروات والسلوفاك، إلا أن بعض السلوفين وهم من السلافيين. من أهل الجنوب كانوا خاضعين لحكم النمسا.

ومن الطبعي أن تنشأ معظم متاعب أسرة هابسبرج وهم السادة الإقطاعيون من. هذا الخليط العجيب من العناصر المتباينة، وبخاصة من أشد هذه العناصر شكيمة وأكثرم عناداً، أى من المجر. وعلى هذا فقد رأوا في ممالئهم لبعض رعاياهم. السلافيين شيئاً يحد من غطرسة المجر وعنادهم. وقد رأى فرانسيس فرديناند أن. يسير مع تيار تقاليد أسرته إلى أبعد مدى. وقد كان يلذ له — إما كرها للمجر. وإما اعتقاداً منه أنه مما تقتضيه السياسة — كان يلذ له أن يظهر بمظهر حامي السلاف. في الإمبراطورية. (ولعل اقترانه بإحدى النبيلات الشكيمة مما سهل له القيام بهذه. المهمة أو لعله أوحى له بها). ولاشك أن فرانسيس فرديناند كان أبعد نظراً من. معظم كبار رجال الحكم النمساويين في رؤية الحركة الوطنية الأخيرة في النميين. الأقليات السلافية وبخاصة بين أهل الجنوب منهم. ولعل الدوق كان يرجو أن. يقضى على حلم اليوجوسلافين في الحصول على الاستقلال، ذلك الحلم الذى كان. يعمل على تحقيقه عناصر التوسع في دولة الصرب المتاخمة، بمنحهم السلاف في الجنوب. الحكم الذاتى في دولة خاصة بهم داخل الإمبراطورية.

وكان للبوسنة علاقة هامة بل علاقة فعالة بمثل هذه المشروعات. وكان لها دور كبير في المعترك البلقانى كله. وكانت النمسا تحكم البوسنة وشقيقتها الهرسك منذ سنة ١٨٧٧ التى طرد أهلها المسيحيون (ومعظمهم من الصرب والكروات)،

صادثهم الأتراك. وكان الأساس القانونى لهذا الوضع مستمداً من معاهدة بين الدول الأوربية عامة كانت تهدف إلى منع هذه الدولة الحديثة من أن تكون نواة للنزاع بين الدول التى وضعتها تحت الحكم النمساوى المجرى فيما يشبه الوصاية (وكانت البوسنة والمهرسك تعدان قانوناً جزءاً من الدولة العثمانية) ثم إن وزراء الإمبراطور أغروه بإصدار الأمر بضمهما إلى إمبراطوريته. وقد أقلق هذا الإجراء الدول العظمى وأثار الوطنيين المحمسين فى الصرب المستقلة، الذين كانوا يأملون فى ضم البوسنة والمهرسك إليها، كما أثار حمية دعاة الصربية والسلافية الوطنيين من السكان. وعندما اعتزم الدوق القيام بزيارته الرسمية إلى عاصمة البوسنة، أحس أن سيكون لها أثر فى تهدئة الأحوال فى البلاد. كما تقابل بالرضا من السلاف الوطنيين فى سائر أنحاء الإمبراطورية. ثم إن هذه الزيارة دلت هى والمناورات التى كانت تجرى على الحدود على أن الإمبراطورية لا تسمح بأى هراء، سواء أكان للدعوة الصربية فى بلغراد أم للإضراب السياسى من سلاف الجنوب فى داخل حدودها. كما أنها تظهر — فى شئ من الغرابة — عطف إمبراطور المستقبل على الآمال المشروعة التى لدى السلاف الوطنيين وحبه المعروف لرعايا السلافين، كما أن الزيارة كانت مدعاة لإثارة المجر وحقنهم.

هكذا كانت الحال عندما كان الدوق فرانسيس فرديناند وزوجه صوفى يركبان معاً عربتهما البطيئة المكشوفة، فى المنطقة التى كانت فى الواقع منطقة احتلال عسكري يوم الأحد المشؤم. وكان ارتحال السيارات الملكية والأعلام المرفقة والجموع المحتشدة الساكنة على جانبي الطريق المتسع الممتد على شاطئ بلجيكا الأيمن عندما دخله موكب الدوق، كان هذا كله هو ما أهداه الدوق للدوقة فى ذكرى زواجهما.

وهذا التاريخ بالنسبة لمعظم أهل البوسنة الذين قدموا ليحيوا — أوليروا — الملك القادم وزوجته — كان موعداً لذكرى غير ذكرى موعد الزواج . فيوم ٢٨ من يونية هو الخامس عشر من يونية حسب التقويم الصربي هو الفيدوفدان، عيد سانت فينوس ، وهو يوم عطلة لدى الجنس السلافي في البلقان لايدانيه أى عيد آخر . ولقد ظل عدة قرون يوم حداد عام ، إذ كان يذكر القوم بهزيمتهم في كسوفو سنة ١٣٨٩ التى قضى الأتراك فيها على دولة الصرب واستعبدوا الأهالى المسيحيين . ومنذ سنة ١٩١٢ أصبح ذكرى مجيدة ، إذ أصبح عنوانا لهزيمتهم للأتراك فى حرب البلقان الأولى التى أدت إلى طردهم من أوروبا .

وعيد الفيدوفدان شأنه شأن سائر الأعياد التاريخية التى توقع على أوتار القلوب . أنعاماً متباينة ، يحيه الأهالى بشتى العواطف المختلفة . وفيه يسرف الأصدقاء الأوفياء فى الشراب حتى يعلو صياحهم وصخبهم ، وحتى يروا فى أدق التحيات المهذبة ، التى يقدمها أحد الغرباء سهاماً موجية إلى قلوبهم .

وكان فرانسيس فرديناند — وهو أقل الناس ذوقاً وأكثر الغرباء فضولاً — يعرف أن اليوم الذى اختاره لأولى زيارته لسراجيفو هو عيد فيدوفدان . وكان يعلم كذلك أن البوسنة وعاصمة البوسنة كانتا تحت نير الحكم النمساوى ، كما كانتا تحت نير الحكم التركى مرتعاً خصباً لمؤامرات الوطنيين وفضائهم (وقد أعادوا مسلكهم الثورى المجيد ضد النازيين فى الحرب العالمية الثانية) . وربما كان معتمداً على ما اشتهر به من أنه حامى السلاف فى الدولة للقضاء على ما عسى أن يكون فى صدورهم من عداوة . إن الأثر الحقيقى لهذا أنه جعل الدوق يبدو خطيراً ومكروها لدى غلاة القومية السلافية . إن المتطرفين يخشون دائماً الخصم المعتدل .

انتحار فى حالة اعتلال العقل : ربما كان أنسب الأحكام على الزيارة إلى،

سراجيفو، لو لم يصحب فرانسيس فرديناند أحب الناس جميعاً إلى قلبه وهي زوجته . وما كان ليصحبها - دون أدنى شك - لو كان يعتقد أن هناك أى خطر يهددها . وإن عدم إدراكه للشعور العام في البوسنة ليدل على ضالة العلاقة الإنسانية بين الأسرة الحاكمة ورعيها . وكما تقول العبارة الصينية بوضوح إن الأسرة قد فقدت - بعد أن ظلت حاكمة ستمائة عام - رعاية السماء . (إن معظم الأسرات الباقية إلى القرن العشرين قد فقدتها أو هي توشك أن تفقدها ، وهو ماسيراه القارىء فيما بعد) . ولم يكن الأمر مقصوداً على ما بين أسرة هابسبرج ورعيهم من عزلة ، بل كانت الصلة منعقدة بعض الشيء بين أجهزة الدولة جميعها . ولقد وصل إلى علم السلطات المدنية في كل من فينا وسراجيفو تحذيرات بوجود مؤامرة تدبر ضد الدوق .

ولقد ذهب بعض المؤرخين في وقت ما إلى أن بعض هذه السلطات وبخاصة السلطات التي لها اتصال بالحجر تعلمت السماح للدوق أن يقع في المصيدة ، بل لعلها شجعت على مؤامرة القتل . والآن وقد أصبح من الميسور الحصول على الأدلة السرية ، دل على ما أجمع عليه الخبراء على أن الأمر أبعد عن الدراما ، وإن كان أكثر غرابة من بعض الوجوه . فالسلطات المدنية والعسكرية لم تكن إحداها متصلة بالأخرى . أو على الأقل لم تعر الثانية أى التفات لما قالته الأولى . ولم يرد فرانسيس فرديناند أن يهيئ للخاصية الرسمية مبرراً لتدخلهم فيما أعد لتكريم صوفى ، وأصر على أن تعتبر زيارته أمراً حريياً ليس غير .

وقد أغضبت صلاته البلاط ووزارة المالية النموية المجرية المسئولة عن الإدارة

المدينة في البوسنة . وبلغ من سخط الإمبراطور الذي بلغ الرابعة والثمانين أخذ الدوق لزوجته في زيارة البوسنة ، أنه خف إلى مصيفه في أنشل ليتجنب استقبال الزوجين عند عودتهما إلى فينا . وكان للعسكريين نصيب كبير في هذا الخلاف . ولم يقيم المارشال أوسكار بوتنيورك حاكم البوسنة العسكرية — وكانت له ما لقومه أهالي أوروبا الوسطى من عنجهية — بإبلاغ رئيسه وزير المالية ما اتفق عليه من أمر هذه الزيارة . ولربما كان غير واثق من ولاء الوزير .

وعلى كل حال لم يعر الاهتمام الكافي لما كان يذاع من القلق في هذه المنطقة . وعلى حد تعبير ا. ج. ب. تيلور المؤرخ البريطاني « لم يصدقوا (بوتنيورك ورجاله) إلا بأن سكان المنطقة لا يكادون يزيدون على أن يكونوا خدما للمعسكرات » .

وكانت النتيجة لهذا الازدواج الإداري أن بوتنيورك استقل بمسئولية تأمين الدوق ومن معه دون أن يكون لديه الوسائل الكافية ، إذ قد سحب كثير من الجنود للاشتراك في مناورات الميدان . وكان عدد قليل من الحراس يقفون على جانبي الطريق يحفظون النظام بين الشعب المحتشد عند ما سار موكب الدوق ذى السيارات الست ، حتى وصل إلى شارع فيدوفدان في سراييفو بعد العاشرة بقليل .

وجاء أول نذير عند ما اجتازت العربدة الملكية مصرف النمسا والمجر المجاور لنهر ملجاكا .

كان هاراك الملحق العسكري للدوق جالسا على المقعد الأمامي بجوار السائق ، وكانت صوفي على المقعد الخلفي إلى اليمين ناحية سور النهر والدوق بجانبها، ويجلس أمامهما بوتنيورك معتزا بعظمته دون أن ينم وجهه العسكري عن أى شئ ، وكان يشرح لهما ما قدمه الجيش من آيات الفن في سراييفو ، في المنشآت العسكرية

ذات اللون الفاقع العظيم المقامة على النهر . وحيثما كانت إصبعه تشير كانت هناك فجوة في جانب الطريق يقف فيها شاب طويل أسمر قام في تلك اللحظة بحركة غريبة بكلتا يديه . وفي هذه اللحظة سمع صوت ضئيل لا يزيد على صوت غطاء من القلبن . عند فتح قارورة ، ثم أخذت أحداث غريبة لا علاقة لإحداها بالأخرى تقع بعضها بعد بعض . ولقد حسب هاراك — خطأ — أنه سمع رصاصة مرت بجانب رأسه ، وأحست صوفي فعلا أن شيئاً خدش الجانب الخلفي من عنقها ، ورفعت يدها لتلمسه ، ورأى بوتيفورك أن شيئاً أسود اللون جاء طائراً من لدن الشاب الأسمر الطويل ، واستقر خلف العربة الملكية . وانفجرت العجلة الأمامية للعربة التي تليها بصوت شديد ، أعقب ذلك خروج عدد من الضباط إلى الشارع . ولم يفهم أحد هؤلاء الضباط في مبدأ الأمر — وهو مريتزي الملحق العسكري لبوتيفورك — لم يفهم سبباً للدم الذي أخذ يسيل من وجهه ، ثم اندفع خليط من الناس من سور المبني إلى الجمع المحتشد ، ورفع أحدهم يده إلى فمه ، ثم قفز وتخطى الحاجز واندفع في النهر . ولوى كثير من الواقفين رقابهم ليروا ما حدث له بين الصخور ، وكان ذلك في العاشرة والنصف .

وكان الدوق وزوجه في العربة الملكية معتدلين في جلستهما . وقال بوتيفورك وهو يتطلع إلى الأحداث من فوق رأسهما إن قنبلة قد أطلقت . ورد: فرانسيس رداً عجيباً ، فقال إنه كان يتوقع شيئاً من هذا القبيل . ثم أضاف بوتيفورك أن ضابطاً في العربة الثالثة قد أصيب ، ويبدو أنه مريتزي . وأمر فرانسيس بوقف السير والنظر إلى ما وراء عربته . ولم يعارض أحد في هذا الأمر الجنوني ، بل أطيع الأمر فوراً ، ووقفت العربة الأولى كذلك ، وفي مجرى النهر كان عدد من الجنود يحرون الشاب الأسمر وهو يقيء ، ويضربونه دون وعي . منهم بصفحات سيوفهم ، وقد عرفوا دون إبطاء أن اسمه ندجلكو كابرنيوفك .

وأنه عامل طباعة عمره تسعة عشر عاماً ومن مواليد سراجيفو .

واتضح أن الملازم مريتزي لم يصب إلا إصابة خفيفة، ثم نحيت العربية ذات العجلة المصابة . وهرع الخبراء العسكريون المصاحبون للركب ووصلوا معاً فيما يشبه الإجماع على تفسير الموقف .

كانت الفرقة الأولى التي قلبت نظام الأمور رأساً على عقب هي صوت قبيلة صغيرة انفجرت عندما تعمد الشاب الأسير إلقاءها على أحد أعمدة النور ، ولا ريب أن شظية منها — وهي أبسط من أن تلحق بأحد أي ضرر — هي التي خدشت عنق صوفي . أما القنبلة الحقيقية التي أطلقت أولاً ، فقد انفجرت بعد ذلك بعشر ثوان ، ولهذا لم تصب العربية المقصودة . هذا ولو أن تنفيذ العملية دل على عدم الخبرة ، إلا أن ما أعد لها كان أدق من أن ينسب إلى أيدي محلية .

وأمثال هذه القنبلة كانت معروفة حينذاك في الصرب، وقد عرف الإرهانيون فيها وقعها الكبير في جهادهم مع الأتراك . ولم تكن الأحداث القادمة مأمونة العاقبة . وأصدر بوتورك أمره فوراً بأن تستأنف العربات الباقية سيرها — أكثر سرعة — وألا تقف إلا عند ديوان المدينة . ولو أنه كان حسن التقدير للموقف لأمر بأن تسير بسرعة أكبر وفي عكس الاتجاه . ولم يكن الاستقبال القصير الذي أقيم في الراثاوس — Rathaus — استقبالا ناجحاً . على أن المكان نفسه كان بناء غير فني أقامه النمسيون على نمط الحمامات التركية ، ويستعمل في الوقت الحاضر متحفا للصناعات اليدوية . وما كاد عمدة المدينة يبدأ خطابه حتى وجه الدوق إليه الكلام بعنف وقال له بصوت مرتفع : « أيها السيد العمدة ، أجيء هنا لزيارتكم فأجد القنابل تلقى على ، إن هذا أمر فظيع »

ولم يلق الدوق خطابه المرتجل القصير رداً على خطاب خطبة العمدة إلا بعد

أن بذلت الجهود الشاقة لإقناعه بذلك . وقد وصف ابن أحد أعضاء مجلس المدينة — وكان يشهد حفل الاستقبال ، وكان طفلاً في ذلك الوقت — الجو القليل الخافق الذى ساد الحفل للكاتبة الإنجليزية ربكاوست في زيارتها لسراجيفو بين الحربين تفتظن من هنا ومن هناك ما تضمنه كتابها « الحل الأسود والصقر الأشقر » وهو من أمتع كتب السياحة جميعها .

« خيم السكوت علينا جميعاً . لا لأننا كنا فى حضرة (الدوق) ، لأنه لم يكن يمثل لدينا الفكرة البوسنية عن البطل . ولكننا أحسنا جميعاً بالخرج ، لأننا كنا نعلم أنه ملاق حقه دون أدنى شك ، إذا ما غادر المكان . كنا نعلم شعور الأهالى بنجوه ونحو النموسيين ، وأنه إذا ما فشل أحد الناس فى إصابته بقنبلة فسيلقى القنبلة غيره وغيره . . . إن جو الاجتماع كان عجيباً »

وبينا كان الاحتفال قائماً فى قاعة المدينة، كان كابرينوفك يستجوب فى مركز الشرطة ، وهو الشاب الذى كان معداً لقتل الدوق وهو لا يزال حياً يرزق إلى الآن ، رغم السم الذى ابتلعه قبل قفزه من فوق حاجز النهر ، ورغم الضرب الذى أصابه من رجال الشرطة . وكان لديه علم بالوسيلة التى كان يمكن بها إقراض حياة الدوق وزوجه ، ولكن لم يكن لدى مستجوبيه الكياسة لانتزاع ذلك منه . وقد ظل يلتزم السكوت التام ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وقبل ترك مكان الحفل كان يلتف بيوتيرك عدد من الرجال ، وكان الدوق يعيب الحاكم العسكرى على ما اتخذ من الإجراءات الفاشلة فى حمايته هو وصحبه ، وسأل فى شيء من السخرية اللاذعة إن كانت هناك محاولات لقتله إبان الجزء الباقى من الزيارة .

وإن رد بيوتيرك صريحاً للغاية — أدلى به فيما بعد — « ما كنت آمل

ذلك ، ولكن رغم كل الاحتياطات لا يمكن أن يحال دون قيام أحد الواقفين على مقربة من العربدة بشيء شبيه به .

وفي رواية أخرى قال بوتيرك وقد نسي ما ينبغي من الاحترام بالملكية :
 « ماذا - أتظن أن شوارع سراجيفو ملأى بالسفاكين ؟ » لو أن بوتيرك قال فعلا هذا القول فقد كان ولا شك من الوجهة الفنية على حق . فقد تبين فيما بعد أنه لم يكن هناك غير خمسة قتلة أو ستة أو سبعة على الأكثر في الشوارع على جانب النهر في ربع الليل أو حوالى ذلك فيما بين مصرف النمسا والمجر ومجلس المدينة . ولم يفكر بوتيرك ولا رئيس الشرطة إن كان من الأوفق إلغاء باقى البرنامج المعد للزيارة الذى يقضى بسير الركب إلى آخر المدينة . ولم يقترح بوتيرك اتخاذ إجراء يدرأ الخطر إلا عند ما صم فرانسيس فرديناند أن يزور المستشفى الحربى للسؤال عن صحة مريزى قبل زيارة المتحف المفروض زيارته حسب النظام المقرر .

وإن من رأيه أن زيارة المستشفى لا خطر فيها . إذ هى تقتضى العودة من نفس الطريق المجاور للنهر وهو آخر مكان يتوقع القتل مرور الدوق فيه . ومع ذلك فقد كان من المستحسن السير بمنتهى السرعة وإلغاء باقى برنامج الزيارة بعد زيارة المستشفى ، رغبة فى عقاب سكان سراجيفو عن أحداث الصباح الشائنة .

هذا وليس هناك أمر أذى لسقوط الأسرة الملكية النمساوية من موافقة الدوق السريعة على هذا الاقتراح الشائن الذى يقضى بعقاب أهل البوسنة ، الذين يمتنون أسرة هابسبرج ، بحرمانهم من الزيارة . ومع ذلك فلربما كان فى هذا نجاة لحياته لو أنه نفذ على وجه صحيح . لقد جرى بعربة أخرى واعتلاها الدوق وزوجه ، وقد صممت على مصاحبته ، بينما كان الكونت هاراك يقى بجسمه سيده

الدوق بوقوفه على شالاه في العربة ، مما يلي حاجز النهر في الجانب الذي أقيمت منه .
القبلة . واتخذ رئيس الشرطة وعمدة المدينة مكانهما في العربة التي على رأس .
الموكب . وهكذا كان الدوق في العربة الثانية كما كان في الصباح .
وهكذا انتظم السير بهم بإزاء شاطئ النهر في نفس طريق الصباح في .
اتجاه عكسي .

هل فكر سليل أسرة هابسبرج أن الموت كان على موعد معه على بعد .
بضعة مئات من الأمتار ؟ تذكر الكاتبة ربكاوست وهي على ما يبدو تحب .
الحيوانات الضارية وتكره أفراد أسرة هابسبرج ، تذكر قصة فظيعة عنه . تحكى .
أنه كان مثل ابن عمه وصفيه غايوم الثاني إمبراطور ألمانيا مولعاً إلى حد الجنون .
بالصيد ، وأنه كان يفخر بأنه اصطاد ثلاثة آلاف غزال . وكان يلذ له أن يذكر
أسلوبه الخاص في صيد الأرانب ، بأن يجعل عمال الصيد الذين يرافقونه يضيّقون .
السييل على الحيوان حتى يكاد يتجمع عند مقدم بندقيته فيتفوق على غيره .
من الصيادين .

وتذكر مس وست أن فرديناند لا بد قد شعر في اللحظة الأخيرة من حياته .
ما شعر به الصيد وقد ضيق عليه سبيل القرار .

والواقع أن الرماة الذين اصطفوا بإزاء شاطئ نهر ملجا كما قد تخلوا — من .
خوف أو من يأس — عن مهمتهم عندما غادر الدوق الذي أرادوا قتله قاعة المدينة ،
وهذا أعجب جوانب مأساة سراجيفو .

ومن الممكن أن يقال إن القدر قد حذد مآل فرانسيس فرديناند وصوفى .
بمجرد دخولها المدينة . ولكن النهاية كانت مرتبطة بالظروف المواتية . وكانت .

عملية القتل تنطوي على حق مقرون بالتأمر القتال الذي يجمع بين تدير الفنيين بتنفيذ الهواة . وكان عدد القامئين على التنفيذ ستة من الشباب الذين لم يتدربوا . التدريب الكافي على ما عهد إليهم من عمل . وكان من المؤكد أنه إذا خابت بعض حلقات المؤامرة فالمحتمل أن واحدة منها على الأقل سوف تصيب الهدف . وقد كاد هذا الاحتمال أن يذهب سدى إلا إذا حدثت معجزة في اللحظة الأخيرة . وأما عدم حدوث المعجزة آخر الأمر فكان راجعاً إلى عامل مضاد كان هو الآخر محتملاً ومتوقعا . إنه الفوضى « التمسوية » التي كان فرانسيس فرديناند يمتتها .

وعند ما وصلت العربدة التي في المقدمة إلى الجسر اللاتيني - وله الآن اسم آخر - انحرفت إلى اليمين إلى ما كان يسمى حينذاك شارع فرانسيس فرديناند حسب البرنامج المعد للركب . ولم يخبر أحد السائق أن تغييراً قد حصل في سير المركب . وسار سائق الدوق في إثر السائق الأول ، ومع كل فقد كان الزوجان المملكيان بمنجاة من أى خطر لو لم يتدخل بوتيرك ليضع الأمور في نصابها .

وصاح في السائق قائلاً « ليس هذا هو الطريق أيها الأحق ، سر إلى الأمام » .

وتوقف السائق المرتبك لحظة ليتمكن من اتخاذ طريق مخالف لطريقه . وكان وقوفه على مسافة تزيد على مترين من شاب نحيف غائر العينين في التاسعة عشرة ، خرج في تلك اللحظة من مقهى ، مضى فيه بعض الوقت ، رغبة في تهدئة أعصابه . حيث قد اضطرب كل الاضطراب منذ نصف ساعة ، عندما ألقي صديقه كابرينوفك قنباته ، وأحس ألا أمل له بعد في الحياة . وكان معه مسدس محشو في جيبه ، لم يكن لديه أمل في قدرته على استعماله . ولو أن هذه الفرصة الثانية التي هيأها له القدر أخذت تتراقص أمام ناظره ، فإنه أخرج المسدس وتذكر تصويبه .

وكان من غير المحتمل أن يخطئ المرء ، وكان مدى الرماية أقل من عشر أقدام .
وإذ كانت صوفي معتدلة في جلستها لم يكن بين بندقية القاتل والدوق أى حائل .
كان واقفاً عند منحى الطريق إلى اليمين ، وكان هاراك واقفاً إلى يمين العربة .
يتدلى بجانبه سيفه عديم الفائدة . كانت الساعة حينذاك الحادية عشرة والربع .

أطلق القاتل طلقتين . أصابت الأولى فرانسيس فرديناند واخترقت صدره .
واستقرت في العمود الفقري . وكانت الثانية مصوبة إلى بوتورك وأصابت صوفي في .
بطنها ، وذلك إما لاضطراب يد القاتل وإما لأنها تحركت لتتق بجسمها زوجها .
وابتأ كلاهما بضعة ثون معتدين في جلستهما ، وقد ظن بوتورك أن القاتل لم
يصب الهدف عند ما حاول مجاوروه المحتشدون إمساكه وهو يصوب إلى رأسه
هو الرصاص . ولما اتجه السائق إلى الطريق الصحيح قفزت العربة إلى الأمام ،
وانهارت صوفي ووقعت على الدوق . وقد ظل هو معتدلاً ، ولكن سيلاً رقيقاً
من الدم القاتم لوث صدره واحتقن الدم على جانبي فمه .

وكان القتل — حتى هذه اللحظة — أشبه بالمأساة المزلية منه بالمأساة الحقيقية .
وكان فيه من السوقية والفوضى ما يرى عادة في حفلات اثيران . ولكن التربية
الصحيحة والحب كفيلاً بأن يزيل ما علق بالموقف من أضرار . لقد عاش
فرانسيس فرديناند وصوفي شوتيك حياتهما في بلاط لايهم إلا بالمظاهر البراقة في
عصر من أعظم عصور التاريخ اهتم ما بها . وكنهما بلغا في ساعة الموت قمة المجد
في مآسئهما الحزينة .

قال فرانسيس فرديناند لزوجته وهو يحاول أن يحتضنها وهي غير واعية ،
بينما كانت العربة مسرعة إلى قصر المحافظ « يا صوفي . يا صوفي . لا تموتى عيشي .
لأولادنا » ثم كان رده على سؤال وجهه إليه هاراك « إنه لا شيء » .

لقد كرر هذا الردست مرات في صوت متزن خافت « إنه لا شيء »
وهكذا كان .

ومنذ أكتوبر سنة ١٩١٨ كانت سراجيفو جزءاً من يوجوسلافيا، وهى الآن
عاصمة جمهورية بوسنة الشعبية اليوجوسلافية. والدارالى قتل أمامها الدوق وزوجته
جعلت متحفاً لتخليد ذكرى القتلة . وأمام المنحنى الذى وقفت عنده العربة يوجد
لوحة من الرخام الأسود على أعلى الجدران كتب عليه « هنا فى هذا المكان
التاريخى أصدر جافريلو برنسيب إعلان الحرية فى ذكرى فيدوفدان - يونية ١٥
(٢٨) سنة ١٩١٤ » .

وإذا ما فكرنا فى جميع أحداث العالم منذ تاريخ اغتيال الدوق ، نجد أن
الكلمة المكتوبة تم عن شعور محلى . ولكن التقدير الموجه إلى برنسيب
باعتباره وسيلة القدر ليس فيه شيء من الغلو .

ومن المناسب أن اللوح الرخامى ليس فيه إلا اسمه مجرداً عن كل نعت ،
وأن الجسر القديم المقام على نهر ملجا كما يسمى الآن جسر برنسيب . ولم يكن
هو مصوب الطلقات القاتلة فحسب ، ولكنه كان وهو طالب لا تتجاوز سنه
التاسعة عشرة الرئيس الروحى لمؤامرة القتل والقائد العام لعملية التنفيذ . ولم يكن
بطلاً شعبياً من أبطال البلقان فحسب ، بل كان أحد أبطال القرن العشرين . لقد
كان بعمله هذا رائداً لجيل كامل للمؤامرات وعصر من الاغتيالات .

وما قاله برنسيب فى محاكمته « أنا لست مجرماً لأنى قضيت على
رجل ضار » .

وكان برنسيب قوى الإرادة شجاعاً غير هيب ، وبهذه الصفات أصبح مثلاً فذاً للتعصب السياسى الذى نعرفه معرفة تامة .

وهذا الشاب الذى كان ابن أحد فلاحي هرزيجوفينا لم يكن يعرف فى شبابه إلا الفقر ، ومع هذا فقد كان منذ طفولته الباكرة متعطشاً للتعليم كأن به حى لا يبرئها إلا العلم .

وكان مريضاً وضعيفاً ، وقد حال مرضه - الذى قد يكون ذات الرئة - دون الانتظام فى المدرسة . ولكنه كان يقرأ بنهم شديد ، ونجح فى السنوات الدراسية إلا السنة النهائية فى بلجراد ، حيث النظام أقل صرامة منه فى النمسا . وألهبت الحياة الحرة فى بلجراد ثورته العارمة ضد الحكم النمساوى ، وانعكست فى قلبه إلى وطنية سلافية حلت محل عقيدته الأورثوذكسية التى تمخلى عنها ، وبذرت قراءته لباكوتين وكروتكين بنور البطش والتدمير . وأخذ يتصور أنه إرهابى محترف ، حتى إنه قام فى إحدى الأمسيات بزيارة سرية لقبر إرهابى بوسنى فى سراجيفو ليعد أمام قبره بالقيام بعمل مجيد مثله .

والنظرة الأولى إلى مؤامرة سراجيفو تدلنا - رغم نجاحها - على أنها أشبه شىء بمغامرة يقوم بها بعض طلبة المدارس انتهت آخر الأمر إلى مأساة . وكان عدد المتآمرين فى القتل ستة بما فيهم برنسيب نفسه . خمسة منهم من كروات الصربيين وواحد مسلم من البوسنة ، ولم تزد من أى واحد منهم على تسعة عشر عاماً . وكان أحدهم فى السابعة عشرة من عمره . ومنشأ هذه الجريمة نابع من خيال الشباب ، ويرجع إلى مايجرى فى مقاهى مؤسستين فى بلجراد حيث كان يجتمع من سبق فيه من الصربيين وقدامى العسكريين الذين شهدوا حرب البلقان ،

يديرهم بينهم أحداث السياسة والقتل ، ويشربون كثوساً صغيرة من القهوة التركية ، أو كثوس شراب السليفوقسى الصربي الحاد ، ليساعدهم على ازدياد ما هو أحد منه من البصل واللحم المجفف النىء . ومن بين رؤساء هاتين المؤسستين التشيطنيتين (اللتين لهما اتصال بهيئتين سرّيتين متنافستين) ثلاثة من شباب البوسنة المنفيين .

والواقع أنهم كانوا هارين من نظام الدراسة النمساوى ، وهم برنسيب وكابرينوفك الذى كان حينذاك موظفاً فى مؤسسة الطباعة الصربية ، والذى كان مكلفاً بإلقاء القنبلة على الدوق ، ونرفكو جرايز وهو ابن أحد أهالى البوسنة ، وكان فى الثامنة عشرة . وقد ملأ رؤوسهم تقدير البطولات من اتصالهم بقداى المتأمرين ، كما أثّرت حميتهم بما كان يقصه كل منهم على الآخرين حتى يتصوروا أنفسهم بعض القائمين بأعمال البطولة المجيدة كهؤلاء الأبطال الذين خلدوا بطولتهم على مدى الزمن فى مقاومة الحكم التركى .

ولما كانت البوسنة لم تعد خاضعة للحكم التركى ، فلا ريب أن المؤامرات لا بد أن توجه إلى الحكام النمساويين الظالمين .

ولم يكن لهم فى أول الأمر هدف واضح . وكانت المؤامرة - أية مؤامرة - هى ذاتها الهدف . وكان قرار قتل الدوق فكرة طارئة لم يفكروا فيها أول الأمر - على ما كان يعتقد الأولاد - أوحى بها قصاصة من صحيفة أعلنت عن زيارته لسراجيفو ، ووصلت إلى يد كابرينوفك فى فصل الربيع من سنة ١٩١٤ ، أو بعث بها إليه محرر لإحدى الصحف فى البوسنة ، لم يكتب اسمه .

وأمدتهم الأصدقاء من الأنصار الذين سبق اجتماعهم بهم فى المقهى بكل

ما يلزمهم لارتكاب الحادث من قنابل ومسدسات وقارورات السيانيد ، كما علموهم استعمالها . بل منحوا تذكاراً مخفضة للسفر بالسكة الحديد إلى حدود النمسا والمجر . ويبدو أن هناك من كان يفكر في كل شيء ، كما أعطوا خطابات توصية إلى بعض رجال الحرس الصربي من عشاق الحرية يسهلون لهم التسلل عائدين إلى البوسنة .

ولقد ألف الثلاثة الأصليون — قبل تنفيذ مهمتهم — هيئة سرية صغيرة وأصبح عددهم جميعاً سبعة عشر شخصاً . وكان لكثير منهم خبرة وعلاقة بالشئون السياسية بالبوسنة ، وكان للمنظم الأكبر لهذه الهيئة معلم غريب اسمه دانيلو ، كما كان المسئول عن اختيار أعضاء هذه الهيئة للمؤامرات ، ولكن الرماة المختارين للأعمال الهامة لم يكن لديهم الخبرة الكافية التي كانت لثلاثي بلغراد ، وكان أحدهم شاباً في السابعة عشرة ، راسب في امتحان الرياضة وانتهى تفكيره إلى أنه لم يبق أمامه إلا الانتحار ، فاشترك في المؤامرة لتكون الوسيلة إلى التخلص من حياته . واستلم السلاح قبل الموعد بيوم واحد ، وقصد بعد ذلك إلى مقبى لتناول أحد المربطات مع بعض أصحابه ، وأخذ يفخر أمامهم بالعمل الجريء الذي سوف يضطلع به ، ولم يعيروا كلامه أى اهتمام .

أما كابرينوفك فكان يسخر من سوء اختيار موعد الجريمة ، وكان ينسب له من الجبن ما منع إعطاءه مسدساً ، ولذلك لم يعط إلا قنبلة . وفي مساء اليوم المحدد لارتكاب الحادث قصد إلى المصور لرسم له صورته تذكراً منه لندريته ، ثم أرسل بعض الزهور إلى إحدى صديقاته مما أثار فزعها .

وعندما حان موعد ارتكاب الجريمة تصرف هؤلاء التلاميذ المتآمرون — فيما عدا يرسيب — التصرف المنتظر من أمثالهم ، وتصرف كابرينوفك على

الأقل آخر الأمر ، ولو أنه تصرف برعونة وبلا نتيجة . وثلاثة منهم اضطربوا وهربوا عند سماعهم صوت قنبلة الصغيرة . وانتظر جرايز لحظة ، ثم ولى مسرعاً إلى بيت عمه حيث خبأ قنبلاته تحت أحد المقاعد في حجرة النوم .

ولم يكن أحد منهم مسيطراً على أعصابه إلا برنسيب . وعندما رأى كابرينوفك مقبوضاً عليه فكر لحظة في أن يرميه بمقذوف ناري « حتى لا تزداد الأمور سوءاً » ثم يتبع ذلك بالانتحار . ولكنه تخلى عن فكرته عندما رأى عربة الدوق جادة في السير - أسرع من أن تصيها رصاصة أو قنبلة - وفشل كابرينوفك في إصابة سرماه . ثم إنه استدار لحظة وجيزة فيما يشبه الإغماء لا يدرى ما يعمل به بعد ذلك ، ثم شرب قهوته ثم وصل - كما ذكرنا من قبل - إلى نفس المكان الذي وقفت فيه العربة للملكية . وضربه الشرطة والجنود حتى أشرف على الموت ، وكسر أحد ضلوعه ، وهشمت إحدى ذراعيه حتى اضطرب إلى بترها .

وفي أثناء محاكمة المتآمرين - الذين قبض النمسيون على معظمهم - وقف برنسيب وهو أقوام شخصية وأرجحهم عقلاً ، وصاح في المحكمة معلناً في إيجاز أغراض المؤامرة « إن هدفي هو وحدة اليوجوسلافيين جميعاً في ظل أي نظام سياسي وتحريرهم من حكم النمسا » .

وسأله القاضي : « بأي الوسائل ترى الوصول إلى هدفك ذلك ؟ » وكان جوابه بلا تردد « بالأعمال الإرهابية » .

ونجا برنسيب من الحكم عليه بالإعدام لصغر سنه ، ونجا كذلك سائر المتآمرين ما عدا ستة منهم . وحكم عليه بالسجن عشرين عاماً مع الحكم بقيدن - كانت أحكام القرون الوسطى تتضمنها عادة - صيامه يوماً في كل شهر ، وحجسه حبساً منفرداً كل سنة يوم ذكرى ارتكابه الجريمة . وتوفى متأثراً بذات الرئة وسوء

للعاملة في سجن ذيرسينستاد في الثامن والعشرين من أبريل سنة ١٩١٨ . لم يمهله
القدر بضعة أشهر لا غير ليرى نتيجة الحرب العالمية التي سببتها جرمته .

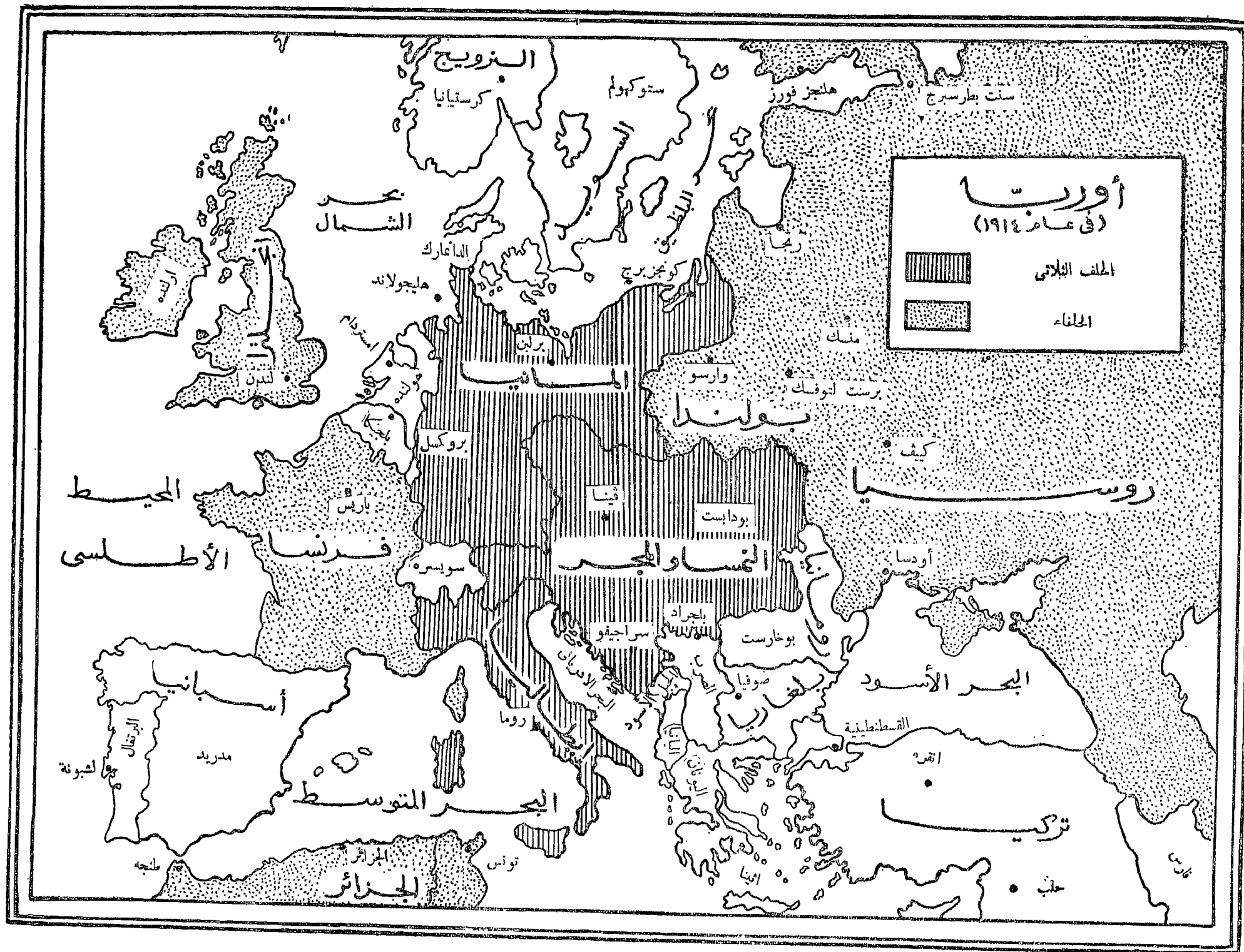
إذا أهينا من موقفنا في الوقت الحاضر نظرة إلى الوراء ، فإننا نرى بوضوح أن
الحرب العالمية الأولى جلبت للعالم - على حد تعبير المؤرخ البريطاني توينبي الصادق -
« عصرًا للمشاكل » لما تتخلص منه المدينة . وكل أزمت نصف القرن الأخير
نجد جذورها - سواء بطريق مباشر أو غير مباشر - في سنة ١٩١٤ وفي سراييفو .
في الحريين العالميتين والثورة البلشفية وسيادة هتلر وسقوطه والاضطراب الذي
لا ينقطع في الشرقي الأدنى والأقصى ، وتنازع القوى بين البلاد الاشتراكية
وبلادنا (عني البلاد الغربية) . ويمكن أن يعزى ٢٣.٠٠٠.٠٠٠ وفاة إلى أحد
هذه العوامل . وكل من بقي من قيد الحياة بعدها لا بد قد أصيب من جرائها
بإصابة أو بأخرى ولو من الناحية النفسية على أقل تقدير ، وهذا كله في غاية
الوضوح .

ولكن كيف أدت هذه الجريمة الرومانتيكية الذي ارتكبتها شاب متعصب
في التاسعة عشرة إلى كل هذه النتائج البعيدة المدى ؟ .

إن الرد السريع على هذا السؤال هو أن النموسيين اعتقدوا أن برنسيب
وزملاءه المتأسرين معه هم عملاء قوة حرية توسعية تمثل قوة ثورية وحرية تهدد
الإمبراطورية . ونحن على علم اليوم أن معظم الاتهامات التي بنى عليها الإنذار
الوحشي النموسي إلى الصرب بعد حادثة سراييفو لم تكن مبنية على أسباب
صحيحة ، ولو أن ما انتهى إليه علمنا من حوادث المؤامرات والإرهاب على مستواها
العالى - مما لم يخطر ببال الأجيال السابقة - يدلنا على أنه لا بد من وجود النار
وراء ذلك الدخان الذي نراه .

إن العامل الحقيقي الذى لا يفسر جريمة سر اجيقو فحسب ، بل ما ترتب عليها من تغيرات عنيفة ، كانت جذوره أعمق من التنافس بين الإمبريالية الروسية والإمبريالية النمساوية ، ومن المنافسة على السيادة البحرية بين إنجلترا وألمانيا ، ومن السباق الأوربي على التسليح . إن فرانسيس فريديناند وبرنسيب لا يمثلان المصالح القومية المتعارضة فحسب ، بل يمثلان نظامين اجتماعيين متعارضين ، يمثلان عصرين من عصور التاريخ ، ونموذجين للحياة الإنسانية لا يمكن أن يبقى أحدهما مع الآخر . بل كان كلاهما - فرانسيس وبرنسيب - ونحن أيضاً - على وجه ما - ضحية لاتجاه ثورى واحد ، هو اضمحلال وانهيار نظام الأسرات الملكية فى أوروبا والنظام الاجتماعى الذى يؤيده . وإذا أردنا أن نعبر عن ذلك فى كلمة عامة فإنه قصة تحطيم الأصنام^(١) فى القرن العشرين التى يحاول هذا الكتاب أن يقصها .

(١) استعمل المؤلف كلمة Götterdämmerung ومعناها غروب أو زوال الآلهة ، يقصد بها زوال الملوك الذين كنى عنهم بالآلهة .
(المترجم) .



في يوم الأحد الأخير من شهر يونيو سنة ١٩١٤، كان شاب أديب من مواليد فينا يقرأ أحد الكتب تحت شجرة القسطل في بادن عند نهاية فينار فالد، تلك الغابة المرتفعة التي يمتاز بها سهل نهر الدانوب، على مسيرة بضعة أميال جنوب العاصمة. وكان يضع كتابه جانباً بين القينة والقينة ليستمتع بالمناظر التي تحيط به، متعة مشوبة بالاستهزاء. ولا يخفى على الناقد البصير أن هذا المكان الذي تجري فيه المياه، كان أحد المناظر الساحرة التي بقيت من عصر سابق. وأما القيلات المقامة والحديقة المظلة التي كان يحلو لبتوفن أن يحوس خلالها، فقد كانت في منتهى البهاء. وكانت السماء في غاية الصفاء. والجو دفيئاً، ولكنه منعش، وكانت أسراب العذاري والمزوجات من الطبقة الناعمة في فينا يسمرن وهن يسنرن في ثيابهن البيضاء في الطرقات المزدانة بالأزهار. وكانت العربات تجري في الطرقات كذلك، بينما تومض الحلل النحاسية اللامعة المثبتة فيها تحت الشمس ومضات تشبه الإشارات الضوئية. وكانت الموسيقى تعزف في الكازينوهات عادية ولكنها تدل على عرفان للجميل الذي أسداه السلف الصالح.

وعلى حين غرة توقفت الموسيقى، فاستاء كل من كان بالقرب منها في المنطقة، واتقه الأديب ستيفان زيفانج - وكان يومئذ في الثلاثين - وكف عن القراءة، وأخذ الموسيقيون - كما وصف هذا المنظر في مذكراته - يجمعون آلاتهم ويتسللون منصرفين.

وتجمع المتنزهون في اضطراب حول المبنى يقرأون البلاغ لترسى عن حادثي القتل في سراجيفو أو يتناقشون فيه وهو معاق على أحد الأعمدة.

ولقد أثار شعوراً ما ، ولكنه كما لاحظ زفايج كان شعوراً قصيراً الأمد مصحوباً بحزن يكاد يوجب أدب اللياقة . ولم يترك زوال وريث عرش آل هابسبرج — الذى لم يكن متحلياً مطلقاً بالصفات الكريمة — أى إحساس بالحزن على الحرمان منه فى أى قلب من قلوب رعيته المستقبلية . ولم يكن هناك شك بطبيعة الحال فى أن ظروف الموت كانت مؤلمة ، ولكن حوادث القتل فى الأسرات الملكية لم تكن نادرة فى أوروبا قبل الحرب الكبرى . حتى لقد قال فرانسيس فرديناند نفسه منذ سنتين عند ما بلغته أخبار مقتل ملك البرتغال « إنهم يصطادونا كما تصاد العصافير من الأسقف » .

ولربما كان الإحساس بوقع الجريمة أبسط فى سائر أنحاء أوروبا . ولم تكن إذاعة الأخبار بين البلاد المختلفة فى ذلك الوقت أسرع من الرسائل التى تنقلها آلات البرق . وملاحق الصحف أيام الأحاد كانت حافلة بالأخبار الجادة ، التى كانت تعنى بها فى تلك الأيام .

وكما كانت الشمس مشرقة ترسل أشعتها فى سراجيفو على مظلة دوقة هوهنبرج ، فقد أرسلت أشعتها كذلك فى سائر أنحاء أوروبا على الجموع المتشددة الوداعة عدة أيام متتالية ، وستظل ترسل أشعتها على من بقى من الأوربيين ، بما ستذكره الأجيال القادمة على أنه أكثر فصول الصيف بهاء وسحراً .

وكانت ترسل أشعتها كذلك على رواد الحمامات فى ملابسهم المزركشة وهم راقلون فى استرخاء فى مقاهى المياه المعدنية بجانب الدانوب وعلى شواطئ الأدریاتيك ، وعلى الباريسيين الذين يتنزهون فى الغابات المجاورة . وعلى أهالى لندن الذين يتنزهون فى هايد بارك ، وعلى أصحاب قبعات القش فى حدائق الجعة المورقة ، وعلى أشعة السفن التى تمخر مياه الباطيق ، لقد كان اليوم عند معظم هذه الملايين من الناس يوماً صحواً من أوله إلى آخر لحظة فيه .

وأينما وصلت أخبار سراجيفو كانت تقابل بشيء من الجزع . إذ أن برميل البارود في البلقان كان عنواناً ثابتاً في الصحف ، ولكنها لم تكن نذيراً بأخطار متوقعة . وفي ميونخ كان أحد طلبة النحت الفاشلين — وقد قدم من فينا رغبة منه في الانتقال من حياة العدم التي كان فيها — هذا الطالب أحس باضطراب شديد في أعصابه المتعبة عند سماعه بالخبر ، ولكنه كان مضطرباً كذلك في فهم المعنى الذي يحمله ذلك الخبر .

وذكر هتلر في « كفاحي » عن هذه الحادثة « لقد ملئت رعباً خفياً من هذا الانتقام الذي لا تعرف نتيجته . فقد خراعظم صديق للسلافيين صريعاً رصاصات السلافيين المتعصبين » .

أما الرجل الثاني الذي أفاد من نفس هذه الرصاصات ، وهو فلاديمير إريك إليانوف الذي كان حينذاك في الرابعة والأربعين ، والذي كان يعرف في المنفى باسم لينين ، فقد كان أهدأ في تقديره ، ولو أنه لم يكن أصدق منه فحاشا . وبعد نظر .

ولما كان رئيساً للحزب الروسي المتطرف الذي كان أعضاؤه يسمون أنفسهم بالبلشفيين ، فقد كان بحكم عمله هذا ثائراً محترفاً .

ونظراً إلى أن شرطة القيصر لم يقدروا عمله تقديراً صحيحاً ، فقد ظل يزاول نشاطه طيلة أيام شبابه من قواعد خارج روسيا . وكان في ذلك الحين مقيماً في قرية نائية في جباليسيا المسوبة « وهي الآن جزء من بولندا » عند سفح جبال تاترا قريباً من الحدود الروسية . وعلم بمحادثة سراجيفو عند عودته من زهرة الأحد التي كان يقوم بها مع بعض المهاجرين الروس . وكان من العقائد الماركسية ، الأساسية ، أن الحرب لا محالة واقعة بين البلاد الرأسمالية ، وأن الثورة من آثارها

الختمية ، ولكن لينين كان يشك دائماً فيما يتوقعه أصحابه في أثناء أحاديثهم من وقوع الثورة ، وكان يحذر من بناء الآمال الكاذبة على اغتيال الدوق .

وكان لينين قد كتب قبل ذلك بسنة إلى أشد الكتاب تمسكاً بأرائهم — الكاتب الروسي ماكسيم جوركي — « من الصعب الاعتقاد بأن فرانسيس جوزيف ونقولا سوف يمنحانا تلك المتعة » ثم إنه أبدى بعد ذلك في اعتداده المألوف . بآرائه أن جريمة سراجيفو لم تنقض هذا الحكم الذى أصدره .

وبمثل هذا الاعتداد علق الجنرال روز لندن المحرر الحربى فى صحيفة الفييجارو على الحادثة بقوله « ليس هناك ما يوجب القلق » .

وقيل إن غليوم الثانى إمبراطور ألمانيا قال لبعض خواصه : « لا أتصور أن السيد العجوز (يعنى فرانسيس جوزيف) سيشن الحرب ، ولا شك أنه لا يشن حرباً بسبب الدوق فرانسيس فرديناند » .

وكان التعليق الذى ينطوى على مهارة سياسية على مقتل الدوق هو الذى قاله الأمير فون بيلوف مستشار القيصر السابق « إما أن يكون سبباً فى ارتباك وقلق ، وأما أن يكون سبباً فى اطمئنان وهدوء » .

أما أسى الكلمات التى قيات فى هذا المقام — على بساطتها وتعبيرها عن الإنسانية الخفة — ، فهى التى قالها جورج الخامس ملك بريطانيا فى مذكراته « ما أشد الوقع على الإمبراطور الكبير العزيز » .

ووصلت الأخبار إلى فرانسيس جوزيف نفسه وهو جالس فى مصيفه فى باداشل ، حيث يلتقى الصفوة من أهل فينا حول مياهه . فقد دعى إلى المسرة الكونت إدوارد بار ياوره البالغ من العمر السابعة والسبعين — وذلك لأن الإمبراطور لم

يُسمح بمثل آلة المسرة في مكتبه - وتلقى الرسالة من سراجيفو كتابة كما تقضى بذلك التعليقات القائمة ، ثم عاد الشيخ وهو يلهث وقد غلبه التأثر حتى أعجزه عن الكلام ، ووضع الورقة بيد مرتعدة أمام سيده الإمبراطور الذي خدمه وأحبه طيلة نصف قرن . وظل فرانسيس جوزيف جالساً دون أدنى حركة ، وأطبق عينيه وهو الذي تلقى من القدر إبان عمره المديد البالغ أربعة وثمانين عاماً كثيراً من أمثال هذه الطعنة النجلاء ، وكأنما أفقدته وعيه هذه الطعنة الأخيرة . حتى إذا تكلم أخيراً لم يكن الأسى على فقد ابن أخيه الذي كان يكرمه هو الذي جعله يتكلم بصوت أجش ، ولكنه كان الجزع من القدر الذي جازى الأسرة على خطيئة فرانسيس قرديناند لزواجه غير المتكافئ ، وبما الوصمة من سلالة الأسرة الجيدة .

وتتم الإمبراطور كأنما كان يحدث نفسه ، ولا يحدث يار . « هذا فظيع ، إن الله العلى لا يرضى أن يتحداه أحد دون أن ينال جزاءه ، لقد استطاعت القدرة السماوية العليا أن تعيد النظام الذي عجزت لسوء الحظ أن أكون له سنداً . »

وليس هناك تعبير أدل من هذا على الهوة بين عقلية عهدين - بين عقلية جيلنا الذي يتسم بالسهاد السياسى ، وعقلية جيل من الغافلين الذين تعثروا دون أى وعى على صبغة القدر في صيف سنة ١٩١٤ ، الذي كان يرفرف عليه السلام .

ولما نظر ونسحق تشرشل إلى الوراء - إلى العشرين سنة التي عانتها أوروبا قبل الحرب ، والتي كان من أبرز الناجين منها - رسم بخطوط حية واضحة صورة جارعة لتلك الأيام الماضية القريبة منا في حساب الزمن ، البعيدة عنا في الأحوال والأمنجة . فقال في « أزمة العالم » .. « قامت الأمم والإمبراطوريات في عظمة وكبرياء

في كل جانب ، وعلى رأس كل منها الأمراء والحكام ، تنوفل في الثراء العريض ، الذي كان نتيجة عهد السلم الطويل . وكأما كان كل شيء مثبتاً في اطمئنان في دعامة ضخمة . ووقف النظامان الأوربيان الكبيران كل منهما في عتاده الحربي في بريق . يعنى العيون ، وصليل يصم الأذان ، ينظر كل منهما إلى الآخر مع ذلك نظرة هادئة . وكانت السياسة الحكيمة الحازمة الرزينة - التي تنطوى على الإخلاص - غالباً - هي التي تنسج العلاقات بين الطرفين . ولكن كلة في رسالة أو ملحوظة يبيديها سفير ، أو عبارة غامضة ملتوية في أحد مجالس النواب ، أى شيء من هذا ، كان كافياً أن يقلب النظام القائم في يوم أو بعض يوم . . إن هذا العالم القديم - في أفول شمس - كان يستحق المشاهدة .

ويجب مع ذلك أن نقدر ما في بيان تشرشل من سحر . إذ لم يكن منظر الغروب جميلاً في كل الأعين أو من كل زوايا النظر كما ذكر تشرشل ، كما لم تكن السياسة في ذلك العهد تنطوى على الإخلاص الذي كان يحاله ، وهذا ما سنبينه فيما يلي :

أما في تأكيد أهمية النظام الملكي في أوروبا قبل الحرب ، فإن السياسى البريطانى . لم يكن مغالياً . فقد كان للأمراء والحكام السلطة في الواقع - إن لم تكن . مظاهر العظمة - في الأحوال السياسية والاجتماعية في جميع البلاد التي كانت في ذلك الوقت مركز العالم المتمدين . وفي السنوات العشر الأولى من القرن العشرين . كان النظام الملكي الأرستقراطى الذى يسود المجتمع يعتمد على وجود ملاك يستمد سلطانه من السماء ، وعلى نخبة من الحكام المختارين غالباً من الطبقة الأرستقراطية ، التي تنوهم أنها زالت يزوال القرن الثامن عشر ، وهذا النظام لم يظال سائداً فحسب .

فى ظل الديمقراطية الوطنية مع تأثيره بالحركات القومية أو الجماعية الناشئة ، ولكنه كان فى كثير من أنحاء العالم متغلباً على النظام الذى سيخلفه .

إن مارى أنتوانيت لم تكن هى التى قالت ليلة قيام الثورة الفرنسية ، بل هو نقولا الثانى الذى قال ليلة قيام الثورة الروسية دون أن يعبأ بما أنذره به صديق من الدبلوماسيين « هل تعنى أن على أن أكسب ثقة شعبي أيها السفير أم هم الذين يحاولون كسب ثقى »

والدنيا الجديدة — إذا ما نظرنا إلى الجانب الظاهر من الدول الدكتاتورية فى أمريكا اللاتينية — كانت فى الأعم الأغلب ديمقراطية وجمهورية . وكذلك كانت فرنسا والبرتغال (بعد ١٩١٠) ، وسويسرا وأندورا وسان مارينو . وكانت بريطانيا وبلجيكا ولكسمبرج والدولتان الإسكندنافيتان — كما هى الآن — دولا نيابية ديمقراطية ، وإن لم تنبغ حينذاك ديمقراطيتها ما بلغت الآن من الناحية الاجتماعية .

وحتى إدوارد السابع ملك إنجلترا اللين العريكة لم ينس يوماً ما دمه الملكى الذى جعله فى عزلة عن سائر الخلق ، وأيام أن كان ولياً للعهد كما تقول فرجينيا كولز فى كتابها « إدوارد السابع وصحابه » قدم فى حفل راقص على ولي عهد ألمانيا أحد حكام البحار الجنوبية — كالاكوا ملك جزائر الكانيبال . ثم فسر إدوارد الموقف للألمان الغاضبين بأن قال لهم « إما أن يكون هذا الحيوان ملكاً وإما أن يكون عبداً أسود . فإذا لم يكن ملكاً فلماذا إذن يحتل مكاناً له هباً » .

وفى سائر الأقطار الأخرى القارتين الأوربية الآسيوية — لم يكن الملوك والأباطرة

يملكون فحسب ، بل ويحكمون أيضاً. وفيما بين جبال الفوج إلى فلاديسفتك ، وبين التجمد الشمالى إلى الخليج العربى باستثناء المناطق الزراعية البلقانية الثائرة كانوا يحكمون على نحو ما كان يحكم أسلافهم ، مستمدين سلطانهم من الحق الإلهى . وإذا ما خفت وطأة استبدادهم فلا تنحف إلا قليلا لما يكون فيها من دساتير إسمية وبرلمانات ضعيفة يسهل التأثير فيها . وظلت مبادئ الحكم المطلق قائمة قوية فى بعض أنحاء أوروبا حتى وقع الصراع الكبير ، وذلك بفضل من أيدىها من محبذى النظام الاستبدادى الحديث .

وقد كتب غليوم الثانى إمبراطور ألمانيا إلى ابن عمه قولا الثانى إمبراطور روسيا يحذره من خطر التحالف مع فرنسا الجمهورية قتالة الملوك : « ثنى أن لعنة الله شديدة الوطأة على هذه الأمة . إن السماء قد عهدت إلينا — نحن الملوك — بالباطرة المسيحيين — بواجب مقدس أن تؤيد نظرية الحق الإلهى الذى يعتمد عليه الملوك » .

ومع هذا فقد كانت ألمانيا الصناعية فى ذلك الوقت فى مقدمة الدول العظمى ثقافياً واجتماعياً ، وكان غليوم نفسه ممثلاً متقدماً بدرجة لا مثيل لها للأسرات الإمبراطورية التى كانت دعامة نظام الحكم التقليدى فى أوروبا ، وكانت عدتها ألدبعا : أسرة هوهنزولرن فى ألمانيا وكان تحت حكمها حينذاك الأكراس واللورين وجزء من بولندا . وأسرة هابسبرج فى النمسا والمجر وفيها مجموعة متباينة من الشعوب والأجناس التى تخضع لها من سويسرا إلى ما وراء جبال الكربات ، ومن جبال بافاريا إلى البحر الإدياتيكي ، وكانت تشمل دولة تشيكوسلوفاكيا الحالية وجزءاً من يوجوسلافيا . وأسرة رومانوف فى روسيا وكانت تشمل بولندا وفنلندا . والعثمانيون فى الإمبراطورية التركية ، وكانت تشمل — غير تركيا الحديثة —

سوريا وفلسطين وبلاد العرب والعراق ، كما كانت تشمل إلى سنة ١٩١٢ ليبيا والأجزاء المهمة من تراقيا ومقدونيا. والإمبراطوريات التي تحكمها هذه الأسرات كانت تخضع لها معظم قوى القارة الحربية والاقتصادية ، وكانوا يحكمون فيما بينهم حوالى ٤٠٠.٠٠٠.٠٠٠ من الرعايا متعددى الأجناس ، وكان بعض هؤلاء يتمتعون بالاستقلال كالتيشيك والبولنديين والفنلنديين.

ويحيط بهذه الإمبراطوريات أسرات أقل مكانة من تلك فى جنوب أوروبا وجنوبها الشرق ذات ولاء لها كثير التحول والتغيير : فى إسبانيا وإيطاليا والصرب وألبانيا والجلبل الأسود ورومانيا وبلغاريا واليونان. وكانت إيطاليا مرتبطة بالنمسا والمجر وألمانيا بالتحالف الثلاثى بينما ترتبط رومانيا وتركيا برباط وثيق مع هذه المجموعة من دول وسط أوروبا . بينما كانت ألبانيا — بعد سنة ١٩١٣ — وبلغاريا — وهما فى الأصل تتجهان إلى روسيا — ترتبطان برباط غير وثيق . وكانت الصرب والجلبل الأسود عميلتين لروسيا حليفة فرنسا . وكانت اليونان يتجاذبها نفوذان متنافسان من ألمانيا وبريطانيا ، شأنها فى ذلك شأن إسبانيا تماما . وفى داخل هذه الدول نفسها كان للملوك سلطان على مجموعات التابعين من الأمراء والدوقات ورؤساء القبائل والبارونات ومن دونهم من الأشراف (وفى ألمانيا كان النظام الإمبراطورى الإقطاعى يشمل ما لا يقل عن اثنتين وعشرين أسرة حاکمة منها الأميران الملكيتان فى بافاريا وسكسونيا) ، ولقد نزل الأمراء فى أكثر الدول مدنية عن حقوقهم الإقطاعية إلى الحكومة المركزية ، ولكن فى معظم هذه الدول بقى ساطانهم الاجتماعى عظيما وكذلك المزايا التى تنجم عنه من الناحية العملية . وفى مستهل القرن التاسع عشر عندما قامت الأرستقراطية الصناعية الحديثة التى يمثلها الأمراء البورجوازية مثل أسرة كروب كما يمثلها الطبقة البيروقراطية التى كانت فيما مضى تتحدى طبقة النبلاء القديمة — حدث وفاق من الجانبين .

وتحول التنافس إلى مشاركة، وهذه المشاركة أدت إلى الامتزاج بينهما. وكلا الفريقين أفادوا مادياً من الحالة الجديدة، ولكن اتضح أن كليهما خسر خسارة كبرى من الناحية الأدبية. ونزل طبقة النبلاء إلى المستوى الاجتماعي لرواد المقاهي، والنبلاء حديثو النعمة - وقد بهرتهم مظاهر السيادة التي تنعم بها الأرستقراطية - انغمسوا في رذائل هذه الطبقة وأخذوا يحاكون استعلاء ذوى الأنساب العريقة، ونسوا تلك الصفات العالية التي شددت من عزائم آبائهم في ثورة ١٨٤٨ وعزائم أجدادهم في ثورة سنة ١٧٨٩. وغطرتهم الناتجة من الثراء زادت بدلا من أن تحد من فخارهم بعراقة النسب، كما ضاعفت بذاءة حديثي النعمة من وقاحة عباد أصحاب الألقاب. وفي الوقت الذي قويت فيه الدوافع لرفعة بعض الطبقات من الحضيض، كانت الطبقات الحاكمة في أوروبا التي تؤيد نظام الأسرات القديم - ويؤيدها هذا النظام - لا تستمسك بالاعتقاد القديم وهو أن الفروق بين الطبقات من النظم الإلهية فحسب، بل كانت تمحذو حذو الملوك في ذلك العهد في إنكار التفكير الحديث الذي جاء به أمثال نيتشه من العلماء زيادة في رفع مكانتهم الخاصة. لقد كانت لهذه الأحوال نتائج في منتهى الغرابة. فمثلاً عندما غرقت تيتانك - وكانت فخر البحار في القرن العشرين - بسبب اصطدامها بأحد جبال الثلج في المحيط الأطلنطي، نجما معظم ركاب الدرجة الأولى من الرجال والنساء والأطفال في سفن النجاة التي كان فيها متسع لكثير غيرهم، ولكن ٥٣ طفلاً من ركاب الدرجة الثالثة غرقوا مع السفينة الغارقة - عدا آبائهم. قال أحد الناجين فيما بعد « لقد أيقنت أن الحالة في منتهى الخطورة عندما رأيت أحد ركاب الدرجة الثالثة في سطح السفينة. الخاص بركاب الدرجة الأولى ».

ولم يعترف جيل آبائنا بالمزايا الطبقية التي نعتها مضحكة أو منافية للإنسانية. فحسب، بل كانوا أدق منا نظراً في رؤية الحدود الاجتماعية التي تفصل بين الطبقات..

وكان المجتمع الأوربي قبل الحرب مقسماً إلى درجات : الدرجة الأولى والدرجة الثانية والدرجة الثالثة مثل ركاب سفن الملاحة .

ويقول كورنبرج الذى كتب تاريخ حياة غليوم الثانى والذى كان أحد ضباط الجيش النابيهين . « كان من الضرورى لكى يصبح الإنسان ضابطاً بالجيش . الروسى أن يدل على عراقة نسبه . وكان يكفى أن يكون الأب صاحب حانوت . ليحول دون ذلك . ولقد كان فى وسع الرجل الطموح أن يصبح مستشاراً تجارياً أو عضواً فى مجلس البلاط . بل قد يحصل على لقب فون « von » . أما أن يكون ملازماً احتياطياً فلم يكن بمثل هذه السهولة » . ولقد بلغ النظام الطبقي آخر مداه فى النمسا والمجر ، حيث كانت الطبقة الحاكمة مقسمة إلى المجتمع الأول والمجتمع الثانى . وكان الأول منهما مقصوراً على النبلاء القدامى ، والثانى يشمل الصفوة من المالىين والإداريين والعلماء والأرستقراطية الحديثة . ومما يدل على استمساك النموسيين بالنظام الاجتماعى تلك الألقاب الفخرية وصفات الشرف التى لا تزال باقية إلى الوقت الحاضر . ويذكر ابن سيجموند فرويد أنه عندما كان فى خدمة الجيش النموسى قبل الحرب - وكان يسمح له بوصفه هذا أن يتخذ له مسكناً خاصاً فى فينا - أنه أبلغ خادمة المسكن أنه فى انتظار زائرة تشرب الشاي . معه . وكان جوابها « أى نعم أيها المتطوع لسنة كاملة . سأضع غطاء نظيفاً على الفراش » .

وهذا الاستقرار الاجتماعى بما يصحبه من تدرج فى الطبقات كان له - بطبيعة الحال - من المزايا ما يعادل ما له من مساوئ * . فإن الاطمئنان - أو على الأقل تصور الاطمئنان - الذى كان يشعر به معظم الناس فى أوروبا قبل الحرب - باستثناء أوفر الطبقات وبعض الأقليات سيئة الحظ أحقاباً طويلة كاليهود فى روسيا والأرمن فى تركيا - لا نكاد نحس به فى جيلنا الحاضر القلق .

والعالم القديم الذى رآه تشرشل إيان مجده الغارب كان له سحره الذى
 تلا ينكر . كما له كان أيضاً جوانب أقل بهاء وسحراً . والحاجة إلى الأعمال
 البراقة الحية التى تدعم أسلوب الحياة الذى كان يبدو غريباً لعدد متزايد من
 الناس منحت المجتمع مظهراً براقاً . وكانت العشرون سنة السابقة لسنة ١٩١٤
 هى الحقبة التى وصل الاستهلاك فيها إلى قمته . إنها كانت حقبة طرائف
 المأكولات النادرة . وكانت حقبة السلم الطويلة بما صحبها من الثراء الضخم
 والأعمال الاقتصادية المتزايدة ، كانت دعامة قوية للمظاهر المدنية والمتعة الشخصية .
 وكانت التحف الأثرية وأنماط اللباس هى التى كانت قبلة أصحاب الثراء ، وكان
 الاتجاه إلى الأولى من آثار الفن الحديث الذى تشعبت به « المودة الحديثة »
 تدريجاً . وأما الثانية ونعنى بها أنماط اللباس فكان بعض الفضل فيها راجعاً إلى
 بول بواريه « ترزى » باريس الجرىء الذى خلص النساء من الأحزمة ، وإلى إدوارد
 السابع الذى ابتدع زياً رشيقياً سهلاً يناسب رياضته . المحبة وأدخله فى زى
 الرجال .

وكان إدوارد منغمساً فى عدة أنواع من الرياضة الخلوية كالسباق والصيد
 والقفز فى بساتين مارينباد حيث يتمتع بمياها المعدنية كل عام فى أثناء الصيف .
 ولربما كان يخطئ بأعظم متعة فى مطعم ماكسيم فى باريس ، وكان يعد فى رأى
 ابن عمه ليولد ملك بلجيكا ، وفى رأى سائر المترددين على المكان من ذوى
 الدماء الزرقاء — كان يعد خيراً فى أصناف الأطعمة وفى النساء ذوات الدل
 البعيدات النال ، التى كن فى نظر المجتمع إذ ذاك نموذج الجنس اللطيف . وقد
 أرسل إدوارد مرة إلى إحدى هؤلاء الحسنات — إلى أوتيرو الحسناء — دعوة
 تمتاز حقاً بالإيجاز المسمى ، وجعل موعد اللقاء الساعة الخامسة كما تتيه عقارب
 الساعة المثبتة عليها . وقبلت الدعوة ، وكان جزاؤها رحلة لصيد البط عند

ساحل القنال الإنجليزى مما أثار اشمئزازها .

وكان للتقدم العلمى والكشوف التكنولوجية وبخاصة فى أوائل القرن أثر فى الحالة السائدة . ومن الجائز أنه لم يكن لنظرية النسبية التى كشفها أينشتاين الرياضى الألمانى الشاب (نشرت سنة ١٩٠٥) أية أهمية من الناحية العملية . ولكن نقرأ من العلماء المتمازين الذين استطاعوا تطبيق نظرياتهم كانوا رواداً للمدينة الحديثة ، وكان أشهر علماء ذلك العصر من ذوى الجهود المختلفة فرويد وماركونى مكتشف اللاسلكى ولويس باريو ، الذى حاول القيام برحلة جوية دون توقف عبر القنال الإنجليزى فى إحدى الطائرات التى وضع تصميمها إخوان رايت ، وبول إيرلينج الكيمائى النسوى الذى اكتشف دواء السافرمان ، وهو أنجح دواء لعلاج الزهري سنة ١٩١٠ ، إلا أنه جاء متأخراً فلم يستطع شفاء أشهر عمال ذلك العهد من أخطارهم المهنية . (ولقد دفع الدوق أتو النسوى — الذى كانت إحدى مغامراته أنه قفز من مطعم ساشى فى أثناء مرور إحدى النبيلات الإنجليزيات لا يستر جسمه أى لباس إلا الحزام الذى يتدلى منه سيفه — ثمن الإثم الذى ارتكبه ، بأن اضطر إلى وضع أنف من الجلد يظهر به فى الحفلات العامة) .

والحياة العلمية والفنية فى ذلك العهد كانت نشيطة كذلك وبخاصة لدى الشباب العقلاء الشجعان . وكان يرضى شباب لندن وباريس وفينا ألا يعبأوا بالشيوخ فى ذلك الوقت ، فيشربون الكوكتيل عندما عرف استعماله فى ملاعب التنس .

ولكن كان الشباب الأرستقراطى الأذكياء — الأغنياء — كأصحاب السيدة ديانا كوبر يتمتعون بما هو أندر من ذلك من وسائل اللهو . كانوا يرتجفون من النقد الاجتماعى اللاذع الذى كان يقوم به أمثال شو وويلز ، ولكنهم

كانوا يرحبون بالفرن الأدبي المستحدث الذى حمل لواء مريلاك وريمبو السكاتبان الفرنسيان - صاحباً النفوذ العظيم ، ودياجيليف وستراوس وشونبرج وكادوا أن يصابوا بالإغماء . عندما همت أزدورا دنكان بخلع لباسها ذى الطراز اليونانى الحديث عندما غنت : فى حفلاتها الراقصة فى الأكروبوليس .

ومما كتبه السيدة ديانا فى مذكراتها « لقد كان هناك نظرة حديثة إلى كل شئ فى هذه السنوات الأخيرة التى سبقت الحرب الأولى ، وقد أحسنا بها وخطينا بها » .

ومع هذا فلم تكن المتعة باعثة للمرح دائماً حتى عند أكثر الناس يساراً . ولقد أخذ الشعور بالتفاؤل والأمل الذى خلفته الحقبة الأخيرة من القرن الماضى يفقد قوته . وعند ما زادت النذر وزادت حدة الخلافات الاجتماعية والسياسية ، وعندما أخذت سحب الحرب تتجمع فى سماء البلقان ، وعند ما هوت التيتانك — التى تمحلت الفرق — عند الغروب فى البحار الشمالية بينما تتلألأ أنوارها وتوقع فرقها للموسيقية أنغام القربى إلى السماء . أخذ الشك والتشاؤم ينفذان بخطى سريعة إلى المحيط الحضارى . وهذا العصر رآه البعض إلى آخر لحظة فيه ، عصر النضارة والربيع فى تاريخ العالم ، والشباب فيه هو النعيم بعينه . بينما يراه البعض الآخر من جميع الأسنان ، أنه هو الجحيم بعينه .

وهذا العصر — كغيره من عصور التغير والانتقال — مملوء بالمتناقضات . حظى فيه ألوف الألوف من الناس برخاء لا عهد لهم به ، وعاش ألوف الألوف فى بؤس لا مثيل له . لقد ازدهر النوق الجليل ولكن ازدهرت كذلك السوقية الغليظة التى يعجب بها الطباقون والملاوك .

وكان فى الجو أصوات تفرع الأسماع فى الصباح وخول فى نصف الليل .

هو كان النظام الاجتماعى متماسكاً بشدة ولكنه كان عرضة لهزات عنيفة قاتلة .
والثوريون الذين تنطوى قلوبهم على القتل كانوا مختلفين فى أحواض الزهور ،
والإرهابيون المعارضون فى - زى الشرطة - يقتفون آثارهم من وراء . من مثل
هذه المتناقضات كانت تنسج أ كفان هذا العالم القديم . وكانت ظاهرة للعيان
فى أوروبا فى كل مكان ، ولكنها أشد وضوحاً وأزهى لوناً فى فينا .

وكلنا يعرف معنى السلام ، ولكن من العسير على أى فرد منا فى عصرنا
الحاضر أن يتصور السلام الطويل الذى حظى به آبائنا فى رخاء ووفرة . وعندما
وقعت حادثة سراييفو لم تكن أية حرب قد قامت فى أوروبا منذ الحرب الألمانية
الفرنسية سنة ١٨٧٠ أى منذ ثلاثين سنة قبلها . وفى الدولة النمساوية التى لم تنتصر
فى أية حرب منذ سنة ١٨٤٨ ، ولم تشارك فى أية حرب منذ سنة ١٨٦٦ عندما قهر
الجيش الألمانى بسرعة كبيرة ووحشية شديدة جيشها ، لم يشارك النمساويون من
رعايا فرانسيس جوزيف الذين يبلغون الخمسين من عمرهم فى أية حرب طول حياتهم
ولم يتخذوا لهم من أية دولة من الدول عدواً لهم . وهذا الشعور قد يكون من
مميزات أهل فينا بصفة خاصة . وفى سنة ١٦٨٣ قدمت فينا خدمة جليلة للمسيحية
عندما قاومت الحصار التركى المضروب عليها ، والذى - لولا نجاح النمسا فيه -
ل تعرضت أوروبا جميعها إلى غزو أصحاب هذا الدين المخالف لدينهم : إن فينا تذكر هذا
النصر بشيء من الفخر .

ولكن الحدث الذى علق بهذا كره كل أهالى فينا والذى يستحق التسجيل
هو الذى وقع بعد انسحاب الأتراك عندما التقط أحد الجنود البولنديين الأذكياء
فى ميدان المعركة كيدساً به بعض البذور السمراء ذات الرائحة الذكية لاعهد للغرب
بها من قبل . ولا يزال على حائط إحدى المقاهى التى أقامها البولندى لوحة من
البرونز تخلد ذكرى تلك الحادثة .

وعلى أساس هذه السعادة الحائلة التي آتت بها البولندي مواطنيه، ابتدع أهالي.
 فينا على مدى الزمان فناً في أسلوب الحياة ، بل ابتدعوا في الواقع أسلوباً كاملاً
 للحياة . إن العلاقات الطيبة التي كانت قائمة بين رواد مقاهي فينا قبل سنة ١٩١٤
 لا يمكن أن تزدهر إلا إذا ساد العالم السلام . والسلام نفسه في نظر أهل فينا وفي
 نظر معظم الأوربيين في ذلك الوقت لا يمكن أن يتذوقه إلا من يقيم في جو من
 الاطمئنان والسكينة له حلاوة سائغة وفيه خير كثير .

والسلام في الدولة النمسية (gemütlich) تلك الخاصية النمسية يعني الدعة
 والجمال والتعاطف مجتمعة، بل كان يعني فوق ذلك المرح والنشاط . ولم يكن الجو
 الرومانتيكي الذي يحسه النمسيون والذي لا يزال في نظمهم الغاربة أثراً من آثار
 مجدهم الحقيقي أو الوهمي، بقدر ما كان أثراً لحالة السلام في النمسا وفي أوروبا، التي كان
 للنمسيين فضل استقراره حوالي خمسين سنة . وكان منظر الفرسان الذين يمتحلون
 برشاقة في كثير من الأوبرات في العاصمة النمسية كان فيه من الحماقة، لأن الحرب
 أصبحت أمراً يدل على الحماقة ، وهذه الحماقة جعلت من الفرسان مناظر للجلبة
 والمرح للنظارة . ولو نظرنا نحن إلى الوراء رأينا أن الحياة المطمئنة التي كانت في
 أوروبا قبل الحرب أشبه شيء بالموكب الجنائزي على حافة الهاوية ، وإن لم يكن
 شيئاً من ذلك بتاتا لمن كانوا يقيمون هذه الحياة . ولم يبق الناس حينذاك أنفسهم
 في معمة المسرات لينسوا همومهم . إنهم كانوا يرقصون تعبيراً عن شعورهم
 بالحياة الرعدة التي كانوا يقيمونها ، وإظهاراً لوحدهم . إن المجتمع الذي يكون
 فيه الرضى طابع الحياة - الأمر الوحيد الذي كان طابع هذا العصر - لا بد أن
 يكون المرح فيه هو النظام العام .

والواقع كان هذا النظام مرعياً في فينا أكثر من غيرها . وقد قدر رجال
 الإحصاء أن بين كل ثلاثة مواليد في العاصمة النمسية قبل الحرب مولوداً غير

شرعى . وهذه الحقيقة الإحصائية نتيجة لجملة عوامل مجتمعة : منها تدهور الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الإمبراطورية ، والفوضى النسوية ، وفوق ذلك الإجراءات الرسمية المتصلة بالزواج والطلاق التي كان يرى فيها رعية الإمبراطور عبثاً ثقيلاً عليهم . ومن الخطأ أن نستنتج من هذه الحقائق أن فينا كانت مدينة فيها إباحية مطلقة ، ولكنها كانت بلا ريب في رغد من العيش .

وكان أهالى فينا بوجه عام رغم نظرتهم التقاليدية إلى الحياة مولعين بأسباب السرور البسيطة من طعام وشراب ومغازلة ورقص . وكان الرقص وبخاصة رقص الفالس هو الذى يأمر قلوبهم . وكان أشرف المدينة الذين تبخرت ثروتهم يحبون مزارعهم طول العام يقيمون حفلات الرقص يميونها حتى مطلع الفجر ، وكانت هذه هى مسرح الحياة الاجتماعية فى العاصمة . وكانت صالات الرقص العامة ذخرة دائماً تقريباً بالراقصين من الطبقات الدنيا ، وكان فى أحد هذه المراقص — وكان يزعم أنه أكبر مراقص أوروبا — حجرة حضانة خاصة معدة لراحة المشرفات من النساء . وحتى بعد انقضاء عهد المجون فى فينا كان الأهالى قانعين بالدوران فى مقاعدهم الحمراء فى الأرجوحة الكبرى التى تسبح فى الهواء . وقد أقيمت هذه تخليداً لذكرى السنة الخمسين من حكم فرانسيس جوزيف وتقديراً من الأهالى لحبهم الشديد للإمبراطور . وظلت تدور دون كلال معبرة عن فخرهم وسرورهم عندما يستمتعون بالنظر إلى مدينتهم المحبوبة .

ولم يكن لدى الطبقة العليا والثراء من أهالى فينا — كما لم يكن لدى أمثالهم فى سائر العواصم الأوروبية — ذلك الشعور الخاطى الذى يمنع من إذاعة ما ينعمون به على من هم أقل منهم حظاً فى عيشتهم الرغدة . ولقد عبر عن ذلك الكاتب جيمس ليفر فى كتابه الممتع « رحلة إدوارد » قال : « لعل العصر (م ٤ - الأسرة)

الإدواردى هو آخر عصر فى التاريخ يزعم السعداء فيه أن فى وسعهم إسعاد المحرومين بنشر سعادتهم أمام عيونهم .

ولقد كان الإفراط فى اللهو إحدى الوسائل التى كانت تفيد منها الطبقة المحظوظة فائدين : تقوية الروح المعنوية لدى الطبقة الدنيا ، وتقوية مكانتهم بينهم . ويصف لوردهاملتون السفير البريطانى فى فينا قبل الحرب حفلة رقص فى قصر أحد كبار الأرستقراطيين قائلاً :

« لقد كان من عادة الأمير س فى مثل هذه المناسبات أن يأمر بمجىء ثلاثمائة شاب من فلاحي مزارعه وارتدائهم ملابس خدم الأسرة . وكان على هؤلاء الشبان القرويين بمنظرهم العجيب فى سراويلهم وجواربهم الغريبة ، أن يقفوا بلا أدنى حركة على جميع درج السلم » .

« وأخف من هذا فى نزعتة الإقطاعية وإن كان لا يقل عنه نفقة، ذلك » الغداء الفينيسى الذى أقامه أحد الثروة البريطانيين فى فندق سافوى بلندن حيث جعل المائدة فى قارب طويل بناه لهذا الغرض ، أرسى إلى أحد جوانب فناء الفندق الذى ملئ بالماء ، بينما كان يسبح بجانبه قوارب صغرى وعدد من البجع . وفى ذلك الوقت بلغ سرور الكتائب الاجتماعيين غايته بالحفل الراقص الذى أقامه بول بواريه فى فندقه الخاص عند فو بورج سانت أنوريه . وقد تحول بهذه المناسبة إلى أحد قصور ألف ليلة يحرسه الزنوج والمغاربة ، وأجسامهم تكاد أن تكون عارية ، وكان من أسباب البهجة فى الحفل ما كان بها من البجع والقرودة ، ومن البيغاوات على الأشجار تلك التى كانت تتدلى منها ثماردا المضاءة .

والملبس كان بطبيعة الحال من أهم المظاهر . وكان ارتداء اللباس المناسب فى الوقت المناسب فى المكان المناسب أهم مقتضيات ذلك العصر .

ولقد كان منتظراً من أحد المدعوين إلى قضاء عطلة الأسبوع مع بعض البريطانيين أن يرتدى اللباس المناسب عند الإفطار ، وفي الكنيسة ، وعند زهرة الصباح ، وعند الغداء وعند زهرة آخر النهار ، وفي حفل الشاي (مسترة من القטיפه) ؛ وعند الغداء (برباط رقبة أبيض وسترة طويلة) ، وعلى الضيوف من النساء أن يرتدين جلاليب رقيقة وملابس رسمية تجرر أذيالها في الغداء ، وكان عليهن أن يحملن - مراراً من ريش النعام . ولقيادة السيارات - وهى هواية سريعة الانتشار كان - بها ولع عظيم حتى سنة ١٩١٤ - كان على كلا الجنسين من رجال ونساء أن يلبسوا حلة طويلة وقناعاً ومنظاراً كبيراً . وكان الملابس فى فينا أكثر تنوعاً وأعلى قيمة ، وبخاصة ملابس ضباط الجيش . وكانت مظاهر اللباس فى سباق مايو فى رنجستر اس . وفى البريتز أبهى مما يلبس فى معارض بريطانيا أو معرض الجائزة الكبرى فى باريس . وكان المفروض أن يكون الملوك هم القدوة فى مسائل اللبس وأدوات الزينة للرعية . وكان هذا فعلاً هو دأب الملوك فى ذلك الوقت .

ولقد كان لعليوم الثانى أزهى مجموعة من الملابس . وكان لإدوارد السابع ملك إنجلترا السبق فى اللباس العادى . ولكن بطل الملابس المدة كان فى الحق هو فرانسيس جوزيف . واتفق أن غير السويديون قبل الحرب بعدة سنوات نمط زيههم الرسمى حوالى الوقت الذى كان الملك جوستاف أدولفس ملك السويد يزور فينا بمناسبة العيد الذهبى لحكم الإمبراطور فرانسيس جوزيف . فما أن خطا ملك السويد خطوة واحدة ورأى مضيغه واقفاً أمامه فى زى جنرال سويدي حتى قال « يا إلهى ! أفى الزى الحديث ؟ ليس لى الآن حلة من هذا الطراز الحديث » .

وكان السفر أسلوباً آخر مستحدثاً للظهور . فكثيراً ما كان ذرو التيجان يروحون ويحيئون كسائر عباد الله . ولما تخلف القيصر غليوم الثانى عن السفر

في يخته إلى كلوز ريجاتا فخر فصل المجتمعات في بريطانيا . وكان يفوز في السابق .
في بعض الأحيان . وكان للسفر خارج البلاد سحره وبخاصة إذا كان في الموسم
المناسب . فيوليو كان أنسب وقت للذهاب إلى دوفيل وبيارتس والتوكيه ،
وأغسطس أنسب وقت لحمامات بادن بادن ومارينباد وويزبادن وغيرها من .
المصايف الألمانية . أما في الشتاء بعد انتهاء موسم الصيد والرحلات القروية فكان .
المولعون (بالمودة) يسافرون إلى الرفييرا الفرنسية وبخاصة إلى مونت كارلو ذات .
موائد الميسر الشهيرة .

(وقبيل الحرب بمدة وجيزة قصد أحد الرواد إلى سان مورنز التي سرعان .
ما أصبحت مكاناً يعد الذهاب إليه والأزلاق على منحدراته دليلاً على الأناقة) .

وكانت تصريحات اجتياز الحدود غير مطلوبة بين معظم الممالك الأوربية ،
كما كان من السهل استبدال العملة في أى مكان . ولا يلقى السائح نظرات مقتضى .
الجمارك القاسية إذا ما قرع سمعه رنين الجنيئات الذهبية أو الفرنكات أو الماركات .
عند نقل حاجياته . وهذه الحرية العظيمة في الانتقال ألهمت بعض الكتاب لتصوير
القارة الأوربية قبل حرب سنة ١٩١٤ بأنها قارة ليس لها لكها حدود . والواقع .
أن الأمر يتوقف كثيراً على شخصية السائح والهدف الذى يتنقل من أجله . ولقد .
كان هناك بعض التعليقات الصارمة التي كانت تقف في طريق الأثرياء وأصحاب .
الألقاب الباحثين عن مواطن اللهو ، ولكن حوالى ٤٠٠٠٠٠ من رعايا الإمبراطور
فرانسيس جوزيف الفقراء كانت الفاقة تجبرهم على التسلسل خارج دائرة نفوذهم عبر
السدود المقامة لمنع الهجرة ، بينما كانت الحدود الروسية مخفورة بنفس القطة التي .
تحفر بها في الوقت الحاضر .

وبالرغم من مثل هذه القيود الضرورية ، كان انعدام الفواصل بين الممالك .

الأوربية قبل الحرب في غاية الغرابة ، إذا قيس بما يجري عليه العمل في الوقت الحاضر . ولقد فاقت فينا عاصمة الإمبراطورية التي تتكون من جملة أجناس ، والتي تتكلم جملة لغات سائر بلاد أوروبا في هذا الأمر . ويرى ستيفان زفايج كيف فاضت بالدمع عيون الشاعر البلجيكي إميل فرهيرين عند ما تحطم بالون الكونت زبلين في رحلته الأولى بعد تحليقه فوق كاتدرائية ستراسبورج ، وكيف صاح مكان فينا فرحاً عندما عبر بلويو الفرنسي القنال بطائرته .

وفي فيينا كان في استطاعة أى إنسان لديه متسع من الوقت وليس لديه إلا ثمن قدح من القهوة أن يقرأ كل يوم لا جميع صحافة النساء والجر فحسب ، بل كل الصحف الألمانية والسويسرية وصحيفة التيمز الإنجليزية والتام الفرنسية وعدداً متنوعاً من الصحف الإيطالية والروسية والأمريكية . كما يستطيع أى شاب مثقف من فيينا له شغف بالفنون أن يجد فيها أكبر المجلات الأدبية والفنية ، وأن يلم بأحدث مسرحيات باريس ، وأحدث نظريات الرسم والنحت في أنحاء العالم . وكان في وسعه أن يتجاذب أطراف الحديث مع أصحابه عدة ساعات يتقنون شعراء أوروبا قبل أن تطبع أشعارهم في أوطانهم .

وكان الباعث على تقدير أعمال الكتاب والفنيين الأجانب هو ما تلقاه الآداب والفنون عامة في أوروبا في ذلك الوقت من احترام - وبخاصة في فيينا . ولم يكن النعمز والنقد اللاذع قد بلغا مبلغاً كبيراً حينذاك ، وكذلك ازدهار الأدب . لم يكن قد عرف بعد . وإذا ما روى جستان ماهر في الطريق العام أو عرف وجهه رشارد سترابوس أو آرثر سنزلر أو هوجوفون هو فنانستال في أحد المقاهي . فهي أحداث هامة يرونها الإنسان لأصدقائه كأنما قد وفق توفيقاً كبيراً . وقد يبلغ منتهى السعادة ، إذا ما قابل ممثلاً أو ممثلة ، فلا تستطيع اللغة أن تعبر عما في نفسه .

من وقع المقابلة . إنه ليفقد النطق تقديراً وتقديساً لهذا الحادث . وكان المسرح أعظم ما يستهوى أهل فينا ، وكأما كان الممثلون أنصاف آلهة من طبقة فريدة فوق سائر الطبقات في الدولة النمساوية ، وعندما توفيت شارلوت وواترز ممثلة المأساة العظمى ذرفت الدموع عليها طاهية الأديب زفايج ، رغم أنها لم ترها في حياتها ولم تدخل مسرحها .

وقبل أن نذرف نحن الدموع لأن تاريخ ميلادنا جاء متأخراً ، ومحل ميلادنا كان في غير المكان الطيب فلم نحظ بمتع هذه المدنية المهدية ، يجدر بنا أن نتدبر التعليق القاسي الذي كتبه أعظم كتاب فينا في أوج ازدهارها الثقافي ، كتب سجموند فرويد إلى صديقه الألماني ولهم فرايس قبل الحرب بمدة وجيزة قال « إن فينا هي فينا . أعنى أنها تثير الأشمraz إلى أبعد مدى » .

كان فرويد يكره الانحطاط الأدبي في أى عهد من العهود أو في أى مجتمع تجمع فيه العلاقات الجنسية بين القوة والنفاق . وكان مما يزعجه تلك الوحشية البدائية التي كانت تحاليله النفسية تكشفها في نفوس من يزعمون أنهم الشباب المتمدين . في القرن العشرين . وكره فرويد لهذه المدينة التي كانت موطناً له ثمانية وسبعين عاماً من عمره البالغ ثلاثة وثمانين عاماً ، كان راجعاً لأسباب شخصية كما لاحظ ذلك مانس سپربر في مقاله الممتع ، وقد كان هو أيضاً عاناً نفسانياً ومن أهالي فينا كذلك . وقبل الحرب الأخيرة بيضعة أعوام كان فرويد قد بلغ غاية الشهرة في جميع الأوساط الطبية وموضع تقدير العلماء عامة ، ولكن المشتغلين بالعلم في فينا - باستثناء عدد قليل منهم - لم يكونوا في عداد الهوفاديج (hoffähig) (ومعناها الحرفي من هم أهل للدعوة إلى البلاط الإمبراطوري وبالتالي لا يعدون في الطبقة الاجتماعية السامية) . وعلى هذا الأساس لم يكن لجميع الأرستقراطيين هذه المكانة السامية . وكانت .

الكونتس كارولى زوجة سفير النمسا والمجر فى برلين موضع الرثاء فى الأوساط الدبلوماسية، لأنه لم يكن لديها من مؤهلات النبلاء إلا اثنا عشر مؤهلاً من ستة عشر ولهذا لم تكن من الهوافهيج. ومما روى فى الوقت عينه فى إنجلترا أن الليدى وورويك الاشتراكية فيما بعد، قالت للكاتبة الشهيرة الينورجلن (إن الأطباء والمحامين من الممكن دعوتهم إلى حفلات الحدائق، أما إلى حفلات الغداء والعشاء فلا يمكن دعوتهم إليها). وكان المجتمع فى فينا قاسياً فى معاملته للأطباء. كانت غطرسة الطبقة الأوربية الحاكمة من الناحيتين الاجتماعية والعنصرية — التى أسهمت كثيراً فى الحركات الثورية بعد جيل واحد، كما أسهمت بنصيب أكبر فى الثورات التى ناهضت الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية — قد بلغت آخر مداها فى عاصمة النمسا قبل سنة ١٩١٤. وفوق ذلك لم يكن العداء للسامية فى فينا الذى كان يرهق فرويد مذلة وكدأ، لم يكن مقصوداً على الطبقة العليا من المجتمع النمساوى. لقد أفسد جو العاصمة بل أفسد الجوق الإمبراطورية جميعها. وعندما كان فرويد طفلاً صغيراً قبل انتقال والديه إلى فينا رأى ذات مرة رجلاً شديد البطش من أعداء السامية ينحى والده جانباً عن طريقه فى موطنه فى إحدى مدن جاليسيا.

يقول — سبرير « إن فينا التى قضى فيها فرويد حياته منذ الرابعة إلى الثانية والثمانين كانت أشد بلاد العالم عداء للسامية »

(ولكن الواقع أن روسيا أشد عداء لها) ومما قاله روزفلت: « إن الشعب الأمريكى ينسب مقتله إلى ما كان يبلغه من المجازر كالتى حدثت فى كيشينوف » قال ذلك بعد المجزرة الوحشية التى قام بها الروس فى جنوب روسيا. هذا، وإن هتلر الذى عاش فى فينا من ١٩٠٧ إلى ١٩١٣ لم يمد بصره إلى مدى بعيد، بل رأى على

مقربة منه كل مقومات الفلسفة العنصرية التي صاغ على أساسها أشد مبادئ القرن العشرين قسوة .

وهذه المبادئ كانت على مرأى ومسمع من الناس أجمع في ذلك الوقت ، وهذا ما اشار إليه ولیم جنكنز في كتابات كارل ليجر وفي خطبه كذلك ، وفيما كتبه أيضاً عمدة فينا المحبوب ، أو جورج سكوتر أحد دعاة الوحدة الألمانية . بل لقد رأى أحد مريدي ليجر - أرنست شنيدر - الذي تضاءلت أمام مقترحاته محاولات الازبين لاستئصال الصهيونيين ، بأن دعا علانية إلى وضع جميع اليهود في سفينة وإغراقهم في البحار النائية .

ولا شك أن الحركة المعادية للسامية في فينا - مع ما كان يصحبها من مشاحنات الطلبة الوطنيين التي لا تنقطع في الجامعات - قد زاد حدتها ماذقه هتلر من مرارة الحياة إبان إقامته في العاصمة النمساوية .

وفي الوقت الذي كان فيه فنان المستقبل الشاب الذي نشأ في نزيذرع شوارع فينا محاولاً بيع لوحاته الساذجة مصحوباً بما عبر عنه بكلمات مؤلمة - الجوع صديقه الحميم - كانت فينا تعاني من أزمة المساكن التي سببها حركة التصنيع السريعة .

ولقد كان يسكن حوالي ٤٥ في المائة من سكان فينا سنة ١٩٠٠ في مساكن ذات حجرة أو حجرتين ، وبين كل عشرين شخصاً منهم كان واحد منهم لا مأوى له مطلقاً ، وينام بأجر زهيد في غير فراشه عندما يكون صاحب الفراش في محل عمله ، أو في إحدى الحجرات الدفينة التي كان يعدها المحسنون .

وأشد من هؤلاء بؤساً من كانوا يقضون ليل الصيف على الحشائش في الأماكن العامة ، وفي الشتاء في مجاري المصارف ذات الرطوبة الآسنة ، وهو

ما لحظه هتلر . ولا ريب أن هتلر نفسه قد ذاق مرارة هذه الحياة حقبة من الزمن ، ويعتقد جنكز أن هتلر ربما قد جرب الرقاد هنا أو هناك ، ولم أقشع القورور في أيامه ، فيما بعد عند ما كان يتذكر تلك الكهوف المؤلة أو يستعيد صورة تلك القذارة المؤذية .

هذا ومع أن مستوى المساكن كان منحطاً في فينا إلا أن المساكن في أوربا عموماً تكاد أن تكون كلها غير صالحة .

وعند غروب الشمس في لندن تغلق الحداثق العامة وتأخذ مواكب الرجال والنساء والأطفال في الزحف طوال الليل من باب إلى باب بحثاً ، عن مأوى مؤقت إلى الساعة الرابعة والربع صباحاً ، عندما تفتح أبواب الحداثق العامة فيأوون إلى أرضها ومقاعد ما يجهدون مكثودين ، لا ينامون إلا لحظات متقطعة تنتهى بقدم سكان الوست إند في ملابسهم الأنيفة في نزهاهم الصباحية . ولم تكن لهذه المناظر المؤلة أى أثر في الضمير الاجتماعى في ذلك العهد ، إلا كما أثرت فيه الأحوال الاجتماعية المؤلة التى أخذ ينشرها الكتاب أمثال شو وولز ، كأن ينشروا مثلاً أن ثلث عدد العمال كانوا يعتمدون على أموال الحسنيين حتى وفاتهم ، أو أن ربع المواليد في الريف الإنجليزى لم يبلغوا الشهر الثانى عشر من حياتهم . ودولة الرفاهية كان باقياً على قيامها - باستثناء بروسيا في عهد بسمارك - مرور جيلين ووقوع حربين .

ولم تتدخل الدولة - إذا ما تدخلت - إلا نادراً جداً في استغلال الرأسمالية التى خلفها القرن التاسع عشر ، بما فيها من توزيع غير عادل وغير كاف في الخيرات ، وما فيها من انحطاط عام في موارد الدخل . وكانت أجور العمال - حتى في أكثر الأوقات رخاء - قليلة جداً لا تتعدى ثلاثين شلناً في الأسبوع ، فإذا حصل العامل المتزوج

على سبعة ريلات ونصف في إنجلترا عد أجره كبيراً . وكان مستوى معيشة القرويين، والمستأجرين الزراعيين في معظم أوروبا أدنى من ذلك ، مما كان راجعاً إلى حد ما إلى منافسة الغلال واللحوم الواردة من أمريكا .

وكانت الأحوال في الأرياف في ذلك العهد سيئة وبخاصة في روسيا والإمبراطورية النمسية ، حيث كانت مشكلة المشتغلين بالزراعة قديمة عويصة . وكانت ساعات العمل في ألمانيا للعمال الزراعيين سنة ١٩١٠ ثمانى عشرة ساعة كما كانت منذ سنة ١٨٢٠ . على أنه في عهد أسرة هابسبرج لم يجد العمال الزراعيون أى عمل إلا وقت الحصاد . وحالة التأخر الاجتماعى في هذا العهد الإقطاعى - مما تدل عليه نسبة الأمية العالية - وكانت ٦٣٪ . في جاليسيا النمسية - أصبحت مقلقة (كما في روسيا) بسبب كثرة الانتقالات المترتبة على التصنيع في مراحلها المتتالية . وكانت نتيجة ذلك في النمسا اندفاع مستمر من سكان الريف الذين لا خلاق لهم إلى العاصمة التى تضيق من قبل بمن فيها من السكان . ولم يكن عجيباً أن وصل إلى آذان هتلر في شبابه بمناسبة عشوره على أعمال يدوية ما كان يقوله بعض صحبه « لا تقبلوا أى شئ : الأمة - كلمة اخترعتها الطبقة الرأسمالية . الوطن - وسيلة الطبقة الوسطى - لاستغلال الطبقة العاملة . القانون - آلة استغلال سواد الشعب . الأدب العامة - للبائس الذى يحاولون بها الناس إلى قطع من النعم » .

ويبدو على وجه العموم أنه مما يستحق الملاحظة أن طبقة العمال في فينا قبل الحرب، لم تكن ثورية إلى مدى أبعد من ذلك ، فواكب يوم العمال في أول مايو عند ما سارت صفوف العمال واضعين الزهور الحمراء في عروة أزراهم مستصحيين زوجاتهم وأولاهم ، كانت تثير أعصاب الطبقة الوسطى ، ولكن الرؤساء الديمقراطيين الذين كانوا يقودون الصفوف مثل فكتور أدلر وأوتوباور وكارل رينر كانوا أكثر هدوءاً، وكان يروقههم أن يخاطبوا « بيا أيها الدكتور الرفيق » . وقد أصنى تروتسكى - وكان

— ٣٧ —

منفيًا في قينا عدة سنوات كما كان عضوا في الحزب الاجتماعي الديمقراطي - إلى مناقشتهم الأكاديمية في شي من الازدراء الظاهر ، وهم في الحجرات الداخلية المملوءة بالدخان في مقهى السنترال . وفي مذكراته التي كتبها فيما بعد يسخر من هؤلاء الرجال الوادعين لأنهم لم يدركوا أن التاريخ قد وضع قدمه الثقيلة على البناء الذي يشبه عش النمل ، الذي كانوا فيه يسرحون وهم ذاهلون .

ولقد كان تروتسكي صادق النبوءة كما نعهد فيه دائما . ولكن قدم التاريخ التي داست على النظام لم تؤثر فيه بالوضع الذي تنبأ به هو وأمثاله من الماركسيين .. ولم تكن القوى الثورية الاجتماعية التي ألهمها كارل ماركس وأتباعه إبان القرن التاسع عشر ، ولكن حركة التحرير الوطنية داخل الإمبراطورية النمسية وغيرها من الدول ، هي التي قضت على النظام الأوربي الذي خلفه القرن السابع عشر والثامن عشر ، كما أن حكم الإعدام الذي أصدره على هذا النظام غلاة الوطنيين قد يكون قابلا للنقض ، لولا عوامل القناء السرية القتالة التي كانت تعمل على تقويض نظام الأسرات الملكية في الدول الأربع ذات الحكومات المطلقة . وقبل أن تناول قصة انهيارها سنقف برهة لندرس حادثاً وحيداً كشف الأمور على حقيقتها ، وكان هو بمثابة النصب القائم الدال على الطريق المؤدية إلى الحرب ، كما كان في الوقت نفسه أحد الآيات الدالة على قطب الضعف القتالة في السياسة العالمية التي كان تشرشل شديد الإعجاب بها .

الفصل الثالث

الأسرات المالكه ورجال السياسة

في الأسبوع الأخير من شهر يوليو سنة ١٩٠٥ كان اليخت الطويل الأبيض
 «الذهبي» — هوهنزولرن — الذي ترفرف فوقه الراية الإمبراطورية ذات الصليب
 «الأصفر والشعار المشهور «الله معنا» تبحر عباب خايج بجوركو عند أحد شواطئ
 فنلندا، ثم ألقى مرساة في مياه بحر البلطيق الصافية على مسافة قريبة من تحت آخر
 المنزهة ألقى مرساة قبل وصوله . ولقد سبق قدوم غليوم الثاني قيصر ألمانيا،
 الإمبراطورة وعدد عديد من الضيوف لزيارة ابن عمه نكي — نقولا الثاني
 إمبراطور روسيا، الذي كان في انتظاره هو الإمبراطورة وابنتها وولي العهد الذي
 بلغ السنة الأولى من عمره. وقد قدموا على يخت آل رومانوف — ستلابولارس .
 وهذا اللقاء الذي تم على أنه وقع مصادفة بين عاهلين كانا يبغيان هما ومن معهما من
 أفراد أسرتهما، إلا أنه من عناء الأعمال إنما كان في الواقع نتيجة إعدادات
 دبلوماسية سرية سابقة . وتم الاتفاق على الترتيبات الأخيرة بالبرقيات المتبادلة بينهما
 في لغتها الرمزية الخاصة بهما عندما كان اليختان في أعلى البحار .

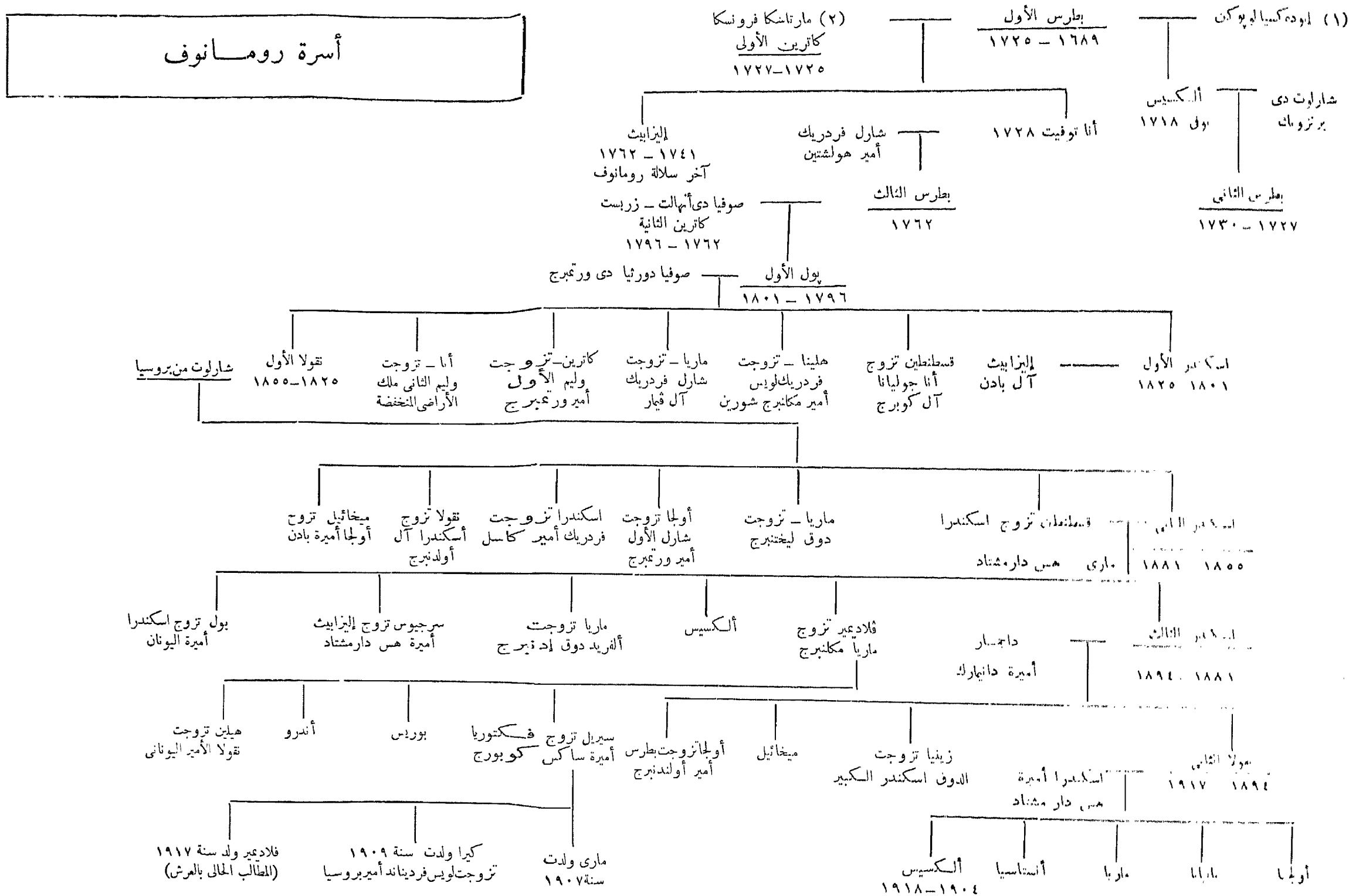
وكان نص إحدى الرسائل التي التقطتها العين من اليخت هوهنزولرن « ليس
 لدى أى إنسان أقل فكرة . يظن كل ضيوفى أن وجهتنا جوتلاند ... لدى
 أخبار هامة لك ، إن وجوه ضيوفى منظر يستحق المشاهدة عندما يرون فجأة يختك
 أنه لوحة بديعة ... أى الملابس تليق للقائك ؟ ولى » .

إن هذه البرقية المبتذلة صورة لشخصية الإمبراطور الخاصة . والأسلوب الذى

كتبت به ينبيء عن شخصيته دون غيره. فقد ظهر فيه بمظهر البطولة الكاذبة كن يهذى ويترنخ من كثرة الشراب . وكانت حياته كلها سلسلة من المناظر التمثيلية الى كان يعجب بها وهو يؤديها أمام الحاضرين من السياسيين والملوك الذين لم يكن في استطاعتهم أن يغمضوا أعينهم لحظة عن حركاته العجيبة ، حتى لا يعاقب القدر هذا المشعوذ بتحقيق إحدى ألامعيه ، فتقلب الملهاة إلى مأساة حقيقية . وهذا هو الذى حدث فعلا عام ١٩١٤ . وقد كان اللقاء فى خليج مجوركو أحد النذر .

ولم يكن غليوم فى محاولته لضمان سرية لقائه مع قيصر روسيا مغالياً إلا قليلا . وقد عرف نباها وزيره المحجد البرنس ييلوف ، ولكن أحداً غيره على مستوى رجال السياسة لم يصله نبا هذا اللقاء . ومن الجانب الروسى لم يكن أى وزير موضع ثقة القيصر ، ومع هذا فقد كانت النتائج السياسية للقاء مثيرة . ومع أن حالة التوتر فى أوربا حينذاك لم تبلغ غاية مداها ، فإن كلا من العاهلين كان منتميا إلى حان أوربى معاد الآخر . فكانت ألمانيا على رأس التحالف الثلاثى الذى ربط أطماعها القومية بأطماع إيطاليا والنمسا والجر المنافس التقليدى لروسيا فى البلقان ، وكانت روسيا الحليف الحربى لفرنسا التى كانت لا تزال تبكى على فقد الأكراس والورين ، والتى تحلم دائما بالانتقام لحرب السبعين ، وفى مثل هذه الظروف كان أى اتصال شخصى بين هذين العاهلين ما سدا ما تقتضيه الآداب العامة فى الأفراح والمآتم وما شابهها من المناسبات ، كان لاشك مما يجعل كل وزراء الخارجية فى أوربا يظنون كل الظنون ويفكرون فى كل الاحتمالات .

ومع هذا فلم يأت غليوم إلى مجوركو ليحظى بنزهة عائلية مع أبناء عمومته الروسين بعيداً عن محررى الصحف المتطقلين ومحبي الثروة المحترفين . لقد جاء



ليصنع التاريخ • لقد جاء ليتفوق على مستشاره العتيق الذى وحد ألمانيا وأجاس
جد غليوم على العرش الإمبراطورى ، ثم نال بعد ذلك إعجاب ساسة أوروبا
بسياسته الحكيمة .

ولقد كان لدى بسمارك ضمان ضد حصار ألمانيا وعدم الاعتماد على نظام
استتباب الأمن فى أوروبا بتوقيعه مع روسيا معاهدة سرية بعدم الاعتداء ، والأمل
فى سيادة أوروبا أو سيادة العالم الذى أسسه الوفاق بين الجنسين السلافى والتبوتونى
لا يزال يداعب أقوى العقول وأضعف العقول فى ألمانيا إلى الوقت الحاضر . كما
أن اتجاهات السياسة الروسية الخارجية من اسكندر الأول إلى نيكيتا خروشوف
تبين أن هذه السياسة تداعب عقول الروس كذلك ، وفوق ذلك كانت للتقاليد
السياسية فى القرن التاسع عشر التى خلفتها نظم البلاط فى العهود السابقة والخاصة
بالاتفاق مع عدو قوى دون علم الصديق أو الحليف جاذبية لا يمكن مقاومتها فى
الغالب . وقد ولدت الدبلوماسية والفن فى إيطاليا فى عهد النهضة فى وقت واحد ،
واحتفظا فى أثناء تطورها بأوجه شبه متقاربة ، ومع هذا فقد ألقى القيصر
الشاب الذى كان ساخطا على سياسة بسمارك الخارجية بالمعاهدة الروسية عندما أنكر
سياسة ربان ألمانيا القديم بسبب سوء الحالة الداخلية فى ألمانيا سنة ١٨٩٠ ، وهذا
القيصر وهو فى سن الثالثة والأربعين قد سار فى نفس الطريق الذى سلكه مستشاره
الحديدى بأسلوبه المتتوى ، ولكنه كان لسوء الحظ أقل منه حكمة ودراية .

هذا وقد تقدم القيصر خطوة فى هذا الاتجاه على سبيل التجربة فى أثناء لقاء
سابق مع قيصر روسيا على سطح سفينته هو هنزولرن .

وفى تلك المناسبة قال انقولاً « إني أود لو اتخذت لنفسك منذ الآن لقب أمير

(م ٥ - الأسرة)

الحيط الهادى وسأكون أنا أمير الأطلنطى » وعندما أقلعت سفينته بعد الاجتماع تأمر الموهنزلرن أن تعبر بالإشارات عن « أن أمير المحيط الأطلنطى يحى أمير المحيط الهادى » .

ولقد كان غضب غليوم من ابن عمه البريطانى إدوارد السابع دافعا له على التحول فى سياسته . فمذ سنة — وقد كان إدوارد حليفاً فعليا لفرنسا فى تحالفهما الودى — كان ضيفاً للقيصر فى اجتماع عقد فى كيل ، وعند ما شهد قوة ألمانيا البحرية الحديثة لم يظهر شيئاً من الحماسة ، بل كانت حركاته خروجاً عن اللياقة . ومنذ ذلك اليوم أخذت الصحافة البريطانية تسود صفحاتها بإنذار ألمانيا وتحذيرها عاقبة تحديدها لسيادة بريطانيا البحرية . ورغبة من غليوم فى تأديب بريطانيا لازدرائها بالصدقة الألمانية النبيلة ، وفى القضاء على العداء الفرنسى ، أقدم على انتهاج خطة سياسية بسمارية بارعة . شجعه عليها البارون هولشتين ذلك العنكبوت العجوز النابه الذى كان يقضى صباحه ومساءه فى جحره الغامض فى وزارة الخارجية الألمانية ينسج فى أنحاء أوروبا كلها خيوط المؤامرات ، فكتب إلى قيصر روسيا فى أواخر سنة ١٩٠٤ يقترح عليه عقد معاهدة بينهما تكون أغمن وسيلة لاستتباب السلام فى أوروبا . وسيكون من آثارها انضمام فرنسا فعلا على أساس أنها حليفة لروسيا . وهذا المحور المقترح بين سانت بطربرج وبرلين سيكون فى الواقع حلقة أوربياً موجهاً ضد بريطانيا العدو الدائم لروسيا فى آسيا .

ولكن كانت النتيجة السريعة التى أعقبت ذلك مخيبة لآمال غليوم ، إذ أن قيصر روسيا أطلع وزرائه على كتاب غليوم . وهؤلاء استطلعوا رأى فرنسا حليفةهم ، فوضع المشروع بهلوه على رف النسيان ، ولكن همسات الاستهزاء كانت على الأفواه فى جميع وزارات الخارجية فى أوروبا . وفى يوليو أحس غليوم أن الموقف

الجديد في أوروبا يتطلب محاولة جديدة . لقد هزمت روسيا في الحرب الروسية اليابانية التي اندلعت نيرانها سنة ١٩٠٤ ، وتدمير الأسطول الروسي في مضيق سوشيا في مايو سنة ١٩٠٥ قضى على ما بقي لقيصر روسيا من أمل ، وقد بدأت بوادر الثورة تظهر في روسيا . ولا شك أن نقولا سيكون تواقا إلى البحث عن أصدقاء .

ولذلك اقترح غليوم على قيصر روسيا أن يقوما بنزهة بحرية في البلطيق . فلما قبل نقولا أمر وزيره ييلوف أن يحضر مسودة المعاهدة التي أعدت منذ ستة أشهر . ويرسلها إليه (كان واضح المعاهدة الحقيقي هو هولشتين ، ولكنه لأسر ما لم يطلع هذه المرة على هذا السر) ، ولقد أبرقت المعاهدة إلى اليخت . ونسخها غليوم بيده . وربما غير في النص في أحد الموضوعات المخرجة دون إبلاغ مستشاره . وقيل الاجتماع في ٢٤ يوليو دخل القيصر مقصورته وسلم أمره إلى الله .

وأخيراً كتب غليوم إلى ييلوف يقول « دعوت في صلاتي إلى الله إذا شاء ألا يمدني بعونه ، ألا يمد عدوى بعونه كذلك ، وعندئذ أحسست بقوة بالغة ... وضممت على أن أمضي فيما أنا بسبيله مهما كانت العاقبة » .

وبهذه الروح القوية قصد القيصر إلى اليخت — ستلابولارس — في حلة أمير الألمان ، وشواربه مفتولة في شكلها الأخاذ ، وعينه السوداء وان فيها بريق عجيب ، واحتضنه نقولا بترحيب عظيم في حلة بحار بريطاني ، وبدان من بريق عينيه الزرقاوين المادئتين ولحيته القصيرة الصفراء أنه قريب الشبه جداً من ابن عمه ولي عهد إنجلترا الذي صار فيما بعد الملك جورج الخامس . وكان استهلال الحديث بارعا . ومما قاله وزير البلاط وقد دمعت عيناه من فرط ما أحس به من عاطفة فياضة « في هذا الوقت الذي هجرنا فيه العالم كله — نعم — هجرنا في ازدراء حتى إن أي كلب لا يقبل أن يطلب مناقطة من العظم ، تأتي أنت يا صاحب الجلالة إلينا صديقاً مختصاً فتأخذ بيدنا لتستعيد مكاننا » .

وما كاد ينتهى تبادل التحيات حتى تناول قولاً ذكر إدوارد السابع على حين غفلة ووصفه بأنه « أعظم مفسد وأكبر من يحيك المؤامرات فى العالم » .

وكانت إمبراطورة روسيا إحدى حفيدات الملكة فكتوريا — التى هى أيضاً جدة غليوم — وكان قولاً نفسه ابن اخت الملكة ألكسندرا زوجة إدوارد . ولكن العلاقات العائلية أصبحت متأثرة بما أبدته بريطانيا من العطف على اليابان . حليفها وبخاصة منذ أكتوبر الماضى . وفى هذا الوقت بينما كانت بعض القوى البحرية الروسية التى فى بحر البaltic تعبر القناة الإنجليزية ليلاً إلى مصرها المحتوم فى المحيط الهادى ضربت دون قصد إحدى سفن الصيد الإنجليزية (بل وبعض السفن الروسية) بسبب الضباب الكثيف فى دوجربانك . ولا شك أن الحكومة البريطانية والرأى العام البريطانى لم يكونا راضين عن هذه الحادثة الأليمة المضحكة . وكادت هذه الأزمة السياسية الكبرى فى العلاقات الروسية ألا تنقضى بسلام .

وكان غليوم بطبيعة الحال يتفق مع قيصر روسيا فيما يشعر به نحو إدوارد . وبشيء من المكر قال لقيصر الروس إن إدوارد « يود أن يكون بينه وبيننا اتفاقية » .

فرد قولاً على الفور قائلاً « ما أستطيع أن أقوله إنه إن يحصل على اتفاق منى وإن يكون الاتفاق ضد ألمانيا أو ضدك مادمت أنا حياً ، وهذا عهد بينى وبينك » .

ثم انتقل قولاً إلى الشكوى من أن فرنسا لم تنتصر له فى حادثة الأجر بانك . ومن عدم سماحها بعبور الأسطول الروسى فى مياه الهند الصينية إذعائاً لأمر إنجلترا . وهنا عمل غليوم على أن ينكأ هذا الجرح بأسلوبه الذى رأى فيه منتهى الدهاء . وانقضى اليوم على ما يرام ، وفى المساء دعا غليوم قيصر الروس وأسرته إلى .

جولية بسيطة جميلة على سطح الهوهنزولرن ، وكان قولاً يادى المرح دون تكلف ،
 هو كان فى أوج جاذبيته التى كانت تأسر كل من اتصل به فى غير عمل رسمى .
 هو كان غليوم مشدود الأعصاب إلى حد ما بسبب ما يشغل تفكيره من تدبير
 خططه الملتوية فى الغد . وفى اليوم الثانى بعد أن لبث يستخير الله فى مقصوده ،
 ذهب إلى سطح ستلابولاريس ، وبعد أن تناولوا غداءهما الفاخر كان هذان
 اللسان الهاويان يحاول - كل منهما - أن يتفوق على صاحبه ، وأن يخدع حليفه ،
 مع أن كلا منهما كان من السهل خداعه ، كما كان كل منهما لا يمكن الاعتماد
 عليه . ثم عاد البحث إلى خيانة بريطانيا وعدم إمكان الاعتماد على فرنسا ، وهناك
 لمح غليوم بأن إدوارد يطبخ الآن « اتفاقية أخرى من تلك الاتفاقيات
 الصغيرة » مع فرنسا دون علم روسيا .

وكان رد قيصر روسيا « هذا فظيع جداً . ماذا أستطيع أن أفعله فى
 هذا الموقف العصيب ؟ » فما كان من غليوم إلا أن اقترح عقد اتفاقية صغيرة
 بينهما .

وهنا تذكر قولاً أن غليوم كان قد أرسل إليه مشروع اتفاق على هذا
 الأساس منذ بضعة أشهر ولكنه نسى لسوء الحظ أن يأتى به معه إلى اليخت .
 فأسرع غليوم يطمئن ابن عمه بأن قال له : « لدى صورة منه ومن المصادفات
 العجيبة أن الصورة أجعلها فى جيبي » .

وهذه الحادثة ليس من السهل تصديقها لو لم يقصها الإمبراطور إلى ييلوف
 فيما بعد . ولعل باقى القصر كان أكثر غرابة . وفيما يلى أهم أحداثها مروية بلغة
 غليوم التى لا يمكن محاكاتها .

« أمسك القيصر يندى وأخرجنى من الصالون إلى القصورة الخاصة التى

كانت لأبيه ، ثم أغلق الأبواب بنفسه « أرنها . أرجوك » ، ثم انتقدت عيناه الحاملتان . أخرجت المظروف من جيبى . فضضته على مكتب نقولا نفسه ، أمام صورة لوالدة الإمبراطور ووضعتها أمامه فقرأها متى وثلاث ورباع . ودعوت الله الكريم دعاء حاراً أن يكون معنا في هذه الآونة وأن يهدى الملك الشاب الصراط المستقيم .

« وأعقب ذلك سكون تام إلاهمة خفيفة من البحر ، وكانت الشمس ترسل أشعتها الساطعة إلى المقصورة الجميلة ، وأمام عيني بدا اليخت في بياضه الناصع الذي يأخذ بالأبصار ، والراية التي ترفرف عالية في نسيم الصباح . وبينما كنت أقرأ على الصليب الأصفر الشعار المكتوب « الله معنا » سمعت صوت الإمبراطور يجانبي . يردد « عال جداً . أوافق كل الموافقة » .

وكانت ضربات قلبي قوية بحيث أمكننى سماعها ، فجمعت أطراف شجاعتي . وقلت دون أن أظهر أى اهتمام : آحب أن توقعها ؟ ستكون تذكراً جميلاً لهذا اللقاء .

ثم مر على الصفحات المكتوبة مرة ثانية ثم قال « نعم سأوقع » . فأزحت . غطاء الحبرة وأعطيته القلم فكتب بيد ثابتة « نقولا » ثم رد إلى القلم . وعندما وقفت احتضنى بين ذراعيه وبدأ عليه تأثر عظيم وقال « أحمداً الله وأشكر لك » ، ففاضت دموع الفرح من عيني . بل كانت حبات العرق تجري على جبهتي وفوق ظهري . ومر بذهنى أنه لاشك أن فردريك ولیم الثالث والملكة لويزا وجدى . ونقولا الأول كانوا معنا في تلك الآونة .

ولكى يرضى أرواح الموتى الذين شهدوا التوقيع أسرع غليوم إلى تذكير القيصر أن مثل هذه الوثائق الهامة يجب أن يوقعها بعض الشهود ، وقام أحد .

ضيوف القيصر وكان من صفار رجال السلك السياسى واسمه تشرسكى وأبدى الاهتمام بهذا الإجراء من الجانب الألمانى فوقع باسمه تحت توقيع سيده . ورغبة من قيصر روسيا فى أن يوقع من الجانب الروسى رجل له منزلة أسمى أرسل فى طلب الرجل العجوز الذى كان وزير بحريته - الأميرال بيريلو وبسط الوثيقة أمامه وقال له « هل تثق بى بالكسيس ألكسيفتش . إذن وقع هنا . هنا تحت توقيعى » .

وبلغ من اضطراب الأميرال لهذا التكرم العجيب الذى أسداه القيصر إليه أن مال على يده قبلها وقال « أكرمك الله يا سيدى . إنك الملك الذى يحرس روسيا » .

ومعاهدة بمجوركو الذى يعدها غليوم نقطة تحول فى التاريخ الحديث كانت أساساً لاتفاق دفاعى بين الإمبراطوريتين ينفذ بمجرد توقيع الصلح بين روسيا واليابان . ووضع القيصر فى المعاهدة شرطاً يقصر منطقة تطبيقها - وكانت فى الأصل كل أنحاء العالم - على أوروبا ، حيث يلتزم كل طرف فيها بنجدة الطرف الآخر عند اعتداء الغير . ونصت المعاهدة فى البند الرابع منها على أن على القيصر أن يدعو فرنسا لتوقيع الاتفاق بمجرد بدأ سريانه .

وفى الخطاب الذى أرسله غليوم إلى قيصر روسيا بعد عودته من اجتماع بمجوركو الذى كان يعده حبر الزاوية فى صرح السياسة الأوربية وصفحة جديدة فى كتاب تاريخ العالم - حدد دور فرنسا فى النظام الأوروبى الحديث بما يلى :

« يجب أن تذكر ماريان (فرنسا) أنها زفت . . إليك وأنها ملزمة بأن ترقد فى فراشك وأن تمنحنك وأن تمنحنى قبلة من وقت إلى آخر . ولكن يجب ألا تتسلل إلى حجرة نوم ذلك الأخطبوط الدساس فى الجزيرة (إدوارد) » ورغم النص على انضمام فرنسا ، كان فى المعاهدة نقض صارخ للاتفاق المفقود مع فرنسا

قبل ذلك بخمسة عشر عاما بأن تؤيدها ضد ألمانيا . فتطبيقا للنص الحرفي في معاهدة
بجوركو تصبح روسيا في حالة حرب ضد فرنسا إذا ما اعتبرت معتدية على ألمانيا .
بيد أن فرنسا وزوسياملتزمتان السير وفق معاهدة حرية سرية لم تدع إلا سنة ١٩١٤ .
نص فيها على أنه يجب أن تتحرك جيوش إحدى الدولتين إذا ما تحركت جيوش
الدولة الأخرى . وليس من الواضح كيف لم يدرك قيصر روسيا ما في المعاهدة
التي طلب ابن عمه الخليف أن يوقعها ، ولو أن من العسير أن نعرف إلى أى حد
كان قلبه من جانب إلى جانب راجعاً إلى ضعفه الخلقى أو ضعفه العقلى أو إلى ما يشبه
المكر السلبي التأسى . وعلى كل لقد أزعجت هذه المسألة - مسألة بجوركو - وزراءه
عندما اضطر إلى مكاشفتهم بسرهما . كان أول مدى لوقعها على نفوس رجال
الحكومة في بطرسبرج أن قالوا « يا للهول سنعد غير أمناء في نظر الفرنسيين » .

وسرعان ما علم الفرنسيون أن مؤامرة تجرى في الخفاء عندما علم رجال المخابرات
الفرنسيون في روسيا من الرئيس الفرنسى المطابخ القيصر ، أنه في يوم ٢٠ يوليو
قد صدر الأمر بنقل أدوات المائدة إلى يخت قيصر روسيا علما بأنها لا تستعمل إلا
في الولائم الملكية ، وبعد عودة نقولا من بجوركو سمع أحد الجواسيس الفرنسيين
الأميرال ييلوف يتمم « لقد وقعت على شيء ما . ولكن الشيطان وحده يعرف
ما وقعت عليه » ، ثم إنه أبلغ الخبر إلى فرنسا حيث أثارت اضطرابا شديدا . وأخيرا
صدرت التعليمات إلى السفير الروسى في باريس بأن يبين موقف فرنسا إزاء فكرة
عمل معاهدة دفاعية بين فرنسا وروسيا وألمانيا . وكما كان متوقعا أقنع القيصر
وزراءه بأن يكتب لجليوم مصمما على إجراء تغيير يجعل اتفاق بجوركو غير نافذ .

ولم يكن موقف غليوم في برلين بأفضل من ذلك . حتى هولشتين نفسه
قد قد اتفاق بجوركو وقال عنه إنه مسرحية سياسية . وثار ييلوف غاضبا لأن
القيصر بعد أن غير الصورة الأصلية لمسودة المعاهدة - قصر مداها على أوروبا -

وقعها دون أخذ رأى مستشاره . وكانت الدموع وثورات الغضب والنوبات العصبية أحداثاً يومية في البلاط الإمبراطورى . وقدم يلاف استقالته فلم يقبلها غليوم ، وأخذ يئن ويبكى كما تبكى الفتاة التى هجرت حبيبها .

وكتب العاهل المنكش — وقد كان يأمل أن يكون بسمارك زمانه — يستعطف مستشاره الغاضب « أهكذا يعاملنى أعز أصدقائى . إنه ليؤلنى أشد الألم أن أحس بأنى محطم وأنه لا منجاة لى من أن يصيبنى انهيار عصبى شديد . أرسل لى برقية ، وقل فيها « قبلت » إذا ما وصلك كتابى هذا لأعلم أنك باق معى . فإن اليوم الذى أقبل فيه استقالتك هو اليوم الذى انتهى فيه ، فكر فى زوجتى وأولادى المساكين » .

وعندما تسرب خطاب قيصر روسيا المضطرب عن معاهدة بحوركى ووصل إلى غليوم زادت أعصابه إرهاباً . وبعد أن أخذ يثرثر أمام رجاله وينتقد تصرف « الولد الذى فى بطرسبرج » تناول قلمه وأخذ يكتب رجاءه الأخير إلى شريكه الخفى . « وها هى البرقية التى بعث بها إلى نقولا :

« لقد تعاهدنا عهداً دينياً . ووقعناه أمام الله . الذى سمع اليمين الذى أقسمنا على الوفاء به . ولا أزال أعد المعاهدة بيننا قائمة . فإذا كنت تريد بعض التغيير فيها فأقترح لى ما تريد ولكن ما وقعنا عليه قد وقعنا عليه والله على ذلك شهيد » .

ولم يجب نقولا على البرقية . ولم يغفر لغليوم خديعته له ، ولربما زاد ألمه عرفانه بالدور القذر الذى لعبه هو نفسه بسبب ضعفه أو بسبب خيائته ، لقد انتهت علاقات الصداقة التى كانت قائمة بين العاهلين عشر سنوات كاملة واتفاق سنة ١٩٠٧ بين روسيا وألمانيا الذى يقضى بتطويق ألمانيا وتقسيم أوروبا إلى معسكرين دفاعيين متعاونين

أصبح باديًا للعيان . لقد صدق غليوم في أنه كتب صفحة من التاريخ في مجرور كوت
ولكن ما كتبه لم يكن على نحو ما يريد .

ويقول المؤرخ الإيطالي لويجي ألبرتيني « يعزى لرجل كهذا أنه كان سببًا لما
حل بالعالم » . إن هذه الملحوظة يمكن أن تنصرف إلى قولنا كذلك . لا شك أن
كلا العاهلين يحملان نصيبًا ثقيلاً من المسؤولية عن الكارثة التي مزقت دولتهما
وأصابت غيرها من الدول .

ولكن ليس من الإنصاف أن نبالغ في إنصاف غليوم الثاني أو هولاء الثاني .
على نحو ما فعل الدعاة المتنافسون فيما كتبوا بعد الحرب . إن كلا منهما كان يحاول
أن يضمن السلام ، ولكن بتفكيره المضطرب وأسلوبه السيء .

إن النظام الملكي المنهار في أوروبا وما يتصل به من فلسفة العلاقات بين الدول
وأسلوب العمل على أساسها هو الذي جعل وقوع الحرب أمراً لا مفر منه وهو
الذي قرر القضاء على النظام الاجتماعي المبني عليه . إن الملكيات التي كانت قائمة
قبل سنة ١٩١٤ كانت تسرع الخطى نحو فئتها لنفس الأسباب التي انتهت بفصيلة
الديناصور المنقرضة إلى الفناء في العصر الحجري . إنها لم تعد صالحة للبقاء في
الوسط الذي كانت تعيش فيه . إن التقدم الصناعي والاجتماعي جعل من الحرب
وسيلة في غاية الخطورة تبلغ بها الشعوب أهدافها القومية . ولكن حكام هذه
الشعوب لم تفقه هذه الحقيقة — ونحن لم نفهم هذه الحقيقة إلا بعد خمسين سنة —
ولم تتطور خيالهم السياسي الأفكار السياسية أو الوسائل السياسية التي تمكنهم
من الوصول إلى أغراضهم دون الالتجاء إلى الحرب (ولا نحن أيضاً) .

ويقول المؤرخ الألماني مسنر :

« إن الآراء السياسية التي كانت تسيطر على العلاقات السياسية كتوازن القوى .

ومناطق الاهتمام والكرامة والسيادة القوميتين كانت لا تقوى على الإرشاد إلى الطريق القويم في جو مملوء بضباب عدم الثقة . لقد انطلقت الأنوار في أوربا قبل قيام الحرب بمدة غير وجيزة » .

ولقد ضاعف من فشل «أمراء وحكام» تشرشل وعملائهم في فض الخلافات بين دولهم ، الأوضاع السيئة التي سببت الاضطرابات الداخلية . وهذه الأوضاع السيئة التي نشأت من الخلاف بين النظم الحكومية القائمة والمطالب المعاصرة ، كانت حادة على نحو ما في الممالك والإمبراطوريات المختلفة . وقد كانت أحياناً أوضاعاً سياسية واجتماعية وأحياناً إدارية .

إن زيادة الأعباء الإدارية وما يترتب عليها من الارتباك أو الشلل التام كانت عاملاً هاماً في القضاء على النظام القديم . وكانت الثورة أو خشية وقوعها ، مما دفع النظام الملكي المنهار إلى الحرب ، والحرب أو خشية وقوعها تدعو بدورها إلى سلسلة مفرغة من الحروب لا تزال باقية في عصرنا الحاضر . إن الهدف الأساسي لهذا الكتاب هو أن تعرف إلى أهم المراحل الهامة أو الدرامية لهذا التطور الظاهر ، وتتبع ارتباط بعضها ببعض . والمنطق الصحيح يدعونا إلى أن نبدأ بثورة ١٩٠٥ في روسيا المبكرة التي رأينا أنها كانت أحد العوامل التي حملت القيصر على قبوله الاجتماع مع غليوم في بيجوركو .

الفصل الرابع

—

عام الديك الأحمر

كان عيد الغطاس في ٦ يناير من كل عام أحد أعياد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية التي نقلها كبار التجار في روسيا القديمة من القسطنطينية . وكان عيداً له قداسة أكبر وخطر أعظم من أمثاله من الأعياد .

وكان الاحتفال بهذا العيد في بطرسبرج قبل الثورة يتم في شيء من الفخامة والليزنطية ، كما كان يجمع بين الساطة الزمنية والسلطة الدينية . والجانب الهام من الاحتفال العام المسمى ببركة الماء تخليداً لذكرى تعميد المسيح بنهر الأردن كان فخماً ومؤثراً . وفيما يلي الجدران الصفراء القائمة للقصر الشتوي الذي قلما يتخذه قيصر روسيا مقراً رسمياً له ، كانت تقام خيمة مزدانة زاهية الألوان ومنصة على نهر نيفا العميق البطيء الجريان الذي يحسبه الإنسان لسعته جزءاً من البحر ، والذي أقام بطرس الأكبر على شاطئه الكثير المستنقعات عاصمته العظيمة المحبوبة . وفي هذا المكان — في الفضاء الذي تكسوه الثلوج وعلى جسر النهر العجيب المبنى من حجر الصوان القرمزي الذي يحول دون فيضان النهر وتحت قبة السماء ذات اللون الرصاصي الداكن في وسط الشتاء — احتشد كبار رجال الكنيسة الروسية الأرثوذكسية ورجال المعية الإمبراطورية في ملابسهم الحريرية المزركشة والقراء . وفي هذا الثلج عملت فتحة ثم بارك أحد كبار التساوسة صليباً . وفي حركة تقضى بها الطقوس المسيحية القديمة يصحبها أصوات وثنية أسقط الصليب في المياه السوداء الجارية . وفي ٦ من يناير سنة ١٩٠٥ (بالتقويم الروسي القديم الذي ظل مستعملاً في روسيا إلى سنة ١٩١٨ وبعد التقويم الغربي بثلاثة عشر يوماً) في حضرة قيصر

روسيا سار الاحتفال التقليدى فى بهائه العادى رغم الأخبار السيئة عن الشرق..
الأقصى (سقطت بورت آرثر فى يد اليابانيين قبل هذا التاريخ بمدة وجيزة) وانتهى..
الاحتفال على وقع نعمة محزنة . وفيما يلى بيان لشاهد عيان له قدرة على الوصف:
المتع وهو شاب من الغرب — دكتور ليون وبربولر — مولود فى روسيا لسيدة:
ثائرة مهاجرة .

ووبربولر هذا كان قبل الحرب شخصية بارزة فى الأوساط الطبية والثقافية فى..
جنيف، وفى تاريخ حياته يصف الحفل الذى شاهده من أحد الجسور التى على النهر..
« لقد وقتت الجموع المحتشدة على بعد . وكانت ساكنة تعلوها الكآبة ..
ثم دقت الأجراس معلنة البركة الإلهية . وعلى حين غرة دوت فرقة صادرة من مدفع،
من حصن بطرس وبولس عبر النهر ، وعلا دخان طلقة المدفع على شكل كروى ،
وابتدأت التحية بإطلاق المدافع، ولكن طلقات مماثلة دوت فوق منصة الإمبراطور .
وكان المدفع محشواً برصاص شراويل السام ، وانفجرت القنبلة فوق حاشية..
الإمبراطور وأتباعه .

« لقد حشا أحد رجال المدفعية المدفع برصاص شراويل بدلا من الخراطيش .
وصوب نحو القصر ورجال الكنيسة مدفعه الذى أعده من قبل ولم يصب ،
وبينما كانوا ينقلون الموتى فر سائر الموظفين . ولم يظهر الإمبراطور أى هلع عندما
ارتدت الرصاصة من الجسر المبنى من حجر الصوان وسقطت عند قدميه ،
قد التقطها ووضعها فى جيبه قائلاً سأحتفظ بها تذكراً .

وقد تكون هذه القصة غير حقيقية . وإذا كان قولاً الثانى التقط تلك
الرصاصة لتكون تذكراً ، فقد كانت تذكراً لحرب طويلة جداً احتدمت بين
حكام روسيا ورعيّتهم المظلومة . ولم يكن فى استطاعة القصر والزائر القادم من.

جنيف أن يدركا أن القنبلة التي أطلقت في احتفال المياه المباركة كانت بداية سلسلة من الثورات الدموية غير المنظمة التي تعرف باسم ثورة سنة ١٩٠٥ ، وهي صورة للثورة التي قضت على الأسرة الملكية بعد ذلك بأثنتي عشرة سنة . لقد اندلعت الثورة في عنف شديد بعد هذه المؤامرة الفاشلة ضد القيصر . ولكي نفهم أسبابها ونحدد مدى الدور الكبير الذي قامت به في تهيئة الانقلاب العام في أوروبا ، يجب أن ننظر من قريب إلى شخصية آخر أسرة رومانوف العجيبة المحزنة ، وإلى المنظر الخلفي المكون من أسرته ، وإلى حالة روسيا في السنة الحادية عشرة من حكمه .

يقول الكاتب الروسي مرجكوفسكى في مذكراته تعليقاً على ثورة سنة ١٩٠٥ :
 « كانت لعنة عجيبة تنتقل في بيت رومانوف كما في بيت أتريد تنتقل من جيل إلى جيل . القتل والزنا والدماء والوحل — (هي الفصل الخامس من مأساة تقع أحداثها في ماخور) ، يقتل بطرس الأول ابنه ، ويقتل اسكندر الأول أباه ، وتقتل كاترين الثانية زوجها ، وعدا هؤلاء الضحايا العظام المشهورين كثير عدد جرائم القتل المؤلمة التي ارتكبتها الحكومة المستبدة ، منها إفان أنتونوفتش الذي قتل خنقاً في زنايات شلو سبرج كما تموت الفيران في الأركان المظلمة . إن المشاقق والحبال والسوموم كانت المميزات الحقيقية للحكومة المطلقة » .

وقولا الثاني لم يقتل أحداً في حياته إلا بضعة آلاف من رعاياه عن طريق تأدية الواجب . وكانت حياته الخاصة — على الأقل في نظر غير أتباع فرويد — خالصة من أى عيب أيجى . فقد كان ابناً باراً — مخلصاً — إن لم يكن محباً وأباً نموذجياً وملكاً حى الضمير . وإذا استثنينا اتصاله بالباكر قصير الأمد بالراقصة كسينسكايا — مما كان يعد من أسوأ تقاليد الأمراء في ذلك الحين — كان لنقولا النصيب الأوفر من الاحترام . وكان ذا عقل

يليد يحجبه عن الكفاة عزوفه الموروث عن كل ما له صلة بالحقائق الاجتماعية أو السياسية . إنه حاكم مطلق - ويعتقد أن من حقه أن يكون كذلك - كان في جميع خلاله الشخصية بورجوازية قحاً ، ومع هذا فاللجنة القديمة التي قال مرجكوفسكى إنها حلت في بيت رومانوف كانت صادقة بل متنبئة بالسنوات الأولى من حكم قولوا الثاني ، فإن هذا الإمبراطور الأخير رغم تصرفاته العادية بل غير المتكلفة ، ورغم مزاجه المعتدل وخلقه اللطيف كان يمثل أسرة رومانوف ، إذ كان وارثاً لعدد من أفسى الحكام المستبدين الذين عرفهم التاريخ . وفي النهاية مات في شيء من المجد المقوت موت آل رومانوف التقليدي في جحر مملوء بالدماء .

ومؤسس الأسرة - ميخائيل رومانوف سليل إحدى الأسر النبيلة التي برهنت على كفايتها في حروبها مع البولنديين - اعتلى العرش الخالي الذي تنازعه كثيرون دون أى عناء ، وكان في الخامسة عشرة من عمره سنة ١٦٧٣ . ويرجع الفضل في ذلك إلى الحاجة العامة إلى النظام ، وإلى ذلك الشعور الوطني القوي ضد الغزو الأجنبي بعد « الأوقات العصيبة » التي استمرت ٢٩ عاماً بعدموت إيفان الرهيب . وبعد وقت وجيز جداً كان على ميخائيل أن يعمل بكل قسوة للقضاء على ثورات جديدة قام بها الفلاحون أو القوزاق مما كان يهدد البلاد بالرجوع إلى الفوضى . وقام بمثل دوره خلفاؤه ألكسيس وفيدور الثاني وإيفان . وفي مدة حكمهم بعثوا الحياة في النظام الإقطاعي بعد وهنه ، وجعلوا له قواعد مرعية ، كما جعلوه وراثياً ، وزادوا نفوذ الملاك على العاملين في الأرض . وهكذا في الوقت الذي كانت أوروبا الغربية تخرج دون رجعة من ظلام القرون الوسطى رجعت روسيا إلى عهد الظلام ، وهكذا كان آل رومانوف يعملون على توطيد دعائم النظم الرجعية .

وحفيد ميخائيل رومانوف - بطرس الأكبر (١٦٨٢ - ١٧٢٥) - أسس أو شيد غير ذلك كثيراً من النظم الروسية الفريدة . وهذا العملاق - بالحق

الحرف والمعنى المجازى جميعاً - أتم صرح الحكم المطلق الذى وضع أساسه إيفان الرهيب
تقبله بأكثر من مائة عام . وجعل من روسيا ثكنة حرية شاسعة، وجعل من النبلاء
طبقة من الموظفين له خاصة . وجذب روسيا من شعرها من ظلام الشرق ووضعها
فى المجتمع الأوروبى الحديث . وهو الذى أوجد الانفصال بين التقدم الصناعى والتقدم
السياسى فى البلاد ، مما كان سبباً لما أصاب روسيائن الكوارث منذ حكه إلى الوقت
الحاضر . وهو الذى أزال بيده لحي كبار ضباط الجيش ، فهذه اللحي كانت غير
أوروبية وغير حديثة . وهكذا كانت موسكو مهد الملكية لروسية ومهد الدولة ،
فقد العزم على أن يؤسس على شاطئ البلطيق الذى ضمه حديثاً إلى بلاده عاصمة
جديدة تطل على أوروبا ، التى كان لفنونها وحضارتها وقع عظيم فى نفسه . وكانت
الأرض اللينة التى عند مصب نهر نيفا فى رأيه مكاناً مناسباً من الناحية الحربية ،
فاختار المهندسين الإيطاليين وسخر العمال فى بناء بطرسبرج فى هذا المكان . ومات
فى هذا العمل آلاف من الروسيين من المرض أو من الإصابات مما يتكرر كثيراً
فى التاريخ الروسى . وأصبحت المدينة أحد آثار بطرس . يشرف عليها - رمزياً -
ذلك التمثال الرأكب الهائل لمؤسسها فى ميدان سانت إيزاك ، الذى خلده فى إحدى
تقصائده الشهيرة ، « الرأكب البرونزى » الشاعر بوشكين .

وكانت بطرسبرج فى نظر عامة الشعب العاصمة الأجنبية منذ وقت إنشائها .
والثغرة النفسية التى أوجدها بطرس بإدخاله المدنية عن طريق العنف بين الشعب
ونظام الحكم كانت تنسج لاتضيق إبان عهود من خلفوه من الأباطرة .

وكان لبطرس الفضل الأكبر - فى تاريخ روسيا الطويل - فى خلق القومية
الروسية التوسعية ، وفى إنشاء مبادئ الحرية الأساسية . وسبق أن توسعت روسيا
من موسكو شرقاً عدة قرون ، وقد شجع بطرس هذا الانجباء التاريخى وأرسل
بعثات الاستكشاف التى بلغت بحر بهرنج ، كما أشعل نار الحرب العامية التقليدية

بقوة مع الإمبراطورية التركية للحصول على شعور على البحار الدفينة ، ولتحرير السلافيين المسيحيين في الجنوب الشرقي من أوروبا الذين كانوا لا يزالون يثنون من غير الحكم التركي . وقد كانت استراتيجية بطرس في الجنوب تنطوي على ذلك . الحلم الذي ظل يداعب خيال الروس مدى قرنين من الزمان ؛ بأن يستولوا على الدردنيل ، وتعرف رايتهم بنسر رومانوف ذي الرأسين في ذرى القسطنطينية الحرة ، المركز المقدس للمدينة الروسية .

ولم يكن بطرس وجل خيال أو أحلام ، ولذلك كان أكبر همه التقدم نحو الغرب حيث كانت له أهداف من المستطاع تنفيذها . ففي حرب طويلة لا هوادة فيها أخرج السويديين من القارة ، واحتل الجزء الشرقي من ساحل البلطيق ، وجزءاً من فنلندا ، ونصب حليفاً يكاد أن يكون ألعبوبة على عرش بولندا ، وهكذا جعل من روسيا في بضعة أعوام دولة أوربية عظمى .

ولقد ظل طيلة مدة حكمه واقفاً بالرصاد لثورات القوزاق والفلاحين ، التي كان يخفضها دون أدنى رحمة بالمؤامرات الحربية أو الأرستقراطية التي كان يدبرها بغاية الشدة . وكان ابنه ووريثه الجريء من وقع فريسة لإحدى هذه المؤامرات . لقد أغرى ولي العهد الشاب بالعودة إلى روسيا على أثر هروبه إلى خارج البلاد ومنحه العفو ، وأعلن على الملأ هذا العفو ، حتى إذا علم الشعب بمدى خيائته قدمه للمحاكمة التي قضت بإعدامه . وبطرس نفسه قد اعتلى العرش مستعيناً بانقلاب عسكري على عزل صوفيا أخته غير الشقيقة . وقد أوقع روسيا — بعدم إدراكه للنتائج — مدى قرن من الزمان في ثورات يضطلع بها القصر الإمبراطوري ، وفي منازعات حول ورثة العرش بوضعه ذلك المبدأ الذي يقضي بأن للإمبراطور الحق في اختيار خلفه كما كان متبعاً في روما القديمة .

قد ثلاثة من ذريته حياتهم في هذه المؤامرات للمستمرة التي ترتبت على هذا القانون العائلي المشؤوم . وكان أحدهم بطرس الثالث ، الذي قتله جماعة من النبلاء وضعوا على العرش كاترين زوجته الألمانية المولدة التي عرفت في التاريخ باسم كاترين الثانية أو كاترين العظمى (١٧٢٦ - ١٧٩٦) . وكان حكم كاترين الذي يعد نموذجاً للاستبداد والحرية في القرن الثامن عشر تغلقه المؤامرات والثورات الخطيرة الكثيرة إلى حد غير مألوف . ولقد أورثت خلفاءها مصادر جديدة للفساد وعدم الرضى بالمضى في غير هوادة في السياسة التوسعية التي انتهجها بطرس الأكبر . وكان تقسيم بولندا الأول بين روسيا وأسرة هوهنزولرن المثبثة في بروسيا في عهد فردريك الأكبر إحدى ثمار هذه السياسة الفاسدة . وخلف كاترين ابنها بولس (١٧٩٦ - ١٨٠١) وكان هناك شك ملحوظ فيمن هو والده ، ولكنه كان يعتبر نفسه الوريث الشرعي للعرش ، وكان يشعر أن كاترين كانت مغتصبة للعرش — وهو الواقع بدون شك . وكان يكره أمه لأنها مغتصبة ويحتقرها لأنها زانية ، ولربما كان يهتمها بأنها قاتلة ، وكان لا يوافق على أنها مستبدة مستنيرة . ولم يكن بولس نفسه إلا مستبداً . وقف وقفة المستبد المضطرب المتورط إزاء الحداثين الكبارين الذين وقعا هذه الحكمة : الثورة الفرنسية التي نشبت في أواخر حكم كاترين الثانية ، وعلاقته بابنه الأكبر .

في عام ١٨٠١ قام القصر بثورة دبرها جماعة من شباب الطبقة الأرستقراطية من أصحاب اسكندر الشخصيين والمتفقيين معه في مبادئه ، وكان فيها القضاء على حياته كرئيس مستبد للدولة ورأس مستبد للأسرة . ولقد اشترط اسكندر بطبيعة الحال ألا تمس حياة والده بأي سوء ، ولكن يبدو أنه لم يستمسك بهذا الشرط بتصميم قوي . واقترح المتآمرون حجرة نومه وخنقوه . وهكذا خلف أوديب الذي لم يكن بريئاً كل البراءة هاملت الذي تمددت جسده على الأرض .

ومنذ وفاة بولس الألبية أصبحت لعنته التي حلت على آل رومانوف غير ذات موضوع . بمعنى أنه منذ ذلك التاريخ كان اعتلاء العرش — اللهم إلا مرقاة واحدة — يحدث بطريقة منتظمة كريمة . لم يعترض. ولك بعد ذلك على والده أو والدته على ولده . (أيد بولس نفسه حق اعتلاء العرش بأن ألغى ذلك القانون الخطير الذى وضعه بطرس الأكبر وأحل محله قانوناً صريحاً للوراثة وجعلها حقاً للأكبر سنًا) . ومع هذا فإذا أنعمنا النظر وجدنا أن اللعنة قد تغير موضع حلولها ليس غير .

وأصبحت أسرة رومانوف كسائر الأسر الأوربية فى القرن التاسع عشر صاخة للحكم . ولكن القضاء المقدر عليها ظل يعاودها طيلة حكم الأباطرة الذين جاءوا بعد بولس فى العلاقة القائمة بين الإمبراطور ورعيته ، ونتيجة لحياة لبثت حوالى قرنين يسودها جو حزين كجو المأساة الإليزابيثية أو المأساة الإغريقية ، كان يبدو أن سياسة الأسرة تبلورت إلى ما يشبه الجنون الوراثى ، الذى أدى آخر الأمر إلى ما أهدرته الدولة نفسها من دماء ؛ مما لم تكف ثورتان إلى تخفيف حدته .

وبعد أن استهل اسكندر الأول (١٨٠١ — ١٨٢٥) حكمه وسط هالة من الحرية ، وبعد أن خرج من الحروب الفرنسية معتبرا أنه أصلح ملوك أوروبا (وكان من رأيه أن الحلف المقدس عبارة عن عصبة ملوك الأمم كما يقول سير برنارد بيرز) ، تحول إلى حاكم مطاق رجى على شاكلة أبيه (لا شك أن هذا جزاء السماء) ، ومات مروتاً طبيعياً فى الوقت الذى صمم فيه الثوار المتآمرون على خنقه أو تهشيم رأسه .

وكان نقولا الأول (١٨٢٥ — ١٨٥٥) أخوه ووريثه أقل منه شأناً وأكثر استبداداً . حاول ذات مرة أن يعلم بوشكين كيف ينظم الشعر ، وكان حكمه من أتفه العهود فى تاريخ روسيا الحديث . وكان أول ما اضطلع به فى بداية حكمه القضاء

على ثورة قامت بها فرق الحرس ، حاول ضباطها الأرستقراطيون - وفقا للتقاليد التي يرجع تاريخها إلى العهد الأول من تاريخ الأسرة - حاولوا أن يتآمروا ضد إسكندر رغبة في أن يعتلى العرش أخوه قسطنطين رغم تنازله رسمياً عن حقوقه في العرش ، وهذه الثورة التي تسمى ثورة ديسمبر لأنها حدثت في ٢٦ من ديسمبر سنة ١٨٢٥ ، كانت آخر ثورة قام بها رجال القصر في تاريخ روسيا ، ولكنها نموذج لنوع مستحدث بل خطير الأثر من الفوضى ، لأنها كانت إلى حد كبير فاتحة للثورات الثورية في روسيا .

وكان كثير من القادة والمؤيدين من الأحرار بل من الجمهوريين الذين استمدوا آراءهم من مبادئ الثورة الفرنسية ، وكان أحد أهدافها حصول روسيا على دستور للحكم .

واسكندر الثاني (١٨٥٥ - ١٨٨١) كان نوعاً جديداً من أفراد أسرة رومانوف . كان شديد الولاء لأبيه كما كان مؤيداً لمبادئ بقولا الاستبدادية ، وكان ذكياً على خلاف سلفه ، وبصفه سيربر نارديرز المؤرخ البريطاني لروسيا الحديثة بأنه « محافظ شريف أجبره منطق الحقائق القاهرة على أن يجعل في مقدمة أعماله تحرير عبيد الأرض » .

ونظام عبيد الأرض كان سبة لروسيا وجرحاً دائماً في حياتها القومية . وهو المشكلة الاجتماعية الأولى في ذلك العصر . ولم يكن هناك ما هو أدعى إلى الإصلاح منه ، كما أنه لاشيء أقدر على تبديل الحياة الاجتماعية في روسيا في هذا الإصلاح وبخاصة إذا ما نفذ بحزم وبلا هوادة ، وفلا كان الإصلاح الذي جاء به إسكندر صالحاً ونفذه بحزم .

وهو لم يقض بتحرير فلاحي الأرض فحسب - وهم الذين كانوا مرتبطين بها تابعين لها كأئتهم بعض السلع التي كان يملكها صاحب الأرض - ولكنه ملكهم

نصف مساحة الأرض التي كانوا يعملون بها بثمن يدفع للدولة على أقساط تبلغ عدتها تسعة وأربعين قسطاً .

وكان للقانون الذي تم بمقتضاه تحريرهم معيماً من بعض الوجوه ، فبدلاً من أن يمنح كل فلاح قطعة من الأرض خاصة به جعل الملكية جماعية لعدد من الفلاحين ، وهكذا بنى أساس الحكم المطلق على مبادئ جماعية لا على مبادئ فردية^(١) ، كما يقول المؤرخ بيرز . ولقد نجم عن ذلك نتائج خطيرة في المستقبل . على أنه لم يعتبر رجياً حسب المفاهيم التي كانت سائدة في ذلك العهد . على أن الإصلاح نفسه كان عنيفاً على كل حال .

وفي أثناء حكم أسكندر الذي استمر ستة وعشرين عاماً خبطت روسيا خطوات صريعة لسد الثغرة التي كانت لا تزال تفصل بينها وبين المجتمعات المتقدمة في الغرب . وموجة الضغط التي طغت على غرب أوروبا بعد الحركات الثورية التي وقعت سنة ١٨٤٨ لم تنحسر عنها انحساراً تاماً . أما في روسيا فحركة التحرر التي لبثت زهاء نصف قرن في ايل طويل كليل المحيط المتجمد أخذت تظهر من جديد .

ثم إن التي اللعنة حلت على رومانوف عادت من جديد: لقد أخذت الحكومة الاستبدادية بدافع مما تحس به من عدم الثقة وما جبلت عليه من الظلم — أخذت تعامل بمنتهى القسوة النارودنيكي (ومعناها الحرفي رجال الشعب) ، وهم هيئة صغيرة من رجال الرأي من طلبة الجامعات عادة من الجنسين جميعاً ، يثقون ثقة كبيرة في أن يعيشوا « مع الشعب » ، أي بين الفلاحين يشاركونهم حياتهم الخشنة ،

(١) لا غرابة في أن يكون هذا التقدّم وجهاً من المؤرخ البريطانيين ، لأن بلاده تسير على النظام الرأسمالي ، ولذلك رأى فيما اتبعته روسيا معيماً لأنه يتعارض مع ما ألفه البريطانيون في حياتهم الرأسمالية (المترجم)

ويعينونهم على رفع مستواهم ومعرفة حقوقهم الإنسانية . وهي حركة روسية أصيلة
 موفية إلى مدى بعيد ، وإن كانت غير عملية إلى حد ما ، ولكنها حركة لها أهميتها على
 كل حال . وكان كثير من أفراد هذه الهيئة من رجال الإصلاح الاجتماعى ، وبعضهم من
 المصلحين الخياليين الذين لا ضرر منهم ، وقلة منهم كانوا من المهيجين الثوريين .
 وحتى بين هؤلاء الثوريين من كانوا غير راضين عن أعمال العنف . على أن للجماعة
 نواة صلبة من المتعصبين الذين جعلت منهم الكراييج وحجرات التعذيب التى
 كان شرطة القيصر يستعملونها ، والسجون فى منطقة القطب الشمالى ، ومناجم الملح
 «السييرية» — جعلت منهم سياسيين متوسين . وقد نحت لهم الكاتب الروسى
 الكبير ترجينيف اسماً خاصاً بهم فأسماهم (النيهليستين Nihilists) . وكان قلدتهم
 أو الكتاب الذين يعجبون بكتابتهم هم : ميخائيل باكونين الكاتب الفوضوى
 المحترم والداعى إلى الإرهاب ، ومرج نيكخايف الثائر النموذجى الذى أخذ عنه
 دستوفسكى صورة بطله فى قصته ، وبيتر تكاشيف ، الثائر المفكر صاحب
 المؤامرات المنظمة ، وهو أحد من كان يدين لهم لينين ديناً أدبياً كبيراً . (أوصى
 تكاشيف مرة بأن يعدم كل روسى تزيد سنة على خمسة وعشرين عاماً لأنه لا يمكن
 أن يساير الزمن الذى يعيش فيه) .

ثم إن نشاط « الفوضيين » زاد فى حركة أحد أجنحة النارودنيكى بسبب أعمال
 رجال الشرطة واضطهادهم للعناصر المعتدلة من الثوريين . وأسس المتطرفون منهم
 بمعونة جماعات المهاجرين جمعية للمؤامرات أسموها إرادة الشعب ، جعلوا القنبلة
 شعارها . وكانت هذه نواة انبثق منها الحزب الاشتراكى الثورى ، وهو أحد
 الحزبين الروسين الكبيرين الثوريين فى القرن العشرين . وفى عهد اسكندر الثانى
 لم يكن حزب إرادة الشعب يضم إلا بضعة مئات من الأعضاء ، لكنهم كانوا

مسلحين ومدربين على أعمال المؤامرات ، ومنظمين في عدد من الخلايا ، ويكفي هذه للقضاء على كل أمل .

وقد فشلت محاولتان لقتل القيصر ، أما الثالثة التي وقعت في ١٣ من مارس سنة ١٨٨١ فقد نجحت عقب توقيعه أمراً إمبراطورياً بدستور أوتر يهدف إلى ترضية الأحرار . إذ ألقى أحد الإرهابيين قنبلة على عربة القيصر بينما كانت تتحرك شوارع بطرسبرج في استعراض حربي . وأطل الإمبراطور يبدى اهتمامه ببعض حاشيته من القوزاق الذين أصيبوا . عندئذ ألقى قاتل آخر بولندي قنبلة ثانية وهو يصيح « لم نلح الوقت لكي نحمدا الله » . وهشمت ساق أسكندر وشوهت وجهه ومزقت بطنه . فقال في ألفاظ مختلطة « إلى القصر لأموت هناك » . وتجمعت أسرته بما فيهم حفيده نقولا الذي صار فيها بعد نقولا الثاني وكان في الثانية عشرة من عمره وفي لباس بحار ورأوه يلفظ آخر أنفاسه . وأدى قتل القيصر إلى رجوع روسيا القهقري إلى ظلام الرجعية الدامس . وقد أخذ الظلام يشتد دون انقطاع حتى حكم ابنه أسكندر الثالث (١٨٨١ - ١٨٩٤) الذي حرم فيه الرقيب أن يطبع لفظ الدستور في صحف ذلك العهد .

وكان في طوله ومثانة جسمانه شبيهاً بجده البعيد بطرس الأكبر (مع أن لحيته أكتسبته شيئاً من الوقار) ، ولكنه كان في الوقت نفسه يشبه القيصرين السابقين . نقولا الأول وبولس الأول في أحكامهما السياسية . كما ألقى أو أوقف كثيراً من وجوه الإصلاح التي أتى بها أبوه ، كما أخذ يصب جام غضبه على الثوريين .

وفي سنة ١٨٨٧ قبض على طالب إرهابي في العشرين من عمره في مؤامرة قام بها حزب إرادة الشعب لقتل القيصر في يوم ذكرى قتل أسكندر الثاني ، وحكم

يأعدامه . وطلبت أمة تصريحاً بزيارته ، فكتب القيصر على هامش الرجا الذي . قدمته تلك الأم البائسة « أرى أن يسمح لها بزيارة ابنها لتشهد بنفسها أى رجل كان ولدها العظيم » .

وقال الشاب عند محاكمته تفسيراً لما قام به أو لما كان يعتزم القيام به . « فى . مثل هذا النظام من الحكم الذى لا يسمح بحرية القول ويقضى على كل محاولة للعمل لصالح الجماعة وتنقيفها بالطرق المشروعة يكون الإرهاب هو الوسيلة الوحيدة . الباقية » .

وقد شفق الشاب هو وأربعة من زملائه المتأمرين فى ساحة قلعة شلوسبرج . صباح ٢٠ من مايو سنة ١٨٨٧ . وكان اسمه اسكندر إيلانوف ، وكان له أخ فى السابعة عشرة هو فلاديمير الذى صار فيما بعد أحد رجال المؤامرات ، وكان يكتب بتوقيع نيكولاى لينين . ومن الشخصيات التى اشتهرت فيما بعد وكانت من زملاء . اسكندر إيلانوف ، جوزيف بلزودسكى محرر بولندا . وكان قد قبض عليه فى المؤامرة . ضد القصر ، ولكن أفرج عنه إفراجاً مؤقتاً . وقد أصيب لينين بصدمة نفسية شديدة عند ما علم أن أخاه الأكبر الذى كان يحبه ويعجب به قد مات كما يموت . المجرمون الجريمة لم يتجاوز التفكير فيها ، وألبس غطاء الرأس الأسود ودقت عنقه فى المشنقة . وقد كانت كذلك صدمة نفسية عنيفة للشاب اسكندر الثالث عندما جاءوا بأبيه الذى كان يحبه ويعجب به إلى قصره كومة ملطخة بالدماء محجلة بالسواد . وكان رد الفريقين واحداً على المأساة الواحدة . فلن يرحم أحد الفريقين . الفريق الآخر الذى هو عدوه . (والعدو فكرة غير محددة تسمى الثورة . أو تسمى الحكم المطلق بل قد تكون الطبقة العليا) . وكان كل فريق يقدر ذكرى . الشهيد الضحية ، ولكنه كان لا يعجبه العمل الذى يؤديه . وتخلّى اسكندر عن .

سياسة الإصلاح التي بدأها والده . وتخلى لينين عن المبادئ الثورية التي كان أخوه يدين بها ، مثله في مبادئ النارودنيكي أو إرادة الشعب مع ما يصحبها من سياسة الإرهاب ، وكان يدين بمبادئ ثورية علمية قاسية تقوم على نظريات كارل ماركس الاقتصادية .

وهذه الصورة الروسية التي كان أساسها الديمقراطية الاجتماعية الماركسية ، والتي تولدت عنها في فرنسا نظرية جان جوريه في الاشتراكية الديمقراطية النفعية ، وجهت نحو الصناعات الذين في المدن الكبرى أكثر من تطبيقها على الفلاحين البائسين القلقين الذين كانوا الشغل الشاغل للقائمين بالثورات الروسية التقليدية ، سواء النارودنيكي (حزب إرادة الشعب) أو خلفاؤهم الثوريون الاشتراكيون . ونظراً لأن روسيا كانت أمة زراعية في الأعم الأغلب إلى أن جاءت الثورة ، لم يكن للديمقراطيين الاشتراكيين الماركسيين إلا نصيب محدود في الحركة الثورية التي كانت في روسيا قبل الحرب . ومع هذا فالتصنيع كان يخطو خطوات واسعة في روسيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وأذنت شمس لينين أخيراً بالشروق .

وحكم اسكندر الثالث يهيء لنا دراسة متممة لمعالجة النظم الاجتماعية والسياسية الفاسدة في الأزمنة الماضية . فعندما يتعرض نظام الحكم للجرائم الثورية ، فإنه يفرز أجساماً مضادة ضعيفة لا أثر لها إلا تقوية الجرائم . والنتيجة التي نجمت عن هذه الحالة هي اللينينية ، أي المبادئ الثورية التي ستعرف فيما بعد باسم اللينينية ، يبعد أن جعلتها التجارب الإنسانية والظروف التاريخية أشد بأساً وأعظم أثراً .

وفي الوقت نفسه يتولد عن الحالة القائمة آراء تتعارض مع الاتجاه الثوري، وتضر بمرأى كرها العصبية ذاتها وتفسد أحكامها وتعجزها عن القيام بالأعمال المنسجمة، وبذلك تقعد عنها عن أن تدرأ عنها أعداءها. ولعل أهم من عمل على هذا التسمم الذاتي، في روسيا رجل مغرور متزمت مستبد برأيه اسمه كونستانتين بوبدونوستسييف، كان في تعصبه الشديد أشبه بليتين.

وكان في شهرته الغبراء - بل السوداء جدا - يمثل حكم اسكندر كله. وهو الذي ألف معظم الأوامر والقوانين التي أصدرت باسم القيصر. وكان فوزه بالغ: الضرر من حيث كونه مرييا لولى العهد نقولا، وبعد ذلك مستشاره بعد أن اعتلى العرش عند وفاة اسكندر (وفاة طبيعية) سنة ١٨٩٤.

وكان نقولا الثانى أكبر من ليتين بسنتين، فقد ولد في ١٨ من مايو سنة ١٨٦٨. وإذ كان وريثاً لحوالى ثلاثة قرون من المجد الإمبراطورى والمآسى والجرائم، كان في خلايا جسمه قليل من كروموزومات أسرة رومانوف.

وفي ضوء ما لكاترين الثانية من حماقات؛ ليس من المؤكد أن يكون فيه شيء من هذه الكروموزومات مطلقا. كما أن في عروقه قليلا جدا من الدم الرومى الحقيقى. وقد تجمعت الأسرة إلى حد كبير من قبل مولد كاترين. وكانت أم نقولا ماريا فيدوروفنا أميرة دانياركية، هى أخت ألكساندرا ملكة بريطانيا. ولم تكن تربية تربية قومية، بل كانت عالمية، وكانت ثقافته خليطاً من كل الثقافات. وكانت هذه هى التربية النموذجية في الأسرات الملكية في ذلك الوقت، مع غلبة العنصر الإنجليزى بفضل الملكة فكتوريا. ومع هذا فلم يكن لغيره من القياصرة ما كان له من روح روسية. وعلاوة على ماله من أخلاق الرجل الإنجليزى الفتح وآدابه، كان له في كثير من تصرفاته الطباع التى دفعها العبودية والاستبداد عدة قرون في النفس الروسية. وكان رقيق الشعور عنيداً شجاعاً نقي الطوية. غامضاً صبوراً (وكان يوم،

حميلاده عيد أيوب) ذا عقل حالم ، وكان تقيا إلى حد الخرافة (أو مخرفا إلى حد التقوى) متقلبا . ضعيف التأثير ، قليل الثقة في الخرافات . وكان في مسلكه أشبه بفلاحى أبيه في ضعفهم وقناعتهم ، ولم يكن في ذلك أية غرابة ، فالفلاح وولى العهد نشأ كلاهما في ظل الاستبداد ، إلا أن ولى العهد كان إبان تكوين طباعه أقرب إلى الإمبراطور المستبد .

ومع أن إسكندر الثالث كان محبا للنظام إلى أبعد الحدود إلا أنه كما يبدو لم يعامل ولده بقسوة وفق المعايير الفكتورية . ولكنه كان ضخما قوى البنية ، شديد الثقة بنفسه ، قوى الإرادة ، جليل المظهر ، مما أثر في الولد الضعيف الوديع (الذى أشير عليه بالأ) يظهر للكافة إلا وهو ممتط جواده كما أمكن ذلك ليخفى (مظهره الهزيل) ، حتى إنه كان يشعر دائما أن أباه قاهره وغالبه على أمره . ولا شك أن رؤيته لمقتل جده من قبلة ألقاها عليه إرهابى كانت شديدة الأثر على أعصابه . وكان نقولا لطيفا في حديثه ولا يحب المناقشات الحامية أو المعارضة الصريحة . وقما حدث الغير إلا بما يخالفهم راغبين في سماعه ، وكان لا يطبق أن يستمع من مستشاريه الذين يحيطون به — على ما فيهم من ذلة وانكسار — إلا ما يرغب هو في سماعه .

جاء في كتاب رتشارد شارك « أضواء خافتة على روسيا الإمبريالية » « . . . إن الوزير الذى استقبل بمظاهر كاذبة من العطف عرف من مذكرة جاء بها رسول من قبل الإمبراطور في اليوم التالى أنه طرد ، بل الأدهى من ذلك عرف من الصحف الصباحية أنه قدم استقالته » .

ومن سوء حظ روسيا وحظ السلم في أوروبا أن نقولا كان حاكما مطلقا عديم الكفاية ، ولكنه كان مغررا به على الدوام . وكان عدد من أصحاب النفوذ متآمرين معا على السيطرة على عقله ، وكان أهمهم زوجته ألكسندرا فيدورفنا من بيت هس .

دارمستاد ، أحد بيوتات الإمارات الصغرى الألمانية ، وكانت نشأتها - في فترة منها على الأقل - في قصر كترنجتن لدى جدتها الملكة فكتوريا .

وكان لألكسندر اشعر كستنأى فاتح ، وعينان ذواتازرقة قائمة ، وتقاطيع كلاسيكية جامدة ، كان من شأنها أن تضيئ على وجهها جمالا جديراً بالأسر الملكية ، لو لم يكن فيها شيء من البرودة . وكانت تتحرك في رشاقة متكلفة وكانت مشيتها جامدة ثقيلة شبيهة بمشية البقر . ومع أنها كانت في الثورة الروسية ما كانت بارى أتوانيت في الثورة الفرنسية في بعض المظاهر السطحية ، إلا أنه لم يكن فيها إلا القليل من صفات سيدة فرساي . وكان من صفاتها الجد والخلق الصالح ، وتمتاز بإمالتها من مبادئ دينية واجتماعية قوية . ومن صفاتها أنها تقدر القيام بالواجب ، وكل هذه صفات تعرض صاحبها لأعظم الأخطار . وكانت علاقتها بنقولا عجبية وكذلك كانت شخصيتها . كان فيها كما سترى فيما بعد عنصر غير سليم ، بل عنصر مخيف . ولكن كان بين الزوجين علاقة رومانتيكية قوية منحتهم من العظمة والإخلاص ما لزمهما طول حياتهما . إن حياتهما كانت قصة عجبية ، كما اشترك في تأليفها هانز كرستيان أندرسن وتنسى وليامز .

وقد تقابلا في سانت بطرسبرج في حفل زفاف إليزابيث أخت ألكسندرا إلى اللوق سرجيوس أحد إخوة أسكندر الثالث . وكانت إلكسندرا في الثانية عشرة من عمرها في ذلك الحين ، وكان نقولا في السادسة عشرة ، وكل منهما لم ينس هذه المناسبة ، كما أن أحداً منهما لم ينس صورة صاحبه . ولعل نقولا صمم في ذلك الحين يوفي ذلك المكان على لزواج من ابنة عمه الإنجليزية الخجولة غير الرشيدة إنا بلغ «رشده» ، وكان يظنها إنجليزية .

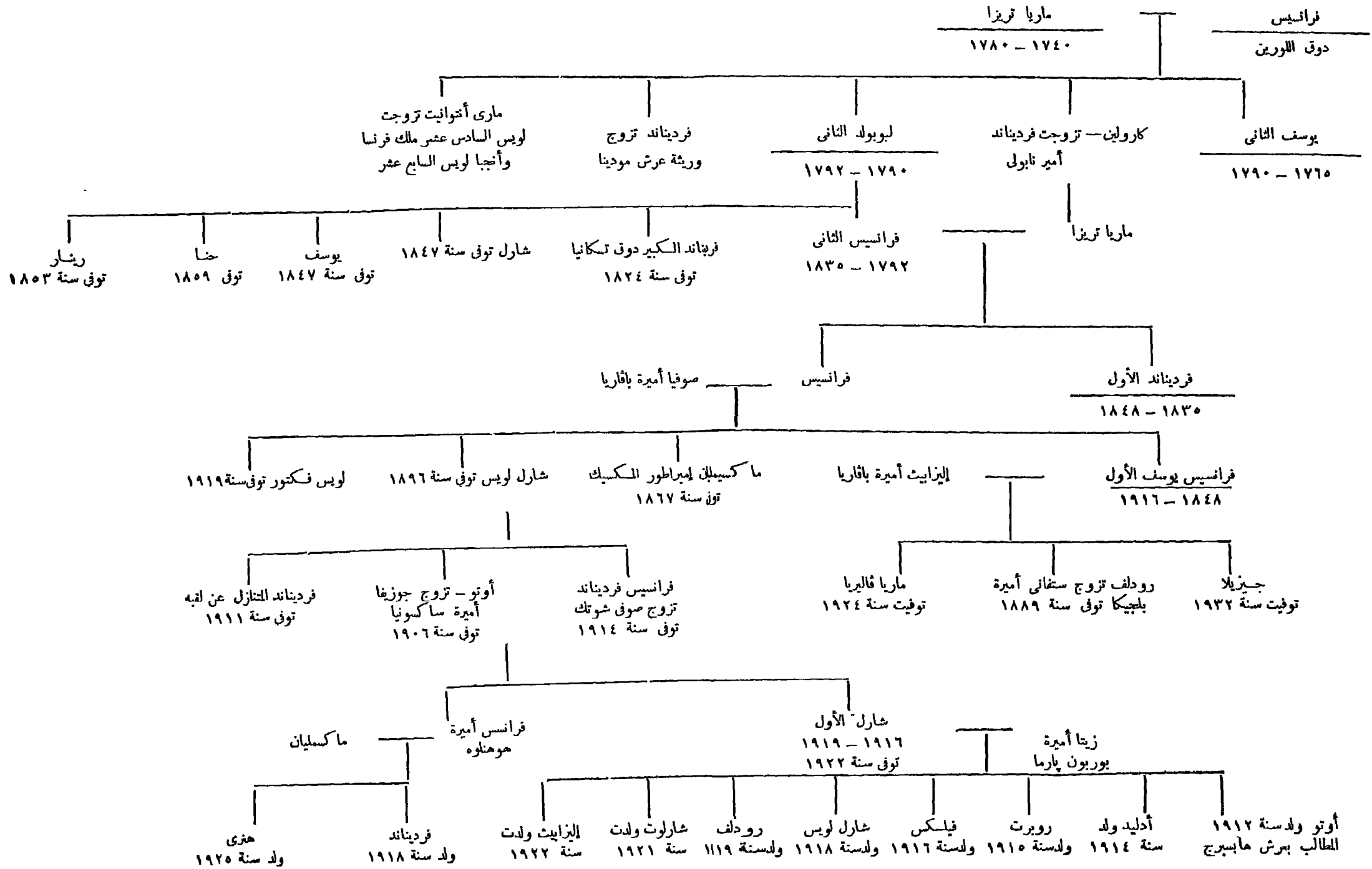
وقد كانت هناك عقبات خطيرة تحول دون القران عندما حان موعد تنفيذه .

فقد عارض اسكندر الثالث وهو رئيس الدولة المطلق وكبير الأسرة المطلق ، كما عارضت أم قولاً في هذا القرآن؛ وألكسندرا نفسها رغم أنها كانت تحب قولاً من أول نظرة ، إلا أنها كانت غير راضية عن الميل الذي جنح إليه قلبها . إذ رأت في قولاً شاباً متلافاً ليس له هدف خطير في الحياة .

ثم إن تنشئتها في بيت فكتوريا وما راود عواطفها الناضجة من خيال مثالي رومانتيكي (لقد ظلت إلى أن تقدم بها العمر ميالة إلى قصص ماري كوريلي المحترمة) . كانا يثنيانها عن هذا القرآن التافه الذي لم يكن يهدف إلى غرض نبيل أو أمر جليل . وفوق هذا كان زواجها من قولاً يقتضى التخلي عن ديارها واعتناق الديانة اليونانية الأرثوذكسية ، فلا التفكير السريع ولا الرأي الناضج أقنعها بأن تقبل هذه التضحية أو هذه الهزيمة . وما قالته ذات مرة لاختها إليزابيث في شيء من الاعتزاز برأيها عندما تخلت عن ديارها لزواج الدوق الروسي « ليس الدين قفازاً يلبس حيناً ويخلع حيناً آخر » .

وكان من معجزات الحب أن قولاً الضعيف الإرادة المستسلم دائماً للقدر ، صحت عزيمته وقوى تصميمه وتغلب على جميع هذه العقبات . وفي سنة ١٨٩٢ — وكان في الرابعة والعشرين ، وكانت ألكسندرا في العشرين من عمرها — تحدى إرادة والديه وسافر إلى ألمانيا وتناسى خطاب ألكسندرا الذي كانت بعثت به إليه تقطع علاقتها به إلى الأبد ، وهناك أقنعها بتغيير رأيها . جاء في مؤلفه . م أندنجن . من الكتاب القلائل الذين كتبوا عن حياة أقل ضخمة في التاريخ استحقاقاً للعطف والثناء (الإمبراطورة ألكسندرا) تاريخاً يفيض بالعطف عليها ورقيق الشعور نحوها ، هو تاريخ شرحت فيه خضوعها الذي قالت عنه إنه يستحق الثناء من الناحية السيكلوجية ، وفسرته تفسيراً جديراً بأن تكتبه ألكسندرا لو أنها هي التي جاءت بهذا التفسير . قالت مس أندنجن « قد قبلته أخيراً لأنها تحققت أنها

أسرة هابسبرج لورين



هى — هى دون غيرها — التى تستطيع أن تربه الواجب من الزاوية الوحيدة التى تمكنه من رؤيته . وإن عطفها عليه كان من القوة بحيث تستطيع أن توقظ فيه الخلال الطيبة التى كانت فى سبات وركود . وإنها بزواجها به تستطيع النصيحة والإرشاد . وإنهما فى شعورهما بالسعادة المشتركة يستطيعان أن يقوموا بالواجب إلى أبعد مدى . وعندما أنعمت التفكير فى هذه النقاط انتهت إلى أنها لم تخالف ضميرها مثقال ذرة . . . وكانت هذه مشيئة الله وإرادته » .

وليس فى مذكرات تقول اليومية أية دلالة أو إشارة إلى أن أى شك من الناحية الدينية أو من أية ناحية أخرى فيما تنطوى عليه مواقعة ألكسندرا ، أو كانت لديه أية فكرة عن محاولاتها العنيفة لتغيير شخصيته مما لا بد قد تناولته فى حديثها معه . . . ولقد كتب فى يومياته ببساطة وبأسلوب عادى يعبر عن سروره بخطبتها له « إنه يوم من أيام الجنة لا يمكن أن ينسى . كنت فى حلم سعيد طول اليوم » .

والواقع يمكن أن يقال إنه ظل فى حلم طول حياته ولم يستيقظ ؛ وكذلك كانت ألكسندرا . ثم قرأهما سنة ١٨٩٤ عقب اعتلائه العرش ، وما كتب تقولاً فى يومياته عقب قرأه « كما انقضى يوم أحد الله وأشكره من صميم قلبي للسعادة التى غمرنى بها » ، وأضافت ألكسندرا بعد يومين « ما كنت أتصور مطلقاً أن يكون فى الدنيا مثل هذه السعادة ولا مثل ذلك الشعور بالوفاق بين شخصين » .

وفى أثناء الخطبة وقبل القران بدأت تقرأ ما فى يوميات خطبتها ، حتى لا يكون بينهما (تحفظات) ، وربما أضافت بخطها ما عن لها من حين إلى آخر . وأغنية الحب الثنائية التى سجلها القيصر فى مذكراته وفى رسائل القيصرة إليه ظلت (م ٧ — الأسرة)

تتردد أنعامها خلال ثلاثة وعشرين سنة من الزوجية ، تتخللها من وقت إلى آخر أغنية جماعية إذ أصبح لها أربع بنات وولد ضعيف ، هو ألكسيس الذى كان المرض الذى ورثه هو النقطة السوداء الوحيدة — الكثيفة — فى النعيم الذى يهنأ به الزوجان الإمبراطوريان .

وفى أيام عزوبته كان قولا شاباً مرحاً محباً للاجتماع ، يقضى كثيراً من وقته فى الرقص والميسر واللهو مع أصحابه الذكور . وصرعان ما بدله الزواج شخصاً آخر . ولألفة الروحية بين الزوجين مدى السنين أصبحت وحدة نامية بين الزوج والزوجة والأبناء فى عيشة أقرب إلى الحياة الريفية البعيدة عن الأعباء المدنية ، فى قصر جاتشينا خارج العاصمة أو فى زاركو سيلو التى كانت أشبه بفرساي فى حياة كاترين العظمى . ونجحت ألكسندرا بشكل ما فى أن تجعل الأجنحة الخاصة بهما فى القصر أشبه شئ بالكوخ ، الذى يقضى فيه متوسطو الحال من الإنجليز شهر العسل ، وزينته بأثاث مصنوع من الخيزران وزينات من الخرز . وقلما كان قولا يزور العاصمة . وكان يقضى كل وقت فراغه فى حجرة أولاده ومخدع زوجته وحجرة طعام الأسرة ، التى قلما يدعى إليها الزوار الرسميون ، والتى فيها الأعمال الحكومية محرمة . وكان يقضى الأمسيات عادة فى القراءة — وبخاصة القصص الإنجليزية — على مسمع من ألكسندرا التى كانت لا تهوى مجتمع بطرسبرج ، إذ كانت تراه تافهاً موقياً غير أدبى ، ولعله كان كذلك فعلاً . ونقصت الحفلات الرسمية فى عهد قولا إلى أدنى حد ، وألكسندرا كانت دعواتها للغداء العادى نادرة كذلك . هذا ولو أنها كانت تردد على الدوام قانون واجبات الحكم المطلق لزوجها المتساهل ، فيبدو أنها كانت هى تمت كل شئ بما فى ذلك واجبات الدولة المقررة التى كانت تلهيه ولو قليلاً عن أسرته . وهكذا نرى أن ألكسندرا ولو أنها قوت وأصلحت خلق زوجها ، إلا أنها شجعت فيه العزلة عن رعيته التى كانت إحدى عيوبه الخطيرة كما حكم البلاد .

ومن عجب — مع ذلك — أن أكبر نصيب لـالكسندرا في سقوط أسرة «رومانوف لم يكن في محاولتها تقويم أخلاق زوجها بقدر نصيبها الجبار في تعديل أخلاقها ، وفي محاولتها الملائمة بين نفسها وبين بلاد زوجها وثقافتها ، وكانت تبذل الجهود العنيفة لتسكون روسية مما كان يثير الضحك . وفي تغييرها عقيدتها اللوثرية الصميمة واعتناقها الدين الأرثوذكسى بما فيه من المظاهر الدنيوية الخلابية ، اتبعت في الوقت نفسه كل ملحقاتها الإضافية من خرافات ودجل ديني مما يروق النفس السلافية وتقع فريسة سهلة له . وعند ما تخلت عن الليبرالية الإنجليزية التي نظرت يوماً ما بعين السخط إلى أسرة زوجها ، لم تكن قد قبلت مبادئ الحكم المطلق فحسب ، بل احتضنتها بحماسة قوية كانت أليق بالعصور الوسطى حتى في نظر الروسيين . وما قاله تروتسكى عنها « أنها اتبعت في شيء من العنف البلاد كل تقاليد القرون الوسطى الروسية ومعتقداتها مع أنها أسخف من مثيلاتها في سائر البلاد في ذلك العهد . فعلت ذلك في هذا العهد الذي يبذل الجميع جهوداً جبارة للتخلص منها » . وهى بهذا قد شحنت عقل زوجها بنفوذ قوى خاطئ سبق أن قام بمثله مستشار أبيه العجوز بوبدونوستسيف .

وأستاذ قولاً الذي كان من قبل أستاذاً لأبيه اسكندر الثالث لم يكن رجلاً متحمساً فحسب ، بل كان فيلسوف الرجعية .

ولد في عام ١٨٢٧ وقضى حياته في الطعن في الثورة الخاطئة — ثورة سنة ١٧٨٩ الفرنسية . وكان أعداؤه — اتباع المعقول والتقدم والحرية الشخصية والنظم الليابية والمبادئ الدستورية ، وأشدّها عداوة عنده سيادة الشعب « المبدأ الخاطئ » القائل بأن الشعب مصدر السلطات » . وكان عاجزاً عن أن يرى أو على الأقل أن يفهم ما كان في الحركة الثورية الروسية من الاهتمام بالاشتراكية العلمية أكثر من الحقوق الإنسانية ، كما كان عاجزاً عن رؤية النمو المستمر في الفوضوية واللينينية

القادمة ، وما يصحبهما من تشائمهما البارد الشبيه بتشائمه الذى يستشعره . ، والميل ،
الواضح نحو الدكتاتورية ، وإن كان أقل صرامة من ميله إليها .

ولقد كان بوبدو نوستسيف هو الذى أنشأ أول تصريح سياسى لنقولا عقب
أعياد العرش مباشرة ، وكان فيه لوم شديد ، رداً على إحدى رسائل التهئة الواردة
من أحد المجالس المحلية التى تألفت بناء على قانون الإصلاح الذى أصدره اسكندر
الثانى . إذ كان فيها الجرأة على أن تتضمن قدراً مقنعاً لتصرفات الشرطة الظالمة وتوسلاً
بسيطاً بزيادة اشتراك المجالس المحلية فى الأعمال العامة . وفى هذا الزد وفوق توقيع
قولاً كتب بوبدو نوستسيف « أحلام سخيفة » كما أضاف أن القيصر متمسك
بمبادئ الحكم المطلق « بشدة وبلا تردد » .

ونظرة بوبدو نوستسيف فى الحكم المطلق التى اتخذها قولاً مبدأ لمغير منازع
كانت تقوم على بعض معميات الدين ، وخلاصتها التى فسرهما أحد أتباع
بوبدو نوستسيف إلى السفير الفرنسى كما يلى :

« إن القيصر قد باركه الرب وأرسله حارساً أعلى للكنيسة وحاكماً أسمى
للامبراطورية . وحيث إنه تلقى سلطانه من الله فهو مسئول أمام الله وحده . . .
والنظام النيابى مروق وتفكير سخيف » .

وفى روسيا الحديثة إبان القرن العشرين كان لا مفر من أن تدفع المبادئ
البيزنطية الحديثة الأحرار إلى صدام خطير مع المحافظين فى أقصى اليسار . وفى سنة
١٩٠٤ أسس عدد من نواب المجالس المحلية الأحرار سراً اتحاداً عاماً للتحرير ، وهو
حدث تاريخى ينذر بما سيحل فيما بعد بالحكومة الملكية . وحتى من تلقوا
تعليمهم فى الغرب من مؤيدى الحكم المطلق من المهندسين والإداريين ورجال

الأعمال الذين يمكن أن يرحبوا بتطوير الحكم المطلق المبني على أسس ومبادئ أقل إيثالا في القدم، كانوا موضع سخط ولم ينالوا أى تشجيع .

وقولا الثانى - مدفوعاً بتشجيع ألكسندرا - غلا في تطبيق مبادئ أستاذه إلى مدى انتحارى باستمساكه بالمعنى الحرفى لحقوقه وواجباته بوصفه ملكاً مطلقاً . ولقد شكوا بوبدونستسيف ذات مرة من أن التقاليد المتبعة في بلاط آل رومانوف كانت تمنعه من اختيار تلميذه، ولكن ما عليه من ذلك . فإن تصرفات هؤلاء أظهرت أنه قام بواجباته المنزلية بأمانة وصدق . ولما أصبح قيصر لم ينفذ هذه السياسة على هواه فحسب بل كان لا يثق في أحد غيره في تنفيذها . وكان يرى الوكالة من صاحب السلطان مخالفة لمبادئ الحكم . وكان يفار من الموظفين الذين ينجحون نجاحاً كبيراً في تنفيذ ما أمرهم هو بتنفيذه ، وحاول أن يحكم إمبراطوريته في القرن العشرين مع ثقل أعباء الحكم فيها وسعة حركة التصنيع إلى حد الفشل وتعقيد العلاقات الخارجية بنفس الأسلوب الذى جرى عليه بطرس الأكبر في القرن السابع عشر . وصمم على ألا يستعين بسكرتير خاص ، على أن يقوم هو بإغلاق الظروف التى يبعث فيها بالمسكاتبات الرسمية . وكان لهذه التصرفات في أداء الأعمال أكبر الأثر في الفوضى الزمنية في الأعمال الحكومية ، بل في الشلل التام الذى أصابها والذى كان غاملاً مهماً في سقوط أسرة رومانوف سقوطاً لم تهم لها قائمة بعده .

ولم تكن الألاعيب السياسية الأخرى التى بثها بوبدونستسيف في عقله قولا وكيف بها سياسته أخطراً فيما يترتب عليها من آثار . منها مسألة الجنسية الروسية العامة التى دخلت في نطاق تحديد الجنسية السلافية ، إذ رأى هو وقولا أن أغلبية الشعب المتوطن في روسيا الأوربية هم الجنس المتفوق في الإمبراطورية،

وسائر الأجناس الأخرى ولو كانت من العنصر السلافي النقي من العناصر الدنيا ،
ومخاصة إذا لم يكونوا تابعين للكنيسة الأرثوذكسية .

ولم تكن العنصرية معترفاً بها بصراحة ، ولكن عدم التسامح الديني كان .
من مقومات الدولة الرسمية . بذلت محاولات عديدة للتخلي عن العقيدة الكاثوليكية .
في بولندا وعن البروتستانتية في فنلندا ومحاولات أخرى لتبديل عقيدة فريق من .
المعتزلة في سيبريا عرفوا باسم « المؤمنين القداحي » ، والمسلمين في وسط آسيا . وكان .
اليهود في أسفل الدرج ، كما كانت مقاومة السامية إحدى النظم الرسمية المتبعة في الدولة ،
على أنه كان في وسع اليهود تجنب الاعتداء عليهم باعتناق الأرثوذكسية .

وما زاد قولاً صرامة الرسوم الذي أصدرته كاترين في تخصيص منطقة خاصة
لليهود عند الحدود الغربية ، كما كان يتخاف من قتل اليهود جماعات ، مما كان .
بتكرار حلونه كثيراً بما يثيره المتعصبون أو العامة ضدهم من حين إلى حين .
وهذه التصرفات جعلت من العسير على هذه الأسرة أن تتبع سياسة مقاومة
الجماعات المختلفة بعضها لبعض ، وهي السياسة التي أعانت أسرة هابسبرج والأسرة
العثمانية على عدم تفتت إمبراطوريتهما .

وفي نفس الوقت فكر القيصر وأستاذه دون أية مناسبة — في إنشاء .
« روما ثالثة » (وكانت بيزنطة هي روما الثانية) : منطقة متسعة من القيادة .
الروسية تمتد من جبال البلقان إلى بحر الصين .

وبدأ تنفيذ الفكرة بأن تناول حديثه الجاد ضم منشوريا ومنغوليا والتبت .
وإخضاع الصين لسيادته وإخراج البريطانيين من الهند .

شجع القيصر على هذا التوسع الخيالي عدد من مغامري الشرق الأقصى ،

كما شجعه ابن عمه غليوم الثانى لأنه كان بطبيعة الحال يفضل تحويل الروس الطامحين فى التوسع إلى الشرق لا إلى الغرب .

ويقول غليوم فى رسالة بعث بها إلى نقولا سنة ١٨٩٥ « إن مهمة روسيا العظيمة لبناء مستقبلها هى فى النهوض بقاءة آسيا وحماية أوروبا من غزو الجنس الأصفر العظيم » .

وفى مرة أخرى بعث إليه صورة زيتية وضع هو خطوطها الأولى تمثل بوذا يشرف على إيقاد حريق كبير فى الشرق الأقصى ، كما تمثل روسيا وألمانيا حارستين للدين الصحيح . وفى مذكرة تفسيرية كتب غليوم عن هذا الرسم « لقد وضعت تصميم هذا الرسم فى أسبوع عيد الميلاد فى أضواء شجرة عيد الميلاد » .

وهذه الصورة الخيالية للشرق الأقصى هى التى أدت آخر الأمر إلى الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ التى أثارها اعتداء الروس على كوريا . وفكرة شهر « حرب قصيرة منتصرة » بتعبير أحد الوزراء الروس ، قد يكون من ورائها منع قيام أية ثورة فى روسيا ، كما أنها تتفق مع موقف روسيا فى ميلها إلى الحروب . ولكن توالى الهزائم الروسية المذلّة فى البر والبحر وبخاصة ما صاحبها من الأخطاء والفوضى والرشوة كانت هى الضربة القاضية على ما للأسرة الملكية من مكانة . عند ذاك أخذت الاضطرابات والثورات وغيرها من ضروب الفوضى تنتشر فى جميع أنحاء البلاد .

ويعد بعض المؤرخين « يوم الأحد العين » التاسع من يناير حسب التقويم الأورثوذكسى مبدأ ثورة سنة ١٩٠٥ ، وقبل ذلك بثلاثة أيام رأى وبربولر السامح الشاب محاولة قتل القيصر فى أثناء الاحتفال بركة المياه ، وقد رأى أيضاً على القرب المنظر الأخير من هذه المأساة الكبرى .

قال يصف الصورة التى رآها « عندما اتجهت إلى الشارع الموصل إلى

القصر الشتوى ، رأيت طوفاناً من الناس يتقدمون ببطء في موكب صامت رهيب
 حا بين أسود وأشهب ، وأسمر وكان الرجال يلبسون قبعات مخروطية ، أما النساء
 فكانت رموسهن مغطاة بمناديل قائمة . كان هؤلاء الناس المجهدون الشاحبو
 الوجوه هم عمال في مصانع الحديد ومصانع المطاط ومصانع كرونستاد . آلاف
 وآلاف من أفراد الطبقة العاملة الذين عانوا عدة أجيال من سوء التغذية، والإفراط
 في الشراب والزهرى .

وكان يسير في المقدمة كاهن في عباءة سوداء هو البابا الأرثوذكسى .
 ماشياً بين رجل مسن ذى لحية بيضاء وامرأة فاتنة الجمال تدل ملاحظها على أنها
 يهودية . وكان الكاهن قصيراً ذا لحية سمراء ضعيف البنية صغير السن . وفي يده
 إيقونة كبيرة عليها صورة المسيح .

وعلى مرأى من القصر الشتوى — ذلك القصر الذى واجهته في لون الدماء
 المتجمرة ركم الكاهن في الثلج هو وأتباعه والصفوف الأمامية من هذا الحشد
 الكبير ، ثم وقف سير الموكب .

وعلى حين فجأة اندفعت فصيلة من المشاة إلى الميدان واصطفوا أمام الحشد
 الراكع ، ثم صدر الأمر « استعد ! أطلق النار » . وأعقب دوى طلقات القنابل ارتباك
 هائل . سقطت الصفوف الأمامية ، ووقف غيرهم على أقدامهم وولوا الأدبار ،
 وكانت اليهودية الحسناء من أوليات الضحايا ، وهرب بولر من أحد الشوارع
 الضيقة يدفعه الحشد أمامهم . وكان آخر ما رآه منظر القوازيق وهم يهجمون بينما
 تقع كرايبيجهم على الجمع المحتشد .

ويروى غيره من المشاهدين تفاصيل الحادث في صورة مخالقة . ولا خلاف
 بين الجميع في الأحداث الهامة : حشد هائل من العمال (حوالى ٢٠٠٠٠٠ يتقدمون

في خمسة صفوف مختلفة) تحت قيادة القسيس الأورثوذكسي، ويتجهون عبر الشوارع الخمسة التي تنتهي كلها إلى القصر الشتوي. والمجموع المحتشدة كانت تسير في نظام وهدهو. وكثير من المتظاهرين كانوا يحملون صور الإمبراطور نيكولاي الثاني الإمبراطوري « حفظ الله القيصر ». والجنود بعد أن أصدروا الأمر الذي يقضي به الواجب الرسمي بالترقب، أطلقوا الرصاص على الناس الذين قتل منهم ٥٠٠ قتيل على الأقل، كما وقع على الأرض بضعة آلاف جريح.

والصورة الخلفية لهذه المذبحة التي أقيم على أشلائها حاجز ملطخ بالدماء بين جموع الشعب الروسي والأسرة الملكية تمثل منظرًا مألوفًا جديرًا بأسرة رومانوف، يجمع بين القتل والقوضى والمكيافيلية. والقسيس الذي كان يقود المشاة واسمه جورج جابون كان سابقًا رجل الدين في أحد السجون، واشتهر بأنه منظم العمال، وكان رئيسًا لمنظمة خيالية تسمى جمعية المصانع والآلات الروسية، وكانت تحصل على إعانة من هيئة الشرطة السياسية السرية على أمل إحداث الفرقة في الحركة العمالية.

وفي مرة أخرى بعد تديره إضرابًا ناجحًا في مصنع بوتيلوف للصلب اختاره أتباعه لقيادة مظاهرة كبيرة تتقدم بالتماسات إلى القيصر، وكانت الالتماسات تشمل عدة مطالب سياسية جريئة، بل مطالب ثورية إذا نظرنا إليها من زاوية الأسرة القيصرية كحق الحرية وقيام الحياة النيابية. وكانت ضخامة هذه المطالب في ذاتها مما يهدد النظام العام في عاصمة البلاد وقت الحرب.

ويعتقد بعض المؤرخين أن جابون هذا - وهو صاحب الشخصية الروسية التي تجمع بين المثالية الخيالية ونزعة الجاسوسية التي فطر عليها - حمله بعض العملاء الثوريين السريين على المضى في طريق الثورة إلى مدى أبعد مما كان ينبغي. ولقد روى

أحد كبار رجال الشرطة في شيء من الاعتزاز إلى باليولوج الذي صار سفيراً لفرنسا فيما بعد ، أنه ساعد جابون في كتابة التماسه الخطير. ولو كان صادقاً فيما رواه فليست هذه هي المرة الأولى ولا الأخيرة التي يثير فيها الشرطة الحركات الثورية ليلقنوا الشعب درساً قاسياً عند قمعها. وسواء أكان «الأحد اللعين الدموي» من تدير عملاء الشرطة أم لم يكن من تديرهم ، فلقد كان من الممكن تفاديه لو لم تعطل القرارات التي اتخذتها الحكومة في اليوم السابق، إما عمداً وإما بسبب الفوضى الإدارية في أعمالها. وكان من الإجراءات الحكيمة التي اتخذت أن القيصر وأسرته انتقلوا من القصر الشتوي إلى زارسكو سلو ، وهو مكان يبعد مئة عشر ميلاً عنه ، وبذلك أصبحت مظاهرة العمال لتقديم مطالبهم عديمة الفائدة، وقد أصدرت الحكومة التعليمات أن يذاع هذا الخبر ، ولكن التعليمات لم تنفذ وتظاهر العمال لجهلهم بغياب القيصر . ثم إن الأوامر الحكومية لمنع المظاهرة لم تبلغ ، وعلى هذا الأساس تجمعت المظاهرة في الضواحي وسارت سيرها المرسوم .

إن اللعنة التي حلت برومانوف لا تزال قائمة . أما ما انتهى إليه أمر جابون ، فقد نجا من المجزرة ، وهرب من البلاد ، وانضم إلى أحد فروع الحزب الثوري. الاشتراكي للمهاجرين ، وأعان على مد رجال ثورة سنة ١٩٠٥ بالدافع ، واستأنف العلاقة بأصدقائه القدامى من رجال الشرطة وحكم عليه بالإعدام زملاؤه الثوار. وأخيراً مات خنقاً في أحد البيوت المنعزلة في فنلندا. ولقد كان ليوم الأحد الدموي أثر في نفوس جيل من الناس لا في روسيا وحدها بل في سائر أنحاء العالم المتمدين. ففي الولايات المتحدة أحس مارك توين - وهو الكاتب المشهور بدماثة الخلق - أحس بدافع قوى إلى أن يدعو في كتابه الشديد اللهجة « مناجاة القيصر » إلى الثورة وإلى قتل القيصر ، كما وجه شديد اللوم إلى الكتاب الأخلاقيين الذين

لا يرضون عن الأعمال الثورية القاسية التي يعامل بها الحكام المستبدين . كما لاقت مؤلفات أخرى مماثلة في حبسها وتحريضها آذانا مصغية في عدة من الأشهر بل من السنين التالية .

وبعد وقوع مذبحة القصر الشتوى بوقت قصير — وإلى حد ما نتيجة مرتبة: عليها — حدثت مأساة ثانية كان لها أيضاً تأثير بعيد المدى في العلاقة بين الأسرة والرعية . إذ ألقى أحد الطلبة الثوريين الاشتراكيين قنبلة شديدة على عم القصر — اللوق سرجيوس ، الحاكم العسكرى لمنطقة موسكو ، عندما كانت عربته تجتاز مدخل قصر الكرملين فمزقت جسمه إربا . وكان سرجيوس معروفا بسوء معاملته لليهود والمتعلمين ، ولم يكن محبوباً عند عامة الشعب ، فلا عجب أن التقطت على مسافة غير قصيرة من موضع الانفجار بعض الأشياء البشعة تذكاراً للحادث ، وبيعت في اليوم التالى في سوق اللصوص في موسكو بروبل للقطعة الواحدة على ماذاع بين الكافة في ذلك الحين .

وتلقى نقولا الأبناء وهو في أحد قصوره خارج بطرسبرج وهو على أهبة النداء مع أحد ضيوفه الأمير الشاب فردريك من البيت الإمبراطورى البروسى . ولم تظهر القيصرة حينذاك ، أختها الكبرى إليزابيث كما نعلم أرملة اللوق المقتول . وصمم القيصر على المضى في النداء ، بل كان مرحا على مارواه الأمير فردريك فيما بعد في أحد خطاباته للمستشار ييلوف . وكذلك كان ضيفه الثانى وصهره اللوق اسكندر ، ولم تجر الجزيرة على لسان أحد منهم . ومما رواه ييلوف في مذكراته أن الإخوة كانوا يتسلون بأن يدفع بعضهم بعضاً من الأريكة التي كانوا يجلسون عليها .

وما بدا من دهشة الأمير فردريك يدل على أنه لم يكن من تلاميذ فرويد.

مولا من تلاميذ دستوفسكى . وقد لا يكون قولاً على صلة طيبة بعمه الغليظ القلب ، ولكن هزله السمج مع صهره بعد مقتل عمه الشنيع يبضع ساعات لا يدل إلا على عدم الاكتراث . إن القنبلة التى ألقتها القاتل وقعت على مقربة من العرش كما أنها أثارت كوامن ذكريات الطفولة الأليمة . (أما أثر الحادث فى الدوقة إليزابيث وفى القيصرة التى كانت تدين بالأرثوذكسية فكان غير ذلك . لقد قضت معظم الليل فى حجرة قاتل زوجها وهو شاب نحيل يدعى كالاييف ترجوه عبثاً أن يطلب المغفرة من الله ومن القيصر) .

ولم يكن قولاً على علم بالدور الذى لعبته رجال شرطته فى مقتل الدوق سرجيوس ولا فى حادث يوم الأحد الدموى ، لأن الحقيقة لا تظهر إلا بعد مرور عدة سنوات . ولقد قوى حادث موسكو نزعتة الموروثة من ميل إلى الاعتماد على الجلد والشنق والرصاص لدعم سلطانه المطلق . وما كتب إلى أمه فى خطاب حوصل إلى أيدي البلاشفة ونشروه بعد الحرب (الإرهاب لابد أن يقابل بالإرهاب) .

وظل الطرفان يقف كل منهما موقفاً صارماً إبان المصومات الثورية سنة ١٩٠٥ — ١٩٠٦ . ولكن المصومة بينهما حينذاك لم تبلغ ما بلغت فى المدة ما بين ١٩١٧ إلى ١٩٢٠ من الصرامة والشدة . وقد بلغ عدد القتلى من موظفى الحكومة حوالى ١٥٠٠ قتيل فى أثناء الاضطرابات والثورات — ويشمل ذلك من قتل فى السفينة الحربية بوتسكين عند ماتم الاستيلاء عليها — والاضطرابات التى عمت البلاد واتى بلغت أقصى شدتها سنة ١٩٠٥ . ولا يوجد إحصاء رسمى لمن قتل من رجال الثورة أو رمى بالرصاص فى هذه المدة نفسها .

وأشد الاضطرابات التى كان لها الطابع العام للثورة كانت ثورة الفلاحين

التي نشبت بمنتهى العنف في جميع أنحاء روسيا دون أدنى اتفاق بين الثائرين .. وكانت مراحل غضب الفلاحين تغلّى - ٨٠ / منهم أميون - عدة سنين متوالية .. ولم يكن الإصلاح الزراعى الذى جاء به اسكندر الثانى منفذاً على وجه مرضى .. فأثمان الأرض كانت على أقساط كبيرة ، والأرض المقسمة ضعيفة فى أغلب الأحيان .. ثم إن توالى نقص المحصول أدى إلى المجاعة والمرض . وبينما كانت أثمان المحصول منخفضة ظلت الضرائب مرتفعة ، ولم تكن المجالس النيابية أو الحرية الشخصية موضع اهتمام الفلاحين ، وإنما كان يهمهم الأرض والإعفاء من الضرائب وتأديب الموظفين . المحليين الذين أذلّهم وأساءوا معاملتهم . فما إن أثارهم الثوار الاشتراكيون بما أذاعوا من نظريات سياسية عرفوا كيف يضربون بها على أوتار قلوبهم ، حتى حمل كل منهم بندقيته ومذراته واندفعوا راكبين رؤوسهم . وعمت القوضى مديريات بأكملها وانتشرت فى كل مكان حى القتل والنهب والسرقة وإشعال الحرائق . وكان الشعار العام لهذه المجموع الثائرة (الديك الأحمر الديك الأحمر) . ومن قلب سيبيريا إلى الحدود الغربية كان هذا الطائر المشثوم ينشر أجنحته فوق مراکز الشرطة وإدارات الضرائب وعلى مخازن الغلال وحظائر الأغنياء من الملاك وقصور النبلاء فى الريف . وفى كثير من أنحاء البلاد كان ينهب كل مالى الأغنياء من مال ، وكانوا يتعرضون أحياناً للاهانة أو التهديد ، ولكن قل وقوع حوادث القتل بينهم . كانت ثورات الفلاحين هذه نوعاً من الحرب الطبقة فى القرن العشرين ولكن الكراهية الشديدة بين الطبقات فى روسيا لما تبلغ حينئذ أشد درجات الوحشية .

وفى المدن الروسية لم تكن الحركة الثورية فى الغالب فى مثل هذه القسوة ، ولكنها لم تقل عنها خطراً . وتحلت الأحزاب الاشتراكية مؤقتاً عن الخلافات المذهبية التى بينها . وفى بطرسبرج انضم إليها الدستوريون المعتدلون واتلفوا جميعاً

في جمعية ضد النظام القائم وأسموها السوفيت ، وأصبحت هذه التسمية هي الشعار الثوري . وفي سائر الأنحاء كان الثوريون الاشتراكيون الذين تمتد جذور حركتهم إلى الفلاحين أخطر أعداء الحكم المطلق . أما في العاصمة فقد لعب الدور الرئيسي على مسرح الأحداث الديمقراطيون الاشتراكيون الماركسيون بما فيهم البلاشفة . من أتباع لينين . ولو أن لينين لم يكن معضداً للحركة من الناحية النظرية . فقد عاد من المنفى ليتمكن من إدماج سوفيت بطرسبرج في الثورة العامة . ولم يكن نصيب لينين الشخصي في أحداث سنة ١٩٠٥ مساوياً لما قام به شاب من أتباع ماركس المثقفين يدعى ليون تروتسكي ، الذي لمع اسمه لأول مرة في ذلك الوقت بين ملايين العمال الروسين . وكان تروتسكي ابن أحد الفلاحين اليهود متوسطي الحال ، وكان متفقاً مع لينين في كثير من نظرياته ، ولكنه لم يقبل أن ينضم إلى أحد الطرفين في النزاع الذي نشأ بين البلشفيك والمثقفين (الأقلية) ، وكان كل من الفريقين لا يزال يعتبر من الحزب الاشتراكي الديمقراطي في ذلك الحين من الناحية النظرية ، كما أنه لم يكن مقرباً إلى لينين حينذاك . وكانت سنة ١٩٠٥ ستة وعشرين عاماً ويضع على عينيهِ نظارتين سميكيتين ، وكانت له خصلة غير منتظمة من الشعر ، وكان منظره هذا مادة دسمة للرسم الكاريكاتوري ، ولكنه برهن فيما بعد على أنه يجيد العمل والتفكير والخطابة . وفي أثناء اضطلاحه بوكالة السوفيت في بطرسبرج (وكان الرئيس محامياً مغموراً من حزب الأقلية) سرعان ما أصبح القائد البارز في سنة ١٩٠٥ للحركة الثورية في روسيا . وكان يساعده أحد المهاجرين الأكفاء ويدعى إسكندر هلفاند ، واسمه السري بارفس . وبينما كان هذا يدبر الدسائس لجعل الشعب مصدر السلطات نجح في أن يكون من الناشئين النابضين . ورجال المال في ألمانيا . ثم صار تروتسكي بمعونة بارفس رئيس حركة الأحزاب العام الذي انتشر في كل أرجاء البلاد بعد توقيع الاتفاقية المهيمنة مع اليابان في سبتمبر ، والذي أدى إلى قرب طرد القيصر من العرش .

وكما كانت الأحداث أشد إنذاراً بالثورة كانت أعمال القمع أشد ضراوة
موقسوة . ثم جاءت اللحظة الحاسمة — في أكتوبر — عندما رأى قولاً أنه إما أن
يعين دكتاتوراً حريياً له سلطان مطلق ويكلف بإعادة النظام في البلاد، وإما أن يسلم
برغبات المطالبين بالحياة الدستورية . وكانت الدكتاتورية في رأيه أخف الطرفين .
ولكن الدكتاتور المناسب الوحيد ابن عم القيصر الدوق قولاً قولاً فتش لم يقبل ،
بل قيل إنه هدد بالانتحار إذا هو أجبر على ذلك . ولم يكن أمام القيصر — كما
قال لأمه — إلا (أن يمنح كل إنسان ما يطلبه) ، وفعل فعل القيصر ذلك ، ولكنه
منح مامنح وهو يضم شراً . لقد أصدر بياناً رسمياً — وضع معظمه الكونت
ويت أحد المحافظين المتزنين — جعل من روسيا دولة في المرحلة الأولى من الحياة
النيابية : الحرية فيها مكفولة ، والانتخابات حرة ، فيها مجلس نيابي له سلطه تشريعية
أساسية . وعين ويت أول رئيس للوزراء في روسيا الحديثة على نمط ما يتبع في البلاد
الغربية . وفي نفس الوقت عين الجنرال ترييوف — وهو الرجل الصارم الشديد
البطش — محافظاً لسانت بطرسبرج ورئيساً للحرس الإمبراطوري ، وجعله بحكم الواقع
قائداً للجيش . وبينما كان ويت يعمل بنجاح إلى حدم الإيقاع التفرقة بين الثائرين
ويضم إليه المعتدلين ، كان قولاً وترييوف يشنان الحملات التأديبية في البلاد .
وكانت إحدى هذه الحملات بالغة القسوة برئاسة الجنرال أورلوف في المنطقة
البلطيقية ، ووصف القيصر ما قام به أورلوف هناك (بأنه عمل عظيم) .

ويحارب الضغط الحكومي كان قولاً يجد تشجيعاً من بوبدونوستيف والأمير
فلاديمير مشرسكي على تكوين جماعات موالية للعرش عرفت فيما بعد بجماعة
(المائة السود) مهمتها حماية العرش بالضرب والنهب وقتل اليهود . وكان
قولاً راضياً جداً عن قتلهم . ومما كتبه لأمه « إن تسعة أعشار المصائب من
اليهود » . وكان لمثل هذا تأثير في الغوغاء ، وتسبب عنه القتل (بالجملة) . ومن

كلمات القيصر التي تدل على سذاجته «من العجب العجائب أن هذا القتل الجماعي حدث في جميع أنحاء روسيا وسيبيريا دون أى ترتيب خاص». ولقد غرست بعض المبادئ الأساسية للاشتراكية الألمانية في روسيا عام سنة ١٩٠٥، ويعتبر الراديكاليون الروس أمثال مشرسكى الآباء الروحين لأصحاب النظرية النازية الألمانية مثل جوبلز وروزنبرج.

وفي بعض الظروف كان القيصر ينقاد إلى مستشارين أعجب من هؤلاء بتحريض من زوجته ذات المعتقدات الغريبة. كأمثال الطبيب الروحاني الفرنسي المعروف في الأوساط الروسية باسم يوبس. وفي إحدى الجلسات التي هيئت له مع القيصر والقيصرة أمكن الطبيب الروحي أن يعقد جلسة روحية. وعرف ما تم فيه الجلسة على لسان إحدى سيدات البلاط الروسى على النحو الآتى :

أمكن الأستاذ الروحي بقوة إرادته أن يستحضر روح القيصر الصالح، اسكندر الثالث. ورغم الرعب الذي استولى على قوللا الثانى سأل أباه في شيء من البلاهة هل يقاوم حركة التحرر السائدة في البلاد والتي تهدد العرش أم لا يقاومها. فأجابت الروح «على أى حال يجب أن يقضى على الثورة الآن في أول قيامها. ولكنها ستقوم قائمتها من جديد، وستكون ضراوتها متناسبة مع الشدة التي تقاوم بها اليوم ولكن ماذا يهم: كن شجاعاً يا ولدى ولا تستسلم».

وبذل قوللا ما في وسعه في تنفيذ تعليمات والده — إذا صدقت الرواية. فحزب السوفييت الذي هجره المعتدلون أعلن أنه خارج على القانون وقبض على تروتسكى وبارفس (وفرلينين إلى فنلندا). ومن صغار الحزب قبض على شاب ثورى اشتراكي يدعى اسكندر كرينسكى. وعندما أرادت موسكو أن تقوم بثورة.

انتقامية غرقت في بحار من الدماء (قتل أكثر من ألف عامل) ، ولو أن الثوريين الاشتراكيين كانوا فخورين بما أحرزوه من مجد بأن نسفوا المركز العام للشرطة وأعقب ذلك كثير من الأعمال التأديبية في جميع أنحاء الإمبراطورية بما فيها حركة تطهير المصالح الحكومية التي فقد فيها أكثر من ٧٠٠٠ موظف أعمالهم .

ثم كانت حركات القمع عدة سنين تتناوب مع فترات الهدوء ، وكان يعين وزراء أحرار ثم يعزلون وتتخذ سياسة الإصلاح ثم توقف أو تؤجل وينتخب أعضاء المجلس النيابي (الدوما) ثم يعطل ثم ينتخب ثانية . ويبدو لأول وهلة أن الأحرار المعتدلين خرجوا منتصرين من معركة سنة ١٩٠٥ حيث قد بلغوا غرضهم وهو الحكم النيابي ، ولكن نصرهم كان وهمياً . فقد نالوا رضى اليمينيين باتفاقهم مع الأحزاب الثورية ، ولكنهم كانوا موضع السخط من العمال لأنهم كانوا بعيدين عن الحركة الثورية .

ومع أن الحكم النيابي المتواضع الذي منحه قولاً الثاني كان غير صالح لأن يكون أساساً حديثاً للدولة ، إلا أنه عظيم الأهمية في إضعاف الحكم المطلق . ونظراً للدماء الكثيرة التي أراقها القيصر حتى يألف الرأي العام النظام الجديد تغيرت في نظر الشعب الصورة التي رأى هذا النظام ، وكان الشعب يرى أن الإمبراطور ينظر إليهم من عليائه ، لا نظرة صاحب العظمة الواثق من عظمته ، بل نظرة الظالم المستبد الذي يقف الشعب له بالمرصاد .

وفي تحليلنا النهائي للحالة نرى أن المتطرفين وحدهم - اليمينيين واليساريين - هم الذين أفادوا من هذه الثورة ، ولو أن الآخرين فقدوا تقدير الشعب مدة من الزمان . فإن هذه التجربة القاسية لم تزد هم صلابة فحسب ، بل أصبحوا أكثر (م ٨ - الأسر)

— ١٢٢ —

استعداداً لأية معركة جديدة. وكانت معارضتهم الخفية سواء في البلاد أو خارجها
مساعدة على إيجاد الجو الصالح للتآمر الذي تولدت عنه الحرب العامة
في النهاية .

وكان عام الديك الأحمر هو أيضاً عام أسنان التين لا للمملكة الروسية
وحدها ، بل للسلام في أوروبا وفي العالم أجمع . ولقد ظهرت أولى ثماره ، وليست
آخرها بعد فترة وجيزة .

الفصل الخامس

المسكنة المتجسدة

هزت ثورة ١٩٠٥ في روسيا ميزان القوى الأوربي هزاً عنيفاً . وكان لقاء
قيصر ألمانيا الفاشل بقيصر روسيا في بيجوركو يوضح بعض آثار هذه الهزة العنيفة
على مسرح السياسة السائدة . وربما كانت آثارها أبلغ وأقوى في التوازن الداخلي
في سائر إمبراطوريات أوربا المطلقة .

ولقد لبثت روسيا طيلة قرن كامل قلعة للرجعية وممثلة للاستبداد، وكان قياسرة
الروس موضع إعجاب سائر الملوك في بذل كل جهودهم للابقاء على حكمهم المطلق .
وكان هؤلاء يحسدونهم على هدوء شعوبهم الذين يبدو عليهم الرضى التام بالحياة
جيلاً بعد جيل، ولكن حان الوقف الذي تحركت فيه هذه الجموع الصامتة، وأجبر
الحاكم العنيد أخيراً على أن يستسلم . إن الثورة التي اندلعت في روسيا يمكن أن
تندلع في غيرها .

والآن وقد أخذت أنظار روسيا تنبجه إلى القسطنطينية بعد أن حالت قوة
اليابان الحربية دون توسعها في الشرق، كان السلطان عبد الحميد الثاني - وهو منغمس
وسط الحريم اللأني يحطن به - يشم ما تحمله الرياح إليه من رائحة التغيير السياسى
المنتظر . كما يحس الحيوان الصغير القلق في قفصه الذهبي بما تحمله إليه هذه الرياح
من نذر، وبما تحمله إليه من آمال . عند ذاك أحس في رضى رائحة الفساد في الأسرة
الروسية التي عبرت إليه البحر الأسود، كما اشم معها أريج المظاهرات في صورة
الإصلاح النيابى . وحتى في ألمانيا - النامية الحجة للسلطة - مع من فيها من
الماركسيين المعتدلين وطبقة ضباطها الموالين، كان غليوم الثانى في قلق متزايد لما قد
تمخض عنه الثورة في روسيا . والخطابات الصاخبة التي كان يقذف بها ابن عمه

البائس نقولا أخذت تفقد قوتها إبان الثورة، وتحولت إلى تحذيرات ناعمة أو قد هادى*.

إلا أن الاضطرابات الروسية كان لها في النمسا والمجر أبلغ الأثر. وبدأ الديمقراطيون الاشتراكيون في سبتمبر سنة ١٩٠٥ - بعضهم كثير من خطباء الأقلية السلافية - دعاية عنيفة، مطالبين بحق الانتخاب العام والإصلاح النيابي (والنظام القائم فيه محاباة كبيرة لطبقة ملاك الأرض)، وقامت الإضرابات والمظاهرات والثورات في عدة أنحاء في الإمبراطورية. وهذه بلغت ذروتها عندما وصلت إلى فيينا آخر الشهر الأخبار بالبيان الذي أصدره قيصر الروس بمنح الروس الحكم النيابي، وحق الانتخاب العام. وفي الثاني من نوفمبر وقع اصطدام هائل - وإن لم يقع فيه حوادث كثيرة من القتل - بين العمال المتظاهرين وبين الشرطة في العاصمة. وفي اليوم التالي مباشرة أعان فرانسيس جوزيف رعاياه بأنه تفضل وقرر منحهم الحقوق النيابية كاملة - على الأقل في المنطقة النمساوية من ممتلكاته.

ولقد برهنت الأحداث اللاحقة أن هذا كان أشد قراراته خطراً، ولكن يبدو أنه لم يكن له حرية الاختيار فيما أقدم عليه. ويبدو جلياً أن الاشتراكيين الذين لم يقدروا قوة موقفهم قاموا في أواخر الشهر بمظاهرة سلمية اشترك فيها حوالي ٢٥٠٠٠٠ عامل نمسوي، يضعون على أذرعهم الشارات الحمراء ويسبزون في صفوف منتظمة، إلى أن وصلوا إلى بناء المجلس النيابي. ويبدو أن الضغط الصادر من الطبقات الدنيا على الإمبراطور لم يكن عاملاً قوياً يجبره على عمل بعينه. وهذا الرجل الخنك الذي لاقى من المحاولات الفاشلة لتخيير مجرى التاريخ أكثر من أى رأس متوج منذ عهد الملك كانيوت، قد أثبت المرة بعد المرة - في عهده الممتد من مترينخ إلى ولسن - أنه ليس بالحاكم الذي يضطرب فؤاده من رؤية بضعة متظاهرين في الشوارع. وفي هذه المرة كان لديه من الدوافع الشخصية ما دعاه إلى التسليم،

على نحو ما كان يعمل أى فرد من المهاجرين لو كان فى موضعه . وقد استغل فرانسيس جوزيف ذلك الحاكم المستبد المبجل — الطيب فى بعض جوانبه — كما سنرى فيما بعد — الدستورى المقتنع — استغل تعطش رعاياه النابهين إلى الإصلاح النيابى بما شهدوه من النصر الذى أدركه الأحرار فى روسيا فى إذلال الفئة المتخلفة من رعيته — المجر — الذين كانوا يهددونه بالاضطرابات لأسباب رجعية . وكان الأسلوب السيامى الذى اتبعه فى هذا الصدد أشبه بالأسلوب الميكافلى الذى يليق بأحد حكام القرون الوسطى . إذ أغرى العامة بإذلال النبلاء . ولم يكن هذا التشبيه من قبيل المصادفة من جميع الوجوه . فالتمسوا المجر من الناحية السياسية هى فى معظم النواحي أحد البقايا المتحجرة من القرون الوسطى تعيش فى تاريخ القرن العشرين .

لقد اتسع نطاق البلاد النمساوية حتى صارت إمبراطورية ، ولكنها لم تكن فى يوم من الأيام أمة . وتبلغ مساحتها الممتدة من بحيرة كونستانس على الحدود السويسرية الألمانية إلى جبال الألب فى ترانسلفانيا ، ومن لمبرج (واسمها اليوم لفوف) فى بولندا إلى راجوزا وترىست على البحر الإديرياتيكي ٢٤٠٤٥٦ ميلاً مربعاً . وكانت من حيث مساحتها ثانياً دولة فى أوروبا ، ومن حيث عدد السكان ثالث دولة فيها ، إذ كانت تضم ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ نسمة يتكلمون جملة لغات وجملة لهجات مختلفة . روى المؤرخ الفرنسى بيير رينوفين أن أحد الساسة النمساويين المجرين قال عنها فى شيء من الألم « ثمانية شعوب وسبع عشرة مملكة وعشرون جمعية نيابية ، والعنصر الغالب فى هذا الحشد السياسى كان من الألمان والمجر الذين فى مملكة المجر (وهم أبناء الغزاة القدامى الذين قدموا من منطقة الحشائش فى آسيا) ويبلغ عدد كل من الفريقين عشرة ملايين نسمة ، ويعدون سائر رعايا التاج النمساوى من « الأقليات » ، وهذه التسمية لا ترضى سائر الرعايا الذين يبلغ عددهم

٣٠٠٠٠٠ من التشيك والسلاف والبولنديين والروثيين والصرب والكروات وباقي العناصر التي تقل عدداً عن هؤلاء، ومجموع هذه أكثر عدداً من الألمان والمجر في الإمبراطورية . ولو قدر التشيك والسلاف على أنهم جنس واحد لكانوا الأغلبية في الإمبراطورية .

والنظام التشريعي الذي يؤلف بين هذه المجموعة التي تشبه القسيساء في كثرتها واختلافها كان منبثقاً عن تفكير عجيب يناقض كل قوانين الوحدة السياسية ، فالنصف النمسي — ويتكون أصلاً من ممتلكات أسرة هابسبرج مع إضافة حاضمة إليها في عهود متأخرة — لم يكن له اسم خاص به .

ومن الممكن أن يقال إنه ما بين عامي ١٨٦٧ و ١٩١٨ لم يكن هناك مملكة تسمى النمسا ، بل كان يعرف رسمياً بأنه الممالك والمقاطعات الممثلة في المجلس النيابي (رينسرات) وكانت تشمل ما يطلق عليه اليوم النمسا وبوهيميا (وهي الجزء التشيكي من تشيكوسلوفاكيا) وجمهورية البولندية وبوكوفينا الرومانية وبعض الأنحاء السلوفينية في يوجوسلافيا الحالية ومعظم ساحل دالماتيا والجزء الذي تغلب فيه اللغة الإيطالية من ترينتينو ، وكانت المجر تحكم سائر الأفراد والشعوب وتشمل سلوفاكيا وترانسلفانيا وكرواتيا . وكان في الدولة أربعة مجالس نيابية ، اثنان منها رئيسيان في فيينا وبودابست ، واثنان أقل منهما أهمية في براغ وزغرب عاصمة كرواتيا التي كان لها نظام خاص تحت التاج المجرى . ولم يكن هناك مجلس للإمبراطورية كلها ، إذ لم تكن إمبراطورية من الناحية القانونية رغم أن الذي كان يحكمها هو الإمبراطور ، وكان يدير البوسنة وهرزوفينا وزارة المالية للنمسا والمجر ، وكان لها أيضاً مجلس نيابي .

وها قد وصلنا إلى المفاهيم والنظم العجيبة للحكم الثنائي ، الذي أثار من البحث

والخلاف بين رجال التشريع الحديث ما أثاره الثالث المقدس بين رجال الدين
في العصور الوسطى .

والحكومة الثنائية في مفهومها العام - العام جداً - كما نص عليها في اتفاقية
عام ١٨٦٧ تتكون من دولتين ذواتي سيادة تملك كل منهما أقاليم مستقلة خاضعة
لها . وترتبطان - برابط غير متماثل - بشخص الحاكم المشترك - ولقبه في النمسا
صاحب الجلالة المقدسة ملك وإمبراطور النمسا والمجر (لقب الإمبراطورية
الرومانية المقدسة الذي كان يطلق على الحكام من أسرة هابسبرج ولم يستعمل
منذ سنة ١٨٠٦) . وكان في الدولة وزارات مشتركة للنمسا والمجر للحرب والشئون
الخارجية والمالية . ويطلق على كل منها كونغليخ وكنينورليخ ، أو كيه يوكيه
(أى وزارات ملكية وإمبراطورية) وكان يطلق على المصالح الأخرى كونغليخ -
كينزريخ (ملكية - إمبراطورية) في النمسا ، وكونغليخ في المجر . وكان الجيش
ملكياً وإمبراطورياً ، وكانت السكك الحديدية إذا ما اجتازت الحدود ، فالعربة
التي تحمل المسافرين من فيينا إلى بودابست كانت ملكية وإمبراطورية إلى حدود
المجر ، حتى إذا ما اجتازت الحدود تصبح كيه (ملكية) لا غير ، وبعد ذلك إذا
ما كان الجيش مستولياً عليها فإنها تكون كيه يوكيه طوال الرحلة . وهذه العلاقة
في غاية البساطة إذا ما نظرت إليها من الناحية الحسابية ، وعبر عنها الكاتب النمساوي
روبرت موزيل بأسلوبه اللاذع . فقد قال إن المواطن النمساوي له صفة المواطن النمساوي
مضافاً إليها صفة المواطن المجرى مطروحاً منها صفة المواطن المجرى .

وأبعد النظم عن مقتضيات العقل والمنطق قد لا تكون دائماً أقلها حظاً في
البقاء كما هو الحال في نظام الملكية البريطانية ، فإذا كان أشد آيات ضعف
الحكومة الثنائية هو في صعوبة تعريفها ، فيمكن أن يقال إنها كانت تسير

إلى الأمام تحت حكم أسرة هابسبرج الملكي ، والملكي الإمبراطوري .

ولكن لسوء الحظ لم تكن المناقشات في أساليب الحكم فيها إلا انعكاساً للعيوب الأساسية في بنائها ، ومن المؤكد أن هذه العيوب هي التي دعت الإمبراطور فرانسيس جوزيف إلى تأديب رعايا المجر بإصدار أحد الإصلاحات الانتخابية ، الذي كان موضع سخطهم كما كان موضع سخطه هو أيضاً . لقد طلب المجرئون - مدفوعين بالنعرة القومية المجرية ، ناسين أنهم يكونوا جزءاً من شعب له الأغلبية دونهم - طلبوا إلغاء اللغة الألمانية في نداءات الجيش الملكي الإمبراطوري ، وهددوا بتحويل الوحدات المجرية الملكية الإمبراطورية إلى وحدات وطنية ملكية ، وهذا معناه قلب نظام الحكم الثنائي من مسألة قانونية إلى مهزلة ، فصمم الإمبراطور - وهو جندي قبل كل شيء - على عدم الموافقة ، وأبلغ وزراءه المجرين « أن الجيش ليس موضوعاً للهزل والعبث » .

وفي هذا الجو السياسي الذي خلقه الاضطراب في روسيا لم يبق لفرانسيس جوزيف إلا سلاح واحد يتقى به خطر انسحاب المجر من الإمبراطورية . وكان في إمكانه أن ياتى الذعر في نفوس أصحاب الجلالة الإقطاعيين في المجر ، الذين كانت سلطتهم مستمدة من قوانين الانتخاب التي لا تسوى بين جميع الطبقات ، يجعل الانتخاب حراً وعاماً . ولكن تعديل قانون الانتخاب قد لا يكون مع ذلك سليم العاقبة ، ولهذا كان من الأهمية بمكان عنده أن يجعل من التعديل سلاحاً يهددهم ، وفي هذا الاتجاه خف لمعوثته الديمقراطيون الاشتراكيون ، وإن كان تصرفهم هذا لا يدل على وعي سليم منهم . وإذا ما سلم بمطالب هؤلاء في نصف الإمبراطورية النمساوية ، وأدخل بعض الإصلاح في قانون الانتخاب ، فإنه سيلقن المجر درساً في

المصير الذى ينتظرهم إذا هم حاولوا الخروج على إرادته . ويبدو أن هذه السياسة فيها من العمق ما يستبعد معه صدورها من عقل فرانسيس جوزيف البسيط . ولكن كان عرش الهابسبرج محاطاً بعدد من السياسيين الماكرين . وباتباعه للنصيحة التى قدمها له هؤلاء فى بداية الأزمة الدستورية التى وقعت سنة ١٩٠٥ أمكنه بلوغ هدفه الأول وهو ضمان وحدة الجيش الإمبراطورى . ولكنه فتح بهذا العمل نفسه مجالاً متسعاً للاضطرابات الشعبية التى وسعت هوة الخلاف فى الإمبراطورية جمعاء .

وإذا ما أريد أن نفهم كيف حدث هذا فلا بد من أن نستعيد بإيجاز قصة أسرة هابسبرج ، كما نستعيد كذلك قصة حكم فرانسيس جوزيف نفسه ، فى القصتين . صفحة رائعة من تاريخ أوروبا الحديث . ويتضح لمن يلقى نظرة عليها أن عالمنا فى الوقت الحاضر مبنى إلى مدى أبعد مما نتوهم على الأحداث التى وقعت فى هذين العهدين جميعاً .

وكنيسة كابوشين التى فى وسط فينا هى مدفن أسرة هابسبرج ، وفيها يستقر رفات اثنى عشر إمبراطوراً وخمس عشرة إمبراطورة فى ظلام دامس ، تحت إشراف أربع حجاج متوجة تتجه محاجر عيونهم التى لا تبصر إلى قبر فردريك الثالث (مات سنة ١٩٤٣) أول من حمل اللقب من هذه الأسرة . ويبدو الآن لمن ينظر إلى هذه الصورة الرمزية أنها تجمع بين العظمة والتواضع . لقد كانت ممالك الهابسبرج فى بعض العهود هى التى تلى ملك أصحاب المملكة العامة التى تمثلها الجمجمة المتوجة ، وفردريك هذا هو الذى حفر فى بوابة قصر هوفبرج شعاراً متبجحاً مكتوباً باللاتينية والألمانية ، معناه النمسا مقدر لها أن تحكم العالم . ولهذا الشعار فى النمسا اليوم رنين مؤثر خاص فى النمسا للتواضعة المسالمة الجمهورية . ولكنه لم يكن يوماً ملا

منطبقاً على النمسا . كانت أسرة هابسبرج شيئاً آخر .

ويقول ا . ج . ب تيلور « في البلاد الأخرى للأسرة الحاكمة قصص في تاريخ الشعوب . أما في إمبراطورية آل هابسبرج فالشعوب تعقيد في تاريخ الأسرة . لم تتضطلع أسرة أخرى بأعبائها زمنياً أطول منها ولا تركت أثراً في أوربا أعمق منها » .

ولد أول ملك في هذه الأسرة عام ١٢١٨ أو قبل ترك شارل آخر الأباطرة عرشه بسبعائة عام . كان رودلف رأس الأسرة أحد السادة الإقطاعيين ، وكانت أملاكه بضعة مئات من الأفدنة من الأرض ذات الأشجار الباسقة في الهضبة السويسرية وفي الألزاس وفي جنوب ألمانيا . وهو من سلالة أسرة قديمة اسمها مشتق من اسم إحدى القلاع التي أقيمت في القرن الحادى عشر « هابسبرج » أو قلعة الصقر . ولا تزال جدران هذا الحصن المتهدم الذى يبلغ سمكها ست أقدام باقية بالقرب من زيورخ في سويسرة ويمكن زيارتها .

وورث رودولف من أحد أجداده الذين كان أحدهم أميراً لزيوخ منطقة بولدنستاد المحمية وهي المقاطعات السويسرية - التى وصف الكاتب القصصى ولیم تیل حروبها مع سادتها من آل هابسبرج - واختيار رودلف ليكون « ملك الرومانيين » - وهو اللقب الذى كان لحكام ألمانيا وقتئذ - لم يكن ثروته أو لقوته الحربية ، بل لعل اختياره كان لما يعوزه من الثراء ومن القوة الحربية . وكانت هذه التسمية تدعو إلى التفاؤل ، إذ الواقع أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة أصبحت فيما بعد تسمى الإمبراطورية الرومانية الألمانية المقدسة ، منذ أن دكح أتو الأكبر - وهو أحد الملوك الألمان - في حضرة باباروما ليضع على رأسه تاج

— ١٣٣ —

شارلمان الذهبي وحياء باسم قيصر أوغسطس ، ولكن اللقب أصبح لقباً فارغاً -
واقسمت أوروبا في العصور الوسطى إلى مئات من الدويلات الصغيرة المتحاربة ،
تأبى أن يكون على رأسها ملكاً إلا أن يكون باختيارها .

وهكذا أصبحت رئاسة الدولة بالانتخاب . وعندما اختير رودلف رئيساً للدولة
ظل العرش يستجدي العون المالى مدة لا تقل عن عشرين عاماً . ولم يكن هناك من
يهتم بأن يكون الحاكم لهذا الإقليم المؤذى الذى يضم أربعائة أمير إقطاعى ، وهو
ما عبرت عنهم اليوميات الفرنسية حينذاك بأهمهم « الألمان » ، حيث لم يكن هناك
من قانون إلا « القوة المسلحة »

واتضح فيما بعد أن رودلف كان أكبر مما قدره الأمراء الألمان . فبعد أن
قهر ملك بوهيميا استولى على أوستياريك (وتشمل تقريباً النمسا الحالية ويوجسلافيا) ،
وبذلك أصبح أكثر ملاك الأرض ثراء في الإمبراطورية . وبلغ من حرص
الأمراء الذين ينتخبون الإمبراطور أنهم أعادوا التاج الإمبراطورى إلى أسرة
هابسبرج الذى بقى لها مدة مائتى عام لا يتخللها إلا بعض الفترات .

وأخيراً عمد الإمبراطور فردريك الثالث من بيت هابسبرج فى القرن
الخامس عشر إلى جعل التاج وراثياً بحيلة بسيطة ، مهد بها لانتخاب ابنه ولياً للعهد .
فى أثناء حياته ، واتبع خلفاؤه من الأسرة الملكية نفس النظام على أساس أنه
تقليد عائلى .

وجاء فردريك بتقليد آخر - وقد كان حاكماً غير ممتاز لكنه طموح -
أساسه التوسع عن طريق المصاهرة . وأصبح شعار أسرة هابسبرج غير الرسمى ،
« دع الغير يشن الحروب . أما أنت أيتها النمسا السعيدة فعليك بالمصاهرة » .

وما كسمليان (١٤٥٩ - ١٥١٩) بن فردريك - الذى أضاف بالمصاهرة إلى ملكه الأراضى المنخفضة وجزءاً كبيراً من شرقى فرنسا - أكل هذه السياسة . خطب لوريثه عروساً ذات عقل معتم ولكنها ذات بائنة كبيرة ، هى جان ابنة فرديناند وإزبلا ملكى إسبانيا (ومتسع من الأراضى فيما وراء البحار بفضل كولومبوس) .

كأن الارتباط بإسبانيا أتى للنمسا بتقاليد البلاط الإسبانى التى تمتاز بمظاهر العظمة والشدة (التى كانت مرعية فى بلاط فرانسيس جوزيف) مما سجله الفنان فيلاسكوز فى لوحاته الفنية . وتلك الأيام هى التى فيها جعل دخان محاكم التفتيش الإسبانية سماء البحر المتوسط حالكة السواد .

وابتداء من عهد ما كسمليان أخذت أسرة هابسبرج تخرج من إطارها الألمانى وتصبح إحدى الأمرات الأوربية . ولكن مكسمليان نفسه - كما صورته ألبرخت دورر فى صورة الرئيس الأعلى ذى الأنف القامم الدقيق - جدير بأن يكون من فينا . فيها ولد وبها دفن ، وكان ذكياً ومستتهترا حتى ، إن أحد معاصريه - نيكولوميكيافلى - وصفه بأنه « أكثر الناس إسرافاً فى عصرنا وفى أى عصر آخر » ولكن لاشك فى أن فينا كانت تحبه .

وكان حفيده شارل الخامس (توفى سنة ١٥٥٨) أكثر منه اتساقاً للعديد من البلاد . ولد ونشأ فى الأراضى المنخفضة ، وورث من أبيه النموسى الفرنسى الأراضى المنخفضة وفرانش كونته (وهى منطقة برجنديا وجورا فى فرنسا الحالية) كما ورث كل ممتلكات أسرة هابسبرج التقليدية . ومن أمه الإسبانية حصل فى الثانية عشرة من عمره على عرش إسبانيا وأكبر إمبراطورية استعمارية فى ذلك الوقت ، وفيها بعض أجزاء من أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى وأجزاء كبيرة مما سعى فيما بعد بالولايات المتحدة .

وكان رجال بلاطه يفخرون في شيء من عدم الدقة في التعبير بأن الشمس لا تغرب عن ممتلكاته . والشعار الذي ذكرناه من قبل وهو « أن النسا مقدر لها أن تحكم العالم » أصبح يمثل رسالة الأسرة بإيجاز .

ثم تطورت الرسالة التي يتضمنها شعار الأسرة في أيدي آل هابسبرج فيما بعد العصور الوسطى حتى صارت رغبة عارمة في أن تنسج أملاكهم ، وكان فيها مجدهم . وفيها القضاء عليهم كذلك .

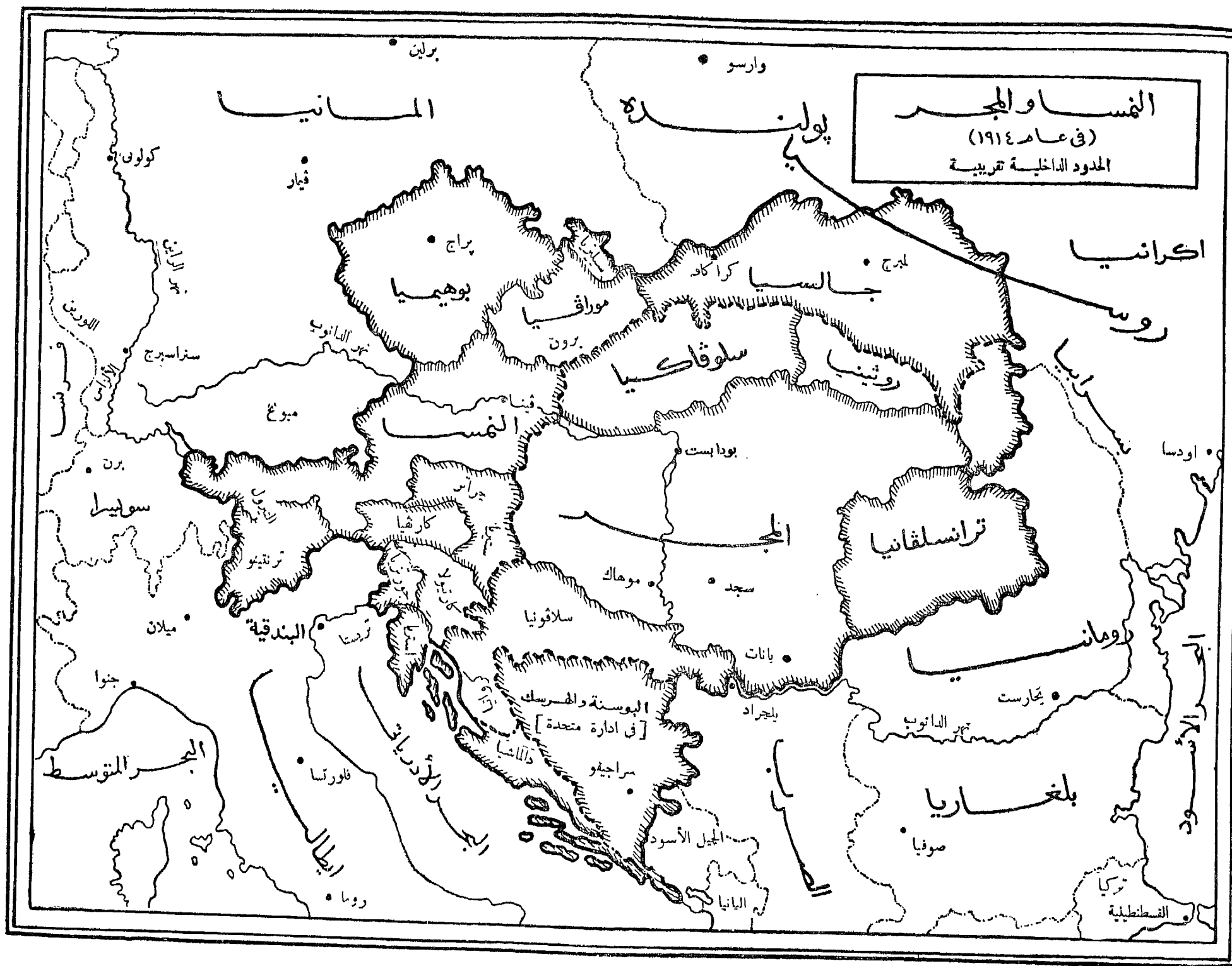
ورغم أن من العسير تسمية آل هابسبرج أسرة من ذوى الذكاء الثاقب ، إلا أن تاريخهم مرتبط بتاريخ الفكر الإنساني منذ القرن السادس عشر ، بحيث لا يضارهم في هذا المضمار أية أسرة أوروبية أخرى . ويقول أج ب تيلور إن هذه الأسرة كانت في كل قرن حتى القرن العشرين تتولى رعاية إحدى الحركات الأيديولوجية الكبرى ، حتى صارت رائداً للقضايا القومية الهامة . وقد تكون القضايا التي يدافعون عنها قضايا خاسرة وقد تكون الآراء التي يبشرون بها غير مقبولة . ولكن أسرة هابسبرج لم تكن رجعية بالقدر الذي يصوره بها من يعارضونها في الرأي . ومأساة هذه الأسرة التي تمتاز بها أنها كانت سابقة للعصر الذي تعيش فيه في بعض الأمور ومتأخرة عنه في البعض الآخر . وملوك هذه الأسرة يمثلون القشل في سجل التاريخ ، بمعنى أنهم كانوا دائماً يفشلون في بلوغ أهدافهم الكبرى . ولكنهم يعدون من أروع من حمل لواء القشل ، بل أعجده من حل هذا اللواء في سجل التاريخ .

« فشل مجيد » عبارة الرثاء اللائمة بشارل الخامس أكبر عاهل في عهد النهضة . لقد ظل هذا الرجل المحب للسلام العميق التفكير القوى الإيمان محبوب أوربا كلها من أقصاها إلى أقصاها ، من الأراضي المنخفضة إلى صقلية ، ومن إسبانيا إلى الدانوب على رأس جيشه لتحقيق أمل القرون الوسطى العظيم في وحدة أوروبية

مسيحية . وكان جهده في هذا ضائعاً . إنه نجح فعلاً في أن يقي معظم أوروبا من الغزو التركي . وهو عمل لا يقدر حق قدره في الوقت الحاضر ، ولكن انتشار المذهب اللوثرى أحدث خلافاً لا يلتئم بين المذاهب المسيحية . ونشأة الدول القومية أوقع أوروبا في خصومات سياسية لا تنقضى .

وفي الواقع كلن انتصار شارل على زميله الفرنسي فرانسيس الأول في بافيا انتصاراً للقومية العامة على القومية الخاصة . ولكنها كانت الموقعة الوحيدة الهادفة التي شهدتها أوروبا في مدى أربعة قرون متوالية . هذا ولو أن فرانسيس أو هنرى الثامن ملك إنجلترا لم يبلغ أحدهما سعة ملكه ، ولكن أسرة كل منهما كانت أعمق جذوراً في تربة بلادها من أسرته ، كما أن اتساع ملكه جعل من العسير حكمه في هذا العصر الذي كانت فيه وسائل المواصلات بدائية . فكان لا بد له آخر الأمر من أن يقنع بالقليل من أملاكه . فاعتزل الحكم بعد أن بلغ السادسة والخمسين ، وبعد أن انهكه جهد العمل المتواصل ، وأقام في مسكن ريفي صغير في إسبانيا ، متنازلاً عن تاجه الإمبراطورى في أملاك الأسرة في وسط أوروبا إلى أخيه فرديناند . وفي الوقت نفسه تنازل عن تاج إسبانيا إلى ابنه فيليب ، وبهذا شطر إلى شطرين مستقلين متحالفين أكبر قوة موحدة في أوروبا منذ عهد شارلمان . وقصة أسرة هابسبرج الإسبانية قصة المجد الذي أخذ يدهور حتى انتهى بانتهاء الأسرة عام ١٧٠٠ .

أما فرع الأسرة النمساوى الذي كان يعتبره أبناء عمومته في إسبانيا من ذوى قرباهم الفقراء ، فقد استمر مدة أطول يؤدي دوره العظيم الذي لا يخلو من المأسى للكثيرة . لقد ظلوا يحملون لواء الدفاع عن أوروبا ضد الأتراك أكثر من قرن بعد أن انتهى عهد الحروب الصليبية (ولو أن الحاجة إلى هذه الحروب الصليبية كانت .



أشد منها في أى وقت آخر^(١)، وقد رد الترك على أعقابهم في آخر مرة حاولوا فيها الاستيلاء على فينا عام ١٦٨٣، وكان جزاء آل هابسبرج من حروبهم ضد الأتراك كبيراً، فضلاً عن شرف الاشتراك في الحروب الصليبية، والعثور على حقبة اليد التي رددت الأساطير أن الشرقيين قد تركوها في ميدان الحرب. وفي مقابل حمايتهما من الأتراك عرضت بوهيميا والمجر عرشيهما الخاليين على فرديناند سنة ١٥٢٦ لا على أن يكونا جزءاً من الإمبراطور المقدسة الرومانية الألمانية بل على أساس الضم الشخصى الذى يضمن لهما سيادتهما المستقلة.

وفي القرن السابع عشر أعلن الإمبراطور ليوبولد الأول أن التاجين القديمين للجر وبوهيميا مورافيا (وهى تقريباً تشيكوسلوفاكيا الحديثة) من أملاك أسرة هابسبرج الوراثية، أسوة بتاج الإمبراطورية المقدسة الذى منح لأوتو الأكبر سنة ٩٦٢، وتاج لومبارديا الحديدي الذى لا يقل عنه شأنًا. وفي نفس الوقت أخذ ينتقص من حرية التشييك والمجر، وبذلك بذر بذور الحركات القومية العدائية التى ظهرت في القرن التاسع عشر والقرن العشرين. ثم إن اتساع الإمبراطورية سبب كثيراً من المتاعب، فهى بابتلاعها مملكة المجر القديمة كانت أشبه بالسمكة الكبيرة إذا ما ابتلعت سمكة أصغر منها قليلاً، إنها لا تهضمها، فضلاً عن بقائها شجى في حلقها. وبعمليها هذا كان لا مفر لها من أن تقر المجر على ضمها للمملكة كرواتيا في القرن الثاني عشر، وهى لا تختلف عنها عراقة في الاستقلال. والواقع أن « مشكلة السلافيين الجنوبيين » وهى من أعقد مسائل القرن العشرين نبت جذورها في القرن الثاني على نحو ما عبر عنه جوردون شبرد في كتابه « الملحمة النموية ».

(١) هذا رأى المؤلف ولا يخفى ما فيه من غيرة عمياء وتحبذ فكرة الحروب الصليبية التى لا يقرها المنطق السليم ولا رأى السيد (الترجم).

وكذلك في القرنين السادس عشر والسابع عشر أقام آل هابسبرج من أنفسهم قوامين على الأهداف العلمانية للحركة المناوئة للإصلاح . كما يرجع إليهم الفضل في أن القوى البروتستانتية المناوئة لم تتعد حدود شمال أوروبا وشمالها الشرق .

وإذا نظرنا من وجهة النظر الإمبراطورية ، نرى - مع ذلك - أن هذا النصر الذي أحرزته الكاثوليكية كان نصراً ضاراً ، حيث وسع شقة الخلاف في العالم الألماني . وبعد انتهاء حرب الثلاثين (١٦١٨-١٦٤٨) التي دارت رحاها بين الحكام الكاثوليك والبروتستانت إلى أن صارت معظم أوروبا الوسطى في حالة يرثى لها من العدم ، لم يكن التاج الإمبراطوري إلا رمزاً لهذا الفناء . وكانت ممتلكات آل هابسبرج في أوائل القرن الثامن عشر لا تزال تمتد من كاليه إلى السهل الروسي ، ومن شمال ألمانيا إلى شمال إيطاليا ، ولكن الإمبراطورية لم يبق من مجدها القديم إلا قوقعة سهلة الكسر .

واضطر آل هابسبرج إلى الاعتماد على أملاك الأسرة الخاصة . ثم إن محاولاتهم في أن يكونوا سنداً للأرثوذكسية بمجد السيوف باءت بالفشل حتى في ممتلكاتهم . وفي المعمار الذي أدخله الجزويت - وهم الحلفاء الدائمون للأسرة - في البلاد ، كان من دلائل هذا النصر المشكوك فيه ، وهذه التفاهة بل هذه السخافة التي ينطوي عليها هذا الاهتمام بالتجميل لم تكن لتمييز واجبات الكنائس فحسب ، بل أصبحت من مميزات المجتمعات الكنسية أيضاً . لقد أصدر ليوبولد الأول قراراً بمنع الغزل والكلام في أماكن العبادة .

واقترضت أسرة هابسبرج الأصلية بموت شارل السادس ، ولكن ابنته ماريا تريزا - وهي الإمبراطورة الوحيدة في الأسرة - تسلسل عنها فرع قوى بزواجها بدوق

الورين ، الذى أنجب منها ستة عشر فرداً هابسبرجيا لورينيا ، منهم مارى أنتوانيت السيئة الحظ .

وقانون الوراثة^(١) ، وهو القانون الخاص الذى أصدره أبوها وأغرى تابعيه أو أجبرهم على قبوله ليجعل وراثتها للعرش قانونية (وكان هذا الحق مقصوراً إلى وقت صدور القانون على الذكور) ، ساعد فى الوقت نفسه على ضم البلاد المستقلة ، التى كانت فى قبضة الحكام الإقطاعيين ، حتى صارت البلاد كلها إمبراطورية موحدة مركزية .

وهذه المرأة الجريئة التى كانت قابضة على حقها فى الملك مع أنه كان موضع نزاع إبان حريين متوالين ، والتى حكمت البلاد فى إخلاص وصدق رغم الخلافات العائلية ، كانت لها الكفاية الجديرة بإحدى بنات فينا ، كما كانت لها ميزة البساطة المشهورة عنها . وعندما أرادت أن تعلن على الملأ ميلاد أحد أحفادها العديدين ، وقعت فى أحد ألواج دار الأوبرا فى فينا وقالت بأعلى صوتها : « ليوبولد أنجب ولداً » .

وخلفها يوسف الثانى (١٧٦٥ - ١٧٩٠) وكان طرازاً جديداً فى هذه الأسرة . كان غيره ينفذ الأفكار ، أما هو فكان يتدعها ، وكانت أبعد

(١) هذا القانون الذى أصدره شارل السادس على أساس أن من صالح الإمبراطورية تغيير قانون الوراثة ليضمن وراثتها لابنته ماريانريزا ، وكان أحق منها ابنة الإمبراطور يوسف الأول ، إذ كان القانون ينص على انتقال الملك كاملاً غير منقوص إلى الأولاد الذكور أو أولاً ثم الإناث ابتداء من ابنته . ولم يكن الأمر مقصوراً على حرمان ابنة أخيه الصالح ابنته بل أحدث تغييراً فى قانون أسرة هابسبرج متجاهلاً كثيراً من التقاليد وكثيراً من المعاهدات بين التاج والشعوب التابعة للإمبراطورية ومخالفاً أيضاً بعض المعتقدات الدولية . وكانت نتيجة ذلك لإقحام بيت الملك النمساوى فى سلسلة طويلة من الحروب .

ما تكون عن أسلوب الأسرة في الابتداع والتفكير . وفي القرن السابع عشر . كانت فينا الدعامة الكبرى لمقاومة الإصلاح ، ولكن يوسف حولها في القرن الثامن عشر إلى أكبر مركز للثقافة ، وكان أطيب الحكام المستبدين وأقلهم استبداداً (نعى بهم فردريك الأكبر وكاترين العظيمة ويوسف نفسه) ، وكان يروقه أن يعتبر نفسه « إمبراطور الشعب » وعندما منح مدينة فينا المتنزه العام المسمى « برير » الذي ظل إلى وقتنا الحاضر المتنزه المحبوب لدى الشعب ، قال في إهدائه « إلى زملائي من خادهم الأمين » .

وفقد يوسف منهجاً شاملاً في الإصلاح ، فألقى ريق الأرض والتعذيب البدني ، وأغضب طبقة النبلاء الإقطاعيين بمبادئه الاقتصادية التي طبقها على الجميع بلا أدنى محابة . ولربما كان لإلغائه المبادئ الاقتصادية والاجتماعية التي خلفها القرون الوسطى ، ما وقى المجتمع النمساوي من أن تهب عليه زواجع الثورة الفرنسية . ولو كان صهره لويس الخامس عشر في فرنسا فعل ما فعله هو فلربما نجت فرنسا من ثورتها . ولكنه لم يستطع التغلب على أوضاع أسرته الخاطئة إلا بما زلزل كيان الأسرة ذاتها . قال المؤرخ تيور « كانت أراضي آل هابسبرج مجموعة من الضيعات المحتكرة لهم لادولة تحت سلطانهم ، ولم يكونوا حكاماً بل كانوا ملاكاً » . وبما كتبه عنهم المؤرخ الإنجليزي السابق « إن إمبراطوريتهم تعتمد على التقاليد وعلى الحقوق التي كسبتها الأسرة وعلى المعاهدات الدولية » . ولم يكن مفر من أن يكونوا العدو اللدود للثورة الفرنسية ، ولذلك الناشئ الحديث النعمة الكورسيكي المولد نابليون . إن فرانسيس الأول - وهو ابن يوسف - زوج ابنته ماري لويز إلى هذا الذي انتزع عرش فرنسا ، إلا أن هذا لم يكن إلا وسيلة لتهدئة الموقف . وكان فرانسيس دائماً في الجانب المهزوم في معظم المعارك الحربية التي خاضها نابليون ، واضطر إلى أن ينزل عن أملاكه الألمانية التي كان لقبه مبنياً عليها . وفعلًا خلع تاج أتو الأكبر

يوتخلى عنه (ويرى التاج اليوم فعلاً في متحف هوفمان) واستبدل بلقبه «الإمبراطور الرومانى الألماني المقدس» لقب «إمبراطور النمسا».

وبعد هزيمة نابليون استردت الأسرة كثيراً من أملاكها، ولكنها لم تحاول إحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وتولى رعاية شئون الأسرة الإمبراطورية البرنس مترنيخ، مستشارهم الشديد، عيد الرجعية العتيد وباسمهم حل لواء الرجعية ونشر تعاليمها. وإليه يرجع الفضل الأكبر في قيام الحلف المقدس للملوك المسيحيين الذى اقترحه القيصر إسكندر الأول في مؤتمر فيينا سنة ١٨١٤، الذى أصبح حلفاً دفاعياً للبقاء على الأسرات القائمة في أوروبا والحفاظ على البلاد التى تحكمها، وكانت القومية وهى من المبادئ التى أعلنتها ونشرتها الثورة الفرنسية - هى عدوها اللدود.

وبلغ خوف مترنيخ إلى حد الجنون، ولم يكن له سبب مفهوم ولم تكن النمسا - أى ما بقى من الإمبراطورية النمسية - أمة بالمعنى الذى يتبادر إلى الذهن، إذا قيل إن فرنسا أمة أو إنجلترا أو بروسيا أو إسبانيا أو حتى روسيا في عهد إسكندر الأول. كانت عبارة عن جملة أمم يربطها رباط مصطنع منبثق من نفوذ الأسرة التى استمدت وصايتها من خليط من العادات، ومن تشريع القرون الوسطى الخاص بملكية الأرض. والوطنية ذاتها كانت موضع اهتمام في النمسا في عهد آل هابسبرج - وإذا ما أثنى أمام فرانسيس الأول على أحد بأنه وطنى بارز رد مستفسراً هل هو وطنى في جانبى ؟. والنظر إلى الأمور بهذا الأسلوب مكن اثنين من الأسرة في القرن العشرين أحدهما الدوق فرانسيس فرديناند أن يكونا رائدين لنمط حديث من الفيدرالية الأوربية، ولكنه في القرن التاسع أصبح على الأسرة لا أن تقاوم بالحرب الحركات القومية التى كان السلاف والمجر والإيطاليون يقومون بها فحسب، بل وكان عليها أن تقيم سدأهزى لا تقاومة الحركة التى تهدف

إلى الوحدة الألمانية ، التي كانت تضطلع بها أسرة هونزولرن الإقطاعية المناقسة بلوغ مجدهم الإمبراطوري . وكان العبء الأكبر في هذه الرسالة مزدوجة واقعاً على كاهل فرانسيس يوسف الأول بن فرديناند شقيق فرانسيس الأول المحدود الذكاء . وكان هذا في آدابه البسيطة وحرصه على أداء الواجب ونفوذه المتزن وبساطته البدائية ووحدة هدفه في أفعاله الضيق ، كان مثالا لقبطان السفينة المشرقة على الغرق . ولئن كان حكمه قولاً الثاني في روسيا يبين ما للتاريخ من حكم صارم ، فإن قصة حياة فرانسيس يوسف تبين ما في تاريخ البشرية من عظمة ومن أحكام قاسية لا مفر من وقوعها .

وكان الإمبراطور فرانسيس يوسف في نظر أجدادنا رمزاً للبقاء والدوام ، من حيث هو إنسان وصاحب نظام قائم . وكل من عرفه من الشباب منذ طفولته حتى صار رجلاً مسنّاً ذا خصلات منشورة من الشعر تتدلى على جانبيه وجهه ، يحس كلما رأى هذا الوجه في الصحف أنه هو بعينه الذي رآه كل مرة دون أدنى تغيير . وهو يعد بعد فكتوريا ملكة بريطانيا للمثل الأول للقيم والتقاليد في القرن التاسع عشر . وقد ولد بعدها بعشر سنوات وامتد عمره بعدها خمسة عشرة سنة ، ومدة حكمه كلها ٦٨ سنة . وكان وودرو ولسن رئيساً للولايات المتحدة عندما توفي فرانسيس يوسف سنة ١٩١٦ في السادسة والستين من عمره . . وكان أندرو جاكسون رئيساً لها سنة ميلاده سنة ١٨٣٠ . وكان مترنيخ وتاليران وولنجتون أحياء عامين في ذلك التاريخ . وكان جيته ولافايت لايزالان على قيد الحياة ، وكان جده الإمبراطور فرانسيس الأول الذي انتصر عليه نابليون في أوسترايز وفاجرام على عرش الإمبراطورية حينذاك .

شهد عام ١٨٣٠ أول انتفاض على ما فرضه مترنيخ على أوروبا من إعلانه

الوضع الذى كان قائماً قبل حرب نابليون ، إذ قبل ميلاد فرانسيس يوسف ببضعة أسابيع (١٨ أغسطس فى قلعة لاكسنبرج خارج فينا) طرد ابن عمه شارل العاشر البربونى عن عرش فرنسا على أثر ثورة قام بها الشعب ، بينما على ضفاف الدانوب كانت خطوط الدفاع التى أقامها مترنيخ فى غاية القوة ، ولم يسمح بأى رأى تحررى ليعكر الهدوء الشامل الذى كان يرفرف على ربوع الإمبراطورية منذ سنة ١٨١٥ . ولا شك أن مترنيخ سمح لإحدى المقاهى فى فينا أن تقدم لروادها بعض الصحف الأجنبية . إلا أن ذلك كان خدمة لرجال الشرطة ليسهل عليهم معرفة من تحوم الشبهة حولهم (وهذا الإجراء كان متبعاً فى دكتاتوريات أوروبا الوسطى فى بعض المناسبات) ، وكانت الشرطة ذات كفاية ، وكذلك كانت الهيئة الحاكمة التى أعاد فرانسيس الأول تنظيمها ، وكان كلاهما دعامتى الأسرة والحارسين على النظام الاجتماعى القائم بعد حروب نابليون . وكانت الطبقة المتوسطة فى الإمبراطورية لاهية فى الشراب والطعام والموسيقى ، بينما ابن نابليون دوق ريشتاد الصغير أو نسر النابليونيين المتعصبين يسقى كأس الموت البطيء فى سراى شونبرون .

ولكن فرانسيس يوسف لم يكن ليعامل هذه المعاملة . فقد انشئ تنشئة حرية مع أخيه الأصغر ماكسميليان (وهو نفس ماكسميليان الذى قلد له أن يموت ميتته الحزنة فى المكسيك أمام فصيلة من الجنود) فى قلعة هوفبرج العتيقة ذات الرأحة الكريهة تحت إشراف أمهما الدوقة صوفيا ، تلك السيدة الجادة الطموحة التى ليس فى مسلكها أثر من الصفات الفاضلة الرومانتيكية التى اشتهرت بها أسرتهى البافارية فيما بعد . ولما كان مترنيخ رئيساً لمجلس الوصاية ، فقد أصبح هو الرئيس الفعلى للإمبراطورية سنة ١٨٣٥ ، بعد أن اعتلى العرش عم فرانسيس يوسف فرديناند الأول المعروف بجنونه وضعف أعصابه ، وأشرف على تنشئته الدوق الصغير ليوبهت لاغتلاء العرش بعد عمه . وكان منهج تعليمه على ما ذكره أحد المؤرخين

المسويين يشمل الدرامات العادية « وقراءة الصحف واللغة البولندية وساعة يقضيها كل أسبوع مع البرنس الأمير مترنيخ » .

ولم يكن فرانسيس يوسف قد بلغ الثامنة عشرة عندما أرسل إلى إيطاليا ليتدوق حياة الجندية . وقد أظهر فيها كفاية عظيمة ، وكان يوم الاختبار ثابت الجنان عند إطلاق الرصاص . وكانت أول مرة سمع فيها الرصاص يدوى في أذنيه ، ورأى الرجال يخرجون صرعى في القتال ، كانت عند تأديب الثوار الوطنيين . وكان يعمل في شمال إيطاليا ، حيث ثار الوطنيون الحليون الذين كان يشجعهم البابا الحر بيوس التاسع ويساعدهم جيش أسرة بيدمونت من آل سافوى ، وكانت نتيجة ثورتهم طرد الجيش الإمبراطوري من فينيسيا ومن ميلان .

وكان عام ١٨٤٨ هو العام الذي تقرر فيه مصير الأمور . كانت الحركات الثورية القوية تتجمع وتشتد تحت ستار النظام الكثيف الذي أقامه مترنيخ ، والثورة الفرنسية التي اندلعت في فرنسا وأطاحت بعرش لويس فيليب كانت مقترنة بعدة ثورات سياسية في أنحاء أوروبا المختلفة ، ففي مارس ثار التشيك والمجر يطالبون بالحكم الذاتي والحياة النيابية الخاصة ببلادهم ، ثم وقع الاضطراب في فينا نفسها يقوده الطلبة الأحرار ، ويؤيده معظم الأهالي ، وغادر مترنيخ البلاد هاربا في عربة لنسل للملابس قانغا بنفيه خارج البلاد — ثم هدأت الثورة هدوءا مؤقتا عندما أعلن الإمبراطور فرديناند ، الذي لا نفوذ له — حرية الصحافة ووعده بالحياة النيابية ، ولكن الثورة اتقد أوراه في مايو إلى مدى لم تبلغه من قبل ، وقبض على أزمة الأمور لجنة للأمن العام في فينا وفر رجال البلاط إلى إنسبروك ، واستدعى فرانسيس يوسف من خدمة الجيش ولحق بهم هناك . وفي أواخر الصيف عادت الأسرة الإمبراطورية إلى فينا ، ولكن اضطرابا أشد عنفا حدث فيها فاضطرت الأسرة إلى

لمحرب مرة أخرى ولما يمض على عودتهم إلا زمن وجيز ، وكان هربهم هذه المرة إلى حصن قديم في أولوتز في مورافيا .

وكان هذا الانسحاب الذى سقى الأسرة كأس النذل ، هو الطعنة الدامية الأخيرة الموجهة إلى تعليم الدوق السياسى ، الذى لم يهبثه أى شئ ليفهم الحركات التاريخية الكبرى فى ذلك العهد ، والذى كان عليه أن يقاومها جميعاً ، ولهذا أخذتلقى الهزيمة تلو الهزيمة فى حياته العامة وحياته الخاصة جميعاً . وسرعان ما كان هروب الأسرة إلى أولوتز نقطة تحول فى حياتها .

وكانت الدوقة صوفيا أم فرانسيس جوزيف - من أهم العملاء المحرضين للإمبراطورين على مقاومة الثورة ، التى اشتدت وطأتها إبان الأشهر الأخيرة من سنة ١٨٤٨ . ومما قالته فى إحدى اللحظات الحرجة فى أثناء المعركة « أيسر على أن أحتمل فقد ولد من أولادى من هزمتى أمام عدد من الطلبة » . ونظمت جمعيات سرية لغلاة الملكيين بالاشتراك مع اثنين من أشد أتباع مترنيخ بطشاً ، البرنس ألفرد وندش جرتس القائد الإمبراطورى فى براج الذى أعاد النظام فيها يوماً بأن دمر المدينة بالقنابل ، رغم وعد الإمبراطور وصهره البرنس فردريك شوارتزنبرج ، وهو من الرجعيين ذوى البأس الشديد الذى لا يقل عدم تقديره للمسئولية عن احتقاره للديمقراطية . واستطاعت بمعاونتهما حمل الإمبراطور الضعيف الطيب على التنازل عن العرش لابن أخيه ، ذلك الشاب الذى لم يرتبط بأية وعود أعطاه لرجال الثورة قد تعوقه عن أعمال القمع التى يتطلبها الموقف . وكان منطق هذه الطغمة المتحمسة سليماً على وجه العموم ، إذ قدرت أنه لا بد مستجيب لما ركب شوارتزنبرج وتوجيهاته العنيفة .

وتمت مراسم التتويج فى قلعة أولوتز القديمة المتقبضة دون أى احتفال ، بعد أن

وضعت خطتها في سرية تامة . وكان جو الحفل أشبه بجو عملية شنت شخصية كبيرة منه بجو حفل عائلي . وكان مظهر فرانسيس يوسف ذلك الشاب الأبيض النحيل . الأنيق - وفق ذوق ذلك العهد - أقرب إلى مظاهر الشباب ، مع تقطيب حاجبيه ليبدو في صورة الرجل الجاد ، ومط في شفتيه البارزتين حتى صارتا في وضع مستقيم . وبينما كان محاطاً بنوى قرياه الذين لم ينقطعوا عن الحديث بصوت غير مسموع ، ومعهم شوارتز نبرج الذي كان يؤدي دور رئيس الاحتفالات ، ركم أمام عمه العجوز الساذج الذي كان من السهل إغراءه بالتنازل عن العرش . وقد سر فرديناند بيده على خد الشاب المضطرب وقال له في نبرات تدل على البلاهة الملهمة « كن شجاعاً . كل شيء على ما يرام » .

ولكن كان لا بد أن ينقضي وقت طويل حتى يصبح كل شيء على ما يرام ، حتى بالمعنى المحدود الذي يرضى شوارتز نبرج . فالثورة لم تجتث من إيطاليا . وفي الجبر لم تكن وصلت إلى مداها بعد ، وكان فرديناند قبل تنازله قد منح الجبر الاستقلال الذاتي والحكم الذاتي ، ولكن فرانسيس يوسف - بعد تنويجه - رفض أن يقر بمنحة سلفه ، مما ترتب عليه رفض البرلمان الجبري الاعتراف به ملكاً على الجبر متأثراً بالآراء التي أعلنها باترك هنري ولاجوس كوسوث ، ثم إن وندش جريز - بمعونة الكروات الذين أصيبوا بحمى القومية من مبادئهم - قام بالثورة واحتل بوادبست ، ولكن القوى الجبرية الوطنية تجمعت وألحقت به عدة من الهزائم . وشجع هذا النصر البرلمان الجبري على ألا يعترف بأسرة هابسبرج ويعان الاستقلال التام .

ومنذ أن قدم أسلاف المايجاريين من أواسط آسيا واستقروا في سهل الدابوب الخصيب ، ظلوا يحملون بين جوانحهم شعوراً دافقاً بالحرية التي ألغوها في معيشتهم المتنقلة الأولى ، ورغبة لا تهدأ في السيطرة . وهكذا كان المايجاريون

مشكلة لأنفسهم ومشكلة لجيرانهم الذين يقولون عنهم حمية وغيره . ولعلمهم كانوا في علاقاتهم بالتاريخ أكثر شبهاً من أى شعب آخر في أوروبا بعلاقة المريض بمرضه المزمن، من تناوب لا ينقطع بين الرضى والسخط وبين العذاب والسيادة الإمبريالية . ففي عام ١٩٥٦ اضطر أحد خلفاء أسرة هابسبرج وكان حارساً للسجن السوفييتى إلى الاستنجاذ بالعون الروسى ليقضى على ثورة جاحمة تملكّت بعض زملائه . وفى سنة ١٨٤٨ اضطر فرانسيس يوسف مستنداً إلى الحلف المقدس - إلى أن يستعين بقوة حرية روسية لإخضاع رعيته ، وقد تملكهم شعور مماثل لنيل الحرية الوطنية . وأرسل نقولا الأول - مثل نيكيتاخروشوف الذى يبادر دائماً إلى نجدة أى حاكم أو زميل مستبد عند الشدة - جيشاً مجهزاً لنجدة .

(لا عجب وهذه السوابق التاريخية ماثلة فى الأذهان أن ثورة سنة ١٩٠٥ فى روسيا وهى المعقل الأخير للرجعية أفاقت الرجعيين فى النمسا والمجر إلى حذب بعيد) .

هذا وقد أخذت الثورة المجرية بفضل قيصر روسيا سنة ١٨٤٨ . ومن قبل أعيد حكم النمسا فى فينيسيا ولومبارديا ، ثم إن حملة جديدة شديدة البطش والقسوة قضت على الآمال المتفتحة لدى الشعب المجرى . وهرب كوسوث إلى أمريكا ، ونجح فى بذر مبادئه السياسية فى تربة الدنيا الجديدة الصالحة . ولكن كثير أمن الوطنيين غيره دفعوا حياتهم ثمناً للحرية كما فعل غيرهم من قبل ، وكما لا بد أن يفعلوا فيما يستقبل من الزمان .

ولما اقترح على شوارتزنبرج أن يعامل المجرين الثائرين بشيء من التسامح مما تقتضى به الضرورة والمروءة قال ، فى بساطة أرستقراطية « نعم . نعم . نعم إنها فكرة طيبة ، ولكن يجب البدء بشئ بعض الأفراد » .

وفى الجزء الإيطالى الخاضع للنمسا أقامت الشرطة الإمبراطورية مخافراً للتعذيب ،

زودتها بجنود قساة من الكروات والتبوتون على جانب المسرح ليخمدوا
أى حماس ثورى فى النظارة من عشاق الأوبرا الإيطالية ورواد المسارح . واضطر
شارل ألبرت ملك ساردينيا ووالد فكتوا إمانويل الثانى ملك إيطاليا فى المستقبل
الحريب إلى الاستقالة ، ورجعت إلى وراء حركة الاستقلال الإيطالية الرائعة عشر
سنوات - عشر سنوات لا تزيد .

وبتخريض من شوارتزنبرج وضع فرانسيس يوسف أمام عينيه الدرس الذى
وعاه من هربه يوم قيام الثورة، لقد فهم يومئذ أن تيارات التاريخ يمكن ألا يعبأ بها
إذا كان لدى الإنسان القوة الكافية . واعتقد أن لديه القوة، وأعلن عن تصميمه
على مقاومة الحركة الثورية فى رأس سنة ١٨٥٢ بإصدار ميثاق جديد للإمبراطورية،
منذاه ولجته الحكم المركزى المطلق، وبهذا ألغى بحجة قلم كل ما كسبه شعبه وشعبه فى
ثورتين . وبهذا التصرف العملى لم يقبض الإمبراطور على جميع أزمة الحكم فى يده
فحسب ، بل ألغى كل الحقوق التى كانت قائمة من قديم الزمن بين الإمبراطور
وبين الممالك والأملاك الخاضعة له .

إن مترنيخ نفسه لم يذهب طول حياته إلى مثل هذا المدى البعيد . وبنفس
الأسلوب الانتحارى الذى اتبعه نقولا الثانى فى حكم روسيا قام فرانسيس يوسف
بتجاريه الضعيفة فى الحكم المطلق ، التى دعت الثورة إلى أن تشرع أشد أسلحتها
فتكاً، نغى بها مهارتها فى دفع خصومها إلى الانتحار الجنونى . ومن سخريه القدر
أن فرانسيس يوسف ربما نجا من الهزيمة بسبب فداحة أخطائه . لقد بلغ خطؤه فى
فهم الحالة السياسية العامة فى أوروبا إلى المدى الذى انتزع عنده سيف الرجعية من
يده قبل أن يقطع عنقه به .

وبما كتب الإمبراطور إلى أخيه ماكسيمليان ذات مرة، وكان حاكماً من قبله

على لومبارديا « راقب بيدمونت دائماً . إنها أرض خصيبة لنمو الميول الهدامة » ..
 ورغبة منه في القضاء على تلك الميول قبل أن يستفحل أوارها كتب فرانسيس
 يوسف سنة ١٨٥٩ إلى حكومة فكتور إمانول الثانى الشاب إنذاراً تفوق شدته
 ما أُنذرت به الصرب - بعد حادث سراجيفو - بوجوب تخلى ساردينيا وبيدمونت
 عن التسليح . وكان هذا بطبيعة الحال للقضاء على الحركة القومية التى لا تروقه فيهما ،
 وكان هذا الإنذار وفق ما يرجوه رئيس وزراء فكتور إمانويل الكونت كافور ،
 وكان وطنياً مستنيراً قرأ ما كتبه مكيا فيلى وروسو ، وكانت بينهما نابليون الثالث
 محالفة دفاعية تنفذ فى حالة أى اعتداء عليه من النمسا . وكان لنابليون هذا منظر
 للقامرين الذين يباشرون لعب الميسر فى قوارب نهر الميسسي ، كما كان له عقليتهم ،
 وكان تواقاً لأن يعتدى عليه . واللقاء الأخير بين الجيوش النمسية الحربية وبين
 الجيوش الفرنسية الإيطالية فى ماجنتا ثم فى سلفرينو لم يكن معركة فاصلة ، ولكن
 كان فيه تكرار لحروب بونابرت الخضبة بالدماء فى إيطاليا . وخشى مغبتها
 الإمبراطوران المنزعجان جميعاً (وكان كل منهما على رأس جيشه فى المعركة) ،
 ثم تم الصلح وبمقتضاه انسحبت لومبارديا من النمسا (ثم توج فكتور إمانويل
 ملكاً على إيطاليا بعد ذلك بستين) ورجع فرانسيس يوسف إلى فينابلق جروحه ،
 ومنح رعاياه دستوراً سمحا فى ظاهره ، فضلاً عما كان يضمه من سوء النية فى
 بعض نصوصه .

ثم إن الإمبراطور الذى بلغ حينئذ التاسعة والعشرين من عمره لم يتخل عن
 محاولاته الشخصية فى الاستبداد فحسب ، بل حاول أن يعمل على مجازاة الحركة
 الوطنية . وفى سنة ١٨٦٣ حاول أن يكون على رأس حركة الوحدة الألمانية ، فدعا
 إلى عقد اجتماع لجميع الأمراء الألمان فى فرانكفورت ، ولا شك أن فكرة اقتراح
 إمبراطور من أسرة هابسبرج لإعادة صورة مشوهة للإمبراطورية الرومانية المقدسة

التي كانت لأسلافه ، على أن يكون هو رئيساً لألمانيا الوطنية الحديثة التي اختبرت فيها المبادئ الماركسية ، فضلا عن مبادئ تروتسكي - لا شك أن فكرة كهذه تنطوي على كثير عن السخف ، فضلا عما فيها من التحدى . فإن أسرة هوهنزولرن في بروسيا أعلنت بوضوح عن حقها في الاضطلاع بمهمة وحدة ألمانيا ، كما قامت أسرة سافوي بمثل هذه المهمة في إيطاليا ؛ فضلا عن أن المستشار الألماني بسمارك كان مصمماً على توحيد ألمانيا بالنار والدماء ، وفي سنة ١٨٦٦ حاول أن يوقع فرانسيس يوسف في الشباك التي جعلها كافور على مرأى منه وأعلن الحرب . وعندما رأت إيطاليا أن أمامها فرصة للكسب انضمت له ، وحارب معظم الأمراء الألمان بما فيهم أمير بافاريا مع الجانب النمساوي ، ولكن الأسلحة الآلية البروسية الفتاكة تحت قياد الجنرال مولتك أوقعت الهزيمة المنكرة بجيوش الإمبراطور عند سادوفا في شمال بوهيميا .

وكلفت الهزيمة فرانسيس يوسف ضياع البندقية والمنطقة الغنية التي وراءها . وعندما سمع الإمبراطور السابق أبناء الهزيمة وهو تحت العلاج في براغ قال : «ألهذا أجبروني على التنازل . كان في وسعي أن أخسر بنفسى هذه الولايات» . بل كان أشد إذلالاً لأسرة هابسبرج التي كانت تحمل على رأسها تاج الإمبراطورية الألمانية المقدسة أن تطرد من المجتمع الألماني ، وأن تم الوحدة الألمانية تحت رعاية أسرة هوهنزولرن المنتصرة .

وكانت الضربة التي أصابت مكانة الإمبراطور ضربة قاصمة تزلزل أى ملك أقوى من الملك فرانسيس يوسف . ثم إن هزيمة سادوفا قلبت ميزان السياسة الداخلية في الإمبراطورية ، كما قلبت ميزان القوى في أوروبا كلها . ولم يكن هناك ما يمنع وقوع الثورة والحصول على معونة صادقة في حرب انتقامية ضد بروسيا

إلا بالاتفاق مع المجر ، التي هي أقوى الأقليات التي تتكون منها الإمبراطورية . وكانت نتيجة ذلك معاهدة سنة ١٨٦٧ التي قامت على أساسها الدولة الثنائية التي هي في الواقع إقرار بسلطان المجر . وهذا الاتفاق الخامس كان من الساحة بحيث منح المجر دستوراً حراً تتمتع فيه بمزايا كثيرة داخل الإمبراطورية ، ولكنه كان من الرجعية فيما منح المجر من السلطان ، حتى صارت لهم دكتاتورية عنصرية ، عدا الرومانيين والسلوفاك والروثينيين والصرب والكروات الذين يقيمون في أوطانهم مدى أحقاب بعيدة . هذا والصرب والكروات الذين أيدوا العرش سنة ١٨٤٨ أحسوا بخديعة الأسرة لهم ، ورددوا هذا المعنى في كلامهم . وهذا الاتفاق في الواقع قضى على السياسة التقليدية التي كانت تقضى بحفظ التوازن بين الأقليات المختلفة فيها وأطحت محلها حكم الأقليات . وكان فرانسيس يوسف يعتزم أصلاً إصدار دستور فيدرالى حر بعض الشيء في نصف الإمبراطورية النمساوية ، ولكن خوفاً من العدوى أجبره المجرىون على إقامة نظام للحكم بضمين وحدة العنصر الألماني ، بينما يعترف من الناحية النظرية بحقوق متساوية لجميع القوميات التي تتكون منها الإمبراطورية . وكانت النتيجة نفور التشيك وكذلك إلى حد ما نفور سائر العناصر الأخرى في النمسا .

وفي هذه الظروف كانت الإجراءات الدستورية تنطوي على شيء من الترف له خطره . وقد ظل فرانسيس يوسف يعتقد - وله بعض الحق - أنه ليس من السهل تطبيقها في كل أنحاء الإمبراطورية ؛ ولذلك كان كبير الإيمان بلزوم المادة الرابعة عشرة التي صمم على أن يتضمنها الدستور النمساوي ، والتي تنص على أن للإمبراطور عند الضرورة وعلى سبيل الاستثناء إصدار بعض الأوامر دون الرجوع للبرلمان . وبعبارة على « سبيل الاستثناء » أصبحت هي السبيل إلى الحكم المثلث ، كما كانت موضع دعاة عند الكتاب . وما جرى على الألسن أن النمسا لا هي حكومة مطلقة

ولا هي حكومة ديمقراطية بل هي حكومة ضرورة . وعندما حلت سنة ١٨٦٧ كان فرانسيس يوسف قد تغيرت نظريته السياسية من الاستهانة الشديدة بالأمر التي كانت طابعه أيام شوارتزنبرج وأصبح أصلب عوداً من أثر المصائب التي حلت به، ولكن الفشل الذي لازمه في حياته الطويلة أصبح من مميزات حكمه التي لا تمحى . وإذا صدق هذا في حياته العامة فإنه كان أصدق في حياته الخاصة .

كانت قصة زواج فرانسيس يوسف ومتاعبه العائلية من القصص التي ليس من السهل روايتها لأسباب عدة . إنها أولاً أشبه شيء بالبحث والتنقيب في صندوق قديم والعثور على صور قديمة ومذكرات قديمة وخطابات غرام وحب لبعض الجلود، تجدد ذكر مأساة بعيدة بعد أن نسيها الذاكرة . وإن الإنسان ليصيبه النعز بل الاضطراب الشديد عندما يكتشف أن هؤلاء الناس الذين غيبتهم القبور والذين ترمقنا عيونهم من خلال صورهم القديمة قد قاسوا ما تقاسيه نحن من عذاب وألم . وثانياً إن القصة التي توحى بها حياة إليزابيث النموية وموتها إلى ما تثيره ذكريات ابنها السيء الحظ رودلف، لا بد أنها تضعف ماقد يعلق بالذهن عن الشخصية الهامة الوحيدة في هذه المأساة — أعني به فرانسيس يوسف نفسه .

كان في الثالثة والعشرين عندما لقي إليزابيث لأول مرة، وكانت هي في السادسة عشرة وهي الابنة الثانية لماكسميليان دوق بافاريا . وكان الإمبراطور الشاب موضع نظر كثير من البارونات، ولكن واحدة منهم لم تثر فيه أية عاطفة للحب . وأحب إليزابيث منذ النظرة الأولى . وكانت أمه صوفيا تود لو اقترن بكبرى أميرات بيت ويتلزباك، ولكن لم يعد هناك أى مجال لأية عروش غير إليزابيث بعد أن رآها سنة ١٨٥٣ في باداشل إحدى العيون المائية التي كان يرتادها عليه القوم إذ ذاك . وكان زواجهما فاتناً، محققاً لما يحول في خاطر آلاف المحبين من أحلام، ومحققاً لا ريب لأحلام الزوجية كذلك . كانت العروس فاتنة ذات قوام

معتدل جميلة التقاطيع حالكة الشعر تسبق (المودة) السائدة بما لا يقل عن نصف قرن . وكان مظهر فرانسيس يوسف فيه رجولة ، وكان رشيقاً في حاته العسكرية ، كما كان فارساً ماهراً وراقصاً ممتازاً ، مرحاً فيه فتنة . وكان سهل الطباع عظيم الخلق .

وكانت إيزابيث الفتاة الموهوبة الذكية التي تفعل ما تأليه عليها الطبيعة المتحررة ، مغرمة بالتجول وحيدة على ظهر جوادها في الريف البافارى . وكان أمامها امتحان قاس لتكون إمبراطورة في أسرة هابسبرج . وهى لم تعد لمنزلها الجديدة ولم تملأ خيالها إلا قراءة الأدب الشعبي . وكثيراً ما سودت مذكرياتها بالشعر العاطفى . وكان من العسير عليها أن تلتأم بين نفسها وبين الحياة في قصر هوفبرج وما فيه من تقاليد صارمة . وقد قضت سنوات من السعادة مع زوجها الفاتن ، ولكن الحياة في بلاط الهاابسبرج ايست قصة خيالية ؛ ولهذا كانت عاجزة عن تهيتها عاطفتها لقبول الأمر الواقع ، لا كإمبراطورة ولا كزوجة ولا كأم . ورغم عظيم حب زوجها لها لم يستطع أن يقدم لها أية معونة في هذا السيل ، وحاول أن يرضيها بكل الوسائل ، حتى إنه أقام لها حماماً إنجليزيا في القصر ، غير أن أعباءه لم تترك لديه وقتاً يخصصه لها ، ولكن خياله كان ضعيفاً ، ويبدو أنه لم يتعلم شيئاً نافعا من هذه البارونة التي تعيش عيشة صحية . ولكنه كان كعظم الرومانسيين أشبه بالخنزير في حياته المنزلية . إن خلقه في حبه كان كعظمته في حكمه ، كلاهما لا يتجلى إلا في الأوقات العصيبة .

ولم تكد تبلغ الخامسة والعشرين عندما سافرت لأول مرة إلى الخارج قاصدة ماديرا ، متعلقة بضعف صحتها . ومنذ هذا الوقت اشتدت أمراضها العصبية ، وأخذت تنتقل بين المصحات والينابيع المعدنية ، وتتبع النظم الصحية في الغذاء والعلاج .
(م ١٠ - الأبر)

وكانت مغرمة بالسياحة والشعر القديم والطب النفسى ، كما كانت مشغولة بنفسها
أكثر من كل شئ .

وكان قصرها فى كورفو مكاناً خلوتها وللإسراف الشديد . وكانت من
سيدات الصالونات السابقات فى هذا المضمار ، وكان كرمها يتجلى فى الإسراف
الشديد وفى إنفاق كل ما خصصه لها زوجها ورعيتها على الخيل والمنازل واليخوت
والأطباء وعلى موائد الميسر فى مونت كارلو .

وعندما بلغ سن الأربعين كان الدور الوحيد الذى يؤديه فى حياة زوجته
إليزابيث هو دور الوالد المستسلم لنزوات ابنته العنيدة . وقد أداه فعلا على أتم وجه
وإلى أبعد الحدود . وبينما كانت إليزابيث تقوم بما لاينتهى من الرحلات استكمالاً
لصحتها وإرضاء لشبابها وإشباعاً لميولها نحو الجمال ، كان هو يجلس على مكتبه اثنتى
عشرة ساعة أو ست عشرة ساعة فى اليوم دون أى ملل ، ينزع الأجزاء غير المستعملة
من الخطابات الواردة ليستعملها للكتابة (ربما كان يفعل ذلك ليستعويض به
عما تفقده زوجته) ، ويأكل الأطعمة الخفيفة التى يزدردوها مع زجاجة من الجعة .
ثم إنها تركت الأعمال المنزلية وواجبات البلاط الاجتماعية ووكلت بها إليه ، وكان
يؤديها بمثل الدقة التى يؤدى بها أعماله الرسمية . وكان يذكركل أعياد الميلاد
الخاصة بالأسرة بما فيها أعياد من كان منهم مقياً مع الأسر الملكية الأخرى فى
أوروبا . ولا يفوته ملاحظة زر واحد تلاه الصدا فى حلة حوذى ، أو طبق وضعه
ياهمال أحد الخدم فى وليمة رسمية . وكان دائم الرعاية لها ساهراً على سعادتها وهو
بعيد عنها ، لا ينكر ولعها بالبرقيات غير الموقعة منها . وكانت خطاباته إليها وبخاصة
المكتوبة باللغة الجبرية — التى كانت فيما يبدو لغة (رفع الكلفة) بينهما — رقيقة
مؤثرة ، ولكنها لا تنزل إلى حد الابتذال .

كتب لها سنة ١٨٩٢ « دعيني أفصح لك — لأننى لا أستطيع أن أئين لك —
(ولو فعلت لضايقتك ذلك كثيراً) إلى أى حد أحبك » .

وبعد ذلك بست سنوات — وكان هو فى الثامنة والستين وهى فى الحادية والستين
ولم يبرأ بعد الجرح القديم — كتب لها يقول « إن حاجتى إليك لا تنتهى وأنت
دائماً فى فكرى ويؤلمنى ابتعادك عنى . ما أشد ما تحزننى حبراتك الخالية » .

وكانت تهوى الركوب والصيد فى الجبل، ولعل حب الانطلاق فى النفس المجرية
صادف هوى فى الجانب الأدبى منها . ثم إن الدوقة صوفيا كانت تكره المجريين
والإمبراطورة تمتحت حماها . وهذه أسباب كافية جداً للحدب على آمال أهل الجبل
السياسية ، ولا شك أنها كان لها فى هذه الناحية تأثير على الإمبراطور وبخاصة عام
١٨٦٧ عند إبرام الاتفاق الموقوت . وكان دورها الأكبر فى مأساتنا الكبرى
فى وقتنا الحاضر سلبياً ، كما كان أقل بشاعة وأبعد عن أن يكون له أثر مباشر
أكثر من الدور الذى قامت به إمبراطورة روسيا زوجة نقولا الثانى ، وإن كان
لا يقل عنه خطراً . وبمرمانها زوجها من الدفء الذى يحتاج إليه أكثر من أى
رجل آخر حتى تكمل رجولته ، بسبب انتقامه ووحدة فى عمله الرسمى ، قضى عليه
عدم نضجها بأن تطفى حياته الرسمية على شخصيته ، وأن يحول من رجل له إحساسه
فى مكتب إلى صنم حكومى . وعندما تقدمت به السن أصبح فيه الجمود وعدم
المبالاة وحاسة الجالس على عرش الإمبراطورية البيزنطية المختلفة الشعوب والبلاد .
وقد كان ينظر إلى الفوضى السائدة فى الإمبراطورية بعين جامدة لا ترى ونفس
خائرة لا تحس .

والغذاء الهزيل الذى كان يرد إلى قلب الإمبراطور من قبل زوجته وعلاقته

بها لينعشه ، نقصت قيمته بتوالى المصائب عليه — التى بدأت مبكرة — قبل ما كلفته الشيخوخة ما كلفته من أعبائها . ماتت أولى بناته بينما كان الزوجان الإمبراطوريان يقومان بزيارة رسمية للمجر فى أوليات سنى الزواج . وفى سنة ١٨٦٧ فقد فرانسيس يوسف زميل طفولته العزيز ماكسمليان أخاه الأصغر — الذى أغراه ذلك المغامر الباريسى المحببول على التربع على عرش الإمبراطورية المكسيكية تحت وصاية نابليون الثالث . تلك المهمة التى دفع ثمناً لها حياته وحياة كثير غيره من الرجال . وفى سنة ١٨٨٩ وجد رودلف ولى العهد مقتولا فى مسكن الصيد فى مايرلند بجوار جثة خلية له فى السابعة عشرة — البارونة مارى فتسيرا . وبحث كل الاحتمالات والقروض للباحث على هذه المأساة الغامضة ، وكانت أقوى الاحتمالات أن الموت كان نتيجة انتحار ثنائى ، ولكن الباحث على انتحار رودلف لم يكن مقصوداً على أسباب عاطفية . لقد كان صاحب رأى حر وكان جريئاً فى إبداء رأيه ، بل كان ثورياً صريحاً ، وكان كأمه لا يهتم الحياة فى قصر هوفبرج . ومهما كان سبب موته فإن الصدمة التى أصابت الإمبراطور كانت فى غاية القوة ، لأنها وقعت عقب مشادة بين ولد وولده ، أثارتها رغبة رودلف فى الزواج بمخيلته ، وتطبيق زوجته البلجيكية الأميرة ستيفانى .

ولكن أفدح كارثة حلت بفرانسيس يوسف كانت فقدته لزوجته إليزابيث ، بطعنة أصابتها من يد فوضى إيطالى وهى على أهبة ركوب سفينته للنزهة فى بحيرة جنيفا سنة ١٨٩٨ . وعندما سمع الإمبراطور الخبر أجش بالبكاء ، ويروى أنه قال « لن يعلم العالم مقدار حبنا لبعضنا » ، وفى مناسبة أخرى فى لحظة من اللحظات النادرة التى كان يندب فيها حظه ، قال فى أسى شديد « أنا بومة » (طائر معروف بسوء الحظ) وليس فى هذا القول شئ من المبالغة .

ومن الطبيعي أن حياة فرانسيس يوسف لم تكن كلها من عهد شبابه إلى شيخوخته مأساة ليس فيها ما يندود عنه بعض أحزانه . لقد كان في حياته بعض السلوى ؛ ففي ربيع القرن الأخير من حياته كان أهم مآلفه حياته ممثلة جذابة اعتزلت التمثيل تدعى كاترينا شرأت . وكانت إليزابيث نفسها هي التي عرفت بها وقدمتها إليه وجعلت منها رفيقة له في شيخوخته . وهذا الإجراء من التصرفات الحكيمة التي تتفق مع ظروف الحياة السائدة في فينا حينذاك . ولعلها إحدى الحسنات القليلة التي أدتها إليزابيث لزوجها . وكانت كاترينا ذات مزاج مرح لا تحس بالمرح في تصرفاتها ، وكانت متفوقة في التمثيل والغناء .

وكانت السيدتان صديقتين ، وفي كليهما خلة مشتركة هي الإسراف . ومع أن كاترينا لم تكن من أصل رفيع إلا أنها تستحق التقدير ، ويبدو أنها كانت تحب هذا الرجل المبجل المعجب بها ، فكثيراً ما كانت تقدم له تذكارات مادية ملموسة لهذا الحب ، منها صندوق موسيقى تصدح بأنغام البلبل ، مما كان يبعث مرح أحفاده في زيارتهم الكثيرة لجدهم الإمبراطور . ومنها مرآة صغيرة لها إطار مصنوع من حروف هذه الكلمات (صورة الشخص الذي أحبه) وكان هذا موضوعاً دائماً على مكتبه .

وكانت حديقة الفيلا التي تقيم بها كاترينا تفضى إلى حديقة شوينبرن العامة ، وكان فرانسيس يوسف يجتازها ماشياً كل يوم تقريباً ليتناول الإفطار معها وبخاصة بعد موت زوجته . وفي اللحظة التي يصل فيها إليها تكون هي قد استعدت له وقابلته مبتسمة في حلتها الكاملة — ولو أنه كان يستيقظ كل يوم في الخامسة صباحاً — بينما (كنكة) القهوة التي تبعث ببخارها الساخن موضوعة على المائدة بخوار باقة الزهور الناضرة . وبينما هو يشرب قهوته ويتناول وجبته تصب هي في أذنيه من الحديث الممتع ما يهيء له يوماً هادئاً بمحدث عائلي ممتع . لقد

كانت ابنة واحد من العامة ، ولو كانت ابنة أحد الملوك وقابلها فرانسيس يوسف قبل ثلاثين سنة من موعد لقاءهما ، فلربما كان لأوريا تاريخ مخالف لتاريخها المعروف .

وكان فرانسيس يوسف يرفه عن نفسه علاوة على زيارته لكاترينا ثرات بشيء واحد هو الصيد . إذ يباع عدد ما صاده من الصيد الكبير وجعله في ممرات قصره في باداشل للذكرى ٢٢٠٠ رأس ، كان تاريخ آخرها سنة ١٩١١ ، وكان الإمبراطور يومئذ في الحادية والثمانين . وكان صياداً جديراً بهذا الوصف لا جزراً مغرماً بقتل الحيوان مثل ابن أخيه فرانسيس فرديناند أو غليوم قيصر ألمانيا . وفي جميع الأيام تقريباً كان يستيقظ قبل طلوع الشمس (وكان سيداً بكل ما يحمل اللفظ من معنى) ويلبس حلة الصيد المصنوعة من الجلد وجواربه وحذاءه وقبعته ، ثم يتسلل بحفة حتى لا يوقظ بناته وأحفاده . وكان يتجول بين الجبال مع حارس صيده حتى الحادية عشرة ، ثم يستقر جالساً على مكتبه إلى آخر اليوم . وكان العمل أنجح دواء يقاوم به ما في حياته من أحزان وما يصادف من فشل .

وكان له ولع بمظاهر العظمة ، ولكن لا يروقه بريق حياة البلاط المتكلف . وكانت الولائم الرسمية في قصر هوفبرج في عهده محنة قاسية لضيوفه . وكانت فخامة الأثاث والحلل التي يلبسها الخدم وحسن إعدادهم للخدمة الممتازة والصحاف الصينية والبلورية التاريخية والمحور المعروفة (والشعدانات) العظيمة المتقدمة (ويروى أحد المؤرخين أن كسر أحدها كان يسبب كثيراً من الأحداث الجسام) تجعل أكبر الأمراء يحسون بأنهم محدثون . ولما كان لا يجب إضاعة وقته في تناول الطعام ، فقد كان يأمر خدمه بتقديم الصحاف التي تبلغ الاثني عشرة ورفعها الواحدة بعد الأخرى في أقل من ساعة ، وكانت الأطباق ترفع عندما ينتهى الإمبراطور من أكله ، وربما رفعت الأطباق من الجانب البعيد من المائدة قبل أن يحظى الضيف بلقمة واحدة . وفي الاستعراضات الحربية كانت آداب المائدة

أبسط، ولكنها كانت أشد صرامة . طلب غليوم الثانى مرة — وقد دعى إلى حضور استعراض نمسوى هام — من رئيس الخدم شيئاً من الشمبانيا مع الغداء ، ولكن الإمبراطور منع ذلك فى غضب وقال « لا نقطة واحدة . فليشرب جعة إذا أراد » .

وكان الإمبراطور فى النمسا هو الرئيس الأعلى للحكومة والدولة والقائد الأعلى للجيش، وكان يوصف بأنه أحد الحكام المستبدين المقنعين، وكان يعمل بدهاء عظيم على أن يستر استبداده كلما أمكنه ذلك . وقد وهب الكفاية فى الحكم، ولم يكن يخشى كقولاً الثانى أن يفوض بعض سلطته لغيره . ومع ذلك جعل النظام السياسى المعقد فى الإمبراطورية الإشراف على الإدارة أو حسن تصريف الأمور فى غاية الصعوبة . وكما تقدمت سن الإمبراطور ضعف اتصاله ووقوفه على أعمال الحكومة الهامة، وتسربت السلطة من يده إلى كبار الموظفين الذين يحكمون باسم الإمبراطور ؛ وهكذا أصبح الحكم النمسوى الجرى والنظام الحربى الذى كان موضع إعجاب الجميع خليطاً إقطاعياً من القوضى والمصالح المتضاربة التى لا تخضع للنظام الديمقراطى ولا للنظام الأرستقراطى، وكانت النتيجة التى سترادها فيما يلى من الكتاب أموراً خطيرة وبخاصة فى ميدان الدفاع والعلاقات الخارجية، ولكنها وصلت إلى درجة أخطر فى المسائل الداخلية .

وكان فرانسيس يوسف يحس بنعرة انتباهه لأسرة هابسبرج بحيث لم يكن يرضيه أن يكون فى مستوى الطبقات الحاكمة من الألمان أو الجر فى الإمبراطورية، كان يعتقد أن العنصر الرفيع هو أسرته وحدها . وكان يرى أن الأوتوقراطية مبدأ سليم، ولكن لم يستشعر الجانب الدينى الذى كان لدى قولاً الثانى فى حماية هذا المبدأ . كل ما كان يهيمه مكانة أسرته . وفى كل مشكلات الأسرة ما خف منها وما عظم كان يعمل وفق التقاليد بكل دقة .

ومن أوامره المضحكة أن يقوم حرس القصر الإمبراطورى بفروض التحية كلما مرت أمامهم عربة بها مرضعة تحمل رضيعاً من أبناء الأسرة فى غدو أو رواح . وقد حاول أن يمنع زواج فرانسيس فرديناند لعدم التكافؤ بين الزوجين ، كما منع طلاق رودلف من قبل ، فلما تم القران كان يغضى عن سوء معاملة رجال البلاط لزوجته ولى العهد واحتقارهم لها حتى بعد منحها لقب دوقة هوهنبرج ، ذلك لأن اقتران أحد أفراد أسرة هابسبرج من إحدى نساء الشعب يعتبر خطيئة موجبة للأسرة فى نظر الإمبراطور ويجب أن يكفر عن هذه الخطيئة . لقد كان الإمبراطور متعصباً وكان مستبداً فى هذه الأمور .

وأما فى المسائل العامة المتعلقة بالسياسة القومية بما فيها مشكلة « الأقليات » فقد كان فرانسيس يوسف يتصرف إذا لزم الأمر فى منتهى المرونة ، ولم يكن شديد العناد إزاء زيادة الشعور القومى الذى كان يبده رعاياه ، ولكن ما كان يعوزه هو الإدراك السياسى ليستطيع التوفيق بين آمالهم التى تتعارض مع ما تستطيع الأسرة أن تؤيده كما أيدت فكرة الوحدة المسيحية فى أوروبا . ومن هنا كان الخلاف — بين الإمبراطور وولى عهده وكان فى البلاط وفى الإدارة وفى الجيش — بسبب زواج فرانسيس فرديناند — مجلبة لسوء الطامع من أكثر من جانب واحد .

وإذا كان رأى بعض المدافعين عن أسرة هابسبرج اليوم أن فرانسيس فرديناند وهو شخص مستنير كان فى وسعه أن يجعل من الإمبراطورية وحدة أوروبية مثالية لو لم يقض عليه متعصبو البلقان ، فإن هذا رأى يبدو غير صحيح فى مجملته . فقد كان مسلكه جنوحاً إلى الاستبداد كما كان فى طبعه نزعة إلى الرجعية ، حتى ليصعب عليه أن يؤدى هذا الدور لو وكل إليه . لقد كان ذا بديهة حاضرة ،

ولا شك أنه كان يحس بأن الضرورة تقضى بإيجاد حل جذرى لمشكلة القوميات التى فى الإمبراطورية ، وكان المظنون أنه كان يحيط نفسه فى قصر بلفدير ببعض المفكرين ذوى الآراء الجريئة التى لم يسبقوا إليها . وكان الدوق فى وقت من الأوقات — مدفوعاً بتأثير هؤلاء — مؤيداً لثلاثية الدولة — التى تعنى تحويل الدولة الثنائية إلى اتحاد ثلاثة الدول الوطنية تتكون إحداها — على حساب المجر — بتحرير جزء من السلاف الذين فى الجنوب ، ولكن فرانسيس فرديناند انتهى إلى أن تقديره غير دقيق وغير عملى ، ولكنه كان فى رأى مريديه بتلصص الطريق لبلوغ ما يهدف إليه من تكوين دولة فيدرالية متحدة من ولايات متحدة نمسوية حقيقية ، ولو نجح فعلاً فى تكوينها لكان فى ذلك سلامة أسرة هابسبرج بل وسلامة أوروبا بأسرها .

وليس من اللهم معرفة المدى الذى وصل إليه الدوق فى أثناء سيره فى طريق الإصلاح . ولا شك أنه كان سائراً فى الطريق الصحيح . ولكن لم يكن الإمبراطور مستعداً لقبول ما ينصح به ابن أخيه الجرىء . وفضلاً عن تقديره الشخصى لم يكن مؤمناً بعمل تجارب فى أساليب الحكم الحديثة كإقامة النظام الفيدرالى . ولم ير بمخاطره مطلقاً أن فى حيازته حسب تقاليد الأسرة أية وقاية ضد أمراض القومية الحديثة . لقد كان يضع كل ثقته فيما جرب واختبر من وسائل الحيلة الفعالة — درهم من الحزم وأوقية من السماح بالمطالب وحنة من السكر الطيب . بهذه الروح قابل الإمبراطور الشيخ رغبة المجر فى الانفصال ، وعندما ضايقه اليساريون بالمطالبة بالإصلاحات الدستورية رأى أن يضع الاشتراكيين النمساويين فى وضع يعارضون فيه الرجعيين المجرين ، وهكذا أثار فى آخريات أيام حكمه من القوى ما جعلها فى ثورة دائبة .

حضر أحد الصحفيين الأمريكيين المقيمين في فينا إحدى جلسات مجلس النواب النمساوي، وقد تركت الجلسة في نفسه أثراً لا يمحي. وفي كتابه الجليل الممتع « النمسا والمجر » ذكر وصفا للمشهد العجيب الذي رآه .

« كان النواب الخمسةة تقريباً الذين رأيتهم يدخلون إلى الجلسة أشبه بالجانين في منظرهم وتصرفاتهم . كان موضوع البحث حقوق ومزايا إحدى اللغات الثمانية المعترف بها رسمياً وأظنها اللغة الروثينية التي أوصلتهم إلى هذه المرحلة من الاهتمام، وهذا هو المنظر العجيب الذي أذكره . حوالى عشرين شخصاً في أزياء محترمة يجلس كل منهم على مقعد صغير ، بعضهم يثير غوغاء صاخبة ويفتح ويفلق غطاء مكتبته بعنف، وبعضهم يطلق أصواتاً مزعجة من مزامير في أيديهم والبعض الآخر يعزف على آلات موسيقية أو يدق على طبول ، وعلى رأس هؤلاء رجل ذو لحية شعناء في الخامسة والستين تقريباً يعمل كأنه رئيس الفرقة الموسيقية يرشد هؤلاء وهؤلاء في قوة الصوت ومقامه .

وعلمت أن الأمر ليس مقصوداً عل الحزب الروثيني ، بل لـلـكل حزب ما لهؤلاء من آلات العزف والمزامير والأجراس والطبول » .

ولم تكن الاضطرابات القومية ولا الاحتكاكات العنصرية أحداثاً جديدة في إمبراطورية الهابسبرج، فإن بذور القومية أخذت تنمو طيلة القرن التاسع عشر في جميع طبقات الأهالي ، والتاج نفسه بما تعود من اتباع سياسة فرق تسد شجع على هذا الاتجاه بما منح من المطالب لبعض العناصر كالنشيك والمجر ، الذين كان في وسعهم — لما لهم من قوة — أن يسبوا بعض المتاعب الخطيرة للدولة . أو كابولنديين في غاليسيا الذين كانوا على استعداد لأن يكونوا حرساً للدولة . وكان من التقاليد التي جرى عليها الهابسبرج أن يبقى على الدوام شيئاً من التنافس بين الأقليات .

ومع هذا فقد أفلت زمام الأمر نهائياً من أيدي ولاية الأمر، ولم تعد النمسا «سجن الشعوب» كما كان يحلو للدعاة من الأعداء أن يسموها، بل صارت شيئاً فشيئاً أشبه بمستشفى الأمراض العقلية للشعوب المختلفة (ولم تكن النمسا هي المثل الوحيد في تاريخ الاستبداد الذي يقضى على نفسه من طريق محاولة الإصلاح)؛ ففي الجبر زادت محاولة إجراء انتخابات برئية الخلاف الحاد بين المجريين أصحاب النفوذ والشعوب الأخرى فيها. وفي النمسا فتح تعميم حق الانتخاب الباب لانتخاب الأميين بكثرة وتحكمهم في الأمور، وكان من نتائج ذلك، الاضطراب الشديد الذي يقع باستمرار في البرلمان.

ومن العجيب مع كل هذه الاعتبارات أن الحركة الانفصالية كانت ضعيفة في الدولة الثنائية. ولعل أكبر استثناء لذلك كان بين الألمان أنفسهم. وكان أتباع جورج فون شوندر وغيره من الدعاة يرغبون في تجزئة الإمبراطورية والانضمام إلى ألمانيا الموهنزولنية. ومعظم الأقليات كانوا أميل للبقاء في حضانة الحكم الهابسبرجى من أن تهضمهم الدولة الروسية أو الدولة الألمانية.

ولقد ظل الأمر كذلك مدة حتى بدا ألا مفر من الوضع القائم؛ ولكن ما بين سنة ١٩٠٥ و ١٩١٤ حدثت تطورات جديدة في أوروبا كان لها أثر ثورى في الحركة الوطنية في النمسا والمجر كما تأثرت هي بدورها بها. وقد حان الوقت أن نولى وجهنا شطر الجنوب الشرق ونسير في الطريق الملتوى الذى فى البلقان حتى نصل إلى سراييفو.

الفصل السادس

تراث الرجل المريض

كانت الأسرة المالكة العثمانية التي نخرها السوس أولى الحكومات المطلقة الكبرى الباقية في أوروبا إبان القرن العشرين، التي انهارت أمام عواصف التطور، وكان انهيارها أشد هولاً مما قدره معظم من شهدته من المعاصرين. وفي وسعنا الآن أن ندرس كل ما شهدته العالم من العواصف والاضطرابات منذ انهيارها حتى وقتنا الحاضر، لنقدر تقديراً صحيحاً أهمية هذا الحادث. ومع أن الملكية لم تلغ رسمياً في تركيا إلا بعد الحرب الكبرى، إلا أن القضاء على الحكم المطلق يرجع إلى ١٩٠٨. وفي الثالث والعشرين من شهر يوليو من تلك السنة استجاب السلطان عبد الحميد الثاني— في محاولته اليائسة لإيقاد عرشه— إلى مطالب جماعة من العسكريين الثائرين — المسماة بالشينبة التركية — وأعلن الدستور. وهذا التعديل أحدث فعلاً تغييراً حقيقياً في مركز القوى، وقضى من الناحية العملية على نظام استبدادي شبه ديني ظل قائماً طيلة تسعة قرون كاملة في أكبر إمبراطورية تقع غرب حائط الصين الكبرى، وتحتل أجزاء من ثلاث قارات، من نهر الدانوب إلى المحيط الهندي، ومن القوقاز إلى شواطئ طرابلس.

وتحتفل تركيا الحديثة بذكرى الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٠٨ كل عام باعتباره عيداً قومياً. ويجب أن يرجع هذا التاريخ إلى وراء لأسباب مختلفة في التقويم التاريخي للأحداث. فإن من يطلع على مذكرات شهود العيان الغربيين الذي كانوا وقتئذ في القسطنطينية (اسطنبول) عاصمة الأباطرة البيزنطيين التي فتحها العثمانيون، يحس أنه يعيش لحظة من تلك اللحظات التي تنبئ باقلاق ثوري، ويخرج فيها التاريخ عن الطريق الذي خطه القدر، وتصبح الأحداث لا تتحمل إلا البراءة.

لقد كانت تلك اللحظة فعلا - هي ليلة ٤ أغسطس المشهورة عام ١٧٨٩ عند مبدأ قيام الثورة الفرنسية ، عندما أعلن نواب طبقة النبلاء المجتمعون في الجمعية التأسيسية من تلقاء أنفسهم نزولهم عن حقوقهم الوراثية . إن ما حدث في اسطنبول في يوليو سنة ١٩٠٨ واستمر عدة أيام متتالية لشبه بهذا في انطلاق الآمال ويقظة العقول وإعلان الآخاء والإصلاح .

وما إن صدرت الصحف تحمل التصريح الإمبراطورى في الصباح الباكر للرابع والعشرين من يوليو حتى هرع الأهالى كأنهم استيقظوا من كابوس ثقيل كتم أنفاسهم عدة قرون ، واحتشدوا عند جسر جلطه عند القرن الذهبى وفي ميادين اسطنبول العاصمة السابقة للدولة البيزنطية . ويقول أحد شهود الحادث « سار الرجال والنساء فى موجة مشتركة من الحماسة يعبرون تعبيراً قوياً عن إحساسهم القياض ، يضحكون تارة ويبكون تارة أخرى. وكان الغوغاء وطبقات الشعب الدنيا يسرون مقتدى العواطف، وعيونهم تفيض بالدمع على وجوههم التى لم يغسلوها ، واشترك فى ذلك أصحاب الحوانيت دون أى اهتمام بما فى حوانيتهم من سلع وبضائع » .

وفى تلك الأيام كانت اسطنبول - وهى عبارة عن مجموعة من المدن والضواحي المبعثرة بين أوربا وآسيا على ضفاف البسفور وبحر مرمرة - هى مقر الحكم لإمبراطورية عظيمة الاتساع . وكانت كما هى اليوم خليط عجيب يجمع بين الشرق والغرب وبين البساطة والعظمة ، ولكن الذى لاشك فيه أنها كانت أكثر ثراء وأشد اصطباجا بالطابع الشرقى مما هى عليه اليوم . وكانت تجمع إلى ما فيها من مآذن سامقة وقباب تلو كل مسجد ، تلك المناطق ذات الجمال التركى بما فيها من دور ضيقة عالية تمتاز بنوافذ خضراء أوزرقاء مصنوعة على طراز شرقى . ويدل منظر شوارعها

حتى في الأيام العادية على حيوية ونشاط إنسانى عجيب ، ولا غرو ففى عاصمة إمبراطورية مكونة من « أقليات » تمثل جميع أطوار التقدم الحضارى من الدروز سكان جبل لبنان ، إلى البدو الرحل فى ثيابهم الفضفاضة الملهله ، إلى الفلاح الأسمر الأناضولى فى سراويله المنبعجة — وهو الوحيد فى هؤلاء الذى يمثل التركى الحقيقى — إلى ذوى الأناقة الباريسية أو اللندنية فى الطبقة الأرستقراطية من جميع البلاد . ولم تكن هذه الأخلاط فى يوم من الأيام أكثر ظهوراً منها فى يوم هذه الثورة البيضاء . ولقد اشتد الزحام عند الباب العالى ، ذلك البناء الضخم الذى كان يضم الوزارات الحكومية ، وفى ميدان أيا صوفيا أقدم كنيسة فى الشرق المسيحى أقيمت فى القرن السادس على أساس كنيسة القسطنطينية الأصلية وتحولت سنة ١٤٥٣ إلى مسجد إسلامى . وعند كل مكان مناسب كان شباب الضباط الثائرين فى زيهم البروصى الأبيض المثبته به شارات الحرية ذات اللونين الأحمر والأبيض يخطبون الناس باسم جمعية الاتحاد والترقى التى تألفت لمقاومة الاستبداد الإمبراطورى ، والتى انضم إليها رجال الجيش الذين ندبوا للقضاء على الثورة . وفى حماسة عظيمة أخذوا يبشرون بالحرية والإخاء والمساواة بين جميع رعية السلطان فى الدولة العثمانية الحديثة .

ولم يكن هناك قتال ولا أى اختلال فى النظام العام ، وإنما كانت مظاهر الفرح والسرور فى كل مكان . وفى إبان هذه النشوة العارمة تحول الطاغية المتنازل عن عرشه إلى ملك دستورى من الطراز الغربى ، واسترد محبة الشعب التى ضيعها فى سنى حكمه الثلاثين الموصوم بالهزائم الوطنية العديدة والخيانات الداخلية والخارجية ، والاستبداد القائم على الظلم وإراقة الدماء . وكان حكم عبد الحميد ذا طابع سياسى عجيب كأنما كان يحاول محاكاة الفن الصحفى . وكان قراء الصحف فى الغرب يعرفونه ويسمونه السلطان الأحمر ، وعبد الحميد الماعون ، أو غول يلدز .

(١١ م — الأسر)

وثن عد عبد الحميد وحشاً فقد كان ذلك لخشيته لا لقسوته . ولكنه من وجهة نظر رعاياه كان يعد ملكاً في غاية القسوة . ولقد دعاه أكثر من مرة خوفاً من القتل إلى أن يقتل بعض رجال قصره بمسدسه الذي لا يتخلى عنه مطلقاً ، (وكان يستعمله بمنتهى المهارة حتى وهو في حالة الذعر التي تفقده الاتزان) وقد أمر بذبج ٨٦٠٠٠ من الأرمن وهو هادئ النفس لاتهامهم بعدم الولاء .

رغم هذه الفضائح وغيرها اقتحم ٦٠٠٠٠ من رعيته في ٢٦ يوليو أبواب يلدز، ذلك القصر الحصين الجاثم على التل المشرف على المدينة التي تطل عبر المضيق على آسيا — لا ليشنقوه ويصلبوه على إحدى الأشجار ، بل ليقدموا له التحية . وعندما ظهر لهم منكشاً في حلته الرسمية الموشاة بالذهب بأفقه الكبير الأقي وعينيه الملتهتين ووجنّيه المتقدتين ولحيته ذات الصبغة الصفراء ، حيا الجمهور في ولاء غير معقول وقد فاقت عيونهم بالدمع عندما أقسم لهم ووعدهم ! — وهو الذي لم يحفظ عهداً واحداً في حياته — أن يحافظ على الدستور الذي استخلصه منه الجيش بقوة السلاح قبل ذلك بثلاثة أيام .

وقد وقعت لاشك أحداث لا تقل عن ذلك غرابة في جميع أنحاء العاصمة، بل في جميع أنحاء الإمبراطورية الأوربية الإفريقية الآسيوية ، التي كانت أخلط الأجناس فيها والديانات والثقافات من الكثرة بحيث ترى النمسا والمجر بالنسبة إليها بلاذاً متجانسة (كما أن فساد الحكم في البلاد التركية مما يجعل الحكومة الثنائية بالنسبة إليها حديثة ومنتظمة بل معقولة كذلك) . ويقول أحد المراقبين الأوربيين المعاصرين عن الحادث « بأن القتل قد انقطع كما انقطع الذهب والسرقة ... وهرع كثير من دعاة السلام وغيرهم من جميع أنحاء أوربا ليشهدوا الصقر وقد تحول إلى حمامة السلام » . والعداوات القديمة الجماعية التي أذكى نارها عبد الحميد وأسلافه عدة قرون بأعمالهم يبدو أنها تبخرت كما تبخر أضغاث الأحلام . ومن الملاحظات

التي قررها بعض الشهود المعاصرين ما تنضح غرابته عند النظر إليه في الوقت الحاضر أكثر من رؤيته في حينه . كان اليهود والعرب يحتضنون بعضهم البعض ، كما تبادل الأرمن المسيحيون قبلات الصلح مع الأكراد المسلمين الذين كانوا يحرصون على قتلهم منذ بضع سنوات ، وتصافح اليونانيون — وهم ذرية البيزنطيين الذين غلبهم الأتراك على أمرهم — تصافحوا مع الأتراك الفاتحين ، وكذلك فعل البلغاريون والمقدونيون . وحضر الضباط الأتراك قداس الذكرى في الكنائس على أرواح الأرمن المتقولين .

لقد كان الجميع رعية ، ولكنهم في الواقع كانوا عبيداً للحكومة العثمانية ، وباسم هؤلاء قام ضباط جمعية الاتحاد والترقي — وأغلبهم أتراك مسلمون ممن آمنوا بالثورة الفرنسية — قام هؤلاء ضد رئيسهم الزمى — السلطان — الذي كان في الوقت نفسه خليفة للمسلمين وخليفة لنبيهم محمد وظل الله في الأرض لثلاثة مليون من المسلمين ، ولكن الحقيقة كانت أعمق من ذلك بكثير ، وأشد خطراً وأكثر تعقيداً .

لقد لبث الاستبداد العثماني عدة قرون داء ملتهباً في كيان أوروبا ، وكانت الرجعية واختلال النظام الداخلي فيها أثناء القرن التاسع عشر قد تحول إلى داء شديد الألم ، وإن لم يصل بالدولة إلى درجة الموت . وعندما عالج الشباب التركي سنة ١٩٠٨ هذا الداء بثورتهم الحربية كان علاجهم مؤقتاً ، واقتصر على مظاهر الفرح التي سادت القسطنطينية ، ولكنها أثارت شعوراً قوياً كان سبباً في عدة ثورات شهدها العالم بعد ذلك . وقبل تحليل ماحدث يحسن أن نرجع إلى بعض الخطوط العريضة في التاريخ العثماني ، وأن ندرس الدور الذي لعبه عبد الحميد ، أحد عوامل القدر السيئة وأعجبها وأشدّها استحقاقاً للثناء .

لقد ظلت الأسرة العثمانية في الحكم من سنة ١٢٨٨ إلى ١٩٢٢ ، أى أطول

مدة قضتها الأسرات الحاكمة جميعاً . وظلت حقبة طويلة من الزمان أعظم دوله العالم جميعاً . وفي إبان عصرها الذهبي كانت تشمل أجزاء من الإمبراطوريات المصرية والأشورية والبابلية والفارسية والمقدونية والرومانية والبيزنطية . ومن الناحية الحربية بقيت أقوى الدول جميعاً عدة قرون متوالية ، كما أنها كانت من الدول ذات النظام السياسى العجيب الذى بسطته إلى مدى بعيد وعلى أمد طويل .

والعثمانيون - كأسرة هابسبرج - لم يسمحوا بتوطيد القوميات مطلقاً فى بلادهم .

وكان عثمان (١٢٨٨ - ١٣٢٥) مؤسس الدولة العثمانية ينتمى إلى قبيلة تركية هاجرت فى أواسط آسيا لتستقر فى الأناضول (الجزء الرئيسى من تركيا الحديثة) على حدود الدولة البيزنطية ، حيث كانت خاضعة للسلجوقيين المجاورين . الذين سبقوا إلى غزو هذه المنطقة ، وكانوا حكاماً فى بغداد . وكانت الإمبراطورية البيزنطية المسيحية تهددهم من جانب كما كانت تغريهم بالفتح من الجانب الآخر ، كما أن الحرمان والطمع جذبا إلى الأناضول كثيراً من الغزاة المسلمين ممن كانوا من الأفاقيين أو من الأجراء .

وقد ورث عثمان عن أبيه هذه العدة الحربية ، وكان معظمهم من ذوى قرابته وإن كان كثير منهم من مسلمى البلاد المجاورة . وكلما زادت فتوحات عثمان وخلفاؤه ، زاد عدد المجندين والموظفين فى الدولة من حديثى العهد من المسلمين من البلاد التى خضعت لهم . وبذلك قويت فى جيوش الأتراك الروح الاستعمارية غير الدينية ، كما اشتد اختلاف العناصر التى تتكون منها هذه الجيوش . ثم إنه هذه الإمبراطورية العثمانية التى قامت على أساس دينى كرسست نفسها ظاهرياً

تنتشر الدعوة الإسلامية ، ولكنها كانت في الواقع تعمل على تقوية نفوذ حداثتها ورؤسائها .

ثم إن الحكومة العثمانية قد تحولت من النظام الأخوي الذي يجمع المحاربين الأحرار إلى جماعة من الرقيق في حكومة استبدادية ، وكان أعضاء هذه الجماعة من الأولاد الذين تأخذهم الحكومة من آبائهم — وهم عادة من المسيحيين — إبان طفولتهم الباكرة ، وتخضعهم لنظام شديد القسوة يكاد ينزع الرحمة من قلوبهم ، ويعملونهم لوظائف الدولة المختلفة . ويرسل هؤلاء بعد تدريب حربي إلى فرق الانكشارية التي ظلت عدة قرون أقوى المحاربين في جميع بلاد العالم . أما المتعلمون فكانوا يدرّبون على الأعمال المدنية والبلاط والإدارات الحكومية .

إن نظاماً حكومياً كهذا قد ينجح كما نرى في نظم مثله قريبة العهد بنا ، ولكن له مساوئٌ يجدر بالمعجبين بالحكم المطلق أن يدرسوه . وما إن جاء القرن التاسع عشر حتى كانت الانكشارية مصدر تهديد للعرش الذي أسسها . بما اضطر أحد دعاة الإصلاح من السلاطين وهو السلطان محمود جد السلطان عبد الحميد إلى القضاء عليها ، وأمر بإعدام القوة كلها ، وكان عددهم خمسة وعشرين ألفاً . أما الإدارة الحكومية المدنية — ولم يكن لكفائتها نظير في الغرب زمنًا طويلاً — فقد صارت في القرن العشرين آية للرشوة والإهمال والخيانة .

لقد كان تقدم الدولة العثمانية في الواقع أسرع من انحلالها . ولقد انتهز أوركخان (١٣٢٦ — ١٣٥٩) ابن مؤسس الأسرة الخلف في الدولة البيزنطية فوثب واحتل مركزاً منيعاً على الشاطئ الأوربي من الدردنيل ، وفي سنة ١٣٨٩ أتاحت هزيمة الصرب في كوسوفو للغزاة الأتراك فتح معظم الجنوب الشرقي من أوروبا .

وفي سنة ١٤٥٣ استولى محمد الفاتح على اسطنبول عنوة ، ثم هزم البندقية أعظم دولة بحرية في ذلك الوقت في البحر المتوسط ، ثم اجتاحت ألبانيا والبوسنة ، واستولى على القرم وشواطئ البحر الأسود المجاورة . وباحتلال القسطنطينية ، والقضاء على الأسرة البيزنطية الحاكمة ، أصبحت الأسرة العثمانية صاحبة بيزنطة ، ومنها اقتبست كثيراً من نظمها الإدارية ، كما نقلت عنها كثيراً من مناهج الحياة البيزنطية ، وكثيراً من مساوئها كذلك . (وما يسمى الحمام التركي مثلاً هو نوع من المؤسسات الرومانية التي نقلتها بيزنطة إلى الشرق) . ووصل الأتراك إلى قمة المجد في عصر سليمان (١٥٢٠ — ١٥٦٦) وخلفائه . عندما دخل في حوزة الأتراك معظم أوروبا الوسطى ، وبخاصة بلاد اليونان والجزر اليونانية ومساحات واسعة من روسيا الجنوبية وشمال إفريقية إلى الجزائر .

واليوم يستطيع كل من يحب بلاد اليونان وبلاد البلقان من السائحين أن يتعرف على المدن والقرى التي ظلت تحت الحكم التركي إلى أوائل القرن العشرين . بجوها الهادئ الذي يخيم عليه الكسل الشرقى . إن ذلك لبعض آثار ليل الاستعمار التركي الطويل ، الذي هو نقطة سوداء في التاريخ الأوربي . إنه هو الذي تولدت عنه المؤامرات السياسية في البلقان ، والشرارة التي لمعت في سراجيفو ، والتي كانت نتيجة للخلاف الشديد بين الاستبداد ومقاوميه ، وبين الخونة والثائرين . منهم . ولم يكن الحكم التركي على ما يبدو شديد القسوة على المسيحيين — وبعضهم كان يفضل على حكم البندقية ، وما ينطوى عليه من فوضى وفساد ، ولكنه كان في رأيهم حكماً راكداً ، وبخاصة في القرنين الأخيرين ، عندما صارت كل الشعوب المحكومة مرتبطة بهيئات سياسية .

وفي أوائل القرن السابع عشر أخذت الأسرة النمسية ، والأسرة الروسية

بما لديهما من قدرات فنية وسياسية تغير على أطراف الدولة العثمانية . ثم أعقب الثورة الفرنسية بقطة الروح القومية في أوروبا . وكانت اليونان أول دولة خرجت على الحكم التركي ، ثم تلتها دولة الصرب ، وظلت دول البلقان تتلى مراحلها الثورية طيلة القرن التاسع عشر . حتى الأرمن المسيحيون في آسيا بدأوا يشعرون ضد الأتراك .

وفي أوائل التوسع الاستعماري أخضعت فرنسا الجزائر ، واحتلت إنجلترا مصر ، وفي منتصف القرن كان يداعب أطماع الساسة في موسكو وفيينا أشهى الثمار في ذلك الوقت ، أعنى بذلك الاستيلاء على المضيقيين ، وقد حان قطافها في ذلك الحين .

وكان الطريق المائى الذى يفصل بين أوروبا وآسيا هدفاً حريماً منذ كان التاريخ مختلطاً برواية الرواة . ولقد عبر جاسون هذه المضائق في طريقه إلى القوقاز بحثاً عن فراء الأغنام التى كان القوقازيون يعلقونها أمام السيول المنهمرة من الجبال لتعلق بها قشور الذهب ويأخذونها .

وبحر مرمرية هو فى الواقع مرفأً طبيعى للسفن لا يوجد خير منه لتمكين الشعب المتسلط على شاطئيه الأوربى والآسيوى من التحكم الكامل على هذا المضيق ذى الموقع الحربى العظيم . وتكاد الأرض تحيط بهذا البحر من كل جانب إلا من بوغازين ضيقين أحدهما الدردنيل من جانب البحر الإيغى ، والبسفور الذى يجرى يازاء غاليبولى من الجانب الأوربى، حيث كشف علماء الآثار فيها عن موقع عاصمة دولة طروادة . والوصول إلى بحر مرمرية من البحر الأسود عن طريق البوسفور الذى بلغ ضيقه حداً يسمح بإقفاله بالسلاسل ، كما يسمح بربط اسطنبول

الأوربية بسكوتارى الآسيوية حتى صارتا بلدة واحدة . وفى الواقع يستحيل اختراق هذا المضيق عنوة أو بطريقة الخيلة .

وقد زادت أهمية المضائق من الناحية الدولية عندما ظهرت روسيا الحديثة . ويقول المؤرخ البريطانى ماريوت « ما إن تمت لروسيا بعض الوحدة السياسية وعرفت إمكاناتها الاقتصادية لم تصبح مسألة دخول البحر الأسود وحرية الملاحة فيه وحرية الخروج منه إلى البحر الأبيض مهمة فحسب، بل صارت بالغة الأهمية » .

وأصبحت حرية الملاحة فى المضائق ذات أهمية حيوية لروسيا التى تصب مياه نهـارها الأربعة وهى : دنـستر والدون والـبج وكوبان فى البحر الأسود ، وذلك عندما تحولت أوكرانيا من إقليم للرعى إلى إقليم من أخصب أقاليم العالم لزراعة الحبوب . وكانت معظم الغلال التى يصدرها هذا الإقليم تمر من هذين المضيقين ، وكذلك قدر كبير من صادرات روسيا، حتى إن ٦٠ فى المائة من صادراتها عبر البحر الأسود فى مبدأ الحرب العالمية الأولى كانت تمر من هذا الطريق ، وهى تقدر بخمسة وأربعين فى المائة من صادرات روسيا كلها . ولكن إذا كانت المضائق لها أهمية حيوية بالنسبة لروسيا ، فإن لها نفس هذه الأهمية بالنسبة للدول التى تريد أن تقف فى سبيلها . وعندما ذكر الماركيز كولينكور لنابليون ذات مرة أن مصلحة روسيا تقتضى استيلاءها على الدردنيل ، صاح نابليون بملء فيه « القسطنطينية ! مستحيل . هذا يعنى السيادة على العالم » .

ولا ريب أن نابليون كان مغالياً ، ولكن يبدو من وجهة النظر السياسية فى القرن التاسع عشر أن استيلاء إحدى الدول الأوربية الكبرى على المضائق لابد أن يقلب ميزان القوى الأوربية ، وفى هذه الحالة لن يمنع وقوع الحرب إلا أدق وسائل الحماية لنظام التعويضات الدقيق . وكانت المنافسة بين روسيا والنمسا

فى الاستيلاء على المضيقين من الخطورة بحيث قد تؤدى إلى وقوع الحرب ، وكانت أنجح وسيلة إلى تجنب الحرب فى مثل هذه الأحوال الإبقاء على رجل أوروبا المريض ، وهو الاسم الذى أطلقه جلاستون السياسى البريطانى على الدولة العثمانية صاحبة هذا الممر الحيوى . وهذه الاتفاقية غير المكتوبة التى كانت بمثابة اتفاق الجنتلمان بين الدول الكبرى بعد الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ ، عبرت عنها معاهدة برلين التى نصت على قصر الاعتداء على تركيا على انتقاص بعض أطرافها كالבوسنة أو مصر ، والامتناع عن اتخاذ أى إجراء ينتهى بالسيادة على الأجزاء الباقية .

وكان هذا التفاهم بين الدول على هذا الأساس معقولا لولا وجود تظنين ضيعقتين فى الموقف ، أولاهما الرغبة العارمة لدى كل دولة من الدول الكبرى فى أن تعمل بالحيلة أو بالقوة على زيادة نفوذها فى الإمبراطورية العثمانية على حساب الدول الأخرى ، وكان حكام تركيا وبخاصة عبد الحميد يزيدون التوتر بين الدول بالوقية بين بعضها البعض . والنقطة الثانية التى كانت تهدد بقاء الحالة على ما هى عليه فى تركيا واتى يتوقف عليها السلام فى أوروبا ، انتشار الفساد فيها ، مما كان له أكبر الأثر فى تقويض كيانها .

وكانت الأسرة العثمانية — كالأباطرة البيزنطيين — تحكم مجموعة متباينة من الولايات التى تكاد تنفصل كل منها عن الأخرى ، كما كانت تحكم مجموعة متباينة من الجنسيات . والتركة البيزنطية التى ورثتها تركيا عنها والتى كانت فريسة دائماً للتدخل الاستعمارى الغربى ، كانت مكونة من عدة دوليات شبه مستقلة أقامتها الدول المعاصرة ، مثل البندقية وجنوة ويزا وانكوبا ، وكان لكل منها كنائسها ومدارسها وبلاطها ، يشرف عليها رؤساء من البلد الأم .

واتبعت تركيا هذه السياسة في حكم الأقليات كاليونانيين في تركيا . بل لقد وقع سليمان مع فرانسيس الأول ملك فرنسا معاهدة تقضى بإبتمح بعض الامتيازات إلى الفرنسيين . فضلا عن أن هذا كان سابقة احتذتها الدول الأخرى ليكون لها حق حماية الأقليات في الدولة العثمانية ، كما فعلت روسيا بالنسبة للبغاريين . وسلاف البلقان . ولقد كان لهذا النظام الفضل الأكبر في منع ترابط الشعوب المختلفة في الإمبراطورية حتى يكون منها دولة واحدة .

ومن ناحية أخرى ، لم يؤد التسامح الديني الذي كان سلاطين آل عثمان يظهرونه نحو المسيحيين وغيرهم من الأقليات في إمبراطوريتهم إلى تكوين ما يشبه نظام الكومنولث . وكانت الصخرة التي تحطمت عليها وشائج الإخاء سياسة الأسرة التقليدية في استغلال الإسلام لتحقيق أهداف سياسية ، وذلك بالجمع بين الخلافة الدينية ورياسة الدولة في يد واحدة .

وكان تمسك السلطان بأنه ظل الله في الأرض مع تمسكه بالرياسة الزمنية للدولة التي كانت فيها الأقليات المسيحية أكثر عدداً من الأكثرية المسلمة ، خطأ كبيراً . وترتب على ذلك أن المسيحيين وقفوا منه موقفاً عدائياً ، كما أن الخليفة وقع تحت سلطة رجال الدين .

ولعل أهم ما سبب انهيار السلطنة العثمانية نظام الحريم في السلطنة . ففي فجر تاريخ الدولة العثمانية كانت النساء السافرات هن القرينات المحترمات الأحرار لأزواجن المحاربين ، وبارزاد الثراء الذي سببته الانتصارات التركية تحولن من رفيقات لأزواجن إلى متعة لهم ، ثم إلى أدوات للمتعة . ثم إن الوفرة العظيمة في عدد الرقيق من النساء اللاتي كن أغلى مغنم الحرب دعت إلى اتساع رقعة الفجور . وكان للسلاطين وكبار قوادهم عدد كبير من المحظيات ، ومن هنا نشأ

نظام الحریم فی الدولة . ولا شك أنه كان لهذا النظام بعض الفائدة كما كان من وجهة نظر من يملكون الحریم — أمراً مستحباً . وكان فيه تسلیة للسلطان ، وأضفی شيئاً من الفخامة على حکمهم ، كما كان فيه تشجیع لقوادهم . ولكنه على مرور الزمن أصبح غیر خاضع لأی قید ، وسار سوطانا اجتماعياً قضی على الحاکم والدولة .

ولاریب أن نظام الحریم استمد بعض مقوماته من بیزنطة ، التي كان لأباطرتها اهتمام کبیر به ، واقتبسها الأتراك منهم ، کرئیس البنات وراعی البیغوات وکبیر رعاة البلبال .

وابتداء من القرن الرابع عشر کف السلطان عن الزواج الشرعی بالملکات — وبهذا لم یکن ملکات — واعتمدوا على إماءهم فی ملذاتهم وإنجاب أبنائهم ، ومع أن سلیمان أقام حفلاً لقرانه یأخذی إماءه رکسلانا المسیحية ، فإن هذا لم یغیر من الوضع ، وكان سلطان رکسلانا المطلق على سیدها فآتمة « حکم النساء » فی ترکیا ، الذي استمر مائة وثلاثین عاماً من تاریخ البلاد .

وهكذا استمر نظام الحریم عدة قرون هو النظام الذي یحکم البلاد ، وكان بالنسبة إلى السلطان هو النظام الذي یدور علیه محور حیاتهم . لقد حاط رقابهم بأغلال فی طفولتهم لم یستطیعوا الفکاک منها طول حیاتهم ، وانتقل عبء الحروب إلى المرتزقة من الجنود ، كما تمحول عبء الحکم والإدارة إلى الوزراء الأجانب من الرقیق . بینما كان السلطان المترفون الضعفاء یفرون من مسؤولیاتهم إلى أحضان الحریم ، و كانت الزلی إلیهن والاهتمام بهن مما یضعف إرادة السلطان ویذهب بمضائهم وعزیمتهم فی هذا الجو الآثم . وهكذا لم یکن فخور الرجال هو الطابع الغالب فی جناح الحریم ولكنه كان طموح النساء .

ونظراً إلى نظام الحريم أوجد في الدولة مجتمعاً كاملاً للرق ، فقد أدى إلى عواقب وخيمة . والعدد الهائل من الرقيق - إبان حكم عبد الحميد والد السلطان الأحمر - وكانت عدتهم ٩٠٠ امرأة في الحريم ، يقوم بالخدمة لديهن عدد لا يحصى من الخدم (منهم ٣٠٠ طاه) وعديد من الأغوات والحراس البيض والسود كان يعتمد في نيل الحظوة والمكانة على تقدير السلطان ، ولهذا كانت الحريم في حروب مستمرة لتلبي هذه الحظوة . وكن يستخدمن أدناً الوسائل لبلوغ هذه المكانة من ملق ورشوة وتجنس وغيبة وامتداح ما للسلطان من عيوب ليسهل عليهن استغلالها والإفادة منها . وفي هذه البيئة وفي هذا الجو كان سلاطين المستقبل يقضون أيام شبابههم الى تتكون فيها شخصياتهم .

وبينما كانت النسوة يعملن على استغلال السلاطين مع أنهن من الإماء ، كان الأغوات السود رؤساء هؤلاء النسوة يستخدمونهن في إخضاع السلاطين لنفوذهم . وسهل عليهم هذا ما كان لهم من حق في ضربهن بالكرباج لملهن على إرضاء السلاطين ، وكان كبير الأغوات وهو عادة ضخيم الجسم عظيم النفوذ أجهل رجل في الدولة . وهذا النفوذ غير المباشر الذي كان الأغوات أصبح نفوذاً مباشراً لهم على الأمراء عندما تولوا تعليمهم إبان طفولتهم بالقدر الضئيل الذي تسمح به ثقافتهم النافذة ، ولربما اختلف مستوى ثقافتهم من حين إلى آخر ولكنه لم يكن مطاقاً مما يليق بالأمراء . على أن الأغوات الذين عهد إليهم بتعليمهم حتى الحادية عشرة من عمرهم كانوا يشجعون على إبقائهم أشد جيلاً منهم . وفي عصر عبد الحميد كانت مدرسة الأمراء في الحريم تقوم بشيء من التعليم ، فقد كانت تلقى عليهم بعض الروايات المحرفة عن أعمال البطولة ، وتعلمهم شيئاً من اللغة الفرنسية والموسيقى وقراءة القرآن . وسمح للممتازين منهم بالاطلاع على قدامى الشعراء من العرب والفرس . أما المواد التي أولى أن تدرس لحاكم المستقبل كالتاريخ والسياسة فقد كانت ممنوعة منعاً باتاً .

لقد كان في الحريم فعلا دراسة طيبة ذات منهج طويل يستغرق أربعة عشر عاماً ، يشمل الموضوعات الثقافية كما يشمل تصنيف الشعر ، ولكن هذا المنهج كان للحشم لا للأمرء ، وكان طلبته من التمسوين والمجر والروس واليونان والشراكسة والأرمن والألمان والسويسريين . لقد كان هؤلاء جميعاً من الرقيق ولكنهم لم يكونوا مطلقاً من الأتراك .

ونظام الحريم فوق عجزه عن أن يحىء بحكام لهم صفات ممتازة كاد ألا ينجح في أن يحىء بعدد كاف للمحافظة على نظام الوراثة ممن ينتقل إليهم الملك . إذ كان المنتظر أن الحاكم الذى لديه مئآت من النسوة لا يخشى أن يكون عقيماً ، ولكن الانغماس فى النشاط الجنسى كان يجعل السلاطين عاقرين أو عنيين . وكان عبد المجيد رغم كثرة العقاير عنيماً فى الواحدة والثلاثين ، وحتى إذا قدر لهم أن ينجبوا فما أسرع ما يترك الولد العالم الذى دخل فيه .

وفى المنافسة الشديدة التى كانت تسود جو الحريم كان هناك هدفان . ومع أنه لم يكن للسلطان فى العادة زوجة إلا أنه كان له أربع محظيات ، وكان لأولى المحظيات مكانة فى الدولة ، ولكن كان مركز المحظية مزعزعا ، وعلى هذا فالمنزلة الوطنية كانت للسلطانة الوالدة ، فهذه هى رئيسة الحريم ، ولادتها للسلطان القادم ضمن لها مركزها مدى الحياة ، وعلى هذا فهدف كل امرأة ذات طموح أن تحمل ولداً ليكون سلطاناً فى المستقبل ، وكان هدف سائر النساء أن تمتنع غيرها من الحمل ومن أن يتبوأ العرش غير ابنها .

والأخطار التى يتعرض لها سلطان المستقبل تبدأ كما رأينا قبل ميلاده . وكان هم كل امرأة حامل أن تبقى حملها سراً مع ما فى ذلك من الصعوبة بين هذا العدد العديد من النساء المتنافسات فى الحريم . حتى إذا تم وضعه فالمشكلة الثانية أن تقيه

أمه من «الحوادث» ، وهو أمر ليس يسيراً ، ويدل على ذلك أن من بين الثلاثين ولداً الذين أنجبهم عبد الحميد مات نصفهم في إبان طفولتهم .

وكان على الأمراء أن يتخلصوا لا من غيرة الحرم فحسب بل من غيرة إخوتهم غير الأشقاء ، ذلك لأن ولاية العرش في السلطنة لم تكن لأكبر الأبناء بل كانت للأرشد فالأرشد من الإخوة . وكان السلطان لهذا السبب عديم الثقة بأخوته لأنهم على استعداد دائماً لأن يخلوه عن العرش بكافة الوسائل . ولما ارتقى بايزيد عرش السلطنة سنة ١٣٨٩ حل المشكلة بقتل أخيه الأصغر ، وقد راقى هذه السياسة جميع من خلفوه فاتبعوا السياسة عينها عدة قرون .

وكل من بقى على قيد الحياة من أولياء العرش من الأمراء ظلوا إبان شبابهم مسجوناً بالحرم ليس لهم أية صلة بالعالم الخارجى ولا نصيب لهم من التعليم الأولى . ولم يكن لولى العرش عدة قرون إلا رجلاً مسناً جاهلاً أنهكه النشاط الجنسي ، لا يحسن إلا مخالطة النساء والأغوات الذين ينشئونهم على الخوف والكره وعدم الثقة بالعالم . ولقد ظل نظام الحرم عدة قرون المصدر الثابت للحكم الفاسد ، كما كان في القرن التاسع عشر جهازاً صالحاً لحدوث الثورات .

ولقد أخذ التقدم التكنولوجى والأفكار السياسية الغربية تغزو المجتمع التركى فى مستوياته المختلفة . أما بين حريم السلطان فالإصلاح الوحيد الذى أدخله والد السلطان عبد الحميد هو أنه أدخل فى الحرم السرير ذا الأعمدة الأربعة .

فى هذا السرير ولد عبد الحميد نفسه سنة ١٨٤٢ وبدأ حياته بما لا يبشر بنجاح حتى فى مستوى الحرم . كانت أمه شركسية مريضة بذات الرئة مكروهة أكثر من أية امرأة أخرى لما استشعرت من زهو لإنجاب لى العهد المرتقب .

ولم تتحسن صحتها مطلقاً بعد ولادة عبد الحميد، وكان هذا سبباً لضعفه جسدياً وعقلياً، إذ كانت تحتجزه معها في حجرة المرض إلى يوم وفاتها، وكان يومئذ في السابعة من عمره، ولم يكن محبوباً لدى إخوته وأخواته لأنهم كانوا يهتمونه بالثروة والنيمة، ولم يكن أبوه محباً له بل كان يغلد الحب على مراد أخيه. وكان ضعيف البنية ضئيل الجسم ميالاً للأنزواء، وكان هذا السلطان الأحمر كما عرف بعد ذلك ذا أنف كبير وجفون ثقيلة غير جذاب بما آله أشد الألم طول حياته.

ونال عبد الحميد - أو بعبارة أصح - لم ينل قسطه من التعليم في الحريم. وكانت السياسة والتاريخ بطبيعة الحال من المنوعات، وكل ما حصل عليه من المعرفة كان نتيجة لرغبته الطبيعية في المعرفة وما التقطه من هنا وهناك من أسئلته العديدة. وبما قرره معلوم - وهم ساخطون - أنه كان شديد الاهتمام بكل ما له علاقة بالدولة مما تعد دراسته غير لائقة بالأمراء الذين سوف يتولون حكمها. ثم إنه أظهر براعة واهتماماً بكل ما له علاقة بالأرقام والحساب مما لم يعهد في السلاطين السابقين، وكان أساتذته يصرفونه عن ذلك، ولكنه نجح في تعليم نفسه باطلاعه على حسابات الأغا الذي في عهده حسابات مالية الحريم، وبلغ من نجاحه أنه أمكنه أن يضارب في البورصة وأن يجمع ثروة مقدارها ٣٥٠ ألف ريال قبل أن يعتلى العرش، ثم إنه حذق قدرأً من اللغة الفرنسية في السادسة عشرة من عمره باستماعه لما كان يلقى من الفرنسية على إحدى أخواته.

وكل الذي تعلمه من الحريم - سلطان المستقبل - الخداع والخوف. تعلم الخداع والدس من النساء والخوف من الأغوات، وكان من حسن حظّه أنه عهد به عند وفاة أمه إلى إحدى « محظيات » أبيه وكانت ذات ذكاء خارق، ربما كان من

أسباب ما أظهر من نجابة بعد ذلك ، ثم إنه كون صداقة متينة مع والدته عمه السلطنة
الوالدة ، وكانت أولى سيدات الحريم كما كانت عظيمة الخبرة بدسائسه .

ويفضل شقة هاتين السيدتين نشأ عبد الحميد نشأة فيها شيء من الاستقامة ،
ولربما كان عاجزاً عن الحب ولكنه كان محباً للنساء . وعندما ورث الحريم
الإمبراطورى كان ظريفاً عظيم الرعاية . وكانت ميوله الجنسية معتدلة على خلاف
من سبقوه من السلاطين ، ولقد خاص في شبابه من ربة الحريم بأن عاق قلبه
بسيدة أوربية بلجيكية .

وعاش عبد الحميد منذ أن كان طفلاً في خوف دائم ، إذ كانت تتراءى له
أشباح وليلة الخيال وتروعه . وكان يفزع المرض (مرض أمه) والكهرباء ،
حتى إنه بعد ارتقائه العرش قبل بصعوبة إدخال الأسلاك الكهربائية في قصره
بامتثناء المسرة ، وكان أخشى ما يخشاه الجموع المحتشدة من الناس ، وكان
الأغوات مصدر فزع له في أثناء نومه ، وكان يرى فيهم صورة المتطلع إلى
قتله ، وزاد فزعه بمرور الأيام زيادة مروعة . وعندما أحس بعدم الأمان
في قصره المشرف على البحر اختار للإقامة منطقة يلدز المشرقة على البسفور
وشيد فيها قصراً جديداً ذا أسوار عالية منيعة ، وجع فيه من الطيور والقردة
والطواويس ما تنبه أصواتها الحراس عند الخطر . وكان كثير التنقل بين أسرة
نومه لتضليل من يحاول الفتك به . وكان يحاول التحقق هو ومن تراققه من
السرايا من خلو المكان من أى شيء أو أى شخص قابح تحت سريره نومه ،
وكانت نوافذ مطابخ السلطان محاطة بالأعمدة الحديدية ، وكانت الوجبات تحمل
إليه في ألوان محكمة الإغلاق ، وكان على رئيس البلاط أن يتذوق الطعام قبل أن
يذوقه السلطان ، وكانت الأبقار التى في فناء القصر تحتم المراقبة حتى لا يعبث أحد
بالألبان التى تقدم للسلطان .

وعندما يكون السلطان راكباً في موكب رسمي يصطحب أحد أبنائه لعل هذا الإجراء يحول — من الناحية النفسية — دون ارتكاب جريمة القتل ضد السلطان . ولكي يقنع نفسه أنه متمتع بالحرية وسط هذا السجن أقام في حديقة القصر عدداً من المقاهي لنفسه خاضة . وكان من عادته أنه يتمشى بين الحين والحين إلى إحدى هذه المقاهي ويجلس إلى إحدى الموائد ويصفق بيديه في طلب فنجان من القهوة ، وربما وضع شيئاً من القود على المائدة ، مع أن الذي أعد القهوة هو « قهوجى باشا » السراي . وكانت نزواته الأخرى زيادة على ألعابه بين الحريم ، التجديف في البحيرة الصناعية والركوب في حدائق القصر والحفر في الخشب والضرب على البيانو وقراءة مغامرات شارلوك هولمز .

وكان جبن عبد الحميد وهلمه من أسباب ضيقه وآلامه . وكان أشبه بزميله الأوربيين ، نقولاً الثاني وغيلوم الثاني ، من حيث الجبن ، رغم محاولته ستر هذا الجبن ، ولكنه لم يكن يفقد أعصابه من خشية المستقبل . وكان رجلاً بطبيعته ، حتى إنه في عصر متسم بالتطور السريع لم يكن يمثل النظام القديم فحسب ، بل حاول أن يرجع عقارب الساعة إلى عصر سابق لم يشهده . ولكنه لم يكن كصاحبيه ضعيفاً أو واقعاً تحت تأثير الخرافات . وكانت أعصابه متعبة ولكن إرادته كانت حديدية وكان تقديره السريع للأحداث السياسية يدل على براعته بالنسبة إلى مستوى تعليمه . ونظام الحريم الذي أدخل فيه الإصلاح اثنان من السلاطين علم عبد الحميد منذ الصغر أن يقاوم التقدم الاجتماعي بقوانين فيها إذلال للروح الوطنية . وكان مصمماً على أن يسترد السلطة المطلقة ، ولكن ذكاءه ألهمه بمقاومة التقدم بالتقدم . ولذلك كان يرحب بما أدخل من الفن الحديث ليقاوم به الإصلاح السياسي . وقد وضع في مكتبته مصوراً للامبراطورية العثمانية في عهد سليمان ليتذكر عصرها الذهبي الذاهب ،

(١٢٢ — الأسر)

ولكنه كان على علم بأن الجزء الباقي من الإمبراطورية لا يسلم من الاستعمار أو السطو إلا بالحيلة ، ويأغراء بعض الأعداء ببعض الآخر .

ولقد كان في المناورات التي قام بها للوصول إلى العرش دليل على كفايته .
ففي سنة ١٨٧٦ قامت ثورة في القصر أثارتها جمعية الشباب العثمانيين - وهم الذين صاروا فيما بعد جماعة الشباب التركي - وخلعوا باسم الإصلاحات الدستورية السلطان عبد العزيز عم عبد الحميد . وكان المرشح للعرش أخوه الأكبر مراد ، وكانت سنه إذ ذاك أربعة وثلاثين عاما . وكان ضعيفاً سكيراً ، وكان الشائع أن أخاه عبد الحميد كان يشجعه على ارتكاب الرذائل . وانشق جنونه بعد ثلاثة أشهر من توليته ، وخلع وارتنق عبد الحميد العرش بمعونة رجال الثورة بعد أن أقنعهم أنه يحب للإصلاح . أما العم فقد انتحر ، وأما مراد فقد كان مسجوناً بين الحريم ، ولكنه يعامل معاملة حسنة ، حتى إن السلطان الجديد كان شديد الحرص على أن يمدّه دائماً بما يطلبه من الخمر .

وبعد ارتقاء عبد الحميد عرش السلطنة ببضعة أشهر ، أصدر في الثالث والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٧٦ الدستور الذي كان شباب الأتراك ومؤيديهم يطالبون به ، وكان موعد إصداره موعداً موقفاً بسبب انعقاد مؤتمر دولي في القسطنطينية في ذلك الوقت ، ولم تدع إليه الدولة العثمانية ، ولكنها كانت المضيقة له على غير إرادتها . دعا إلى انعقاده ذراري بلجي رئيس وزراء الملكة فكتوريا على أثر المذابح التركية التي حدثت في بلغاريا لغرضين في نفسه كان أحدهما حماية الأقليات المسيحية ، والثاني منع روسيا من الاستيلاء على الدردنيل في إحدى نوبات الغضب على الأتراك .

وكان أعضاء المؤتمر المجتمعون في السفارة الروسية على وشك توجيه إنذار للباب العالي بطلب الاستقلال الذاتي لمسيحي بلغاريا والبوسنة ، عندما أعلنت طلاقات

المدفعية التركية صدور أول دستور في التاريخ العثماني. وكانت طلقات المدافع مؤذنة بانتهاء المؤتمر، وقد منح الدستور جميع رعية السلطان - على الورق - كل الضمانات التي يطمعون فيها، ولم يكن بعد هذا الإجراء محل لأي عمل دولي.

وبعد أسبوعين حزم الساسة الأوربيون أمتعتهم ورحلوا إلى بلادهم. وفقد عبد الحميد الدستور بطريقة ملتوية، إذ عدل بعض مواد الدستور، ونفى واضح الدستور وهو مدحت باشا رئيس وزرائه الحر الذي وصل إلى العرش بمعونته. وبإقصاء مدحت صار الدستور في حكم الأمر الملقى. وأثار هذا التصرف الآسيوي الذي ينطوي على عدم الوفاء بالعهد ضمير أوروبا وبخاصة فينا وبطرسبرج. ورغم المنافسة التي كانت بين العاصمتين في شئون البلقان استطاع قيصر روسيا أن يتنزع وعداً من ابن عمه فرانسيس يوسف بعدم التدخل إذا ما حاولت روسيا عقاب التركي المخادع. وفي أبريل سنة ١٨٧٧ أخذت فعلاً في تنفيذ العقاب.

وبعد أقل من سنة من بدء قيام الحرب وصلت الجيوش الروسية إلى سان ستفانو على مسيرة سبعة أميال من القسطنطينية، حيث أجبرت تركيا على توقيع معاهدة الصلح في ٣ من مارس سنة ١٨٧٨ حتى كادت أن تخرجها كلية من أوروبا والتي قضت بمنح الاستقلال التام إلى رومانيا والعرب والجبل الأسود والبوسنة والمهرسك. كما قضت بوضع بلغاريا تحت النفوذ الروسي بعد ضم أجزاء من البلاد التركية وجزء كبير من مقدونيا إليها.

وكان المفروض أن تكون شروط المعاهدة سرية، ولكن عبد الحميد عمد إلى تسرب بعض تفاصيلها إلى لندن وفيينا ظناً منه أنها قد تكون مزعجة لهما. (ولاشك أن تربيته وتدريبه على النجاسة في أثناء طفولته مما دفعه إلى هذا) وفعلاً غيرت النمسا رأيها فيما تم بينها وبين قيصر روسيا من الاتفاق، وبدأت جيوشها

تتقدم لتوقف تقدم الروس . وعندما سمعت الملكة فكتوريا بتقدم الروس نحو بحرمرمة قالت الملكة « لابد أن يخرج الروس ، ولا ينبغي أن يملك الروس القسطنطينية » .

وتقدم الإنجليز بعنادهم ووقفوا من الروس على مرمى المدافع، وظلوا في موقفهم . هذا طيلة ستة أشهر، ولم يحتل الروس كل المنطقة التي حددتها معاهدة سان ستفانو . واضطرت تحت ضغط الدول الأوربية إلى إحالة المعاهدة إلى مؤتمر برلين الذي انعقد تحت رئاسة بسمارك في يونيو ويوليو سنة ١٨٧٨ ، وقد سبق انعقاد المؤتمر اتفاق بين تركيا وبريطانيا حصلت فيه هذه على قبرص ، وفي مقابل قبرص رد دزرائيلي إلى تركيا أكثر من نصف ما نزلت عنه في معاهدة سان ستفانو ، إذ ظلت البوسنة والهرسك — رغم تسليمها للنمسا — تحت حكمها نيابة عن تركيا ، كما بقيت بلغاريا تحت سيادة تركيا الاسمية .

وكان أهم مما عمله مؤتمر برلين لتركيا ما عملته تركيا في المؤتمر لأوروبا . نعم . إن الاتفاق على أن تترك الدولة العثمانية حكمة على المضائق حال دون وقوع حرب أوربية، ولكن مهارة عبد الحميد السياسية في إثارة ما بين روسيا والنمسا من منافسة جعل هذه المنافسة بينهما في غاية الخطورة . بل لعل ترك البوسنة والهرسك للنمسا كان شديد الأثر في العلاقة بين النمسا والصرب . ثم إن سياسة الدنيا القديمة أظهرت مقدراتها في خلق مالا يسهل إصلاحه وتأجيل ما لابد من حلوثه، ويمكن أن يقال إن عبد الحميد كانت له اليد العليا في أحد جوانب الموقف . فالعداوة المتأججة بين روسيا والنمسا نتيجة للحرب الروسية التركية واتفاقية برلين قضت على الاتفاق الثلاثي بين البيوت الملكية في روسيا والنمسا وألمانيا ، ذلك الاتفاق الذي كان وليداً ضعيفاً للحلف المقدس الذي قام به بسمارك سنة ١٨٧٣ . وهكذا صدع السلطان التحالف بين هؤلاء الملوك ، كما أصاب في الصميم ما يدعون من حقهم .

«الإلهى فى الحكم، وهو ما كان عبد الحميد نفسه عظيم الإيمان به. ولا شك أنه كان يحفى غفلة عن هذا، كما كان الملوك الآخرون غافلين عن أن العلة التى تصيب الأسرة العثمانية قد تعدى أسراتهم كذلك.

على أن تدهور الحالة السياسية فى الداخل — التى كانت من أعظم دلائل الانحلال فى الأسرة العثمانية — ومحاولة السياسة الخارجية العثمانية تقوية الخوصومة بين الدول الأجنبية — كل ذلك كان ظاهراً لكل ذى عينين. وما إن انتهت الحرب الروسية، وقبل أن تتمد الأزمة الناجمة عنها، عاد عبد الحميد إلى محاولة إعادة الحكم المطلق فى البلاد.

ولقد صرح عندما حل البرلمان القصير الأجل بأنه أخطأ إذ تصرف كما تصرف والده. وما قاله «إنى منذ الآن سوف أحذو حذو جدى السلطان محمود، الذى كان يفهم أن البطش وحده هو الذى يذعن له الشعب الذى وضع الله أمره بين يدي».. ولم يقنع عبد الحميد مثل نقولا الثانى ومن كان على غرارهِ من عشاق الاستبداد بأن يضع خطوط السياسة العامة للدولة، بل كان يتدخل فى كل التفاصيل الصغيرة لهذه السياسة، وكان يقوم بأعمال وزير داخلية ووزير خارجية. وكانت النتيجة أنه لم يكن ينتهى من عمله، رغم أنه كان يستيقظ فى الرابعة صباحاً ويعمل حتى ساعة متأخرة من الليل. وكان يرى من غير اللائق بمقام السلطان أن يتحدث مع الوزراء أو الموظفين، فكان إما أن يلقى الأوامر ويتلقاها هؤلاء فى صمت، وإما أن يصنى هو لحديثهم فلا يرد عليهم إلا بإشارة من يده أو موافقة من رأسه. وكان على الموظفين أن يترجوا إشاراته بالرضا أو بالرفض إلى أوامر قد يختلط فيها أوامر السلطان بأوامر الموظفين.

وكان عبد الحميد يطيعته غير مبال للقسوة، ولم يكن لديه الميل لإيقاع الأذى برعيته، ولكنه الخوف هو الذى كان يدفعه إلى ارتكاب أعمال القسوة. حتى إنه

كان يضطر إلى سماع — من خلال فتحات النوافذ — محاكاة بعض من كانوا يريدون قتله ومشاهدة تعذيبهم. ولكنه لم يكن يتساهد مع من يحترق على أخف. اعتداء على كرامته الملكية. ولقد قيل إنه أمر بقتل إحدى الفتيات الحظيات لأنها غازبت أحد أولاده. إن عبد الحميد لم يكن بطبعه متعصباً سياسياً، ولكنه ربما كان أخطر من ذلك.. كان دعياً سياسياً موعظاً بمظاهر الاستبداد.

ورغبة من السلطان في أن يبحث جذور الحرية منع تدريس التاريخ والآداب في المدارس. ثم إنه أغرى مدحت باشا وهو من غلاة الأحرار في الدولة بالعودة من منفاه، مع وعده بمنحه أسمى الوظائف، ثم أرسله حاكماً على سورية وعمل على قتله هناك. ومع أنه لم يكن من غلاة المتدينين فقد أخذ يقرب رجال الدين بعد الحرب الروسية ويظهر الاهتمام العظيم بالمقوس الدينية بوصفه خليفة للمسلمين. وقد شهد القرن التاسع عشر شيئاً من الإصلاح الديني كما شهد أيضاً انقياداً للخرافات والتعصب مما يرى في عهود التأخر والرجعية. هذا إلى تشجيع فكرة الجامعة الإسلامية التي كانت تداعب عقول ثمانية مليون مسلم تحت إمرة الخليفة الذي كان في الوقت نفسه رأس الدولة العثمانية.

وهناك بعض الشبه بين محاولة عبد الحميد لتقوية أسرته باحتضانها فكرة الجامعة الإسلامية واحتضان أسرة هابسبرج في القرن السابع عشر لحركة الإصلاح الكاثوليكي، وإن كانت الحركة الأولى أضعف من الثانية. واتضح أن سيف الإسلام كان سلاحاً ذا حدين في المسائل الداخلية والمسائل الخارجية جميعاً. فعندما حدثت الثورة الوطنية في مصر طلبت الدول الأوروبية الكبرى إلى عبد الحميد — باعتبار أن له السيادة على مصر — إخضاع الثورة، ولكنه نظر لأنه خليفة المسلمين لم يكن في وسعه أن يؤدب الثوار المسلمين متحيزاً للمستعمرين المسيحيين فامتنع،

وعلى ذلك احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨١ . وعلى أثر ذلك ولي عبد الحميد وجهه — وهو من أنصار إنجلترا — من هذه الساعة نحو ألمانيا، واستقبل بعثة حربية ألمانية لتنظيم الجيش التركي ، ومنح الشركات الألمانية كثيراً من التسهيلات التي كان أعظمها المشروع المالي الألماني لمسكة حديد من براين إلى بغداد . وفي سنة ١٨٨٩ زار غليوم الثاني الدولة العثمانية زيارة رسمية ليؤكد وأصر الصداقة بين البلدين، وكان لهذه الزيارة أثر في زيادة نفوذ ألمانيا الاقتصادية والسياسية في البلقان وآسيا الصغرى ، مما دعا إلى توتر العلاقة بين ألمانيا وبريطانيا وتهيئة الجو للحرب الأوروبية . وهذا التوتر بين الدولتين (لم يكن حاداً حتى سنة ١٩٠٦) زادت حدته عند اكتشاف الجيولوجيين الألمان للبترول فيما بين النهرين، وبسبب الزيارة الثانية التي قام بها غليوم سنة ١٨٩٨ لتركيا . وفي أثناء جولته في فلسطين وسوريا وضع أكليلاً من الزهر على ضريح صلاح الدين ، وظهر في دمشق في ملابس العرب ، وأشاد بالصداقة التي كانت بين هارون الرشيد وشارلمان، وأعلن أن الجيوش الألمانية في خدمة صديقه السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين دفاعاً عن الإسلام (علماً بأن الملكة فكتوريا وهي إمبراطورة الهند لها من الرعية أكثر من مائة مليون مسلم لم تكن مرتاحة لما أعلنه حفيدها في هذا الأسلوب الثقيل) .

على أن استغلال عبد الحميد للدين في إجراءاته الاستبدادية قاده إلى أخطأ عمل قام به في مدة حكمه — أعنى به المجازر الأرمنية ، فرغبة منه في تأديب الأرمن لحركتهم الوطنية التي ظهرت بينهم في المنطقة الجبلية التي تتاخم حدود القوقاز . استخدم السلطان سنة ١٨٩١ الأكراد في وظائف ملحنة بالشرطة للقضاء على الثورة . وكان الأكراد أغلبهم مسلمون على غير وفاق مع الأرمن عدة قرون متوالية . فكان اختيار هؤلاء في المنطقة الأرمنية لتتبع اثوار الأرمن إيذاناً لا شك فيه بوقوع حرب دينية عنصرية بين الفريقين .

وكانت المذابح بطبيعة الحال من جانب واحد ، نظراً إلى أن الأرمن لم يكونوا مسلحين . وأمكن الأكراد أن يحتجزوا سنة ١٨٩٤ ألفين من الرجال والنساء والأطفال في إحدى الكنائس وأحرقوا أجسامهم وهم على قيد الحياة .

واحتجاجاً على إحجام أوروبا عن وقف هذه الفظائع (وكانت صداقة السلطان مع القيصر هي التي أوقعت أوروبا على الحياد) — استولى الأرمن على البنك العثماني في القسطنطينية سنة ١٨٩٦ . وأبقت هذا العمل الشعور الأوربي ، ولكن قبل أن تتخذ أوروبا أى إجراء أصدر عبد الحميد أمراً انتقامياً بذبح جميع الأرمن في العاصمة وفي أزمير وغيرها من البلاد من نجوا من الحادث السابق . وكان أمره هذا سريعاً ، ولكن التنفيذ تم على وجه رسمى . فقام الرعاع بإرشاد الشرطة بقتل كل أرمنى أو كل من يشبه فيه بأنه أرمنى ، واستمر هذا الإجراء أربعة أيام ، قتل في العاصمة وحدها منهم سبعة آلاف ، وكان عدد من قتل من الأرمن ما بين ١٨٩١ و ١٩٠٠ موضع شك ، ولكن يذهب البعض إلى أن القتل كانوا أكثر من ٣٠٠٠٠٠ . ولا شك أن عملاء السلطان قد قاموا بأفطع حرب إبادة فيما بين عهد جنكيز خان ودمتر ، ولا شك أن أوامر عبد الحميد لم يكن الدافع إليها الدين وحده في قتل الأرمن ، فإنه كان يمت فيهم الروح الوطنية ، وكان يعلم — وله بعض الحق — أن ثوار الأرمن كانوا يدبرون كل وسيلة لقتله .

وما كادت جذوة الثورة الوطنية تنطفئ في إرمينيا بما أسيل فيها من دماء ، حتى قامت ثورة مسيحية في كريت سنة ١٨٩٨ ، ونجح الجيش التركي الحديث في هزيمة القوة اليونانية التي قدمت لمعونة الثوار ، رغم أن الجزيرة كانت تحت نوع من الوصاية الأوربية ، فإن أبناء النصر دعمت بعض الوقت عرش الخلافة المهترز . ثم إن قلق الخليفة كان له ما يبرره عند ما قامت بعض الفرق البلغارية

والقذونية من المتطوعين الثوريين في البلقان وانضموا للجيش المهاجرة في مقدونيا في أوائل القرن العشرين، تساعدهم بصفة سرية حكومات الصرب واليونان والجبل الأسود وبلغاريا .

ولم تحل شيخوخة السلطان وقد بلغ الخمسين سنة ١٩٠٧ دون قدرته على الحكم وعلى المخادعة ، ولكنه كان مصاباً دون أن يدري بتصلب الشرايين ، وهو من الأمراض التي تكون عادة نتيجة للاستبداد الشديد . وكان يحذر من وصول الأنباء إليه والتي لا غنى لأى حاكم مستبد عنها الموظفون أو رجال الحاشية بوسائلهم الدينية بما لهم وحدهم من حق الوصول إلى حجرته الخاصة ، ولم يكن الوزراء هم المسئولون عن الحكم ، ولكن الحكم كان فى أيدى الأغوات و « الفقراء » والمغامرين من الرجال . وكان أقوى هؤلاء سكرتير السلطان ، وهو رجل ذكى جرىء يسمى عزت باشا . ونظراً إلى أن هذه الجماعة وحدها هى المتسلطة على أذن السلطان ، أمكنهم أن يقنعوا عزت باشا بسياستهم ، فأصبح فى قبضتهم وهو يظن أنه سيد الجماعة .

وهكذا كانت الثغرة الوحيدة التى كانت فى السياج المضروب حول السلطان ضارة به لا نافعة له . وكانت طبيعته القلقة وخوفه من القتل مدعاة لتعيين ٢٠٠٠٠ جاسوس ، وهو عدد هائل حتى بالنسبة للأتراك أنفسهم ، وكان مصمماً على قراءة التقارير اليومية بنفسه ، وكان عددها يزداد تبعاً لازدياد استبداده فى البلاد ، ولم يكن يتقيد بمن يلخصها له ، وكان غارقاً فى التقارير بحيث عجز عن أكبر مؤامرة كانت تحاك ضده . لا من الأفليات ولا من الأجانب ، بل من بين رجاله الأتراك أنفسهم ، وبخاصة من الضباط الأتراك الذين كان كل الاعتماد عليهم حماية الأسرة الملكية . ولم تكن جماعة شباب الأتراك أصلاً منظمة ، وإنما

كانوا يمثلون تيار رأى - مع تيارات كثيرة تحتية ، وهم من حيث المبادئ كانوا اخلاقاً لشباب الأتراك الذين كانوا فى أول عهد عبد الحميد ، وإن كانوا أكثر غلواً فى السياسة وفى التحرر ، ولم يكونوا من غلاة الثوريين ، ولذلك كان معظمهم راضين بحكومة دستورية على رأسها الأسرة العثمانية . على أن ميولهم الثورية جعلتهم زملاء لكل الثوار فى سائر البلاد الذين يعزى إليهم ما انتهت إليه الحالة السياسية فى ذلك العصر - وظهرت أعمق جذور الحركة الثورية التركية بابتهاجمهم بثورة روسيا سنة ١٩٠٥ التى أقلقّت السلطان كثيراً . ولقد تشجعوا كثيراً ، كما تشجع زملاؤهم فى النمسا وألمانيا وغيرها بهزيمة الحكم المطلق فى روسيا . بل ظهر تمسّسهم بشكل واضح لانتصار القومية اليابانية على الإمبريالية الروسية التى حاربت الثورة .

وكان من الحركات الثورية الهامة السرية حركة شباب الأتراك التى قامت بها منظمة ثورية فى الجيش ، وسمت نفسها « الوطن » ، وكان أعضاؤها يؤمنون إيماناً قوياً بالحياة النيابية وبالحكومة الدستورية وبالتعليم وبإصلاح الحياة التركية ثقافياً واجتماعياً وتقوية الروح الوطنية أكثر من أى شئ آخر . وهذا اللفظ ليس له مدلول واضح يعرف به ما يهدف إليه هؤلاء الثائرون الأتراك . وكان أشبه شئ بلفظ الوطنية فى الدولة النمساوية ، له مدلول غامض ، ولكن أهم ما يتضمنه مدلول اللفظ كره الاعتداء الأوروبى أو السيادة على بعض أجزاء الدولة ، ولم تكن هذه المنظمة « الوطن » عدوة لكل ما هو غربى كدعاة القومية الإسلامية ، بل كانت تحب بالآراء الغربية والفنون الغربية . بل كان لكثرة أعضائها إعجاب شديد بكل ما هو غربى ، وكانوا مع ذلك يأخذون على السلطان أنه يمنح

الغريين حقوقاً على الأراضي العثمانية أو يقبل تدخل المحاسبين الأجانب في مالية الدولة لصالح الدائنين الأجانب، وتنازله عن كريت رغم انتصار الجيوش التركية . وكانوا شغوفين بأن يكون للبلاد جيش حديث، ولكنهم كانوا يمتقنون عنجبية المعلمين الألمان الذين جاءوا ليساعدوهم على بلوغ هذا الهدف .

وكانت فلسفة « الوطن » ممثلة أحسن تمثيل في الشخصية النارية التي كانت لأحد قادتها الشباب المتحمسين . وكان أحد ضباط السوارى ، رشيق القوام جميل الهندام اسمه مصطفى رياض ولكنه يعرف باسم مصطفى كمال للدلالة هذا الاسم الأخير على صفة الكمال ، ومصطفى كمال الذي يذكره التاريخ الآن باسم ثالث . هو أتاتورك انضم إلى جماعة الوطن ، عند ما كان في كلية أركان الحرب في اسطنبول . وعند تخرجه سنة ١٩٠٤ قبض عليه بتهمة هقد نظام الحكم، ولكنه أفتق الحقيقين بعد شهرين بأن يطلبوا من السلطان إطلاق سراحه . ونقل إلى دمشق وهناك نظم خلايا منظمة الوطن ، ثم نقل سنة ١٩٠٧ إلى سالونيك ، وكانت حينذاك أهم منطقة للحركة الثورية في الإمبراطورية العثمانية . وهناك حول « الوطن » إلى جمعية أخطر وأكثر أهمية حولها إلى جمعية الاتحاد والترقي .

وهذه الجمعية هي التي كانت تمثل الشعور السائد بين الشباب التركي . وكانت ينتمى إليها كل شباب الضباط في مقدونيا ، وكان رئيسها البارز يدعى أنور بك وهو شاب عظيم الاهتمام بمظهره وهندامه ، ولم تكن الجمعية مقصورة على العسكريين ، بل كان يتصل بها كثير من المهاجرين النابيين في باريس . وكانت مبادئها أشبه بمبادئ « الوطن » ، ولكنها تشبعت بآراء القرن الثامن عشر واتجاهاته السياسية مع المبادئ الوطنية التي ظهرت في القرن التاسع عشر . وكثير من أعضائها كانوا ينتمون إلى الحركة الماسونية ، ولا شك أن مبادئ

فالماسونية الحرة أمدتها بالقوة والعزيمة في حركاتها الثورية، ومن المحتمل أن يكون بعض الماسونيين الأجانب راضين عن هدم سلطان الخليفة على رعيته . ومن الثابت أن القنصل الإيطالي في سالونيكاً كانت له يد في المؤامرة .

وتمشياً مع سياسة اللجنة التي تتفق ونظام الماسونية كانت تقبل الجمعية أعضاء من جميع الجنسيات والعقائد . وكان من زعمائها يونانيون وأرمن ويهود أتراك، وكانت لها علاقات سرية بالأقليات الثورية في مقدونيا، وكانت تدبر صراحة بمبدأ الولاء للدولة، على أن تتمتع كل طائفة فيها بالحقوق المدنية والحقوق السياسية في ظل حاكم دستوري . ومع أن أعضاء الجمعية كانوا يعرفون في الخارج بأنهم أتراك، إلا أنهم لا يرون أنهم كذلك . يقول أحد الكتّاب الأتراك الحديثين إن تسمية العثماني بالتركي كانت تعد إهانة له . وأخيراً تواترت نذر عديدة خارجية بالاعتداء، وهذه هي التي آذنت بقيام ثورة ١٩٠٨ . وقد كانت أشد هذه النذر وقماً ذلك اللقاء الذي تم بين قيصر روسيا وبعه إدوارد السابع ملك بريطانيا في بحر البلطيق، وتم في هذا اللقاء اتفاق بين العاهلين أنهى - أو على الأقل - ضيق المنافسة بين الدولتين في آسيا والشرق الأدنى - تلك المنافسة التي كان لها الفضل في بقاء الدولة العثمانية - ثم إنها قضت نهائياً على سياسة عبد الحميد .. سياسة « فرق تسد » . إن ثوار سالونيكاً قرروا أن الوقت قد حان لإيقاظ الوطن مهما كانت الظروف .

وفي أوائل يوليو سنة ١٩٠٨ كان أنور بك على رأس فصيلة من العثمانيين عدتها ١٥٠ جندياً مقرها في مقدونيا الشرقية عند الحدود بين اليونان وبلغوسلافيا وأعلن الثورة، واستولى زميل له من المتآمريين في مكان آخر في مقدونيا على مافي خزانة الفصيلة وهرب هو وجنوده إلى التلال وانضم إلى الثوار المسيحيين الذين

أرسل هو لإخاد ثورتهم ، وبعد عدة أيام قتل الثوار قائد الحامية الموالي للحكومة في مناستر (وهى الآن أحد مدن يوغوسلافيا) واتخذوا مقرأ رئيسياً لهم . كما جاءت فرقة من الأناضول وكان يظن فيها الولاء وانضمت إلى الثوار . وهكذا بعد أن قضى السلطان حياته يتتبع المؤامرات الوهمية والحقيقية ، وجد الجيش الثالث جميعه ثائراً ومهدداً بالتقدم إلى العاصمة . ولما أرسلت جمعية الاتحاد والترقي إنذارها النهائى فى الثالث والعشرين من يوليو لم يجد عبد الحميد أية قوة معه ، ولما لم يجد أمامه أية فرصة للقضاء على الثورة قرر — على طريقته — الانضمام إليها .

ولم يشترك شباب لأتراك فى الحكومة الجديدة ، واكتفوا بإقصاء أذئاب عبد الحميد ليستبدل بهم سياسيون وموظفون موالون للإصلاح المنشود . وسمحوا للسلطان بالاحتفاظ بقصر يلدز وبه مابه من الحرم ، ولكنهم أغلقوا مسرحه الخاص وخفضوا عدد الحاشية من ٢٩٠ إلى ٣٠ . وتركوا له ٧٥ موسيقياً لفرقة الموسيقى بعد أن كانوا ٣٠٠ ، ثم إنهم قضوا على كل جواسيسه .

وعبد الحميد من جانبه بذل مجهوداً صادقاً ليقوم بدور الملك الدستورى ، وفى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٨ حضر أول اجتماع للجلس النيابى الجديد وجلس فى مقصورته الملكية . بينما تلى سكرتير له خطاب الافتتاح المملوء بالآمال الخاصة شعارات الحرية الصحيحة ، ومع ذلك لم تدم أيام السلام بين الوطنيين الأحرار فى سالونيك والملك المستبد المتقاعد الذى ظل خليفة للمسلمين إلا بضعة أشهر ، فما زال لدى الدساس العجوز من الحيل ما يلقنه لصغار رجاله . فى أوائل الربيع سنة ١٩٠٩ أثارت « الأخوة الإسلامية » — وهى جمعية سرية قامت لمناوأة الثورة دون أن يحمل عبد الحميد نصيباً من مسئولية قيامها — أثارت الجندين

«الحديثين» ضد ضباطهم من شباب الأتراك في ثكنات الجيش الرئيسية في العاصمة، واشترك في الاضطرابات جمع من الفوغاء المتعصبين تحت قيادة رجال الدين أو جواسيس السلطان السابقين، وكانت الغلبة لهذه الثورة المضادة في اسطنبول لبضعة أيام، اختفى فيها نشاط جمعية الاتحاد والترقي، وكاد الحكم المطلق يعود ثانياً إلى البلاد، رغم أن حكمة عبد الحميد منعت من أن يشترك في هذه الحركة.

ومع هذا ففي الثالث والعشرين من أبريل اتخذت سبيلها إلى المدينة قوة من شباب الأتراك في سالونيك بقيادة أنور بك ويشترك فيها مصطفى كمال. وبعد يومين خلع عبد الحميد ووضع على العرش أخوه الخامل محمد الخامس. وتقبل السلطان الخلع الخبر في يلدز من مندوب جمعية الاتحاد والترقي وقد ضعف احتمالاً بتضاءل قوامه، ولكنه شد في أول الأمر من عزمه وتدنر بجلال الملك، وأبلغه الجنرال أسعد قائد الوفد الذي قدم إليه فقال « بناء على ما أفتى به مفتي الإسلام قد خلعتك الشعب وتحمل الجمعية الوطنية حماية شخصك وحماية أسرتك، وليس هناك ما تخشاه ».

ورد عبد الحميد في استسلام « هذا هو القدر المكتوب » وبعد لحظات أخذ يردد في عبارات هستيرية رجاءه في أن يبقى حياً. وعندما عاد الوفد في المساء يحمل إليه تحديد إقامته في سالونيك أغنى عليه، وعند إفاقة أبلغ بأن عليه أن يرحل فوراً هو وأسرته، كما أبلغ أن الشعب سمح له بثلاث زوجات وأربع سرايات وأربعة أغوات وأربعة عشر خادماً، وأن حظه أحسن من كثير من الحكام المستبدين.

وثورة شباب الأتراك كان مقدراً أن يكون لها ثمرة ثانية في العشرينات من القرن العشرين، ذوت الثمرة الأولى منهما قبل نضجها. لقد انتهى الحكم المطلق بانتهاء عبد الحميد ولكن حل محله حكم الهيئة الحاكمة التي مارست الحكم

للاستناد إلى حزب الحرية والتقدم الذى نشأ من الجمعية السرية المسماة باسم الحزب نفسه . وكانت المعارضة والنقد مباحين من الناحية النظرية ، ولكنهما كانا يوقاومان بأساليب كانت سائدة فى عهد السلطان الأحمر . وهيئة الجواسيس التى كانت تستخدم فى عهد عبد الحميد استخدمت فى هذا العهد ، والسجون التى أخلت بعد ثورة يوليو امتلأت بالمسجونين بسرعة عظيمة ، ولم يكن السجناء مقصورين على من قاوموا ثورة يوليو وحدهم . وقد كان هناك تشجيع على حركة التقدم ولكن لم يكن متناسباً مع الاستبداد الذى قامت به الجماعة باسمه . ولعل أبغى إصلاح ينسب للحكم الجديد جمع الكلاب الضالة التى كانت تزدهم بها شوارع اسطنبول وطردها إلى جزيرة فى بحر مرمره حيث انتهى أمرها إلى الفناء .

ومن أول الأمر كان هناك تناقض خفى بين « العثمانية » الديمقراطية التى يدين بها شباب الأتراك ، وبين الشعور المستحدث بالقومية التركية الذى كان أعمق دافع إلى نشاطهم . أما الأخوة الثورية بين المتأمرين الأتراك وزملائهم المقدونيين فلم تعمّر طويلاً بعد نجاح الثورة . ولما أحس رجال الحكم الجديد بالاضطراب المستمر بين الشعوب التى تتكون منها الإمبراطورية ، كالاضطراب الدائم فى بلاد العرب وفى ألبانيا ، ولما أقلقهم الدسائس التى كانت تحيكها الدول الكبرى باستمرار ضدهم ، اتبعوا سياسة القمع القديمة والضغط على القوميات . بل لقد أحيوا مبادئ عبد الحميد فى الجامعة الإسلامية وقاموا بذبح الأرمن مثله . ثم إن هذه الهيئة الحاكمة كانت تمارس سلطانها فى الشؤون الخارجية بجرأة وجهالة وروح حربية ، كما تنصرف بنفس الأسلوب فى المسائل الداخلية ؛ وهكذا نجحت فى تأليب جميع القوى البلقانية ضد الإمبراطورية العثمانية ، وهيات المسرح لقيام حرب البلقان سنة ١٩١٢ . ولم يكن فى هذا مساهمة يسيرة فى النزاع الأوروبى العام الذى نشب

بعد عامين من هذا التاريخ . ولم تكن تضحية شباب الأتراك بمبادئهم هي التي ساعدت على قيام الحرب العالمية ، بل لعل العامل الأقوى كان تهديدهم للبقاء على هذه المبادئ . وقد كان أمل الدول العظمى أن يبقى الرجل المريض حياً ، ولكنها لم تكن راغبة في أن تراه في صحة جيدة . ولما كان برء الرجل المريض متوقفاً دفعت ثورة ١٩٠٨ دولتين كبيرتين هما النمسا وروسيا على الاقتصاص على الرجل المريض ونهبه في إبان مرضه وعجزه ، ولكن مخالف الدولتين اشتبكت بعضهن في بعض في أثناء هذا الاقتصاص .

الفصل السابع

إرهاص بالكارثة القادمة

كانت إحدى نتائج ثورة شباب الأتراك - بل أبلغها ضرراً - المؤتمر
المنسوى الروسى الذى عقد فى ٥-٦ من سبتمبر سنة ١٩٠٨ فى قلعة بوشلاو فى
مورافيا (وهى الآن جزء من تشيكوسلوفاكيا)، وكان الاجتماع من الناحية الرسمية
لا يبدو أن يكون وليمة سياسية خاصة أقامها صاحب القلعة الكونت ليوبولد
يرشتولد سفير النمسا والمجر فى ذلك الحين لدى روسيا . وهو الذى لعب دوراً
فى السياسة الدولية بعد عدة أعوام فى ظروف أشد غرابة .

وكان هذا الاجتماع - يعد من وجهة نظر الصحفيين المعاصرين
فى الصحف حينذاك - أمراً غامضاً بل موضع قد شديد . وأول كلمة
بوردت عنه جاءت من وزارة خارجية النمسا والمجر عند ما أبلغ مراسلى
الصحف أن وزير خارجية النمسا البارون إيرنتال وزميله الروسى الكونت
إزفولسكى الذى كان يستشفى بالمياه المعدنية فى كارلسباد سيكونان ضيفاً وزارة
الخارجية النمساوية . وكانت مثل هذه الكياسة السياسية نادرة الحدوث فى فينا فى
ذلك الحين ، حيث كانت التقاليد فى عهد مترنيخ لا تزال مرعية ، فأدى ذلك
إلى أن الصحافة فهمت أن فى الجو حدثاً هاماً . ومع هذا ، فلما سمح لمراسلى الصحف
بدخول القلعة بعد انتظارهم يومين كاملين يتجولون فيها خارج الأسوار ويرقبون
الوزيرين بعيون متلهفة ، أعطوا بلاغاً للنشر ليس فيه إلا بيانات قليلة لا تسمن
«ولا تغنى من جوع وظهرت النقطة الهامة فى الموضوع فى إحدى الفقرات ، وكانت
حول ما عقد من أمل على نظام الحكم الجديد فى تركيا فى أن يكون عاملاً على استتباب

السلام في أوروبا ، كما تضمنت أن الوزيرين كانا متفقين على وجوب اتخاذ موقف انتظار ودى نحو هذا النظام » .

وقد أجب بعد مدة وجيزة عن السؤال الذى كان يدور فى خلد رجال الصحافة — وإن لم يذكره صراحة — وهو لماذا لا يصدر البلاغ إذا كان ما جاء فيه ، هو كل ما تريد الحكومتان أن تعلناه . ولكن اجتماع بوشلاو ظل إلى حد ما أحد الأحداث الغامضة فى الحقبة التى سبقت الحرب العالمية ، ولو أن مجال الخلاف فى ماهية هذا الحدث كان ضيق الحدود . وكان اجتماع بوشلاو أشبه شىء باللقاء الفاشل الذى تم فى بيجوركو سنة ١٩٠٥ ، فكأنه لاقى فى الطريق المؤدية إلى الحرب ، كما كان دلالة على عوامل الانهيار التى كانت تنخر فى أسس نظام الحكم فى أوروبا (وقد كان فيه أيضاً الدليل الواضح على التناقض الممقوت بين الخلافات الدولية فى ذلك الحين وبين الجهود المضنية التى كانت تبذلها الحكومات المستبدة المتداعية) .

ولم يكن لقاء بوشلاو مشهداً مسرحياً كاللقاء الذى تم بين نقولا الثانى وغلبيوم الثانى . إن الأزمة الأوربية التى نتجت عن لقاء بوشلاو كانت من تدير رجلين من رجال السياسة المدربين الذين استخدمتا مهارتهما الفنية وعملا فى إطار من الأيديولوجية التى يعرفها معظم وكلاهما ، بما فى ذلك الديموقراطيات الأوربية الغربية فى ذلك الوقت .

وكان إزفولسكى ذو الوجه المستدير والعينين الزرقاوين والشوارب الدالة على التفكير يود أن يظهر بمظهر القروى الساذج ، وكان فى الواقع رجلاً مطلقاً لديه دراية لا بأس بها بالمسائل الدولية ، ولكن ينقصه الإقدام والتفكير ، لأن القيصر لم يكن يسمح لوزرائه بشىء من ذلك . وكانت أكبر تقائمه تحفظه التام وبلادة تفكيره وقناعته العجيبة . وكان اللقاء مع النمساويين من تديره ، أو هكذا ظن .

أنه كذلك . وبناء على مشورته وبعد شيء من التردد قام القيصر بجولة في أوروبا ليعرف رأى الموقعين على معاهدة برلين في تعديل المادة ٢٧ فيها ، حيث ظل خروج الأسطول الروسى ممنوعاً من البحر الأسود بناء عليها منذ سنة ١٨٨٧ .

وكان ما يحول في خاطر روسيا هو أن تخفيف قيود المعاهدة ليس إلا حيلة قد تؤدي مع غيرها من الأعمال إلى تحقيق حلمها القديم ، بالوصول إلى اسطنبول والاستيلاء على المضيقين . وأعادت هزيمة أمام اليابان إليها هذا الحلم ، كما أن ثورة ١٩٠٥ جعلت إزفولسكى - وهو من غلاة المؤيدين للحكم المطلق - يفكر في ميدان خارجي ينتصر فيه ليرفع من منزلة القيصر داخل البلاد . ثم إن ثورة شباب الأتراك كانت في رأى إزفولسكى مدعاة لزيادة الاهتمام وبخطته . وكان يعتقد أن لدى شباب الأتراك من المشروعات الداخلية الكثيرة في ذلك الوقت ما يضعف مقاومتهم لأي ضغط إجماعي يأتيهم من الخارج . وإذا نجحت إصلاحاتهم فإن الدولة التركية تستعيد قوتها وتقلت الفرصة الذهبية من الروس . واستنتج إزفولسكى أن إيرتال سوف يقره على خطته . وكان يعلم أيضاً أن النساء يهمنها تعديل معاهدة برلين لتتمكن من ضم البوسنة والمهرسك - وقد كانت هذه المعاهدة هي التي أقرت احتلالها للولاياتين سنة ١٨٧٨ - قبل أن تطلب الحكومة التركية الجديدة إعادتهما إليها . وقد احتفظت الحكومة التركية لها بمقعدين في المجلس النيابي ، بل ذهب شباب الأتراك إلى إجراء انتخابات فيهما .

فالظروف إذن كانت جد مناسبة - في رأى إزفولسكى - لاتفاق روسيا والنساء بمعزل عن سائر حلفائهما ورغم ما بينهما من تنافس في البلقان . وحتى قبل ثورة شباب الأتراك كتب إزفولسكى إلى إيرتال مشيراً إلى إمكان إجراء الاتفاق بين الدولتين ، ولم يلق منه أى اعتراض على ذلك .

ومن سوء حظ إزفولسكى بل ومن سوء حظ أوروبا كذلك ، أنه لم يدرك تمام الإدراك عمق سياسة إيرنتال ، رغم أنه عمل من قبل شقيقاً لبلاده في روسيا . وكان يعرفه معرفة تامة . وكان وزير خارجية النمسا صلباً قصير النظر تعلو رأسه خصلة شعناء من الشعر تجعله قريب الشبه بأعيان الريف . وكان ذكياً بل كان أذكى ساسة ذلك العهد . كما كان في بعض النواحي لا يراعى إلا ولازمة بصاحبه إزفولسكى من الغرور ، وكان يثق ثقة عظيمة برسالة الإمبراطورية النمساوية كما يثق برسالة دوائه . وكان نحوه كالغدة المريضة يفرز من الآراء مالا سبيل إلى مداها . وكان أعداؤه يتهمونه بأن له عقلاً « تلمودياً » — وهو في الواقع حفيد تاجر . حبوب يهودى . ولأصحاب هذا الطراز من العقول القدرة على قلب الأوضاع وتغيير الحقائق . إنهم يستطيعون أن يروا في التدنيس أسمى صورة من صور الحق ، وفي الحرب أنها الوجه الصاحب من أوجه السلام .

ومنذ ولى إيرنتال وزارة الخارجية سنة ١٩٠٦ كانت السياسة في البلقان أهم ما يشغله . وكانت مجالاً للأفكار المعقدة المتبوية التي لا يستطيع إدراك كنهها أى مفكر في العصر الحاضر . وعلى عكس ما كان يعتقد إزفولسكى ، لم تصبح سياسة النمسا ترمى إلى التوسع في البلقان إلى سالونيك كما كانت من قبل . وفي رأى إيرنتال كان التطاع إلى امتلاك بعض البلاد في البلقان ضرباً من تفكير السذج . لأن بلاد البلقان تستوطنها الجنسيات السلافية ، ويس في طاقة النمسا أن تحتل ضم أقليات سلافية جديدة . وإذا أراد إيرنتال أن يقوم بتعديل في اتفاقية برلين . وأن يطلب ضم البوسنة والهرسك ، فلن يكون ذلك لزيادة التوسع على حساب تركيا ، بل سيكون ذلك توسعاً للصرب على حساب النمسا والمجر .

ومن المفيد إلقاء نظرة شاملة على الموقف السياسى في البلقان في عصر إيرنتال . إن أهم ما يجب إبرازه في هذه المنطقة هو أن مراحل الثورة ضد الاستعمار كانت تغل في جميع أنحاء

في مبدأ القرن العشرين فيما يشبه ما يحدث الآن في الشرق الأدنى وفي بعض أنحاء إفريقية . وقد تم الجانب الأول من هذه الثورة — الجانب المتصل بمقاومة الاستعمار — في أواخر القرن التاسع عشر . فقد كانت المستعمرات المسيحية في البلقان ثائرة ضد الإمبريالية الإسلامية الآسيوية ، وأجبرت الدولة التركية على الاعتراف باستقلال اليونان والصرب والجبل الأسود . وكانت البوسنة وبلغاريا تحت السيادة التركية الاسمية ، ولكن البوسنة كانت فعلا تحت الحكم النموي ، بينما كانت بلغاريا مستقلة من الناحية الفعلية . وكان الألبانيون والمقدونيون وهم من الجنس السلافي القريب للجنس البلغاري وبضعة آلاف من الرعايا المسيحيين للحكم التركي ، ولكن تحريرهم لم يكن إلا مسألة أيام .

وفي سنة ١٩٠٨ ظهر الجانب الثاني من حركة البلقان الثورية . وهي حركة التوسع القومي التي كانت ترمي إلى تحديد القومية . وعلى نحو ما يجري الآن في إفريقية وفي الشرق الأوسط لم يقع الصدام بين البلاد الحديثة التحرر وبين البلاد الإمبريالية كالنمسا وإيطاليا أو عدوها تركيا بل بين بعضها البعض . فالصرب وبلغاريا واليونان كانت تطالب بأقاليم مازالت في يد العثمانيين أو آلت إلى إحداها مما أدى إلى اشتباك المصالح أو تعارض حركات التحرير كالذي يحدث من التعارض بين فكرة القومية العربية والجامعة الإسلامية والجامعة الإفريقية .

وكانت أشد هذه القوميات نشاطاً حركة القومية الصربية التي كانت تهدف إلى وحدة كل الصربيين من أهالي جنوب شرقي أوروبا ، بل لقد كان لبعض المفكرين من الجرأة أن يطمعوا في إنشاء كومنولث يوغسلافي يضم كل العنصر السلافي في الجنوب . وكان منشأ هذه الفكرة بطبيعة الحال من الصرب التي كان لديها الأمل في أن تتولى قيادة هيئة فيدرالية للسلاف الذين في جنوب أوروبا . وقيام دولة الصرب على حدود النمسا هو في ذاته مثال للوجود القومي الحر . وكان لها أثر في عدم

استقرار سلاف الجنوب العديدين الواقفين تحت نير حكم أسرة هابسبرج . ولكن الصرب لم يكن يرضيها أن تكون هي مثلاً فحسب . بل أخذت العناصر القوية في هذه المملكة الجبلية في الدعاية لإثارة إخوانهم في الجنسية ، وتشجيع القيام ضد السلطة الإمبراطورية . وهذه الحماسة الصربية « واليوغوسلافية » زادت حدتها بعد سنة ١٩٠٤ عندما قتل جماعة من الضباط الصربيين الملك الموالى للحكومة النموية اسكندر أبرينوفتش وزوجته دراجا ، وأجلسوا مكانه بطرس كاراجيرجيتش ، وهو أصدق وطنية من صاحبه ، وأصبحت هذه الدولة المتخلفة التي يبلغ تعدادها أربعة ملايين نفس والتي تؤازرها روسيا ، قوة تهدد كيان دولة النمسا والمجر ذات الخمسين مليوناً من الأنفس .

أرادت السلطات النموية أن تجبر الصرب على أن تخفف من ثورتها بأن تفرض عليها أعباء مالية . وكان ذلك فيما عرف « بحرب الخنازير » سنة ١٩٠٦ عندما فرضت ضريبة باهظة على الخنازير الصربية التي تجتاز حدود النمسا إلى المصانع النموية ، ومع أن النمسا كانت المستوردة الوحيدة لهذه السلعة إلا أنه لم يكتب للنمسا النصر في هذه الحرب ، فلما ولي إيرنتال وزارة الخارجية أظهر كياسة في دعوته إلى مراجعة أسس العلاقات بين النمسا وبين جارتها الصغيرة التي في الجنوب .

وفي أثناء انعقاد مجلس الوزراء في أكتوبر سنة ١٩٠٧ صرح وزير الخارجية الجديد قائلاً : « إن السياسة التي اتبعناها لحل الصرب على أن تكون تابعة لنا سياسياً واقتصادياً ومعاملتها على أساس أنها كية مهملة — إن سياستنا هذه قد فشلت . فإذا قام نزاع بين الصرب والنمسا فلا يستفيد من هذا النزاع إلا طرف ثالث . وعلى هذا يجب أن نسعى ونرجو أن تسير الأمور الكرواتية والدماشية والبوسنية بحيث تكون آمال شعب الصرب متعلقة بالنمسا » .

ومع أن إيرتال لم يكن واضحاً غاية الوضوح ، إلا أنه أظهر أنه ليس معادياً للصرب . ويبدو أن تفكيره كان شيئاً بآراء بعض أنصار الدوق فرانسيس فرديناند الذين كان من رأيهم حسن التفاهم مع بلغراد ، على أساس أن فيه تهدئة لعناصر سلاف الجنوب في الإمبراطورية ، بل كانوا يأملون من ورائه قبول الصرب اتحاداً فيدرالياً مع النمسا يكون على رأسه أحد أفراد أسرة هابسبرج .

ولما كان من المعروف أن الصربيين يطعمون في الاستيلاء على البوسنة والهرمك ولا يرضيهم ضمهما للنمسا والمجر ، فقد كان من المنتظر أن تقضى سياسة إيرتال الذي يطعم في تحسين العلاقة مع الصرب - إرجاء الضم حتى يتم التفاهم على هذا الأمر مع بلغراد . ولكن منطق إيرتال متقلب حسب الظروف ، حتى لقد صرح مرة - كما يقول أحد الموظفين الموالين له في وزارة الخارجية « إن ضم البوسنة والهرمك شرط أساسي لضمان الحل الموفق للمسألة الصربية » . بينما انسحاب النمسا من هناك سيكون نوعاً من الانتحار السياسي (هارا كيري) .

وأخيراً انتهى تفكير وزير خارجية فرانسيس يوسف - الذي كان يرى أنه هو بسمارك منطقة الدانوب أو مترنيخ القرن العشرين - إلى أن خير وسيلة لدعم علاقة الود بين الصرب والكروات وبين النمسا هي التقرب إلى بلغاريا وهي المملكة التي لا تربطها بها أية علاقة ودية ، بينما تربطها بالصرب جملة علاقات أقلها العلاقة الودية القوية .

ومما كتبه إيرتال في مذكراته : « إن عليهم أن يبحثوا الشر من جذوره ، وأن يقضوا على حلم الوحدة الصربية ولا يفكروا في ذلك مستقبلاً » .

ثم أعقب ذلك بما يدل به على أن النزاع بين بلغراد والصرب لا مفر منه ، قال : « إذا نحن أيدنا بلغاريا زججنا منها بلغاريا الكبرى على حساب الصرب ، فقد وضعنا

الأساس اللازم للاستيلاء على الجزء الباقي منها عندما يكون طالع السعد في أوجه في أوروبا .

إنه يتطلع إلى استقلال ألبانيا (تحت حمايته طبعاً) وصدقة الجبل الأسود و « بلغاريا الكبرى التي يربطها بنا رابطة اعترافها بالجبل الذي أسديناه إليها » .

ومن العسير فهم هذا الهراء وترجمته إلى لغة عصرية ما لم نحلل ونبسط أسلوب تفكيره وننتهي إلى إدانته . إن السياسة التي يقترحها لا تدل على غباء ، ولكنها سياسة ضارة وملتوية معاً . ثم إنها تكاد أن تكون على القيقض من السياسة التي كان يدعو إليها من قبل . إن منطقته لذى يفكر على مقتضاه يدل على أن الإمبراطورية تهددها فكرة الجامعة الصربية التي تثيرها الصرب من وراء الحدود ، وتغذيها عوامل الطموح الصربي مما لا يهدأ إلا بالإضرار بالنمسا والمجر . ولكي يؤمن حدود الإمبراطورية يجب أن يمتد الشر (أي الصرب المستقلة) من أساسه . وأفضل وسيلة لبلوغ هذا الهدف هي تشجيع بلغاريا على التوسع على حساب الصرب ، حتى إذا اندلعت نيران الحرب بينهما فسيكون النصر حليف بلغاريا للمعونة التي أسديتها النمسا إليها ، وستضم قدراً كبيراً من المملكة الصربية . وستكون هزيمة الصرب وبالا عليها وستضم النمسا إليها ما يتبقى منها عند سنوح أول فرصة مناسبة — أي عندما يكون لدى الدول الكبرى ما يشغلها عن التدخل (بهذا الإجراء سيخضع للنمسا مليون صربي أو أكثر ، رغم تحذير إيرنتال نفسه خطأ هذه السياسة) . وهكذا ستؤمن الدولة الثنائية حدودها الجنوبية ، وسيكون بجانبها بلغاريا الكبرى التي تعترف بمجملها ، وألبانيا المستقلة (التي اقترح إيرنتال تخليصها من الحكم التركي واستقلالها الذاتي) والجبل الأسود الصديق . ولن يكون لديها عدد يعكر صفوها — من الخارج على الأقل — من الصربيين الذين في الجنوب .

هذا بعض ما يدور في رأس إيرتال الذى لا يهدأ كالحردة التى تنتقل من غصن إلى غصن فى الغابات الاستوائية . وهو مشغول بالمحادثات التى جرت فى بوشلاو . ومن المؤسف أن دلالاتها تختلف عما يتصوره إزفولسكى ، الذى يرى بلغاريا والصرب فى حماية روسيا . وكان الاجتماع فى قلعة بروشتولد يسرده الود والبساطة . كما كان يجمع بين الجو الرسمى والجو الاجتماعى المألوف . ولم يجد إزفولسكى أى حرج فى أن يعرج على موضوع محبب إلى نفسه وقد سره ماسمعه من مضيفيه النمساويين (أو ما ظن أنه سمعه منهم) .

إنه لا يوجد من ناحيتهم أى اعتراض على فتح المضيقين أمام الأسطول الروسى . وقد أثار النمساويون فى مقابل موضوع المضيقين البوسنة والهرسك . وسألوا فى صراحة غير مألوقة عن موقف روسيا إذا ما ضمت النمسا هاتين الولاياتين .

وكان رد إزفولسكى - الذى قيل إنه لا يتقوه بأية كلمة تسمى إلى محادثيه - رداً غامضاً بأنه لا يرى أى اعتراض « ولكن لا بد من إيجاد الوسيلة المناسبة لهذه المسألة » .

وزيادة على ما جرى من الحديث فى أوقات تناول وجبات الطعام قضى الوزيران ست ساعات فى حديث بينهما وهما يتمشيان فى الحديقة أولاً ، ثم فى المكتب الصغير المزدهم الذى فى القلعة . ولم يسجل أى شئ رسمى عن هذا الاجتماع إلا ذلك البلاغ البسيط الذى بلغ للصحف . ولم يكن هذا ضرباً من السياسة السرية بل كان من قبيل ما يسمى سياسة « الجنتلمان » ، وعندما ذهب إزفولسكى من بوشلاو إلى بافاريا ليقضى عطلة فى جبال الألب كان يبدو عليه شدة ارتياحه لتصرفه . ومن الغريب أنه فى شدة التهور والغفلة : لقد كان معروفاً بين

زملائه في جميع أنحاء أوروبا بمهارته في دس الكلمات الهامة في ثنايا الكلام العادي حتى تمر دون أن تلفت انتباه المستمع إليها .

وبعد ذلك بشهر — أى في الخامس من أكتوبر عندما وصل إلى باريس بعد زهته في بافاريا انفجرت القنبلة الزمنية التي أعدت في بوشلاو ، وأعلنت وكالات الأنباء من فيينا أن ضم النمسا للبوسنة والهرسك مسألة منتهية، وأضافت البلاغات أن بلغاريا التابعة اسمياً لتركيا حسب معاهدة برلين أعلنت استقلالها بموافقة النمسا دون استشارة روسيا أختها السلافية الكبرى . وهذه هي المرة الثانية التي تبحر فيها كرامة روسيا في البلقان .

وفي سنة ١٩٠٨ كان « برميل البارود في البلقان » هي العبارة التي تعددت إذاعتها في جميع صحف أوروبا . وكان كل عمل يحدث من جانب واحد في هذه المنطقة — لاشك — يثير أزمة دولية . وكان السخط في الصرب قوياً حيث تبدد حلمها بالوحدة السلافية وأعلنت بلغراد تعبئة ١٢٠٠٠٠ مقاتل . وكان وقع الأزمة في روسيا مماثلاً لما في الصرب .

وملاً العطف على الصربيين المظلومين قلوب إخوانهم في روسيا وأحزن نفوسهم، وسرى في جميع العواصم الأوروبية الحديث بما يفيد توقع نشوب الحرب في أية لحظة .

لقد أصبح إزفولسكى في مركز حرج . لقد ملأت النمسا سمع العالم بأن روسيا بمساعدة إزفولسكى وافقت على ما فعلته النمسا . بل لقد ذهب وزير خارجية النمسا إلى وضع إعلان في مكتبته لتخليد « ذكرى الحوادث العظيمة الأهمية للنمسا التي تضمنت موافقة إزفولسكى على ضم البوسنة والهرسك » . وكان من العسير في تلك

الظروف أن يحتج إزفولسكى على هذا الكلام . ولم يجد تفسيره له في سانت بطرسبرج أذاً مصغية . وأخبر القيصر دون الوزراء بما يعتزم القيام به . كان أمله الوحيد أن يؤكّد مطالبته بالتعويض الذى وعد به في بوشلاو . وقد دعا بأعلى صوته مطالباً بعقد مؤتمر للموقعين على معاهدة برلين لبحث مسألة البوسنة . وكان يعتقد أنه سيكون للمؤتمر قنّدتان : إذلال النمسا ، وإعادة بحث مشكلة المضيقين .

وفي لندن - حيث انطلق إزفولسكى من باريس - لم تقابل بارتياح فكرة السماح للأسطول الروسى بواج البحر المتوسط ، وهو طريق بريطانيا الرئيسى للهند . وكل ما حصل عليه السياسى الروسى من الإنجليز إجابات أدبية فيها هروب من الموضوع ، أما في باريس فالترضية الوحيدة التى حظى بها في إحدى المقابلات السياسية الرائعة ، هى سماع رئيس الوزراء الفرنسى كلوسونيجي السفير النمساوى المضطرب بصوت مرتفع قائلاً : « حسناً ما أسرع انتهاءك من وضع النار في أربعة أركان أوروبا ! »

وإذ أحس إزفولسكى بخديعته ويأسه قصد إلى برلين . وكان القيصر غاضباً بسبب لعبة سفير حليفته النمسا ، وسبب « ذلك اليهودى إيريتال لافرادم بالعمل » . ثم قال « لماذا أكون أنا آخر من يعلم في أوروبا » . وكان غليوم يود ألايتورط في المنافسة التى بين روسيا والنمسا في البلقان وقد تورط من قبل . وكان يؤمله ذكرى زيارته لتركيا كما يؤمله ذكرى أحاديثه الملهمة في أثناء تلك الزيارة .. والآن تحتطف حليفته إقليميين من أصدقائه الأتراك .

وشرح صدر إزفولسكى دعوة للغداء وصلته من قصر ألمانيا ، ولكنه ظل مغتبطاً طول الوقت ، ثم خرج الإمبراطور من القصر بعد الظهيرة بوقت قليل . ولم يتمكن من التحدث في مشكلاته إطلاقاً ، وكان مضيفه يقصر حديثه على المسائل التافهة . ولما قابل مستشار القيصر وأنباه أنه في ضيق شديد لم يتأثر بيلوف بكلامه .

ولم يكن في وسعه أن يعمل شيئاً له، وإنما نصحه أن يكبح جراح الصربيين النافرين.
ولما وصل إلى سانت بطرسبرج حيث يجب أن يعود، أخذ يحظر الدول
الأوربية بوابل من المذكرات. وبلغ التوتر أقصاه في ديسمبر عندما توقع الجميع
غزو الصرب. وفي ذلك الوقت كتب قولاً لعل يوم أن يكبح جراح حليفته.

ومما كتبه له « يجب أن تدرك الموقف الدقيق الذي أكون فيه لو أن النمسا
أعلنت الحرب على الصرب. لحفظ السلام لابد أن أختار واحدة من اثنتين :
إما إرضاء ضميري وإما إرضاء العواطف الجارحة لشعبي ».

وكتب قولاً لفرانسيس جوزيف يشكو من نفاق إيرنتال.

ولم يتأثر إمبراطور النمسا، ولم يفقه سبباً لما يشغل بال الروس. إنهم وافقوا على
الضم. ألم يوافقوا عليه؟. لقد اتخذ الإجراء لوقف ثورة الصربيين على الدولة الثنائية.
إن التوسع لا يهم النمسا مطلقاً. لقد أبان إيرنتال مؤكداً له ألا خطر مطلقاً من
هذا الضم، وإلا لم يكن ليوافق عليه. ثم إنه أجب على خطاب قيصر روسيا بهذه
الكلمة القاترة :

« عندما أبلغنا وزير خارجيتكم أن ليس لدى روسيا اعتراض على الضم لم يتوهم
وزرائي أن هذا التصريح صادر منه لا من الحكومة الإمبراطورية. وأنه لم يصرح
له بالإدلاء به ».

وفي يناير سنة ١٩٠٩ كانت جيوش النمسا وروسيا مستعدة للقتال، وعرضت
إنجلترا وفرنسا وإيطاليا أن تتدخل، ودعت ألمانيا لتشارك في تهدة الجو، ولكن
بيلاف كان له رأى آخر.

كان المستشار الألماني في الستين، ولم يكن موضع ثقة القيصر في الأيام

الأخيرة ، ويعلم أن أيامه الباقية في العمل قليلة ويرحب بالفرصة التي تهيات له ليظهر في دور باهر على مسرح التاريخ . وكان محبوباً ذكياً أنيقاً موهوباً بسرعة الخاطر . وكان من تلاميذ بسمارك . وكان أهم ما يعجبه فيه تكرس حياته لتقوية بروسيا ، وكان من مفاخره أنه يتخذ قدوة له في تصرفاته السياسية .

وقد قضى معظم حياته في الأعمال السياسية ، وارتقى بكفافته من كاتب في إدارة التشريع إلى أن صار رأس الإدارة الخارجية الإمبراطورية قبل أن يكون مستشاراً . وكان على رأس الهيئة السياسية ، كما كان كل من إزفولسكي وإيرنتال ولكنه كان أفضل منهما في معالجة المسائل السياسية . وكان أكثر منهما استقامة وأحد ذهناً ، ولكنه لا يبلغ منزلة بسمارك في تقدير الخط الذي يكن وراء النصر .

قال للقيصر مرة على سبيل الفخر « إني اعتمدت على كفايتي وقوتي في ضبط الأمور حتى لا يحدث الاصطدام بين القطار الروسي والقطار النمساوي » .

وكان الموقف فريداً لإظهار الدقة والحصافة ، دون اهتمام كبير بمستقبل الأمور . كانت روسيا غير مستعدة للحرب بعد أن أنهكتها الاضطرابات الداخلية ، ولم تنق بعد من حربها مع اليابان . وأبدت لها حليقاتها إنجلترا وفرنسا أنهما تعدان نزاعها مع النمسا على الصرب لا يتطلب منهما إلا تأييداً سياسياً ليس غير .

وما إن اعترفت تركيا بالضم نتيجة لضغط ألمانيا وإرشاد النمسا لها ، حتى صب إيرنتال على الدول وابللاً من المذكرات لا يطلب فيها اعتراف الصرب باغتصاب الأقاليم الشقيقة فحسب ، بل يطلب منها توقيع تعهد بحسن السلوك مستقبلاً . وعدم الاحتجاج والكف عن الاعتداء على الدولة الثنائية ودوام حسن الجوار ، فضلاً عن تحذير بالغ الشدة أرسل إلى روسيا في ذلك الحين .

ثم جاء دور ألمانيا في العمل . ففي ٢١ من مارس سنة ١٩٠٩ ذهب السفير الألماني في سان بطرسبرج إلى وزارة الخارجية ومعه تعليقات صارمة من برلين ، وكان يطلب تأكيداً من روسيا بقبولها المذكرة النمسية وموافقها دون أى تحفظ على إلغاء المادة الخامسة والعشرين من معاهدة براين ، ويطلب من السيد إزفولسكى ردّاً صريحاً إما بلا وإما بنعم .

وقرر مجلس الوزراء الذى انعقد على جناح السرعة أنه ليس أمامهم إلا ازدراء الإنذار . وأجبرت روسيا على احترام الأمر الواقع فى البوسنة والتنجى عن مسألة الصرب كأنما هى ثعبان سام . (وبعد أسبوع قبلت الصرب المطالب المزيرة التى وجهتها النمسا إليها) .

وقال إزفولسكى للسفير البريطانى « إنها جرعة مرة ، ولكن المشروع الألمانى النمسى كله أعد بعناية ونفذ فى الوقت المناسب . وبعد أربع سنوات أو خمس سنسترد روسيا قوتها وتستطيع أن تتصرف تصرفاً آخر » .

وكان ييلوف راضياً عن النتيجة التى وصل إليها بفعلة سيفه . وأجبر أوروبا بالتهديد بالحرب على أن تغفر للنمسا جريمة السلب التى اقترقتها فى البلقان ، وأظهر لروسيا أن حليفاتها ليست أهلاً للاعتماد عليهن . ثم إنه أعلن مفاخرأ « أن قوة ألمانيا البرية كسرت حلقات الحصار الذى كان يحيط بها » .

ونظراً إلى أن مصالح إنجلترا وفرنسا الحيوية لم تهدد ، فقد حولتا نظرها إلى جرة أخرى بينما كانت المعاهدة التى وقعتاها تنتهك حرمتها .

وبهذه المناسبة قالت صحيفة التيمز تهون من أمر الأزمة فى كلمة قصيرة « هكذا يمكن أن تثق كل الوثوق بأن خطر الحرب قد زال » . وتذكرنا هذه الكلمة

باللباقة التي قبلت بها أحداث ميونخ بعد عشرين عاما من هذا التاريخ. لقد زدت الدول حينذاك على ما حدث بكلمة عابرة .

نعم زال خطر الحرب ، ولكن الوسيلة التي جاءت الأزمة عن طريقها والأسلوب الذي قضى به على الأزمة ، كليهما يجعل كل مفكر في أوروبا يرتعد فرقا .
وفعلا لقد ارتعد بعض الناس من أجل السلام الذي يعتمد على الملوك والوزراء ، الذين كانوا يتصرفون في شئون دول العالم الكبرى على طريقة حكام القرن الثامن عشر ، الذين يستمدون سلطانهم من الحق الإلهي ، ويتقاتلون للاستيلاء على إحدى المقاطعات ، أو يريقون دماء شعوبهم انتقاماً لكرامة سفير أهين .

أما النتائج المادية للأزمة الدولية التي تسببت عن تلك الولاية التي أقيمت في القلعة المورافية ، فمن العسير المبالغة فيما ترتب عليها من النتائج .

وكانت إحدى هذه النتائج — وليست بأقلها شأنًا — نقل إزفولسكى من وزارة الخارجية الروسية سفيراً لروسيا في باريس ، وهناك ظل يعمل إبان بضعة السنوات الحرجة في حماسة قوية في تضيق وثاق التحالف الإنجليزى الفرنسى الروسى حول عنق ألمانيا والنمسا ، بينما كان مساعدوه يغرون الصحف عن طريق الرشوة على العمل على زيادة التوتر والتعصب بين الشعب الفرنسى ، وفي هاتين المهمتين كان يعمل مع ضباط أو موظفين فرنسيين في الجيش أو في وزارة الخارجية أو في الشرطة . وبينما كان إزفولسكى يعمل عمله هذا في باريس ، كان خلفه في سان بطرسبرج سazanوف — المرعوس السابق له ، والذي كان يرى فيه القدرة الحسنة على محاكاته في تصرفاته — يثير ضد النمسا جميع أنواع الحروب الروسية الظاهرة والمستترة في البلقان .

وقد كتب سazanوف سنة ١٩١٠ إلى وزيره في بلغراد — هارتوج —
(م — ١٤ الأسر)

أن النمسا رغم زوالها لألمانيا في الأسلحة في حالة ضعف شديدة . . . وممتلكات الصرب التي هي موعودة بها تقع الآن في مدار دولة النمسا . وفي هذه الظروف يكون من الأهمية بمكان عند الصرب أن تبذل كل جهد حتى تستعد لمواجهة الحرب القادمة التي لا شك في وقوعها .

وفي الصرب نفسها كان رد فعل الأزمة شديداً كما كان متوقفاً ، وسنرى مقدار ذلك في فصل قادم . ولم يخف وقعها في دولتي الحلف الثنائي إبان التوتر والمصادمات الكثيرة .

وتبدأ المؤرخ الفرنسي ألبرت سوريل فقال « عند ما يغادر التركي فراش الرجل المريض ، فسوف تحمل النمسا محله فيه » . مع أن الرجل المريض ظل في فراشه رغم قيام الشبان الأتراك بثورتهم . إلا أنه في سنة ١٩٠٨ سارت النمسا نحو عنبر المرضى ، ومن المؤسف أنه لم يكن هناك حجر صحي يمنع انتشار العدوى .

ولكن في ألمانيا كان لأقوال إزفولسكي غير الحصيفة ، ودفاع إيرتال عن نفسه - ذلك الدفاع الفاشل - أسوأ العواقب . وإذا نسي ييلوف نصيحة بسمارك ألا يربط عجلة السياسة الروسية الأنيقة بالقاطرة النمسية العتيقة ، رسم بموافقة القيصر ومشاركته سياسة النمسا الانتحارية في البلقان .

ولقد تبدل الطابع الحربي للاتفاق بين دولتي الوسط تبديلاً كاملاً . فإن القرار الذي اتخذته ألمانيا لمساعدة النمسا ، إذا غزت الصرب وتدخلت روسيا ، لا شك قد وضع ألمانيا من الناحية الحربية في وضع ضاربها . فإن لروسيا حليفة هي فرنسا . وهذه ولو أنها غير ملزمة في جميع الأحوال قد تساعدنا بإعلانها الحرب على الدولة الثنائية ، وفي هذه الحالة ، في أي اتجاه توجه ألمانيا ضرباتها الأولى ؟ .

هذا هو السؤال الذى وجهه الجنرال هوتزendorف كبير المجلس الحربى النمساوى
فى مكاتبات متبادلة بينه وبين الجنرال مولتك الألمانى فى يناير سنة ١٩٠٩ .
وكان رد مولتك فى غاية الصراحة القاسية « إن خطته تقضى بأن يلقى أولاً
بالقوات الألمانية الرئيسية على فرنسا » .

وهكذا تحولت المعاهدة الدفاعية التى عقدها بسمارك - على ما ذكره صحفى
ألمانى جرىء - « إلى معاهدة هجومية تكلفت بها ألمانيا - بكل فرسانها ومعاداتها
الحرية وقواتها البحرية - أن تريق دماءها من أجل سياسة النمسا فى البلقان » .
وأشوأ من هذا أن قرار توجيه الضربة الأولى إلى فرنسا ، قضى على كل أمل فى
قصر العمليات الحربية إذا وقعت على الجنوب الشرقى من أوروبا . ذلك لأن أية
حرب بلقانية تقتضى اشتراك النمسا وروسيا فيها مستصير تلقائياً حرباً أوروبية عامة .
وإذا كانت الضربة التى توجه إلى فرنسا ذات القوة الحربية الحديثة لا أمل
فى نجاحها إلا إذا نفذت بمنتهى السرعة ، فإن خطة مولتك الحربية المبنية على
خطة شليفن المشهورة^(١) تقتضى عدم التأخر فى سير الحملات الحربية وتوجيهها
رأساً عبر الحدود الفرنسية . فإذا ما تحركت الجيوش فلن يكون من الممكن وقفها
إلى أجل دون تعريض الخطة إلى الخطر .

وعامل الوقت يقدر فعلاً قبل سير الحملة أية حركة سياسية من شأنها وقف
الحرب بعد ما تصل الأزمة إلى درجة معينة . وفى عصرنا الحاضر قصر الوقت بين
إعلان حالة الحرب وقيام الحرب الفعلية إلى حسابان الوقت اللازم لوصول

(١) وضعت خطة شليفن الذى كان رئيس الهيئة العامة للجيوش الألمانية سنة ١٨٩٩
تم نقحت ووضعت فى وضعها النهائى فى مدى السنوات الست التالية . وهى تستدعى الهجوم
الألمانى الكبير على شمال فرنسا عن طريق بلجيكا التى يتهك حيادها وبذلك يكون مؤكداً محاصرة
معظم الجيش الفرنسى وهزيمته فى موقعة فاصلة .
(المؤلف)

قذائف القتال . ولكن قبل سنة ١٩١٤ كانت الجيوش تجتمع على رؤوس الطرق وتسير إلى مواقع القتال بالآلات تدفع دفعاً إلى ساحة الحرب ، بينما أحذية المشاة وآلات المدفعية تسير ويئدة في طرقات القرى الملتوية النائمة . وكان بين حدوث الأزمة السياسية وقيام الحرب الفعلية فسحة من الوقت ، كانت على ضيقها تسمح بقيام رسل السلام بمجهوداتهم الأخيرة . ثم إن قادة الجيوش الألمانية وهم يدرسون في مدى عشرين عاماً أسلوب الهجوم السريع قد ضيقوا الثغرة بين إعلان الحرب وتنفيذها .

ولكى ندرك قسوة الموقف يجب أن نختبر عن قرب شخصية غليوم الثانى . السيد الأعلى للحرب ، وهو الذى يدير ولو نظرياً عمليات الحرب الألمانية الدقيقة ، كما يجب علينا كذلك أن نتفهم تلك الاتجاهات الحديثة المشثومة فى ذلك المجتمع المندفع الذى أوجده وأوجدتها .

الفصل الثامن

عليوم الثاني على حاة الهاوية

كان على اليانو فى حجرة الاستقبال فى كثير من البيوت الألمانية قبل الحرب صورة لغلوم الثانى فى إطار من الفضة ، وممورة بتوقيعه بخط دارج يدل على شىء من العصية . والصورة تعبر عن العظمة فى لباس القائد الأكبر للبحرية الألمانية وهو ممسك بتلسكوب كبير تحت ذراعه اليسرى . ويبدو شىء من العبوس فى وجهه وقد برزت ذقنه وقتل شواربه على النمط العسكرى ، ووضع يده اليمنى على الشريط الذهبى الذى يزين الحزام ، ويده اليسرى ممسكة بمقبض سيفه . وعلى صدره عدة صفوف من الأوسمة وعدة من الأشرطة تحيط بكتفيه . وأصغر نقطة فى الصورة تدل على أنه الإمبراطور ، وتنطق بوضوح بأنه هنا يقف الرجل الذى كان شعاره « إلى الأمام بأقصى سرعة » .

ولكن الصورة الفوتوغرافية مهما كانت رسمية لا تخفى الحقيقة إخفاء تاماً . فحافة القبعة تخفى شعر القيصر الذى دب إليه الشيب ، ولا يمكن أن تصرف النظر عن ارتحاء المنطقة التى فى أسفل فكهما حاول شدها بإبراز ذقنه إلى الأمام . ووقفته المسرحية والتنسكوب فى يده يبدو منها أنها حيلة لإخفاء التواء ذراعه اليسرى ، والعين الخيرة ترى فى النقطة السوداء صورة ناطقة لآثار جرح قديم . وكذلك كان وراء التصرفات والثروة التى جعلت من غلوم « طفل أوروبا المزيج » مايرينا الطفل الكسيح فى أيامه السالفة وهو يحاول لفت نظر أمه إليه وهى تولى وجهها عنه فى عناد وخجل وألم شديد ، ومع ذلك فإن عينيه المعترتين هاهنا مايلفت النظر فى هذه الصورة المفضلة؛ فى نظراته المستقرة بل المغناطيسية ما يكذب كل مايراد من الصورة أن تعبر عنه أو تنطق به ، وتحت قناع الرضى والتحدى يكن الشك

القاتل . ومن خلال النظرة التي تدل على العزم والرجولة يشم الإنسان رائحة الرعب الواضح . وأمير البحار يرى واقعاً في مكان القائد للباخرة في أبهى حلة له ، وكل الآلات تتحرك طوعية لأوامره ، ولكن دفة السفينة مشلولة الحركة من أثر اصطدام مروع ، والآن فقط ابتداء يدرك ذلك .

وسواء أكان القيصر يعرف الحقيقة أم لا يعرفها — وهناك ما هو أدل من الصورة على أنه يعرف الحقيقة — فإن التشبيه البحري السابق ينطبق على الحالة انطباقاً لا بأس به . ولقد كانت ألمانيا الإمبريالية في الواقع إيان سنوات السلام الأخيرة أشبه شيء بسفينة تسير بأقصى سرعتها نحو الدمار وقد أفلتت من قيادة ربانها . أو على رأى المؤرخ البريطانى الذى استعمل في وصفه تشبيهاً مستعاراً من اليابسة — أنها كالمقاطرة التي جرت دون قائد يقودها . ومن المعروف على وجه التقريب متى حدث الانهيار الجزئى في نظام الحكم في الإمبراطورية . ويبدو أن الحادث الفاصل وقع بعد أزمة البوسنة سنة ١٩٠٨ — ١٩٠٩ ، وكان النجاح الظاهر لسياسة اليد الحديدية الألمانية الذى حدد نهاية الأزمة هو في ذاته عامل له أهميته .

ولاشك أن غليوم يقع عليه بعض اللوم، فإن روحه الحرية واعتداده وعبارات الفخر التي يتحدث بها على الدوام كل ذلك كانت له صورة بارزة في النفوس . ولربما كانت الصورة خاطئة ومضللة . فلقد كان غليوم فظاً غليظاً ولكنه كان أبعد ما يكون عن رجل الحرب الذى صورته خيال قراء الصحف في إنجلترا وفرنسا وروسيا ، ولكن هذا الخطأ طبيعى ولو أنه كان نتيجة للدعاية المتعصبة في هذه الدول . ومنذ أن ولى العرش في التاسعة والعشرين من عمره كانت روحه الحرية تسيء إلى رجال الملوك في أوروبا وتلقى الرعب في وزارات الخارجية .

أهدى الإمبراطور غليوم مرة — في أول عهده — إلى السفارة الألمانية

في باريس صورة زيتية له في الحلة السوداء لقائد فرقة شاهر عصا المارشالية ،
وكان فيها من التحدى ما جعل أحد التادة الفرنسيين البارزين يقول عند رؤيتها
« إن هذه الصورة هي إعلان للحرب » .

وكان رده على التصريح الذى صدر عن مؤتمر لاهاى للسلام سنة ١٨٩٨
أنه قال :

« أيمكن أن نتصور قائداً أعلى للجيش يسرح جيوشه المنتصرة ويعرض
بعمله هذا بلاده لأن تكون طعمة للفوضيين والغوغاء » . وقال في فرصة أخرى
بمناسبة هذا المؤتمر نفسه « إني أثق بالله وبسيفي المسلول ، وإني على
كل قرارات المؤتمرات الدولية » .

وعند ما أعلن إميل لوبيه رئيس جمهورية فرنسا استعدادة لاستقبال
القيصر في باريس متحدياً الأفكار التعصبية المعارضة ، رد القيصر على هذه النية
الكريمة بخطاب ألقاه على جيشه جاء في ختامه « إن أمر اليوم : حافظ على بارودك
جافاً وعلى سيفك حاداً ، ولن تكن يدك دائماً على مقبض سيفك » . وأهم من هذا كله
الخطاب الذى لا ينسى مطلقاً ، والذى وجهه إلى أسطوله البحرى الذى أطلع
سنة ١٩٠٠ لإخاد ثورة البوكسير فى الصين ، وللانتقام للذبحة التى قام بها
المتعصبون هناك ضد سفراء الغرب بما فيهم السفير الألمانى :

« لا تؤووا أحداً . ولا تسجنوا أحداً . بل كما خلد الهون ذكرهم منذ
ألف سنة بقيادة مليكهم أتلا ، ولا يزال صدى ذكرهم مصدر فزع فى كل سمع .
كذا فلا يتردد ذكر الألمان فى التاريخ الصينى مدى ألف عام . ولتصرفوا حتى
لا يجرؤ الصينيون مطلقاً على أن يسيثوا معاملة الألمان » .

وقد لا يكون من الإنصاف أن يلصق رجال الدعاية من الحلفاء وصمة الهون بالألمان في أثناء الحربين العالميتين ، لأن القيصر ألقى ذلك الخطاب بمناسبة الحملة الاستعمارية التي اشتركت فيها ألمانيا مع القوات الغربية دفاعاً عن المصالح الغربية والمدنية الغربية . ولكن هذه القصة تمثل الوقع السيئ لكلمات القيصر التي يلقبها قسئاً إلى العالم أجمع^(١) .

وكان من سوء حظ ألمانيا أن يجيء مثل هذا الحاكم في وقت يكون فيه ظهور حاكمٍ عفيفٍ على المسرح العالمي مدعاة لسخط الدولة القديمة الوطيدة الأركان . وكان من سوء حظ غليوم أن تكون كل كلمة ألقاها مفخراً أو مهدداً ، يدعها حيازته لأفضل الجيوش عتاداً وأحسنها نظاماً ، ولقوة بحرية لا تفضلها إلا البحرية البريطانية ، ولسياسة تجارية متسعة تهدد جميع المصالح التجارية العالمية ، ولتسبة عالية في المواليد . وأخيراً كان من سوء حظ العالم أن يحمل حكم غليوم ورغبة ألمانيا في سيادة أوروبا دون إراقة الدماء في الوقت الذي اختل فيه ميزان الأمور في المجتمع الألماني . وزالت كل الضوابط وزادت حدة المطالب . وأصبح لبعض الهيئات السياسية والاجتماعية قوة عظيمة غير خاضعة لأي نظام . وكانت أخرج حقبة لهذه الثورة — كما ذكرنا من قبل — المدة ما بين سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩١٤ . ولكي نفهم فيما صحیحاً أحداث هذه الحقبة يجب أن ندرس منشأ أسرة هوهنزولرن وتاريخها وتاريخ مستنقعات بومرانيا التي صارت في أقل من ثلاثة قرون إحدى القوى العالمية — روسيا .

(١) مما يذكر من الأمثلة على كلام القيصر الذي يسرف في النطق ، أنه قال مرة لطبيب الأسنان الأمريكي الذي يعالجه « لا تهتم بما يصيبني من ألم . أنا لا أشعر مطاقاً بالألم » (المؤلف)

بلغت أسرة هوهنزولرن شهرة عريضة، وصارت صاحبة أملاك واسعة على رأس دولة أقامتها من العدم. إن مملكة بروسيا من صنعها، وتاريخ الأسرة وتاريخ بروسيا شيء واحد .

وقبل القرن السادس عشر كان لفظ بروسيا يعنى الأراضي الواقعة في الشمال الغربى من بولندا فيما وراء حدود الإمبراطورية . وتم الاستيلاء عليها بالانتصار على شعب وثنى على بحر البلطيق يسمى بالبروسى في القرن الثالث عشر ، واستعمر هذه الأراضي جماعة من فرسان الألمان الصليبيين . والهوهنزولرن أمرة من الإقطاعيين كان مقرهم الأصلي في سوابيا غير بعيد عن مقر آل هابسبرج . . وفي القرن الخامس عشر ارتقوا عدة درجات في السلم الإقطاعى حتى صاروا رؤساء مقاطعة براندنبرج في شمال ألمانيا . وكان جزاؤهم على اعتناقهم مذهب الإصلاح الدينى استيلاءهم على المنطقة التى عرف اسمها بمملكة الهوهنزولرن . وفي سنة ١٥٢٥ حرر أحد أفراد الأسرة أراضي الفرسان التيوتونيين وضمها إلى أملاكه وهى التى صارت دوقية بروسيا الوراثية .

وفي القرن السابع عشر كانت لأسرة هوهنزولرن أوسع الممتلكات في الإمبراطورية بعد الهاابسبورج . ولو أن ممتلكاتهم هذه كانت مبعثرة ، وتكون بعضها من مساحات رملية أو مستنقعات أو غابات من الصنوبر . وكان شرقي نهر الألب أراض منها قليلة السكان، بها بعض السلافين الذين قهروهم ، بمن كانوا أقل منهم مدنية وأبعد منهم عن حياة البلاط والأمراء . تلك كانت نشأت الهوهنزولرن والأساس الواهى الذى شيدوا عليه ملكهم الكبير .

ويمكن أربعة من أفراد أسرة الهوهنزولرن الطموحين من تأسيس القوة

البروسية الحديثة في الحقبة ما بين أواسط القرن السابع عشر والثورة الفرنسية :

ووحيد فردريك وليم (١٦٢٠ - ١٦٨٨) شطرنى ممتلكات الأسرة — براندنبرج وبروسيا — في دولة مستقلة رغم عدم اتحاد حدودها . ثم جاء خلفه فردريك الأول وأقع الإمبراطور بالاعتراف ببروسيا دولة ملكية . ثم إن فردريك وليم الأول أعد الجيش البروسى ليكون عدة بروسيا القادرة دائماً على إحراز النصر ، ثم إن ابنه فردريك الأعظم استخدم فعلا هذه العدة وأمكنه بالإقدام والكفاية أن يهزم جيوش أوروبا المجتمعة . ووحيد أجزاء مملكته المتفرقة في دولة واحدة قوية . وهى لها أساساً للصناعة فيها بانزاعه مناجم سيليزيا للفحم من ماريا تريزا إمبراطورة النمسا .

والروح الحربية كانت إحدى صفات أسرة هوهنزولرن منذ نشأتها . لأن القوة وحدها هى الدعامة الوحيدة التى يستند إليها فى جمع شتات دولة متفرقة فى جميع مقوماتها ، ليس لها تاريخ ولا ثروة وكاد ألا يكون لها شعب . (وكان على الهوهنزولرن أن يشجعوا الهجرة لتعمير البلاد) ومن أقوال فردريك وليم الأول « إن كل رعيى ولدوا جنوداً » . قال ذلك عندما أعلن الخدمة العسكرية الإلزامية فى بروسيا ، وهذا الموقف جدير بالحاكم الذى خلق رعيته بدلا من أن يكونوا سبباً فى وجوده .

والروح العسكرية لم تؤثر بطابعها فى كفاية الجيش البروسى فحسب ، بل كان لها أثر فى التعليم البروسى التقليدى ، وبالتالي فى الخلق البروسى .

وفى أثناء شبابه كان الأمير الهوهنزولرن الذى سيصبح عما قليل فردريك الأكبر يعيش عيشة بوهيمية مع ميل للفنون . صبه أبوه فى قالب جديد ، أحيانا بالحبس ، وأحيانا بإعدام أحد زملائه أمام عينيه . وكانت أثار حياته الفنية ظاهرة فى

علاقته بعد ذلك بفولثير والحفلات الموسيقية . ولكنه في شبابه لم ينس مطلقاً أن كل حا كم من أسرة هوهنزولرن ليس له في حياته إلا هدف واحد وشاغل واحد وملهاة واحدة — تنشئة بروسيا .

وقصة تعليم فردريك لاتبين لنا قسوة التقاليد البروسية فحسب بل تكلفها وشذوذها . وكانت بروسيا في أعين حكامها والصفوة من أبنائها معقد آمالهم أكثر منها مثلهم الأعلى . وكانت خدمتها واجباً مفروضاً عليهم أكثر منها تطوعاً واختياراً . وكان فردريك الأعظم نفسه فريسة لهذه التقاليد .

ومما جاء على لسانه في إحدى اللحظات الحرجة في حياته أنه قال « سأحتفظ بقوتي أوفنى كل شيء ولو أدى هذا إلى أن يندثر اسم بروسيا ويهلك معي » .

وكان لهذه الكلمات صدق سىء في القرن العشرين ، وكانت دلائها على وجوب القيام بما لايمكن تحقيقه هي في الواقع المظهر المتكرر للتاريخ الألماني في القرن العشرين .

وتوفى فردريك قبل قيام الثورة الفرنسية بثلاثة أعوام ، ولما حاول خلفاؤه إرضاء نابليون أولاً ثم الخضوع له ثانياً فقد مهدوا السبيل لوضع ألمانيا في قبضة هذا المغامر الماكر . وكان نابليون دون قصد هو العامل الأساسى في قيام الوحدة الألمانية ، فإنه أخضع ما لا يقل عن مائة دولة ألمانية . كما أن جيوش الاحتلال الفرنسية هي التي ولدت القومية الألمانية .

وكانت عبارة « ليحيا العنصر التيوتونى » هي الصيحة الجامعة التى قادت الشعب الألماني في حرب التحرير ضد نابليون . ومع هذا ، فبعد مؤتمر فينا لم يبق هذا الشعار متفقاً مع روح العصر بما تضمنه من فكرة الوحدة الألمانية والإصلاح النيابى .

ثم صارت بروسيا عضواً في الحلف المقدس، وقنعت أسرة هوهنزولرن بمكانتها بعد أسرة هابسبرج الإمبراطورية . وعندما دعا الأحرار الألمان إلى عقد مجلس نيابي في فرانكفورت سنة ١٨٤٨ متجاهلين الملوك الألمان العديدين وقدموا إلى ملك بروسيا تاج الوحدة الألمانية المعترف بها لم يقبله . وقال ملك بروسيا ماقيمة تاج يهبه إلى جماعة من الأساتذة الثائرين يدعون تمثيل إرادة الشعب؟ وأعقب هذا حل مجلس فرانكفورت النيابي ووقوع ثورات قصيرة الأجل في عدة ولايات ألمانية بما فيها بروسيا قضى عليها وأعيد إلى ألمانيا النظام القديم ، ولكن إلى أجل قصير . فقد أعانت القوى المادية والنظرية جميعاً على السير في اتجاه الوحدة الألمانية . فالروابط الاقتصادية والشبكة الممتازة من سكة الحديد يزيد قوتها وحدة الجمارك في جميع ألمانيا باستثناء النمسا، جعلت من بروسيا نمطا فريداً ، باعتبارها أكبر الدول الألمانية وأكثرها سكاناً وأفضلها صناعة ، الأمر الذي بوأها مكان الصدارة ، وعقد لها لواء القيادة السياسية .

والذي أتم وحدة ألمانيا كان من أسرة هوهنزولرن ، كان جد القيصر غايوم الثاني ، وقد نسجت خيوط الوحدة على النمط البروسي ، من عل دون أية إشارة إلى إرادة الشعب، بين نيران ثلاث حروب ولجأ بروسيا الأعظم .

وكان غليوم الأول في الرابعة والستين عندما اعتلى عرش بروسيا . وكان على شاكلة أفراد الأسرة جاداً مقتصداً متشبعاً بالروح العسكرية ، معتقداً أن بروسيا التي افتقدت مكانها على رأس ألمانيا لم تبلغ هذه المكانة إلا بالقوة ، وأن القوة لا تكن إلا في جيش قوى . ولم يكن من الميسور أن يهضم البرلمان البروسي الإصلاحات العسكرية إلا في إبان حكم مستبد استمر أربعة أعوام كاملة . ولم يكن الحاكم المستبد إلا المستشار الحديدي بسمارك الذي استدعى للقيام بهذا العمل

سنة ١٨٦٢ ، وقد لبث ثمانية وعشرين عاما صاحب السلطان الأعلى على بروسيا وألمانيا وعلى ملكه وعلى السياسة الأوربية . وكان هدف هذا الرجل العقل الجاف ، البروسى دماً ولحماً ، فى غاية الوضوح مما قاله يوماً فى البرلمان إن المسائل الهامة فى وقتنا لا تحل بالخطب ولا بقرارات الأغلبية ، إنما تحل بالحديد والنار . وقد قضى بسمارك ست سنوات وخاض ثلاث حروب ليصل إلى هدفه .

وبعد ضياع أمل النمسا فى الزعامة على ألمانيا بعد هزيمتها فى سادوفا قام الحكم الائتلافى لشمال ألمانيا دون النمسا تحت زعامة بروسيا ، ثم اتسع نطاقه بانضمام بعض الدوقيات الألمانية والدانماركية . وقد شمل الائتلاف إحدى وعشرين دولة ألمانية ، ولكن كان من الضروري أن تتنازل الدول الأربع الألمانية الجنوبية عن كبرياتها ، وكانت هذه لاتعد الزعامة البروسية نعمة خالصة .

وكان بسمارك يعتقد — ولا يخفى اعتقاده هذا — أن مشقة الخلاف بين الولايات الألمانية الشمالية والولايات الألمانية الجنوبية لايزيلها إلا « حرب قومية ضد الشعب المجاور لنا صاحب الفتوحات القديمة (فرنسا) » . وعرف كيف يستفيد من صدور أحد التقارير فى إحدى الصحف وهو ما يعرف « ببلاغ من إمز » بأن قام ببعض المناورات التى أغرى بها نابليون الثالث بإعلان الحرب على بروسيا ، فأسرعت كل الولايات الألمانية للدفاع عن بروسيا فى حرب قومية . وبعد ثلاثة أشهر كانت الجيوش الألمانية المنتصرة تحاصر باريس حيث أعلنت جمهورية فرنسا . وحظيت القوة الألمانية والوحدة الألمانية فى القيادة البروسية بتقدير عظيم خالد على الأيام فى فرساي فى الثامن عشر من يناير سنة ١٨٧١ ، حيث أعلن قيام الإمبراطورية الألمانية ، التى تضم جميع الولايات الألمانية وولايات الإلزاس واللورين المضمومتين حديثاً من فرنسا فى بهو المرايا للويس الرابع عشر ، كما أعلن ملك بروسيا القيصر غليوم الأول إمبراطوراً لألمانيا .

وعندما حظيت أسرة هوهنزولرن بالتاج الإمبراطورى على أساس النظام الوراثى فيها احتفظت أيضاً بتاج بروسيا الملكى . ولم يحاولوا ذلك مع أية أسرة من الأسر الملكية فى الولايات الألمانية الصغرى . وبقيت هذه الولايات كما سئرى فيما بعد عنصراً هاماً فى نظام المجتمع الألمانى .

وكان الراجح الألمانى الذى خطط بسمارك قواعد دولة ائتلافية ، أراد أن يكون أساس دستورها إيجاد التوازن بين السيادة فى الملكيات الأربع والدوقيات الخمس الكبرى ، وثلاث عشرة دوقية أخرى ، والمدن الحرة التى فى الدولة وبين الدولة الموحدة . وكانت الولايات ممثلة فى المجلس الائتلافى (بندزرات) الذى له حق إصدار القوانين وتعديل الدستور بأغلبية ثلثى أعضائه .

وكان لبروسيا فيه — نظراً لأنها أكثر الولايات سكاناً — سبع عشر عضواً من مجموع الأعضاء الذين تبلغ عدتهم ٥٨ عضواً ، حتى إن هذا المجلس تحول تدريجياً إلى جمعية ممتازة للمناقشة . واحتفظت الولايات كل منها بدستورها ومجلسها النيابى وقوانينها الانتخابية وضرائبها المحلية ، كما كانت تدير شئونها التعليمية والدينية ، وتخلت للحكومة الائتلافية — التى يرأسها ملك بروسيا الذى هو إمبراطور ألمانيا فى نفس الوقت عن المسائل السياسية والجيش والبحرية والمواصلات والتجارة الخارجية ، كما كانت الضرائب أيضاً فى أيدي الحكومة الائتلافية .

وفى الريخستاج يجتمع ممثلو الشعب وهم ينتخبون بالاقتراع العام (ليس عاماً تماماً فبعض قوانين الانتخاب فيها محاباة للمحافظين والزراع) ، وليس للريخستاج إلا سلطان محدود على الحكومة الإمبراطورية ، لا يتجاوز اختصاصه رفض إقرار مصروفات تزيد على المصروفات الدائمة التى أقرها الدستور .

وللقيصر السلطة التنفيذية العليا . وهو القائد الأعلى للقوات الإمبراطورية البرية والبحرية . ويتولى الحكم عن طريق مستشاره الذى له حق تعيينه وإقالته . والذى هو مسئول أمامه وحده . وواجب المستشار أن يكون الوسيط بين القيصر والريخستاج . وكان ينجح عادة فى حصوله على موافقة الريخستاج بما يثير من الخلاف بين الأحزاب المحافظة الثلاثة . وكان يمثل المعارضة فى المجلس الديمقراطيون الاشتراكيون ونواب الطوائف القليلة العدد كالألمانكيين والبولنديين وأهالى الإلزاس واللورين . والأحزاب فى المجلس كانت تمثل المصالح أكثر من تمثيلها للعقيدة والرأى .

وكان موقفها على الجملة ينطوى على احترام الحكومة . ومع كل ذلك كان للاستشار أن يحل المجلس إذا رأى منه ما يضايقه . وكثيراً ما استعمل حقه هذا كما فعل سنة ١٩٠٦ عندما عارض الكاثوليك والاشتراكيون نظامه الاستعماري وأبوا الموافقة على الاعتماد الذى طلب إقراره من المجلس .

ويقول إميل لودفيج المؤرخ الألماني أن الدستور البروسي والدستور الألماني ملوأن بالتناقضات ، والمسئولية تتأرجح بين الملك ورئيس الحكومة المستشار ، ثم ترد إلى الملك ثم تختفى نهائياً من خلال الثغرات التى لا يعرف كنهها . والواقع أنه لأحد فى بروسيا ولا فى ألمانيا يعد مسئولا بالمعنى السائد اليوم فى جميع البلاد الأوربية . ويؤكد إميل لودفيج أن الملك الإمبراطور يتحمل المسئولية ، ويقول « إن المسئولية الوحيدة التى تحمى من سلطانه هى من حق المجلس فى عدم الموافقة على المصروفات » .

ولاشك أن الغموض فى الدستور الألماني وما يتيح لأصحاب السلطان من التهرب من المسئولية قد عرض الحكام فى القرنين التاسع عشر والعشرين إلى (م ١٥ - الأسر)

إلى الجرى وراء مطامع كانت من طبيعة الحكم الاستبدادى فى القرن الثامن عشر . ولم تكن الحقوق التقليدية التى كسبتها أسرة هوهنزولرن ، ولا نشأة الإمبراطور غليوم الثانى التى ربي عليها لتثنيه عن المطامع . وإن فشله فى هذا الميدان قد جر أسوأ النتائج عليه وعلى ألمانيا .

وإمبراطور المستقبل غليوم الثانى الذى عمد باسم فردريك ولهم فكتور ألبرت ولد فى بوتسدام سنة ١٨٥٩ ، وكان أبوه فردريك أكبر أبناء ولى العهد . وبدأ فرتر الصغير — وهو الاسم الذى كان يدعى به فى الأسرة — حياة حزينة لا تبشر بالخير ، وكانت أمه الأميرة فكتوريا ابنة فكتوريا ملكة بريطانيا يمنحها أن يكون ابنها الأول ذلك الطفل المريض . وكانت غير راضية عن علاج الأطباء الألمان الذين عجزوا عن شفاء ذراعه الأيسر المشلول ، كما كانت غير راضية كذلك عن السلوك غير الإنجليزى ، الذى كان سائداً فى أسرة زوجها . ولم يكن القران غير متكافئ ، فقد كان لفردريك آماله . ولكن ابنة الملكة فكتوريا تكاد ألا يبهر عيونها أن زوجها قد يحظى يوماً ما بتاج بروسيا ، وهى إحدى للدول الأوربية الحديثة ، بل أهم دولة فى ألمانيا .

وكان غليوم فى الثانية من عمره عند ما ارتقى جده ولى العهد عرش بروسيا باسم غليوم الأول . وكان فى الثانية عشرة عند ما وقف جده نفسه فى قصر عدوه المهزوم فى فرساي ، وأصبح إمبراطوراً لألمانيا . وهكذا رأى قصة الوحدة الألمانية تمثل أمام عينيه بأحداثها القميئة ، وكان بطل القصة بطبيعة الحال ملك بروسيا المحارب — بطل سادوفا وسيدان — غليوم الأول . وكان منظر هذا الجد الفارع المنتصب القائمة هو الشعلة المتقدة فى طفولة الصبي الحزينة .

وكان غليوم يستاء من والديه ، وبخاصة أمه ، التى كانت تخلص بمحبتها

وأولادها الأصحاء ، ولا شك أن عدم حبها له كان له أثر في شعوره العدائى ، الذى ظهر فيما بعد نحو بريطانيا .

ولقد كان اعتزاز غليوم بروحه الحربية ، بعد أن صار قيصر ألمانيا ، كان محاولة منه أن يقوم على مسرح القرن العشرين بما يتخيله عن أجداد جده الحربية ، التى ملأ بها صحيفة طفولته البائسة .

ولقد كان لمحاولته العنيفة للتغلب على ضعفه الجسمانى والتحكم فى أعصابه المريضة حتى يصبح شاباً قوياً عنيداً — كما يرجو سلفه ، وبخاصة جده — أثر فى إخفاء خلقه الحقيقى . لقد تعلم أن يقضم على أسنانه — كأي شاب بروسى — فى أثناء علاجه القاسى بالكهرباء ، الذى لم يأت بشمرة فى شفاء ذراعه ، كما تدرب على خطى الأوز مع فرقة الحرس . ولكن النجاح النسبى الذى تكللت به جهوده كان مشجعاً له للأسف الشديد على ما أظهر فى التغالى والغرور فيما بعد (وكما يحدث دائماً فى مثل هذه الأحوال يوجد تحت الغشاء القوى مخلوق ضعيف واهن القوى) . وكان يعتقد أنه ضحية لأمة « الإنجليزية » ولآراء أبيه التحررية ، وأرسل للمدرسة العليا فى كاسل للدراسة مع بعض الشباب العاديين . ولما كان الغرور لا يغنى عن العمل شيئاً ، فقد كان ترتيبه العاشر من سبعة عشر طالباً تخرجوا فيها .

هذا ومع أن كفايته العقلية كانت فوق المتوسط بكثير ، إلا أن أساتذته تنفسوا الصعداء عند ما انتقل بعد دراسة القانون والاقتصاد السياسى — لمدة سنتين فى جامعة بون — إلى الحياة العسكرية فى وظيفة أحد ضباط الحرس .

وكانت أسعد أوقاته تلك التى يقضيها فى حجرة المائدة مع زملائه الضباط

في ميدان استعراض الجيش راكباً على رأس فرقة . وكان من أكثر ما يعتز به من الذكريات وقوفه وهو في الثامنة عشرة من عمره أمام الإمبراطور الشيخ . في الحلة التي منحت له حديثاً — حلة فرقة النسر الأسود — يقسم « أن يحى شرف البيت الملكي ويحرس الحقوق الملكية » .

وكان من البين تماماً أنه عقد العزم على أن يير بقسمه . ذكر إميل لودفيج : أنه كان من عادة غليوم — وهو ولي للعهد — أن يهدي صورته في عيد ميلاده . وأنه أرسل صورة فوتوغرافية له إلى إنجلترا وكتب تحت الصورة « انتظر الفرصة المناسبة » .

ولم يرق هذا التصرف والديه . وكان والده يضيق بهمام ولي العهد التافهة . كما كانت أمه غير راضية عن جرأته الآخذة في الازدياد .

وفي الثالثة والعشرين من عمره اقترن غليوم بالأميرة أوغستا فكتوريا من شلنبرج هولشتين . وكانت رشيقة جميلة ، نشأت على التقوى والبساطة ، منكرة للذات ، من الطراز الذي ينال إعجاب رب البيت البروسي .

وقد أنجبت لغليوم ستة أولاد نشئوا تنشئة الموهنزلونية التقليدية ، وهم : فردريك ولهم الذي كان عليه — بصفته ولياً للعهد — أن يقوم بدور هام في الحياة العامة الألمانية ، أيتل فردريك ، أدالبرت ، أوجستس ولهم ، أسكار ، جواشيم ، وبنت واحدة تسمى فكتوريا لويس ، التي كانت تهدي والدها في عيد ميلاده خفاً مزركشاً ، ومساحات للأقلام ، ومؤشرات لبيان مكان القراءة من الكتاب .

وكان عيد ميلاد غليوم في السابع والعشرين من يناير عيداً تحتفل به الحاشية .

كل عام . وكان عادة بدء الموسم في برلين . وفيه يرفرف العلم الطويل السنجابي فوق القصر الملكي في العاصمة للدلالة على أن الإمبراطور في القصر .

وكان مقر الأسرة أولاً قصر الرخام ، ثم القصر الجديد في بوتسدام . المحاط بالحدائق . ثم كان من عاداته الخروج كثيراً إلى مزارعه المجاورة . ومواطن الصيد حيث ينغمس في هوايته المفضلة ، يتبعه زوجه وأولاده والمريبات . ورجال الحاشية . وهناك تذبج الغزلان والخنائير والطيور البرية . والمكان المفضل عنده بيت الصيد في رومنتن شرقي بروسيا . وهو عبارة عن كوخ كبير مبنى من الخشب ومزدان بالرسوم الجميلة والفن القوطي الحديث .

وبعد ارتقائه عرش الإمبراطورية أعد حلة رسمية للصيد يعرضها لجميع ضيوفه . في رومنتن : سترة خضراء ذات أكمام ، وأحذية طويلة ، وحزام من الجلد تتدلى منه سكين للصيد ، وقبعة من الصوف محلاة بالريش .

ومع أنه كان ينتمد خاله إدوارد السابع ويشبهه « بالطاوس العجوز السخيف » ، إلا أنه كان ذو نفسه شديد الاهتمام بملابسه . وكان في خوان . ملابسه - الذي يقوم بخدمته اثنا عشر عاملاً - أكثر من مائتي حلة حرية . وكان أشبه بصاحبه القائد البازي جورج ، الذي كان مغرمًا بتقليده في اعتقاده الذي لا يزل عنه في أهمية مناسبة اللباس للظرف الذي يلبس فيه . فيينا يشاهد تمثيل قصة الهولاندى الطائر يلبس حلة أمير البحر . وفي فلسطين - ما لم يرتد لباس البدو - كان يلبس عباءة يزيناها صليب الصليبيين ، وكان من العسير جداً صرفه ذات يوم عن ارتداء ملابس قائد روماني لافتتاح متحف للآثار .

وكان غليوم في حياته العائلية الهائلة أيام ولايته للعهد أو بعد اعتلائه العرش

يعيش حياة الطبقة الوسطى ، التي ترى في كل بلاط ملكى حينذاك . وكان يذكر زوجته التي كانت توزع وقتها بين أولادها وأعمالها بأنها «الجوهرة المضيئة في حياته ، وجماع الفضائل التي تزدهر بها أميرة ألمانية » . وأما الأمسيات التي تقضى في الوسط العائلي ففيها الجو التوتوني الثقيل . فالقيصرة مشغولة بمحاكاة الملابس ، والقيصر بقراءة البلاغات ومقتطفات الصحف ، بصوت مرتفع أحياناً ، بينما الوصيفات وموظفو البلاط يكتمون ثأؤهم من حين إلى آخر .

ومن الكلمات التي تسمع كثيراً وتلقى بأسلوب برومسي من الزوج لزوجته . « أنت لاتفهمين هذه الأمور » .

وقد كان يسره أحياناً أن يهرب من هذه الحياة كما أمكنه ذلك . وربما لم يكن من الخير أن مبادئ غليوم الدينية — وبقظة القيصرة — قد حالت دون تخلصه من متاعب الحياة الزوجية ، ولو أنه فعل فلربما كان حكمه أقل اضطراباً ، وأكثر استقراراً .

وكان يفضل وهو في دور الشباب الجو المناسب في نادى الحرس . حيث كان يهرب من التدريب القاسى الذى يقوم به استعداداً لحياته المستقبلية تحت قيادة بشاره . وكان يبدو أن هذا التدريب لن ينقطع ، وأن الإمبراطور الشيخ سيبقى على قيد الحياة بعد ولده والد غليوم .

وفي سنة ١٨٨٧ أصيب ولى العهد المسكين بالسرطان في حنجرتة . ولما عاد مسرعاً من سان ريمو في إيطاليا — حيث كان يرجو أن يحتفظ بالحياة — ليحضر وفاة الإمبراطور الشيخ ، كان قد فقد النطق ، وسار في الجنائز راكباً عربة مقفلة ، بينما كان غليوم نافذ الصبر مسرعاً على رأس الأمراء كلهم مخترقاً صفوف المشيعين .

ولم يطل انتظار غليوم ، ولما توفي والده في ١٥ من يونيو سنة ١٨٨٨ ، أى بعد ثلاثة أشهر ، كان هو مستعداً . لقد احتل القصر برجاله في اليوم السابق ، وعندما توفي الملك كان الحراس يستجوبون كل داخل إلى القصر وكل خارج منه . وكان يخشى أن تنقل أمه أوراقاً هامة لتضمن حفظها في إنجلترا ، وأمر أن يكشف على جسم والده المتوفى لبحث أسباب الوفاة إذلالاً لأمه ، لأنها كانت تنكر إلى اللحظة الأخيرة أن زوجها كان مصاباً بالسرطان .

وبدأ عهد غليوم بيلاعين معبرين عن روح غليوم . كان الأول منهما موجهاً إلى الجيش وفيه هذه الكلمات « ستقسمون فوراً على الولاء والخضوع لى . وإني أعد بأنى سأذكر دائماً أن عيون أجدادى تنتظر إلى من الدار الباقية ، وسوف أكون مسئولاً أمامهم عن مجد الجيش وشرفه » . والبلاغ الثانى نشر فى اليوم التالى موجهاً إلى الشعب الألمانى ويضرب على الوتر نفسه . جاء فى البلاغ « أما وقد دُعيت لأُعطي عرش آبائى ، فإني بعيون تتطلع إلى الله أقبض على صولجان الملك » . لقد تحدد أسلوب غليوم فى القول . إن أسلوبه يقتضى ورود لفظ الجلالة كثيراً فى سياق كلامه ، وغليوم الذى يقارن جده بشارلمان لا يشك فى قداسة تاجه ، وليس عجيباً أن يكرر ذكر الحق الإلهى للملوك . بل هو طبعى أن يضرب على هذا الوتر دائماً . إنه حديث عهد بالحكم . إن الحكم المطلق يجرى فى شرايين أسرة هابسبرج ستة قرون ، إن رضا الله عليه كان من الوضوح بحيث لا يحتاج الأمر إلى تردد ذلك .

أما قيصر ألمانيا فقد كان يشعر براحة أكثر إذا ما ظهر للملا ومعه حليفه السلاوى — وكما فى صور النهضة — كانت ترى صورة ذى الجلال عادى فى الثلث العلوى من المنظر الخلفى فى العمامة نفسها كما كان يراها أجداده المبعجلون ، بينما غليوم وسيفه

فى يده يذبح التين فى المنظر الأمامى من الصورة . وبعد انقضاء مدة من حكمه أصبح القيصر مقتنعاً بصلته الوثيقة بالله القادر ، حتى كان يقرأ القداس يوم الأحد . وربما كان يلقي الوعظ الدينى على ضيوفه وهم يستمعون إليه على ظهر السفينة هوهنزولرن وهم فى غاية الملل .

وكانت لغلوم نظرية تتضمن أن معظم ما بلغه العالم من تقدم هو من عمل عشرة من خوى العبقريات الجبارة اختارهم الله لهذا العالم خاصة . هامورابى وموسى وإبراهيم وهوميروس وشارلمان ولوتز وشكسبير وخبته وكانت والقيصر غلوم الأول . وما من شك فى أنه كان يعد نفسه من هذه المجموعة المختارة .

قال القيصر يوماً فى خطبة ألقاها فى كونجسبرج « نظراً إلى أنى أعد نفسى منفذاً لمشيئة الله ، فإنى ماض فى طريق دون اعتداد بأحداث الساعة أو آرائها » . ومع أن غلوم كان فى بعض النواحي رجلاً عظيم الدين ، إلا أن العبارات التى كان يلقها لم تكشف عن الشريك الأكبر فى علاقته الفريدة مع الله . ويقول كورنبرج كاتب تاريخ حياة غلوم إنه كان حريصاً دائماً على كتابة ضمير الغائب الذى يشير إلى الله بحروف كبيرة ، وكتابة ما جاء على لسانه بحروف كبيرة كذلك .

ولم يكتف غلوم بأن يدين بمبدأ الحق الإلهى الذى عفى عليه الزمن متحدياً بذلك دستور ألمانيا ودستور بروسيا جميعاً . بل حمله معنى جديداً فى الاستبداد يشبه مبدأ وحدة الساطان الذى كان يدين به لويس الرابع عشر .

وما كتبه فى الكتاب الذهبى لمدينة ميونيخ فى أثناء زيارته لبافاريا سنة ١٨٩١ « إن إرادة الملك هى القانون الأسمى » .

وحذر يوماً بعض رعاياه الساخطين بأن قال « لو فكرت يوماً مدينة برلين في أن ثور ضد مليكها ، فإن الحرس سيثأرون برماهم لخروج الشعب عن طاعة مليكه » .

ومن الطبيعي أن غليوم لا يقيم وزناً لا للنظام النيابي ولا للنواب الذين يشير إليهم في حديثه بأنهم « بوم أغبياء » .

ومن الغريب أن أعنف معارضة للاستبداد الموهنزولرني داخل البرلمان وخارجه لم تكن من الاشتراكيين ، بل جاءت من اليمين . أى من الأفريين الذين هم طبقة البروسيين ، وفوق ذلك من الأسرات الحاكمة والنبلاء في الدول الألمانية الصغرى . وكانت حاشية الأمراء بعض بقايا الماضي التي كانت لا شك تعوق تقدم الديمقراطية الألمانية . ولكنها كانت رائدة للحضارة الألمانية والوحدة الألمانية .

وفي عام ١٩٠٠ وجه لويتهولد الوصى على عرش بافاريا تحذيراً للقيصر جاء فيه « إن بافاريا لتحتج على ما وجه إليها من لوم ومن أنه ينبغي لها أن ترى من النعم عليها قبولها في الرايخ الألماني ... إننا نود أن ينظر إلينا لا باعتبارنا قسراً بل إخوة راشدين » .

ولم تكن المنازعات بين غليوم وزملائه ملوك ألمانيا الآخرين متعلقة دائماً بالمبادئ العليا ، فما يذكره رعايا دوق مكلنبرج شتريلتزولا يغفرونه للسيد الأكبر أنه ضرب مؤخرة حاكهم الشاب ضربة فيها شيء من الهزل ، وفيها أيضاً شيء من العظمة الإمبراطورية . وأرادوا أن يذكره أن الفضل الإلهي الذي يستمد الإمبراطور منه سلطانه ليس احتكاراً مقصوراً على أسرته .

وكان غليوم - كابن عمه نقولا الثانى وصديقه عبد الحميد الثانى - مؤمناً كل الإيمان بحكمة الشخصى ، وكان كذلك بسمارك . ولكن القيصر ومستشاره لم يكن لهما عقل واحد . وكان لابد أن يقع النزاع بين حاكم بروسيا المطلق والإمبراطور الشاب الذى باسمه يمارس هذا الحاكم المستبد سلطانه . وأخيراً انتهى الأمر فى مارس سنة ١٨٩٠ حول حق القيصر فى تحطى المستشار عند اتصاله بالوزراء . وبعد أزمة شديدة ظلت قائمة عشرة أيام حل المستشار على الاستقالة .

وجاء فى أحد أحاديث غليوم المعبرة عن زهوه بالانتصار أنه قال « لقد وقع على كاهلى واجب إدارة شئون الدولة . إن منهج العمل لا يزال كما كان ! إلى الأمام بأقصى سرعة » .

ولو نطق بمثل هذا الكلام الفخيم حاكم مسئول فقد لا تقابل بالاحترام كلماته . ولكن غليوم كان هاوياً . لديه ما لدى الهواة من كره للعمل والاضطلاع بالمسؤولية . وقد درس وحل كثير من كتاب السيرة خواصه الخلقية ، ومنها عقدة الكره ، الذى تحول فى نفسه من كره لأمه إلى كره لإنجلترا ، وصفيره الذى لا يقطع فى الظلام . ويؤيد ذلك ما نشر بعد ذلك من الأدلة . كما أن المذكرات التى نشرت سنة ١٩٥٩ لأمير البحر جورج ألكسندر فون مولر تشير إلى اضطرابه المرضى وما لديه من عدم الاتزان وضبط النفس والعجز عن القيام بالعمل بشكل منتظم . وعنوان مذكرات مولر « هل حكم القيصر » يدل على مرمى السكاتب من هذه المذكرات . وقد عاشره حوالى خمسة عشر عاماً وصفه خلالها بأنه رجل يعيش فى وحدة ، ليس له أصدقاء مخلصون ، ولا يستطيع أن يعيش مالم يكن محاطاً بجيش من المتلقين والمعجبين .

وكان القيصر يتولى الحكم فى جو يحوطه بالرعاية كأنه الممثلة الأولى القلقة

في إحدى المسرحيات . وقد صور هذا الجو أحد أصدقاء القيصر الجمين —الكومت أيلنبرج— وهو سياسى وشاعر ومغن ومحدث لبق ، ويكبر الإمبراطور باثنتى عشرة سنة . وكان من العجب العثور على صورة له يرى فيها ملتجياً ذا عيين فانتين ، فقد كان معروفاً برخاوته وسحره الآثم (سحر لم يؤثر في بسلامك الذى قال عنه إن له عيين يفسدان أشهى طعام) .

وبما سجله في مذكراته عن علاقاته الباكرة بجليوم قال : كان حبه لى قوياً .. وكان غنائى له يسره إلى حد الجنون » .

وكانت المشاعر الرقيقة الدافئة التى كانت ظاهرة بشكل واضح فى العلاقة بين غليوم وأيلنبرج وأحياناً بينه وبين ييلوف هى اللون الغالب فى الصداقات الاجتماعية فى ذلك الحين . وحكمك على القيصر يتوقف على نظرتك إليه بعين المعالج أو بعين الناقد . وعلى كل حال فإن أقسى تقاده يقررون أن هذه الصداقات التى كانت للإمبراطور كانت بريئة كما كانت من طراز خاص .

وقد حاول كثير من كبار الشخصيات تفادى المادة ١٧٥ من القانون الجنائى التى تتعلق بما اشتهر فترة من الزمان بأنه « الرذيلة الألمانية » ، ولكن منذ سنة ١٩٠٦ قامت حملة صحفية موجبة تدعو إلى الإصلاح الأخلاقى . واتهم أيلنبرج فى عدة جرائم أوقعه فيها بعض أعدائه . وأخيراً اتهم فى سنة ١٩٠٨ بالشذوذ الجنسى . وإذا كان ضعيفاً طول حياته ، فقد قل فى نقالة إلى ساحة المحكمة حيث عرضت علاقته بصياد بافارى يرجع تاريخها إلى عشرين عاماً مضت ، على أنها أحد أمثلة قائصه . وعلى أثر هذه المحاكمة تخلى غليوم عنه نهائياً ، وقد كان يتهمة الكثير بأنه كان عظيم الأثر فى ما كان عليه غليوم من حبه فض النزاع الدولى بالطريق السلمى .

ويعزى سبب فضيحة أيلنبرج إلى دس زميل له من البطانة التي تحيط بغليوم واسمه فون هولشتين الذي خلف بسمارك في وزارة الخارجية منذ سنة ١٩٠٦ .

وكان هولشتين هذا وزيراً، ولكن لم يكن له أى اختصاص رسمى . وكان يتخذ مجلسه فى حجرة مظلمة فيها على ما يقال ملف خاص لكل من له صفة فى براين . وقد اتخذ مكتبه الخفى هذا مختاراً لجعل منه مركزاً للدسائس ويشرف منه على جميع علاقات ألمانيا الخارجية .

وجرى العرف على أن يكون هولشتين هو أول من يقابله السفراء والوزراء المقوضون الذى يقدمون إلى براين . وكانت خطابات وبرقيات موضع اهتمام ، كما أن كثيراً من التقارير كانت توجه خاصة « للبارون هولشتين » . وكان من المعتذر الوصول إلى كثير من المكاتبات الرسمية لأنها فى مكتبه المغفل . وكان لا يتقيد بالعادات الاجتماعية ولا تهتمه الأوضاع الرسمية ، وكان يقابل القيصر مرة واحدة لأنه كان يخشى المسؤولية كما تخشى الحشرة النور ، وكان يخطط السياسة العامة مع حاشيته القليلة العدد فى مخزن للنبيذ ، فإذا خرج فلا يسير إلا مسلحاً ، وكثيراً ما يتدرب على استعمال المسدس بعد أوقات العمل . وكان أيلنبرج صديقاً له ابضعة سنوات ، ظل فى أثناءها الوسيط بينه وبين القيصر . ولكن هولشتين كرده آخر الأمر لأنه لم يكن الذليل الخاضع الذى يجب أن يكون ، ثم إنه عرف بكل تأكيد أن أيلنبرج كان المسئول عن فصله سنة ١٩٠٦ .

كان أيلنبرج يمثل رجال الحاشية المتطفلين الذين يستمدون السلطان من صاحبه بطرقهم غير الشريفة . وكانت هولشتين من الطراز البدائى فى القرن العشرين — أعنى رجل الدولة الذى ليست له سلطة رسمية — ولكنه يصرف الأمور بقدرة عظيمة . لأنه يملك وحده المعلومات الخاصة التى تنبنى عليها

القرارات الهامة في الدولة الحديثة . وفي أيام مترنيخ كان رؤساء الحكومات بل والملوك يستطيعون العمل بسهولة كما يعمل وزراءهم ، وكان هؤلاء الوزراء يخضعون لإرادتهم موظفي التخطيط ومديري البحوث وخبراءهم الخصوصيين . ولكن بعد عهد بسمارك ظهر عصر تحتم فيه استخدام الخبراء ، وكان الحكام — سواء ممن يتولون بالحق الإلهي أو كانوا يستمدون سلطانهم من إرادة الشعب — يستطيعون إصدار القرارات ، ولكن الأمر أخذ يتبدل شيئاً فشيئاً حتى صار الخبراء هم الذين يصنعون هذه القرارات . ومشكلة وضع رقابة على الخبراء — وهي المشكلة الحادة في الوقت الحاضر — كانت حادة كذلك مع كل حاكم مطلق في مستهل القرن العشرين . وكان يبدو على ملوك ورؤساء العهد الماضي الغباء ، لا لأنهم كانوا أغبياء فحسب ، بل لأنهم كانوا يدعون من البراعة العلمية ما لا يمكن أن يكون لهم .

وموقف القيصر في أزمة سنة ١٩٠٥ المراكشية تمثل العلاقة الحقيقية بين الرئيس الاسمي والخبراء السياسيين الذين لا يخالهم إلا منفذين لسياسته السامية كانت ألمانيا طرفاً في المعاهدة الدولية التي تقرر فيها وضع مراكش السياسي . وعندما حصلت فرنسا في مقابل منح إنجلترا حرية العمل في مصر على تأييد إنجلترا ليكون لها السيادة على مراكش ، كان للألمان حق قانوني في إجراء يؤديه القيصر ، ولو أنه لم يكن في هذه المناسبة راعباً رغبة صادقة في تأديته . وفي ٣١ من مارس سنة ١٩١٥ أخذ ينفذ — في شيء من التردد — مشورة مستشاريه ، وعبر البحر المتوسط ونزل في طنجة ثم امتطى جواداً عربياً وأعلن تأييد ألمانيا لاستقلال مراكش ، على أن يرعى سلطانها المصالح الألمانية بها . وهذه الإهانة التي وجهت إلى فرنسا وضع خطتها بيلوف وهولشتين لغرضين : الأول أن يعلم العالم أجمع أن ألمانيا لا يمكن تجاهلها إذا أريد تقسيم الأسلاب بين الدول.

— ٢٤٦ —

والثاني، وهو الأهم، إلقاء الرعب في قلب فرنسا عندما تدرك عدم الاعتماد على الحلف القائم بينهما، وكانت روسيا حليفة فرنسا رهينة الحرب في أقصى الشرق. إن تلك اللحظة كانت ملائمة لتوكيد شرف ألمانيا ورفع مكانتها الأدبية.

وكان القيصر في حاجة إلى شيء من الإقناع، ولم يكن لديه الرغبة في معاداة فرنسا. وكان يبدو أن المسألة فيها بعض الخطر، ولم يكن القيصر ممن لا يعبأون بأمر سلامتهم. وفي ذلك اليوم العصيب كان البحر مضطرباً، ونزل هو إلى السفينة المضطربة في وجل شديد. ولما وصل إلى الشاطئ مبتلاً وفي إعياء شديد وجد أنه سيذهب إلى طنجة على جواد يبعث هياجه على عدم الارتياح له، ثم إن ذراعه الضعيف جعله لا يرتاح للخيول الغربية. وزاد من اضطرابه وجود حشد ممن يبدو عليهم أنهم من الرعاع الذين وصفهم رجال مخبراته بأنهم فوضويون إسبانيون. وبينما كان العرب يطلقون بنادقهم للترحيب به كان هو يلقى خطابه لا للسلطان، ولكن لعم السلطان، ثم عاد بأسرع ما يستطيع إلى سفينته.

ولم يفد الشعور العالمي إلا قليلاً جداً في تهديته، كما لم يفد الخطاب الذي بعث به إليه ييلوف وفيه يقول :

« كنت أرتعد خوفاً، ولما وصلتني الأخبار أن جلالكم قد غادرت طنجة في أمان أصابني الإعياء، فجلست أبكي على مكتبي أشكر الله » وعندما قال الإمبراطور في شيء من الامتناع إنه لا يفهم شيئاً من هذا الموضوع، رد ييلوف أن ذلك كان ضرورياً لتنفيذ سياسته (أي سياسة ييلوف) . لقد رمى القفاز يتحدى بذلك الفرنسيين، وأراد أن يرى إن كان نتيجة ذلك إعلان الحرب.

ولعل أبرز ما يمثل تعقيد مركز القوى في ألمانيا في أثناء حكم غليوم العلاقة بين الرئيس الأعلى للحرب وبين جيشه. لقد كان آل هوهنزولرن في القرن الثامن

عشر هم فعلا رؤساء مجالسهم الحربية . وكانوا في بعض الأحيان هم مدبرو الجيش ، ونشأ غليوم في جو يجعل له القيادة ، وكان لديه في أثناء شبابه معلومات لا بأس بها في الفنون الحربية والقيادة والإدارة على مستوى فصائل الجيش ، واستعد ليتولى — وقد صار القيصر — أعباء القيادة العامة بكل ما يحمله هذا اللفظ من معنى . وقد قال مرة لأحد قواده « أنا لست في حاجة إلى قيادة عامة . إنى أستطيع القيام بجميع الأعباء بمالدى من مساعدين » .

ولم توافق القيادة العامة بطبيعة الحال على رأى القيصر ، وهى أرستقراطية فنية داخل أرستقراطية ، وكان ولعه بإدخال إصلاحات حديثة في الجيش مصدراً لكثير من المتاعب ، وكان تدخله في المناورات سبباً في كثير من المضايقات ، حتى إن الهيئة العامة ادعت وجود مرض معد في المركز العام للجيش تمنعه من الحضور . وهذه القصة لها مغزاها ، وعلى قدر رغبة القيصر في التيام بدور الملك الجندى كان إصرار الهيئة العليا على عدم الاعتراف للقائد الأعلى بأى قسط من الإجراءات الهامة ، إذا كانت لها نتائج حيوية منتظرة .

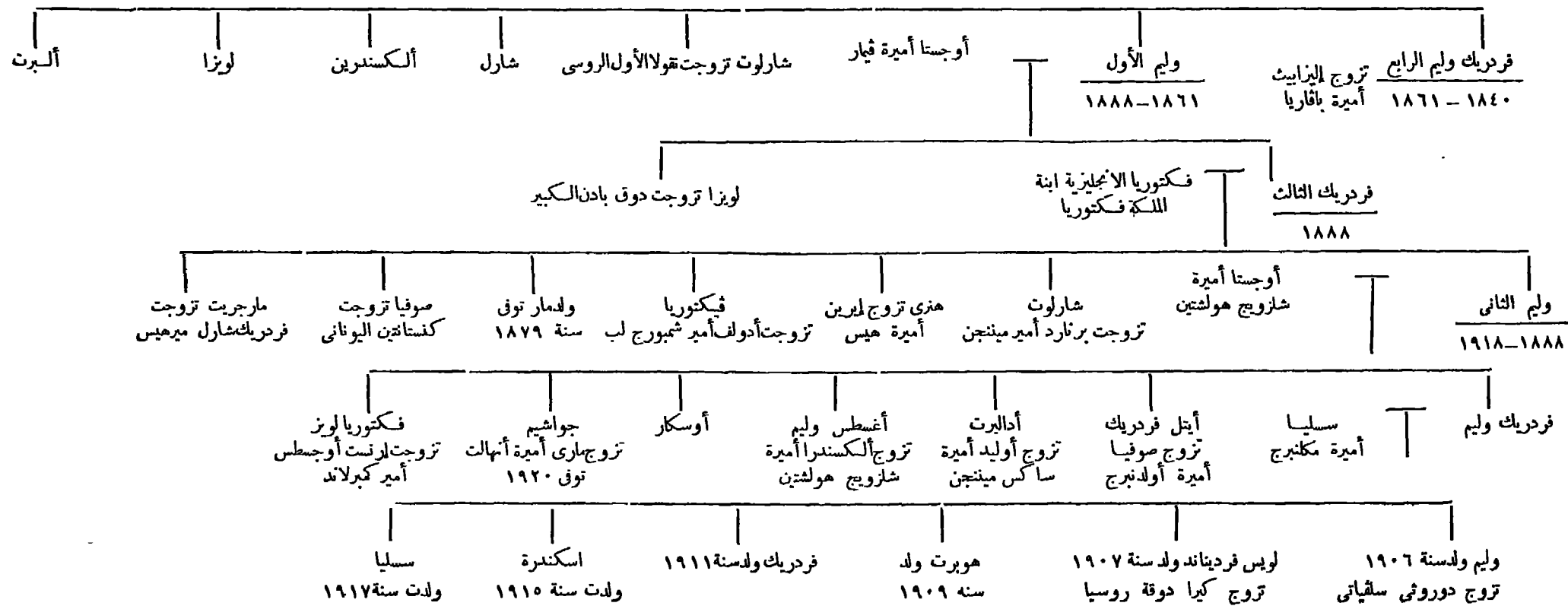
وكل محاولات غليوم للحكم على أساس مبادئ القرن الثامن عشر الاستبدادية أمكن تغييرها بشيء من التحايل ، وأحياناً كانت تلتقى بما جد في أثناء حكمه من مصادر جديدة للقوة . منها القوة التى أسسها رأس المال المحتكر الذى كان نتيجة لزيادة التصنيع في ألمانيا بعد وحدتها . إذ أصبحت بلاداً صناعية على مستوى بريطانيا والولايات المتحدة ، وهما هذان وصف لمعامل كروب في إسبن التى هى أعظم نقطة في الاقتصاد الألماني : مدينة عظيمة داخل مدينة ، بشوارعها الخاصة ، وشرطتها الخاصة ، وإدارة المطافى وقوانين التجارة فيها ، إن فيها ١٥٠ كيلومتراً من الطرق الحديدية ، وستين مبنى المصانع ، وثمانية آلاف وخمسمائة آلة ، وسبع محطات كهربية ، ومائة وأربعين

كيلومتراً من الأسلاك الكهربائية تحت الأرض، وستة وأربعين كيلومتراً ظاهرة .
وبها أكثر من ٤١٠٠٠ عامل .

والمالك الوحيد لهذا العمل الهائل - أكبر مصدر المدافع والأسلحة للجيش
الألماني - هو فردريك كروب رئيس الأسرة التي لا تسبقها إلا أسرة هونزولرن
في الدور الذي تلعبه في بناء مستقبل ألمانيا حينذاك . ويشغل في مصانع إس.ن.
وسائر مصانع كروب ٧٨٣٣٤ عاملاً وعاملة . وكان السادة المشرفون على هذه
الصناعة في بعض تصرفاتهم أدنى فهماً للروح الاجتماعية ممن عاصروهم من غلاة
المستغلين في الولايات المتحدة الذين كانوا موضع المزاخنة من تدى روزفلت ،
وهم على الأقل قبلوا دون كثير من التدمير الإصلاح الذي أدخله بسمارك الذي جعل
للعامل البروسي - من الناحية المادية - أكثر عمال أوروبا حظوة بالمزايا والحقوق .
وكان تركيز القوة الاقتصادية من جهة أخرى - دون إصدار أى قانون للحد من
ذلك - في أيدي بضع عائلات أو جماعات - لبعضها ارتباط وثيق بالبعض الآخر -
قد بلغ ذروته في ألمانيا قبل الحرب ، وهذه الحالة التي وصل إليها النظام الرأسمالي
في ألمانيا وفي أوروبا - والتي كانت موضع نقد شديد من الماركسيين وغيرهم
من النقاد بما فيهم لينين أمدت المعارضين للرأسمالية بمصدر كبير لنقدها إلى
الوقت الحاضر (وكثير من أوجه النقد لا يمكن درؤه لو أن النظام الرأسمالي
السائد اليوم في الديمقراطيات الغربية كان على ما هو عليه أيام وجه النقد إليه) .

وقد كان كل ما قيل عن صناعات المدافع في الفن الشعبي (الفلكلور) الماركسي
في الفترة ما بين الحربين العالميتين موجهاً إلى ألمانيا في عهد غليوم (ووراء القصص
الأسطورية توجد الحقيقة) .

وفي سنة ١٩١٣ مثلاً أثار النائب الاشتراكي ليكنخت عاصفة هوجاء في



مجلس النواب الألماني بما قدمه من الفضائح التي كانت سبباً في التوتر الذي يسود العلاقات الأوربية في ذلك الوقت .

لقد رسم صورة مثيرة لرشوة أكبر مصنع للآلات الحربية في العالم لموظفي وزارة الحربية ، وانتقال بعض الوثائق الرسمية الهامة بطرق خفية إلى خزانة المدير المساعد لمصانع كروب ، واشتراك صحيفة مصورة في ليبزج مع ممثلين للهيئة الحربية وموردى الذخائر لتحجيز إصدار قانون ينظم عمليات استيلاء حرية جديدة ، وإمداد مدير مصنع أسلحة للصحيفة الألمانية دي بوست بأشنع التهم ضد فرنسا ، ثم بعد أن أثبتت فرنسا بما كتب في الصحف الألمانية مد الصحافة الفرنسية بما يثير في ألمانيا الرغبة في إشعال نار الحرب .

وهناك عامل آخر لا يلفت النظر كثيراً ، وهو أن القرارات النهائية للسياسة الوطنية التي تصدر عن القيصر نتيجة إرادته العليا هي من أثر ضغط بعض « الجماعات الوطنية » . (وإن لم تكن نوصف بذلك في تلك الأيام ، فهو وصف نراه بالطبع ملائماً لمفاهيم الحياة العامة خلال جيلنا) ، وكان هناك كثير من المنظمات القوية التي تعمل لتحقيق أهداف عريضة ، وأهمها جماعة الجامعة الألمانية ، والجمعية الاستعمارية ، وجمعية البحرية في المقدمة منها ، مؤيدة بالطبع بالقوات البحرية والأساطحة الثقيلة التي كان يتزعمها وزير البحرية الأميرال الفريد فون تربتز .

ولقد أصبح هذا الرجل ذو الشخصية الهامة المهيمن على الحكومة الألمانية بضع سنوات بعد سنة ١٨٩٧ . ولم يكن من العسير عليه أن يقنع القيصر بأن البحرية القوية من مستلزمات الدولة القوية . وأمكنه أن يحظى بدعاية قوية في المجتمعات الألمانية ، ليقنع الشعب الألماني بمحاجته إلى بحرية قوية . وكان شعار الجمعية البحرية « إن مستقبلنا أصبح على الماء » سبباً في إصدار القانون البحري لسنة ١٩٠٠ ، الذي هيأ ألمانيا البحرية إلى الحرب . وبفضل تربتز وأصحابه أصبح (م ١٦ — الأسر)

القيصر — دون أن يتنبه للموقف — مسوقاً إلى موقف العداء من إنجلترا. وبذلك أصبح حصار ألمانيا حصاراً كاملاً .

وتشبه العلاقة بين إنجلترا وألمانيا في السنوات ١٩٠٠ — ١٩١٤ العلاقة بين روسيا والولايات المتحدة بعد الحرب الثانية . ولم يكن القيصر — ولا معظم الألمان — راغباً في الحرب مع إنجلترا ولا في حرب باردة معها . إنها لم تكن تطمح إلا في المساواة بها . ولكن مساواة ألمانيا في البحر هي في الواقع طردها من سيادتها البحرية ، وهي ترى هذه السيادة أمراً حيويًا لبقاء الإمبراطورية البريطانية . ويقول المؤرخ الألماني لودوفيج دهيو : « إن مساواة ألمانيا بإنجلترا في البحر معناه طرد الثانية من مقامها المقدور في هذا الميدان » .

وكان الإنجليز يعتبرون سيادتهم على البحر ورقابة الخطوط البحرية مسألة حيوية لإمبراطوريتهم . ثم يستطرد دهيو قائلاً « إن الأحداث التي دعت إلى الحرب العالمية الأولى لم تكن إلا غطاء يحجب المصالح الحيوية المتعارضة ، كالهالة التي تحيط بالقمر في الليل المشبع بالرطوبة » .

وما إن أعلن البرنامج البحري الكبير لسنة ١٩٠٠ حتى توالى الأحداث الهامة بعضها في أثر بعض . ثم إن هذه الأحداث قد زادت من خطورتها تدخل ألمانيا السياسي والتجاري في تركيا ، وعطف الألمان الصريح على البوير في حرب إفريقية الجنوبية ، وولع غليوم بالملاهي الخاصة في الأماكن العامة ، وكرهه العتيد لإدوارد السابع — وقد قال هذا عنه إنه « أعظم شخصية فاشلة في التاريخ » — وشعوره العدائي نحو إنجلترا . ومع أن القيصر كثيراً ما كان يهزأ بعجرفة الإنجليز ، إلا أنه كان يفخر برتبته الفخرية في البحرية البريطانية . وقد أزعج مرة وكيل وزارة الخارجية البريطانية سير تشارلس هاردينج في أثناء مناقشة حامية حول القوة البحرية بأن قال له « أنا أميرال بريطاني وأفهم هذه المسائل أكثر من موظف مدني مثلك » .

وكان موقف غليوم من إنجلترا يشبه موقف الأمريكيين الذين لا يحبون «الإنجليز، ومن الملاحظ أنه كان يساير الأمريكيين رغم خفتهم وعدم تكلفهم وآرائهم المشوشة عن الديمقراطية، أكثر مما يفعل مع الأرستقراطيين من الإنجليز. لقد أبدى القيصر بعد نزاعه مع الرئيس روزفلت بشأن عرض ألمانيا لعضلاتها عند شاطئ فنزويلا — أبدى إعجابه بخصمه الذى قال عنه « لقد أظهر أقوى شجاعة أدبية من كل من أعرفهم من الناس ». بل كان غليوم يدعو أصحاب الملايين من الأمريكيين لزيارة قصره الإمبراطورى ويتحدث أمامهم مفاخرأ بأجداده، بينما كانوا هم يتحدثون عن ملايينهم. لقد كان للثراء الواسع تأثير فى نفسه، وكان يحلم فى أثناء شبابه بإقامة مؤسسات كبيرة للاحسان.

كتب غليوم مرة إلى صديقه بولتنى بيجلو ابن أحد رجال السياسة الأمريكيين «من كان له به صلة فى أيام الطفولة قال : « آمنى أن يكون لدى أحد أصحاب الملايين منكم الفكرة العظيمة بأن يوصى لى بثروته عندما تحضره الوفاة ». ولم يمنع شعور غليوم الودى نحو الدولارات الأمريكية وأصحابها ولا احترامه لبحرية الولايات المتحدة من أن يلقي نظره الاستعمارية كثيراً على الدنيا الجديدة.

(وفى مساء إعلان الحرب العالمية الأولى داعبته فكرة عجيبة تهدئة التوتر الأوروبى بأن يقيم ولايات متحدة أوروبية — ولو على نظام لا يتفق تماماً مع النظام الذى وضعه جان مونت — تتحالف مع بريطانيا ضد الولايات المتحدة الأمريكية). وقد جددت مرحلة حديثة غير سعيدة تبلورت فيها الخلافات الأوروبية بتوقيع الاتفاق الإنجليزى الفرنسى سنة ١٩٠٤ ، وكذلك بوقوع الأزمة المراكشية سنة ١٩٠٥ ، التى تفاقمت بزيارة القيصر ميناء طنجة ، التى أيدت فيها إنجلترا حليفها الجديدة ضد ألمانيا ، وباللقاء القصير بين الإمبراطور وقيصر روسيا فى بحوركو ، وبالتفاق البريطانى الروسى الذى وقع سنة ١٩٠٧ ، وبمصادات ريفال التى أعقبت ذلك

الاتفاق في سنة ١٩٠٨ ، وبأزمة البوسنة سنة ١٩٠٨ - ١٩٠٩ التي انتهت - رغم دلائلها الظاهرة على انتصار السياسة الألمانية - بأن أظهرت ألمانيا بمظهر المشاكس الذي لا يمتثل في نظر أوروبا . وحتى قبل انتهاء أزمة البوسنة ظهرت أزمة جديدة كان لها أثر كبير في العلاقات البريطانية الألمانية وفي حياة أسر هوهنزولرن .

في صباح الثامن والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٠٨ ألقى سفير ألمانيا في لندن الكونت ولف مترنيخ بصحيفة الدبلي تلغراف بيد مرعدة ، وقال لأحد موظفيه « الآن يجب أن نرحل » . وفي نفس الوقت صدم آلاف من قراء الصحيفة بما نشر وهم يتناولون سمك الزنجة المقدد في إفطارهم ، وكان كثيرون آخرون ناقلين . يتحدثون عما أفسد عليهم إفطارهم العادي .

وفي إحدى مقابلاته لـ « الزائر » إنجليزى ، رغب القيصر في أن يذيع على الملأ آراءه المتضمنة حبه وأسرته للإنجليز ، فأراد أن يظهر عاطفته لهم بمثل هذه الألفاظ اللائقة . « أنتم أيها الإنجليز أشبه بالثيران الهابجة ترون اللون الأحمر في كل مكان . ماذا جرى لكم حتى تجمعوا كل هذه الاتهامات ضدنا . ماذا أستطيع أن أفعله أكثر مما فعلت ؟ . لقد وقفت دائماً موقف الصداقة من إنجلترا » .

وبمناسبة حرب البوير التي اعترف فيها بأن الرأي العام الألماني كان معادياً لإنجلترا ، استعان القيصر بصورة لجدته الملكة فكتوريا أسر إليه قلقها من الحرب القائمة ، فرسم غليوم - بوصفه حفيداً محباً للملكة - خطة غزو لهزيمة البوير وقدمها للهيئة الحربية الألمانية قبل إرسالها للعاصمة الإنجليزية .

وقال القيصر لمحدثه « دعنى أعبر عن هذا الاتفاق العجيب . إن مشروعى يكاد ينطبق تماماً على مشروع اللورد روبرتس . والآن دعنى أسألك : أليس هذا مسلك الرجل الذى يتمنى الخير لإنجلترا . أرجو أن يكون رد إنجلترا رداً حسناً » .

بيل إن موجة النقد الى ظهرت في الصحافة الألمانية لمحاولة القيصر الصاخبة القيام بدوره الشخصى في السياسة ، كانت أسوأ من ثورة الغضب التي كانت في إنجلترا بسبب هذه المقابلة المشتومة . ولأول مرة ثار رأى العام في أوروبا ، وكان دائماً هادئاً غير ثائر . حتى إن أحد فناني الكاريكاتور الجريئين صور الإمبراطور السابق غليوم الأول يشفع عند الله لحفيده ، على أساس أنه جلس على العرش بفضل الله . (إشارة إلى أحد خطب القيصر) فكانت إجابة الله « إنك تريد الآن أن تنسب الخطأ إلى » .

والواقع أنه لم يكن في ألمانيا في عهد غليوم من يقع عليه اللوم ، لأنه لم يكن هناك أى مسئول عن أى عمل من الأعمال ، وذلك لأن الديمقراطية النيابية والحكم المطلق أفسدا النظام المؤدى إلى اتخاذ القرارات النهائية في آخر مراحل . وكان القيصر يفخر — على مارواه المؤرخ الفرنسى موريس موريه — بأنه لم يطلع مطلقاً على الدستور الألمانى .

والكفاية البروسية في نظام الإدارة الحكومية الألمانية انتهت إلى ضياع المسئولية على أعلى مستوى في الحكم . وقصة صحيفة الديلى تلغراف مثل طريف في هذا الشأن . لقد دبر غليوم نفسه اللقاء بمعونة أحد ضباط الجيش الإنجليزى ، وكان قد وجه إليه دعوة في أحد الأيام في أسكتلندة . ولكنه كان قد أرسل النص إلى ييلوف ليعلق عليه قبل نشره . غير أن هذا لم يهتم بقراءته — أو لعله كان مسروراً إذ رأى القيصر قد ضيع أمل الاتفاق مع إنجلترا — وسلمه إلى وزارة الخارجية دون تعليق .

وهناك أخذت للذاكرة تنقل من مكتب إلى آخر ، ولم يستطع أحد أن يوجه أى نقد لكلام الرئيس الأعلى . وأخيراً عاد النص إلى غليوم — الذى أرسله دون أى اعتراض عليه إلى إنجلترا — وعنده بعض الأمل في أنه مقبل على عصر يسود فيه حسن التفاهم بين ألمانيا وإنجلترا ويستقر فيه السلام .

وعندما اكتشف غليوم غلطته بادر إلى القيام برحلة صيد تاركا ييلوف .
يواجه العاصفة . ويبدو أن المستشار كان يعوزه الإخلاص . ولما وصلت
الضجة إلى ذروتها في المجلسين التسريعيين وكثر اللغط بين أوساط الأمراء حول
وجوب إجبار القيصر على التنازل عن العرش ، أشار ييلوف من طرف خفي إلى «أن
اللوم واقع على القيصر وأنه سيرعى مستقبلاً — حتى في حديثه الخاص — التحفظ
الضروري لاستقرار السيادة وسلطان العرش » .

ولم يغتفر القيصر لييلوف ما عده عدم ولاء منه ، واستغنى عن خدماته في سنة ١٩٠٩ .
وترك الحادث أثراً عميقاً في نفسه . وزادت حدة الأزمة السياسية بما أصاب غليوم .
من الأسى بمناسبة فضيحة أيلبرج ، وبالمأساة المؤلمة التي حدثت في إحدى رحلات
الصيد ، إذ مات فيها فجأة الكونت هولزن هيسلر - ٥٦ سنة - رئيس الهيئة الإمبراطورية
الحرية ، وكان محبوباً جداً لروحه المرحه .

وعند عودة القيصر إلى بوتسدام سنة ١٩٠٨ لزم فراشه منهار الأعصاب ، وأبلغ
أسرته أنه يعتزم التنازل عن العرش لابنه ولي العهد البرنس فريديك وليم . إلا أن
الإمبراطورة وولي العهد صرفاه عن هذه الطعنة الموجهة للأسرة . ولكنه لم يبرأ
مطلقاً من وقع أحداث الحزن التي لاقاها في سنة ١٩٠٨ ، وزعزعت ثقته بنفسه إلى
حد لم يبرأ منه مدى حياته .

ثم ابتداء عهد اعتزاله السيكلوجي ، الذي كان يتخلله كثيراً اختلافات شديدة
واعترضات نفسية . وهذا ما قرره الأيرال مولر الذي كان على اتصال دائم
بالقيصر . هذا ويشير ولي العهد في مذكراته إلى تردد والده المستمر وعدم قدرته
على اتخاذ أي قرار .

وبعد اعتزال ييلوف كان تذبذب السياسة الخارجية الألمانية وما ترتب عليها :

من الدوافع المتعارضة في غاية الغرابة ، وكان من الملاحظ تماماً عدم وجود اليد المسيطرة على أمور الدولة . ولم يكن لدى المستشار الجديد تبين هولفنج القدرة على مقاومة وزير الخارجية ألفريد فاخر ، وكان رجلاً عنيقاً شديد البطش . ثم إن رجال الحرب وعلى رأسهم فون تريبس زادت قوتهم عما كانوا عليه من قبل إلى حد كبير . وزاد نفوذهم على القيصر بمعونة ولي العهد ، حتى إن القيصر أصبح يغار من ابنه الأكبر ، فأرسله إلى المنفى سنة ١٩١٢ . وكان ولي العهد للقب بكلب الصيد بسبب نماعته ومظهره الأرستقراطي أكثر ازناً وأشدّ تقديراً للمستولية من والده ، ولكن آراءه السياسية كانت قريبة الشبه جداً من آراء غير المسؤولين من مؤيدي الجامعة الألمانية والبحرية الألمانية .

وقد نشر مقالات تؤكد قيمة الحرب من الناحية الأدبية ، وترفض فكرة السلام العالمي باعتبارها « فكرة قبيحة غير ألمانية » ، وأخذ خضوع القيصر نفسه يزداد للجامعة الألمانية (وهذا راجع إلى حد ما إلى صداقته مع الشعوبى الإنجليزى هوستن ستيوارت تشمبرلين الذى كان لآرائه فيما بعد تأثير على هتلر) . وصارت السياسة الخارجية الألمانية أكثر توسعاً في كل ميدان وعلى كل مستوى : في التنافس التجارى والمنافسة الاستعمارية ومناطق النفوذ ، وفوق كل شيء في سباق التسلح . (وذلك لأن ألمانيا وقد جاءت متأخرة في ميدان المنافسة الاستعمارية لم تكن راضية عن قسطها الضئيل في أفريقيا والصين والمحيط الهادى) .

وأخذت سنوات السلام القليلة الأخيرة في أوروبا تتحول باستمرار إلى نوع من الحرب الباردة — وكانت تسمى حينذاك بالحرب الخافتة — بين مجموعتى القوى : الحلف الثلاثى (ألمانيا والنمسا وإيطاليا) والاتفاق الثلاثى (إنجلترا وفرنسا وروسيا) ، ثم أخذت الأزمات تتابع واحدة في أثر الأخرى وكل منها تقرب أوروبا إلى حافة حرب طاحنة . فحادثة أغادير عام ١٩١١ يوم تحدثت ألمانيا للمرة الثانية مطامع

فرنسا الاستعمارية في مراكش ، وانتخاب ريمون بوانكاريه رئيساً للجمهورية فرنسا . وهو الزعيم المطالب بضم المقاطعات التي أخذت منها - ومضاعفة منهج البحرية الألمانية ، ومدة التجنيد في فرنسا إلى ثلاث سنوات ، والمؤامرات الجريئة النمساوية والروسية التي أقحمت على حربى البلقان سنة ١٩١٢ و١٩١٣ - كل هذه كانت بعض معالم الطريق الخطيرة التي كانت تؤدي إلى الحرب . ولم يكن أقل منها خطراً التغيرات التي حدثت في رأى الأوربي والتي صحت تلبد الجو السياسى .. ولقد علق الأوربيون آمالهم في مستهل القرن الجديد - كما فعل نحن الآن - على تخفيف برامج التسلح . إلا أن هذه الآمال أخذت تتلاشى شيئاً فشيئاً لتفصح طريقاً أمام الخوف ، ثم أخيراً ، الاعتقاد بأن سباق التسلح في أوروبا سيجعل وقوع التصادم بين الكتلتين أسراً لا مفر منه . وبدلاً من بذل كل الجهود لمنع الحرب كان هم حكام أوروبا وقادتها في سنة ١٩١٤ التأكيد عند وقوع الحرب فعلاً أن تكون في الوقت المناسب ، وأن تكون نهايتها موقفة بالنسبة للتقديرات الحربية حسب وجهة نظر كل من الفريقين .

وربما كانت الهيئة الحاكمة في ألمانيا أكثر صراحة من الحكام في الدول الأخرى في إظهار سخريتها ، ولكن ليس من المؤكد أنها كانت في الواقع أكثر سخرية . لقد أطلق كارل كراوس الكاتب الساخر النمساوى حكاه القاسى في كلمة يصف فيها ألمانيا في عهد غليوم - قبل عهد هتلر بمجمل واحد قال « إنها البربرية مضاعفة بالنيون » وكان حكماً صادقاً ، ولكن إذا كان النيون أكثر وهجاً في ألمانيا منه في أى بلد آخر ، وكان البرابرة أكثر صخباً ، فلقد كان النكوص إلى البربرية هو الاتجاه العام في أوروبا . وسرى ذلك أكثر وضوحاً إذا ألقينا نظرة أخيرة قصيرة على المناطق الظليلة في أوروبا - بعيداً عن متناول ضوء النيون - حيث وضعت المواد المعدة للانفجار .

الفصل التاسع

حافظ وقبر الحكيم المطلق

إن الظاهر الذى ينبىء عن التقدم ، والباطن الذى ينبىء عن الفساد ، وهو ما اتسمت به المدنية الأوربية فى السنوات الأخيرة التى سبقت الحرب العظمى ، تجلى - كما لو كان متوقفاً - بشكل غير مألوف فى روسيا أشد الدول الأوربية تخلفاً . ولقد كانت الفترة من سنة ١٩٠٧ إلى ١٩١٤ أكثر حقب التاريخ الروسى رخاء ، كما كانت فى بعض جوانبها من أعظمها ازدهاراً . أُنقِصت العلوم والفنون الصناعية خطوات سريعة ، وسارت الصناعة قدماً إلى الأمام ، وتوطدت أسس التوسع الاقتصادى ، وزاد الإنتاج الزراعى زيادة هائلة ، وأدخلت النظم الحديثة فى الجيش وأصلح التعليم ، كما أُعيد بناء النظام الإدارى على أسس صحيحة ، حتى الاستبداد القيصرى نفسه بعد المقاومة العنيفة للثورات التى حدثت سنة ١٩٠٥ أصبح خفيف الوطأة بعض الشيء . ثم إن مجلس النواب الذى قام على أساس الدستور الجديد رغم ضعف ساططانه - كان فى وجوده تلطيف للحياة الروسية العامة ، ومنح روسيا على الأقل صورة شبيهة بنظام الكومنولث فى القرن العشرين . ولم تكن محاولة روسيا اللحاق بالقرن العشرين حضارياً وسياسياً ومادياً محاولة كاذبة ، ولكنها كانت سائرة فى طريق خاطئ ، إذ كانت الدوافع التقدمية فى المجتمع الروسى حقيقية إلى حد كاف ولكنها لم تكن حاسمة . ولقد كان هناك رجلان يمثلان الاتجاهين المتنافسين لتقرير ما يستقر عليه الأمر فى روسيا تحت حكم القيصر . وكان كل من الرجلين بأسلوبه الخاص يؤثر فى الحياة العامة ، كما كان كل منهما معبراً عن اتجاهات تاريخية هامة .

كان بيتر ستوليبين الذى ولى رئاسة الوزراء من نوفمبر سنة ١٩٠٦ إلى مقتله

فى سبتمبر سنة ١٩١١ ، أهم عامل على بعث سلطان الملكية بعد أزمة سنة ١٩٠٥ . وهذا الرجل الضخم ذو اللحية السوداء والملامح القوية الصريحة لم يكن تماماً من المحافظين المستنيرين ، ولكنه كان أميناً ومفكراً . وكان يهدف إلى تقوية الحكومة أكثر منه إلى إصلاحها . وأيام أن كان محافظاً لأحد الأقاليم فى سنة ١٩٠٥ أخذ الاضطرابات التى نشبت فى محافظته بعنف شديد . وكان وزيراً للدخيلة فى الوقت الذى أخذت فيه الحكومة الثورة . ومع هذا فقد رحب بدستور سنة ١٩٠٥ ، ربما لأنه أتاح فرصة أكبر لذوى الكفايات الخالصين مثله لخدمة القيصر . هذا وفى أثناء خمسة الأعوام الذى تولى فيها رئاسة الوزراء لم يسمح بأى وهن يصيب الحكومة أو يضعف شوكتها . ومع أنه لم يكن برلمانياً بطبعه أو بعقيدته ، إلا أنه كان محبوباً ومحل احترام المجلس النيابى حتى من أعضائه الأحرار ، بسبب إيمانه الصادق وتقديره للعلاقات الإنسانية . ولم يكن ستولپين إلا متوسط الذكاء ، وخير ما يقال عن نظراته السياسية إنها كانت مبنية على مفاهيم الرأسمالية المعاصرة لا على مفاهيمها القديمة ، ولكنه كان يمتاز بشيء كانت روسيا فى تلك الأيام فى أشد الحاجة إليه — وهو الخلق ، رغم تعرضه للنقد من جانب اليساريين والرجعيين . وهو الذى منح الفلاحين الروس حق انسحابهم من الجمعيات القروية وامتلاك أرضهم ، وكان هذا أهم إصلاح اجتماعى منذ تحرير عبيد الأرض . حتى إنه فى سنة ١٩١٤ كان تسعة ملايين من الفلاحين يعملون فى أرضهم التى يملكونها فى روسيا . وأخذت جذوة الثورة فى الخمود فى ريف البلاد .

وإذا كان فى وسع أحد إقناذ الحكومة الروسية بعد سنة ١٩٠٥ كان هو ستولپين . ولم يكن لينين أو غيره من القادة الثوريين خصمه فى التاريخ الروسى — ومنافسه المنتصر إلى حد ما عليه — بل كان رامبوتين الذى ظهر — كشخصية عامة — فى الوقت الذى ظهر فيه ستولپين . ولو أنه

لم يبلغ ذروة انتصاره إلا بعد وفاته . وكما كان ستولپين رمز ما بقي من حيوية لدى الحكومة المطلقة والعامل الأول على عودة سلطانها ، كان راسبوتين رمز شؤم على انحطاطها والعامل النهائي على انهيارها . كان أحدهما المعالج القانوني وكان الآخر الطبيب المزيف غير المسئول . كان ستولپين من أنصار المحافظة على الحالة السياسية المعقولة التي تبقى على القيم القديمة مع تعديل في التصرفات تبعاً لتغير الظروف . بينما كان راسبوتين يمثل الراديكالية المقلوبة التي تهرب من الحقائق القائمة، لأنها تمسها وتدوس على التقاليد وتستبدل بها المخرافات ، ومن العسير أن يصدق المرء أن شخصية رهيبة مثل راسبوتين تقوم بدور هام في التاريخ — حتى في تاريخ دولة متخلفة كروسيا في عهد القيصرية — ولكنه قام به .

إن صور جرمجورى راسبوتين التي تتداولها الأيدي الآن تبدو لعين السياسي الخبير في الستينات من القرن العشرين أن فيها شيئاً ما لا يرضى . إنها تصور رجلاً قوياً متوسط الطول يلبس سترة ريفية وسراويل متسعة وحذاء ثقيلاً . وله أنف ضخمة منتفخة وشعر طويل قائم مفروق في وسطه ولحيته خشنة سوداء . ويمحلق في آلة التصوير بعينين واسعتين قويتين . (وتصف المذكرات المعاصرة عينية بأنهما زرقاوان نافذتان ، وإنسان العين فيهما يضيق إلى أقل الحدود عندما يركز صاحبها النظر على شيء ما) والفكرة العامة التي تنطبع في الذهن عنه هو أنه رجل مطبوع على الخبث ويتظاهر بما ليس فيه .

ويصل الإنسان إلى نفس هذه الفكرة الغريبة عن أخلاق راسبوتين مما كتب عن أسرة رومانوف في أواخر أيامهم . ويختلف المؤرخون في مقدار إسهامه في القضاء النهائي على حكم القيصرية . ويجمع غالبيتهم على أن دوره كان رئيسياً . ولكنهم متفقون جميعاً على مساوئه الخلقية رقائقه . ويبدو أن راسبوتين كان مخادعاً ولصاً ومستغلاً وسكيراً وكافراً فاجراً . وكان كالهرد في دعارته، وكالغزاة في

رأى تحتها الكريمة . وقد نزع خصلة من لحيه أبيض مرة في مشجرة عامة . وكان يرأسه أثر الجرح ينسبه تروتسكى إلى إحدى حوادث سرقة الخيول .

ومن المحتمل أنه كان يعطف سراً على بعض عقائد الكنيسة الشرقية المناهية للمسيحية الصحيحة ، وليس من المستبعد أنه كان يخطط للاستيلاء على عرش القيصرية . وكان قليل الاستحمام — على الأقل في مستهل حياته العامة . وكان يغمس يديه في الحساء ولا سيما حساء السمك .

وبينما كان لدى أعداء الحكومة الروسية ومؤيديها ما يحملهم على إبراز صورة راسبوتين أشد سواداً من حقيقته ، وأحياناً أكبر من حقيقته ، فإن كل الشواهد تدل على أنه كان رجلاً وضعياً إلى أبعد الحدود . وليس أكبر ما تضيق به النفس من صورة راسبوتين أنها تغلو في تصويره في منتهى الدناءة — ولو أنه فعلاً كذلك — ولكن عجزها عن بيان نوع دناءته . إن فظاظته وانعاسه في الشهوات من عيوبه الطبيعية . ولكن كان ذلك أيضاً مما يرى الاستعانة به لرسم الصورة التي تراد أن تكون له عند الكافة .

وكان راسبوتين في أول الأمر أقل تخصصاً في الدين منه في العرافة ومدادواة الأمراض . (وكانت قدرته على شفاء الأمراض — ولو أنها تعتمد أساساً على الإيماء العقلي — لم تكن كلها من قبيل الخداع) وهذه الحرفة قديمة ألحق بها الزمن والتقالييد كثيراً من الزيادات ، ولا بد للقيام بها من استعداد خاص لها كالتجوال الدينى . وبعد حصول التجول على شيء من القداسة في أثناء تجواله ، ينظر إليه كأحد القديسين والوعاظ الدينيين الذين ذكرهم دستوفسكى في كتاباته .

وجو القرون الوسطى الدينى — مع وسوسة الشيطان — والذي أحاط ما يمكن أن يسمى حياة راسبوتين الدينية ، قد أخفى حياته الأخرى . فإن راسبوتين لم يكن

بذلك الواغظ الزمنى الذى يعمل على هامش السياسة . بل إنه كان رجل سياسة . وعمله السياسى كعمله الدينى لم يكن عملاً سليماً ولم يكن قانونياً . ولكن دغم الحيل العجيبة التى كان يقوم بها ، كانت حياته من طراز لم يكن من العسير إدراك كنهه . فهو أولاً وبالذات أحد القواد السياسيين — وعلى الأقل قد أصبح كذلك — وكان شغله الشاغل : الحصول على النفوذ واستخدامه . وكان الغموض بعض رأس ماله . لكن الغموض الذى استغله كثيراً كان غموضاً سياسياً وحديثاً نسبياً . كان يمثل الفلاح الروسى البرىء الذى مجده تولستوى وأنصار الاشتراكية الأوائل — وابن عم الجماهير التى استمد منها الزعماء فى كل بلد فى القرن العشرين الفكرة المختلطة بين السوقية والديمقراطية . ويمكن أن يقال إن راسبوتين جسم فكرة الفرد فى روسيا القيصرية ومثل هو هذا الدور . لقد أوغل يده فى الحساء وحك بها مؤخرته لنفس السبب الذى جعل نيكيتا خروشوف يخضع حذائه .

وقد يكون من المفيد هنا أن نوجز المراحل الرئيسة فى حياة راسبوتين ابتداء من فلاح عادى إلى قديس من صناعه هو ، ومن رجل دين محترف إلى قائد سياسى . ولد هذا القديس سنة ١٨٧٢ فى بكروفسكى إحدى قرى سيبيريا على مقربة من توبلسك وراء جبال الأورال . وكان والده إيفيم فلاحاً وتاجر خيول . ولم يكن لأسرته لقب مثل كثير من الأسرات الروسية ، وأخيراً اتخذ جريجورى لنفسه لقب نوفيك ، وأطلق عليه جيرانه لقب راسبوتين أيام شبابه . وهى تعنى «ذئب» . وكان كل شئ يبرر منحه هذا اللقب . ومنذ شبابه الباكر أظهر راسبوتين حيوية جنسية قوية . قالت مرة زوجته وهى فلاحنة سيبرية قوية . عندما سمعت عن كثرة النساء اللاتى يجربن وراءه ويلتفنن حوله فى بطرسبرج ، إن جريجورى يستطيع أن يعنى بهن جميعاً » وكان فى الوقت نفسه شديد التدن ، بل يبدو مخلصاً فى تدنيه مع نزعة إلى التأمل فى الناحية الدينية . وكان الحل المعتاد لمشكلته فى روسيا أن يكبح إغراء

الجسد بدخول الدير . ولكن في حالة راسبوتين يوجد حائل كبير دون ذلك . جاء في شهادة أحد ضباط الشرطة في روسيا أن راسبوتين كان على علم بميوله السقيمة الشريرة التي ظهرت في أثناء شبابه، وهو يقدر أنه لا يصلح لحياة الدير المنعزلة، فلو دخل أحد الأديرة فما أسرع أن يطرد منه .

وبدلاً من أن يصبح راهباً أصبح راسبوتين قديساً . لقد قام مرتين بالحج التقليدي للأرض المقدسة وطاف بالبلاد الروسية كلها . وأقام الصلاة في أشهر كنائسها . ولا شك أنه أبحه كذلك إلى أما كن أقل قداسة استجابة لإغراء الجسد ، مقنعاً نفسه أنه كان بهذا الاتجاه ينقذ نفسه من خطر أكبر . وأحس أن روحه كانت في مسيس الحاجة إلى الراحة النفسية ، حتى إنه في محاولته إراحة ضميره — وخلص غيره — انتهى إلى نظرية التكفير عن طريق الندم ، وهذه النظرية إذا وضعت في ألفاظ صريحة — وهو ما كان راسبوتين يتجنبه — فمعناها أن الإنسان إذا أراد الخلاص فمن الضروري أن يآثم أولاً .. على الأقل يجب أن يكون متواضعاً قلباً وقالباً . ولا يوجد من هو أكثر تواضعاً من الآثم النادم . وعلى ذلك فأيها الإخوة — والأخوات — هيا بنا نذل أنفسنا بارتكاب الإثم . ويظهر أثر جماعة الكليسي الموحدة الخارجة على القانون المنغمسة في المذلات الجنسية المنتشرة سرّاً في منطقة راسبوتين بسيبيريا ، في فكرته ، ولكنه استطاع أن يخفيها خوفاً من العقاب أو الازدراء .

وكان ينشر فكرته يجعل نفسه القدوة التي تحذى . وهذه الرسالة الكبرى التي نصب نفسه لها كان لابد لها من الانتشار — وبخاصة في روسيا في عهد القيصرية . وهذه الشعبية التي كانت لرسائله ، كانت عاملاً هاماً على زيادة نفوذه في البلاد .

وفي سنة ١٩٠٣ قدم راسبوتين إلى بطرسبرج وكان في الواحدة والثلاثين من عمره ، وظهر فيها بمظهر السكير الفاجر النائب . وكان له زوجة وثلاثة أطفال ولكنه تركهم في سيبيريا . وبدأ عليه الهزال والتعفن لكثرة تجواله . وكانت قدرته الظاهرة وملابسه الرثة وعيناه المتقدتان شاهدة على ندمه وتوبته . وعمل خادماً في أكاديمية دينية عصرية ، وسرعان ما وجد نفسه في رعاية بعض ذوى النفوذ . منهم هرموجن مطران ساراتوف ، وراهب يدعى إليودور ، كان يعد قديساً متصوفاً في بعض بيوتات العاصمة . وبفضل هذه الصلات تعرف إلى الدوقة ميلنا ، وكان لها ولع بالنجمين والوسطاء وغيرهم من المتصلين بالحياة الكنسية . وثبتت شهرته في شفاء الأمراض لما نجح في شفاء أحد كلاب الصيد للدوق قولا بعد يأس الأطباء البيطريين إذ ذاك في شفاؤه . كما كان موفقاً في شفاء الأدميين من المرضى — وبخاصة السيدات — الذين يخضعون لأوامره . وذاع صيته لما تحققت بعض نبوءاته . ومما تنبأ به أن القيصرية التي لم تكن تنجب إلا بناتاً ستنجب ولداً ذكرأ في عام ١٩٠٤ (وقد حدث) .

ولعل تقديم راسبوتين إلى القيصر والقيصرة كان عن طريق الدوقة ميلنا ، ولو أن أخا زوجها الدوق قولا هو الذى هيا ظروف التقديم . وكانت هذه أولى المحاولات التي كان يقوم بها كثير من مدبري المكائد لزيادة نفوذ راسبوتين طمعاً في تقوية نفوذهم . وكانت الحياة العائلية الداخلية للقيصر والقيصرة لها ما يشبه الحاجز السحري الذى يقىها دسائس الحاشية ، ولكن قلقهما على صحة ولى العهد — مع جهلها واعتقادها بالخرافات — جعل منهما ضحية سهلة للتأثير بالطب المزيف . وبخاصة إذا كان صادراً من أرباب الملابس الكهنوتية .

وكان راسبوتين يستغل الظروف إلى أبعد الحدود . وكانت أولى زيارته
(١٧٢ — الأسر)

للقيصر الإمبراطورى فى تزارسكوسيلو فى نوفمبر سنة ١٩٠٥ . ودعى إلى الزيارة بعد عودته من رحلته إلى مسقط رأسه فى إحدى قرى سييريا . وسرعان ما عاد فعلاً إلى العاصمة . وكانت القيصرة تعتقد فى قدرته على وقف النزيف الذى يصيب ولدها ، ويحفظ حياته من هذا الخطر الذى يهددها . وإذا كان لديها أية ذرة من الشك فقد زالت فى سنة ١٩١٢ عندما أشرف ولى العهد على الموت بسبب نزيف داخلى وشئى بعد وصول برقية من هذا القديس يعد فيها بشفاء الصبي . وكثيراً ما أنقذه من آلام مبرحة بمحدثه التليفونى معه . ولا شك أن كثيراً من أعراض المرض مبالغ فيها — ربما نتيجة لما يشعر به الصبي دون وعى منه من اهتمام والديه — وراسبوتين لا بدله — كسائر المماثلين الزائفين — من قوة خارقة على العلاج . وكان يستعين فى بعض المناسبات فوق طرق علاجه الأخرى بأدوية سرية من التبت ، يستعيرها من زميل زائف مثله . وقد تلقى بعض الوقت دروساً من منوم مغناطيسى محترف . ولم تكن القيصرة بطبيعة الحال على علم بوسائل العلاج الطبيعية . وكانت ترى أن نجاح راسبوتين فى علاج ولدها معجز ، ولا يأتى بالمعجزات إلا القديسون . ولذلك كان من الواضح أن الرجل قديس . وكان القيصر ميالاً إلى أن يشاركها هذا الاعتقاد .

ومع هذا كان راسبوتين أكثر من قديس . لقد كان أيضاً — كما قلنا من قبل — رمزاً فريداً لطبقة من الناس .

ويقول باسيل ما كلا كوف القانونى المحافظ والمؤرخ « كان راسبوتين فى نظر القيصر والقيصرة الممثل الصادق للشعب (الحقيقى) ، وهم الفئة المغايرة للمجتمع الرافى (لاعبى البردج) كما كان القيصر يسميهم ، ثم إنه نبى أو قديس بعثه الله لسعادتهم ، واتباع القيصر مشورته يضمن إلى جانبه الله والشعب . ومن ذا الذى فى وسعه القضاء على هذا النفوذ ؟ » .

وربما كان القول بأن راسبوتين يمثل الشعب الحقيقي أو عامة الشعب ، فيه شيء من المغالاة ، ولكنه ليس بعيداً كل البعد عن الواقع . فهو لم يكن يمثل العامل الذى يعمل فى المصانع المنشأة فى المدن . وهو عنصر حديث آخذ فى النمو . نظراً للزيادة السريعة فى التقدم الصناعى . ولكنه كان فلاحاً قحاً حتى عندما كان يبالغ فى تمثيل دوره هذا ، مما كان له أهمية سياسية عظيمة .

والفلاحون كانوا من الناحية العددية أهم الطبقات فى روسيا ، وظلوا كذلك إلى قيام الثورة . وكانوا من وجهة نظر الدولة القيصرية أقل الطبقات ميلاً لها . وتعلقاً بها . وكانت نظرة الفلاح العادى إلى الطبقة الممتازة من الروس أشبه بنظرة أهل المستعمرات إلى الشعب المستعمر .

فالنبلاء فى رأيهم — كما يقول راسبوتين — ليسوا روساً حقيقين ، ولم يكن لديهم ذرة من الثقة لا فى محصلى الضرائب ورجال الشرطة فحسب ، بل كانوا لا يثقون كذلك فى سكان المدن من أولى الرأى الأحرار والثوريين ، ولا فى النابيين من أعيان الريف .

ولقد شخص راسبوتين تشخيصاً صحيحاً الخلاف الأساسى فى المجتمع الروسى — بل كانت حياته هو على نحو ما ممثلة لهذا الخلاف — وكثيراً ما لقت إليه نظر القيصر . وكان من رأيه أن تكون الأسرة القيصرية أقل تمثيلاً للنبلاء . وأكثراً تمثيلاً لطبقة الفلاحين ، كما يجب عليها أن تقرب الشعب من العرش خلافاً للشعار الناردنيكى القديم .

وكانت معظم نصائحه متعلقة بالعلاقات العامة ولم يكن ذلك مما يؤخذ عليه . ولو كان التلفزيون موجوداً عام ١٩١٢ وكان فى وسع القرى النائية مشاهدة هذا « القديس » وهو يضيف دعواته على (ماما وبابا) كما كان يسمى القيصر والقيصرة ،

فلربما تغير مصير أسرة رومانوف . (كانت نصائح راسبوتين أحياناً قيمة وملائمة . وكما سنرى فيما بعد حاول تمهيد القيصر من الاشتراك في الحرب في يوليو سنة ١٩١٤ ، وكان يفخر بأنه حافظ على السلام عامي ١٩٠٩ و ١٩١٢ وكان هذا مبالغة منه . ولكن يبدو مؤكداً أنه ظل عدة أعوام يدعو إلى سياسة خارجية سلمية حازمة — وهي خير نصيحة تلقاها نقولا في أهم ما يشغل الناس في ذلك الوقت . ويبدو أن راسبوتين كان له موقف طيب في استنكار مناهضة العناصر السامية . وهي إحدى مساوئ الحكم القيصري في روسيا) .

ولا نزاع في أن لراسبوتين مواهب طبيعية عظيمة ، بل وربما مناقب أخلاقية حظ هومن شأنها كثيراً . ولا شك في أنه كان يعتقد في قرارة نفسه أنه يرقى أهم مصالح أسرة رومانوف . وكانت ومضات الحكمة والإخلاص هي التي جعلت زيفه عاملاً من عوامل الهدم والدمار .

وقد كانت هناك علاقة ما بين اختلال شخصيته وحالة القوضى السائدة في روسيا القيصريّة ، وهي التي جعلت منه عاملاً هائلاً من عوامل الفساد في البلاد . وكان القيصر والقيصرة في مقدمة نخبا كيميائه المميّنة ، وإن لم يكونا أشد نخباياه براءة وحسن نية . وكان لنقولا كغيره من الضعفاء أمثاله ولع آثم بالنفوذ يحاول ستره عن الأعين . وكان يود أن يقال له إن هذا واجب مقدس عليه ، وإنه لم يسلك إلا السبيل المباشر إلى تحقيقه . واشتدت حاجته إلى إقناع الكفاة بذلك بعد ثورة عام ١٩٠٥ ، عند ما قبل أن يكون — على الأقل بالاسم — ملكاً دستورياً ، وأن ينزل عن شيء من سلطانه إلى مجلس نيابي منتخب .

ولقد قال راسبوتين — الذي لا حد لقمه في الحصول على القوة والنفوذ — للقيصر ما يود سماعه . قال له بوصفه رجلاً من رجال الدين « إن الحكم المطلق

هو نظام أمر به الخالق»، وقولا مسئول عن المحافظة عليه أمام الحاكم الأعلى .
كما أكد بوصفه أحد أفراد الشعب أن الفلاحين يجب أن يحكمهم المطلق ، وهم
يخلصون الإخلاص كله للحكم المطلق ، ولا يكونون إلا الاحتقار والكرهية
لثوريين والمصلحين من كل صنف .

وعلى هذا فمن الضروري - بل إنه يتفق مع القانون - ألا يعرَى القيصر الدستور،
وأن يرجع إلى نظم الحكم المطلق كما كان الحال في عهد أبيه .

ومبدأ الاستبداد الشعبي أو التقدم عن طريق الرجعية - وهو شبيه بمبدأ
راسبوتين الخاص بالخلاص عن طريق الإثم - كان له أثر قوى على روح قول
المنوية ، لكنه كان أخطر دواء عقلي يمكن أن يوصف لعلاجه ، فلم يكن
قولاً بالحكم الذي يسىء استعمال القوة ، وإنما هو شخص لا يعرف مطلقاً كيف
يستعملها . وكلما زاد ما يقبض عليه من القوة زاد ما يقلت من بين
أصابعه منها .

ولم يكن نفوذ راسبوتين على القيصرية اسكندرية مشئوماً فحسب ، بل كان
لا شك شيئاً من الناحيتين السياسية والنفسية كذلك .

كتبت للقديس سنة ١٩٠٩ « إنى أقبل يدك واعتمد برأسى على كتفك
المحبتين . إنى أحس بنشوة شديدة حينذاك . وإنى لا آتمنى إلا شيئاً واحداً وهو
أن أنام وأبقى كذلك إلى الأبد على كتفك وبين ذراعيك » .

وهذا كلام غير لائق حتى في نظر من يقرأون ما كتبه مارى كوريل .
ولا عجب أن قابلات الطبقة الراقية في بطرسبرج هذا الكلام بهشة شديدة عند ما
سقطت خطابات القيصرية من بين أصابع راسبوتين ، ونتيجة لإهال رجال الرقابة

على المطبوعات طبعت ونشرت . ويعتقد معظم المؤرخين المعتدلين أن العلاقة بين حفيدة الملكة فكتوريا وابن تاجر الخيول ، كانت علاقة علاجية . وليست شهوانية . وفي سجلات العلاج النفساني سوابق كثيرة من هذا النوع من العلاقات .

ولا ريب أن اسكندرا نفسها ما كانت تدرى أن في شعورها نحو راسبوتين . عنصراً شهوانياً شديداً . والمسألة - على وجه التحديد - هي أنها كتبت ما كتبت . بكل براءة لأنها حفيدة الملكة فكتوريا .

ومع ذلك لكي نفهم بدقة دور راسبوتين في حياة اسكندرا ، فمن الضروري . أن نضع نصب أعيننا العقدة التي تتأثر بها إحدى نواحي خلقها ، والخواص التي كانت لمنزلها الاجتماعية الفريدة . فورا تكريس نفسها لأعباء الأسرة والواجب ، كانت طموحة إلى أبعد الحدود . وكان عليها - ككثير من النساء الطموحات ، وبخاصة في ذلك العصر - أن تحقق أطامها عن طريق زوجها وأولادها . وكانت مثل كثير من النساء تسيطر على زوجها في البيت ، بينما تدفعه باستمرار إلى إبراز شخصيته خارجه . وإذا كانت الزوجة الريفية تصر على أن يدخل زوجها مكتب رئيسه ويطلب بترقية ، فإن اسكندرا كانت تبقى في حجرتها ، وتقوم بدور الرئيس . الذي كان عليه أن يقوم هو به . ولو كانت تقصر اهتمامها على المسائل العامة ، فلا ضير عليها في ذلك ، وما دامت هي أم الحاكم المطلق في المستقبل القريب ، فلها القيام برعاية ولي العهد ألكسيس وريث الحكم المطلق ، الذي ورثه نقولا نفسه عن أجداده . ولكن كانت اسكندرا لا تستطيع أن تتدخل في شئون زوجها دون الاعتداء على نفس العقيدة التي تبرر بها تدخلها . وهنا المجال لتدخل راسبوتين . فبصفته رسول الله وممثل الشعب ، كان في وسعه دون أن يخل . بواجب الاحترام اللازم أن يقدم اقتراحاته للقيصر ..

وكان في استطاعة اسكندرا — دون أن تظهر بمظهر المعتدى على حقوق زوجها — أن تؤثر في تصرفاته الخاصة بالحكم بالإغراء وبالاتصال، وأحياناً بتفسير ما للقديس من توصيات سياسية .

كتبت اسكندرا في أحد خطاباتها للقيصر « ... استمع إلى . وهذا يعني صديقنا راسبوتين » . وفي خطاب آخر « ... على أن تزيد ثقتك في صديقنا » . وفي خطاب آخر كتبت للقيصر « لكن أنت الرئيس . أطع زوجتك الصغيرة الصامدة ، وصديقنا » . وأخيراً هذه اللمعة المعبرة عن العلاقة الزوجية « آه . يا بني كم أتمنى أن نكون معاً ... فكر أكثر في راسبوتين ... آه دعني أزيدك نصحاً وإرشاداً » .

هذه الخطابات التي اقتبست منها هذه العبارات كتبت إبان الحرب عندما أخذت العلاقة الثلاثية العجيبة شكلها النهائي .

وفي مبدأ الأمر كان كل من القديس والقيصرة أقل صراحة فيما يبذلانه من جهود في التأثير على نقولا ، ذلك الرجل الحالم المتردد . ولكن الخطة وضعت من مبدأ الأمر . فهم راسبوتين ما يطلب منه ، وأمد اسكندرا بمبررات تدخلها في أمور الدولة ، كما استغل نفوذه عليها في الوقت نفسه ليصل إلى أهدافه . وكانت العلاقة العاطفية بين اسكندرا وراسبوتين أكثر تعقيداً ، مما دلت عليه الظواهر . ففي بعض الأمور كان سلطانه عليها تاماً . ولكنه كان في نفس الوقت الوسيلة التي لا تستغنى عنها لتسيطر . فكان من الطبيعي أن تحبه لذلك ولغير ذلك من الأسباب ، كما كانت تحب مخلصه — ولكن بأسلوب آخر — زوجها الذي لم يصبح عاطفياً ، والذي مكنتها ضعفه من حكم الإمبراطورية . وفي الأمور العاطفية

كانت اسكندرا تنظر إلى راسبوتين نظرة الطفلة المملوءة بالخوف والولاء ،
 مثلما كان نقولا ينظر إليها . ولكن في الأمور السياسية كان ثلاثتهم شركاء في
 لعبة الحكم ، وكان نقولا شريكا لها ، كما كان نخبتهما . ولم يكن
 واحد من الثلاثة بريئا حسن النية دائما ، كما لم يكن واحد منهم ساخرا
 على النوام .

وكان ضمن تروس عجلة الحكم التي أقامها راسبوتين واسكندرا ، سيدة كانت
 مشمولة برعاية اسكندرا اسمها أنا فيروبوفا أقل منهما أهمية ، ولكن لا يمكن
 الاستغناء عنها في إدارة الحكم ، وهي ضخمة الجسم رثة اللباس ذات صفائر ثقيلة من
 الشعر فوق رأسها ، ذات عيين غير براقتين . وكانت أنا ابنة أحد كبار موظفي البلاط
 سيئة الحظ في زواجها . وأخيرا نزلت لدى أحد ذوى قرباها في تزارسكوسيلو في
 دار خصصت لها على مقربة من القصر الإمبراطورى .

وكانت أنا وهى نموذج آخر لطفيالية برزت من جحر عائلى فاسد ، الصديقة
 الحميمة لاسكندرا خارج المحيط العائلى . وكانت هذه الصداقة الشاذة تشبه افتتاح
 اسكندرا براسبوتين . وأنا نفسها كانت مفتونة براسبوتين . بل كانت أكثر
 استسلاما له من اسكندرا — وإن كانت مثلها في مأمن من نزعات العاطفة —
 وفضلا عن انضمامها لاسكندرا في التنويه بقداسة « صديقنا » كانت تسهم بنهم
 شديد في سلب نقولا الآثار القليلة الباقية من رجولته . (وهذا بطبيعة الحال لا ينفي
 أنها « تعبد » القيصر — إلى الحد الذى يصيب اسكندرا بألم الغيرة الشديد) .

وكان أهم عمل لأنا — على مستوى الأعمال — أنها كانت الصلة بين
 راسبوتين والقيصرة — وإذا لم يستطع هو أن يجرى إلى القصر كل يوم ، فأنا

تستطيع أن تحضر، وكمن مرة حضرت فعلاً . وبفضلها كان يقع الاتصال يومياً . فإذا كانت المقابلة الشخصية ضرورية في غير المواعيد المخصصة للزيارة ، فإن القيصرية كانت تقابل راسبوتين في بيت أنا . وكان لهما مزايا أخرى . . فقد كان هناك مالا يحصى من المطالب والاقتراحات البسيطة وبخاصة ما يتعلق بالشئون المالية بالقدس ، مما لا يستطيع راسبوتين القيام بها ما لم يخلع دوره الديني . وكانت أنا أقوم بهاله . وهناك ما يحمل على الاعتقاد أن أنا كانت تدفع راسبوتين من وقت إلى آخر على أن يخبر القيصرية — لأسباب تتعلق بعلاقتها الزوجية — بما تود أن تسمعه منه ، وكانت أنا تعد — في رأي من يعرفونها — امرأة بليدة إلى حد بعيد . ولكن لا بد أنها كانت على قسط كبير من الدهاء . فإنه يتطلب منها مكرًا شديدًا أن تظهر بمظهر السذاجة الذي قد ينطلي على راسبوتين نفسه . وبينما كانت تخدم بإخلاص صاحبها فإنها لم تكن تنسى مصالحها الخاصة . حتى من يعطف عليهم راسبوتين كان عليهم أن يخطبوا ودها إذا ما أرادوا أن تخصمهم القيصرية بعطفها ، ومن ثم يحصلون على عطف القيصر .

ولم يكن راسبوتين والقيصرية بنفوذهما في سياسة الدولة على أعلى مستوى ، فعملهما على خلق تنظيم خاص سياسي لتنفيذ إرادتهما ، وكان «حزب الإمبراطورة» يعمل على أساس الرعاية والوساطة ، وكان راسبوتين يحصل على الوظائف ومراتب الشرف لمريديه ومقاولات أميرية أو معلومات خاصة لأتباعه الماليين ، وكانت صحابته في آخر أيامه تشمل الوزراء — وشملت في الواقع رئيسي وزارة — ومطارنة وضباطاً وقواد جيش ، كما شملت اثنين من رجال المصارف وجواهرجياً يهودياً من الإقليم ، صار بفضل راسبوتين من المرابين السريين للطبقة العليا في بطرسبرج وصاحب ناد للميسر .

وكان الجنرال فلاديمير سوخوملينوف وزير الحرب المرتشي وزوجته الصغيرة

الجميلة ذات السمعة القذرة من أعضاء الجماعة - وكان الكونت سرجيوس ويت رئيس الوزراء عند قيام ثورة سنة ١٩٠٥ هو العقل المدبر السياسى لهم . ووضع ضابط قديم من ضباط الشرطة يدعى ستيفن بلتسكى ، وكان فى وقت ما من الشخصيات البارزة فى الجماعة ، ووضع هذا الضابط لحساب راسبوتين فى كشف مصاريف أوكرانيا السرية ثلاثة آلاف روبل أى نحو ثمانمائة جنيه شهرياً .

وقام راسبوتين بمهمته كرئيس سياسى بعزم قوى . فإذا كان أحد الأعمال الهامة أو العقود الدسمة الخاصة ببعض أفراد الجماعة يخشى ضياعه حصر فكره فى المشكلة ، مستعيناً بعدة قارورات من الماديرا - الشراب المفضل لديه - وأخذ حاملاً بخارياً وكتب لنفسه مذكرة يضعها على وسادة نومه (وكان قبل تعلمه الكتابة يستعين بعلامات يحفرها على عصا لتساعده على الذكري) ، حتى إذا أقبل الصباح تناول المذكرة وقال « لقد صحت إرادتى » ثم طلب أنا فيربوف بالسرلة لتنبئ القيصرة حتى تدلى هذه بتعليقاتها إلى القيصر .

ولكى ينفض راسبوتين عنه غناء العمل كان يسهر مع أصحابه مهراته الحمراء ، ثم يعتلى سريره يتمرغ عليه مع عدد مذهل من النساء . وعلى خلاف ما يروى . كان قليل من هؤلاء النسوة من الطبقة الأرستقراطية ، ولكن « كشف الأسماء » الذى يشمل أسماء من يقعن فى شباكه إذا جاز لنا استعمال هذا اللفظ ، كان يشمل سيدات مزدانة بالقراء والجواهر من الطبقة الأرستقراطية ، وزوجات بعض أرباب الأعمال المحترمين أو الموظفين جنن ليعملن على رعاية مصالح أزواجهن . ولقد أقام راسبوتين مرة بمناسبة عيد ميلاد له سهرة حمراء فى مسكنه فى بطرسبرج . كادت أن تنتهى بمأساة ، عندما حضر زوجا اثنين ممن لا يكففن عن الشراب طول الليل ، ودخلا المسكن فى الصباح وفى يد كل منهما سيف مسلول . (وأمكن الحرس المكلفين بحراسة القديس أن يحولوا دون دخولهما بعض الوقت ، تمكن فيه من الهرب هو وضيوفه من السلم الخلفى) .

وفي مناسبة أخرى أحدث راسبوتين جلبة كبيرة في أحد حمامات سينيريا .
عندما استصحب عدة موظفات في الكنيسة من بطرسبرج لتدليك جسمه — وكان .
هذا نوعا من الرياضة الروحية كما قال فيما بعد لبعض الصحفيين . ومع أن راسبوتين
كان يفضل نساء الطبقات الراقية لأنهن — كما يقول — أزكى رائحة ، إلا أنه لم يفقد .
الاتصال بنساء الطبقات الدنيا . وكانت تقارير الشرطة تذكر خروج سيل لا ينقطع
من العاهرات الصاخبات البذيات والمومسات والحاديات وغيرهن من حجرة نومه .
الصغيرة المجاورة لحجرة طعامه في سكنه .

ولم يكن من اليسير حمل القيصة ولا أنا فيروبوفا — رغم مشاهدتها بعض هذه .
المنظر — على الاعتقاد أو الإقرار بأن القديس كان يسلك مسلكا منافيا لهداسته ،
وكانت القيصة تقول « إنهن يقرأن الإنجيل ويقبلن كل إنسان من باب التحية .
والسلام » ، محاولة بذلك نفي التهم البذيئة التي كانت تنسب إلى صديقتها . وعندما
اتهمت مرضعة ولى العهد راسبوتين بأنه خدعها نفت القيصة قولها على أنه أضغاث .
أحلام . أما أصحاب راسبوتين القدامى والراهب إليودور وهرموجن التقي السلم النية ،
فهؤلاء أقل صلابة في الدفاع عنه أمام القرائن القوية .

وعندما اقتنع الراهب زنيا بالأدلة الدامغة ، دعا هرموجن راسبوتين وانتزع منه .
اعترافا ، ثم صاح الراهب قائلا « إنك تهشم سفينتنا المقدسة » ، وضرب راسبوتين
على رأسه بصليبه الكنسى . وعقابا له جعله يقسم أمام الأيقونة المقدسة أنه لن يمس أية
أنثى مستقبلا . وفي اليوم التالى سمع راسبوتين يصيح بشكل هستيرى « أقتذونى »
(ولربما نبهه تفكيره في أثناء الليل إلى ماجره إليه قسمه أمام هرموجن) .
وحاول أن يحظى بمعونة إليودور ، ولكن عندما عاد إلى حجرة هرموجن أولاه .
ظهره وقال « لا محل للتحلل من القسم أبدا » .

ولم يبلغ إفراطه الجنسى ولا نفوذه السيامى ذروته إلا بعد قيام الحرب العالمية

الأولى . وسيكتب في الوقت المناسب الفترة العجبية المشؤومة من تاريخ روسيا التي
يمكن أن تسمى عهد راسبوتين . وقد حجبها عن الأعين موت ستوليين بعض
الوقت . وكان صعوده إلى قمة قوته تدريجياً فلم يلحظه أحد . ومع أن ذكره السيء
كان على كل لسان في سنة ١٩١١ إلا أنه لم يكن في ذلك الحين معدوداً من
النكبات القومية . ولو بقي ستوليين على قيد الحياة ربما لم يكن كذلك . فلم يتأثر
رئيس الوزراء ذلك الرجل السليم العقل القوى الشكيمة بما أثر به راسبوتين على
غيره من الجنسين . وقد رفض مرة بشيء من الخشونة اقتراحاً من القيصر بأن
يدعوراسبوتين لعلاج ابنته التي أصيبت من جراء قنبلة ألقيت على والدها سنة ١٩٠٦ ،
وأخيراً عندما طلب مقابلته وحاول تنويمه تنويماً مغناطيسياً لم يوفق . . .
وفي سنة ١٩١١ عندما تكاثرت تقارير الشرطة عن تصرفاته الخاطئة وسلوكه الآثم أمر
ستوليين أن ينفيه من العاصمة . ولم يكن القيصر راضياً . وغضبت القيصرة ولكن
الأمر لم ينقض ، ونفى راسبوتين . وتصرفه هذا جعل القيصرة بطبيعة الحال من
أكبر أعدائه .

ومن المصادفات العجبية أن راسبوتين ومعه أنا فيروبوفا وصلا إلى كييف
عندما حل بها القيصر وستوليين لحضور حفل رسمي في نوفمبر ١٩١١ . وبينما كان رئيس
الوزراء يمتشق شوارع المدينة خلف عربة القيصر قيل إن راسبوتين صاح بخفة بأعلى
صوته « الموت وراءه ! الموت يعدو وراءه ! » .

وفي الليلة التالية أصيب ستوليين بطلق نارى من يد إرهابى في دار أوبرا
المدينة على مرأى من القيصر وابنتيه الكبيرتين . لقد كانت جريمة من أخطر الجرائم
السياسية في التاريخ الحديث — لأنها أزالَت العقبة الإلهية الوحيدة من طريق
راسبوتين ، ولكنها أمدت بحجة ذات سلاحين المؤرخين الذى يعتقدون أن

القيادة الفردية العديمة الكفاية هي التي تشيد الدور النهائى فى التاريخ . وإنه
لحق أن تاريخ روسيا — وتاريخ العالم معه — ربما تغير لو طالت حياة ستولين .
ولكن كل الظروف كانت ضد بقاءه على قيد الحياة . إن القوى المظلمة التى كانت
تسوق روسيا إلى مصيرها الخطر كانت أقوى من أن تقضى عليها رجل واحد ، وقد
أفلتت من يدى ستولين قبل وفاته كل فرصة واثته للقضاء عليها . وكل جهوده
للاصلاح كانت تغفل رؤية معظم مناطق الفساد الخطيرة . وفشل ستولين كان
جزءا من قصة الفشل الذى لحق بالدنيا القديمة كلها . وعوامل الفساد الاجتماعى
التي كانت سبباً فى وفاته — على الأقل بطريق غير مباشر — كانت فى الوقت
نفسه تهدم أسس المدنية — كما تهدم معها فرص السلام الدائم — فى كثير من
من أنحاء أوروبا .

الفصل العاشر

قتل وفوضى وخداع

إن الدلائل المؤيدة بالمواثيق المكتوبة عن بعض نواحى « الحرب الجافة »
 — التى تذكرنا « بالحرب الباردة » فى أيامنا — التى سبقت حرب سنة ١٩١٤ قليلة قلة
 محسوسة ، ولا يزال بعضها مطويًا فى الملفات السرية ، وكثير منها لا شك قد أُلْتُف
 عن عمد ، وأغلب الظن أن جزءا غير يسير منها لم يدون مطلقاً ، ومع ذلك فقد
 أخذت المعلومات تتجمع شيئاً فشيئاً فى ربع القرن الأخير . وفى ضوء ما شاهده
 حيلنا الحاضر نستطيع أن نرى أكثر من آباءنا ، وأن نقيم بصدق أكثر مما يمكن
 أن يعبر عنه بالمنظر الخلفى للحرب الأولى المملوءة بالمؤامرات . وبعض الأحداث البارزة
 حينذاك ربما بولغ فى تأثيرها بقصد الدعاية ، ولكن الزيادة المطردة فى الجاسوسية
 والتدمير ، وحوادث العنف السرية والغش العام فى أوروبا بين سنتى ١٩٠٠ و ١٩١٤
 كانت ظاهرة تستوجب الدراسة العميقة . وإنا على علم بالأمثلة القرية إلى
 وقتنا الحاضر . عندما يقلد رجال الشرطة الوسائل التى يتبعها المجرمون ، ويتخذ
 الثوريون مظاهر رجال الشرطة ، فإن هذا يكون من أعراض المدنية المختلة
 أو المنحلة .

وهذه الأعراض التى كانت عاملاً هاماً فى القضاء على نظام الحكم الملكى فى
 أوروبا ظهرت بوضوح قبل سنة ١٩١٤ ، وبشكل سيء جداً فى بلاد النمسا وروسيا ،
 وأكثر من هذا فى جهود كل من الإمبراطوريتين المتنافستين لاستغلال كل منهما
 الحركات الثورية فى الأخرى . والخصومة القائمة بين الإدارتين السريتين فى
 أسرة هابسبرج ورومانوف لعبت دوراً هاماً فى إيجاد جو موبوء ، ترعرعت فيه
 (م ١٨ — الأمر)

بذور الحرب الأوربية . وعندما وصل الطرفان المتنازعان إلى الدرجة الواضحة التي دفعت كلا منهما إلى مؤامرات البلقان فيه فقد أشعلت فعلا نار الحرب .

وتمدنا فضيحة جاسوسية ظهرت في النمسا قبيل الحرب بمدة وجيزة بموضوع تاريخي نبدأ به في سرد الأحداث . نشرت الصحافة النمساوية يوم ٢٩ من مايو سنة ١٩١٣ أن الجنرال ألفرد ردل — وكان يومئذ الرئيس العام للجيش الثامن في براج — انتحر من خمسة أيام . لقد ضبط — كما اعترفت السلطات باثمئزاز — يبيع أسراراً حربية للدولة الأجنبية — اتضح طبعاً أنها روسيا . وزيادة على خطورة هذا الموضوع من وجهة النظر الحربية — كان ردل مأجوراً من روسيا مدة سبع سنوات على الأقل — فقد استهوى رجال الصحافة إلى حد غير مألوف . وقد تصرف هذا الضحية سيئاً الحظ وعملاء العدو الذين قاموا برشوته ، وضباط الخبايا الذين اكتشفوا خيائته ، تصرفوا كلهم تصرفاً يتفق مع أدق تقاليد الجاسوسية . وقد أكد صدق الرواية لدى الجمهور الأمثلة الكثيرة التي يراها في الحياة أو على الشاشة . وكانت التفاصيل جميعها كاملة : من القصة الصغيرة التي توقع أمهر الجرمين — وقد كانت في قضية ردل مبراة سقطت عفواً في عربة — إلى الزيارة الليلية التي قام بها بعض الضباط الزملاء ذوي الوجوه للمتجبرة ، والمسدس الملقى بإهمال ، والسهر الطويل خارج حجرة نوم الخائن في انتظار إطلاق النار . وهذا الانتحار الرسمي الذي تم محافظته على الشرف العسكري أدى إلى القطيعة بين رئيس الهيئة النمساوية كتراد كوتزندورف الذي وافق عليه ، ورئيسه السابق الدوق فرانسيس فرديناند ، وكان فرديناند وريث العرش النمساوي له أخطاؤه . ولكنه بوصفه كاثوليكياً متديناً في عصر تختلط فيه الحقيقة بالخيال هاله أن يرى دولة كاثوليكية شريكة في جريمة انتحار ، ولما كان ممن يضطلعون بعمل رئيسي بالدولة النمساوية ناله لوم شديد ، عندما اكتشف أن ردل سمح له

بالاتجار قبل الإدلاء بمعلوماته عن نظام الجاسوسية الروسية . وتحت ما تضمنته قضية ردل من مظاهر رومانتيكية كاذبة ، لم تكن قضية منحطة مخسب ، بل كانت غير موقفة في موضوعها سياسياً وأدياً . ولو لم يكن لهذه القضية أغوار سحيقة لم تكن ستبعد ، لا يسع الإنسان إلا أن يرى ردل في منزلة عالية من حب الظهور ، كما يراه نسيج وحده في الدور الذي قام به . وهو في الواقع لم يكن يمثل الطراز النمسي أو الفيني للجيل الذي يعيش فيه ، ولكن يبدو أن وراء جريمته حفرة ليس لها قرار من التناهة ، التي هي أخص أخطاء المجتمع الهابسبرجي في تلك الأيام . وليس من الممكن أن نقول إن ردل كان أحق ضعيف الخلق ، إنما يبدو أنه مثال فريد للفوضى الأخلاقية . وحسبما وصل إليه علماً لم يكن بطبعه متهماً بالهدم أو بأية قبيصة أخرى . كما لم يكن واقعاً تحت تأثير العواطف أو الدافع القوى الذي يدفعه لخيانة وطنه ، وهذا هدف غامض لدى معظم رعايا فرانسييس يوسف ، أو الحنث بالقسم الذي أداه للإمبراطور .

لقد كان مصاباً بالشذوذ الجنسي . والروسي الذي جنده أو أوقعه كان فيلاً روسياً له علاقات كثيرة بالرجال الذين يشقون (المودة) في ذلك العهد . ولكن العلاقة المشوبة التي بينهما يبدو أنها لا تزيد على اتفاق في الاهتمام بلعبة التنس أو جمع طوابع البريد . إنها لم تكن إلا مناسبة للجمع بينهما . وربما كان في الأمر تهديد بأسر ما لا يبراز بعض المال . ولكن ليس من المحتمل أن يكون الأمر لازماً قبل وقوع أول عمل ينطوي على الخيانة . وكان الجيش النمسي يتساهل إلى حد ما في أخطاء ضباطه الخاصة طالما أنها متصلة بالجنس . ومع ذلك فالرديلة التي ابتلى بها ردل كلفته مالياً كثيراً . كان له خليل من الذكور ضابط في الجيش حسن الهندام ، ولكنه طائش مبذر أذاع عنه أنه من ذوى قرياه ، وكان سيباً

في كثرة ديونه . وكان ردل نفسه يحب ركوب السيارات ذات المظهر الجميل وأن يظهر في مستوى أعلى من حقيقته . وكان أجر الخيانة طيباً . ولكنه لم يخرج عن الوسط اللائق بالمهمة الموكولة إليه . وكان ردل يتقاضى مرتباً من الروس . يظهر أنه لم يكن يتجاوز بضع مئات من الدولارات شهرياً — عدا بعض المكافآت — وكانت تسلم إليه بالصورة المزرية التي يرشوها مقابل عام أحد المهندسين المحليين . وكان مرتبه السري يرسل إليه في ظرف كبير في أوقات محددة إلى أحد صناديق البريد في فينا ، من قرية معينة على الحدود الروسية ، وكان هذا التصرف من أسباب اكتشاف الجريمة .

وكان هناك خلاف في مدى أهمية الأسرار التي أفشاها ردل ، ولكنها كانت أسراراً هامة على أبسط تقدير . كان منها وثيقة على مستوى عال من الأسرار الحزبية — كانت تعرف بالخطبة الثالثة في هجوم النمسا الخاطف على الصرب — ومعلومات حربية مفصلة ذات أهمية عظيمة ، كالوصف الدقيق لبرز ميل ، القلعة النمساوية الكبرى التي في غاليشيا . وأخيراً وليس آخراً ، ما يهتم الروس معرفته عن نظام الجاسوسية النمساوية ، والأنشطة المضادة للجاسوسية .

ولقد كان ردل منذ سنة ١٩٠٠ إلى ما قبل إلقاء القبض عليه الرئيس النمساوي لمقاومة الجاسوسية ، ومما أداه من الخدمات إلى رؤسائه في أعماله السرية ، ما كشفه لهم من شخصية الخائن الروسي الكبير — وقد كان من ضباط الهيئة الحربية الروسية — وقد أخذ يبيع معلومات حربية هامة إلى الملاحق الحربي النمساوي فيولرسو (وقد شجع هذا الروسي رؤسائه على ارتكاب جريمة الانتحار المشرفة التي ارتكبها ردل فيما بعد) . ولم تدع هذه المعلومات للكافة في ذلك الوقت ، ولكن الذي عرف بصفة عامة أو كان موضع تخمين ، كان كافياً لزعة الثقة العامة في الحكومة الإمبراطورية ، بل في الأسرة نفسها .

وفي الوقت نفسه كان دعاة الحرب في الجيش النمساوي والحكومة النمساوية يرون أن تجسس الروس على النمسا عمل عدائي. ويطالبون بالانتقام الشديد واستبعاد مسألة الصرب فوراً ، لإمكان توجيه الجيش النمساوي بكامل قوته نحو روسيا إذا كان الوقت المناسب . ولم يكن هذا الإجراء منطقياً من جميع الوجوه . ولكن له ما يبرره ، وبخاصة إذا أدركنا وقع فضائح الجاسوسية الكبرى على السيادة الخارجية في البلاد الأخرى ، كالولايات المتحدة وروسيا السوفيتية . والتجسس أحد جوانب معركة القوى بين الأمم منذ وجودها . وإذا كان محصوراً في حدود معقولة فإنه لا يعكر صفو العلاقات الدولية إلا كما تعكر الدعارة أو الجريمة النظام الأساسي للمجتمع . ولكن إذا خرجت الجريمة أو الدعارة عن النطاق المعقول فإنها تصبح مرضاً اجتماعياً خطيراً؛ فكذلك الجاسوسية ، إذا ما اتسع نطاقها أو قام القائمون بها معتجاهين التقاليد التي تقضي بها العلاقات الدولية ، فإنها تعد — بحق — نوعاً من الاعتداء . ولذلك كان النشاط الروسي المبني على خيانة ردل هو قضية من هذا النوع الأخير .

ولربما كان لدى الإدارة السرية الروسية فكرة غامضة عن المسؤوليات الهائلة التي جلبتها على نفسها ، باتخاذها رئيس الهيئة السرية النمساوية عميلاً لها . لقد عرض الكولونيل باتيوشين القائم برئاسة الإدارة الحربية في روسيا — بسبب الإهمال أو البطء — زميله النمساوي إلى أخطار قاسية وغير ضرورية ، ولكنه احتمل أخطاراً أجسم في سبيل وقايتة . وتقول بعض المصادر المعقولة المعاصرة إن باتيوشين كان يدل ردل بانتظام على كبار الجواسيس الروس الذين كانوا يقومون بالتجسس في البلاد النمساوية ، لئيمكن من القبض عليهم . فتقوم سيرته على الكفاية المقدرة . وهذه التضحية بالمتعمدة ببعض المواطنين ، لها سوابق في تاريخ الجاسوسية . ولكن الروس نفذوها في قضية ردل على نطاق لم يسبق له مثيل ، وبمنتهى القسوة .

وفي القطاع الصغير الهام من الدولة القيصريّة الذي تمثله إدارة النكولونيل...
باتيوشين للجاسوسية الحربية ، يمكن أن يقال دون أدنى مبالغة ، إن إحدى دعائم...
للمدنية الهامة قد انهارت ، وإنه قد حدث رجوع إلى القيم القديمة في عهود البربرية...
وأخطر من هذا أن هذا الانهيار لم يكن مقصوراً على قطاع واحد ، بل شمل كل...
ما يسمى قطاع الشرطة في روسيا القيصريّة ، وكل الأجهزة الدبلوماسية القيصريّة التي...
تتفق مع الشرطة في الرأي . وهذه البربرية الحكومية تستحق دراسة أعمق .
ولكن قد ترينا بوضوح أكثر دراستنا لما سبق من رجوع المثل العليا القهقري...
بعد أن استقرت بعد سنة ١٩٠٥ بين الثوريين المعارضين للحكومة القيصريّة ، وبخاصة...
بين من قدر لهم أن يخالفوها آخر الأمر ، ونعني بهم البلاشفة .

ويرجع اسم « البلاشفيك » إلى مؤتمر الحزب الديمقراطي الاجتماعي الروسي...
(المكون من الماركسيين الثوريين) الذي عقد في لندن في سنة ١٩٠٣ . والشعبة التي...
كان لينين يرأسها — الذي هرب سنة ١٩٠٠ إلى غرب أوروبا بعد مدة قضاها في السجن...
وفي المنفى في سيبيريا — كانت تنال الأغلبية (بولشستفو بالروسية) في كل أمر كان...
موضع مناقشة . وخلال المسائل الفنية كانت هناك مسائل أساسية أمام الحزب . .
أيسر الحزب وفق الخطوط البرلمانية المألوفة أم يجب أن يكون الحزب جماعة منظمة...
للقتال تحت قيادة ثوريين محترفين مثل لينين نفسه ؟ . وهل الحزب يعتقد بحق أن...
الثورة العنيفة هي الطريق الذي لا مفر منه إلى الاشتراكية ، أم يكتفي بمجرد...
الشققة بالمبادئ الاشتراكية كمعظم الاشتراكيين في الغرب ؟ . وأخيراً هل يقبل...
مبدأ لينين أم لا يقبله — ذلك المبدأ الذي يقضى بأنه عند نجاح الثورة يجب إقامة...
دكتاتورية الطبقة العاملة المطلقة ، حتى يمكن إقامة القطاع الاشتراكي

وكان بين الماركسيين الروس خلاف في الرأي . وزاد من حدة الخلاف .

أنه بينما نال لينين أغلبية المندوبين الذين تمكنوا من الوصول إلى لندن ، كان خصومه المنشفيك (الأقلية) يمثلون بلا شك الأغلبية في الحزب ككل . وكان هناك جماعة ثالثة في الماركسية الروسية ، وهذه تنتظم الديمقراطيين الاشتراكيين اليهود الذين يدعون « البوند » ، وهذه الجماعة أقرب إلى المنشفيك من البلشفيك في مبادئهم .

وبعد ثورة سنة ١٩٠٥ اتسعت شقة الخلاف بين البلشفيك والمنشفيك ، عندما أصبحت نظرية لينين في الثورة بمرور الزمن أكثر صرامة وأشدّ عنفاً . ولم يكن لينين حسبما كان يجول في خاطره إلا مطبقاً مبادئ الماركسية الصحيحة ، أو كان على الأكثر متوسّعاً فيها إلى آخر ما تحتمل تلك المبادئ . وكان في الواقع يضع أسس فلسفة جديدة ، كان مقدراً لها فيما بعد أن تعرف — بعد أن استبدل يجرء منها عامل غامض قوى — باسم اللينينية . ولكي تفهم هذه الفلسفة يجب أن تدرس شخصية منشئها . ولو أن لينين نفسه سوف ينكر بلا شك هذا بكل إباء .

ولينين من أعظم العجائب البشرية في جميع العصور ، لا لأنه مجموعة من المتناقضات فحسب ، بل لأن هذه المتناقضات في أخلاقه امتزجت بحيث تحولت إلى انسجام عجيب في العمل والفكر . بل لقد كان في تركيبه البدني شيء من التناقض . ولقد كان في نظرات هذا السلاف — الضئيل الجسم ، المتين التركيب ، برأسه المتكور الأصابع منذ الشباب ، وأنفه المنبجعة ، وعظام خديه البارزة الترية ، وعينه البغية المقلقة ، ولحيته وشاربه القصيرين المراوين — ما يدل على الثوري الراجح العقل . ولكن كان فيه كثير من أثر البيئة التي نشأ فيها .

أما ملابس لينين — زهيدة الثمن ، القديمة أحياناً ، النظيفة دائماً — ففضفي عليه طابع

البورجوازيين. وفي أثناء مدة نفيه — من سن الثلاثين إلى السابعة والأربعين — كان أغلب ما يرى في قبعة عريضة منه في سترة العامل وقبعته .

ولقد كان لينين في حياته أو مظهره في ميونخ أو جنيف أو لندن أو باريس أو زيورخ يشبه البورجوازيين . وكان يقضى أيام الأسبوع في المكتبة أو التأليف . أما أيام الأحاد فكان يقضيها هو وزوجته نادجدا كونستانتينوفنا كروبسكايا في التنزه على الدراجات في الضواحي ، أو سائرين خارج المدينة ، يحملان أكياساً خفيفة . وكان يقضى في بعض الأحيان وقتاً طويلاً يلعب الشطرنج في مقهى مجاور مع أحد الأصدقاء ، ولكنه كان حريصاً على تجنب أمكنة الاجتماع البوهيمية في مقهى روتوند الشير ، ومنطقة فنانى الشاطئ الشمالى في باريس ، حيث كان كثير من المهاجرين الروس يجتمعون ليلاً ونهاراً يدخنون ويشربون ويتجادلون جدالاً لا ينتهى في السياسة والفن .

ولم يكن في حياة لينين الشخصية المستقيمة الجادة إلا هنة عجيبة واحدة ، وكانت بارزة إلى حد بعيد . وهى علاقته بثائرة فرنسية المولد أسمت نفسها إينسا أرماند (وهناك شئ من الغموض في أصل هذه المرأة . فالبعض يدعوها إليزابيث يشو دربنفيل . والبعض يدعوها إينيس ستقان) وكانت إينسا هذه قد تربت في روسيا على يد عمه لها ، كانت مربية لدى إحدى العائلات الروسية الغنية . وكانت تصغر لينين بخمس سنوات . وكانت ممشوقة القد جميلة شقراء ، وإن كانت ملاحظتها تدل على البرود . (وكانت كروبسكايا زوجة لينين بسيطة المظهر ، يعوزها تلك الفتنة المعروفة في أوساط المهاجرين الماركسيين) . وكانت إينسا قد هجرت زوجها ، وهو رجل ميسور الحال من أصحاب الأملاك على قدر من راحة التفكير ، بعد أن أنجبت له خمسة أطفال ، وكانت قد انضمت للبلاشفة في أثناء ثورة ١٩٠٥ وربما قبلها . وقد حكم

عليها بالسجن ونفيت إلى سيبيريا، ثم هربت سنة ١٩٠٩ إلى الغرب ، ولا يعرف على وجه التحقيق أول لقاء لها بلينين ؛ ولكنها منذ سنة ١٩١٠ إلى انتهاء مدة نفيها ظلت داخلة في إطار حياته . (وقد عادت معه إلى روسيا في القطار المقلل المشهور ، وتوفيت بعد إصابتها بالكوليرا في القوقاز في أثناء الحرب الأهلية) وكانت دائماً التردد على مسكنه ، وكثيراً ما رويت مع زوجته أو معه في زهرته أيام الأحد .

وكانت كروبسكايا تعامل إنيسا معاملة الأخت الصغرى . وبعد وفاتها كانت تتجنب ذكرها أو تذكرها في شيء من الود والمحبة . وكان رأى نينا جورفنكل — التي كتبت موجزاً عن حياة لينين جزء مما جاء فيه مبنى على اتصالاتها ببعض صحابته في أثناء المنفى — أن إنيسا كانت هدف حبه العظيم .

ولاشك في أنه كان في صداقتها عنصر رومانتيكي وروسي قوى ، فضلاً عن مساعدتها له في مكاتباته الفنية ، خفت ثقل أوقات فراغه بقطوعات من شوبان وبتهوفن على البيانو، وكان لها اهتمام مشترك بالأدب ، وكان هذا في قصة روسية ذات شهرة تسمى « ما العمل » . وقد اختار لينين عنوان القصة ، وهي عن امرأة ثورية تعيش حياتها المتحررة المثالية مع رجلين ولكن في شرف مع كليهما ، وكانت تشرح لهما مشكلاتها ولا تجد وقتاً تقضيه مع غيرها ، وحسب رواية مدام جورفنكل قرأ لينين هذا المؤلف الثوري العبر عن الإحساس الشعبي ما لا يقل عن خمس مرات . ولقد أوحى هذا المؤلف إلى إنيسا تأليف رسالة في الحب المطلق .

ويظهر بشكل واضح خالق لينين في رده على خطاب لها خاص بالكتاب الذي كانت ترمع إصداره، إذ لامها بنغمة تنطوي على الغرور كما لو كان يوبخ بعض المارقين من الحزب قال :

(أنت تكتنين « حتى العاطفة قصيرة البقاء أو الارتباط أكثر ثناء وأبلغ شاعرية من القبلات الخالية من الحب بين الأزواج العاديين ». هل هذا التباين، منطقي حقيقة ؟ ولماذا العاطفة لا الحب ؟ ولماذا قصيرة البقاء ؟ ألم يكن من الأفضل في هذا الكتيب الشعبي المقارنة بين الزواج العادي الخالي من الحب الذي يتم بين البورجوازيين والفلاحين والمثقفين وبين الزواج المثالي المقرون بالحب الذي يتم بين الطبقة العاملة ؟) .

هذا هو لينين المعروف — الثورى الشديد للتعصب . صاحب الدعاية الدقيقة المنظمة . العاقل الذى يفخر فوق كل شيء بأنه من العاملين . ولكن الإنسان يرى وراء ذلك المثالى ، المكبوت الذى يحتقر « العاطفة المجردة فى مقابل الحب » . ويتطلع إلى ماهو « باق » لا إلى ماهو « زائل » ، كما يرى فيه الرجل المتدين الذى يعتقد فى مراسم الزواج المدنى ، كما يعتقد فيما يروقه فى رجل الطبقة العاملة من قدرة على الحب واستحقاق للحب ، وهو صورة القرن العشرين لرجل الطبيعة الذى ابتدعه خيال روسو . وأخيراً نرى ازدرائه للضعف البشرى ، الذى ربما أثاره فى نفسه . ذكرى انصراف من يظن بينهم الحرية والإنسانية من الأصدقاء من أسرته ، عندما قبض على أخيه — وهو مادعا لينين إلى أن يتنكر لإنسانيته .

واللينينية — وهى جماع مالينين من آراء وأعمال — لا اللجنة المخطط من نظرية لينين التى نشرت بعد وفاته — تنقل كل الخلافات التى تدور حول شخصيته إلى المستوى السياسى . لقد زادت حدتها ثم وضعت فى إطارها العمل عندما اتجهت الدعوة الناجمة عن الإرادة البلشفية إلى الحياة البطولية . وكان هؤلاء المفكرون الريفيون قصيرو النظر المنكشوا الأكتاف ، لا يقولون نزوعاً إلى الخطأ عند تنفيذ أفكارهم عملياً من رجال الطبقة الوسطى المعاصرين ، أمثال روزفلت وتشرشل.

أو سسل رودس . ومع هذا فبفضل تكوين أفكارهم على نمط ماركس لم يكونوا مؤمنين بالعمل للعمل نفسه ، بل لعله لأمر أكثر خطراً — كانوا متحمسين للعمل . المنتج . لعلمهم كانوا معجبين بالعمل إلى حد التقديس .

وكانت المؤامرات في روسيا القيصرية شرطاً أساسياً لنجاح الأعمال الثورية ، أو هكذا كان البلاشفة يعتقدون . ولكي يكون الإنسان ثورياً محترفاً لابد أن يكون قديراً في تدبير المؤامرات . وانسكب لينين في عدد وإصرار بل في غبطة على عمله . وكل خطابه ومقالاته في الصحف فيها نصائح فنية في تحضير واستعمال المداد السري ، وعمل القنابل ، والانتصار في حرب الشوارع ، وغير ذلك من الموضوعات المماثلة . وفي أثناء ثورة سنة ١٩٠٥ كاد لينين أن يقضى على الخلاف بين الثوريين والماركسيين في روسيا ودعاة الإرهاب ، كالثوريين الاشتراكيين والفوضويين . بل إنه أدهش بعض ذوى العقول المتارة من الإرهابيين بتنظيم عمليات السطو على المصارف ، وبما قام به من عمليات التهرب الأخرى — مما ساهم نزع الملكية ليحصل على نفقات الحزب .

غير أن مؤتمر الديمقراطيين الاشتراكيين الروس الذي ضم البلشفيك والمنشفيك ، الذي عقد في استوكهولم في سنة ١٩٠٧ حرم عملية « السطو » بعد ذلك ، ولكنه أخطأ في السماح للينين أن ينشئ المكتب القنى الحربى ليتولى الدفاع ضد هجمات فرق اليمين المتطرفة . وعلى أساس هذه الرخصة الممنوحة له أخذ لينين وكثير ممن يثق فيهم من الضباط الذين بقوا في روسيا — ينظمون عمليات نزع الملكية على مستوى أوسع وأجراً ، مستعينين بفرق كانت تسمى «البوفيكي» ، وهؤلاء كانوا من الوجهة الرسمية غير تابعين للحزب أو مؤتمرين بأمره . ولتأكيد هذا الاجتماع وجه ما يحصل عليه من مال من هذا الطريق إلى الصرف على تقوية نظام فريته لا إلى خزينة الحزب .

وهؤلاء البوفيكي الذين قاموا أيضاً بعمليات سطو جريئة في موسكو وفي العاصمة نفسها، كانوا أكثر نشاطاً في القوقاز، حيث كانوا يعملون تحت إشراف أحد أهالي جورجيا البارزين، الذي كان من قبل أحد رجال الدين، واسمه يوسف فيساريونوفتش جوجاشفيلي، واسمه الثوري كوبا، واسمه فيما يصدر عنه من مقالات ستالين. وكان ستالين يشترك أحياناً في عمليات السطو. كما كان مشتركاً في مؤتمر استكلهم الذي عدهم خارجين على القانون — ولكن القائد الحربي كان شاباً من جورجيا قوياً جريئاً أحول، واسمه بتروسيان كامو، وكان له دور هام في الحركة الثورية الروسية.

ودرب كامو فرقة من المحكوم عليهم من المقيمين في الجبال، تبلغ عدتهم بضع مئات، وقههم — إلى حد ما — في مبادئ الماركسية. وكان بعضهم غير مرتاحين بعض الشيء إلى الناحية المادية، ولكنهم يستطيعون أن ينجحوا — ونجحوا فعلاً — في عمل كمين للاقتضاض على نخبتهم وعلى إلقاء القنابل. وقام كامو على رأسهم بعدة اقتضاضات على القطارات والمصارف ومراكز الشرطة، وعدة مناشات على رؤوس التلال. وقد قبض عليه عدة مرات واستجوب مع التعذيب الشديد. وحكم عليه مرتين بالشنق، وأجبر مرة على أن يحفر قبره بيديه. وأفلت مرة من الإعدام بادعاء الجنون، ونجح في هذه الخدعة أربع سنوات. وأخيراً هرب من مستشفى الأمراض العقلية للمسجونين في القوقاز إلى فرنسا.

وكان كامو في غير وقت العمل الرسمي شخصاً ظريفاً متحمساً، ينظر إلى لينين نظرة الطالب إلى أستاذه الكبير. وكان لينين وكروبسكايا يقدران حبه لهما. وكان أثيرا لدى والدته كروبسكايا. وعند ما كان لينين نخباً في فنلندا

بعد فشل ثورة سنة ١٩٠٥ . كان كامو يقضى عدة ساعات فى مطبخ السيدة العجوز يأكل اللوز ويفخر بالبيغاوات التى استأنسها عند ما كان فى السجن . ثم كان يعلق إلى جسمه جعبة مملوءة بالمسدسات والقنابل ، ويعود فوراً إلى بطرسبرج فى مأمورية سرية . وقصت كروبسكايا كيف أشاع كامو الذعر مرة بين صحابته من المهاجرين، عند ما كان لينين فى فنلندا، بأن مشى أمامهم فى زهولابسا ملابسه القوقازية ، وحاملاً تحت إبطه طرداً مستديراً لم يشك أحد ممن رأوه فى أنه قنبلة . واتضح أنه بطيخة أرسلتها إليه عمته من القوقاز ، وهربها عبر الحدود لإهدائها إلى لينين .

وأشهر ما قام به كامو نهب عربة المسرح فى تفلس ، قام به تحت إشراف ستالين شخصياً فى يونية سنة ١٩٠٧ ، وكان فيها مائة ألف ريال من العملة الروسية ، وكانت تجتاز شوارع المدينة إلى المصرف فى حراسة حرس حربي وعدد من جنود القوزاق . فألقى رجال كامو قنبلة على العربة من سطح أحد المنازل ، ثم هاجموا بالمسدسات والقنابل اليدوية . واستولوا على النقود وهربوا بها وهرب كامو ببعضها إلى برلين .

وقد لاقوا بطبيعة الحال بعض الصعاب فى مبادلة الأوراق المالية التى غنموها ، فقد أصدر الروس منشورات بأرقام الأوراق المسروقة . وقبض على ماكسيم لتفينوف الذى صار فيما بعد مدير العلاقات الخارجية السوفيتية ، وهو يحاول ترويض هذه الأوراق فى باريس . وفكر أحد زملاء لينين — وهو أحد العقول المفكرة وراء عملية النهب — فى إخفاء أرقام الأوراق التى كانت مع كامو ..

وللقيام بهذه المهمة ، أو فى محاولة إضافة جريمة التدليس إلى جريمة السرقة للحصول على المال، اشترى بعض الوكلاء البلشفيك بعض الأوراق المرقومة من ألمانيا.

هو استطاع جواسيس الحزب رشوة الشرطة الألمانية ، فتفاوضوا عن الجريمة .
ولكن كامو قبض عليه ومعه الأوراق التي نهىها في تفليس . وبينما كان
يتوقع الذنى نصحه أحد المحامين الألمان بادعاء الجنون .

وأظهرت تحقيقات الشرطة في برلين أن البلاشفة استغلوا بطريقة مضللة
قاسية زملاءهم البروسيين السايى النية . والأوراق المعلقة التي أريد بها التدليس
صدرت بدون علم الديمقراطيين الألمان إلى صحبتهم في برلين ، وكانت هناك
دلائل على أن كامو كانت لديه نية « الاستيلاء » على مهرف مندلسون
في برلين .

وأخيراً انتهى لينين إلا أن فرقة البوفيكي خرجوا عن طاعته ، ولذلك عمد
إلى حل الجماعة . ويبدو أنه أحس أن كراسين يرى أن المؤمرات جزء من
برامجه . وفي سنة ١٩٠٩ اختلف الرجلان ، واقطع كراسين عن مضالمة أعماله
الثورية . حتى إذا عاد إلى حظيرة البلاشفة سنة ١٩١٧ ، كان سفيراً لهم في
لندن وباريس .

ورغم قطع صلته بكراسين وانفصاء على البوفيكي لم يتدخل لينين كلية عن
عقيدته ، وهى أن سلب المصارف إجراء قانونى من مستلزمات الثورة .

وفي سنة ١٩١٢ أرسل كامو — الذى هرب من السجن سنة ١٩١١ —
في مهمة سرية إلى البلقان لشراء أسلحة ، ثم دعاه للعودة إلى روسيا لعملية استيلاء
جزئية ، ولكنها كانت غير موفقة . واستمر في استغلال أشخاص عديدين ممن
لا وزن لهم ، وكان من بينهم أناس يعرف أنهم يخدمون جهات أخرى .

وكان من مبادئه ما عبر عنه مرة (على مارواه الكاتب دافيد شوب)

في قوله « بأن اللجنة المركزية يجب أن تكون مكونة من كتاب موهوبين ومنظمين مقتدرين ، وبعض الأفاقين الأذكياء » .

وهذه القاعدة كانت تنطبق على اللجنة البلشفية المركزية . التي كان عدد الجواسيس فيها لا يقلون عن ستة أشخاص .

وكانت نظرة لينين الساخرة للأمور وقسوته وتصرفاته الدكتاتورية في إدارة شئون الحزب ، مما عدها الديمقراطيون الروس والديمقراطيون في الغرب مخالفة للعقل العليا الاشتراكية الحقة . ومما قاله عنه شارل رباپورت الاشتراكي الفرنسي الروسي ، الذي صار فيما بعد أحد مشاهير الصحفيين الشيوعيين « لا يوجد حزب تحت سيطرة هذا القيصر الاشتراكي الديمقراطي ، الذي يعد نفسه الماركسي الأعلى ، وليس هو في الواقع إلا مغامراً كبيراً . حتى تروتسكي المعجب القديم بالينين الذي نفى يديه من النزاع بين البلشفيك والمنشفيك ، لم يستطع التناضى عن بعض تصرفات لينين » . ومما كتبه إلى أحد رؤساء المنشفيك « إن صرح اللينينية الآن لا يعتمد إلا على المغالطات ، ويحمل في ثناياه جرائم انحلاله » .

ومن العجيب أن الاشتراكيين الأوربيين المعاصرين لم يتناولوا بالنقد ما يعد اليوم من أهم تصرفات لينين التي تستوجب المأخذة ، وهو سفره من باريس إلى غاليسيا النمسية سنة ١٩١٢ .

وفي كراكاو — أول بلد نزل فيها هوو كروبسكايا وإنيسأرماند — وفي بورونين ، كان قريباً من الحدود الروسية . وسواء أكان ذلك للاتصال صراحة بممثلي البلشفيك في روسيا — وكان هذا مباحاً قانوناً منذ سنة ١٩٠٧ — أم تهريب الدعايات السرية

والتعليقات للجاءات السرية ، فقد كانت غاليسيا قاعدة أفضل من باريس أو من جنيف . وكانت أيضاً أكثر أنحاء أوروبا حساسية ، وبخاصة بعد قضية ردل . وكانت هيئة الشرطة وهيئة الجيش في الدولة الثنائية قوتى المراقبة على كل ما يرد أو يصدر عبر الحدود الروسية . هذا ولو أنهم أقل شكا من الروس ، فإنه هؤلاء الحراس للامبراطورية - التى لا تزال تحترم فيها تقاليد مترينخ - لم يشتهروا لا بعطفهم على الحرية ولا بسذاجتهم وضعفهم .

ولا شك فى أن لينين كان فى حاجة إلى تصريح من السلطات النمسية قبل أن ينزل غاليسيا هو وزوجه ومساعدوه .

والذى حصل له على التصريح ، صديق من أعجب أصدقائه — ديمقراطى ، اشتراكى بولندى — متمتع بالجنسية النمسية . واسمه يعقوب فويرستنبرج ، وهو الذى أدى فيما بعد دوراً هاماً فى حياة لينين .

وكان منطق النمسيين — وهو منطق صحيح — أن السماح للمهاجرين. البلاشفة بإقامة قاعدة لهم للعمل — وهو ما لم يتعدوه فعلاً — على حدود روسيا. سيساعدهم فى حربهم الباردة مع روسيا . وتقدير النمسا لمركز غاليسيا الحربى دلت عليه المساعدة التى منحت فريقاً آخر من الثوريين المنفيين من روسيا الذين تلقوا بمعونة بعض أصدقائهم فى هيئة الحرب النمسية تدريباً فى حرب العصابات فى بعض المعسكرات السرية فى غاليسيا . وكان النمسيون على اتصال كذلك بجماعة الوطنيين السريين فى أوكرانيا . ومهما كان تقدير فائدة البولشفيك ، فقد كان بعيد الاحتمال جداً — على أساس ما نعلمه من عقلية الإدارة النمسية — أن يكون مسموحاً لهم بالعمل عبر الحدود الروسية إلا تحت رقابة نمسية متيقظة . وعلى الأقل منع عمليات التهرب والاستيلاء من أن تتم عند الحدود . ولعل النمسيين.

كانوا أيضاً فى حاجة إلى مراقبة الإدارة السرية الروسية حتى لا تدس بعض عملائها بين من يسمح لهم بزيارة لينين من الزوار القانونيين أو السريين .

ولا شك فى أن السلطات النمساوية ربما قامت بمراقبة النشاط الثورى للينين دون علمه . من المحتمل ذلك وإن كان أقرب إلى عدم الاحتمال . وتصوير لينين بأنه من عملاء الإمبراطور فرانسيس يوسف أكثر سخفًا من محاولة تصويره فيما بعد بأنه من عملاء غايوم الثانى ، علماً بأن لينين لم يكن يوماً عميلاً لأحد أو لأى شىء إلا ما يحلم به دائماً من القيام بالثورة . وهناك احتمال قوى بأنه فى سبيل تحقيق أحلامه هذه عمل فى الهيئة السرية النمساوية ضد روسيا ، وإلى هذا الحد يحمل لينين قدراً متواضعاً من المسئولية — هو والحكومات المطلقة وتجار الأسلحة — مسئولية الحرب العالمية الأولى .

وكان فى روسيا صحيفة يومية واحدة لها مشترك واحد — هو القيصر . تصدرها وزارة الداخلية . ولم يكن بها إلا أنباء عن نشاط الشرطة السياسية ، والإدارة الجنائية للمسجونين السياسيين . وكان بها كل شىء مهم يعرفه وزير الداخلية نفسه ، ولكن كان عليها رقابة شديدة شأنها شأن سائر الصحف الروسية فى العهد القيصرى . وبعض أنباء الشرطة كانت تعتبر غير لائقة للنشر حتى ولو كانت فى صور مرتبة ليطلع عليها القيصر دون غيره .

وكان يقوم بهذه الرقابة — بطبيعة الحال — رجال الشرطة أنفسهم . أى ضباط الشرطة السرية السياسية (الأخرانا) ، وكانت التقارير تكتب لوزارة الداخلية اسماً ولكن الأخرانا كانت هيئة مستقلة وكانت إحدى الإدارات السرية الروسية العديدة . فإذا تركنا الإدارات غير الرسمية والإدارات الحربية — مؤقتاً — فإن الإدارة العامة للشرطة التى كانت خاضعة لوزارة الداخلية ،

يتبعها بعض الإدارات السرية ، وشرطة البلاط القيصري المسئولة عن حماية القيصر وأسرته لها فرع سرى هام يستعين بعدد من الجواسيس . وزيادة في التعقيد كانت الأخرانا — الشرطة السرية السياسية — تتبع نظام اللامركزية ، وكان لها فروع في كثير من المدن الروسية الكبرى وفي العواصم الأجنبية ، ولكل من هذه الفروع شبكة من المخبزين السريين الخاصة بها .

والأخرانا كانت موجودة — في شكل ما — منذ عهد القيصر بطرس الأكبر . ولكن اتساع رقعة أعمالها بدأ بعد مقتل اسكندر الثانى فى عام ١٨٨١ ومنذ سنة ١٩٠٥ أخذت تتسع اتساعاً هائلاً . وما حلت سنة ١٩١٤ حتى قيل إنها تستخدم ٢٠٠.٠٠٠ ضابط وعميل ، وكانت ميزانيتها حوالى مليونى ريال سنوياً خصص بعضها للصحافة والدعاية . وكان لها — إذا لزم الأمر — أن تصرف على ميزانية سرية تبلغ خمسة ملايين ريال خاضعة لأوامر القيصر الخاصة . وقد تبدو هذه المبالغ قليلة بمعايير الوقت الحاضر ، ولكنها كانت فى الواقع مبالغ طائلة فى مجتمع يبلغ مرتب للموظف فى المخابرات السرية ١٥ ريالاً فقط فى الشهر .

وحاولت الأخرانا — كسائر إدارات الشرطة السياسية السرية فى أوروبا فى ذلك الوقت ، كإدارة الأمن الفرنسية العامة مثلاً — أن يكون لها مخبرون سريون فى مختلف المنظمات الثورية . وكانت منفردة فى اتساع مدى نشاطها وفى تشجيع مخبريها على أن يكون لهم دور هام فى الجماعات التى يتغلغلون فيها ، ولو أدى ذلك بهم إلى الخروج على القانون .

وقد ذكر الجنرال جراسيموف — وكان أحد رؤساء الأخرانا السابقين من سنة ١٩٠٦ إلى سنة ١٩٠٩ — أنه لم يكن لديه يوماً ما أقل من ١٢٠ عميلاً سرياً فى المنظمات الثورية اليسارية . وأضاف فى شيء من المكر السيئ أن معظمهم

لا يزالون يعملون في الحكومة السوفيتية . وكان من أهم رجال الأخرانا السريين : أحد عمال المعادن وأحد منظمي العمال ويدعى رومان مالينوفسكى ، كان جاسوساً أولاً على المنشفيك ، ثم انضم بموافقة الشرطة إلى البلاشفة ، وسرعان ما احتضنه لينين . وكانت سيرته في الحزب ملفتة للنظر ، كان أحد الشياطين الأذكياء في اللجنة البلشفية المركزية ، وأخذ يرقى حتى صار زعيم البلاشفة في البرلمان الإمبراطورى ، ويقال إن الأخرانا سهلت انتخابه نائباً بأن قبضت على كبار منافسيه . وعينه لينين مديراً لبطرسبرج ومحرراً لصحيفة پرافدا البلشفية ، وكان يعرض على لينين وعلى رؤسائه في الأخرانا نسخاً منها دلالة على الولاء والإخلاص .

وبمعرفة مالينوفسكى كان لدى الأخرانا أنباء هامة عن خطط البلاشفة الثورية ونشاطهم ، ولكن رغم أنها كانت تقبض من حين إلى آخر على بعض منظمى حزب البلاشفة السريين ، فإنها لم تستعن بمعلوماتها الخاصة على إضعاف الحزب . بل على التقيض من ذلك عملت على تقدمه ، لا تزيد من نفوذ رجلها مالينوفسكى . فحسب ، بل لأنها كانت تعتبر البلاشفة — بحق — أحد عوامل التفرقة في صفوف الماركسيين الروس . وتقول بعض المصادر إن الأخرانا مكنت لينين — استجابة لاقتراح مالينوفسكى — من الحصول على الأغلبية في مؤتمر للحزب عقد في براج . سنة ١٩١٢ بالقبض على ثلاثة من خصومه البارزين . والارتباط بين الأخرانا وأعدائهم البلشفيين لم يكن عن طريق مالينوفسكى وحده ، بل عن طريق عدد كبير من العملاء الصغار أيضاً الذين يلعبون على حبلين ، وكان ارتباطاً وثيقاً ، حتى إنه ترك أثراً لا يمحى في الاتجاهات العملية لدى الهيئتين ؛ فخوف البلاشفة من الجواسيس الذى اشتد بدرجة مريعة في عهد ستالين كان دون شك بعض ميراث الأخرانا .

ولم تكن علاقة الأخرانا بالجماعات الإرهابية أقل غموضاً من علاقتها

بالديمقراطيين الاشتراكيين . ولقد كان رئيس فرق الاغتيال الثورية الاشتراكية — وهو رجل ملتصق ينم مظهره عن الشر واسمه إفنو أزيو — عميل الأخرانا . ولا شك في أنه قد وضع في المركز القيادي المناسب ، فما كانت أعظم منظمة إرهابية في روسيا لتستطيع الشروع في قتل أحد قبل أن تحصل الأخرانا على تحذير سابق . وكان لهذه الخطة — بلا شك — شيء واحد يؤخذ عليها، وهو أنه إذا لم يسمح لأزيو بعدد معقول من حوادث القتل فإن شهرته المهنية تتزعزع ، ويستبدل الإرهابيون به من هو أقدر منه وأكفاً على القتل . ومن جهة أخرى كان هناك شعور لدى بعض دوائر الشرطة بأن أزيو قد أعطى مجالا أوسع في سنة ١٩٠٤ عندما أعان على تدير قتل — من أقامه بعمله — وزير الداخلية بليف . وزاد هذا الشعور عمقا في السنة التالية عندما ألقى زملاء أزيو القنابل على عم القيصر الدوق سرجي في موسكو . ومن الإنصاف القول بأن أزيو كان غير ملموم في هذه الحادثة المروعة . إذ أنه أبلغ عنها في الوقت المناسب لمنعها ، ولكن الأخرانا، خشية افتضاح أمر عميل لها — إذا هي كانت صريحة في التبليغ — أدلت إلى الإدارة المحلية بتحذير غامض لا يفهم منه أى مدلول .

وعندما أبلغ أزيو فيما بعد عن مؤامرة بقتل القيصر نفسه صمم الجنرال جراسيموف أن يتولى الأمر بنفسه خشية وقوع أى خطأ من صاحبه المعروف بكفائته ، والمعروف أيضاً باحتمال وقوعه في الخطأ .

وقد فشلت المؤامرة بفضل مراقبته الدقيقة دون أن يحدث أى ضرر للقيصر ولا لأزيو . وأخيراً انكشف أمره ، ولكنه لم يقدم للمحاكمة . ولما أصبح الاتهام قويا أعانته الأخرانا على الهرب خارج البلاد، وبقي في عزلة الهادئة حتى مات سنة ١٩١٨ .

واستخدام الإرهابيين في عمليتين متعارضتين عمل يقوم على الخبث والخداع وبخاصة في روسيا، حيث المزاج الوطنى يسمح بعلاقات معقدة ومستورة بمهارة حين الولاء المطلق والحياة النامة . وربما كان فى المنظمات الثورية من عملاء الأخرانا - وأزىو كان واحداً منهم - من لا يعرفون أى الطرفين كانوا يخونونه، أو يخونونه أكثر . وزادت الشكوك فى هذا المجال بسبب تشعب الفرق التى فى الأخرانا واختلافها فيمن هو أولى بالإبقاء على حياته، إذا كان لا بد من التضحية بشخص للتستر على العميل فى الجمعية الإرهابية. وقدمت التعليمات الصادرة سنة ١٩٠٧ للعملاء من رجال الأخرانا من الاشتراك فى الأعمال الإرهابية دون أن يصرح لهم بذلك رؤسائهم. لقد أدت هذه التعليمات إلى تقليل الأخطاء التى كانت تحدث، ولكنها لم تحل نهائياً مشكلات الشرطة الخلقية والعملية، الذين يحاولون حماية الدولة بالتآمر عليها مع أعدائها .

ومساوى هذا النظام بدت بشكل واضح عند مقتل رئيس الوزراء بيترو ستولين سنة ١٩١١، وقد أصيب على رأى من القيصر فى أثناء أحد الاحتفالات فى دار الأوبرا فى كييف .

وكان فرع الأخرانا الخاص بهذه المدينة قد بلغه تحذيراً عن مؤامرة لقتل ستولين من أحد عملائه السابقين - اسمه ديمترى بوجروف - كان على اتصال بالوآثر الثورية، ولم تر الأخرانا القبض على الإرهابيين الذى عينهم بوجروف أملاً منهم فى أن يقفوا منه على تفاصيل خططهم . وأحالت التحذير إلى وزارة الداخلية التى أمرت باتخاذ احتياطات شديدة فى قوى الأمن لوقاية القيصر وكبار المسئولين المقرر زيارتهم لكييف .

ووضعت الشرطة نطاقاً من القوة حول دار الأوبرا، زودتهم بعدد من

الخبرين، وقشيت كل بطاقات الدعوة وبطاقات المرور بكل دقة، حتى لقد بدا أن
أى إرهابى لا يمكن تصور وصوله إلى المبنى، ولكن بوجروف - الذى سمح له
بأن يدلى إلى رئيس الأخرانا الحلى بموجز عن الترتيبات النهائية التى قام بها أصحابه -
استل من جيبه مسدساً عندما وقع نظره على رئيس الوزراء وأراد قتيلاً .

ومن آن لآخر كانت الأخرانا تنظم تهريب بعض العملاء وكسر السجون
لتغطيتهم . ومع أنها كانت تتمسك بأن المبلغين عن الحوادث سلبيون علموا بها .
عن طريق السماع، إلا أن المؤكد أن كثيراً منهم كانوا عملاءها بأدق ما يحمل .
هذا اللفظ من معنى . ومع أن لجنة التحقيق التى يشرت عملها فى عهد كرنسكى
لم تجد دليلاً ثابتاً على أن الأخرانا هى التى أثارت المظاهرات فى الشوارع وأهاجت
الاضطرابات، إلا أن هناك أدلة كثيرة على أنها فعلت ذلك وبخاصة فى ثورة موسكو .
سنة ١٩٠٥، وفى الهياج العنيف الذى حدث فى كرونستاد وفييرج .

وفى ثورة سنة ١٩٠٥ كانت الأخرانا تعمل باتفاق تام مع اليمينيين المتطرفين .
المناهضين للارهابيين، وكان رؤساؤها لا يقرون قتل السياسيين الأحرار الذين
لم يوافقوا على فعلهم، والذى كانت فرق المائة السود اليمينية تقوم به، ولكنهم
تعاونوا معهم فى تنظيم مذابح اليهود بالجملة، التى كانت أهم سبب لقيام الفرق
المتطرفة .

وأظهر مثل على هذا التعاون - بل لعله أكبر دليل على الرجعية الأدبية -
التى أثارتها ثورة سنة ١٩٠٥ ما حدث فى كييف سنة ١٩١١ . فإن المنظمات
الوطنية - أى المتطرفة - اتهمت يهودياً يدعى مندل بيليس بقتل صبي مسيحى .
للحصول على دمه للقيام ببعض الشعائر الدينية .

ولما كان الدليل على الجريمة الذى قدمه للمواطنين الحليون ضعيفاً، طلبت -

الإدارة المحلية في كيف مساعدة بطرسبرج ، واهتم وزير العدل - شسلافيتوف - شخصياً بالموضوع، فلم يكفه أن بين لسلطة الاتهام أنه يتوقع ثبوت التهمة ، بل عمل على أن ترسل الأخرانا عدداً من العملاء إلى كيف ليساعدوا على جمع أدلة الاتهام، وليعملوا - على ما يظهر - على التأثير في الحلفين .

وفي مذكرته إلى القيصر أكد أن المحقق في كيف وصل إلى علمه من مصدر لا يرقى إليه الشك ما يؤكد ثبوت التهمة على بيليس . وجلبت الأخرانا بمصاريف من خزائنها السرية أحد المتعصبين الدينيين المجهولين من طشقند النائية ليكون شاهداً ماهراً في المحاكمة ، وكان هذا الشاهد أحد البابوات الأرثوذكس ويدعى برايتيس، وكان حجة في التاريخ اليهودي، فقرر في ثقة في المحكمة أن القتل لا تدعو إليه كثير من النصوص الدينية السرية فحسب، ولكن العهد القديم يباركه . ورغم الكلام الذي لا معنى له ، والذي كان على الحلفين أن يستمعوا له، أو بسبب هذا الكلام أعلن الحلفون أخيراً براءة المتهم .

وفي أحد مجالس التحقيق الذي عقد في سنة ١٩١٧، عندما اعترف شسلافيتوف بدوره في التهمة ، سأل أحد الحلفين وزير العدل السابق سؤالاً عميماً ولكنه في الموضوع «ألم تدرك أن اتهام بيليس هو في الوقت نفسه اتهام لعقيدة الملايين من مواطنينا ؟. ألم تلاحظ أن هذا الاتهام فضيحة لروسيا لأنها - في القرن العشرين - جعلت منه أساساً لمحاكمة جديدة بالقرون الوسطى ؟ »

فأجاب شسلافيتوف قائلاً : « لا » .

ومع ذلك فهذا الحارس على القانون ، المخدوع غير النزيه، لم يترك الغابات المتعصبين . لقد كان من رجال القانون البارزين ، وكان مهذباً ، وكان فيما مضى رجلاً متمديناً ، وكما كان قبل سنة ١٩٠٥ من

وعارض بكل شجاعة أكثر من مرة المؤسسة القيصريّة التي طبعت أعمال اللجنة سنة ١٩١٧ وكتب تعليقاً فطنا عليها .

ويقول عنه ما كلاكوف وهو يعرفه شخصياً « تحول شسلافيتوف إلى يميني لما هالته القوضى المنتشرة في البلاد، وصمم على أن يهدم تقاليد نظامنا القضائي وأن يخضعه للرقابة السياسية ، لقد أربى القضاء وصار أكبر هدام للعدالة » .

لقد كانت روسيا منذ نشأتها إلى الآن دولة الشرطة ، ولا شك في أن الشرطة القيصريّة ، السرية منها أو العادية ، كانت مستودع الأعمال والتقاليد البربرية ، تتوارثها الأجيال مع شيء من التهذيب القليل منذ عهد إيفان الرهيب . ومع هذا فلم يكن الذين فتحوا أبواب البربرية على مصاريحها في روسيا في القرن العشرين هم قدامى الروس - الحفريات الأدبية المطمورة في الطبقات المظلمة من الإدارة القيصريّة - كما في سائر الحكومات الاستبدادية المتفككة ، بل هم الرجعيون الذين جعلوا من أنفسهم برابرة أمثال شسلافيتوف . ولقد رأينا نفس الظاهرة تتكرر مراراً منذ ذلك الحين ، غير مقصورة على البلاد التي تحكمها الأسرات الملكية .

ولم يكن تغفل الشرطة في الحكومة الروسية ورجال الخبايا في الشئون الخارجية أقل منه في الشئون الداخلية . وكانت الأخرانا نشيطة بصفة خاصة في باريس التي كانت مركزاً كبيراً لنشاط المهاجرين الثوريين ، وكان كبير العملاء ملحقاً في العادة بالسفارة الروسية بدرجة مستشار فيها ولم يكن مسئولاً أمام السفير ، ولكن كان مسموحاً له بالاتصال برؤسائه عن طريق الحقيبة الدبلوماسية . وكان التعاون قائماً بين الأخرانا وإدارة الأمن الفرنسيّة في السنوات التي سبقت الحرب العالمية ، وقد ساعدت إدارة الأمن أحد أفراد الأخرانا على إقامة منظمة

فرنسية روسية خاصة - تحت ستار أنها وكالة سرية خاصة للتجسس على المهاجرين . كما أقامت الأخرانا - دون احتجاج من الحكومة الفرنسية - فرعاً من المنظمات الروسية « الوطنية » يسمى « جماعة إقناذ الوطن » ، وكان يعمل متعاوناً مع المتطرفين اليمينيين الفرنسيين .

ولكى تقضى الأخرانا على احتجاج الاشتراكيين والأحرار الفرنسيين على نشاطها في الأرض الفرنسية ، عمدت إلى رشوة الصحف الفرنسية ورجال الصحافة من أحزاب اليمين ، الذين كانوا على استعداد للسير على المنهج الروسي . واستناداً على تقرير عن الأخرانا ظهر في سنة ١٩١٩ كتبه أحد موظفيها السابقين يدعى أجافونوف أنها أمدت بالمال نادياً للصحافة في باريس كما دفعت إعانات منتظمة لعدة صحف فرنسية ، منها الإكو والجالوا والفيجارو ، وقد حصلت الفيجارو شهرياً على مارواه أجافونوف على ٢٤٠٠٠ روبل أى حوالى ١٠٠٠٠ ريال من الأخرانا .

وعندما عين أرفولسكى سفيراً في باريس عقد اتفاقاً مع الحكومة الفرنسية للتأثير في رأى العام الفرنسى ، وهو أمر يعد ذا صبغة رسمية أكثر من أعمال الأخرانا السرية ، ولكنه ليس أبعد منها عن مجال الدس والمؤامرات . وبهذا فتح الروس اعتمادات خاصة من ميزانية القيصر السرية تدفع للحكومة الفرنسية لتقوم بشراء ضمائر الصحفيين الفرنسيين وأقلامهم لصالح الدولتين . وقد أشار خطاب أرسله رئيس وزراء روسيا في أكتوبر سنة ١٩١٢ إلى زميله رئيس وزراء فرنسا وكان يومئذ هو المسيو بوانكاريه - إلى إحدى مزايا الخطة المقترحة : « إنها سوف تكبح جماح « ذوى الشبهة والمنافسة » في الصحافة الفرنسية ، الذين علم الروس من خلال تجاربهم القاسية أنهم كانوا على استعداد لأن يثوروا عندما يتصلون مباشرة بالصحف الأجنبية) .

وكان لهذه الخطة مزنة أخرى لم تصرح بها الهيئات الروسية ، ولكن في استطاعة المسير بوانكاريه أن يستنتجها. وكان إزفولسكى ينظر إلى بوانكاريه -الوطني الغيور على مصالح وطنه- كأنما هو مبعوث السماء ليكون قطب السياسة الخارجية الروسية في فرنسا . ومما جاء على لسانه تحذيراً لبطرسبرج قبل الانتخابات الفرنسية في سنة ١٩١٣ «إذا فشل بوانكاريه فإن فشله يكون نكبة علينا» وكان أحد الأغراض السرية للحملة الصحافية التي كانت روسيا ترى تمويلها هو محاربة «عناصر السلام» أو العناصر المعادية لبوانكاريه في الحياة الفرنسية العامة. كتب إزفولسكى مرة لرئيسه في سانت بطرسبرج يقول : «لأنس أن على بوانكاريه أن يقاوم عناصر قوية جداً في حزبه ، وهم الذين يقفون موقفاً عدائياً في أغلب الأحوال من روسيا . ويدعون في صراحة أن فرنسا يجب ألا تنزلق إلى حرب تشتعل بسبب مشكلات البلقان» . وقد أثرت الدعاية الروسية في مساعدة بوانكاريه في معاركه ضد العناصر القوية في حزبه ، وبالتالي في نجاحه في حياته السياسية ، وكان الأمر يصل إلى أداء رشوة شخصية إليه كأداء الرشوة إلى الصحفيين الذين يأخذون النقود .

ورغم هذه الصلة غير الشريفة فإن بوانكاريه - وهو عادة رجل ليس من السهل إرضاءه - استقبل أحد موظفي الخزانة الروسية وتم الاتفاق بينهما وبين إزفولسكى على أن تدفع روسيا سراً مبلغ ٣٠٠.٠٠٠ فرنك ذهباً (٦٠.٠٠٠ ريال) ، وعين موظف من وزارة الداخلية الفرنسية ليعمل مع الروس في هذا الشأن ، وكان لابد من مرور وقت طويل حتى يتفقوا على تفاصيل العمل . وكان من رأى الموظفين الروس أن زملاءهم الفرنسيين كانوا مسرفين في الأموال الروسية ، حيث اقترحوا منح ٦٠٠ ريال شهرياً ولمدة ثلاثة أشهر لحررى بعض الصحف اليومية غير الواسعة الانتشار ، ممن لهم علاقات قوية ببعض أصحاب أو صاحبات عدد من السياسيين.

الفرنسيين . ولما قامت الحرب البلقانية الأولى في أكتوبر من سنة ١٩١٢ بلغ من خوف إزفولسكى من نشوب حرب أوروبية عامة ، أن ضعفت حماسه ، وألح على أن يعطى الفرنسيون ٢٠٠٠٠ ريال دون بحث دقيق في وجوه صرف هذا المبلغ .

وفي السنة التالية لم توافق سانت بطرسبرج على إرسال ٢٠٠٠٠ ريال أخرى . للتغلب على حملة متوقعة من الجناح الأيمن على قانون التجنيد الجديد ، الذى جعل التجنيد ثلاث سنوات ، ولتدعيم الوزارة الفرنسية في مركزها الحرج . إلا أن إزفولسكى تدخل لتيسير الأمر بأن اقترح ألا تنفق المنحة في الأغراض الفرنسية . المتفق عليها فحسب ، بل ولتدعيم « مصالحنا في مشكلات البلقان مثلاً » .

وعمل إزفولسكى — بطبيعة الحال — بالاشتراك مع من هم على شاكلته من السياسيين الفرنسيين والهيئة الفرنسية العليا ، وعدد من السياسيين الذين يشاركون . بوانكاريه وطنيته التى لاتلين . وكان منهم ميلران الذى كان رئيس الجمهورية الفرنسية قبل بوانكاريه ثم وزيراً للحرية ، ودلكاسيه الذى كان وزيراً للبحرية . من ١٩١١ — ١٩١٣ . ثم سفيراً لفرنسا في سان بطرسبرج حتى قبيل الحرب العالمية الأولى .

وكتب إزفولسكى سنة ١٩١٢ « لو وقعت الأزمة — لا قدر الله — فسي اتخذ القرار الثلاثة الكبار الأقوياء الذين يترأسون الوزارة : بوانكاريه وميلران . ودلكاسين . ومن حسن الحظ أننا سنتعامل مع هؤلاء الثلاثة » .

ورغبة في التأكد من أن القادة الثلاثة الفرنسيين متمسكون بالموقف المقرر ، لم يكن لدى السفير الروسى أى مانع من استخدام نفوذه — بما في ذلك النفوذ الذى حظى به بفضل سخاء القيصر والأحرارنا — على الصحف كالماتان ، لإضعاف .

تقوِّذ منافسهم الأقل وطنية أو الأكثر اعتدالا (وكما هي العادة في مثل هذه المؤامرات لم يكن المتآمرون صريحين مع بعضهم البعض، ولم يكن إزفولسكى واقعاً من پوانسكاريه الثقة التي يرتاح لها . وكان في بعض الأحيان يهمل إبلاغ حلفائه الفرنسيين عن النشاط الروسى في البلقان ، مع أنه كان ذا أهمية حيوية لجميع أعضاء المحالفة).

ولقد نشر السوفييت بعد الثورة ما دعو به بحق الكتاب الأسود لمخبرات إزفولسكى السياسية، وكان المراد من نشره الكشف عن السياسة السرية التي كانت سبباً في انهيار الدنيا القديمة . ولا شك في أن المهمة قاسية ، ولكن ربما كان تعليقها في غاية القوة .

لم يكن إزفولسكى يمارس سياسة سرية في باريس، ولكنه كان يقوم بمؤامرة سياسية . وكانت الوسائل التي يلجأ إليها ، كما كانت الأغراض التي يسعى لتحقيقها كلها شريرة . ولم يكن هو ولا پوانسكاريه يتآمران على إشعال نار حرب أوربية ، ولكن نظراً إلى أن علاقتهما كانت تشكل نوعاً من التآمر المستمر الخافى عن رأى العام وغير الخاضع للإشراف النيابى في كلتا الدولتين، فقد كان لهذا أثر كبير في قيام الحرب وتعذر تجنبها بأى حال . وسموم المؤامرات التي تولدت عن الحكم الروسى المتداعى أفسدت العلاقات بين روسيا وحلفائها ، كما أفسدت العلاقات بين الحلفاء أيضاً والمعارضة الثورية في البلاد . وفضلاً عن نتائجها الأدبية السيئة ، فإن هذه المؤامرات والمؤامرات المضادة لها كانت من عوامل انحلال الحكومة في الدولة القيصرية وتفتيت سلطان الحكومة .

وكما عجز القيصر عن القبض على زمام الأخرانا ، لم تستطع الأخرانا السيطرة على عملائها، ولو أنها كانت مسيطرة على بعضهم ممن كان لينين يظن أنهم رجاله .

وكان الوزير في سان بطرسبرج -المستول رسمياً عن إدارة الشؤون الخارجية الروسية- خاضعاً لمرءوسه سفير روسيا في فرنسا ، ولكن سفارة باريس لم تستطع -ولو من الناحية الشكلية - أن تكون الهيئة المركزية للأعمال الروسية السياسية المنتظمة .

ولربما كانت السياسة القيصرية بما تستعين به من شبكات الجاسوسية والدعاية أقل اهتماماً بتحرى الخطأ والصواب من معظم البلاد الأوربية قبل الحرب ، ولكن الخطأ الأكبر كان عدم الاضطلاع بالمسؤولية الذى كان يتغلغل - ربما اضطراراً - فى جميع التنظيمات التى يتطلب العمل فيها سلسلة من الأوامر - وبخاصة الأوامر المتعددة . والمؤامرات لا تسمح لليد اليمنى أن ترى ما تفعل اليد اليسرى . وفى بعض الأحيان يكون هذا مفيداً ، ولكن فى أحيان أخرى قد يكون خطراً ، ومثال ذلك عندما تشعل اليد اليسرى عود ثقاب بينما تكون اليد اليمنى ممسكة ببعض المفرقات . لقد كانت تصرفات روسيا الدبلوماسية وشبه الدبلوماسية فى البلقان بين سنة ١٩٠٩ و ١٩١٤ مثلاً رائعا للوصف المذكور .

والذى وضع سياسة روسيا الحديثة فى الجنوب الشرقى من أوروبا كان إزفولسكى قبل مغادرته سان بطرسبرج . ويبدو أنه رأى فيها نوعا من الانتقام السياسى لما أوقعته النمسا وألمانيا من الإذلال لروسيا بعد أزمة ١٩٠٨ - ١٩٠٩ .

ولم يفقه القيصر ولا سazonوف وزير الخارجية الروسية الجديد - على ما يظهر - ما فى هذه السياسة من روح عدوانية، ولكن السفير الروسى فى بلغراد - هارتوج - كان - بلاريب - على علم بها . كان من أنصار الجامعة السلافية ، وقد اختاره إزفولسكى لهذه الوظيفة الجديدة . وقد كان الغرض الظاهر من هذه السياسة هو تحسين العلاقات بين الصرب وبلغاريا وما ينبج من هذا من استقرار فى البلقان . أما الغرض الحقيقى . على الأقل فى تفكير هارتوج - فكان :

بسط من هذا ، وقد عبر عنه في ملحق سرى للمعاهدة الدفاعية التي وقعت بين هاتين الدولتين المتنافستين في مارس من سنة ١٩١٢، وكان الغرض من هذا الملحق سلب مقدونيا التركية وتقسيمها بين بلغاريا والصرب . ونص أحد بنودها على أن تحكيم القيصير يجب أن يقبل في أى خلاف خاص بأملالك الدولتين . وهو إجراء أملاء شئ من بعد النظر بسبب ما هو معروف عن أحوال البلقان .

وعند ما علم بوانكاريه في زيارة رسمية له لروسيا في أغسطس سنة ١٩١٢ بالانص الكامل لهذه المعاهدة وما أضيف إليها من اتفاق حربي ، انفجر قائلا لبازونوف « إن هذه الاتفاقية لا تطابق النص الذي سلم لي . والحق إنه اتفاق على الحرب . فضلا عن ذلك فإن المعاهدة لا تشمل بذور الحرب ضد تركيا فحسب ، بل ضد النمسا كذلك » .

وأراد سارزونوف أن يطمئنه بإبلاغه أن روسيا لها الحق في منع أى عدوان من جانب حلفاء البلقان، وهي لا تحجم عن تنفيذ ذلك. وبالرغم من ذلك فقد وسعت الصرب وبلغاريا نطاق تحالفهما بضم اليونان والجبل الأسود إلى الحلف ، وذلك على أثر هزيمة تركيا في الحرب الإيطالية (التي بدأت بالغزو الإيطالي لطرابلس سنة ١٩١١) ، وشنتا الحرب في سنة ١٩١٢ دون أن تستعمل روسيا حق الفيتو ، ودون أن يبدي بوانكاريه أية علامة من علامات الاستياء .

ولقد كان الرئيس الفرنسي صادق القراسة في ناحية ما، ولكنه كان مبالغاً في الخطر من ناحية أخرى . لقد سببت الحرب البلقانية أزمة أوربية عنيفة وأتاحت لقيصر ألمانيا فرصة لإسماع العالم صليل سيوفه ، وجعلت الموقف العام في أوروبا أخطر منه في أى وقت آخر. ولكن الحرب التي تسببت عن هذا الموقف لم تكن إلا الحرب الثانية التي اشتعلت في البلقان . وانتهت الحرب الأولى بهزيمة تركيا بوطرها فعلا من أوروبا ، ولكن الحلفاء للتصيرين — كما كان متوقعا — أخذوا

يقتنازعون الغنيمة . فأغارت بلغاريا على الصرب واليونان . وأغارت رومانيا -
التي لم تشتبك في النزاع الأول على بلغاريا، واشتركت تركيا بطبيعة الحال في الحرب
طمعاً في استرداد بعض خسائرها . وفي نهاية الحرب كانت تركيا قد خسرت
فعلاً جزءاً كبيراً من أملاكها وكسبت بلغاريا والجبل الأسود ورومانيا، ولاسيا
اليونان - بعض الأراضي . وزاد سكان الصرب مليون نسمة ، ولكن حلهم
في الحصول على ميناء على البحر الأدرياتي تبخر بإصرار النمسا على إنشاء دولة ألبانيا .
لقد تغيرت الخريطة البلقانية ولكن الجو السياسي في البلقان لم يتغير . كل فرد
في البلقان يكره الآخر ولربما يكرهه أكثر من أى وقت مضى .

وكانت أخطر آثار الحروب البلقانية غير مباشرة ، فألمانيا - خوفاً من وقوع
هجوم جديد على تركيا ينتهى بالقضاء عليها - أخذت تتقرب من النمسا ، التي
أثارت سياستها في البلقان شتتاً من القلق . وأرسلت بالاتفاق مع شباب الأتراك
قائداً ألمانيا - ليمان فون ساندرز ، لتنظيم الجيش التركي على أسس حديثة .
وهذا الإجراء أحنق وأخاف روسيا . فلو أن الجيش الألماني - في حالة تفاض
الحكومة التركية الضعيفة - توطن مركزه على ضفاف الدردنيل فلن يكون في
هذا وقوف أمام مطامع روسيا فحسب ، بل سيكون فيه تهديد لسلامتها . وفي المجلس
الإمبراطوري الذي عقد في سان بطرسبرج في ٢١ من فبراير سنة ١٩١٤ كان آخر
ما استقر عليه رأى المجلس هو ألا سبيل إلى تحقيق أهداف روسيا التاريخية إلا
بحرب أوربية عامة ، وهى الاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة على المضيقين ، ومع
ذلك - فقد قدر المجلس - أن روسيا لا تكون مستعدة الاستعداد الكافى لأن
تشتبك في حرب كبرى إلا بعد عامين أو ثلاثة . ومع أن هذا التقدير لم يعدل من سياسة
روسيا في البلقان ، إلا أنه أدخل فيها جانباً واقعياً ، وبخاصة في بلغراد . ومن الأسف
أن هذا لم يكن صحيحاً إلا في السياسة الروسية الرسمية ، أى سياسة اليد اليمنى .

أما سياسة اليد اليسرى فقد ظلت هوجاء كعادتها — وبخاصة في بلغراد .

ولقد ظل هارتوج الوزير الروسى يعمل عدة سنين بكلتا يديه ليؤلف بين البلاد البلقانية ضد تركيا ، ولتشجيع الآمال الصربية في وحدة سلاف الجنوب . تحت القيادة الصربية ضد سياسة النمسا . فباليد اليمنى كان يحاول الوصول إلى هذه الأغراض باتصالاته السياسية العادية — بالملك بطرس وولى العهد اسكندر وبالحكومة الصربية . وباليد اليسرى — وبخاصة عن طريق الكولونيل أرتامانوف . ملحقه الحربى — كان يمنح معونات مالية وشبه حرية وغير ذلك إلى منظمات خاصة : فى الظاهر ، وهى فى الواقع منظمات شبه رسمية لما كان يسمى من باب التعمية : للمواطنين الصربيين . (وفى نظر النمساويين والترك والبلغار هم أمبراليون صربيون) .

وكان أخطر هذه الجماعات الثائرة التى يؤيدها الروس فى الصرب جمعية سرية . تسمى نفسها الاتحاد أو الموت ، ولكن اسمها الذى اشتهرت به اليد السوداء نظراً لعقليتها وتنظيماتها المبينة على الدس والمؤامرات . وبناء على قانون هذه الجمعية تهدف اليد السوداء إلى وحدة « جميع الصربيين » بما فيهم بطبيعة الحال صربيو مقدونيا التركية ومقدونيا البلغارية والمقيمون منهم فى البوسنة أو فى الدولة الثنائية . ويقتضى نشاطها فى الوطن الضغط الشديد لتهيئة الدوائر الرسمية الصربية والرأى العام الصربى للرسالة الصربية المرموقة ، على أساس « يدمونت سلاف الجنوب » أى أداء الدور الذى لعبته سافوى فى الوحدة الإيطالية بوحدة سلاف الجنوب . وفيما وراء حدود الصرب كانت اليد السوداء تسعى إلى بلوغ أهدافها بالعنف المصحوب بالإرهاب ، مع ازدراء ما كانوا يسمونه الدعاية العقلية . وبمثل هذا المنهج كانت تعمل اليد السوداء على أساس الخطط التى تنطوى على المؤامرات ، ولو أن ولع البلقانيين بالمؤامرات لذاتها كان سبباً لبعض أعمالها المحزنة ، وكان الأعضاء يعرف

بعضهم بعضاً بأرقامهم، وكانوا يقسمون أغلظ الأيمان على التكتم الشديد وعلى الطاعة العمياء . وكانوا يرعون الطقوس التي استعاروها من الجمعيات الماسونية ومن منظمات الكاربوناري الإيطالية في القرن التاسع عشر ومن مصادر أخرى . ورغم هذه المظاهر المسرحية كانت اليد السوداء منظمة جدية ، أعضاؤها رجال من ذوى الحزم والنفوذ، وكانوا شديدي التعصب، ولكن التعصب السياسى فى البلقان لم يكن عجيباً أو متقدماً . وكان الجيش ممثلاً فى الجمعية تمثيلاً قوياً، ولم يكن رئيسها إلا الكولونيل دراجوتين ديمتريشفيك رئيس المحاربات الحربية فى الجيش الصربى . وقد لبثت اليد السوداء حقبة طويلة ملحقاً غير رسمى للجيش الصربى ، وإلى درجة أقل كانت ملحقاً أيضاً لإدارة الشؤون الخارجية الصربية . وديمتريشفيك — الذى كان يدعى فى ميدان المؤامرات باسم أيس — كان من عادته أن يخلط بين عمله فى الجيش وعمله فى اليد السوداء بلا اهتمام، حتى لا يعرف زملاؤه ولا أعضاء الجمعية ولا رؤساؤه فى الجيش أى عمل يعمل . وأمكنه بخلط عمله هنا بعمله هناك أن يقوم بأعمال جسيمة لكل من الجهتين دون أن يتعرض للمراقبة من أية واحدة منهما — وكان هذا يروق له كثيراً .

وأيس — اسم أنسب له وأفضل من اسمه الطويل — كان رجلاً عريض الكتفين ضخماً العنق كبير الرأس ، كث الشارب على نمط ضباط الجيش الصربى فى ذلك العهد . وكان شجاعاً وقد ينقلب إلى وحش ولكنه من نمط ضباط الجيش البيروقراطيين ، ويبدو من صورته أنه ليس حاد الذكاء ومن المحتمل أنه كان كذلك . ولكنه كان دؤوباً على العمل وذا شخصية قوية . وكان متفوقاً فى التخطيط للحروب ، كما كان ممتازاً فى حرب العصابات وأنواع أخرى غيرها ، ولا يبدو عليه أنه واسع الخيال ، كما يبدو أن حماسه الوطنية ذات طابع عادى . (٢٠٢ — الأسر)

ومما قاله أليس بعد الحكم عليه بالإعدام فى سنة ١٩١٧ فى مهمة غامضة بالحياة «إنى أموت بريئاً ومعتقداً أن موتى من أجل الصرب لأسباب أسمى». وهناك ما يحمل على الاعتقاد بأن لدى أليس أسباباً خاصة — وهى مناسبة قراءته — للاسهام فى تنفيذ حكم الإعدام فيه. ولكن استعماله لهذه العبارة التقليدية فى مثل هذا الوقت العصيب فيه شىء من التظاهر.

ولم يكن لأليس خارج دائرة عمله أو دائرة أعماله إلا اهتمامات قليلة، وكانت حياته الخاصة عادية ومعتدلة. ويذكر ابن أخيه أنه محبوب فى الوسط العائلى. وليس فى مسلكه — على ما يبدو — ما يجعله جديراً بالقيام بدور النجم التاريخى الشرير، ولكن الظروف هى التى جعلت منه الرجل الذى عهدنا.

والسفارة الروسية كانت عاملاً هاماً فى هذا المقام. فقبل حرب البلقان، وفى أثناء اشتعالها — وهى الحرب التى كان لليد السوداء دور هام فيها وهو تنظيم حرب العصابات وراء خطوط العدو — كان الروس يمدون هذه المنظمات بالمعونة المالية والمعونة السياسية، وكذلك ساعدها إسكندر ولى العهد. ولم يكن الاتصال الوثيق قائماً بين الملحق الحربى الروسى وحده وبين أليس وقتاً طويلاً، بل كان هذا الاتصال قائماً بين أليس والسفير هارتويج، ولا توجد دلالة على أن أموالاً روسية وصلت إلى يده، ولكن الروس كانوا يعدونه صديقهم الخاص، إن لم يكن أحد عملائهم. ومن الطبيعى أن يعملوا على تقوية نفوذه.

وكان نجاحهم — بما صحبه من أعمال اليد السوداء فى مقدونيا — باهراً وقد زادت حروب البلقان من مقام طبقة ضباط الصرب، كما زادت من شجاعتهم وإقدامهم. وكان دذا بمخاطبة شأن من كان ينتهى إلى اليد السوداء منهم وأولهم أليس.

لقد أصبح أليس شخصية هامة فى الحياة السياسية الصربية، وبلغ من أهميته

تأنه اختلف مع ولى العهد ومع رئيس الحكومة ، وكان خلافه مع ولى العهد على إحدى الروايات - أن اسكندر لم يغفر له ضنه عليه برئاسة اللجنة التنفيذية لليد السوداء . واشترك أيسس في مؤامرة قتل آخر ملوك أسرة أبرينوفتش . وكان جبه للأمره التى ساعد على ارتقاءها العرش غير حماسى (ولوأن محاولة وصفه بأنه جمهورى النزعة أو ثورى ماركسى لم تكن مقنعة) وقد اتهم بأنه كان على وشك القيام باقلا ب ضد الحكومة عند قيام الحرب .

ولهذه الأسباب جميعاً وبسبب الفوضى فى البلقان التى جاءت على أثر الحروب البلقانية ، والتى أخرجه من مسرح الأحداث التى كان يجيدها - أخذ هارتويج ابتداء من سنة ١٩١٤ يصغى إلى النصائح التى كان يتلقاها من سان بطرسبرج والتى قضت عليه أن يتعد عن أيسس .

ومع ذلك لبث أرتمانوف للمحق الحربى يرى زميله وصديقه الصربى كل يوم تقريباً . ومن الطبيعى أنهما كانا يقومان بعمل سرى مشترك عبر الحدود النمساوية بمعونة سلسلة من مفتشى الجمارك الصربية وحرس الحدود الذين كانوا من عملاء أيسس . وكانت مساهمة أرتمانوف فى المهمة تقتضى دفع ١٦٠٠ ريال - وهو مبلغ مغر بالنسبة لمستوى الأحوال فى البلقان - لتمويل الشبكة السرية التى أقامها أيسس فى دولة النمسا والمجر ، وبخاصة فى البوسنة . وكان عملاؤه يتصيدون الأخبار الحربية ، ولكنهم كانوا يعملون كذلك فى الدعاية لأعمال إرهابية - كأن يوزعوا مثلاً النشرة الشهرية لليد السوداء التى كانت تسمى بيدمونت . ومما يدعو إلى العجب حقاً من وجهة نظر دستور اليد السوداء ، أنهم لم يشجعوا الأعمال الإرهابية المحلية . وحسباً كان متبعاً مع شركاء أيسس السابقين كان أرتمانوف على علم تام بالجانب السرى من المشروع . وليس من غير المؤكد أنه كان يبلغ ذلك إلى سان بطرسبرج ، وإلى هارتويج ، وعلى كل حال لو أن أى

موظف روسى أبدى دهشته لهذه النار الموضوعة بجانب فتحة برميل البارود- البلقاني، لأجاب أرتمانوف أنه ليس إلاجندياً بسيطاً يقوم بواجبه في جمع المعلومات- الحرية المتعلقة بأحد أعداء دولته الأقوياء ، ولا شك في أن أيس كان يعيد إليه- من وقت إلى آخر بعض التقارير الهامة من وجهة النظر الحرية ، وعند ذلك- يستطيع أرتمانوف أن يرسل إلى رؤسائه خرائط للنمسا مؤشراً عليها بالأعلام، الروسية والصربية ، مما يدل على التقدم المستمر لإدارة الخبايا الصربية التي- كان يعمل على تقديمها .

ومن الآن سنسير في ميادين ملغمة . إن بعض الجدل القديم الذي دار حول- أسباب جريمة سراجيفو قد انتهى عند ما ظهرت للمؤرخين معلومات جديدة في- الموضوع ، ولكن لا يزال هناك شيء من الغموض في بعض التفاصيل الهامة- يكفي لبقاء خلاف في الرأي .

والرأى القائل بأن الاغتيال كان أصلاً مؤامرة محلية نشأت تلقائياً في عقول- برنسيب الشاب وبعض زملائه ، وساعدتها بعض العناصر الوطنية غير المسؤولة- مساعدة مرتجلة - لا يمكن رفضه رفضاً باتاً . كما لا يرفض الرأى المقابل الذي- يتلخص في أن قتل ولي عهد عرش آل هابسبرج كان موضع دراسة عميقة على- مستوى حكومي عال في بلغراد أو في سان بطرسبرج ، ولكن أكثر الآراء إقناعاً- على الأقل للصحفي الذي كانت لديه الفرصة للتحزى ودراسة حوادث القتل- السياسي التي وقعت في أوروبا في أوقات لاحقة - هو الرأى الوسط بين الرأيين- السابقين المتطرفين، والذي يعتمد على ما انتهى إليه المؤرخ الإيطالي لويجي ألبرتيني- بعد دراسة عميقة للوثائق والآراء الشهود .

وبناء على هذا الرأى يكون أيس هو الذي دبر مقتل فرانسيس فرديناند-

وصوفى هو هنجبرج فى سراجيفو . وقد اعترف بهذا هو اعترافاً مطولاً سلمه إلى القاضى
فى أثناء محاكمته فى سالونيك (قاعدة الجيش الصربى فى أثناء الحرب) . وإذا كان
مانشر بتصريح من الحكومة الصربية فى عام ١٩٥٣ على أنه النص المزعوم للاعتراف
يحتوى على أجزاء توهم أنه دعاية من الرئيس تيتو - فإن هذا لا ينفى أن به أجزاء
مطابقة للحقيقة . وفضلاً عن هذا ، فهناك شهادة الكثيرين الذين أدلى إليهم
أليس بأحاديث حول هذا الموضوع .

لقد قال أليس إلى أحد الضباط الذى كان يصحبه فى العربة إلى المكان
الذى تنتظره فيه الفرقة المكلفة بإطلاق النار « يبدو لى الآن كما يجب أن
يتضح لك أيضاً أنى اليوم سأقتل بالبنادق الصربية دون غيرها لأنى أنا الذى دبرت
جريمة سراجيفو » .

وهناك عدة دلائل مستمدة من الظروف تؤيد هذه الشهادة المباشرة . ومن
جهة أخرى توجد دلائل كثيرة تدل - إن لم تكن تقطع - على أنه كان يتصرف
دون موافقة الهيئات الصربية العليا ، وربما دون أن يدرك أن هذا العمل قد يجر
إلى حرب أوربية . ومن المشكوك فيه أنه كان يتمتع حتى لو كان مدركاً
نتائج عمله .

إن ماذا كان الدافع لديه؟ إن أكبر دافع هو أن أليس كان يعتقد أن فرانسيس
فردينا ندعو خطير لما تهدف إليه اليد السوداء بين وحدة السلاف . فإذا ما ولى
العرش بعدهم العجوز فقد يقوم الإصلاح الذى يقضى على ما يسبب سخط الصربين
والكروات من رعايا الدولة الثنائية الذين يقيمون فى البوسنة وغيرها فلا يرغبون
حينئذ فى الانضمام إلى الصرب ، فمن المهم إذن أن يموت ولى العهد قبل الإمبراطور
العجوز ، وكانت زيارته لسراجيفو هى التى هيأت له الفرص لعمل ترتيبات قتله .

والجامعة الصربية — أو اليوغوسلافية الناشئة — كانت جذورها عميقة في البوسنة والمهرسك اللتين انضمتا حديثاً . وفي سنة ١٩١٤ بدى في مقاومة هذا الشعور في كرواتيا التي تحكمها الجر . وكان الرأي العام في الصرب المستقلة يعطف على المضطهدين في النمسا . ويجب ألا يغيب عن البال كذلك أنه بعد ضم البوسنة إلى النمسا — وهو في ذاته تمهد للشعور الصربي — كانت سياسة إيرنتال في نظر كثير من الصريين الوطنيين إهانة موجبة إلى شعورهم الوطني ، ولم يكن جميع الصريين أو الصريين الكروات داخل الدولة الثنائية أو خارجها يحملون الروح العدائية التي كانت لدى أمثال برنسيب أو أيس ، والتي كانت تدفعهم إلى تحقيق مطامعهم أو الدفاع عن شرفهم أو حماية استقلالهم . وكان من المعقول أن يكون كثير من الصريين الكروات سواء في الصرب أو في النمسا والجر راضين — ولو مؤقتاً — عن الإصلاح الذي كان فرديناند يحاول القيام به (وإن كان من المشكوك فيه نجاحه في تنفيذه) .

وعلى هذا فلو كان الرأي الذي أبداه أيس هو الرأي الصحيح — كما يبدو محتملاً — فإن جريمة سراجيفو تتفق مع نمط الجرائم الوطنية السياسية الذي أصبح معروفاً لدينا . لقد كانت هي الجريمة التي تعبر عن سحق الأقلية المتحمسة لتحول دون التوفيق وجمع الكلمة ، حتى تحمل الأكثرية المعتدلة على اعتناق وجهة نظر الفريق المتطرف .

وفوق كل هذا كانت سراجيفو — من حيث فكرتها ، والدافع إليها — أحد نماذج الهيئة السرية التي كان الغرض الأصلي منها محبوباً حتى عن الدين . قاموا بتنفيذها . ولم يكن برنسيب وشركاؤه الطابة إلا ضحايا مثل ضحايا الجريمة أنفسهم ؛ فإن أيس — الذي أناب عنه أحد الضباط الذين يثق فيهم — لم يقيم

بعمونة فريق برنسيب فحسب أو يمدهم بالسلاح أو يوصيهم ، وإنما وجههم إلى العمل الذى طلبه منهم .

وهؤلاء الأولاد ، سواء نظرنا إليهم على أنهم أبطال أو مجرمون ، كانوا من ذوى النية الحسنة، دفعوا أو خدعوا بأحد المثل العليا الوطنية التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر . وأيس الذى كان يشاطرهم مثلهم الأعلى لم يشاركهم فى عملهم ، ولم ينظر إليهم على أنهم أداة أو ييادق فى شطرنج المؤامرة . ربما كانت حماسهم الساذجة لا تفيد فى شيء . وكان يرجو أن يحجب شغفهم بمثلهم العليا ، التخطيط الفنى الذى دبر هذا العمل .

وكان أيس فى حاجة إلى إخفاء دوره فى هذه الجريمة عن حكومته بمخاصة . وهذا هو السبب الذى جعله يستخدم هواة بدلاً من قتلة محترفين ممن هم لا شك تحت تصرفه فى البوسنة . ولقد كانت سراجيفو نتيجة مؤامرة هيئة سرية غير مسئولة ، ولم يكن أيس فى ملابسه الحرية يوم أرسل فريق برنسيب فى هذه المهمة الخطيرة . بل لم يكن من المؤكد أنه كان يعمل بوصفه عضو اليد السوداء وطبقاً لبعض الروايات ، عندما علمت اللجنة التنفيذية لليد السوداء بالغرض الذى أرسل أيس جماعة برنسيب من أجله ، أمرته بناء على رأى الأغلبية بأن يستدعيهم (ولو أن أمراً كهذا كان قد صدر فعلاً لأهمله أيس) .

ورئيس الحكومة الصربية — وهو عدو أيس — علم بمؤامرة القتل من أحد الخبيرين السريين الذين أدخلوا فى عضوية اليد السوداء واتخذ فعلاً الإجراءات الرسمية لوقف تنفيذها . وأرسلت التعليقات إلى السفير الصربى فى فينا عن طريق البرق لتحذير الحكومة النمساوية . ولم يكن فى التحذير ما يستدل منه على دور اليد السوداء ، أو يشير إلى وقائع تساعد على القبض على القتلة قبل تنفيذ المؤامرة ،

وإلا فقد حكم رئيس الحكومة الصربية والسفير الصربي على نفسيهما بالموت .
ومن باب المصادفات أو على أى أساس آخر أفسد السفير الصربي التعليقات الواردة
إليه من بلغراد بسبب أسلوب التحذير الغامض . والموظف النمساوى الذى أرسل
إليه وهو وزير المالية المسئول عن حكومة البوسنة لم يقدر ما فى التحذير
من خطر ، مع أنه وجهه الوجهة الصحيحة ، إلا أن القوضى الإدارية فى حكومة
هابسبرج المنحلة والروتين الحكومى اتفقا مع النظام المتخلف فى الحكومة
الصربية الحديثة .

وإن أعمق مشكلة مستعصية على الحل فى سراجيفو هى مقدار نصيب
روسيا المباشر فى القتل . هل كان هارتويج الوزير الروسى أو أرتمانوف الملحق
الحربى يعملان مقدماً بالخطة التى كان أيبس يضعها . وهنا يقرر ألبرتيني مؤكداً أنه
من غير المحتمل مطلقاً أن هارتويج كان على علم بمؤامرة القتل . أما أرتمانوف فله
قصة أخرى ، قصة غريبة جداً ومتناقضة . فإحدى الشهادات تقرر أنه لم يكن
يعرف أن أيبس كان يدبر القتل فحسب ، بل طلب مواقعة سان بطرسبرج
وحصل على هذه الموافقة . وبعد الحرب وبعد الثورة الروسية التقى ألبرتيني
— وسعيه لمعرفة أسباب الحرب أشبه بإحدى القصص البوليسية — بأرتمانوف
بعد إحالاته على الاستيداع فى يوغوسلافيا ، وسأله إن كانت له يد فى إشعال نار
الحرب . ولا بد أن هذا اللقاء كان لقاء عجبياً . واعترف أرتمانوف بتعاونه
الوثيق مع أيبس ، ولكنه نفى أنه استشير فى القتل ، وقال إنه كان بعيداً عن
بلغراد فى أجازة قضاها فى سويسرة وإيطاليا قبل وقوع الجريمة . وتأيداً لهذا
القول سجل هذا المؤرخ الإيطالى المدقق يومياته فى يونيه ويوليو سنة ١٩١٤
وليس بها إشارة إلى مأساة سراجيفو ، ولم يكن فيها من إشارة لذلك اليوم

المشتوم - يوم ٢٤ يوليو - إلا العبارة الموجزة « إنذار نمسوى للصرب » ، وبعدها
كبة أرتمانوف، من مصروفاته اليومية « قهوة ٢ ليرة » .

وعاد ألبرتيني من المقابلة غير مقتنع بما قيل له . واقتنع بأن الجنرال ليس
حاد الذكاء ، وأنه ليس على خلق عظيم ، وظل مدة لا يفقه معنى لغياب
أرتمانوف المستمر من بلغراد بعد الجريمة ، وفي أول المدة العصبية التي خلفتها هذه
الجريمة . والواقع أنه كان غياباً طويلاً عجيباً . قد يكون على قيد الحياة من يعلم
القصة كلها ، إنه الملحق الحربى الروسى اسكندر ورشوفسكى الذى حل محل
أرتمانوف في أثناء غيابه . ويقول صديق له بولندى يسمى بورزينسكى في مذكراته
التي طبعت في إيطاليا سنة ١٩٢٦ إن حادث القتل (في سراييفو) دبر بمعونة
الملحق الحربى الروسى في بلغراد الكابتن ورشوفسكى . وورشوفسكى هذا عين
بعد ذلك وزيراً للحرية في وزارة كرينسكى . وهو شاب أعرفه معرفة تامة
من مدة طويلة ، وقد أخبرنى بكل صراحة عن أصل المؤامرة ووسائل الاستعداد
لها وتنفيذها .

ومن سوء الحظ أن ورشوفسكى لو كان على قيد الحياة اليوم لا يحتمل
أن يزيدنا علماً بهذا الموضوع . وآخر ما نعلمه عنه أنه كان يشغل وظيفة كبيرة
في الجيش الأحمر ، وهو نبأ غريب في حد ذاته .

وآخر ما انتهى إليه ألبرتيني أن أرتمانوف علم بالمؤامرة ولم يعمل شيئاً لمنعها .
ولا يعتمد المؤرخ الإيطالى - على خلاف كثير من المصادر - أن أرتمانوف
أكد لأيس أن الصرب لا يمكن أن يعتمد على معونة روسيا الحرية إذا
ما أدت هذه الجريمة إلى نشوب الحرب مع النمسا .

أما مسألة إبلاغ أرتمانوف أو ورشوفسكى مشروع القتل لأى فرد في سان

بطرسبرج فلا تزال موضع بحث ودراسة ، وربما بلغ أحدها أو كلاهما الموضوع للجنرال سوكلينوف وزير حرية روسيا ، الذى لم ير إبلاغه للقيصر لأسباب لديه . - ولعل من تلقى الخبر - لو كان هناك من تلقاه - كان رجلاً من غير رجال الحكم ذا شخصية قوية غير رسمية فى روسيا . كأن يكون دوقاً كبيراً من دوقات الحرب ، وقد يكون دوقة منهم كذلك ، وقد يكون قد ضاع بين متاحات الحكومة الروسية الواسعة . كل شيء جائز ، بل من المعقول أيضاً أن أرتمانوف قرر بقاء الموضوع كله سراً بينه وبين صديقه أيس . إن انهيار روسيا فى عهد أسرة رومانوف أدبياً وإدارياً قد بلغ مداه فى منتصف سنة ١٩١٤ . ليس فقط عندما أمكن اليد اليسرى أن تقوم بأخطر الأعمال دون علم اليد اليمنى ، بل عندما كانت إحدى أصابع اليد اليسرى تجذب وحدها مستقلة عن سائر أصابع اليد ، الزناد الذى أشعل نار الحرب العالمية .

وشينها بهذه الخيانة ، برهن سفاحو سراييفو ودسائس أزوفسكى ومؤامرات الأخرانا ، أنه وراء الفراغ الحلى فى السلطة فى الجنوب الشرقى من أوروبا - بسبب مجز أو ضعف إمبراطورية آل هابسبرج أو الإمبراطورية العثمانية - فراغ فى المسئولية ينجح على مساحة أوسع . لقد أخذت الحكومة المسئولة تنهار تحت ضغط عوامل العصر الحديث ، كما أخذت المدنات أيضاً فى الانهيار فى البلاد ذات الحكم المطلق وفى بلدان بعض حليفاتها المتمتعة بشيء من الحكم النيابى . (والحكومات النيابية لم توجد مطلقاً فى البلقان - على الأقل لعدة قرون) . - لقد كان الانهيار - فى الواقع - محدوداً ، والرجوع إلى البربرية كان مقصوراً على بضع بلاد ، والتقهقر إلى عهد الفوضى حل فى قطاعات معينة . ولقد ظل الفلاسفة يتفلسفون ، وعمال الرصاص فى أعمالهم دائبون . والقطر على طرقاتها سائرة ، ورسائل البريد إلى أصحابها واصله ، والضرائب مجلوبة ، والسكرارى إلى

— ٣٢٣ —

*السجون مسوقة ، والعاشرات بطاقتهن بالتصريح مهبورة . إنما شئ واحد هو الذى تأثر ، ذلك هو المركز الرئيسى الذى يقبض على أزمة الأمور فى الدولة .

وكم كان الأمر محزنًا — لا بسبب حادثة سراجيفو وحدها — ولكن كما سنرى فيما بعد من فشل السياسة العالمية القديمة فى منع الأزمة التى تولدت عنها . وجرت إلى الحرب الأوربية العامة التى لم يكن أى إنسان راضياً عنها أو راغباً فيها .

الفصل الحادى عشر

فِشَل السِّيَاسَةِ

إذا كان هناك شئ* واحد تفوق فيه آل هابسبرج وأجاده فهو دفن موتاهم .
 إن الأسرات الأخرى تستغل حفلات التتويج أو القران أو اليوبيل لتجدد بهاء
 صورتها العامة وتقوى روح الولاء عند رعيها . أما آل هابسبرج فقد كان جل
 اهتمامهم موجهاً نحو الجنازات، وحتى في الأوقات العادية كانت وفاة أحد أباطرة
 الأسرة أو أحد أولياء العهد أو أى عضو قريب من أفرادها هى الفرصة المناسبة
 لاحتفال جنائزى فخم موخش رهيب . لقد هيأت مأساة سراجيفو الفرصة
 للدولة لاحتفال بأجاده على مستوى فرعونى عظيم ، وعلى نمط سيامى فريد .
 ومع أن فرانسيس فرديناند لم يكن يوماً محبوباً لدى الشعب، إلا أن موته فى ميدان
 الشرف من رصاصة قاتل ثورى — ذلك الموت الذى زاد من قسوته اقترانه
 بموت زوجته وهى بجانبه — قد أيقظ ما خمد من وطنية النمساويين للموالين .
 وهز ضمائر عدد عديد من بين جماعات الأقلية فى الإمبراطورية، عن يدينون بالحرية
 أو تقرير المصير أو القومية السلافية الجنوبية ، ولا يؤمنون بالقتل (لا يزال معظم
 الشعوب فى بلاد الدنيا القديمة — ما عدا روسيا والبلقان — متأخرة فى هذه
 الناحية) .

ولم يكن وقع هذه الجريمة على ضمائر الأسر الحاكمة أمراً هيناً ، وهى التى
 يحكم رباطها نظرية الحق الإلهى . ومنذ عام ١٨٤٨ فقدت الروابط العائلية
 بين الأسرات الحاكمة فى أوروبا وكذلك عناصر الأيديولوجية المشتركة التى
 يعتقونها أهميتها كعوامل سياسية ، ولكنها كانت لا تزال مرعية فى سنة ١٩١٤

ولربما كان في إمكان مترنيخ جديد أن يستغل هذه الموضوعات التي كانت سائدة في دبلوماسية القرن التاسع عشر ، ليكسب للنمسا تأييداً لرغبتها في توقيع العقاب على الصرب ، نظير اشتراكها في الجريمة ، وإخضاع الأعمال العدوانية التي قد تفجّم عن ذلك .

ولربما أعان على السياسة المترنيخية الجديدة إعداد موكب جنائزى رسمى للدوق الشهيد ، يشترك فيه فيينا اشتراكاً جاداً جميع الروس المتوجة في أوروبا ، بل ربما على الأقل قد قضى على حالة التوتر التي كانت بين الدول ، التي سبقتها، حادثة سراييفو . وربما أعانت بريطانيا أو أية دولة أخرى على إيجاد حل لمنع وقوع الأزمة القادمة .

ومما يؤسف له أن الإمبراطورية - رغم ما لديها من الدبلوماسيين الذين يعتقدون مبادئ مترنيخ - لم يكن لديها من له مهاراته في وضع الأمور في نصابها . بل لم يكن فيها مدير جنائزى ذو كفاية . وإن التناقض والعجز اللذين أوديا بحياة فرديناند ، وبثأ به إلى مقره الأخير تلك الرحلة القميئة الخالية من مظاهر الاحترام ، لم يكن أمراً ينتظره هو وسائر أفراد أسرة هابسبرج العتيقة ، بل لم يكن ينتظره النظام الملكي القديم في أوروبا مع كل مظاهر المدنية التي بنيت على أساسه .

ووصلت رفات فرانسيس فرديناند ودوقة هوهنبرج فيينا في الساعة العاشرة في الثاني من يوليو ، واستقبل الرفات الدوق تشارلز الوارث الجديد للعرش ، وابن أخى الدوق المقتول ، كما استقبله ضباط الحرس في فيينا الذين شيعوه إلى كنيسة هوفبرج ، حيث وضع صندوقا الميتين الواحد بجوار الآخر . ولكنهما لم يكونا في مستوى .

واحد . وزين صندوق الدوق بما يناسب مع مقامه ودرجته بتاج ولاية العهد وقبعة القائدوسيفه ، ولم يكن على صندوق الدوقة إلا مروحة وقفاز ، وهما من مخلفات العهد الذى كانت فيه وصيفة لإحدى الأميرات .

وفى اليوم التالى سمح للشعب بأن يرى جثمانى القتيلين .

وعند الساعة الثانية عشرة أقفلت الأبواب على عجل ، وبقي الصندوقان فى الكنيسة حتى أقيمت الصلاة الدينية فى الساعة الرابعة على روح الميتين . وقد حضر الإمبراطور الصلاة ، ولكن أحداً من الملوك أو من ممثليهم لم يحضر . ولو أن طاقات الزهور التى أرسلوها أغنت عمافات الإمبراطور والبلاط تقديمه من الزهور فى هذه المناسبة .

ولم يسمح للملوك بالحضور على أساس المذر الرسمى بأن الإمبراطور لا تمكنه صحته إلا من احتمال احتفال قصير . وعندما أراد غليوم الحضور « كصديق » أشير عليه بلباقة أن جماعة من الفوضويين السفاحين يتآمرون على حياته . (وأعلن رسمياً أن عدم حضور قيصر ألمانيا راجع إلى إصابته بمرض اللمباجو) وكان بجوار صندوق الموتى باقة من الورد الأبيض ممهورة بأسماء صوفى وما كسى وإرنست ، ولكن أبناء الزوجين المتوفين لم يحضروا ، ولم تدق الأجراس ، ولم يسر حملة الشموع وراء النعشين فى الموكب . وكان فرانسيس فرديناند قد أوصى بأن يرقد جثمانه بجوار جثمان زوجته فى قلعتهما على نهر الدانوب عند أرستين ، لأنه كان يعلم أنه لا يسمح لزوجته صوفى شوتك — أن ترقد بجواره فى مقبرة كابوشين ، حيث ينتظر قدومه فيها ١٣٧ من أعضاء الأسرة العظيمة بما فيهم ولى العهد رودلف الذى انتحر .

وكانت فينا ساخطة على هذا الإجراء الذى لا يليق . وعرف كل الناس صاحب الذنب المسئول عن ذلك : الأمير منتوفو حامل أختام الإمبراطور (ولم يكن معروفاً بين كل الكافة أن الإمبراطور العجوز أقر الخطة التى وضعها منتوفو) . وكان عدم رضا منتوفو عن صوفى أقرب إلى الكره - ربما لأنه كان هو نفسه وليد زواج غير متكافئ فى أسرة هابسبرج . فقد كان ابناً لزوج نابليون الثانية مارى لويز ، التى تزوجت للمرة الثانية بعد انفصالها من زوجها وفيه إلى إلبا .

ولكنه فشل فى تقديره ، فما إن وصل الموكب إلى العاصمة التى كان يسعى إليها الظلام حتى اندفع ما يزيد على مائة ألف من أبناء الطبقة الأرستقراطية النموية والمجرية بملابسهم الرسمية واشتركوا فى الاحتفال .

ولو كان أى فرد من أفراد الحاشية الصغيرة التى رافقت الموتى فى القطار إلى المقر الأخير على علم بما سوف يحل بالعالم بسبب نكبة سيراچيفو ، لكانت الرحلة إلى أرتستن فى نظره حلمًا مزعجاً لا يمكن تصوره . فى الساعة الثانية صباحاً عند وصول القطار إلى محطة بوشلان الصغيرة حيث ينقل الصندوقان فى القوارب عبر الدانوب ، هبت عاصفة شديدة حملت كل إنسان على دخول حجرة الانتظار الصغيرة الرطبة . واشتد البرق الخاطف والرعد القاصف حتى أصبح الليل مزعجاً . وكل من أحسوا بما أرسلته السماء عليهم من خوف بدأى لم يتمكنوا من أن يهربوا منه بشراب أو ببيت ، لأنهم كانوا فى جوار الجنتين المبعثتين . وعندما حمل النعشان فى با كورة الصباح الأغشى إلى القارب ، قصف الرعد للمرة الأخيرة ، فوثب الخليل ثم وقعت ، وكادت أن تقع عند ذاك مأساة مروعة .

وظلت السياسة النموية تتأرجح دون قرار حاسم أكثر من أسبوع بعد مأساة سراجيفو . وأخذت فينا ترغى وتزبد من القلق . وزاد الشعور المعارض

« للقومية الصربية ، يقويه مايكسب في معظم الصحف . وقامت عدة مظاهرات أمام السفارة الصربية حيث رأى الشعب في تشكيس العلم الصربي شيئاً من الرياء المثير . جوعاد فرانيسيس يوسف إلى مقره الصيفي في أشل بعد الجنازة ببضعة أيام ، وبقي فيها لم تحركه الاضطرابات التي في العاصمة .

سئل ياور الإمبراطور الكونت بار يوم وقوع الجريمة « لاشك في أن الإمبراطور يعتقد أن جريمة اليوم قد يكون لها نتائج سياسية ؟ » .

وأجاب السيد العظيم « أبدا ... ولماذا ؟ ما هذا إلا أحد الأحداث المؤلمة التي تتكرر وقوعها في عهد الإمبراطور . لا أظن أنه لا ينظر إلى المأساة إلا هذه النظرة » .

ومن المحتمل جداً أن الإمبراطور الذي يتمتع بحضور البديهة - رغم موضعه الخطير في الأيام الأخيرة - لم يبحث السياسة العليا مع ياورده الذي كان في سنه ، والذي كان النوم أحب ما يصرف فيه وقت فراغه .

وكان كل من زار الإمبراطور في الأيام الأولى من يوليو يرى - رغم عدم تأثره بموت ابن أخيه - أنه كان يشارك فينا الشعور العام بأن الأمور لا يمكن أن تظل هكذا . وأسر إلى السفير الألماني بأنه يرى مستقبلاً شديداً للظلام . واستناداً إلى كل ما نعلمه من خلق فرانيسيس يوسف ، لم يكن له إلا مطمع واحد ، وهو قضاء الأيام الباقية من حياته في سلام . لم يكن حسن الحظ فيما خاض من الحروب ، وكان فوق هذا رجلاً مستغياً متعباً . إلا أن الثورة وتفكك الإمبراطورية هما النتيجة الحتمية - فيما يبدو - إذا لم توقع النمسا العقاب على الصرب .

قال الإمبراطور لكبير قواد الجيش الجنرال فراند كنرادفون هوتز ندورف « لو كان مقدراً سقوط الإمبراطورية فليكن سقوطها كريماً » . وكان يحاول

انتزاع أمر من الإمبراطور باتخاذ إجراءات حرية ضد الصرب ، وكان من رأى الإمبراطور - بعضه رؤساء النمسا والمجر - التريث على الأقل حتى تثبت الجريمة على الصرب بصفة قاطعة . (إن موظف وزارة الخارجية صاحب الضمير الحى الذى أوفد ليحقق فى اشتراك الصرب فى الجريمة ، قرر فى الثالث عشر من يوليو فى عبارة سيظل نادما عليها طول حياته « لا يوجد أى شئ يدل — أو فيه أية دلالة على الاهتمام — على أن الحكومة الصربية تعرف شيئاً عن الجريمة أو الأعمال التحضيرية - لارتكابها أو حيازة أسلحتها » .

ومع هذا ، كان الجنرال كنراد يحاول الخروج من هذا المأزق ، وهيات له الأحداث الفرصة الوحيدة — الأخيرة فيما يعتقد — للقضاء على الصرب ولاسترداد هبة الإمبراطورية . ولقد فشلت خطته مرتين قبل ذلك . إلا أنه قال إن خطة سنة ١٩٠٨-١٩٠٩ كانت مكشوفة . أما فى سنة ١٩١٢-١٩١٣ « كانت الظروف فى صالحنا . إننا نقامر اليوم » ولكن لابد من المقامرة ، إذ إن الوقت كان يعمل فى غير صالح الإمبراطورية .

وكان كنراد رجل الحرب الصريح - فى مقدمة رجال الحرب النمساويين ، كما كان أقوى الشخصيات فى الإمبراطورية . وأكبر شريك له ليوبولد برشتولد (بولدى عند أصحابه) أزهدهم الناس فى الحروب ، وكان أرسقراطياً مالمكاً خليل السباق ، عالماً بمحاسن النساء مدنياً ، حائزاً للصفات الساحرة ، يجمع بين الغرور والمظاهر الخلاب ، وكثيراً ما صورته المصورون المعاصرون فى قبته الحربية العالية . وكانت ضالقة تفكيره وضعف خلقه أخطر على العالم مما لسلفه إيرنتال من التواء فى تصرفه . لقد كان صورة مشوهة لعدم كفاية رجل السياسة فى ذلك الوقت . وتعيينه وزير خارجية للنمسا والمجر فى سنة ١٩١٢ كان دليلاً — لا يقل فى مدلوله عن خيانة ردل —

على أن إمبراطورية آل هابسبرج كانت فعلا في أخريات أيامها .

وكان كتراد مصدراً لإزعاج برشتولد عدة سنوات، بما كان يبعث إليه بمذكرات سرية في موضوع اعتداء الصرب، ولكن بعد حربى البلقان - اللتين كانت للنمسا فيهما مكانة غير مشرفة، وتعرض فيهما وزير الخارجية إلى نقد شديد أصبح متفقاً مع كتراد في الرأي، مما ارتاح له رجال الحرب الذين كانوا يشغلون وظائف وزارة الخارجية، والذين كانوا يقلدون جنون بولدى في شرب القهوة المثلجة، في جميع أوقات النهار. هذا وقد قويت عزيمة برشتولد الذي لا يميل للحرب بما وصل إليه من تقارير دلته على أن ألمانيا الحليفة التي كانت تهرب في أثناء حروب البلقان غيرت اتجاهها وأصبحت على استعداد للمعاونة .

وبعد حادث القتل بقليل، قال سفير ألمانيا في فيينا المهرتشرشكي إلى موظف نمسوى كبير « إذا قبلتم هذا وأنتم صاغرون فأنتم لا تستحقون . . . » وفضلاً عن ذلك قابل أحد الصحفيين الألمان - وكان من خطباء مجلس النواب - مدير مكتب الكونت برشتولد وتحدث معه كثيراً، مبيناً له أن وزارة الخارجية في برلين والجيش والبحرية كل أولئك يرون أن فكرة حرب تأديبية ضد روسيا أصبحت مقبولة الآن أكثر منها منذ سنة مضت . وأكد له أن القيصر غليوم ما كان يحجم عن مساعدة النمسا أو أن ما قيل له بالطريقة الصحيحة، وأنه سيسير هذه المرة « إلى آخر شوط في مدى الحرب » .

وكان فرانسيس يوسف أيضاً في حاجة لأن يكون الحديث إليه بالطريقة الصحيحة . ولكنه كان أبعد عن سهولة الاقتناع بالرأى المعارض من غليوم . . حاول كتراد مرة أن يقنعه بأن حرب الصرب لا مفر منها، ولما قابله في الخامس من يوليو وجده في حالة من الشك مؤثرة في تفكيره . وقال الرجل العجوز

متسائلا « حسناً ولكن كيف نشن الحرب إذا كان الجميع سوف يهجمون علينا،
وبخاصة روسيا ؟ »

فقال كونراد « ولكن أليس لدينا تأكيد من ألمانيا ؟ » .

الإمبراطور مزجراً وقد بدا الشك في عينيه « هل أنت واثق من ألمانيا ؟ » ..
والحصول على جواب لا لبس فيه عن هذا السؤال ، سافر الكونت اسكندر
هوبوس مدير مكتب برشتولد إلى برلين يحمل مذكرة عن الحالة في البلقان وخطاباً
إلى القيصر مهوراً بتوقيع الإمبراطور .



Library of the
German
Organization of the
Algerian
Arab
League

وكانت العاصمة الألمانية يوم الأحد الخامس من يوليو بلداً خالياً . كل الناس .
في أجازة « لو أن سراجيفو حدث من شهر مضى في إبان الموسم الاجتماعي لدى ..
العواصم الأوربية الكبرى . فلربما كانت مباحثات المسئولين في الحكومات .
المتخلفة ، سواء المتحالقات منها وغير المتحالقات أيسر ، وكانت القرصة أنسب
لحفظ السلام . إن عادة العمل في المجالات العالية الرسمية التي لا تزال تتأثر بالتقاليد .
الأرستقراطية في الراحة والفراغ من العمل ، قد أبطأت كثيراً — ما أسماه المؤرخ
الفرنسي دانييل هاليني — من سرعة التاريخ — الناجمة عن التقدم التكنولوجي ..
والاجتماعي في القرنين الماضيين ، وأصبحت لا تتناسب مع زيادة تطور الطبقات .
العاملة ، وكان وزير الخارجية في الخارج يمضي شهر العسل ، وكان تربتز يستشفى .
في سويسرا ، وذهب رئيس الهيئة الحربية للعلاج في كارلسباد ، ودان المستشار في .
ال

.. به تسدام ، وكان يشهد سباق القوارب ..

في كيل يوم مأساة سراجيفو ، والأنباء المفجعة بمقتل صاحبه أفسدت جو السباق ، ودعت إلى عودة القيصر إلى العاصمة .

وعندما سمع القيصر أن رسولا خاصاً قدم من فينا يحمل وثائق هامة، أمر بأن يحمل السفير النمساوي الأوراني إليه في بوتسدام وأن يبقى للغداء معه .

وجرت المحادثات في القصر الجديد لآل هوهنزولرن وفق التقاليد الكلاسيكية في الدبلوماسية غير الرسمية سهلة ولطيفة ، وأخيراً مميتة .

وبينما كان القيصر يستعد للسفر في اليوم التالي في رحلته الصيفية السنوية في البحار الشمالية، استقبل الكونت ماريتشي زوجيني في أدب ينم عن الصداقة مع شيء من التحفظ، يزيد على ما تعود أن يقابله به. وعندما أخذ يقرأ الرسائل الواردة إليه من فينا ، وكأنها رسائل متعلقة ببعض الأعمال، حرص على أن يعاق بصوت مسموع بتحفظات على عبارة في الخطاب الخاص الوارد إليه من ابن عمه الذي جاء فيه . « نحو الصرب باعتبارها أحد عوامل القوى في البلقان » .

فعلق القيصر عليها قائلاً « إن هذا يقتضي مضاعفات في السياسة الأوروبية ». وعلى هذا لا يستطيع أن يدلي برد صريح ما لم يستشر مستشاره (بنان هولقيج) وكان زوجيني رجلاً محبوباً بين العريكة ، كما كان رجلاً دبلوماسياً يفهم غليوم ، وعندما كان يحس بما ينبغي الرجاء في موقف غليوم كان حريصاً على أن يخفيه عن أعين الناس .

والغداء — الذي حضرته القيصرة وبعض الأصدقاء — كان أمراً ساراً . وكان الحديث — كما علمنا — يتناول موضوعات عامة ، وكان القيصر لطيفاً ، ويبدو أن ما أكل أو شرب أو قيل كان له تأثير سيء على سياسة التحفظ التي كانت عند القيصر .

وكانت عادة القيصر إذا كان الجو صحوً أن يروح عن ضيوفه ، وأحياناً يجز بعض أعماله — في الحديقة . ولذلك رافق السفير النمساوى لشرب الشاي والتدخين فيها . وبينما كانت القيصرة ووصيفتها في ركن بعيد ، واختفى الضيوف بشكل ما ، جلس الرجلان على أحد مقاعد الإمبراطور واستأنفا حديثهما المشؤم . لقد غير الغداء نظرة القيصر إلى الأشياء . لقد صار أكثر تحمساً وأقل تمسكاً بالتقاليد النمساوية . وبدون أن ينتظر قدوم مستشاره الذي يعلم علم اليقين أن آراءه متفقة مع آرائه ، أكد للسفير — بناء على الرسالة الرسمية التي جاء بها — « أنه إذا وصلت الأمور إلى حد الحرب بين النمسا والمجر وروسيا فنحن واثقون أن ألمانيا التي تحافظ دائماً على الولاء لحليفها ستبقى إلى جانبنا » . ومع أنه لم يذكر في أية رسالة بما ورد من النمسا شيء عن الإجراءات موضع التفكير التي تتخذ ضد الصرب ، فقد أضاف القيصر نفس العبارة الواردة في تقرير السفير :

« وقد فهم جيداً أن صاحب الجلالة الإمبراطورية والعظمة الملكية — مع حبه المعروف للسلام — سيجد من الصعوبة الهجوم على الصرب ، ولكن إذا كنا مصممين على وجوب اتخاذ إجراءات حرية ضد الصرب فهو (القيصر) لاشك سوف يحزن إذا لم نستغل الفرصة الحاضرة التي تلائمنا كل الملائمة » .

وعند الأصيل — عندما طالت الظلال في البستان — أخذ القيصر يتجول تحت الأشجار مع بتمان هولفيج ، الذي استدعاه من ضيعته ، وأنبأه بما جرى بينه وبين السفير النمساوى من حديث . وإذا كان للمستشار اعتراضات فإنه لم يعلنها ، ولم يكن لدى وزير الحرية ولا رؤساء الجيش ولا وزير البحرية الذي رآه غليوم في اليوم التالي قبل سفره إلى كيل أي اعتراض .

وقال لرجل البحرية « أنا لا أعتقد في أية تطورات حرية جديدة . إن قيصر

روسيا لن ينضم إلى قاتلى الملوك . فضلا عن أنه لافرنسا ولاروسيا مستعدة للحرب «
ورغبة منه في ألا يخاف شيئا من القلق رجال-بناء على نصيحة المستشار - أن يسافر .

وهكذا بعد أن فرغ من المسائل العادية أطلع في سفينته لينيب ثلاثة أسابيع
بعيدا عن العاصمة دون أن يستشعر القلق ، حيث علق في ميزان القدر أرواح عشرة
ملايين نسمة لا يعلمون ما يحرق لهم يد المعونة لإعداد حملة نمسوية تأديبية لم يسأل
عن طبيعتها ، وحاول أن يغمض عينيه حتى لا يرى نتيجةها . لقد تنفست وزارة
الخارجية ورجال الجيش الصعداء .

وعندما عاد إلى فينا السكونت هويوس ومعه الأمر العام الصادر من غليوم ،
تهند فرانسيس يوسف وقال « لن نستطيع بعد الرجوع . إنها ستكون حربا
طاحنة » .

قليل من القادة الأوربيين أو المراقبين لسير الأمور من كان له صدق
خبره . .

لقد بلغ السفير الإنجليزي في فينا السير موديس بونسن شدة كره النمسا للصرب ،
في الوقت الذي عاد فيه هويوس من مهمته المميتة . وفي حديث بين بونسن والسفير
الروسي جاء « يشك المسترشبو كوا إذا كانت العداوة متغلغلة في صميم الشعب النمساوي » .
إن البلاد لا يمكن أن تندفع إلى الحرب ، لأن الحرب « التي تكون مقصورة عليها
وعلى الصرب مستحيلة ، فإن روسيا ستكون مجبرة على خوض غمار الحرب دفاعا
عن الصرب » .

وكتب سير آرتر نيكلسون وكيل الخارجية البريطانية الدائم تعليقا على
الرسالة قال :

« أشك في أن تتخذ النمسا أى إجراء جدى، وأعتقد أن العاصفة سوف تهدأ. إن مستر شوبكو رجل بعيد النظر، وإنى أقدر كل رأى يديه ». .

ربما كان بونسن سياسياً مظلم العقل ولكن نيكلسن لم يكن كذلك. إن نظام كتابة التقارير الدبلوماسية بما فيها من عموميات مشوشة، وتجريدات غير واضحة، وسذاجة فنية واجتماعية، كان ولا يزال إلى حد كبير يجرى فى القرن العشرين على ما كان يجرى عليه قديما .

وأشوأ من هذا، أنه نظراً لطول مدة السلام، لا يكاد يوجد أحد ممن يقامرون بأرواح جيل كامل له دراية بفظائع الحروب. إن فرانسييس يوسف يذكر ويلات ميدان القتال فى سلفرينو، ولكن معظم معاصريه فى البلاد الأوربية لا يعرفون المأسى الإنسانية والاجتماعية فى الحروب الحديثة، كما يحملون معداتها الفنية.

أما الملايين المجهولة الاسم الذين لا يعرفون موعدهم القريب مع الموت، فلم يسمع لهم صوت فى الأيام الأولى من يوليو . ويدلو أن صدى حادث سراچيفو لم يبق له أثر فى آذان عامة الشعوب فى أوربا . بل كثير من الناس الذين لهم اتصال ببواطن الأمور شاركوا هؤلاء أملهم السعيد .

كتبت مارجوت أسكويث حرم رئيس وزراء بريطانيا فى مذكرات تاريخ ميلادها « إن الموسم اللندنى فى سنة ١٩١٤ خيب آمالى . ولم يكن فيه شئ يسر إليزابيث (ابنتها)، وكان يهمنى أن تجد قليلا من الهدوء والمرح . وقد بعثت بها وحدها فى الخامس والعشرين من يوليو لتقيم مع المسز جورج كيبل فى البيت الذى حصلوا عليه فى هواندة » وحتى سير جورج بوكانان سفير بريطانيا فى روسيا كتب فى مذكراته « هاقد مضت ستة أسابيع على حادثة سراچيفو، والمأمول أن تكون النمسا قد تخلت عن فكرة الحملة التأديبية . لقد منحت أجازة وحصلت على تذاكر السفر إلى إنجلترا » .

كانت لندن تحتق من الحر في ذلك الوقت، وكان قراء الصحف اللاهثون. أميل إلى قراءة أخبار السباق منهم إلى قراءة الأخبار السياسية التي تصور يوماً بعد يوم الجانب المظلم من حياة إنجلترا في ذلك الوقت - المسألة الإيرلندية. وفي باريس كانت الصحف تسلي قراءها بأجل تسلية ممكنة : « جريمة عاطفية ذات مغزى سياسى » في أبداع أسلوب لذلك العهد . وكانت بطلتها زوجة وزير المالية السابق جوزيف كايو ، إذ رأت أنه من الضروري زيارة جاستون كلمت رئيس جريدة الفيجارو الوطنية والقضاء عليه ، لتمنعه من نشر الخطابات التي كتبها زوجها لصديقتها - وهو نوع من الكياسة الزوجية التي ضمنت لها البراءة من المحققين الفرنسيين ذوى المروءة .

وكانت الحكومة الفرنسية ذاتها هائلة مجهلها لما يكتبه القدر ويعدده في هدوء . ولكن في دقة شيطانية ، بين رشقات القهوة في وزارة الخارجية الألمانية . وفي يوم ١٥ من يوليو سافر المسيو پوانكاريه رئيس جمهورية فرنسا مصحوباً بالرئيس رينيه فقيانى إلى سان بطرسبرج ، ليقوما بزيارة رسمية قاما بإعدادها من قبل . في هذا الوقت كان الإنذار النمساوى النهائى إلى الصرب ، قد قارب صيغته النهائية ، ولم يكن يعرف إلا قلة من الناس الصيغة النهائية التي سيكتب بها هذا الإنذار . وقد تبين هذا للعالم من الاندفاع الشديد على البيع في بورصة فيينا بعد ١٢ من يوليو، وربما كان أكثر المضاربات جنوناً تلك التي أجراها في بورصة باريس بين ١٢ و ١٥ من يوليو أحد المضاربين النمساويين المشهورين .

ويبدو أن إدارات الخارجية الأوربية لم تقرأ الصفحات المالية في صحفها . وربما لم تقرأ الأخبار العادية كذلك . وإنه لمن غير المعقول مطلقاً ألا يكون أى ملاحق في السفارة الفرنسية أو الإنجليزية أو الروسية في فيينا في ذلك الوقت .

صديقاً لزوجته وزير نمسوى أو رئيس مصلحة أو مدير مكتب لا يكون صديقاً مشتركاً مع أحد كبار الموظفين النمسيين لإحدى المغنيات فى الأوبرا ، كما كان من غير المعقول كذلك ألا تعرف إحدى هؤلاء السيدات ما يجرى حولها، أو أنها من الحرص بحيث لا يتسرب منها شيء من الأنباء .

وعندما أطلقت القنبلة أخيراً فى الثالث والعشرين من يوليو كان الساسة قاعلي الدهشة لأن الكاتبة القصصية إينور جلين وكانت فى ذروة شهرتها ، علقبت بمنتهى القسوة على أخلاق السفير النمسوى لخروجه مندفعاً من اجتماع عطلة الأسبوع فى أحد القصور بجوار باريس ، حيث كان بعض الأصدقاء مجتمعين . ويروى أنتونى جلين فى تاريخ ميلاد جدته الممتع أن سائق عربتها عندما نشر اختفاء السفير على أنه دليل على قرب وقوع الحرب « أخذ كل واحد يفتش بلهفة فى الصحف ماذا يعنى السائق ومع أية دولة تقوم الحرب » .

ونظرة إلى الوراء إلى ما كان يحدث خلف الكواليس فى فينا وبلغراد ، حينما كانت سائر البلاد الأوربية مسترسلة فى كسلها العادى ، قد تساعد فى هذا المجال . ففى اللحظة التى قرر فيها القيصر تعضيده غير المقيّد بأى شرط ، صممت حكومة النمسا والمجر أن تقوم بعمل حربى ضد الصرب ، ولم يكن وزراء الإمبراطور وكبار مستشاريه الحربيين متفقين فى رأى على نوع هذا العمل الحربى . وكان من رأى كنراد الحرب العقلية مع أقل ما يمكن من التحذير للعدو . ولكن الكونت كولومان تزا رئيس وزراء المجر ، العظيم النفوذ الأرستقراطى ، الكثر الحية ، الرفيع فى مستوى معيشته ، الصائب الرأى إلى حد كبير ، كان يخشى أن هذه الخطة قد تدعو إلى دخول روسيا فى الحرب . وكان رأى برشتولد ، وهو الرأى الذى تغلب آخر الأمر — التوفيق بين

سياستين متعارضتين . واقترح ماسبق أن اقترحه للسفير الألماني يوم ١٤ من يوليو إرسال مذكرة للحكومة الصربية في أسلوب يجعل قبول الصرب لها ضرباً من المستحيل . وفي نفس الوقت ترك الباب مفتوحاً قليلاً ليسمح بحل غير الحرب إذا ما أظهرت الصرب في اللحظة الأخيرة ما يدل على التعقل . وعند العمل على إثارة الصرب يجب أن تبذل كل الجهود لتجنب ما يثير غضب روسيا أو فرنسا . ولهذا رؤى أن يؤجل إنذار النمسا إلى بلغراد إلى أن يعود رئيس جمهورية فرنسا إلى بلاده بعد زيارته لروسيا . ولن يكون هناك فرصة لوجود أخوة حرية « يقسم بها في سان بطرسبرج على الغزو بتأثير بوانسكاريه وإزفولسكي وكبار الدوقات » .

وقع حادث مؤلم في بلغراد ربما كان سبباً في زيادة الخطر الذي ينطوى عليه اقتراح برشتولد . ففي العاشر من يوليو استدعى البارون فلاديمير فون جيزل السفير النمساوي في بلغراد للمشاورة ثم عاد إلى مقر عمله . وفي الساعة التاسعة مساء وصلته دعوة غير منتظرة من السفير الروسي هارتويج . وقال السفير الروسي إنه جاء لتقديم عزائه بمناسبة « الجريمة الفظيعة » (سراخيفو) وأن لديه مسائل أخرى يود أن يتحدث فيها . وإن نعرف مطلقاً هذه المسائل . وفي الساعة ٩٣٠ بينما كان جيزل يفسر موقف النمسا نحو الصرب تفسيراً كاذباً فيه شيء من التهذؤة ، سقط هارتويج فجأة على الأرض فاقد الوعي وفارق الحياة ، وعندما فحصه طبيبه بعد ذلك بدقائق ظهر أنه كان يشكو من التهاب من مدة طويلة ، وتلا هذا منظر مؤلم عند وصول لودملا ابنة هارتويج . لقد رفضت بشدة العطف الذي أبداه لها أفراد أسرة جيزل . وأخذت تنقش في زوايا الحجرة وتشم زجاجة العطور التي كانت في الحجرة وتحرق في بعض الزهريات اليابانية الموجودة فيها . لم يدخن والدها إلا لفافتين روسيتين من الطباي ، ولكن ابنته لفت أعقابهما ،

ووضعتهما في حقيبتها . وسألت سؤالاً لا يخفى ما فيه من اتهام . قالت ألم يا كل
أو يشرب والدها شيئاً ؟ وفي حالة التوتر التي كانت سائدة في الجو حينذاك انتشرت
الإشاعة بأن جيزل وضع له السم ، بل اتهمته الإشاعات بأنه جلب معه من فينا كرسياً
كهربياً يقتل في الحال من يجلس عليه .

وكان هارتويج يعرف معرفة تامة اليد السوداء الصربية ووسائل العمل فيها .
(ومن عجب أن النموسيين لا يعرفون شيئاً عن هذا الموضوع ، ولو أن السفير الفرنسي
كان قد أبرق إلى حكومته عن دور اليد السوداء في سراييفو) ومن المعتقد — كما
ذكرنا في فصل سابق — أنه فُصم علاقته مع رأس الجماعة الكولونيل أيبس ، وأنه أخذ
يضع القرامل لوقف نشاط القومية الصربية بعد أن كان يشجعها من قبل . لقد
كان نفوذه في الحكومة الصربية عظيماً . فلو كانت نظرتة إلى المشكلة البلقانية
قد تغيرت كثيراً كما يعتقد كثير من المؤرخين ، فإن موته في هذه اللحظة الحرجة
' لاشك جنائية جسيمة . إن جيزل نفسه يعتقد هذا الاعتقاد . لقد كتب فيما بعد
لو أن هارتويج عاش إلى ما بعد « يومى ٢٥ و ٢٦ من يوليو الحرجين » لما اشتعلت
نار الحرب .

ويبدو — مع ذلك — أن في هذا شيئاً من المبالغة . إن تعاليم فينا النهائية
إلى جيزل لم تترك له حرية التصرف . فقد جاء فيها أن على السفير النموسى أن
يقوم بزيارة البيت الأصفر (وزارة خارجية الصرب) في الساعة السادسة مساءً
٢٣ من يوليو — حدد اليوم والساعة لضمان وجود بوانكاريه وفيفياني على ظهر
السفينة المتجهة إلى عرض البحر — وأن يسلم مذكرة اللولة الثنائية إلى حكومة
الصرب ، سواء أكان رئيس الحكومة بازيك حاضراً أم لا ، وفوق هذا كانت

التعليقات إلى جيزل تقضى بأن الجواب يجب أن يكون قبولاً غير مشروط بأى شرط فى الوقت المحدد الذى لا يتجاوز ٤٨ ساعة . ولا يمنح أى تأخير لأى سبب من الأسباب .

وهذا الإنذار النهائى النمساوى إلى الصرب — الذى يعده اللورد جراى وزير الخارجية البريطانية أقوى إنذار وجهته دولة إلى دولة أخرى — وضع بكل دقائه وبكل كفة فيه فى وزارة الخارجية النمساوية . وأخيراً أقره مجلس الوزراء المزدوج فى ١٩ من يوليو . ولقد وصف سفير ألمانيا أم ما كان يشغل الكونت برشتولد فى صراحة تامة فى رسالة له إلى برلين .

« لو قبل الصربون كل المطالب قلن يكون هذا هو الحل الذى يرضيه (أى يرضى الكونت برشتولد) وهو يقلب فى رأسه المطالب ليختار منها ما يكون قبوله لدى الصرب مستحيلاً استحالة تامة » .

وانتهى تفكير برشتولد إلى اختيار عدة شروط سترتب على قبولها تقيح الدستور الصربى . والنقطتان الخامسة والسادسة بصفة خاصة اللتان تتطلبان اشتراك شرطة النمسا فى تحقيق الجريمة فى الأرض الصربية ، لا يمكن لأية دولة مستقلة قبولها ، حتى إنهما قبولتا فى البرلمان النمساوى بإقتسامات عريضة تدل على الرضا والتسنى . وتقرر فقط أخرى هى أن تستنكر الصرب « الدعاية المغرضة » التى تنطلق من الأراضي الصربية وتوجه إلى رعايا الدولة النائية ، وفض الجمعيات التى تقوم بهذه الدعاية تحت إشراف موظفين نمساويين .

وكانت مملكة الصرب سنة ١٩١٤ تشبه من بعض الوجوه الشعوب نفسها ، وأمنت بالاستقلال الرسمى التى تعودناه منذ الحرب العالمية الثانية . وكان عجزها عن مباشرة سيادتها الحقيقية على بعض موظفيها — أبيس مثلاً — فى غاية الوضوح .

ولكن مهما نقص الدولة الصربية من مقومات الوحدة الإدارية عوضه. الشعب الصربي بمحاولة السير قدماً في طريق القومية الوطنية . وكانت المذكرة. النمسية ، مما لا يمكن أن يقبلها بنصوصها أى رئيس يحترم نفسه ، وليس من المؤكد — مع ذلك — أن برشتولد عند ما أقر الصيغة النهائية للإنذار انضم إلى معسكر من يقول بالحرب مهما كانت الظروف في فينا ، وربما كان يحول بخاطره بعض الأعمال البهلوانية الخطرة التي لا شبيه لها. ويظن ألبرتيني أنه يظاهر شيء من الصلابة في القول في أسلوب غامض ، يستطيع أن يزلزل الأرض تحت أقدام دعاة الحرب من النمسيين الذين يغريهم بها — في غياب القيصر — قادة الجيوش الألمانية ، ووزارة الخارجية الألمانية . والقيصر الذى كان محبوب. البحار الشمالية ، لم يكن واقفاً على ما كان يجرى بين فينا وبرلين ، ولكنه لم ينزعج من الإنذار النمسي عند ما وصلته أخبار الإنذار ، وهو فى الهوهنزولرن. يلعب الورق بعد الغداء ليلة الرابع والعشرين من يوليو . وقال لياوره البحرى. الأميرال فون مولر وهو يتمشى على ظهر السفينة صباح اليوم التالى « إنها مؤامرة. قوية — أليس كذلك ؟ » .

ولما كان رئيس وزراء الصرب خارج العاصمة مشغولاً بالانتخاب فى ٢٣ من يوليو، تسلم وزير المالية الإنذار النهائى من يد البارون جيزل ، وقد لاحظ — فى. شيء من الجزع — أن معظم الوزراء خارج العاصمة بسبب الانتخابات ، وأن اجتماع مجلس الوزراء مستحيل فى مثل هذا الوقت المحدد . فأسرع جيزل بالإجابة: بأن العصر عصر سكلك الحديد والمسرة ، وأنه إذا لم يتم قبول الصرب. فى الساعة السادسة من يوم الأحد الخامس والعشرين من يوليو سيغادر بلغراد هو ورجاله .

وبعد ثمان وأربعين ساعة قبل الساعة السادسة بوضع دقائق ، كان رجل طويل.

ذو لحة شائكة يتقدم نحو السفارة النمسية . إنه كان بازيك رئيس وزراء الصرب ، يحمل تحت إبطه مظروفاً فيه رد الحكومة الصربية . ولم تكن الوثيقة أنيقة ، فإن المجلس ظل مجتمعاً دون توقف يغير ويبدل فيها إلى آخر وقت . ونظراً لما كان من إرهائى الكتاب واضطرابهم ، فلم يحسنوا كتابتها على الآلة وأكلوا كتابتها باليد . ولم تكن العادة أن يسلم الرسائل رئيس وزراء أصغر الدول وعلى قدميه مهما بلغ نشاطه : ولكن الحقيقة أن رئيس الوزراء عندما سأل منذ نصف ساعة من يتولى تسليم المذكرة ، أقنعتة نظرة الأسى في وجوه زملائه ، أن عليه هو أن يقوم ، بهذه المهمة وقد سلم الظرف للنمسي المنتظر ، وقال في لغة ألمانية ضعيفة « بعض مطالبكم قبلناها . . . وأما ما يختص بالباقي فنحن نضع آمالنا في إخلاصك ومروءتك بوصفك قائداً نمسياً » .

وكان جيزل في الواقع ضابطاً سابقاً في الجيش ، ويبدو أنه رجل طيب القلب ، ولكن التعليقات لم تترك مجالاً لمروءته . والقبول المعلق بشرط أو القبول الجزئى يعتبر رفضاً للانداز . لقد كان يعرف رد الصرب المنتظر قبل قراءته . ووصلت الصرب أنباء مشجعة من سان بطرسبرج في الصباح الباكر جعلت القادة الصريين يشعرون أن رفضهم الشروط المذلة لا يعنى حتماً الحكم بالموت على دولتهم الصغيرة . وعند المساء غادر بلفراد قطار به مستندات الدوة الهامة وماليتها . وعند ما وصل بازيك إلى المفوضية النمسية استقبله جيزل بملابس السفر . وكانت كتب الشفرة الخاصة بالمفوضية عبارة عن كومة من الرماد ، وكانت الأمتعة معدة لنقلها في السيارات المنتظرة .

وبعد ساعة من سفر رئيس الحكومة الصربية ، اجتاز جيزل الحدود هو وزوجته وحاشيته ، يبلغ وزارة الخارجية تليفونياً أنه قطع العلاقات السياسية مع الصرب .

وقبل الساعة السابعة بيضع دقائق من مساء الأحد ذاته ، أبلغت وزارة الحرب
في فيينا الأنباء تليفونياً إلى باد إيشل حيث يقيم الإمبراطور ، وتلقى الأنباء البارون
مارجوتى أحد رجال حاشية الإمبراطور، وقرأها أمام الإمبراطور الذي كان يستمع
إليه وهو شارد الذهن .

ثم قال « هكذا بعد كل ما حدث ! » وهو تعبير له معنى قليل وقد يدل على
معنى كبير . وبعد أن عثر على منظاره بيد مرتعدة جلس الرجل العجوز إلى مكتبه
ليدرس نص الرسالة ، وبينما كان يعبث بيده ويأتي بها حركات لا إرادية ، كأنما
يبعد عنه حلقاً ثقيلًا ، أصاب الإمبراطور بيده حوضاً من الزجاج .

قال مارجوتى فيما بعد « إن هذا الصوت المزعج — كأنما هو صوت شيء
قد كسر .. سوف لا أنساه » . ولكن فرانسيس يوسف لم يفقد الأمل ، فقال وهو
يتنهد « حسناً . إن قطع العلاقات السياسية لا يعنى نشوب الحرب » . وحين حل
المساء أفتعه برشتولد بأن يوقع أمراً بتحريك الجيش (وكانت الصرب قد أمرت بمسير
جيوشها قبل ذلك) .

وقد أحدث إعلان الإنذار النمساوي وما تلاه من أنباء الخلاف مع الصرب
وتحرك الجيشين هزة عنيفة من الرعب في أوروبا ، ولكنها لم تسبب الفزع السريع ،
فبعض الأوربيين ومنهم فرانسيس يوسف حاولوا إقناع أنفسهم أن الخلاف وتحرك
الجيوش لا يعنى الحرب حتماً ، ولكن البعض أحسوا أن الحرب واقعة لا شك فيها ،
غير أنهم توقعوها محصورة في حدود البلقان — حرباً لا تكاد تشتعل حتى تنمد
في الحال .

والحرب المحلية كانت في الواقع على كل لسان في برلين وفيينا ، وكلما أسرع
في نشوبها كانت خيراً كما يقول الخبراء .

قال المرحوم تليپ فون ياجو وزير خارجية ألمانيا « كما كانت النمسا أكثر حيرة وكان أملها في المعونة أقوى، كان الأمل أقوى في عدم دخول روسيا الحرب ». واستناداً إلى هذه النظرية، أخذ بتمان هو لفيج — وهو سياسى من الوزن الخفيف في مستوى أعلى قليلاً من برشتولد — وياجو والمجلس الحربى الأعلى يحرضون النمسا على الاعتداء قبل تدخل أحد ، والتدخل الذى يحشونه كثيراً هو في الغالب أنباء تدخل سيدهم القيصر . وقد حرصوا على أن تكون أنباء تطور الأزمة التى وصلت على ظهر الموهنزولرن قليلة ومتأخرة على قدر استطاعتهم . (وهذا دلالة جديدة على مقدار ما تخيله القيصر من وهم في مسئوليته عن الحرب) ولم يكن لألمانيا مصالح مباشرة في هذا النزاع بين النمسا والصرب ، وكانت الدوائر الرسمية الألمانية تحاول أن تدفع حلفاء ألمانيا النمسيين إلى الحرب لصالحهم الخاص ولتقوية التحالف . إن إمبراطورية المابسبرج كانت تنهار بشكل واضح ، ومن رأى وزارة الخارجية أن الانتصار في ميدان الحرب على الحركة السلافية الجنوبية يجرى دون انهيارها ، وأن الوصول إلى هذه النتيجة ليبرر خوض هذه الحرب الأوربية العامة ، وقبول ما تنمخض عنه هذه الحرب .

وإذا ما رجعنا إلى الوراء قليلاً ، وجدنا أن سياسة جماعة الموظفين الألمان غير المسئولين تنطوى على الإجماع — ولكنه إجماع الإهمال وعدم المبالاة أكثر منه إجماع التدمير وسبق الإصرار ، وكان منطق زمرة الحرب أن النمسا إذا واجهت العالم بسياسة الأمر الواقع في تصرفها الحربى مع الصرب فسيخفف تصرفها هذا من أخطار مضاعفات أوربية .

وقد تمتع روسيا وقد تزجر فرنسا ، ولكن عندما تبين ألمانيا أنها واقفة إلى جوار حليفها فسيتراجعان كما فعلا من قبل في سنة ١٩٠٩ . ولوساء الظروف فرضاً أكثر من ذلك ، فستبقى إنجلترا على الحياد ، بينما إيطاليا — تبعاً لالتزاماتها في الحلف الثلاثى — ورومانيا المحايدة أيضاً — قد تنضم إلى دول الوسط .

وقد برهنت الأحداث على أن كل المقدمات التي بنيت عليها سياسة ألمانيا الحربية المحدودة كانت خاطئة ، وكانت النمسا غير قادرة على السبق لتواجه العالم . بالأمر الواقع ، لأن قواتها كانت غير مستعدة ، وكان من رأى الجنرال كونراد أنه لا يستطيع أن يبدأ الهجوم قبل ١٢ من أغسطس كما طلب ألا تعلن الحرب رسمياً إلا في ذلك الميعاد (كان برشتولد والألمان يحملون بهجوم ممسوى خاطف قبل تحرك الجيوش) ، وروسيا — على لسان وزير خارجيتها سazonوف أعلنت في سان بطرسبرج .

« أن روسيا لا يمكنها أن تسمح للنمسا أن تقضى على الصرب وتصبح هي صاحبة النفوذ في البلقان » .

والرأى العام الفرنسي أخذ يقف موقفاً جريئاً ، والرأى العام الرومانى أصبح أميل إلى الحياد ، والإيطالى أكثر عزلة وبعداً .

وأسوأ ما فى الأمر أن إنجلترا — ابتداء من الرابع والعشرين من يوليو — أخذت تظهر اهتماماً بالموقف ، جعل السفير الألمانى البرنس لخنوفسكى — وهو أحد القلائد الذين أحسنوا التصرف فى أزمة سنة ١٩١٤ — يبلغه بأمانة وسرعة إلى برلين . والقيصر نفسه بدأ يظهر عليه الاضطراب ، وقلق وزارة الخارجية الألمانية المفاجئ الذى له ما يبرره جعله يقطع رحلته البحرية ، والتقرير المتئوى الذى وصله من المستشار وما فيه من تعليقات وإضافة وحذف ، وما انتهى إليه من أن الموقف السيامى غير واضح ، جعل القيصر فى حالة نفسية مضطربة لدى وصوله إلى العاصمة فى السابع والعشرين من يوليو .

ولربما كان هذا يوماً خاسماً فى الأزمة ، ففيه وصل نص الرد الصربى على الإنذار النمساوى إلى وزارة الخارجية الألمانية — التي لم تهتم بالسؤال عنه قبل ذلك — بعد ظهر ذلك اليوم ، مع وصف لوقع هذا الرد فى البلاد الأجنبية .

— ٣٤٩ —

وقد سبب الرد شيئاً من الدهول ، وكذلك كان. وقعه في فينا ، حيث
وصفه موظف بوزارة الخارجية الذي كتب بنفسه الإنذار النمساوي بأنه « أعظم مثل
للكفاية الدبلوماسية » صادفه في حياته. لقد قبل الصربيون في عبارة معقولة
ومعتدلة معظم المطالب النمساوية، وأبدوا تحفظات على بعضها، ولم يرفضوا إلا النقطة
السادسة التي طلبت اشتراك الشرطة النمساوية في التحقيق في الأراضي الصربية .
ومثل لهذا التصرف الحكيم من جانب الصرب قد يكون له تأثير على القيصر .
إذن فيجب ألا يطلع على مذكرة الصرب إلا بعد أطول مدة ممكنة . ولذلك
أبطل مجلس الوزراء في الحصول على الرد — وقد مضى يومان على إرساله — في
بيوتسدام، فلم يطلع عليه القيصر إلا في صبيحة اليوم التالي — إنه تأخير قاتل .

وحدث تطور آخر هام في لندن . كانت الحكومة البريطانية بطيئة في
تقدير خطورة الأزمة . فوزير الخارجية السير إدوارد جراي — ذلك الرجل الطويل
الصامت الرقيق الإحساس العاكف على الوحدة الريفية — كان بطيئاً في إدراك
المآسى التي تجرّها على إنجلترا سحب الحرب التي أخذت تتجمع في سماء أوروبا .
وتقارير سفرائه في القارة غير الوافية لم تحرك له ساكناً . ولم يهتم كثيراً بمجموعة
الألمان حول وجوب منع الروس من حرية التصرف . أما الفرنسيون الذين كانت
أعذارهم من أجل ارتباطات أكثر دقة ، فقد كانوا منزعين لما يقرب من عشر
سنوات . وكان من الواجب تحمل بهدوء .

ولكن التهديد الذي جد من جراء قطع العلاقات بين النمسا والصرب شيء
آخر . ولئن كان من عادة الإنجليز أن يتجنبوا معالجة المشكلات قبل أن تتطلب
البت السريع ، فإن حرج الموقف في البلقان أصبح حقيقة مؤكدة ، والأمور تتطلب
سرعة التصرف إذا أريد حفظ السلام . وكان جراي أعظم سياسى أوربي في ذلك

الوقت يشغله حفظ السلام . ولم يكن من السهل العمل ، وهناك خلاف في الوزارة والبرلمان على عدم وجود رأى عام مستنير للجهل بمحقيقة الموقف ، وجهل الخصوم . والحلفاء جميعاً لموقف إنجلترا من هذه الأزمة .

وفي هذه الظروف عمد جراى إلى ماظنه أعظم عمل ممكن تقضى به الشجاعة . لقد استدعى السفير الألماني كارل لخنوفسكى وتحدث إليه بصراحة عما يقلقه ، وطلب رسمياً أن تستخدم ألمانيا مكائنها في فيينا لتسهيل قبول الرد الصربى على الأقل كأساس لمفاوضات مقبلة . وكانت هذه الحادثة ، مضافاً إليها ما أذاعته الصحافة في نفس اليوم من أن الإجازات ألغيت في البحرية البريطانية — وهو عمل إيجابى شخصى قام به وزير البحرية ونستن تشرشل — أعظم تحذير صريح يدعو إلى عدم الاعتماد على حياد بريطانيا ، فما كان من لخنوفسكى كأى سياسى حازم يقدر الواجب إلا أن أدرك المغزى وأبرق إلى برلين .

ووصلت رسالة لخنوفسكى إلى وزارة الخارجية الألمانية ، في نفس الوقت الذى وصلت فيه رسالة من فيينا تنبئ الحكومة الألمانية أن النمسا ستعلن الحرب على الصرب في اليوم التالى أو في يوم ٢٩ من يوليو على الأكثر . عند ذلك ارتكب بتمان هولفيج إما خطأ لا يصدق وإما غشاً لا يصدق كذلك . على ما يرى ألبرتيني وبعض المؤرخين الآخرين . فبناء على تعليقات من القيصر قدم إلى فيينا مقترحات السير إدوارد جراى الخاصة بمكانة ألمانيا ، ولكنه أغفل من تلقاء نفسه — جزءاً هاماً من الرسالة التى وصلت إليه من السفارة الألمانية في لندن . وهى التى تؤكد أهمية التحذير البريطانى ، كما فاته بيان أى تأييد ألمانى للاقتراح . ولم يزد على السؤال عن رأى النمسا فيه . بل لقد سمح لزميله ياجو أن يستدعى السفير النمساوى وينصحه بالآيهم النمساويون بأية اقتراحات بريطانية ترى برلين

أنها ملزمة بتقديمها . (وما لبث السفير - بطبيعة الحال - أن نقل النصيحة إلى فينا) .

وخطورة محاولة المستشار الألماني القضاء على اقتراح الوساطة البريطانية خفت حدتها في اليوم التالي، عند ما وصل القيصر في نفس الوقت التقرير الخاص بمحادثة سفيره مع وزير الخارجية البريطاني، ونص رد الصرب على الإنذار النموى . وكثيراً ما كان يتصرف غليوم دون مبالاة بالمسئولية - ولكنه ليس بالأحق ولا بالجنون - لقد أدرك في غاية السرعة - خيراً من المستشار ووزارة الخارجية - ما يهدد حلم الألمان والنمويين في قصر الحرب على البلقان بما أبداه البريطانيون من اهتمام بالموقف .

ولما كان غليوم يحل ثلاثة أيام كاملة الجهد الذي كان يبذله مستشاره ووزارة خارجيته لدفع النمسا إلى إعلان الحرب على الصرب ، وضع منهجاً جديداً للسياسة الألمانية في تعليقه على المذكرة الصربية :

« عمل باهر في مدة لا تتجاوز ٤٨ ساعة ! إنه أكثر مما كان منتظراً » .
إنه درس أدبي للنمسا حسب رأيه .

« لم يبق سبب للحرب، وكان على جيزل أن يبق هادئاً في بلغراد ! وبعد ذلك كان يجب على ألا أمر بالتعبئة » .

إن ذلك يخالف التعليقات الثائرة التي كانت تنص على القضاء على العصابات الصربية ، التي زين بها غليوم الرسائل التي وردت إليه على ظهر الموهنزورن . ويقول بيولف عن القيصر - وكان يعرفه تماماً - « إن غليوم الثاني لا يريد الحرب . إنه كن يخشاها . إن مذكراته وتعليقاته الحرية لا تدل على شيء » . لقد فات الوقت ولا يمكن تغيير

الطريق. واستغلت وزارة الخارجية الألمانية غياب الإمبراطور ، كما لعب الدور نفسه صاحبهم برشتولد على الإمبراطور العجوز . لقد غادر المدينة منذ يومين — أى يوم ٢٧ من يوليو — ليتجنب لقاء السفير الروسي الذى كان لديه اقتراعات للتوفيق بين الطرفين.

وبما ذكره السفير الألماني متحدثاً عن وزير خارجية النمسا ، كأنما يتحدث عن تلميذ نابه ، قال « إن النكوت برشتولد شخصية ممتازة . وهو فخور جداً بكثرة ماورد إليه من برقيات التهنية من جميع أنحاء ألمانيا » .

وفى نفس يوم ٢٧ من يوليو المشؤم حصل برشتولد على توقيع فرانسيس جوزيف على إعلان الحرب على الصرب . وللتغلب على التردد الذى كان يلزم الإمبراطور البالغ من العمر ٨٤ عاماً ، أرسل برقية إلى باد إشل يبلغه بهجوم صربى وهى على فرقة الحدود النمسية (ولم يقرر بشكل قاطع ما إذا كان رئيس الوزراء تعمد اختراع هذا الحادث ليخدع الإمبراطور) . وهكذا ، فى صباح ٢٨ من يوليو استقبل برشتولد السفير البريטانى — فى نفس الوقت تقريباً الذى انتهى فيه القيصر فى بوتسدام إلى أن الحرب بين النمسا والصرب غير ضرورية فضلاً عن خطورتها — ليبلغه أن الوقت قد فات لسوء الحظ، فلا أمل فى بذل أى جهد للوساطة ، حيث إن صاحب الجلالة الإمبراطورية وصاحب الجلالة الملكية قد وقعا إعلان الحرب .

وأبرق إعلان الحرب إلى بلغراد بنذ الساعة الأولى بعد الظهر بقليل فى نفس اليوم ، (وهذه أول مرة فى التاريخ تعلن فيها الحرب عن طريق البرق) ، وبعد مغادرة السفير النمسى بلغراد ، كان برشتولد فى حيرة ، كيف يبلغ إعلان الحرب ولم تقبل براين أن يقوم الوفد الألمانى بتبليغه ، « بحجة أن ذلك قد يؤدى إلى اعتماد الشعب — وهو غير خبير بالأعمال الدبلوماسية — أننا دفعنا النمسا والمجر دفعا إلى الحرب » .

وامتلأت فينا - عاصمة العبث والمرح - بالهستيريا الوطنية ، عند ما ظهر على حوائط المدينة الإعلان الرسمي للحرب، ممهوراً بتوقيع الإمبراطور. وقد لاحظ أحد الأمريكيين « أن المدينة كلها رقصت طرباً . واحتضن الناس بعضهم البعض من غير ذوى قرباهم . لقد نفضبوا عن أنفسهم الخنوع والمذلة » .

ومع هذا ففي اللحظة التي عرض فيها إعلان الحرب على الإمبراطور لتوقيعه لم تعلن التعبئة . ولم تعد العمليات الحربية مدة أسبوعين كاملين . ولعل برشتولد كان يرجو أن تحول إحدى المعجزات في اللحظة الأخيرة دون قيام الحرب . . . ولكن الذي لا يدركه برشتولد ووزارة الخارجية أنهم بإعلان الحرب - ولو في هذه المنطقة النائية غير المهمة من أوروبا - قد سلموا قيادة الأمور في كل مكان إلى رجال الجيش، وهؤلاء سوف ينزلون الدمار بأيديهم الثقيلة على جميع ميادين أعمالهم السياسية .

ومع أن صليل السيوف ظل طيلة عشر سنوات أحد الفنون السياسية العالية ، إلا أن رجال الدولة في سنة ١٩١٤ كانوا يجهلون إلى حد كبير معنى تعبئة الجيوش . والنمساويون - وهم في حالة حرب، وعاجزون عن تحريك فصيلة واحدة ضد العدو - كانوا أول من اكتشف هذه الحقيقة ، ثم فهم الروس أنهم سوف لا يمحنون أية ثمرة من خطط تعبئة الجيش .

وكان قولاً الثاني - كصاحبه الحاكمين المطلقين - يخشى الحرب . قال مرة لأحد المقررين إليه بعد تسلمه برقية من القيصر « يجب أن يعمل كل ما يمكن لإنقاذ السلام . ولن أصبح مسئولاً عن مجزرة وحشية » . ومن سوء الحظ - رغم أن القيصر كان حاكماً مطلقاً أكثر من أى ملك آخر في أوروبا - لم تكن له سيطرة على الأحداث أكثر من أى واحد منهم . والرجعيون ومحبو الحرب وجماعة

الجامعة السلافية المتحمسون الذين يعتمد عليهم نقولا لحماية ملكه المطلق ، كانوا يضمنون كثيراً من الضباط والموظفين ذوي النفوذ الذين كان من دأبهم دفعه إلى حرب طاحنة .

وأبرق إلى ابن عمه «ولى» يرجوه أن يثني حليفه النمساوى عن الحرب. قال «إلى» أثنياً بما سيقع على قريباً من الضغط ، الذى يدفعنى إلى اتخاذ إجراءات مشددة. تؤدى إلى الحرب » .

والواقع أن الضغط انهال عليه بسرعة مذهلة، فإنه بعد إعلان الحرب فى ٢٨ من يوليو لعبت الفوضى دوراً هاماً فى توليده . وقد حدث من ذلك قدر غير يسير فى كثير من البلاد. والاستشارات بين الحلفاء والتنسيق بين الحكومات الوطنية. أخذت وطأتها تثقل كما زادت البرقيات العاجلة الهامة على مكاتب رجال السياسة. فى أوروبا . وأصبحت البيروقراطية فى الدنيا القديمة غارقة فيما تراكم عليها من الأنباء . ولم تقو أذكى العقول وأقواها منطقاً على هضم أو تمثيل المعلومات التى ترد إليها . وصارت الأحداث لا تتبعها القرارات اللازمة ، كما كانت كل حركة خاطئة. فاشلة من أى جانب تزيد من الفوضى العامة . ولم تكن هذه الحالة ذات النتائج السيئة أكثر ظهوراً فى أى بلد منها فى سان بطرسبرج، حيث الإدارة الحكومية مختلة فى أحسن الظروف، وحيث كانت أظلم الأحكام وأسوأ الأخلاق ترى فى الغالب فى كل مكان .

وحتى قبل أن تصبح سرعة الأحداث المتلاحقة عبئاً غير محتمل ، ارتكب سازونوف — وهو رجل ضئيل الجسم بسيط الفكر حى الضمير، له لحية منمطة ووجه دقيق أشبه بوجه الثعلب، يوهم الناظر إليه أنه أمكر وأخبث من حقيقته — ارتكب غاظة جسيمة . إذ بعد الإنذار النمساوى إلى الصرب حصل على موافقة مجلس.

الوزراء والقيصر على مبدأ التعبئة الجزئية للجيش الروسية، التي تشمل ما يزيد قليلاً على مليون جندي ، على طول الحدود النمساوية . وكان سازونوف يرى أن هذه الحركة ترعب النمساويين ، فيجسمون عن غزو الصرب . ولكنها لن يكون فيها تهديد لألمانيا ، وعلى كل حال فإن مذكرة مهدئة إلى برلين يمكن أن تصحب . إذاعة التعبئة .

وكان المفروض أن تنفذ أوامر التعبئة الجزئية في أربع مناطق جنوبية في ٢٩ من يوليو ، وهو اليوم التالي لإعلان النمسا الحرب على الصرب . ومع ذلك فالمجلس الأعلى الروسي كان له رأى آخر في التعبئة الجزئية . إذ قال رئيس المجلس سازانوف إن هذه الإجراءات المحدودة ستقضى على نظام العمليات الحربية الآلية ، وتؤثر على التعبئة العامة إذا اتضح فيما بعد أنها ضرورية . عند هذا كان يجب على سازانوف وهو رجل السلام أن يسحب اقتراحه الأصلي ويصمم على إلغاء التعبئة على أى وضع . ولا شك في أن القيصر سيؤيده في هذا . ولكنه بدلاً من ذلك غير اتجاهه إلى وجهة النظر الحربية ، وانضم إلى القوادى في تحريض القيصر على إعلان التعبئة العامة في الحال ، ووافق نقولاً أول الأمر . وفي منتصف الساعة العاشرة من مساء ٢٩ من يوليو ، عندما كانت آلات البرق تستعد لإبلاغ البرقيات التي تأمر بالتعبئة العامة إلى جميع مراكز رئاسة الجيوش ، أرسل ضابطاً في مكتب البرق الرئيسى لوقفها وإرسال الأمر الأول الذى ينص على التعبئة الجزئية .

وتلخيصاً للأحداث التاريخية في ذلك اليوم — مع شئ من عدم التنسيق — كتب نقولاً في مذكرته عن يوم ٢٩ من يوليو ما يأتى :

« لعبنا التنس في ذلك اليوم وكان الجو رائعاً . ولكن ساد اليوم اضطراب غريب . لقد استدعيت مراراً عديدة إلى المسرة . فضلاً عن اتصالى المستمر

مع محادثات تليفونية مع غليوم : قرأت في المساء ثم استقبلت تاتشيف (قائد روسي
بملحق بمحاشية القيصر الشخصية) وسأوفده غداً إلى برلين » .

وقبل ذلك يومين سيجل وزير الحرية الروسية سو كوملينوف انطباعاته
الشخصية لمقابلة له مع قيصر روسيا جاء فيها :

« استناداً إلى هدوء القيصر ، أوبعبارة أضبط ، استناداً إلى اطمئنانه الذي أبداه
عند إنصاته إلى سرد الأحداث الجارية ، يمكن أن نستنتج أنه لا يوجد ما يكدر
الحياة العامة في روسيا . لقد أدهشني هدوءه وقلة اهتمامه بما يقضى الواجب
أن أقوله » .

ولا شك في أن نقولا ليس له من الخلق ولا من العقل ما يتناسب مع هذه
المسئوليات الجسيمة التي يواجهها . ولكن عزلته واشتغاله بتوافه الحياة العادية
في أثناء الأسبوع الأخير الحرج من شهر يوليو سنة ١٩١٤ وقاه من الاضطراب
العصبي الذي أصاب معظم وزرائه وقواده . وفي أثناء الأسبوع الأخير من عهد
السلام كان « نكي » « وولي » مشغولين بالتليفونات والتلغرافات التي لا علاقة لها
بما تعمله حكومة كل منهما . وأخيراً قام نقولا بمحاولة أخيرة ليضطلع بعمل
يحمل مسئوليته . وفي الهزيع الأخير من ليل ٢٩ من يوليو بعد أن أصدر أمره
المسرعى بإلغاء التعبئة العامة ، أبرق قيصر ألمانيا إليه يحذره من عوامل الضغط التي
كادت أن تطغى عليه ، واقترح إحالة النزاع النمساوي الصربي إلى مجلس لاهاي ،
وكانت البرقية بتوقيع « محبك نكي » .

واقترح إحالة النزاع إلى محكمة العدل لم يكن الموقف يسمح به . وكان
توقيع « وولي » على هامش الرسالة « كلام فارغ » . ولكن في هذه اللحظة المعينة

في تاريخ الأزمة الأوربية كان كل تصرف فيه أمل في تأجيل النتيجة النهائية له أهميته .

وبرقية قيصر روسيا هذه جاءت في أثر برقية وردت من لندن لم تهزكيان القيصر فحسب ، بل اهتز لها بتمان هولفيج ووزارة الخارجية جميعاً : لقد أبلغ جراي سفير ألمانيا « طالما بقي النزاع محصوراً بين النمسا وروسيا في وسعنا أن نلتزم الحياد ، ولكن إذا تورطت فرنسا وألمانيا في النزاع عند ذلك تكون إنجلترا مجبرة على التصرف السريع » . ولو كان قيصر روسيا قد استمسك بعدم تعدى التعبئة منطقة الجنوب ، فلربما أمكن استتباب السلام (ومع هذا فقد تعدى القادة الروسيون سرّاً أوامر القيصر) .

وبينما كان بتمان هولفيج في برلين يكتب ما بين الثالثة والرابعة بعد ظهر يوم ٣٠ من يوليو تعليمات جديدة لسفيره في النمسا، ينبئه بأن ألمانيا « يجب ألا تناسق بطليش إلى حرب عالمية دون أن تلقى بالاً إلى نصائحنا » ، استقرت إرادة قولاً المتأرجحة فجأة .

وكان سازونوف هو الذي ارتكب هذه الغلطة القاتلة . لقد جاء مصحوباً بأحد ضباط مجلس الحرب إلى قصر بترهوف على بعد ١٧ ميلاً من العاصمة ، ليقنع القيصر بأن التعبئة العامة لا يمكن تأخيرها ، وليثأ أكثر من سيأة في حديث يحاول فيه إقناع القيصر بضرورة التعبئة العامة . وكان له في حديثه حجتان قويتان إحداها تقرير غامض شيئاً ما بأن ألمانيا بدأت التعبئة ، والثانية لهجة الاستعلاء التي عبرت عنها برقية القيصر بأنه لا يستطيع التوسط في فينا إذا بادرت روسيا إلى التعبئة الجزئية ضد النمسا .

ومع هذا فقد كان يبدو على نقولا أنه صلب لا يتزحزح . فبينما كان جالساً
جوراء مكتبه المزركش بالبرونز والمغطى بالمصورات الجغرافية في حجراته في الدور
الأرضي بقصره المطل على خليج فنلندا لم يبد عليه أنه يستمع إلى حديث وزير
خارجيته ، وكان وجهه الملتحي ، رغم شحوبه وإرهاقه ، لا ينبىء عن أى شعور .

وكانت عيناه الحاملتان لا تتحولان عن الأفق الأزرق البعيد .

وأخيراً قال « تصور عظم المسؤولية التي تدعوني إلى تحملها إذا اتبعت
نصيحتك ، . تصور نتيجة إرسال آلاف الآلاف من الرجال إلى حتفهم » .

ومن سوء الحظ أن الجنرال تاتيشيف زميل سازونوف اختار في تلك اللحظة
أن يتكلم .

قال تاتيشيف « نعم ، إن القرار الذي يصدر قرار خطير » .

فرد نقولا بصوت مرتفع « أنا الذي يقرر » .

ومنذ تلك اللحظة كان يبدو أنه منصت للحجج التي يدلى بها سازونوف ،
واهتم بصفة خاصة برأى وزير خارجيته — وهو رأى خاطئ كما نعلم نحن الآن —
أن ألمانيا كانت مصممة على الحرب وستبادر إلى الحرب ، سواء عبأت روسيا جيوشها
أو لم تفعل ، وأخيراً بعد ما يشبه الجدل الشديد بينه وبين نفسه سلم القيصر ، وقال
« حسناً ! يا سرج ديمتريفتش ، أخبر رئيس مجلس الحرب الأعلى تليفونيا بأنى
قررت التعبئة العامة » .

وكان سازونوف في حجرة التليفون في الدور الأرضي من قصر بترهوف
حالم سمحت له قواعد الأتسكييت بذلك ، وهناك تحدث مع الجنرال عن الأخبار
السارة ثم قال : « والآن أيها الجنرال .. اقطع صلة التليفون » .

ولكن النصيحة كانت غير ضرورية ، فإن القيصر يادر إلى محادثة ابن عمه «ولى» بأن جنوده لن تقوم بأعمال استفزازية، ويحذ له استمرار المفاوضات «حفظاً للسلام العام المحبب إلى قلوبنا». ولكنه لم يصدر أى أمر يلغى الأمر السابق ، وفى صبيحة يوم ٣١ من يوليو (هو يوم أغبر يتفق مع مزاجى) كما كتب قولاً فى مذكرته ، كانت إعلانات التعبئة العامة فى صحائف حمراء ملصقة على جدران المباني العامة فى جميع أنحاء الإمبراطورية الروسية .

وهذه التعبئة الروسية قضت على آخر أمل لدى الدعاة فى مكاتب المستشارين الذين يريدون الوصول إلى أهدافهم السياسية بصلصلة السيوف ، أو عن طريق الحرب المحلية . ولقد ظل رجال السياسة يقنعون أنفسهم أو يقنع بعضهم بعضاً بأن التعبئة لا تعنى الحرب ، ولكن الجنود فى كل مكان يعلمون أنهم كانوا على خطأ .

إن التعبئة تقتضى تعبئة مضادة لها . فإذا تم ذلك على مستوى القارة فى أوروبا ، للنقسمة حقبة طويلة من الزمان إلى معسكرين كل منهما فى عداء شديد مع المعسكر الآخر ، فإن عدم الاطمئنان المتبادل بينهما ، وهو ليس فى درجة واحدة فى المعسكرين ، يكفى وحده للانزلاق إلى حرب لا مفر من قيامها بينهما . هذا فضلاً عن أن الموسم كان ملائماً للحرب . وفى أوروبا كلها كان موسم الحصاد قد انتهى . وكانت الجيوش فى تلك الأيام تعتمد على الخبز اعتماداً على المدافع ، وكان صوامع الغلال مملوءة بالغلال . وأخيراً هدأ إحساس رجال الحرب الذى كان يؤذيه أن تطأ الأقدام المحتذية النباتات الخضراء الضعيفة ، مهما حدث لأصحاب هذه الأقدام أو البلاد التى بدأت السير منها هذه الأقدام ، وانكشفت الحقول التى بها جذور النباتات من جبال الأورال إلى المحيط جرداء صفراء تحت أشعة

الشمس تدعو الجيوش إلى التقدم . ولما كانت الحرب ممكنة فقد أصبحت ضرورية .

والدولة التي تلى روسيا في قوتها والتي يمكنها أن تأمر بالتعبئة العامة هي النمسا ، وقد أعلنت في ٣١ من يوليو ، بعد نشر الإعلانات على جذران المباني بوضع دقائق . وصدر قواد التعبئة في اليوم السابق رغم المحاولات الجنونية التي قام بها بتمان هولفيج في برلين لتأييد اقتراح جديد لبريطانيا وافقت عليه روسيا بوقف الحرب بمجرد استيلاء النمسا على بلغراد (وهي فعلا على الحدود) . ولو كان لدى برشتولد أى شك في صواب قرار التعبئة ، فقد زال عندما هرع رئيس المجلس الحربى الكونت كونراد يوم ٣١ من أكتوبر إلى وزارة الخارجية ويده برقية وصلته من زميله الألماني مولتكه يدعو النمسا إلى رفض الاقتراح البريطانى وتحرك جيوشها فوراً ضد روسيا . وجال في خاطر الكونت الظريف « هذا عجيب . من الذى يدير دفة الحكم في برلين بتمان هولفيج أم مواتكه ؟ » .

لقد كان السؤال ساذجاً . ففي روسيا وفي ألمانيا وفي النمسا كان القواد في ذلك الوقت هم أصحاب السلطة . وكان عملهم الحروب ، والحروب في أفضل الظروف ، وكان كل ما ترك لرجال السياسة هو أن يحسنوا الاعتذار عما تتمخض عنه الخطط الحربية .

والقيصر نفسه كان لا يقطع برأى حاسم في جميع أغراض العملية ، والتحذير الجاد الذى ورد من جرای في ٢٩ من يوليو وأرهب وزارة الخارجية الألمانية ، ملاغليوم بالغضب والثورة عندما قرأه في اليوم التالى .

وعلى هامش البرقية التي ذكر فيها جرای خوفه من وقوع الحرب بأن الحرب

ستكون « أخطر نكبة منى بها العالم فى كل عهود التاريخ ». كتب القيصر « هذا يعنى أنهم سيقومون بالهجوم ضدنا » .

وكان اعتماد غليوم ومستشاره فى معونة النمسا أو تشجيعها — على فرض صياني — ناجم عن عقيدة خرافية لدى غليوم مبنية على فكرة وحدة الملوك . زادها قوة ملاحظة أبداها جورج الخامس على مائدة الغداء للبرنس جورج أخى غليوم ، مؤداها أنه فى حالة وقوع حرب أوربية ستبقى إنجلترا . فتار غليوم ودون فى آخر التقرير الذى بعث به إليه سفيره قال :

« نظهر لنا إنجلترا يدها عندما تظن أننا فى مركز حرج ، وبعبارة أخرى .. إننا انتهينا . إن هؤلاء الإنجليز الأخساء يحاولون أن يخذعونا بالولائم والخطب . إن أكبر خدعة لهم كانت رسالة الملك إلى موقعة باسم هنرى إنجلترا وحدها هى المسئولة عن الحرب أو السلم . لا نحن الآن » .

وفى آخر النهار صاح غليوم فى أحد أخصائه « لقد انتهى على » . ثم إن بتمان هولفيج الذى زاد اشتعال النار بسذاجته بما ارتكب من أخطاء سابقة ، اعترف اعترافاً مؤثماً بفشله فى كبة ألقاها فى مجلس الوزراء الألمانى فى ٣٠ من يوليو ، قال « كل الحكومات بما فيها حكومة روسيا ومعظم شعوبها ميالون للسلم ، إلا أن الناس ضلوا الطريق ، والجبر ماض فى طريقه » .

وبينا كان بتمان هولفيج يلقى كلماته كانت الجموع الآدمية تموج فى ذهاب وإياب يرددون « ألمانيا فوق الجميع » يؤيدون بها كلماته . وكانت ملاحظته عميقة وبخاصة لأنها صدرت عن عقل بسيط ، إلا أنها كانت من أحد حوانبها على الأقل غير صحيحة . إن مؤيدى السلام قدوا فى الواقع كل نفوذ ، وكان رجال الحرب (٢٣ م — الأسر)

هم القابضون على النفوذ ، ولم يعد الشعور الجماهيري عاملا من عوامل الموقف .
ما هو إلا من علامات رغبة الموت الظاهرة التي تتضمنها خطط الحرب التي ترسمها
مجالس الحرب المختلفة .

وخطط الألمان غير المرنة التي تواجه بها الأزمات السياسية الكبرى — التي
هي صورة لنظرية السن بالسن البدائية بعكس مبدأ الانتقام الرادع — كانت
تكفي للقضاء على كل أمل في السلام فيما لو بقي أمل واحد بعد تحرك الجيوش
الروسية . وكان الجنرال هلموت مولتكه ابن أخى مولتكه الكبير مريض بمرض
عصبي ، ولكن أسلوب تفكيره كان بروسياً كما كان جسمه الضخم بروسياً
كذلك . ولو كان له أعصاب هادئة والحرب على الأبواب لكان لواضعي
الخطط الحرية فرصة للعمل في هذا المجال . وقد أصبح واضحاً أن ألمانيا ليست
لديها خطة للتعبة ، ولكن لديها خطة للحرب العامة . إنها تستعد للهجوم
على فرنسا عن طريق بلجيكا (التي ضمنت ألمانيا حيدتها في معاهدات سابقة)
لتضمن وقوف الجيش الألماني على القنال الإنجليزي . وعلى هذا فعندما تأكدت
برلين من التعبة الروسية قبل ظهر يوم ٣١ من يوليو ، وبعد أن أعلن مولتكه حالة
الطوارئ — وهي الحالة الأخيرة التي تسبق التعبة وإعلان الأحكام العرفية —
أشار على وزارة الخارجية أن ينشط رجالها لعمل ما يبعد عن ألمانيا تهمة التوسع
والاعتداء . فأرسل إنذاراً لألمانيان نهائياً بعد ظهر يوم ٣١ من يوليو ، أحدها إلى
روسيا يطلب منها وقف كل إجراءات ضد النمسا وألمانيا في مدى اثنتي عشرة ساعة .
والثاني إلى فرنسا يدعوها أن تلتزم الحياد إذا قامت الحرب بين روسيا وألمانيا .
(والإنذار الذي أرسل إلى بلجيكا بطلب حق المرور للجيوش الألمانية سبق
إرساله للسفير الألماني في بلجيكا على ألا يسلم إلا يوم ١٢ من أغسطس) . وكانت
الإنذارات في توقيتها وصياغتها أشبه بالذاكرة النموية إلى بلغراد — في أسلوب

يجعل قبولها مستحيلا ، ويعطى لألمانيا العذر في إعلان الحرب . وهكذا أخذت الآلة التي أعدت لتدمير أوروبا تدور .

وفي اليوم الأول من أغسطس في الساعة السابعة بعد الظهر دخل حجرة سازونوف — الذي كان وجهه متوتر الأعصاب بدرجة غير عادية — الكونت فردريك بور تاليس السفير الألماني في روسيا ووجهه محتقن بعد عمل مجهد استمر طيلة أسبوع لم يغمض له فيه جفن . وسأل الألماني فجأة عما إذا كانت الحكومة الروسية مستعدة للرد على ألمانيا رداً مرضياً على إنذارها الذي وجهته في اليوم السابق وحددت له ظهر اليوم . ولما كان الرد غير صريح أعاد السؤال بنبرات متقطعة . فرد سازونوف بأن روسيا لا يمكن أن تلغي أمر التعبئة ، ولكنها مستعدة كشأنها السابق أن تستأنف المفاوضات حتى تصل إلى حل سلمي . ثم وقف الرجلان وأخذ الكونت يبحث في جيبه ، وأخرج إعلان الحرب الذي أصدرته ألمانيا ، وقراه في أنفاس لاهثة . عندما وصل إلى الفقرة الأخيرة « إن صاحب الجلالة الإمبراطورية مليكي العظيم يقبل التحدي باسم الإمبراطورية ، ويعد نفسه في حالة حرب مع روسيا » .

ثم جرى — بعد أن فقد أعصابه — إلى النافذة المطلة على القصر الشتوي الذي اصطفيح بلون الشفق الأحمر ، وأدار ظهره لسازونوف وذرف الدموع . ولما ربت سازونوف على كتفه قال : « ما كنت أعتقد أنني سأترك سان بطرسبرج على هذه الصورة » واحتضن كل من الرجلين للمرة الأخيرة زميله الذي كان في الوقت نفسه صديقاً له من زمن طويل .

وكان قيصر روسيا أقل تأثراً بقطع العلاقات مع ابن عمه « ولي » . ففي ساعة متأخرة من تلك الليلة بعد أن شرب الشاب وتحدث مع القيصرة ، وكانت حينذاك

في فراشها، صم على الاستحمام ، وما كاد يدخل في حوض الاستحمام حتى تهر رسول على باب الحمام وأنبأ القيصر أن قيصر ألمانيا أرسل إليه برقية هامة .

وفي حديث لاحق مع سفير فرنسا قص قولاً عليه القصة التالية قال : « لقد قرأت البرقية عدة مرات دون أن أستطيع فهم شيء . أما زال غليوم يدعى أن في وسعي تجنب الحرب . ويرجوني ألا أسمح للجيش أن يتخطى الحدود . هل أصابني مس من الجنون ؟ ألم يأت لي وزير البلاط — فردركس — منذ أقل من ست ساعات بإعلان الحرب الذي سلمه له سازونوف السفير الألماني ؟ وعدت إلى القيصرة وقرأت لها برقية غليوم . وأرادت أن تقرأها هي لتتأكد من عبارته ، ثم قالت إنها لن ترد عليها . أليس كذلك ؟ . لن أرد عليها . وعندما غادرت حبرتها أحسست أن كل ما بيني وبين غليوم قد انتهى إلى الأبد . ونمت نوماً عميقاً » .

ولم يكن من ناموا نوماً عميقاً في تلك الليلة من رجال الحكومات في أوروبا إلا قلة من الناس . ولربما كان منهم فرانسيس يوسف لأنه كان مسناً ، وكان متعباً ، وليست المصائب بمجديدة عليه ، ولأنه قام بواجبه كما يعتقد . وربما نام نوماً عميقاً جافريلو برنسيب قاتل ولي عهد النمسا في زفافه ، إن لم يكن لا يزال متأثراً مما أصابه من أذى على يد الشعب والشرطة عند القبض عليه . لقد أدى ما كان عليه من عمل . وكذلك رئيسه العجيب الذي لم يره في حياته الكولونيل أيبس . وصديق أيبس الملحق الحربي الروسي الكولونيل أرتمانوف ، وقد عاد إلى عمله بعد إجازة مدتها شهران، وصديق إزفولسكي صاحب الدساتير تيوفيل دلوكاسيه وزير الخارجية الفرنسية السابق .

كتب أبل فري وكيل الخارجية الفرنسية في مذكرته السرية بعد مقابلة له مع دلوكاسيه عشية الإنذار الألماني « ظننت أنني رأيت عمل العنكبوت الصغير

- ٣٦٥ -

الذى ألقت ألمانيا بنفسها في شباكها . لن تستطيع ألمانيا أن تعيش بعد ذلك في الدنيا . التي أعدها لها دلكاسيه ، ولأول مرة فهمت ألا أحد بعد بسمارك يسيطر على الأحداث الأوربية مثل هذا الرجل الضئيل الذى لم ير في حياته البغواء الفرنسيين ولم يهتم بالبرلمان ، ولم يشغله إلا عمله . لم يعد وزيراً ولكن الشبكة أعدت وسقطت فيها ألمانيا كما تسقط الذبابة السمينة » .

وكان غيره من غالبية أصحاب التيجان ورجال الدولة والدبلوماسيين في أوروبا الذين كانوا يعملون للحرب وهم لا يشعرون ، يتعثرن في أثناء الساعات الأخيرة من عهد السلم فيما يشبه كابوس اليقظة . وفي ليلة ٣١ من يوليو صممت الحكومة الفرنسية على رفض الإنذار الألماني الذى سلم إليها في الساعة ٧ مساءً ، وأمرت بالتعبئة العامة . وبينما كان الوزراء وعلى رأسهم بوانكاريه يتدارسون حول المائدة المستديرة في قصر الإليزيه ، وصل إليهم نبأ مقتل جان جوريه رئيس الاشتراكيين الفرنسيين والعدو المبين للحلف الفرنسي الروسى وآخر أمل لنعاة السلام الأوربيين ، أرداه وطنى متحمس . كان الموقف رهيباً حول مائدة الوزراء ، وأعقب ذلك صمت بطيغ . ولو كانت المبادئ الاشتراكية عميقة الجذور في عقول الطبقة العاملة في أوروبا كما كان يتخيل جوريه وأصحابه ، لكان موته منجاة للسلام في اللحظة الأخيرة . وقد كان يظن في فترة وجيزة من الوقت أن كل شيء ممكن . وبناء على ما رواه أبل فرى ملأ مدير الشرطة قلوب الوزراء بالرعب عندما طلب من قصر الإليزيه أن يبلغ الوزراء أن الثورة ستقوم في العاصمة بعد ثلاث ساعات .

ومع ذلك كان الإنذار الروسى لا أساس له . لقد كان في الشوارع مثلاً بعض العمال ، ولكن الناقمين على الحرب ابتلعهم العدد الأكبر المتحمس من الشعب ، الذى كان يصيح ويغنى . والصيحات القليلة التى يسمع منها فلتسقط

— ٣٦٦ —

الحرب، تجولت إلى نشيد المارسيليز، وأخيراً . . إلى برلين . وفي اليوم التالي، — أول أغسطس عندما علقت إعلانات التعبئة الصفراء وعليها العلم ذو الألوان الثلاثة على الحوائط في جميع أنحاء فرنسا — في نفس الوقت الذي أعلنت التعبئة العامة في ألمانيا — كان عمال فرنسا وفلاحوها يلعبون أحذيتهم ويحملون متاعهم، دون أية مبالاة كعادتهم دائماً . وكانت الجموع تحيهم بالهتاف وتلويح الأعلام، وإهداء الزهور وتندفع إلى المحطات لوداعهم، ومن لم يستطيعوا فقدودعوهم في نوافذ الدور التي كانت تكتظ بهم وهم يغنون ويلوحون .

ومثل هذه المناظر كانت ترى في كل مكان تقريباً في أوروبا . إلا في البلاد المحايدة وفي إيطاليا — التي رغم محالقتها الطويلة الأمد مع ألمانيا والنمسا صممت على أن، تظل على الحياد .

وفي ألمانيا كانت تحية العاصمة البروسية للحرب حماساً منقطع النظير . وكان شعور الألمان «إن سنى الاستعداد التي قضوها قد أثرت الآن» كما يقول السفير الأمريكي جيمس جيرارد .

ولم يشارك بتمان هلفيج ولا القيصر مواطنيهما أفرأحهم .

سأل البرنس ييولف المستشار السابق بتمان المستشار الحالي بعد نشوب الحرب، بيضعة أيام « كيف حدث كل هذا؟ » .

فكان رد بتمان « آه لو كنا نعلم » قال ذلك وقذف بذراعيه إلى أعلى معبراً عما يشعر به من اليأس .

وقال فون نربتز « ما رأيت وجهاً أكثر حزناً وأشد إنهاكاً من وجه إمبراطورنا في تلك الأيام » .

— ٣٦٧ —

وفي أول أغسطس يوم إعلان التعبئة الفرنسية. وعلى مسمع من هتاف الاستحسان المتزايد الصادر من الرعية، جلس غليوم الثاني في حجرة النجم في قصر برلين على مكتب مصنوع من أخشاب سفينة لورد نلسون ليوقع الأمر الذي يندفع بمقتضاه جنوده عبر لكسمبرج وبلجيكا، التي لا تزال حيدتها مضمونة بمعاهدة دولية مرعية عبر عنها تيان هولفيج بعد بضعة أيام بأنها قصاصة ورق . وعندما قام غليوم واقفاً قال - وكأنا يتكلم بما أوحى إليه كما يحدث عادة لمن كان في موقفه - وقد حقق في وجوه الرؤساء الحريين والبحريين « أيها السادة : ستعيشون وتندمون على كل هذا » .

وبعد يومين وقف جرائي مكتوف اليدين عند نافذة حجرته في وزارة الخارجية بينما كان الظلام ينقذ لندن من الحر الشديد ، وقد عراه نفس شعور الوحشة الذي أخذ يحل بالقارة كلها والنظام الاجتماعي كله .

قال اللورد جرائي ، « إن المصاييح أخذت تنطفئ في جميع أوروبا . ولن نراها موقدة ثانياً طوال حياتنا » .

وفي الحق لقد بدأت تنطفئ المصاييح قبل أن يدرك ذلك جرائي أو غليوم . أو أي معاصر بوقت طويل . وسيكون ظلام الدنيا القديمة أدهى وأمر بما يتصوره أكثر الناس غفلاً وأشدّهم خوفاً .

الفصل الثاني عشر

فِشَلُ الْحُرُوبِ

إذا قيست الحرب العالمية الأولى بمقاييس الوقت الحاضر، فإنها تبدو لنا معركة محلية ومعركة من الدرجة الثانية من الناحية الآلية الفنية. ولم يتأثر بها إلا المنطقة الغربية من أوراسيا، أما من الناحية الطبوغرافية، فهي لم تكد تتأثر بها. ولكن نظراً لما أحدثته في أوروبا من الناحية الإنسانية — ونظراً لمكانة أوروبا في العالم — ستظل حرب سنة ١٩١٤ أعظم جرح في تاريخ الغرب منذ الحروب الدينية. وربما كانت المخاوف التي عبر عنها رئيس الولايات المتحدة وودرو ولسن عقب نشوبها « بأنها ستؤخر المدنية قرنين أو ثلاثة قرون » فيها مبالغة، ولكن لم يثبت أنها على غير أساس. لقد تسببت الحرب الأولى في موت عدد من الضحايا أقل من الحرب الثانية، وهدمت من المباني أقل منها، واجتثت ملايين لا عشرات الملايين، ولكنها خلفت جروحاً أعماق في الفكر وعلى خريطة أوروبا، ولم يبرأ العالم القديم مطلقاً من أثر هذه الحرب..

وينسب بعض ما حل بالبلاد من خراب إلى الاضطرابات الثورية التي حدثت في أعقاب الحرب. وإمبراطوريات وسط أوروبا وشرقها التي تحكمها الأمرات الملكية — التي أدى انهيارها الأدبي والسياسي إلى وقوع هذه الحرب — كانت — كما سنرى فيما بعد — أولى ضحايا هذه الحرب، ولم يكن انهيارها إلا حدثاً هاماً خطيراً. ومع ذلك فقد كان هذا السبب هو نتيجة أيضاً. وهذه الحرب كانت طوفاناً بمعنى الكلمة غريباً على مسمع من رجال الحرب المحنكين القدامى في شاطئ أاماها أو مونت كازينو أو ستالينجراد، أو لدى من بقى على قيد الحياة بعد قنبلة هيروشيما —

فإن حرب الخنادق سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ ربما كانت أقسى تجربة كبرى احتملها عقل الإنسان وجسمه منذ العصر الجليدى .

والمعارك الأولى فى فرنسا وفى الجبهة الشرقية التى كانت أعظم مما اضطرت لها الجيوش فى جميع العصور ، كان فيها ما ينبئ عن المستقبل المظلم . كانت معارك بطولة ولكنها كانت قتلا وسفك دماء .

وفى بروسيا الشرقية — حيث كانت الجيوش الألمانية تلت الجيوش الروسية — كان جنود المدافع الألمان يصفون مدافعهم متلاصقة فى كل ثغرة توجد بين البحيرات التى تحيط بها المستنقعات أو فى غابات البلوط المظلمة ، ويصوبونها على فصائل القوزاق المتراسة . ومع هذا فقد تقدمت الجيوش الروسية . وفيما بين تلال اللورين الألمانية — حيث اتخذ الفرنسيون خطة الهجوم — كان المشاة فى سراويلهم المنتفخة الحمراء يقودهم شبان حديثو التخرج من كلية سان سير ، وفى أيديهم قفازات بيضاء ، وعلى قبعاتهم ريش يتطاير فى الهواء ، قد ثبتوا الحراب فى بنادقهم واندفعوا مهاجمين .

وفى الشمال والغرب فى غابات الأرجن المتشابكة ، وفى سهول الشامبين المنحدرة ، حيث أشجار الكرم ذات الثمار الناضجة ، انتقم الفرنسيون — بما ألقوا من المفرقات على الصفوف التى انحدرت إليهم من بلجيكا على طول الطرق التى تظللها أشجار الحور ، فى هجمات متوالية ، مزودين بالمدافع الفتاكة التى تبلغ فوهتها ٧٥ مليمترا .

ووقف مولتكه ، الذى عقدت له القيادة العليا — موقت المدافع فى بروسيا الشرقية . كما وقف بالمرصاد للفرنسيين فى اللورين ، واتباع خطة شليفن بتعديل بسيط ، فأرسل معظم قواته تحترق بلجيكا وبيكاردى لتلتف حول الجناح الفرنسى

من ناحية الشمال في خركة التفاف كبيرة . وكانت خطته تقتضى حصر الجزء الأكبر من قوة العدو وهزيمتهم - وكانت عبارة عن ستة جيوش فرنسية وفرقة إنجليزية أرسلت على عجل عبر التناة - بين باريس والحدود الألمانية . وكاد مولتكه أن ينجح في خطته . فبعد شهر واحد من إعلان الحرب - وقد كانت الطلائع الألمانية تستطلع المنطقة شمالي باريس أمام جيش مولتكه المتقدم - شدت أزمة الخيل وحدثت في رهبة في برج إيفل الذى انطبعت صورته في السماء الزرقاء .

وكان أمل مولتكه أن يهزم فرنسا ويخرجها من الحرب بعد ستة أسابيع ، ثم يلتقى بكل قوة وقوة النمسا ضد روسيا . ولكن سوء تقديره واختلال أعصابه ساعدا على ضياع النصر الذى كان في يده ، بعد أن أضعف القوة الضاربة التى كانت لديه في الغرب ليقوى الجبهة الشرقية التى زاد الضغط عليها . ثم إن الجنرال جوفر القائد العام الفرنسى - الذى كان كاثور في بلاده شعوره وكاد ألا يمتاز عنه في سعة الخيال - تقهر بأسرع ما في وسعه تحت ضربات العدو الشديدة ، ثم لما أحس بخفة الضغط طأطأ رأسه قليلا وانسحب . وكان الهجوم الفرنسى المضاد الذى استمر ثلاثة أيام (من ٦ - ٩ من سبتمبر) على نهر المارن وفي جبهة نانسى فردان الذى قام به القواد الذين تحت إمرته ، قد أذهب القوة المهاجمة الألمانية . وقبل ذلك بأسبوع استدعى الجنرال هندنبرج من الاستيداع ، وهو برومى ذو أعصاب حديدية ، لأنه جدير بالاعتماد عليه في الجبهة الشرقية ، كما سبق أن رد الروس في الموقعة التى عرفت باسم تاننبرج .

أما الغزو النمساوى للصرب فقد بدأ بداية حسنة وانتهى بفشل مزر . (وفي إبان الحرب - بعد مدة - اجتاحت الدول المتحالفة الصرب جميعها ، واضطرت القوات -

التي بقيت من جيشها إلى التقهقر تقهقراً مشهوداً إلى الشاطئ ثم ، أزموا بالجلاء) .

وعند ما حل الشتاء بوحله وضبابه في الغرب وزوابعه وعواصفه في الشرق توقفت الجيوش المتقاتلة عن الحرب من سويسرة إلى بحر الشمال ، ومن البحر البلطي إلى جبال الكربات . لقد بدأ وقت الترقب الرهيب .

وحاولت عبثاً الدبلوماسية عن طريق الدعاية والمؤامرات قلب ميزان القوى ، وانضم إلى هذا المعسكر أو ذاك حلفاء جدد أغروا بمعااهدات سرية أو بمعونات سرية ، كما فتحت جبهات جديدة للقتال ، وامتدت جبهات القتال القديمة ، فدخل الجبل الأسود مع الصرب تقريباً منذ أول الحرب . وانضمت اليابان للدول الغربية . في أغسطس ، ولكنها اكتفت بالاستيلاء على الممتلكات الألمانية في شاطئ الصين . وفي المحيط الهادى . وانضمت تركيا إلى دول الوسط في نوفمبر . وأعلنت إيطاليا الحرب على حلفائها السابقين في مايو سنة ١٩١٥ . وانحازت بلغاريا إلى جانب ألمانيا والنمسا وتركيا في أكتوبر من السنة نفسها ، وانضمت رومانيا إلى جانب الحلفاء سنة ١٩١٦ .

وكان التدخل الحاسم عند ما أعلنت الولايات المتحدة الحرب ضد ألمانيا . في السادس من أبريل سنة ١٩١٧ نتيجة لحرب الغواصات التي حاولت بها ألمانيا . اليائسة فك الحصار البحرى المضروب عليها من الحلفاء . وبدخول أمريكا الحرب احتشد معها إلى جانب الحلفاء عدد كبير من المحاريرين - أغلبهم لنصرة المبدأ - تأييداً للحلفاء .

وكانت آخر دولة انضمت هندوراس - يولية سنة ١٩١٨ . وفي هذا الوقت بلغ

عدد الدول التي دارت في فلك الحلفاء ضد دول الوسط الأربعة ٢٧ دولة : منها اليونان والبرتغال والبرازيل والصين وسان مارينو، ودول كان دخولها اسماً دون اشتراك فعلي في الحرب مثل ليبيريا وسيام وبوليفيا .

وبلغ عدد القتلى لدى الدول المتحاربة الكبرى — من الجيوش المتقاتلة وحدها ١٨٦ر٩٤٩٤٣٧ وهو نصف عدد الجيوش المتحاربة، منهم أكثر من ٨٥٠٠٠٠٠ رقتلوا أو ماتوا من أثر الجروح أو المرض . ومات واحد من كل عشرة جنود اشتركوا في الحرب من جيوش فرنسا وإنجلترا وألمانيا وروسيا والنمسا وتركيا وإيطاليا . ولكن نسبة الإصابات في الحوادث كانت بطبيعة الحال أعلى كثيراً منها في خطوط القتال ، وبخاصة في الجيوش الروسية والنمسية . أما فرنسا وغيرها من البلاد الصناعية المتقدمة التي فيها للواليد نسبة ضئيلة ، فقد أصاب ذكورها الأقياء عقم لمدة جيل من الزمان . بينما تأثرت البلاد المتخلفة كثيراً بوفاة الصفوة المتعلمة من أبنائها .

وفي الحرب العالمية الثانية — ربما باستثناء الجيوش اليابانية والسوفيتية — كانت الروح المعنوية تتأثر كثيراً عند ما تفقد عشر عددها وعتادها في الموقعة .

وفي الحرب العالمية الأولى كانت الكتائب بل والفرق تفقد — بعد تعرضها لنار العدو عدة أسابيع — ثلاثة أرباعها في الساعات الأولى من هجومها ، وينتظر منها الاستمرار في القتال . ولما كانت عملية إلقاء القنابل من الجو لم تصل الكفاية فيها إلى مستوى رفيع لحداتها . كانت إصابة جنود الميدان كالمدينين من السكان في الحرب العالمية الأولى أقل منها في الحرب العالمية الثانية .

ولكن الحرب في الصفوف الأمامية في معركة هامة كانت أشد خطراً كما كانت أكثر ضرراً . وفي القطاع البريطاني من الجبهة الغربية بين يناير سنة ١٩١٥

وسبتمبر سنة ١٩١٨ كان يقدر للجندى في مثل هذه الوحدة خمسة أشهر في الخنادق، كما كان كل جرح يترتب عليه إغفاؤه من القتال بسبب الوفاة في ربع حالات الإصابة . وفرص الحياة كانت أكثر في الجانب الألماني إلا عند القيام بالمجوم الكبير . ولكنها كانت قليلة إلى حد مزعج في الفرق الممتازة عند الروس .
والتسويين .

وتفوق الهجوم على الدفاع الناتج غالباً من قوة إصابة المدافع لأهدافها . أجبر المتحاربين على الكف عن القتال، وعلى قدر المدة التي يقف فيها القتال بين الطرفين تتحسن وسائل الدفاع عندهم . وعلى كلا الجانبين في الجبهة الأمامية تمتد صفوف متتالية من الخنادق العميقة تتصل بممرات جانبية، ويقوى جدرانها أكياس من الرمل، وأمام هذه الخنادق أسلاك شائكة . وكانت المساحة المحاذية بين الفريقين المتحاربين لا تتجاوز ٥٠٠ ياردة، وكثيراً ما تكون ١٠٠ ياردة أو مائتين، وأحياناً لا تزيد على سعة الشارع العادى . وكل فريق لا يسهل عليه مطلقاً أن ينزل للعدو عن قدم مربعة من الأرض التي كسبها بمجهود عظيم أو حصنها بنصب كبير . وعلى العكس كانت المعارك الدموية الصغيرة قائمة بين الجانبين لكسب بضعة ياردات، أو لاحتلال موقع غير هام، يعد خسارة للعدو . وفيما بين هذه المعارك العقيمة كان كل من الفريقين — رغبة في حفظ الروح المعنوية وعملاً بمقتضى الأصول الحربية — يصب على الفريق الآخر النار آناء الليل وأطراف النهار بلا انقطاع، وهكذا ظهرت في تاريخ الحروب ظاهرة من أسخف القذائف وأفظع السفخافات : ظاهرة القتال المستمر الذي لا طائل تحته، الذي يشترك فيه ملايين من البشر بلا انقطاع حوالى ١٤٠٠ يوم .

والخنادق — كما وصفها الشاعر البريطاني روبرت جريفز — كانت أشبه بالخجاني*

التي تقام على عجل للوقاية من الغارات الجوية في منطقة من الطين تجميعها شبكة من الأسلاك الشائكة . معرضة لا للغارات الجوية القوية فجسب ، بل وللهجمات المستمرة المفاجئة من السفاحين المحترفين ، دون أية وقاية من مياه الأمطار الغزيرة .

والحياة في هذه الجحور المعدة للموت التي يشارك فيها الإنسان الهوام والحشرات وجيوش الفيران السمينة بلغت « درجة الصفر في الراحة » كما وصفها جريفرز . فما أخط الحياة فيها وما أشقاها . « نحن نأكل كالخنازير ولنا رائحة الخنازير » .

ووصف حياة المحاربين الشاعر الشاب الأمريكي ألان سيجر الذي قتل في سنة ١٩١٦ قائلاً : « البرد والقذارة والتعاسة هي الحالة الدائمة . وحياة الجندي أصبحت تعني بالنسبة له اختباراً في أتعس ما يمكن أن تتحمله حياة الإنسان . . . إن مثل هذه الحرب حرب حقيرة . نحن لا نعيش كما يعيش الناس مطلقاً . بل نحيا حياة الحيوانات في جحور في الأرض ، ولا تظهر رؤوسنا إلا للحرب والغذاء » .

وسيجر مؤلف المقطوعة الشعرية التي كانت ذات شهرة في بعض العهود واسمها « لى موعد مع الموت » تطوع في الجيش الفرنسي سنة ١٩١٤ . وآلاف أخرى من الشباب الأمريكي ، الذين جاءوا إلى فرنسا بعد سنة ١٩١٧ ، مع فرقة القائد برشنج الأمريكية ، لقوا نصيبهم من الصعاب والأخطار في الحرب . ولكن قليلا منهم من وصل في الوقت الذي كابد فيه الفرنسيون والبريطانيون ما كابدوا من حياة الخنادق ، أكثر من ثلاث سنوات كاملة .

وكانت الغازات السامة التي استعملها كلا الطرفين بعد أن جربها الألمان عند إبير سنة

١٩١٥ أشنع جوانب حرب الخنادق . وأشنع من ذلك صعوبة نقل الموتى في المنطقة الحامية بين صفى الخنادق . ولقد ظلت الجثث المتعفنة أو القطع الممزقة من الأجسام الآدمية عالقة بين أسوار الخنادق أو الأسلاك الشائكة عدة أسابيع وأشهر ، وبخاصة بعد العمليات الحربية الثقيلة ، تسمم الجو وتملؤه برائحها الكريهة . ولقد جاء في إحدى الأغنيات الإنجليزية الجماعية الحربية الشعبية .

إذا أردت أن تجدى حبيبك ، سلىنى فأنى أعرف مكانه
ممزقاً معلقاً فى شائك الأسلاك

ولاشك فى أن أقسى ما يكابد به الناس فى حرب الخنادق ، الاضطراب الذى يتزايد يومياً فى عقولهم ، والضغط الذى يرهق أعصابهم ، بينما تصب عليهم النيران جملة أياماً متوالية . وقد بلغ متوسط ما سقط على بعض القطاعات فى الجبهة الغربية طناً من الصلب والمفرقات القوية لكل ياردة واحدة . وفى موقعة فردان ، ولعلها أشد الوقائع هولاً ، وأكثرها عدد قتلى ، أطلق الفرنسيون وحدهم أكثر من اثنى عشر مليون قنبلة من جميع الأحجام ما بين ٢١ من فبراير و ١٦ من يونية سنة ١٩١٦ . وبعد مرور ثلاثة عشر عاماً من انتهاء الحرب — وقد كنت مراسلاً صحفياً شاباً فى فرنسا — تهيأت لى فرصة زيارة ميادين الحرب السابقة ، وكانت هناك مساحات كبيرة وبخاصة حول فردان وريمس ، فى أرضها حفر تشبه الحفر التى تشاهد على وجه القمر ، ومن جبالها زالت رؤوسها ، وكأنما الأرض هيكل يكشف عما فى جسمه من جروح . ومع هذا فقد عرفت أن بعض هذه المنطقة القاحلة كانت يوماً ما مزدهجة بالسكان كأى شارع فى المدينة . إن الخيال ليعجز عن أن يتصور الحياة فى أثناء هذه الأحداث المربكة التى سببت هذا الدمار . إن تجربة وقوع القنابل الكبرى

فى الخطوط الأمامية تجربة قاسية ، وحتى الطلقات الذارية اليومية التى تتوهج من وقت إلى آخر فى الخطوط الأمامية هى أيضاً ذات تأثير شديد على أعصاب أى إنسان بعد أن عاش وقتاً يعانى وقع عدد كبير منها .

وقد سجل دوجلاس ريد ، وهو صحفى إنجليزى زار جبهة القتال وصفاً للحالة « وبلغنا حالة عصبية ، لقد شاطرت واحداً من فرقة الورشستر النشطة الحازمة ما لقيه من جحيم ، واتسخ وجهى من غبار المعركة وأصيب أنفى بشظية ، وطلب منى هذا الجندى ألا أخاف ، ولم أكن حينئذ شديد الخوف . ثم قال : ما دمت شاباً وفى صحة جيدة ، ولم تضرب بالقنابل كثيراً ، فإن وجودك فى نار المعركة ليس أمراً صعباً » . ثم يقول الصحفى « إنى لمعجب بهؤلاء المحاربين إنجائى بهذا الجندى ، أولئك الذين يرون القنابل تنساقط من حولهم ولا يعرف الخوف سبيلاً إلى قلوبهم » .

لقد كان توتر الأعصاب الذى لا ينقطع ، وتعاसे الحياة فى الخنادق ، سبباً فى محاولة المشاة فى الحرب العالمية الأولى أن يتخطوا خنادقهم ويمتازوا المنطقة المحاذية التى أمامها بينما يدوى فى آذانهم قصف المدافع ، ويحيط بهم ستار مما يتأثر من المعادن التى تقذفها تلك المدافع . ويبدو أن سوء الحالة يستحق المضى بين صفوف الأعداء ومصارعة الموت ، إذا كانت هناك فرصة لاختراق هذه الصفوف ، الذى يعنى الخلاص ، إن لم يكن من الحرب فعلى الأقل من الحياة فى الخنادق .

وكان يبدو المرة بعد المرة أن الأمل أوشك أن يتحقق لهذا الجانب أو ذاك فى فردان وفى شبه جزيرة جاليبولى ، وفى غاليسيا النمساوية ، وفى منطقة شبنانيا ، وفى حوض الإيزونزو والسوم والإيزر . وفى كل مرة إلى فصل الربيع من سنة ١٩١٨ كان الهجوم يتلخخ بالوحل والدماء ، وربما كانت كبرى هذه المذابح التى لا طائل تحتها ، المعركة البريطانية فى الأراضي المنخفضة فى أثناء الصيف والخريف من سنة ١٩١٧ ، وهى تعرف أحياناً باسم باسنديل ، وهى القرية التى وقعت عندها

الموقعة الأخيرة من ذلك الغزو . وقد فقد فيها الجانب المهاجم ٤٠٠.٠٠٠ نفس ، ولم يحصل منها على أية نتيجة ذات أهمية .

وقد فشل الهجوم البريطانى فعلا فى مبدأ الغزو تقريباً . فإن المدفعية التى رأت من الضرورى تقطيع أسلاك العدو ، وتحطيم مواقع سياراته للأمامية ، أتلفت أيضاً نظام الصرف فى سهول نهر إيزر ، وهكذا تحولت المنطقة كلها إلى مستنقع . وفى الظروف القليلة التى يستطيع فيها الجيش المهاجم أن يفتح ثغرة فى جبهة العدو — وهو ما نجح فيه الروس مرتين فى الجيوش النمساوية — فإن صعوبة سير المدفعية الثقيلة والمؤن فى الوحل والحفر الناتجة عن سقوط القنابل فى أرض الموقعة ، تعطل تقدم الجيش المهاجم وتسمح للدفاع أن يصلح من عيوب المنطقة وينشئ الخنادق الجديدة .

إن روح الهزيمة والرعب واليأس مما ترتب على الحرب على مثل هذا المستوى الكبير وفى مثل هذه الظروف ، أخذت تتسع دائرتها ، فانتقلت من ميدان المعركة حتى استولت على عقول سكان الغرب جميعاً فى القرن العشرين ، كما أثرت حرب السنوات الثلاثين فى العصر الذى وقعت فيه — ولم تكن الحرب فى ذلك الحين حرباً على جميع مرافق الدولة — فأحداث كوفتري ، وهامبورج ، وليديس ، وبوشنفال ، وهيروشيا ، لم تزل فى عالم المستقبل — ولكن الحاجة إلى تهيئة كل جهد فى البلاد ، وإعداد المقاومة السرية يقوم بها السكان المدنيون فى البلاد المحتلة ، وتشجيع الخيانة والتخريب ، كل هذا أوجد حالة من العنف والقسوة لم تشهدا أوروبا منذ أكثر من ثلاثة قرون . وإن هذه الفظائع التى كانت ترتكبها الحكومات نفسها ، كانتهاك الألمان لحياض بلجيكا ، وقتلهم للرهبان المدنيين فى بلجيكا وفرنسا المحتلة ، والهجوم المستمر الذى قامت به الغواصات الألمانية على السفن غير الحربية بعيداً عن ساحة القتال ، وعدم رفع الحصار عن

الأهالى الألمان والنسويين المدنيين وهم واقعون تحت تأثير المجاعة العامة بعد إلقاء السلاح ووقف القتال . كل هذا ليدل دلالة سيئة على سرعة الانحدار عن المستوى الحضارى .
 وفى مبدأ الحرب ، عندما كان هناك اعتقاد سائد بأن الحرب سوف تنتهى فى بضعة أسابيع كانت الحماسة الوطنية منتشرة فى كل مكان فى البلاد المحاربة . واشترك كل من فى البلاد من عناصر طيبة وشريرة فى النشوة التى كانت لدى عامة الشعب .
 ومما كتبه أحولف هتلر « لا ينجلى أن اعترف اليوم بأن حاسة تلك الآونة (إعلان الحرب) أثارت فى شعوراً قوياً ، وأنى ركمت على ركبتي وشكرت الله من صميم قلبى على أنه وهبى نعمة الحياة فى مثل هذه الأوقات » .
 وهذا الشعور الجنونى نفسه أصاب شارل بيجى أنبه الشعراء الفرنسيين الحديثين ودفع به إلى الموت فى موقعة المارن . وها هو ذا المنظر الذى يصفه واحد ممن بقى على قيد الحياة من القصيلة التى يقودها هذا الشاعر المحارب قال :
 « لقد انحنينا لتمسكن من الإصابة ، وتعثرنا فى جذور البنجر وكتل الأرض واندفعنا للهجوم .

فصاح بيجى : اضرب وأطلق الرصاص . . وظل واقفاً يوجه الجند ناحية إطلاق النار ، ثم صمنا : انبطح أرضاً ، ولكن هذا الجنون المقتون بشجاعته ظل واقفاً على قدميه . وإنا لتسمعه يصيح : أطلق النار .. وفى هذه اللحظة عينها أصابت رصاصة قاتلة ذلك الرأس النبيل » .

ولم يكن ألان سيجر أقل نشوة عندما ذهب للقتال لأول مرة — كتب لأمه من ميدان القتال فى أكتوبر سنة ١٩١٤ يقول : « إني أتجه إلى الميدان وقلبي يطير فرحاً . . . وأعتقد أنك تعتمدين على رؤيتي فى الصيف القادم فى فيرلى . وسأعود بكل تأكيد بعد الحرب لأراكم وأعود إلى حالى الطبيعية . أنا سعيد وقلبي مفعم بالسرور لما أتوقع من أيام بديعة قادمة » .

حتى إديث وارتون - تلك الروح الحساسة المتمدينة ، القصصية الأمريكية ،
والتي كانت تعيش وقتذاك في فرنسا ، رأت في أول الأمر هذه النار المتأججة طريقاً
إلى تنقية النفوس . كتبت تقول « إذا نظرنا إلى الماضي من أيامنا القاسية الحالية
نرى تلك الأيام الخوالي في باريس وقد ازدهرت ازدهاراً مفاجئاً الحياة الوطنية ،
ومحت كل الأعمال الدنيئة التافهة ، وقتت الجوا الأخلاقي كما تنقى الشوارع من
أوسارها ، وجعلت الناظر إليها يشعر أنه يقرأ قصيدة بليغة من الشعر عن الحرب
دزن أن يعيش أيام الحرب ذاتها » .

ومع طول مدة الحرب وزيادة الوفيات الناجمة عنها وشلل وسائل المعيشة
وزيادة نسبة الفقر والحرمان النسبية عنها تغيرت الأحوال . ففي سنة ١٩١٥ تحت
مؤلف روسي يدعى جريجورى ألكسنسكى في تقرير لناشر فرنسي عن درر دولته
في النزاع - تحت تعبيراً جديداً يصف حالة أخذت تظهر في بطرسبرج وفي موسكو .
وهذا التعبير أسخط النحاة المعاصرين ، ومع ذلك اتخذ سبيله إلى لغة الصحفيين
في بلاد كثيرة . أما هذا التعبير فهو « دعوة الهزيمة » . وكانت دعوة الهزيمة لحركة
منتظمة مقصورة في أول الأمر على روسيا والنمسا . ولكن في جميع البلاد المتحاربة
تغيرت النظرة إلى الحرب من اعتبارها محاولة هادفة إلى بلوغ أعجاد بطولية إلى
اعتبارها نكبة طبيعية عامة ، أو كما وصفها الشاعر الألماني رينر ماريار لكه « القضاء
المبرم على مصير الإنسانية » .

وقد ظل الجندي البريطاني بطلاً إلى النهاية وكذلك الجندي الفرنسي
والألماني . ولكنه أخيراً رأى وهو ساخط أنه بعض ما تحشى به آلة تقطيع اللحم
التي تغذى بأجساد الأحياء وتقذف بها جثثاً هادمة وهي لا تزال ثابتة في مكانها لا تريم .
وزاد كره جندي القتال للكسالى والنفعيين ، وغير هذا الكره نظرته إلى
الحرب . هذا فضلاً عن أن إيمانه بالقيادة المدنية التي عجزت عن أن تبعد عنه

كارثة الحرب ، وإيمانه بالقيادة العسكرية التي عجزت عن كسبها ، قد تحول أولاً إلى شك ثم إلى سخط ويأس . ثم تولدت خرافة « القبعة النحاسية » ، التي تقضى على الرجال دون شفقة أو رحمة . ثم بلغت الأمور ذروتها بعد الحرب فيما ألفت من الكتب والمسرحيات مثل . « الوداع لكل هذا » لروبرت جريفز و « وداعاً للسلاح » لهمينجواي . و « كل شيء هادئ في الميدان الغربي » لإريش ماريا ريمارك و « ما نحن المجد » للورانس ستاننجز وماكسويل أندرسن . « ورحلة إلى نهاية الليل » للويس فرديناند سيالين . وكلها تمثل الانعدام الأدبي التام في أقصى درجاته ، وخرافة القبعة النحاسية — ليست كغيرها من الخرافات من حيث إنها تعبر عن يقتلون بالجملة — لها أساس في الواقع . فبعض القواد أقل كفاية أو أشد قسوة من غيرهم — فالألمان كانوا أكفأ من غيرهم كما كانوا أحرص على حياة رجالهم — ولكن جميع طبقة رجال الحرب في أوروبا قبل سنة ١٩١٤ — مثل طبقة السياسيين وطبقة الحكام ، ليس لهم من الكفاية الفنية ولا من الكفاية العاطفية ما يمكنهم من احتمال مسئوليات الحرب الحديثة ، ولا بد من مرور بعض الوقت حتى يتكيف الناس مع الأحوال الجديدة ، علماً بأنه لم ير الناس أو يتخيلوا من قبل ما يشبه الحرب العالمية الأولى (عندما وقعت الحرب العالمية الثانية كانت القيادات الحربية في معظم البلاد متمشية مع الزمن ، أو على أسوأ القروض كانت متأخرة بالنسبة لحرب واحدة بدلا من حربين أو ثلاث حروب كما في حرب سنة ١٩١٤) . وكان قصور عقول القيادات الحربية في الحرب العالمية الأولى عن تفهم النواحي التكتيكية والسيكلوجية لحرب الخنادق مسألة أحسها جمهور من شهود الثقة المعاصرين من جميع المستويات .

ومن تعليق جريفز « وأغلب هؤلاء (القبعات النحاسية) على ما يظهر أكفأ لارتكاب مالا نهاية له من الحماقات . أعرف واحداً منهم أمر بإطلاق الغاز من

خنادقنا « مهما ترتب على ذلك من نتائج » مع أن الرياح كانت تهب في وجوهنا. لم يجرب واحد منهم حياة الخنادق لحظة واحدة حتى يعلم الظروف التي يعيش فيها جنودهم » .

ولم تكن الأحوال بأفضل منها لدى الجيش الفرنسي . ويقول أبل فرى الوزير الفرنسي الشاب الذي هجر وظيفته في كيه دور ساي ليعمل في الخنادق « إن الخراب الذي حل بالجيش ، والذي نجم عن فشل هجوم ١٦ من أبريل . كان مخيفاً » ، مشيراً بذلك إلى الهجوم الذي قام به الجنرال نيفل في شمبانيا في سنة ١٩١٧ . ويستطرد أبل فرى قائلاً « لقد ثارت فرق وكتائب بأجمعها . والأسباب التي أدت إلى هذه الحالة عديدة : منها الإفراط في الشراب ، وقلة الغذاء أحياناً ورداءة ، مواطن الاستراحة خلف الخطوط ، وعدم إتاحة وقت كاف للراحة ، وأخيراً فشل الهجوم . ومن المحزن أن نتيجة سياستنا الحربية في ثلاث سنوات كانت مائتي مليون قتيل . ولا شيء يحمي حياة الجندي الفرنسي من قواده الذين يتصرفون فيها تصرفاً سيئاً ، أو من حلفائه الذين يطعمون في الكثير منه . لقد عرف ذلك وثار على هذه الأوضاع . إننا نسير نحو السلام عن طريق الثورة . وكل الأمم سواء المحاربة منها وغير المحاربة في طريقها إلى الثورة ، والشعوب تهدد بإجراء الصلح على غير إرادة حكوماتها » .

ويبدو أن فرى الذي قتل في سنة ١٩١٨ من إصابته بقنبلة ألمانية كان على حق في كلامه الخاص بفرنسا . فقد أخذت كتائب متمردة عديدة من جهة شمبانيا تسير متجهة إلى العاصمة وهي تنشد النشيد الاشتراكي « الإترناسيونال » ولكنها أوقفت في الوقت المناسب ، ورغبة في إعادة النظام إلى الجيش الفرنسي المفكك أصدرت المحاكم العسكرية ٢٥٣ حكماً بالإعدام — بعضها دون تحقيق دقيق — رغماً عما قيل من أن الذي نفذ منها كان ٢٥ حكماً . وفي سائر أنحاء أوروبا كانت دعوة دعاة الهزيمة آخذة في الانتشار كما تنبأ فرى بذلك .

وكان أن فقدت الجماهير الأوربية الثقة في قيادتها ، وهى نتيجة حتمية لواقع الحال ، وتطلعت إلى السلام ، حتى إذا مضى جيل من الزمان ، نجحت دعوة النازية الماكرة إلى التعايش السلمى فى سنة ١٩٣٨ وشلت الدعوة المقاومة البريطانية والفرنسية للتوسع النازى فى سنة ١٩٣٩ . وقد تأثرت عواطف الأوروبيين حينذاك ، ولم تعد القيادات مناسبة للزمن ، كالأمرات التى كانت تتمسك بنظرية الحق الإلهى ومن يؤيدها من الحكومات الأرستقراطية . وقد أصبحت لا تقوى مطلقاً على صد زوابع الشك والثورة التى كانت تهب عليها من ميادين القتال . وأمكن قليل من الملوك الحاكين — وبخاصة إسكندر الأول ملك الصرب الشاب وألبرت الأول ملك بلجيكا — إقناذ مكانة أسراتهم بمشاركتهم المأسى التى كانت تتجرعها شعوبهم . ولكن آل هابسبرج وآل هوهنزولرن وآل رومانوف لم يكن لهم صلة بالشعوب — إلى غير ذلك من العيوب .

ومنذ نشوب الحرب أجبر أصحاب الحكم المطلق على أن ينزلوا عن معظم سلطاتهم إلى قواد الجيش الذين كانوا يعملون اسمياً مستشارين لهم . وانتقال السلطة كاد أن يكون تاماً فى النمسا والمجر . ومما قاله فرانسييس يوسف إلى صاحب حاجة « لأستطيع أن أعمل لك شيئاً . ألا تعرف جاويشاً له نفوذ ؟ » .

ونزل الميدان قيصر ألمانيا قائداً أعلى للجيش عند بدء الحرب ، ولكن هذا لم يزد على انتقاله إلى مقر رئاسة الجيش فى شارلويل . وهى مكان آمن وراء الخطوط ، حيث شارك الجنود تقشفهم بأن اقتصر على أربع وجبات فى اليوم وعلى شرب البيرة بدلاً من الشمبانيا . ولم ير إلا نادراً جداً فى منطقة الخنادق ، ولكن هذا يعد عملاً طيباً من وجهة النظر الأدبية . وبعد أن ابيض شعر غليوم وظهرت التجاعيد عميقة فى وجهه مع ضعف الحركة فى ذراعه بعد سنة ١٩١٤ ، لم يعد شيئاً

بالصورة العسكرية التي ظلت مهيمنة على خيال الشعب حقبة طويلة من الزمان . ولم يحاول محاولة جدية أن يقبض على أزمة الحرب ، وظل معظم أوقات الحرب قانعا بالاستماع إلى موجز أنبائها . وبعد سنة ١٩١٦ لم يكن القيصر إلا رمزاً للرياسة . وكان الحاكم المطلق الحقيقي لا في الشؤون العسكرية وحدها بل وفي الشؤون المدنية كذلك هو الجنرال لودندورف — إلا في الأمور السياسية — وكان رسول الحكم بالسيف الذي يتحكم في رئيسه الأعلى القائد الأعلى الجنرال هيندنبيرج .

والصور الرسمية للودندورف في أوج رفعة في أثناء حياته العجبية نماذج ممتازة تمثل حفريات التاريخ الأوربي . وهو يبدو منتفخاً كأنما يملؤه الإعجاب بنفسه . وسحنته سوقية دون أدنى شك . ولودندورف من القادة البروسيين القليلين الذين ينحدرون من عامة الشعب دون أن يكون فيه مسحة إنسانية . وإنا نرى في عينيه الباردتين المنتفختين وفي فكيه البارزين وفي ذقنه السمينة التي تشبه ذقن المرأة وفيه الذي يشبه فم سمكة المحيط الكبيرة ، ما يدل على التطور الملحوظ في أبناء جيل الدم والحديد أيام بسمارك ، أولئك الذين أسسوا الإمبراطورية الألمانية . ولودندورف الذي كان يبلغ التاسعة والأربعين عند نشوب الحرب يعد من أوائل من قضوا على المدنية الأوربية في الجيل الذي وجد فيه . وقبل أن يحمّد نشاطه ويدخل في طور الشيخوخة في أثناء الثلاثينيات من عام ١٩٣٠ ، كان عليه أن يدفع أسرة هوهنزولرن إلى مصيرها المحتوم ، بدعوة النازي للقيام بدورهم في التحكم في العالم وتأكد انتصار البلشفية في روسيا . والحرب لاشك هي التي هيأت له هذه الفرصة . فهو الذي وضع خطة الهجوم على حصن لياج ، كما كان رئيس الهيئة الحربية لهندنبيرج ، ولكن صعوده السريع إلى ذروة النفوذ الذي لاحد له ولا مسئولية فيه يفسر ما عثرى المجتمع في عهد غليوم من تقوض ، والروح

الحرية الألمانية من فتور ، كما أنه يفسر النقائص التي كانت في أسرة هوهنزولرن .

وكان ابنا القيصر وكثير من أمراء الأسرة الذين يولنهما في المنزل يتولون مراکز حرية . ولكن هذه المراكز أصبحت عبئاً على أسرهم أكثر مما هي ميزة لها . وكانت حياة ولي العهد الحرية بخاصة مصدر شقاء ، وإن كانت قد بدأت بشيء من الأمل . ففي بدء الحرب وضع ولي العهد في مركز قيادة الجيش الألماني الخامس في جبهة اللورين ، وأكسبه نجاحه في عمله في أول الأمر تقدير القيصر الذي منحه نيشان الصليب الحديدي من الدرجة الأولى ، وبهذه المناسبة أرسل القيصر للقيصرة بركة تهنئة جاء فيها « أشاركت البهجة للنصر الأول الذي أحرزه غليوم . لقد كان الله معه » وبعد ثمانية عشر شهراً تخلى عنه حليفه الساموي . كان ولي العهد القائد الأسى للجيش التي كانت تحاول الاستيلاء على فردان . ورغم أنه انتقد بكفاية ممتازة خطة الهجوم التي وضعها رئيس الهيئة والتي كان مجبراً على إقرارها ، فقد علق به مسؤولية كبرى في إحدى المهزائم الباكرة للقوات الألمانية .

ومما كتبه ولي العهد بعد انتهاء الحرب « وقعت معارك قاسية وهجمات شديدة عدة أسابيع وعدة أشهر بعد هجوم فبراير الذي قننا به بشجاعة ، ثم أعقب ذلك وقف الهجوم بسبب تفرق قواتنا . ثم تلت ذلك وقفتان لم تتقدم في أثناءهما قواتنا ، وترتب عليهما انزعاج جزء كبير من ميدان الحرب الذي روته دماؤنا . ولأول مرة أحسست مرارة الهزيمة . وقد أثقل قلبي وأجهد عقلي عدم الثقة بالنفس وتوخيضمير والإحساس بمرارة الفشل والأحكام الظالمة الموجهة للسير . ولم تعد إلى نفسي الطمأنينة والإيمان إلا بعد وقت طويل »

— ٣٨٨ —

ولم يعد الإيمان إلى الجيش الألماني ولا إلى الشعب الألماني بعد ذلك .

ولم يكن الإيمان بالنصر النهائي فحسب هو الذى ضاع منا بل ضاع منا
الإيمان فى النظام الاجتماعى وفى الأسرة التى كانت سببا فى مجازر كانت
فى فردان .

أما بالنسبة للشعب الروسى والجيش الروسى الذى فقد حتى عام ١٩١٧
تسعة ملايين رجل بين قتل وجريح وأسير ، فالمسألة ليست فى تفسير سبب ثورتهم
آخر الأمر ، ولا فى الاتجاه الذى أخذته ، بل فى السبب الذى أدى إلى تأخير قيام
هذه الثورة .

الفصل الثالث عشر

انتشار الملكية في روسيا

سارت معظم الشعوب التي اشتركت في الحرب إلى ميدان القتال سكرى بالشعور الوطنى . ولكن روسيا القيصرية سارت إلى الحرب في وعى تام وخطى ثابتة . والاحتفال الذى حدث بعد ظهر يوم ٢ من أغسطس كان جليلا ومؤثرا معاً ، وربما كان أهم لحظة في تاريخ روسيا الحديث . وكان رجال الحكم الذين قاموا به جديرين بهذه المأساة التي لم يقوموا بها إلا مرة واحدة في تاريخ البلاد . وهكذا كان المنظر الذى يبدو للعيان . وكان قلب بطرسبرج الإمبراطورى وهو في أوج عظمته ، عليه جمال الشفق الغارب الذى ينذر بالفناء . كتب جورج كنان أحد كتاب العرب الحديثين الذين تأثروا بسحرها قال « هذه المدينة من أغرب المراكز الريفية في العالم ، ومن أجملها وأشدّها رعباً وأعظمها سحراً . فسماؤها متسعة ودائرة الأفق فيها بعيدة وممتدة . وتحت مثل هذه السماء يبدو أن أصابع القدر تستطيع أن تصل من بعيد كما تصل أشعة الشمس لتجدد الناس فتشكل حياتهم وأعمالهم ، ومن شأن الأحداث أن تقع وأن تنتهى إلى مواقف لم يرسمها أو يخططها أحد ، ولكن يعترف بها بعد حدوثها كل الناس على أنها أمور واقعة لا محالة ، وإلى حد ما معروفة معرفة غير دقيقة » .

ولقد كان المنظر الذى بدا للعيان في عصر ذلك اليوم من أغسطس سنة ١٩١٤ في قصر الشتاء وخارج هذا القصر يخالف تماماً ما في المؤامرة المبيتة . ولقد وصفه شاهد عيان في الغرب كان في وسعه الوقوف على ما فيه من مظاهر وما ينطوى عليه من شعور .

وفي رأى السفير الفرنسى موريس باليولوج أن الإخراج المسرحى كان رائعاً .

قال : « اجتمع في فناء كنيسة سان جورج المطلة على نهر النيفا حوالى ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ شخص ؛ وكان الجميع في ملابس الاحتفالات الرسمية . وكل ضباط الحرس في ملابس الميدان ، وكان المذبح مقاما في الوسط ، وأيقونة عذراء كازان العجيبة التي رفعت بضع ساعات من المزار الوطنى نقلت إلى هنا . . . وفي صمت دينى رهيب اخترق الركب الإمبراطورى المكان ووقف على يسار المذبح .

وبدأت الصلاة وسمعت معها الأناشيد الدينية الأرثوذكسية ، وأخذ نقولا الثانى يؤدى صلاته فى خشوع تام أضنى على وجهه الأصفر تعبيراً غريباً . ووقفت ألكسندرا فيدروفا بجانبه منتصبة القامة مرفوعة الرأس داكنة الشفاه ثابتة النظرات براقة العينين ، وكانت تغمض عينيها من حين إلى حين ، وفى تلك الأثناء يبدو وجهها وكأنه مغطى بغطاء الموتى » .

وبعد ذلك أخذ القسيس يقرأ بيانا من القيصر ، ثم اقترب القيصر من المذبح ورفع يده نحو التوراة التى قدمت إليه . وفى نبرات هادئة بطيئة مؤكدا كل كلمة يلقيها قال « يا ضباط الحرس الماثلين فى هذا المكان ، أحيى فى أشخاصكم كل الجيش وأباركه . وأقسم قسما عظيما أنى لن أوقع على صلاح طالما بقى فى أرض الوطن فرد واحد من الأعداء » .

وهذا القسم هو نفسه الذى حلفه القيصر اسكندر الأول سنة ١٨١٢ عندما غزا نابليون روسيا . وبعد إلقاء القسم أمام جوع الشعب المتحمسة المهللة فى فناء كنيسة سان جورج ، خرج القيصر إلى الشرفة المطلّة على ميدان قصر الشتاء ، وهو نفسه المكان الذى فيه — فى يوم آخر من أيام الآحاد سنة ١٩٠٥ — أخذ جنوده يضرّبون المتظاهرين وهم عزل من أى سلاح . وفى هذه المرة ملأت الجماهير الميدان — وهو ثالث ميدان فى أوروبا من حيث سعته — يلوحون بأعلامهم

ويرفعون عالياً أيقوناتهم وصور إمبراطورهم — ولكن في هذه المرة كان الإمبراطور وشعبه يشعرون نفس الشعور الذي ينطوي على الفخار والاعتزاز، وعندما أعاد القيصر قسم أجداده التاريخي جثث الجماهير على ركبها وأنشدوا التثيد الإمبراطوري « حفظ الله القيصر » وأتبعوها بنشيدهم « يا إلهي احفظ الشعب، وبارك نعمتك عليه » ودعوا ربهم أن يقيمهم شر الحروب .

ثم يعلق باليولوج قائلاً : « وفي هذه اللحظة كان القيصر لدى هذه الآلاف من المنظرين على الأرض هو حقاً الحاكم المطلق الذي اختاره الله لهم ، وهو الرئيس الأعلى السياسى والدينى والحربى لشعبه ، كما كان هو الحاكم المطلق المتصرف فى الأبدان والأرواح » .

ولم تكن هذه الحماسة الوطنية المتقدة وهذا الولاء للأسرة الإمبراطورية الذى شهده باليولوج وغيره فى سان بطرسبرج هو الظاهرة الفريدة فيها . إنه كن متفقا مع الحالة التى كان عليها الشعب الروسى كله حين ذهب إلى ساحة الحرب (وكان بعض مظاهر هذه الحالة تغيير اسم العاصمة إلى بتروجراد ، وهو اسم سلافى لاعتلاقه مطلقاً بالروح الألمانية) . ولم يكن الأمر مقصوداً على الشعور الوطنى الفياض الذى وحد بين جميع الطبقات ماعداً قلة من أصحاب رأى المتطرفين ، بل عاد الصفاء بين أسرة رومانوف والشعب الروسى . وكان يبدو فى تلك الفترة أن ذكرى أحداث سنة ١٩٠٥ قد محيت بقوة سحرية من العقل الروسى ، وأن القدر الذى هيا للحكومة الانتصار على الثوريين قد أقر لها النصر . وأن التاريخ قد منح نقولا الثانى فضلاً قلما يجود به — لقد منحه فرصة ثانية .

ومما جعل الموقف فريداً ، أنه منذ أن قتل ستوليبين سنة ١٩١١ كان حكم القيصر يسير من سيئ إلى أسوأ فى حياة الرجعية ، بينما يزيد السخط العام زيادة (٢٥٠م — الأسر)

مستمرة. ولئن هدأ من عنف الحركة الثورية رخاء الطبقة المتوسطة بسبب ما جلبته حركة التصنيع المباركة لهم من الخير، وظهور طبقة جديدة من أصحاب الأرض المزارعين نتيجة للقوانين الزراعية التي أصدرها ستولپين، إلا أن شعور عمال المصانع عاد إلى الناحية الثورية على أثر نسيانهم الإجراءات التي اتخذت لقمع ثورة سنة ١٩٠٥. وفي السنة السابقة للحرب بلغ عدد الإضرابات والاضطرابات نسبة عالية. ولو تأخرت الحرب سنة واحدة لوقعت في روسيا عدة اضطرابات جديدة.

ولقد قلبت سراجيفو الحالة الاجتماعية والوضع السياسى رأساً على عقب. وفي نظر متطرفي الطبقة الوسطى — فضلاً عن كل العاملين في الجيش والإدارة — كانت الحرب هي الفرصة المواتية لمحو عار الهزيمة التي منى بها الروس في الحرب الروسية اليابانية، ولتحقيق هدف الروس العتيد بالاستيلاء على الدردنيل. وفي نظر أصحاب الرأي في البلاد ودعاة الجامعة السلافية كان الأمر أشبه بالجهاد المقدس لتحرير السلاف الذين هم في البلقان. وفي نظر الأحرار كانت الحرب حرباً عاقلة إذا كان الروس في جانب فرنسا وإنجلترا. وهما الحليقتان المستنيرتين، وهما القدوة التي تحتذى في الإصلاح الجذري في روسيا عندما يتم النصر للدول الثلاثة المتحالفة. وفي نظر كثير من الثوريين اليساريين — باستثناء البلاشفة طبعاً — كانت الحرب حرباً تقدمية تقضى على الروح الألمانية العسكرية التي تؤيد الحكم المطلق الروسي، وتمنح العمال والفلاحين كثيراً من المزايا الجديدة.

ولقد أظهرت الحرب بين رجال الحكم وفي أفراد الشعب كله كنوزاً من الولاء والبطولة والتعاون الاجتماعي، لم تكن لتظهر من قبل بسبب الفساد والنوضى في نظم الحكم المتداعية. ولقد تطور نقولا نفسه من جملة وجوه. ودرست

ألكسندرا منهجاً في الحضانة، وانخرطت في كثير من الأعمال الحربية . ومع أن الحرب قد أيقظت القوة الكامنة في روسيا القيصرية ، إلا أنها أظهرت بجلاء مع الأسف الشديد عيوب نظام الحكم . ولم تكن المثل العليا نادرة في روسيا ولكن التنفيذ هو الذى كان يعوزها . ولقد قصت على القيصر الروسى وعلى الأحرار الروس فضائلهم كما قصت عليهم تقائصهم . ولم يكن لدى المحافظين ولا المجددين في روسيا من الآراء الصائبة ما يمكنهم من مواجهة تجربة الحرب الحديثة .

ولقد بعث جرجورى راسبوتين - وكان يوماً ما الملك الموكل برعاية الدولة لا شيطان الشرفيا - من سيبيريا إلى صديقه القيصر المحيطة أنا فيروبوفا عند ماسمع نبأ الأزمة قال : « ليتجنب بابا قولاً الحرب . فالجرب توصل روسيا إلى نهايتها . وأنتم كذلك إلى نهايتكم . وستحل بكم الخسارة إلى آخر فرد فيكم » .

وأخذت تظهر تدريجاً حالة الضعف المريعة في نظام روسيا القيصرية من أثر ويلات الحرب . وكان يبدو في أول الأمر أن الجيش الروسى استفاد من الدروس التى تعلمها من هزيمته في الحرب اليابانية قبل ذلك بعشر سنوات ، وكانت روسيا لا تزال متأخرة في قوة المدفعية الثقيلة والمدافع الآلية كسائر الدول المحاربة ، ولكن قوة المشاة كانت جيدة التدريب ، وقيادتها في أيدي ضباط مقتدرين في علمهم ذوى نصيب كبير من الشجاعة . والذى أدهش الأجانب بصفة خاصة تلك العلاقات الطيبة التى شاهدوها منذ بدء الحرب بين الفلاحين الذين كانت تتألف منهم معظم القوة المحاربة ، وبين الشبان الأرستقراطيين الذين تولوا قيادتهم . وفى الفرق المحاربة على الأقل ، لم يعد الضباط هم الشباب العاشقون فى الملابس الرسمية كما كان الحال من قبل . ورغم نظام الجيش وقواعد الإتيكيت البالية التى كانت فى الجيش الروسى كان القادة على علم بمجنودهم وكانوا موضع احترامهم .

وكان يمثل فضائل الطبقة الحربية الأرستقراطية وأخطارها عام ١٩١٤، القائد الأعلى للجيش الدوق نيكولاس عم القيصر . وكان رجلاً فارح الطول عريض الكتفين، يدل مظهره على صراحته ونشاطه، ولو أنه لم يكن « الجندي العظيم وواضع الخطط الحربية الكفاء » الذي أضفى عليه هذا الوصف لودندورف، وإنما كان صاحب مهنة أتقن أصولها وواجباتها . وكان موهوباً في القيادة وفي تقديره للواجب العسكري وفي شجاعته الأدبية والخلقية . ولم يكن حديثاً في أفكاره الفنية، كما كان يرى في أعماله العسكرية أموراً يمكن الرجوع فيها إلى رئاسة أركان الحرب، وفوق ذلك نسى أو لعله كان يجهل الأمور السياسية والاقتصادية والإدارية . وأكثر من كل ذلك كان كسائر الروس في عصره — نظرياً متحمساً يخلط دائماً بين الآمال المرجوة والحقائق المطلقة . وعندما زاره باليوليج بناء على تعليمات جاءته من باريس بعد قيام الحرب ببضعة أيام، يرجوه القيام بهجوم على الجبهة الشرقية، هاله الحماسة العجيبة التي أجاب الدوق بها السفير .

لقد أجاب السفير المذهول بأن الله وجان دارك كانا معكم . « إن النصر سيكون من نصيبنا، أليس من رضا الله أن يكون للحرب هذا الهدف النبيل ؟ » إنه سوف يأمر بالمهجوم ويستخدم كل ما لديه من قوة وقال « وقد لا أنتظر حتى يتم تجميع كل الجنود الذين تحت قيادتي . وبمجرد شعوري بكفاية القوة التي لدى سأقوم بالمهجوم » .

ولم يرفض القيصر مطلقاً ولا الدوق أى طلب من حلفاء روسيا للتضحية بأرواح الجنود الروسين لتخفيف ضغط الألمان على الجبهة الغربية . وكان هذا الهجوم الذي يؤمر به لتخفيف ضغط الألمان على الغرب، يتم بكل قوة — وإن كان ينقصه الكفاية — بشكل انتحاري في بعض الأحيان . ومن

الأمثلة العنيفة ما قام به الروس من هجوم في قطاع البحر البalti حول بحيرة ناروك شرقى ، وقلنا رغم قسوة الموقف أمر القيصر بالهجوم . يفسر باليولوج الموقف بأن القيصر أمر به « إرضاء للضمير العام » الذى أيقظه الدفاع الفرنسى المجيد عن فردان ، فبعد استعداد سريع للمدفعية قام المشاة الروس بإحدى هجماتها . ودون اهتمامه بما لحق الجيش من خسائر فادحة وصل إلى جميع أهدافه الأولية . ثم حدث ثوبان مفاجئ وسريع للثلوج حول ساحة القتال إلى مستنقع . ونزلت المدافع الروسية فى قراره . وبهذا حرم المشاة من معونة المدفعية ، وأصبح من غير الممكن قتل مطابخ الميدان مع الجنود المتقدمة ، وجاهد المشاة الروس فى التقدم تحت وابل من النيران ، وقد ابتلت ملابسهم وخبثت أيديهم من الطعام والمؤن ، سائرين فى الوحل الذى غاصت سيقانهم فيه ، وكثيراً ما تلتطخ فيه الجرحى بعد سقوطهم فيه . ثم هبت عليهم الرياح الباردة من جانب القطب الشمالى محملة بالثلوج . وكل من أمكنهم من الجرحى الهرب من الغرق فى الوحل وقعوا فى الثلوج وماتوا متجمدين فيها قبل تمكنهم من الإفلات . والقلة التى أمكنها النجاة بنفسها ذاقت مر العذاب من تأثير الثلوج فى أجسامها . وأخيراً فقد الروس فى آخر أبريل كل ما كسبوه من الأرض عندما خفت شدة القتال . ومن وجهة نظر الحلفاء يمكن أن يعد الهجوم الروسى الذى استمر خمسة أسابيع ذا أثر طيب ، فإنه تسبب فى تخفيف الهجوم الألمانى على فردان . وكانت خسارة الروس ٢٥٠.٠٠٠ من القتلى والجرحى والمفقودين . وكان فى وسع الضمير العام الروسى أن يكون فى غاية الاطمئنان .

وعندما نستعرض تاريخ الأحلاف لا نلقى إلا قلة من الأمم أظهرت من الإخلاص لحلفائها ما أظهرته روسيا بإصرار ، من أغسطس عام ١٩١٤ إلى أكتوبر عام ١٩١٧ . وقلة من الأمم أيضاً لقيت من حلفائها من قلة التقدير ونكران

الجميل ما لقيه الروس من حلفائهم . وكان على الروس الفقراء في آلات الحرب الثقيلة ، الأغنياء فيما لديهم من الرجال أن يستخدموا الأجساد البشرية في كل ما يستخدم غيرهم من المحاربين والألمان بصفة خاصة الصلب والمفرقات . وكان الروس يعوزهم السكك الحديدية . وكان على القواعد الصناعية أن تمد العمليات الهجومية المستمرة بما يلزمها من المؤن وكانت القوة الروسية في كفاية أعدادهم النموسيين ، إذا وازنا بين الوحدات الحربية لدى كلتا الدولتين ، ولكنهم كانوا دون الألمان في التنظيم والتدريب والإعداد وعمليات الهجوم .

ومع هذا فكان الأعضاء الغربيون من الحلف والفرنسيين بخاصة يلحون على الروس أن يتبعوا سياسة الهجوم ، سواء أ كانوا في وضع مناسب للهجوم أم لا ، وأن يقوموا بالهجوم على أشد الأعداء بأساً وفي أشد قطاعات الحرب منعة وقوة . ولقد كانت مطالب الغرب الملحة هذه من إلى الجيش الروسى عاملاً قوياً ، بل كانت هى العامل الأقوى الذى سبب أخيراً وقوع الثورة . وربما لم يكن لذلك هذا الأثر السيئ لو أن العقل الحربى القيصرى — مع ما اختلط به من الحماسة ورعوبة فرق الفرسان والشعور بالقمعة — لم يكن مستسلماً لعوامل الضغط . إن روسيا سنة ١٩١٤ كانت بلاداً متخلفة ، وكان هناك شعور بالرغبة في التضحية لدى كثير من الروس لإرضاء لحلفائهم الغربيين « المتفوقين » ، وكان هذا الشعور في غاية الظهور في عهد كرنسكى قال سazanوف وزير خارجية روسيا لباليولوج بعد موقعة تاننبرج « نحن مدينون بهذه التضحية لفرنسا » . وكانت هذه الموقعة نتيجة وعد الدوق أن يقوم بالهجوم دون تأخير في بروسيا الشرقية ، وهو الهجوم الذى كلف روسيا ١١٠٠٠٠ رجل .

وزيادة على ما نتج عن القيادة الطائشة والحلفاء القيصرى النظر ، أصيب الجيش الروسى بخسارة فادحة بسبب ما لاقى من العقبات والصعاب ،

والتي منها ضعف القيادة، والعتاد وهو ما ذكرناه فيما سلف، وزاد في شدة وقعه ما صاحبه من عوامل أخرى إضافية .

وكانت الجاسوسية الألمانية أحد هذه العوامل . واتهام ألمانيا بعد ثورة فبراير بأن لها عملاء بين الحاشية الإمبراطورية وفي الإدارة على مستوى الوزراء لم يكن ثابتاً ثبوتاً قاطعاً . ولكن الذي لا شك فيه أن شبكة جاسوسية كبيرة أساسها التوغل التجارى الألمانى أقيمت في روسيا قبل نشوب الحرب ، وكانت الأنباء الحرة التي تقوم بإبلاغها في غاية الأهمية . ولربما كانت من أهم العوامل القاطعة في هزيمة روسيا في موقعة تاننبرج .

وأشد من هذا خطراً ما كان يعاب على الروس من ضعف كفاءتهم وانتشار الرشوة بينهم ، مما كان شائعاً في القطاعات الهامة في الإدارات القيصرية ، وترتب عليها حرمان الجبهة المحاربة من المؤن والعتاد الذي كانت روسيا قادرة على صناعته وتوريده . ولا شك أن من الخطأ النديع أن يكون هناك نقص في المدافع الثقيلة أو مدافع الميدان ، بل كثيراً ما كان على رؤساء الكتائب أن يقوموا برد العدوان الموجه إليهم ، أو بهجوم على العدو دون أن يكون معهم قنابل لما في أيديهم من آلات ، أو خراطيش لما معهم من بنادق ، وأحياناً لم يكن لدى المشاة بنادق مساوية في عددها للجنود الحاربين . ومما عرف عن الروس أن من بين كل ثلاثة جنود جنديان لا يحملان من الأسلحة إلا حربة مربوطة في عصا . ولقد أعدم وزير الحرية الجنرال فلاديمير سو كولينوف - وكان من حاشية راسبوتين - أعدم سنة ١٩١٥ لأنه سمح بوجود هذه الحالة ، ثم تحسنت حالة التموين بعد ذلك بعض الشيء ولكن بعد أن سبق السيف العزل . لقد فقد الجيش الروسى ٤٠٠٠٠٠ رجل في السنة الأولى من الحرب ، وكان مجموع خسارة روسيا في الحرب ٩٠٠٠٠٠ رجل ، أى ٧٦٪ من مجموع من اشتركوا في الحرب من الجنود .

قال أحد المشاة الروس للتواريخ البريطانى يبرز عند زيارته لجهة الحرب سنة ١٩١٥ « لا يخفى عليك يا سيدى أنه ليس لدينا أسلحة إلا صدورنا » وقال له جندى آخر « ليست هذه حرباً يا سيدى ولكنها مجزرة » .

ومما كتبه هندنبرج فى مذكراته - ولم يكن له إحساس المشاهد المرفف - يصف المجازر التى روعته قال « فى بعض الحالات التى كنا نحارب فيها الروس كان علينا أن نزيل تلالاً من الجثث الملقاة أمام خنادقنا حتى تتمكن من تصويب النيران إلى أعدائنا فى موجات الهجوم الجديدة » . وكثيراً ما تخلق 'لهزيمة فى الحرب الحلقة المفرغة من الظروف التى يجد الجيش المهزوم كل صعوبة فى التغلب عليها .

وهذا عين ما حدث للروس فى الحرب العالمية الأولى . فإن هزيمتهم فى عشرة الأشهر الأولى من الحرب قضت على جيل كامل من شباب الضباط ذوى الكفاية ، الذين كانوا ذخيرة روسيا الكبرى كما كانوا عمادها فى منع الثورة . وأعقب هذا انحطاط فى كفاية القيادة الروسية فنياً وأدياً وفى كفايتها السياسية كذلك ، فضلاً عن زيادة فى الخسائر ، مما كان من الممكن تجنبها ، وققدان الثقة بين الجنود وضباطهم مع ضياع كل أمل عندهم فى بلوغ النصر . هذا إلى أن توالى الهجوم الألمانى فى ربيع سنة ١٩١٥ وصيف السنة نفسها - وهو الذى أجلى الروس عن معظم أنحاء بولندا وعن جزء من أوكرانيا وبعض مناطق البحر البالى ، مما حرمهم من خير سككهم الحديدية - قد زاد من مصاعبهم وضاعف من سوء أحوالهم .

وكان من نتيجة محاولة الروس القضاء على الصعاب التى فى جبهة القتال أو تقليل حدتها ما جلبته القيادة الحربية الروسية على سائر أنحاء البلاد من القوضى الخلفية والقوضى الإدارية . فقلت السكان المدنيين ومعظمهم من اليهود ، من إحدى المناطق المتسعة وراء خطوط القتال إلى مناطق داخلية مزدهجة جداً

بالسكان ، دون أى اهتمام بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية السيئة الناجمة عن ذلك ولا بالبؤس الذى خلقته بهذا التصرف . ودون أى تبصر بالعواقب كذلك زاد الجيش من استياء الشعب بإجبارهم على الرضى بما يخسرون من متاع أو حيوان معد للنقل . وكان أقصى نصيب من الخسارة ما وقع على كاهل الفلاحين الذين أصبحوا من ملاك الأراضى نتيجة لقانون الإصلاح الزراعى الذى صدر فى عهد ستولپين . وهؤلاء أصبحوا عاجزين عن العمل فى حقولهم بعد تشريد أبنائهم ، والاستيلاء على دوابهم ، وهكذا عطل الجيش — بلاتعل — منهج الإصلاح الذى ربما كان حائلا دون ثورة البلاشفة — وتروتسكى — على الأقل — إن ذلك كان ممكنا .

إن أخطر خطأ ارتكبه القيادة القيصرية بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٧ عدم الحيلولة دون وقوع الحرب . وكل خطأ وقع بعد ذلك كان بطريقة أو بأخرى نتيجة لهذه الغلطة الكبرى . ومن الطبيعى أنه كلما زادت الآلام والمصائب زادت أخطاء القيادة وكبرت آثارها .

واعلم الحكومة الاستبدادية الروسية قد لاقت ، محاولة التغلب عليها أكثر مالاقت أية حكومة أخرى فى التاريخ . وتذكرنا الأيام الأخيرة من عهد أسرة رومانوف ، ببعض حالات الانتحار الحتمية ، حين كان يتلع فيها الضحية السم ويقطع شريان معصمه ، ويتساق أسوار جسر النهر قبل أن يصبوب الرصاص إلى رأسه . والدلائل التى لا يتطرق إليها الشك على انتهاء أيام أسرة رومانوف ، كانت واضحة فى الطبقة العليا من الحكومة الأتوقراطية . لقد مر بنا ذكر المسرحية السياسية السيكلوجية التى كان أبطالها القيصر والقيصرة ، ومن كان يدعى رجل الدين أو جريجورى راسبوتين . ولقد حانت المناسبة لرواية الفصل الأخير من هذه المسرحية .

— ٤٠٢ —

هذا ولو أن نفوذ القديس ، كان آخذاً في الزيادة منذ وفاة ستولين سنة ١٩١١ ، إلا أن حكم راسبوتين بدأ من سنة ١٩١٥ . وقد وقع حادثان في وقت واحد في سبتمبر من نفس السنة ، أكد سلطته كما مهد الطريق لتقويض أركان هذا العهد .

الحادث الأول نقض الهدنة السياسية القائمة المفهومة منذ بدء الحرب بين القيصر وبين الأحزاب الديمقراطية أو أحزاب الإصلاح في البرلمان . ففي سبتمبر وحده قادة هذه الأحزاب نفوذهم لينشئوا ما عرف بعد بالكتلة التقدمية ، التي كانت أقوى جماعة متحدة في البرلمان على أساس موحد ، يهدف إلى الإصلاح التحرر المعتدل ، كما يهدف إلى زيادة الجهود الحربية . ولم يكن في هذا المنهج أى اتجاه ثورى إذا نظرنا إليه من وجهة النظر الدستورية . ولكنه كان يتطلب من القيصر تعيين وزارة جديدة تثق فيها البلاد .

فلو أجاب نقولاً هذا المطالب لكان مدعاة إلى زيادة حب البلاد له ، إلا أن هذا المطالب كان في الوقت نفسه ضد مبدأ الحكم المطلق الذى كان يشعر في قرارة نفسه أن عليه التمسك به وحمايته وكانت النتيجة الحتمية أنه تردد ولكن اسكندرا المشغوفة بالحكم المطلق لم يكن لديها أدنى شك فيما سوف يقرره رداً على هذا المطالب . وعندما حيز أغلبية الوزراء قبول اقتراح الكتلة التقدمية ، وصفتهم اسكندرا لزوجها بأنهم شياطين من أعضاء الدوما . ثم إن راسبوتين الذى قد يكون رأيه فيهم أساسه الإخلاص كان مؤيداً لها . وتحت تأثيرها رفض نقولاً الالتماس الخاص بتعيين « وزارة الثقة » . وعطل انعقاد الدوما ، وهكذا خلق أزمة دستورية ظلت قائمة دون حل إلى مارس سنة ١٩١٧ .

والحادث الثانى لم يكن له أى علاج حدث في سبتمبر سنة ١٩١٥ عندما

قرر القيصر إعفاء الدوق نقولا من مهام القيادة العليا، وهو رجل له مكانته وعن يمكن الاعتماد عليهم . وتولى هو قيادة الجيش في الميدان . وكان القيصر يغار من الحب الذي يتمتع به عمه من جميع الناس ، واستطاعت اسكندرا بتحريض من راسبوتين إشعال نار الغيرة في قلبه . وكان لها لدى الدوق قضيتان أرادت أن تنتهى فيهما معه : ظهوره بمظهر المتفوق على القيصر وعدم احترامه للقديس . (عندما أراد راسبوتين زيارة مركز القيادة العام ليعلق أيقونة كان قد نذرها ، أرسل إليه الدوق - وقد أصبح لا يثق فيه - هذه البرقية الشديدة اللهجة « أقدم إلى وسأشنتك » .

وإذا نظرنا إلى تغيير القيادة من وجهة النظر الحربية فالمسألة ليست بذات أهمية : فقد كان رئيس الهيئة الجنرال ميخائيل ألكسينف يتصرف تصرفاً حسناً نيابة عن القيصر ، وكان نقولا يبدى منتهى الحزم بعدم التدخل مطلقاً في تصريف الأمور . والادعاء بأن القيصر كان فعلاً يقوم بأعباء القيادة العامة ، وهو ما عمل ألكسينف المستحيل لتأكيد ، لم يكن من الأمور التي تزيد من منزلة الأسرة الحاكمة ، فإن أحوال الحرب سائرة من سيء إلى أسوأ ، والحروب التي قضت بالتغيير في القيادة العليا أغضبت أو أياست العناصر المستنيرة في البلاد ، ووسعت شقة الخلاف بين القيصر والبرلمان . وفضلاً عن ذلك كانت هذه القيادة الصورية سبباً في تغيب القيصر بعيداً عن العاصمة مدة طويلة ، وفي أثناء غيابه تمكنت اسكندرا من أن تقيم ما يشبه الوصاية على القيصر ، وأن تجعل راسبوتين المستشار الحربي . ومما كتبه نقولا إلى اسكندرا في أول خطاباته إليها هو في موجيليف على نهر الدنيبر ، تلك الكلمة البعيدة عن الحكمة قال : « فكرى : يا زوجتى ألا تحضرين لمساعدة زوجك في أثناء غيابه الآن ؟ » .

وكانت اسكندرا لا تنى أبداً عن مساعدته ، ويدل على ذلك ما جاء في أحد خطاباتها

إليه (لا تهزأ من زوجك . إنها تابس « البنطلون » الآن) . ثم إنها تركت الحكمة والتعلل جانباً ، ولم يكفها ما كانت تخطر به زوجها من النصائح وما تشير به من توظيف الموظفين حتى تدخلت فعلاً في أعمال الحكومة . بل لقد كانت تفخر في لباقة في أحد خطاباتها إلى نقولا بأنها أول إمبراطورة تستقبل الوزراء بانتظام بعد كاترين العظمى — التي استولت على عرش زوجها وخظيت بقاتله في سرير نومها . ثم صار مكتب اسكندرا البنفسجي في القصر القديم في زارسكو هو مصدر الأوامر السرية في الإمبراطورية .

وكان لراسبوتين مثل نشاط الإمبراطورة ، ورغم معارضته للحرب في أول الأمر فإنه أظهر الاهتمام بالشئون الحربية بعد ذلك كما يبدو من خطابات اسكندرا إلى زوجها .

١٠ من أكتوبر عام ١٩١٥ .. هو « راسبوتين » يقول إن عليك أن تصدر الأمر بعدم السماح بمرور العربات إلا ما كان منها محملاً بالدقيق والزبد والسكر . ويجب ألا تسير قطارات السكة الحديد ثلاثة أيام . لقد رأى ذلك في أحد أحلامه .

٨ من نوفمبر « أباننى أمس أنه رأى المسيح يصلى من أجل رومانيا واليونان وأن جنودنا تحترق هذه البلاد » .

١٥ من نوفمبر .. « رأى راسبوتين حليماً كرياً في أثناء الليل . وبناء عليه يأمر بالم هجوم عند ريجا ، بناء على مارآه ليلا » .

١٨ من نوفمبر .. تنقل اسكندرا أبناء جديدة من صديقنا . وتذكر أن هناك نبأ جديد « وهو لا يذكره للأسف الشديد » ، ومع ذلك فهي تحتم حديثها بأن الواجب يقضى علينا « أن نفعل كل ما يشير به » .

ورغم عدم ارتياح القيصر والمجلس الحربى كان راسبوتين يصر على معرفة موعد كل حركه هجومية قادمة . وكان المبرر الذى يبيده رغبته فى الدعاء لنجاح الهجوم . ومع هذا فقد كان تشوقه لمعرفة الأنباء القادمة ناجما عن اعتبارات دنيوية ، كما يدل على ذلك الشهادة التى ادى بها فوستوف وزير الداخلية السابق أمام لجنة التحقيق المركزية .

«ذهب راسبوتين إلى زاركوسيلو وسأله روبنشتين (وهو مصرفى متهم بأنه جاسوس ألماني) عما إذا كان الجيش سيقوم بهجوم قريب ، وقد أنبأ أصدقاءه أن رغبته فى المعرفة بسبب حاجته إلى شراء قطعة أرض فى مقاطعة منسك (وكان الألمان فى ذلك الوقت يمتثلونها) ، وإذا كانت النية متجهة إلى القيام بهجوم هناك فإن ثمن الأرض سيرتفع ويكون من المصلحة الشراء . وقد علمت أن راسبوتين قام بمهمته وعند عودته روى مقاله فى زاركوسيلو » .

وكان راسبوتين يلقى دائماً جزاء طيباً على الأنباء أو الخدمات التى يقدمها للأنبازيين من أصحابه ، ومنهم لاشك بعض الجواسيس الألمان . ومع أنه لم يكن ساذجاً فى المسائل المالية كما يقال عنه أحياناً ، إلا أنه كان لا يهتم بجمع المال لنفسه . وكما زاد نفوذه زاد تبعاً لذلك استخدام هذا النفوذ ، وكان معظم ما يتقاضاه المقابل العينى من صاحبات المصالح اللاتى يرغبن فى إعفاء رجالهن من الخدمة العسكرية ، أو بعض المطالب الشخصية لهن . وكثيراً ما يتقابل راسبوتين مع إحدى العاهرات التى لا تتقاضى منه أجراً إلا توصية مكتوبة تتقدم بها إلى أحد الوزراء .

ومنذ نهاية عام ١٩١٥ كان فى تصرفات راسبوتين التى أسرف فيها شيء من الجنون ، الذى أخذ يقوى على مر الأيام . وظهرت بشكل جلى رغبته الجاهلة فى الدل بسلطانه . لا يذلل خصومه فحسب ، بل يذلل أصحابه كذلك . وكان

في بعض الأحيان يبدو أنه يعمل على إلحاق الأذى بنفسه . فمرة أشاع في أحد الأندية الليلية في موسكو أنه قوى العلاقة بالقيصرة، وردد هذا القول في عبارة توهم أنه شاركها فراش النوم . وسواء أكانت تصرفات راسبوتين الخارجة عن المألوف سببها عقدة العظمة أم اليأس أم الضمير الآثم أم مزيج روسي من كل ذلك، فهو أمر جدير بالبحث والتفكير . وعلى كل حال كان يحميه من تصرفاته الجريئة عدد من الأوغاد الذين يرون فيه مصدرا لحمايتهم أو إعانتهم، ولذلك لا يرضيهم أن يصيبه أى أذى . ومعظم هؤلاء كانوا على اتصال ما بهيئة الشرطة السرية الذين يهمهم أن يكون القديس في مأمن من أى ضرر . وأحد أعضاء هذه الشرطة هو قد جعل من نفسه حارساً لراسبوتين — كان صعلوكاً يسمى مانا سيفتش مانوبوف، وهو أحد أعضاء الأخرانا أرسل مرة إلى روما ليؤسس شبكة للجاسوسية في الفاتيكان ، ثم أرسل بعد ذلك إلى باريس لتوصيل بعض المال من الأخرانا بصفة سرية .

وكان في مانا سيفتش هذا نقطة ضعف محيية . فقد كان مغرماً بأن يفضح نفسه واستطاع إلى ذلك سبيلاً ، قال لأحد الصحفيين المعروفين وكان من المناوئين للقيصر « أما رجل طالح . أنا أحب المال وأحب الحياة » . وكان في شعره المرسل وعينه البراقبتين وخواتمه اللامعة وملابسه الأنيقة ما ينم عن الدور الذي اختار تأديته على مسرح الحياة . وكان يهودى المولد ، ثم أصبح من أتباع لوثر ، ثم أرثوذكس العقيدة، وبدأ حياته تابعاً لأحد اليمينيين المتعصبين، وقام فعلاً بمهمة مذابح في روسيا ثم اتضح أنه شديد العيب حتى بالنسبة للأخرانا أنفسهم فطرد من خدمتها . وكسب قوته بعد ذلك بأن عمل صحفياً يستغل الصحافة أسوأ استغلال . وكان يبتز المال أحياناً عن طريق التهديد ، وقد نجح في عمله هذا ولكنه لم يتخل عن تعلقه بعمل الشرطة . وكان أمله في الحياة أن ينشئ في روسيا إدارة سرية عليا حديثة ، وأن يكون هو رئيساً لها . وسعيًا وراء هذه الغاية أصبح أحد جماعة أنافيروبوفا ، كما اتصل

براسبوتين وعمل سكرتيراً سرّياً له . وعمل ماناسيفتش على أن يصل إلى القديس نصيبه اليومي من الشراب والنساء، ولكنه عرف كيف يخفى مجونه بحسن تصرفه . وحتى الأخرانا لم تكن لتستطيع معرفة علاقاته الجنسية وأعماله المشبوهة . وأمكن مكسره السرى الجديد من باب الاحتياط أن يحصل لاستعماله الخاص على سيارة حرية قوية ، لا تقوى وسائل النقل لدى الأخرانا على اللحاق بها . وفى المحيط السياسى شجع ماناسيفتش راسبوتين على نزواته الجنونية وأعانه على تشكيلها بحيث ترى فى غاية الخطورة . وكان يبدو من وقت لآخر أنه على اتصال بالقيصرة كذلك . وبنقوده فقدت القيصرة وراسبوتين تلك الصلة الضئيلة التى كانت لها بالوجود السياسى ، وبدأ حياة لا تنطوى إلا على العبث والاستهتار .

وكل وزير وكل موظف كبير أبدى نقداً للقديس أو معارضة له أشير بطرده . ومن أوائل من طردوا الجنرال بوليفانوف وزير الحرية الشيط الكف الذى جاء بعد سوكونينوف . بل لعله أولى جميع الناس بالبقاء فى وظيفته من وجهة نظر المجهود الحربى الذى اضطلع به . وعندما ماترد نقولا فى أن يحرم الجيش من ذلك الموظف الكف الذى نجح لأول مرة منذ بدء الحرب فى أن يمد الجبهة المحاربة بالمؤن الكافية، أخذت اسكندرا تطعن فيه فى خطابات متتالية حتى استسلم لها آخر الأمر . كتبت له فى التاسع من يناير سنة ١٩١٦ « تخلص من بوليفانوف » وبعد بضعة أسابيع كتبت له ثانية « يا حبيبى لا تحجم ولا تتأخر » .

وسازانوف وزير الخارجية الشريف الأمين الذى كان موضع ثقة حلفاء روسيا، سرعان ما طرد أيضاً كما طرد بوليفانوف من قبل . وفى أوائل سنة ١٩١٦ أقنعت اسكندرا نقولا أن يعين بوريس ستومر رئيساً للوزارة ، وهو رجل مغمو غير نابه محاط بشرذمة من الأصحاب الدنسين . وطلبت أن يضطلع بوزارة الخارجية

زيادة على رئاسة الوزارة . وكان ماناسيفتش هو الذى عثر على ستورمر وأمكنه أن يوحد فى عمل له صلة شخصية بستمور لتسهيل عليه مراقبته ، ولكى يزيل راسبوتين ما قد يحدث من سوء التفاهم دعا ستورمر إلى اجتماع ليلى نى دار أحد أصحابه ، وألقى إلى رئيس الوزراء بأوامره « إياك أن تسمح لك نفسك بالتدخل فى خطط ماما (اسكندرا) . اعرف موضع خطوك . إذا وقعت فقد انتهيت » .

وكانت أعجب التعيينات الوزارية وأخطرها تعيين بروتوبوف وزيراً للداخلية ورئيساً عاماً لشرطة البلاد . وكان عضواً فى البرلمان ، ومن فضل القول بأنه لم يحظ باحترام أحد من زملائه . كان مختالاً أحرق عصبى المزاج جداً من أثر مرض خبيث . ومما زاد الطين بلة أنه أقحم نفسه فى محادثات غير مأمونة بل تكاد تنطوى على الخيانة مع بعض الألمان فى أمر الصلح بين البلدين . وفى نظر بعض أصحاب راسبوتين كان هذا أمراً مجحوداً . وسواء كان هذا ينطوى على مؤامرة للوصول إلى صلح منفرد دون علم القيصر لإخراج روسيا من الحرب كما يرى بعض المؤرخين فقد كان ذلك من عمل دعاة الهزيمة . ومن مزايا بروتوبوف فى أعين مريديه ولاؤه للقديس وولعه بإرضاء أصحابه وقدرته على الكف عن توجيه الأسئلة السخيفة يقول پول مليونكوف السياسى والمؤرخ الحر فى وصفه إلى السير برنارديرز « كان بروتوبوف نموذج الرجل النبيل المدين المستعد للقيام بأى عمل يطلب منه . وكان له تأثير طيب فى نفس القيصرة » . إنها كتبت مرة إلى القيصر فى سبتمبر عام ١٩١٦ تقول : « يرجوك جريئورى رجاء حاراً أن تعين بروتوبوف » . وعندما توقف نقولا قليلاً على غير عاداته وقال « إن أراء صديقنا فى الناس قد تكون غريبة فى بعض الأحيان » ، أخذت تلح عليه حتى انتهى الأمر بالموافقة .

وكتبت مرة إلى نقولا مشيرة إلى مجلس البرلمان تقول « هم أجلاف غلاظ . لا بد من قيام الحرب بيننا وبينهم ولا بد من أن نكون أشداء معهم » . وعندما ظهر منه بعض التردد عادت إلى الهجوم قائلة « إن كل ثقتي في صديقنا الذي لا يفكر إلا فيك وفي طفلنا وروسيا . ولا بد لنا بمعاونته من أن نجتاز هذه المحنة . ستكون الحرب بيننا قاسية ، ولكن رجل الله أقدر على أن يقودك في أمان بين العقبات ، والصغيرة (وهى تعنى الإمبراطورة) واقفة وراءك كالصخر لا تخضع ولا تلين » . ورغم هذا العرض المغرى آثر نقولا الصلح . وتحلى عن ستورمر واستبدل به أحد الوزراء المعارضين لراسبوتين (وزير المواصلات تربتوف) وأقذت إسكندرا بروتوبوفوف في آخر لحظة بزيارة خاطفة إلى زوجها في رئاسة أركان الحرب . وفهمت ألا أمل في الاتفاق مع البرلمان أو مع أحد أصحاب النفوذ السياسيين المستيرين في روسيا إذا أبقى القيصر وزير الداخلية ، فهو فضلاً عن تفاهة شخصيته يمثل كل ما تمقته المعارضة في الحكومة . ولكن هذا لم يكن ليهمها . بل على العكس كانت تريد أن تكشف موقعها مع البرلمان وكان هدفها الأكبر وضعه أمامها راسبوتين ومانويلوف هو حل البرلمان وإنهاء دستور عام ١٩٠٥ وإقامة حكم مطلق جديد له مظاهر الحكم الشعبي ويبدو أنها لم تثق كل الثقة بزوجها ولكن نيتها تتضح من روح كتاباتها إليه في ديسمبر من عام ١٩١٦

« ليكن حكمك مبنياً على العزم والقوة ... الخير قادم إليك لقد جاء دوره .. يجب أن نترك لا بننا دولة قوية ولا يجوز أن نستسلم للضعف من أجله .. اقض على أزمة الحكم بشدة فإنك تقبض عليها في استرخاء ... روسيا تود أن تذوق وقع السياط ... ما أشد رغبتى في أن أصب إرادتى في عروقك . إني متألمة من أجلك كما ألم لطفل ضعيف برىء ... كن الإمبراطور . كن بطرس الأكبر . كن (٢٦ م - الأسر)

إيقان الرهيب ... الإمبراطور پول . اسحقهم جميعاً تحت قدميك ... والآن لا تضحك يا شقى ... انف لفوف (البرنس جورج لفوف أحد أعضاء البرلمان الأحرار) إلى سيبيريا ... وكذلك مليونوف وجوشلوف وبوليفانوف .

فى أحد هذه الخطابات كان التوقيع « أمروسيا التى يباركها صديقنا » وفى أحد الخطابات يقول نقولا « أشكرك كثيراً على التأنيب الشديد . . . صديقك الصغير الضعيف »

وإذا نظرنا بعين المعاصرين من رجال الغرب إلى مسرح الأحداث الروسى مع شئ من التحامل جدير بالأحرار ومن خلال منظر متأثر بألوان الدعاية يبدو أن السياسة التى كانت تتبعها القيصرية ومن يتصل بها فيها القضاء على كل الجهود الحرية . ونحن اليوم نعتقد اعتقاداً تاماً أن القيصرية لم تكن عميلة ألمانية ولا كانت تؤيد ألمانيا بمعنى أنها كانت تمنى فى سريرة نفسها النصر لألمانيا ويدوأكثر احتمالاً أن راسبوتين نفسه كان مخلصاً بطريقته الخاصة لقضية الوطن . ومع هذا فقد كان كلاهما يضع قضية روسيا فى كفة وقضية الأسرة الإمبراطورية فى الكفة الثانية . ومع أنهما كانا يدركان أن المزمعة الحرية ستكون سيئة الأثر فى النظام الإمبراطورى إلا أن لديهما من الأسباب ما يقنعهما بأن النصر له نفس هذا الأثر .

وساسة الروس الذين كانوا أقوى من يعتمد عليهم فى سير الحرب كثيراً ما كانوا أقل من يعتمد عليهم فى تدعيم قوائم العرش . وكان كثير منهم فى الواقع يعملون بكل همّة على إضعاف الإمبراطورية أو على الأقل إضعاف الحكم المطلق . وربما كان نفيهم إلى سيبيريا كما اقترحت القيصرية غير ممكن . ولكن لم يكن الحقد دون غيره — أو عقدة العظمة — هو الذى جعلها تفكر فى هذا الاقتراح . وكان الموقف فى رأى من يؤمنون بالحكم المطلق حرجاً أياً كان الاتجاه الذى ينظرون

عليه — وربما كان هذا هو سبب مسلك راسبوتين الجنونى — وكان من المعقل البحث عن علاج ينقذ الموقف . ولكن كل علاج تخيلته إسكندرا أو راسبوتين أو بروتوبوف كان فيه القضاء عليهم حتى من وجهة النظر الأنثوقراطية نفسها .

ولم يكن بعيداً عن الاحتمال مطلقاً أن إسكندرا كانت ترى أن آخر مرحلة فى الضربة التى توجهها إلى الدستور هى إقامة راسبوتين رئيساً للوزارة بصفة رسمية ، وربما كان لدى راسبوتين — كما يعتقد مانويلوف — هدف أشد ثورية هو خلع قولاً وإقامة إسكندرا وصية عليه على نحو ما كانت كاترين العظمى من قبل . ولم يكن من المؤكد وجود مثل هذا الاقتراح إلا فى هذيان راسبوتين وهو نائم ، ولو كان موجوداً فعلاً فالذى اقترحه هو مانويلوف غالباً . ولكنه كان متوقفاً ، بل سرت إشاعة عنه فى ذلك الوقت . ولكنه كان ضربة قاضية موجهة إلى سلطان الحكومة الأدبى . ومن محب أن الضربة الأخيرة هى التى وجهت إلى راسبوتين بقتله فى التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١٩١٦ .

وكان لدى الروس كلهم على اختلاف صفاتهم ، من أزواج مطعونين فى شرفهم ، أو وطنيين غير ذوى أغراض خاصة ، الأسباب القوية للرغبة فى قتل القديس (وكثيراً ما كانت هناك مؤامرات غير متحمسة لارتكاب هذا القتل) وكانت الجماعة الصغيرة العدد التى نجحت أخيراً فى إنهاء حكمه غير الرسمية مكونة من ملكيين من أقصى اليمين ، وكان مثلهم الأعلى هو نفس المثل الأعلى الذى يدعيه نخبته — أن تكون روسيا آمنة فى ظل الحكم المطلق . ولما كان راسبوتين يعمل على هدم دعائم الحكم المطلق ويقوض كيان الأمة نفسها كان لابد من موته .

والذى تولى اغتياله فعلا هو البرنس فيلكس يوسوبوف ، وهو شاب من رجال الحاشية متزوج من ابنة أخت القيصر ، وقد نفذ مهمته الهائلة بأسلوب الهاوى الأرسقراطى . وكان موت راسبوتين لذلك — متفقاً مع حياته كلها المملوءة بالقوضى وسوء المصير . أغرى يوسوبوف راسبوتين بالذهاب إلى داره . ليحظى بالشراب أثناء الليل . وقدم اليه نبيذاً به سيانيد البوتاسيوم ، وانتظاراً لسريان السم وتأثيره ظل يلعب على الجيتار لتسلية الرجل الذى سيقضى عليه ، وكان سائر المتأمرين فى الطابق الأعلى يحاولون تهدئة أعصابهم بالرقص على نعمة الحاكي . وعندما اتضح أن السم لم يؤثر فيه استعمل يوسوبوف المسدس ، ووقع راسبوتين على ظهره كما لو كان قد مات . ثم تنبه أخيراً ، ولم يمت إلا بيد أحد زملاء البرنس بعد مشادة عنيفة . وحملت الجثة المملوطة بالدماء وأسقطت فى فتحة فى الثلج المتجمد فى نهر النيفا .

وكانت الآثار التى ترتبت على هذه الجريمة الشنيعة مختلفة إلى أبعد الحدود عن النتائج التى كان يهدف إليها أصحابها . لقد ثأروا لشرف الدولة بقتل أكبر مفسد فيها . ولكنهم بعملهم هذا قد قللوا من شأن ما فى أداة الحكم من فساد فى نظر الرأى العام . وكان ما أصاب الحكومة فى مكانتها الأدبية مما لا يمكن إصلاحه . إن قتل راسبوتين وسع الخلاف فى نفس الوقت بين رموس الحكم فى الدولة ، ولقد كانت العناصر التقدمية فى البلاد وحدها فى المعارضة . أما الآن فقد اتضح أن المحافظين المعقولين والرجعيين الشرفاء أصبحوا يعدون جميعاً من أعداء الحكومة . قال الشاعر الثائر إسكندر بلوك الذى يؤيد قوله تروتسكى « إن الرصاصة التى أودت به (راسبوتين) أصابت صميم الأسرة المالكة » واتضح أن هذه الرصاصة أشد فتكاً ، لأنها — على نحو ما — لم تصب الهدف الحقيقى . إنها بقتلها راسبوتين قد قوت الراسبوتينية وجعلتها أقوى شراً . لقد تعلقت القيصرة .

أكثر من أى وقت مضى بفكرتها الانتحارية التى تقضى بمقاومة جديدة لدستور سنة ١٩٠٥ . وكان القيصر لا يزال مقيداً بأرائها ولم يكف رجال الحاشية عن اللبس والانتهازية والاستفادة منها . وظل بروتوبوف باقياً فى مركزه وزيراً للداخلية ويفضله ظل راسبوتين بعد مماته يتحكم فى تسير أمور الدولة من العالم الآخر . فإنه فى إبان الأزمات كان يستشير روح راسبوتين يعاونه وسيط محترف . لقد اتضح أن الأسرة لا مفر لها من لقاء مع الموت ، ولم يطل انتظارها لهذا اللقاء .

الفصل الرابع عشر

الشوزة الضالة

أبلغ سفير بريطانيا في بتروجراد حكومته في التاسع من مارس سنة ١٩١٧ رسالة قال فيها « وقعت اليوم هنا بعض الاضطرابات ، ولكنها ليست خطيرة » وقد يرى من يكون أبعد منه نظراً أن أى اضطراب يحدث في الشتاء الثالث من أيام الحرب المريرة في العاصمة القيصرية لابد أن يكون ذا خطر جسيم . ولكن رسالة السفير البسيطة التي أعلنت دون تفكير عميق عن قيام أشد ثورة سياسية في تاريخ الغرب منذ الثورة الفرنسية (والواقع بدأت الثورة في اليوم السابق) لم تكن خرقاء كما تدل عبارتها . فلم تكن الاضطرابات أو الإضرابات أموراً جديدة في بتروجراد طول مدة الحرب . ولكن في آخر أكتوبر عام ١٩١٦ كانت عنيفة حتى إن الفرقتين من الحرس الحلى اللتين استدعيتا لإقرار النظام انضمتا إلى الثورة وأطلقتا النار على الشرطة بدلاً من إطلاقها على الفوضى ، وحتى هذا الاصطدام الدموي لم يمنع ثورة عامة علما بأن ١٥٠ من الحرس الثائرين أعدموا رميا بالرصاص . ولم يدر بمخلد السفير البريطانى أن هذه الاضطرابات البسيطة التي بدأت في الثامن من مارس ستنتهى هذه النهاية . وحتى قادة الأحزاب السياسية أنفسهم لم يكونوا أقدر على كشف الأمور .

ويقول المؤرخ تروتسكى : كانت الحكومة وأعداؤها . كل منهما يستعد للثورة . ولكن كلا من الفريقين فاجأته الثورة حين وقعت الاضطرابات . ولا شك في أن هذا المؤرخ البلشفي على حق حين يقول إن القيادة الحقيقية للثورة أتت من يد الشعب . ولكنه بعيد عن الإقناع عندما يحاول أن يثبت أن قادتها كانوا في الغالب من الثوريين المحترفين وإن كانوا من الثوريين المغمورين غير

المعروفين . وربما كان المحترفون — سواء من الأحرار أو من الماركسيين — هم الذين فكروا فيها ولكن الظاهر أن الهواة هم الذين دبروها . وثورة مارس منذ بدايتها لم تسر وفق الطريق للرسم لها سواء من حيث مبادئها أو وقائعها . وكانت علاقتها الجذرية بالمفهوم التاريخي ملتوية . بمعنى أن الملكية الروسية انهارت قبل أن توجه إليها الضربات التي تسقطها . وخنقتها الثورة تحت أقدامها .

إن المسألة الخاصة التي يشعر بها الاشتراكيون الديمقراطيون مثل إسكندر كرنسكى . أو المللكيون الأحرار مثل پول مليوكوف أو المحافظون المستنيرون مثل إسكندر جوسكوف الذين ظلوا عدة أسابيع أو أشهر يتآمرون للقيام بانقلاب ضد الحكم المطلق هي أنهم قبل بدء العمل يحدون أنفسهم وقد عقدت لهم قيادة الشرف لثورات معدة لم يكن لهم يد في إعدادها (دعا كرنسكى علناً في فبراير لإزالة القيصر «بوسائل إرهابية إذا لزم الأمر») . وكان لدى رئيس أركان الجيش الجنرال الكسييف خطة للقبض على القيصرة وإجبار نقولا على تغيير الحكم المطلق تحت تهديده بإطلاق النار عليه . ويعتبر تروتسكى وغيره من المؤرخين البلاشفة أن زعماء المعارضة من البورجوازيين يستحقون اللوم لأنهم يمثلون الطبقة المقهورة وعجزها إبان الانقلاب الاجتماعى .

ولكن فى ضوء ماشهدناه فى نصف القرن الأخير يستحق هؤلاء الرجال العاجزون شيئاً من الصفح . وفضلاً عن ذلك لم يكونوا أقل فاعلية من الزعماء — أيا كان وسطهم الاجتماعى — الذين كانوا يقاومون النظام النازى فى عهد هتلر . ثم ما أجراً وأشجع حكام روسيا السوفيتية الحاليين فى عهد ستالين الذى يشبه كاليجولا حاكم روما إبان سطوته . ثم أى قوة عجيبة أفقدت تروتسكى ذكرياته عن الثورة عندما أخذ الحزب يقص مخالب الأسد العجوز . إن الدرس

الصحيح الذى يلقنه لنا التاريخ أنه بينما لا ينجح الاستبداد أبداً فى القضاء التام على المعارضة القوية، إلا أنه قادر دائماً على التكيل بالمعارضين فى صورة ما . وإنه كلما زادت مقاومتهم للسلطة المطلقة كان التكيل بهم أشد . ومن الطبيعى أن العبيد عندما يحاولون التخلص من ربة الاستبداد وتكسير سلاسل الأسر فإنهم يلقون مقاومة أقل مما يلقاه من خلقوا أحراراً أو من هربوا إلى ميدان الحرية الفسيح ليعيشوا عيشة الطلقاء .

والآن ، فإحقاقاً للحق ، ومن باب الإنسانية ، يجب أن نقر أن الدور الذى قامت به الصفوة الروسية فى المعارضة - سواء من الضباط أو الأرستقراطيين أو أصحاب الرأى من الطبقة الوسطى - قبيل ثورة شهر مارس كان دوراً يستحق الرثاء . كما كان بعد ذلك .

وكان اضطرابهم عاملاً قوياً فى شل حركة النظام القديم عندما قامت الثورة ولكنهم كانوا هم أنفسهم ضحية الفوضى التى كانوا هم جناتها .

وكان الارتباك الذى أصابهم أشبه شىء بحالة العروس غير الخبير الوجل الذى يفضى تردده السخيف إلى إثارة أحاسيس عروسه المراهقة إلى حد يدفعها إلى أول أفاق يندق بابها تاركة المتردد المسكين مسئولية تنشئة التائر الصغير الذى تلده فيما بعد . ولقد كان الأفاق فى ثورة مارس وبخاصة فى إبان الفوضى التى جاءت فى أعقابها هو الجندى الذى فقد الروح المعنوية أو الجندى السابق الذى ابتعد عن ميدان القتال ، إما هروباً وإما بسبب المرض ، وهو مستعد - سواء عرف أو لم يعرف - لأن يمزق المجتمع إرباً ، بدلاً من أن يعود إلى ميدان القتال .

لقد حذر راسبوتين القيصر تحذيراً صائباً عندما حثه على وقف المذابح التى يقوم بها الجنرال برسيلوف فى خطته الهجومية على غاليسيا قال : « سيعود الجنود

وهم كالحيوانات الضارية ». لقد أسر القائد في هذا القتال الذي استمر من يونيه إلى سبتمبر سنة ١٩١٦ ٣٧٥٠٠٠ أسير وكلف الروس ٥٥٠٠٠٠ رجل دون أن يحصلوا على نتيجة حاسمة .

والجند — سواء أكانوا من الثائرين من وحدات حامية بتروجراد أم من المتخلفين والمهاجرين من جبهات القتال — كانوا المحيرة التي أثارت الحركة الثورية في وسط القوقاز الساخطين في بتروجراد وسائر المراكز الصناعية . ومع أن الأجور زادت منذ قيام الحرب إلا أن أثمان الحاجيات زادت ثلاثة أضعاف ما كانت عليه ، ومع أن إنتاج الطعام كان كافياً للشعب كله فقد كان يحدث هناك عجز في حاجيات المعيشة في بعض المناطق وفي بعض الظروف . (ولقد اقترح راسبوتين مرة أن تباع الخباز خبزاً مقطّعاً حتى لا يطول انتظار ربات البيوت في صفوف طويلة منعاً للتذمر الجماعي وإشاعة السخط بين العامة) وكانت قلة الفحم والخشب مصدراً للسخط الشديد وبخاصة في العاصمة التي يسبق البرد القارس فيها الرطوبة الشديدة والوحل الكثير . ومما يزيد وقع هذه الآلام الجسدية المريرة كثرة القتلى في ميدان القتال والربح الفاحش الذي يحصل عليه البعض بسبب ظروف الحرب وفضائح راسبوتين ، وإجراءات بروتوبوفوف التعسفية ضد العمل المنظم . ولقد جاء في تقرير أحد رجال الشرطة ملحوظة لماحة في نوفمبر سنة ١٩١٦ « إن أصحاب الأيدي العاملة في العاصمة على حافة اليأس . ولا بد أن يؤدي أقل استياء بينهم إلى أشد الاضطرابات » .

وكانت الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة كثيرة وغير واضحة . كان منها نزاع في مصانع بوتيلوف للصلب انتهى بطرد ٣٠٠٠٠ عامل . ومنها عدم كفاية الخبز في العاصمة مما نتج في الغالب من تراكم الثلوج في شهر مارس وتعطيل وصول

الوقود إلى الخنازير (ويبدو أنه لم يكن هناك نقص في الدقيق) . وسبب ثالث أدى إلى قيام الاضطراب هو الحرص على الاحتفال بيوم المرأة الدولى وهو تقليد حديث مستمد من فكرة اشتراكية غامضة . واستغل بعض أصحاب الحركات الثورية هذه المناسبة للقيام بمظاهرات ضد الحرب . وكان لشاب بلشفي في منطقة فايبورج الصناعية يدعى كايدوف نشاط ملحوظ في تنظيم صفوف عاملات التسيج والغزل وسيرهن في الشوارع يرددن شعارات ثورية مثل « لتسقط الحرب » « وأمدونا بالخبز » . (معظم قادة البلاشفة كانوا في هذا الوقت إما في السجن وإما في المنفى) . وقد حذر كايدوف المشتركات في المظاهرة من حل ما من شأنه أن يهيء للشرطة الأسباب لإطلاق الرصاص عليهن . ولنفس هذا السبب كان معظم القادة اليساريين يعارضون الإضراب العام . وما إن بلغ الأسماع نبأ هذه المظاهرة في منطقة فايبرج حتى صمم كثير من الرجال وكثير من النساء على أن يشتركوا فيها . وعندما كانوا في الشوارع في الثامن من مارس نسوا النصيحة الحكيمة التي وجهها إليهم كايدوف وغيره من الخبراء وأخذوا يهبون الخنازير وحوانيت الخبز ، وهكذا كانت الثورة الروسية في أول أمرها اضطرابات متفرقة تتصل برغيف الخبز في عاصمة البلاد .

وكان الحكومة بطبيعة الحال قلقة بشأن ما تتوقعه من المظاهرات القادمة . وكان جواسيس الشرطة قد بكروا في الإبلاغ عن ذلك . ولكن رجال الحكم لم يقدرُوا خطر الموقف ولم يعبأ القيصر برجاء بروتوبوفوف — الذي لم يصبر عليه — في أن يظل في العاصمة . وسافر إلى موحيلف مبكراً صباح الثامن من مارس (وكتب يوم وصوله إلى القيصرة ينبئها بأنه سيقضى فراغه في لعب الدومينو) . وكانت مسئولية حفظ النظام في العاصمة ملقاة على كاهل بروتوبوفوف . وعلى قائد المنطقة الحربية ، وعلى رئيس المدينة وأخيراً على رئيس

الوزراء المتهدم البرنس نقولا جولتسين الذى عين رئيساً منذ بضعة أسابيع ،
 (ولم يكن البرنس المسن يرغب فى مركز الرئاسة ولكنه قبلها ليكون له فى
 حياته « على ما ذكره تروتسكى » بعض الذكريات الطيبة) ، وكان حرس العاصمة
 مكوناً من ١٦٠٠٠٠ رجل غير ٣٥٠٠ شرطى مزودين بالسلاح الثقيل . ورغبة
 فى تقليل إراقة الدماء كانت الخطة الموضوعة تقضى بالاعتماد على الشرطة وحدهم
 لوقف أى اضطراب يحدث فى العاصمة ، فإذا عجزت الشرطة عن أن تقبض على أزمة
 الأمور أرسلت فى الحال فرقتان من فرسان القوزاق للقضاء على المظاهرات .
 وكان على المشاة ألا يقوموا بأى عمل إلا عند الضرورة القصوى وفى الحالات
 المستعصية . وكان قرار القائد منع الحرس من الاتصال بالنوغاء ، خوفاً من
 قيامهم بعضيان على نحو ما فعلوا فى أكتوبر الماضى قراراً معقولاً ، ولكنه كان
 سيئاً التصرف فى شدة التمسك به . وقد ارتكب فعلاً خطأ خطيراً بمنعه القوزاق
 من وقف الثورة قبل استفحال الأمر وبعدم السماح لهم بحمل كراييجهم العظيمة
 الفائدة عندما سمح لهم أخيراً بالعمل .

وفى نهاية اليوم التالى — التاسع من شهر مارس — أصبح واضحاً أن حشود
 الشعب الثائر أخذت تتجمع فى بتروجراد. ويمكن أن يقال ما قاله السفير البريطانى
 فى برقيته أن حدثاً هاماً لم يحدث ولم يستول أحد على المباني الحكومية الكبرى
 ولم يقم الجند بأى عصيان . وبلغت الحوادث التى أحصتها الشرطة فى اليومين
 حوالى ثمانية وعشرين رجلاً أصيبوا إصابات خفيفة من قطع الثلج والصخر التى كان
 المتظاهرون يقذفونها . وأخذت الجموع تزداد أعدادها شيئاً فشيئاً كما زاد توقع الشر
 منها . وبدأت أعلام سنة ١٩٠٥ الحمراء تظهر ثانياً وأخذت الصيحات تدرى فى
 الطرقات التى كانت الثلوج تكسوها مرودة « فلتسقط الحكومة المطلقة »
 و « تسقط المرأة الألمانية » وأخذ الطلبة والعمال من ذوى البنقات البيضاء ينضمون

إلى المتظاهرين أو إلى المتشاحنين مع الشرطة الذين لم يقتصر نشاطهم على المناطق الصناعية . وعند ما ظهرت هذه الروح الثورية بين الجماهير أخذت القيادات العليا للمنظمات اليسارية — الاشتراكيين الثوريين والبلاشفة والمثشفيك وجاعة الماركسيين الحريين التى تدعى مزاينونكا — أخذ كل هؤلاء يصدرن البيانات الصاخبة ويؤلفون الجمعيات التى تعمل لتنسيق العمل بينها وأعلنوا الإضراب العام لمدة ثلاثة أيام . وقبض فوراً على عدد من القادة اليساريين ولكن كان نتيجة ذلك على ما رأى تروتسكى — إفساح المجال للضباط القادرين على النضال مثل كايروف على مستوى المنطقة أو المصنع . وأسهمت الهيئات البلشفية المحلية فى تنظيم الثورة فى بتروجراد ولكن لم يقم أى دليل على أنه كان لها الدور الرئيسى فى هذا التنظيم .

وكان يوم السبت العاشر من شهر مارس هو نقطة التحول فى الاضطرابات فهو الحد الفاصل بين الاضطراب والثورة ، فى هذا اليوم تمحلت الاضطرابات إلى ثورة . والتحول — إذا أوقف قبل أن يستفحل الأمر — لا يكون له مضاعفات سياسية دائماً ، وفى أول الأمر قد لا يزيد من العنف أو سلطان الغوغاء ، وأحياناً يصحبه هدوء خادع . وقد رأى معظم الصحفيين الذين وجلوا فى المناطق المضطربة من هذا العالم إبان نصف القرن الأخير هذه الظاهرة مرة على الأقل فى حياتهم ، وما شهدوه ليس من السهل نسيانه ، ولكن وصفه من الصعوبة بمكان . فالجو ثقيل حتى إنه أشد ثقلاً وأقسى أثراً من جو المعركة الحربية . تتغير فيه مناظر الأشياء وتكبر أحجامها طلاقات الرصاص وتكسير الزجاج وفرقة كل شىء وتهدم كل شىء . وتحتل أصوات الناس وصهيل الخيل بما قر فى الآذان من دوى وغوغاء . وعندما تتداعى سلطة الدولة يحتفى حكم العقل الذى يضبط وسائل الحياة وينع تعقيد الأمور . ويتحول العالم المعقول الذى نعيش فيه إلى خليط من المتناقضات .

ويصبح المنظر صورا متلاحقة متنافرة لا يجمع بينها المكان ولا يؤلف بينها الزمان . فهذا ثورى فى قبعة من الفراء يخطب الجماهير بصوت جهورى وحركات بهلوانية ومأسرع ماتتفرق الجموع المحتشدة . ثم تتجمع الجموع مرة ثانية أو لعلها جموع أخرى غير الغوغاء السابقين . فهذه جماعات من النساء اللأى تغطى أجسامهن الشيلان وهؤلاء جماعة من الرجال فى سترات طويلة وسراويل منبعجة ، سائرون فى صفوف غير منتظمة ، وهؤلاء صف من الجنود قبعاتهم ذات حافة ضيقة وستراتهم رمادية اللون ، وفى أيديهم بنادق طويلة وقد اصطفوا ليسدوا الطريق . وها هو ضابط على كتفه شارات رتبته يهدد آلة التصوير . وتنفيذ الأمره يركع الجنود على إحدى ركبتيهم ويصوبون بنادقهم نحو القادمين من المتظاهرين . ولا يمكن أن نعرف إن كانوا أطلقوا بنادقهم أم لم يطلقوها . ثم نرى خايطا من الجنود والمدنيين ملتفين حول نار موقدة . على رءوسهم أو أكتافهم الثلج وقد حان وقت الشفق وبدء الظلام .

هذه بعض صور ثورة مارس التى بقيت لنا . وإن عدم الانسجام بينها ، مهما كان مرجعه إلى المصادفة ليعطينا فكرة قريبة الشبه بالحقيقة أكثر مما تستطيع أن تعبر عنها الألفاظ . والعالم العقلى عند الدهماء الثائرين — كما قال الفيلسوف الاجتماعى الفرنسى جوستاف لوبون فى القرن التاسع عشر — لا منطق فيه . والعامة أنفسهم يمثلون مجتمعا عفى عليه الزمن ، أكثر مما يمثلون القوضى الاجتماعية ، يسوده الكره والخوف وينقاد بدافع سحرى إلى الخضوع للقيادة وله قدرة كقدرة النمل على الانتظام ولديه موهبة الفن الحربى كوهبة حيوانات الصيد ، وهذه هى المزاي بين الجمهور السياسى العادى مهما كان سخطه ومهما كانت ثورته . ولكنها تظهر أحيانا فى مفاجأة عجيبة أثناء القوضى المدنية الطويلة المدى عندما تزول عن الحكومة هيبتها من كثرة اصطدامها بالثائرين ومناوأتها لهم . إن هذه كانت الحالة

في روسيا إبان اليوم الثالث في الثورة الروسية عندما بلغ عدد المتظاهرين في الشوارع ٢٤٠ ألف نائراً .

كتب تروتسكى رغم عدم مشاهدته هذه الوقائع لأنه كان يومئذ في نيويورك يصف ذلك وصفاً دقيقاً رائعاً فيقول عنها :

« في وقت الظهيرة (١٠ مارس) تدفق عشرات الآلاف من الناس إلى كاتدرائية كازان والشوارع المجاورة . ثم حدثت اصطدامات مع الشرطة . الخطباء يوجهون كلامهم إلى الجماهير المحتشدة حول تمثال اسكندر الثالث (وهذا يعنى أنهم وصلوا إلى صميم المنطقة الحكومية في العاصمة) . يطلق فرسان الشرطة النار . يقع أحد الخطباء بعد إصابته . وطلقات الجماهير تقضى على أحد مفتشى الشرطة وتحدث جروحاً في جسم آخر من رؤساء الشرطة وتلقى الزجاجات وقنابل اليد على رجال الجيش . وهذا فن قله المتظاهرون عن الحروب . والجيش لا يعبأ بما يحدث لرجال الشرطة وأحياناً يظهرون لهم العداوة . وأشيع في شيء من الحماسة أنه عندما أخذت الشرطة تطلق النيران عند تمثال اسكندر الثالث أطلق القوازيق نيراناً قوية على « الفراغنة » (وهو لقب الشرطة) واضطر هؤلاء إلى ترك الميدان .

والإشاعة المتعلقة بالقوازيق قد تكون تصويراً لما يملأ قلوب الجماهير من الآمال والخاوف . ولكن تروتسكى يعتقد أنها خبر صحيح . وعلى كل حال يروى حادثة صحيحة وقعت في آخر النهار رواها كايروف التأثير البلشني وهو من القادة الشعبيين القليلين الذي سجل مذكراته . ذلك أنه عندما فرق الشرطة النافرين الذين كان كايروف يشجعهم مستخدمين في ذلك الكراييج على مرأى من إحدى فصائل القوازيق قصد هو وبعض رفاقه إلى القوازيق وخاطبهم بتواضع بينما كانت (٢٧٢ — الأسر)

قبعاتهم في أيديهم قائلين لهم «أخواننا القوزاق ساعدوا العمال في محاولتهم الحصول على مطالبهم السلمية . إنكم ترون معاملة هؤلاء الفراعنة لنا نحن العمال الجياع . ساعدونا » . ذكر تروتسكى أن الجواب الذى ذكره كايروف نفسه هو أن القوزاق نظر بعضهم إلى بعض بطريقة خاصة « وما كدما نتحرف عن طريقهم حتى اندفعوا إلى المعركة » .

لقد كان ذلك نصراً مبيناً للثورة . لقد كان القوزاق الذين كان ينعتهم تروتسكى بأنهم « هؤلاء الحاكون والمعاقبون » كانوا سند الحكومة الأخير . لقد أظهروا بعض السخط في اليوم السابق وطاردوا النوغاء تنفيذاً للأوامر الصادرة إليهم . ولكنهم سمحوا للمتظاهرين أن ينجوا بأنفسهم تحت بطون خيولهم . إن تروتسكى كان محقاً عندما امتدح حسن تصرفات كايروف الثورية . وفى اعتقاده أن القوزاق ملوا الحرب وملوا مقاومة الثورة كغيرهم من الناس . ولكن قصة كايروف تؤيد أكثر من كل شئ استعداد الجماهير للعدوى من بعضها البعض دون نظر إلى الأسباب التى أدت إليها . إن هذه القوة السحرية — قوة كسب خصمك إلى جانبك — تبث كثيراً مرة بعد مرة فى أثناء ثورة بتروجراد واعتمد عليها المتظاهرون كثيراً واستفادوا منها وقدموا التحية إلى نفس الجنود المتقدمين لمطاردتهم .

وكما أتاحت للجنود الفرصة للاتصال المباشر بالجمهور عادوا إلى ثكناتهم ، وقد حملوا معهم روح التأخى والعطف على الجماهير ، وفى العاشر من شهر مارس أبرىق نيقولا من موجليف « أمر أن يقضى غدا على الاضطراب » ولم يكن الأمر ينطوى على الحق فحسب ، بل كان فى منتهى الخطورة . فى سبيل تنفيذه نجح الجنرال كالبوف تقريباً فى تطهير الشوارع من الثورة ، ولكن الثورة اشتعلت فى ثكنات الجند . وبعد ظهر يوم الأحد الحادى عشر من مارس أبرقت

لأسكندرا إلى زوجها « كل شيء هادئ في المدينة » . وفي الوقت الذي أعلن فيه كايروف في شيء من الأسى أن الثورة أخذت في الهدوء ، أعلنت العصيان إحدى فرق الحرس الإمبراطوري الذي كان تحت قيادة بافلوفسكي عند ما علمت أن إحدى وحدات الفرق أطلقت النار على جمع من العمال . وفي تلك الليلة تعددت الاجتماعات الهائجة في جميع ثكنات المدينة . وأخذ المثيرون دون أن يكون لديهم أي فكرة سابقة عن الثورة — وهم السباقون إلى الثورة دائماً والمجهولون دائماً الذين يقدر تروتسكي دورهم الكبير فيها — أخذوا يشجعون زملاءهم ويرددون شعارات الإخاء التي كانت الجماهير ترددها طول النهار .

وهذه الظاهرة التي يسميها تروتسكي « المفاعل الندي » للثورة كانت المرحلة الفاصلة في ثورة مارس التي مهما حاولنا أن نفهم كيمياء التاريخ ستظل ظاهرة خافية غير مفهومة . ولا يوجد إلا دلالات قليلة على ما دار من المناقشات في برلمانات الثورة التي اجتمعت في ثكنات الجند تلك المناقشات التي كان لها هذه الآثار البعيدة في مستقبل العالم كله . ولكن بين سحب الطباق المعقودة في الثكنات ومن خلال رائحة أجسام الجند التي لم تعطل نرى ومضات ضئيلة في الحوار الخالد الذي كان قائماً حول الثورة نفسها . وكان جنود الحرس في بتروجراد معرضين لكثير من الدعايات المختلفة التي منها دعاية الجماهير البدائية التي لا يمكن إنكار شأنها — ولكن يبدو أن الجنود لم يتأثروا بأية دعاية منها . لقد كانوا يقبلون آراء بعضهم البعض كآلات ولا كالفكرين ولكن كالذين وقعوا في إحدى المآزق الإنسانية. وفي النهاية تغلب عاملان سيكولوجيان كان لهما الحكم الأخير .

كان العامل الأول الشعور بالإخاء الإنساني: الامتناع عن قتل الأخ لأخيه. ومعظم الجنود في ثكنات بتروجراد — حتى جنود الحرس — كانوا مدنيين

والتحقوا بالجندي حديثاً . ومهما كان رأيهم في القيصر أو في الحكومة أو في الجيش — والواقع أنهم لم يكونوا ذوي خبرة عليهم جميعاً — فقد كان يؤلمهم أن يؤمروا بالنزول إلى الشوارع ليطلقوا النار على غيرهم من المدنيين الذين معظمهم لا سلاح في أيديهم فضلاً عن الصداقة التي تجمع بينهم وبين جنود الحرس . وبينهم كثير من النساء والأطفال . لقد كان شعورهم هذا شعوراً صادقاً وطبيعياً وواضحاً ، وكان من الضروري أن ينتهي الأمر إلى رأى صريح في بضع ساعات .

وكان للقراعة — الشرطة — خبرة طيبة في تنفيذ أوامر القتل ولكنهم كانوا قليلي العدد لا يكفون . فإذا جاء الصباح وقامت الاضطرابات حل الجنود محلهم ومعنى هذا ضرب النار لا في الهواء ولكن في أجسام المتظاهرين لقتلهم .

وهنا يأتي العامل الثاني : الفكرة المقابلة للنجاة . وغريزة الجندي التي توحى إليه بالابتعاد عن الخطر العام . وقد يكون من الخطر الامتناع عن طاعة الأمر ولكن قد لا تقل الطاعة عن ذلك خطراً . وهذه الفرقة مستعدة لإطلاق النار على المتخلفين والعصاة . ولكن الجاهير وسائل أقوى في إزال العقوبة بأعدائهم — وهو ما تبينه القراعة — . وقد يكون من السهل أن يخرج الجندي على طاعة ضباطه ولكن بعض الضباط ظهرت في أعينهم نظرات متقدمة جنونية . فإن اختيار أحد الخطرين شاق عليهم ، وهم في موقف دقيق ، فإنه سواء طال الأمد أو قصر وسواء قام الجنود بواجبهم أو لم يقوموا به فإن الضرورة وحدها سوف تدعو إلى إرسالهم إلى ساحة القتال .

وهكذا اعترك في نفوس الجنود الشيطان والملاك . وخرجامن المعركة — كالعادة — على وفاق . وتغلب الحب والكراهة والإخاء والأناية والشجاعة والجهن على حكم العادة الاجتماعية . وفي السابعة من اليوم الثاني عشر من مارس بعد ليلة صاحبة

من المناقشات والمجادلات . خرجت فرقة فولتسك تحت قيادة جاويش يدعى كريكيتيكوف وضابط تحت الترين يدعى استاكوف - ولم يظهر أحدهما بعد ذلك مرة على مسرح التاريخ - خرجت من ثكنة مسلحة بينما كانت موسيقاها تصدح « المارسييز » . وأما ما جرى لضباط الفرقة فلا يدري به أحد . ورأى العصاة أن في زيادة عددهم منجاة لهم فقصدوا ثكنات فرقتي قريبتين ونادوا زملاءهم . ومنذ تلك اللحظة أصبح من العسير وقف الثورة . لقد تفكك الجيش الإمبراطوري في بتروجراد . وخرجت فرقة وراء فرقة على ضباطها - وأحيانا قتلت ضباطها - أو خرج الجند أفرادا حتى لم يبق للفرقة بعد ذلك أثر . والتوزاق وبعض العناصر في الحصن ظلوا في معزل عن الحركة . مترددين في الانضمام إلى الثوار ولكن غير راغبين في إطلاق النار على زملائهم .

والجنود سواء أ كانوا عصاة أم متخلفين انضموا للمدنيين للاستيلاء على مرا كز للشرطة المحلية حيث تحصن القراعة بمدافع الميدان في معظم الأحوال . ثم أخذوا بعد ذلك يكرون على غيرها من المباني الحكومية . وفي صباح اليوم الثاني عشر من مارس قاموا بهجوم ناجح على دار الصناعة ومنذ تلك اللحظة كان في إمكان كل ثائر أن يحصل على بندقية إذا ما أراد . وفي مساء اليوم نفسه نهب الثوار المركز العام للأخرانا وأشعلوا النار في مبنى المحكمة المركزية . وأخيرا استولوا على الجزيرة المنيعه التي بها حصن سانت بيترسانت پول ، وكانت باستيل الدولة الروسية واقتحمت معظم السجون وأفرج عن المسجونين . وفي نهاية اليوم لم يبق تحت إمرة الجنرال كابلوف من الجند الموالين إلا حوالى ألفين . جعل مقرهم حول قصر الشتاء ودار البحرية .

وعذا منظر الشارع في العاصمة القيصريه في هذه اللحظة الخيالية كما وصفه وصفاً

موضوعياً شاهد عيان هو الأستاذ جرانديج الهولندي في صحيفة إليستراسيون الفرنسية قال : « في الساعة الرابعة بعد الظهر أصل إلى شارع نفسكى الذى يبدأ في ميدان البحرية بجانب النهر. أسمع صوت إطلاق النار في كل مكان. وفي اللحظة التى أخذت أرقى فيها الدرج الذى يتصل بجسر النهر يتفرق الجند الذين كانوا هناك وما كدنا نلوى رؤوسنا حتى سمعنا طلقات النيران . والجمهور ساكن سكوتاً عجبياً . وما تكاد تسكت المدافع حتى تندفع الجماهير لترى .

« ثم يمر رجال الإسعاف حاملين جثة ورجلاً جريحاً ويحيط الجميع بسيارة الصليب الأحمر وتطل من السيارة إحدى الممرضات وتلوح في حماسة بمنديلها الأحمر .

« والجمع المحتشد مكون من عمال وطلبة من الطبقة المتوسطة وعدد من الناس لا يعلم إلا الله من أين قدموا . وعلى مسافة من هنا يشجع الخطباء الجماهير الذين على جسر أنيشكوف .

« ويظهر الجنود في شارع لينينى بروبسكى (وهو الذى يقطع شارع نفسكى) ويبدو عليهم التعب والقلق ولكن يبدو عليهم الجد كذلك . ويتبع هؤلاء عمال وطلبة في سن الشباب في أيديهم المسدسات والسيوف والحرايب والبنادق . ولم يكن فيهم من يتولى القيادة . ولكنهم كانوا يسرون في نظام يملية عليهم وحدة الهدف وقوة العقيدة . وعندما يسمع صوت اصطدام قطعة من الصلب في شيء من الخشب عند محاولة بعض الرعاء فتح حانوت لبيع الطباقي بالقوة توجه إليهم الأسلحة ويصبح فيهم كبار العمال « أيها الإخوة لا تفعلوا ذلك . سيروا إلى الأمام أيها الإخوة »

« والمقاهى كلها مغلقة منذ الصباح ولهذا فقد قصدت مقصفاً للشاى في شارع

كازانسكايا . والمكان مملوء بالجنود والعمال وأصحاب الحوانيت الصغيرة ، وكلهم يتحدثون في أحداث اليوم في هدوء عجيب .

وفي تلك اللحظة لا يوجد أى كره للقيصر ويبدو أن هناك رغبة عامة في الاستمرار في الحرب ولا يشغل عامة الناس إلا أمور الحياة اليومية لا تشغيل المبادئ ولا النظم السياسية . إنهم في حاجة إلى الخبز . ويهتمون الوزير الحالى بالإهمال الشنيع ، ويرون أن العلاج هو نوع الحكومة فلا شأن لهم بالثورة فليقم بالثورة غيرهم . أما الجنود الذين يحوسون خلال المدينة في جماعات قليلة العدد ويعرفون مدى قوتهم فهم نواة الحركة الآخذة في الازدياد . »

وعندما عاد الأستاذ الهولندى إلى الفندق في مساء الثانى عشر من مارس كانت العربات المنصفحة التى يركبها الثائرون تسير فى المدينة ومنها تطلق النيران على غير هدف معين . وكانت الطلقات تسمع فى جميع أنحاء المدينة واحمر لون السماء بسبب الحرائق التى أشعلت فى المباني وكان الموقف ينذر بالاضطراب العام .

والواقع أن هيئة ثورية ناشئة أخذت فى الظهور بل أخذت تفرض نفسها على الأحداث على نحو ما . وكان مركزها قصر ثوريد الذى بناه بوتيمكين عشيق كاترين فى الشمال الشرقى من العاصمة وهو حسن الموقع بين الشككتات التى بها فرق الجيش الثائرة من جانب وعمال فايربرج عند نهر نيفا المتجمد من الجانب الآخر . وكان هذا المبنى الغريب بقبته وأعمدته الرخامية مقراً للبرلمان قبل اتحاده المركز الرئيسى للثورة . ولقد انضم البرلمان أو على الأقل كبار أعضائه إلى الثورة فى الحادى عشر من مارس متحدنين بذلك القرار الإمبراطورى بمحل المجلس . وبدلاً من أن يتفرق الأعضاء شكلوا مجلس الطوارىء وعلى رأسه رئيس المجلس نفسه رودزيانكو من

المحافظين . ويتألف من زعماء الكتلة التقدمية : مايو كوف ولفرف وجوشكوف وباسيل شولجين والثائر الاشتراكي السابق اسكندر كرنسكى . وهو رجل ضئيل الجسم عصبى ذكاؤه وقاد عظيم النشاط ثابت الجنان . وهو أعظم خطيب فى روسيا .

واتجهت الجماهير الثائرة بوحى من غريزتها إلى البرلمان وهو أجدر ما يمثل المعارضة فى روسيا القيصرية ، لتسم الأخبار وتستمد منه النصح والتعليمات وكان لدى كرنسكى الكثير منها جميعاً . وهو الوحيد فى البرلمان الذى كانت له المقدرة على أن يستقبل وفود الجنود القادمين من جبهة القتال أو العمال ذوى الوجوه الصارمة أو الطلبة الخياليين المتسكمين حول قصر توريدى يصيحون ويتحمسون ويعرقون ويشهرون سلاحهم ويصقون ، وهو - أى كرنسكى - الذى يستطيع عند احتدام الأمور أن يمتزق الجماهير ليتفقد يديه أحد قواد الجيش المسنين أو إحدى الكوونات أو أحد الوزراء السابقين وقد استولى عليهم الرعب وجرقهم الثورة وعضتهم بنواجذها كما تقبض القطعة على عصفور صغير بفمها فتشل حركته . (وقد أُنقذ كرنسكى مرة بروتوبوبوف وهو مختبئ ، عند صانع الملابس وقد كاد ألا يفلت من الموت) .

وفى نفس الزمان وفى نفس المكان الذى كانت لجنة البرلمان تعمل على أساس أنها الهيئة التنفيذية العليا للثورة كانت العبقريّة الروسية تدبر الفوضى بإقامة هيئة عليا منافسة لها مكونة من مجلس العمال الذى كان موجوداً سنة ١٩٠٥ . وبعض الأعضاء الاشتراكيين من ذوى الرأى الذين اجتمعوا فى إحدى حجرات قصر توريد وأقاموا من أنفسهم الهيئة المركزية وطلبوا من المنظمات الثورية تعيين ممثليهم .

وتلبية لهذا الطلب قدم في الثاني عشر من مارس إلى قصر توريد حوالى ٥٠ عاملاً اختيروا في شيء من العجلة وحوالى عشرين جندياً كذلك . وبينما كانت لجنة الطوارئ* بمجلس الدوما مجتمعة في أحد أجنحة المبنى كان « مندوبو » العمال والشرطة مجتمعين في جناح آخر وكونوا لجنة مركزية من جميع المندوبين لم يتم انتخاب إلا قلة منهم وهذه الهيئة كانت مكونة في أول الأمر من عشرين عضواً ثم زادت تدريجياً بالانتخاب حتى بلغ الأعضاء حوالى المائة . وكان رئيسها القائد المنشفيكى نيكولاس شكدر وكان لونها السياسى أميل إلى المنشفيك (وهم الديمقراطيون الاشتراكيون الأورثوذكس) ولكنها كانت تشمل الاشتراكيين الثوريين البلاشفة الذين منهم شخصيات عرفت فيما بعد مثل مولوتوف وشليابينيكوف وحفنة من المحافظين والتقدميين . وكان منهم كرنسكى الذى كان له مكان في كلا المعسكرين .

وكانت اللجنة التنفيذية من الوجهة النظرية تمثل ثورة الطبقة العاملة . ولكنها كانت قرنفلية ولم تكن حراء ، وكانت تعمل من أجل الاشتراكية كما كان سانت أوجستين يعمل أيام شبابه من أجل ضبط الشهوات . ووفق المبادئ* الماركسية الأصلية كانت ترى أن على الطبقة الوسطى أن تتم ثورتها قبل أن يتسلم العمال الحكم .

لذلك كانت قانعة بأن تترك مسؤوليات الحكم إلى لجنة البرلمان أو إلى اللجنة التى حلت محلها — الحكومة المؤقتة — ولكنها كانت من أول الأمر في تنافس مع سلطة الطبقة المتوسطة حيث كانت تصدر الأوامر المباشرة إلى العمال وإلى الجنود الثائرين . . . لقد ولدت الديمقراطية الروسية مخلوقاً بشعاً ذا رأسين . وكانت فرصة بقاءه على قيد الحياة غير موجودة في بادئ* الأمر .

ومع ذلك وفي الثانى عشر من مارس سنة ١٩١٧ رغم أن أعداء النظام الحكومى القائم كانوا على علم بالصعاب الطويلة المدى التى ستواجههم كان لديهم مايشغلهم فى ذلك الوقت . فما زال للحكومة الإمبراطورية استحكامات إدارية فى قلب العاصمة . مازالت الشكات المالية للحكومة المطلقة من الناحية النظرية . محيطة بالمدينة — وكانت القيصرية فى أمان فى زادكوسيلو .

وفى ١٢ من مارس كانت فى شغل شاغل بأبنائها الذين أصابهم الحصبة فلم يكن لديها الوقت الكافى لإخماد الثورة ولكن الثوار لم يكونوا على علم بذلك .

وكان القيصر فى مقر القيادة العامة يتولى القيادة الإسمية للجيش وكان من العسير أن يدرك أى إنسان بعد خمسة أيام من الاضطرابات المتقطعة فى بتروجراد أن استبداد أسرة رومانوف الحديدى أخذ يترنح وأن أساسه فى الواقع قد تقوض . وفى أثناء هذا النزاع الثورى الذى لم يتقرر مصيره فى ظاهر الأمر كان للجنة الإدارية المزدوجة الرأس مزاياها . فلجنة البرلمان كانت مبعث اطمئنان للمتريدين فى الجيش أو فى الحكومة كما أنها كانت ذات معنى خاص فى رأى العام . وكان للجنة التنفيذية السوفيتية نفوذ أقوى على العمال الثائرين والجنود المتمردين فى العاصمة . وبتعاون الهيئتين فى الثالث عشر من مارس نجحا فى تدعيم انتصارهما وإعادة شئ من النظام فى العاصمة — لقد سقطت الحكومة وغادر كابلوف وزارة البحرية . ولم يبق فى المقاومة إلا شرزمة من الضباط كانوا متحصنين فى فندق استوريا وظل هؤلاء بعض الوقت يقاومون قوى الثورة .

وآخر أمل كان فى الرابع عشر من مارس عندما قدمت قوة بأمر من القيصر بالسكة الحديدية من موجيليف منذ ثلاثة أيام وعسكرت عند مشارف بتروجراد

فدلت على أن الثورة لم تكن مقصورة على منطقة واحدة . ولقد دعى الجنرال قولاً
ايفانوف — الجندي القديم الذي ظل مدة طويلة مهاناً لاتهمه بعدم احترام
راسبوتين — ليعود بأربع فرق من الجبهة للقضاء على الثورة في العاصمة . فقدم من جبهة
القتال مع رجاله وفرقة غير كاملة من صفوة الجنود إلا أن الرحلة التي كانت تستغرق
في العادة ٢٤ ساعة كانت أبطأ وأشد اضطراباً مما كان يتوقع . ولما قيل له
في إحدى المحطات ، إن كل من كان يقلبهم القطار في اليوم السابق من الجنود
القادمين من العاصمة أعلنوا العصيان يوم ١١ مارس في المحطة واستولوا على أسلحة
الضباط فرر أن تخفر الشرطة القطارات كما وجد الفرصة المواتية لذلك . وجاءت الفرصة
على عجل . قدم أحد القطارات مملوءاً بالجنود يشبه بعضهم أسلحتهم ويزهو بعضهم
بملابسهم المدنية الجديدة التي نهبوا على ما يبدو من الحوانيت .

وفي أثناء تفتيش القطار وجد القائد نفسه بفتة أمام جندي معه سيف أحد
الضباط معلقاً إلى وسطه بينما تقبض كلتا يديه على سيفين آخرين . فصاح به آمراً
بصوت مرتفع واضعاً يده على كتف الجندي ومشيراً بإحدى يديه إلى أسفل
« اركع على ركبتيك » لقد استطاع بهذا التصرف نفسه أن يشيع الاضطراب بين
الجنود والبحارة منذ عدة سنوات ولكن الظروف قد تغيرت . وخر الجندي
على ركبتيه كما أمر وفي الوقت نفسه غرز أسنانه في يد الجنرال . وكان في استطاعة
ايفانوف أن يقتله رمياً بالرصاص ولكن الرأي الذي أدلى به بعد إلى إحدى
لجان التحقيق أنه لو فعل ذلك فلربما كان كن يصب الزيت على النار المشتعلة .

وبينما كان هذا الجندي مسجوناً في حجرة الأمتعة في القطار وصل قطار
آخر من بتروجراد ولما نظر إليه رأى عدداً من الجنود يطلون من النوافذ ويقذفون
بقبعاتهم في الهواء . وقال في شهادته : عندما وصلت إليهم سمعهم يصيحون

« الحرية » . الآن كل الناس متساوون « لا رؤساء بعد اليوم » « لا تحكم بعد اليوم » ولقد رأيت كثيراً من الضباط يخيط بهم الجنود العاديون فقلت لهم « يا سادة ماذا دهاكم ولما رأيت الخجل بادياً في زجوههم أصدرت نفس الأمر وقلت « اركعوا على ركبكم » وركع الجميع في الحال .

وبعد أن سجن كثيراً من المحرضين واسترد كثيراً من المسروقات استأنف الجنرال ايفانوف رحلته ولكن كانت الأمور تزداد تعقيداً كلما قرب من العاصمة . وفي مكان ما في الطريق سلبت الثورة منه الفرق الأربعة التي وعد بها في موجيليف وعند وصوله إلى زاد كوسيلو وجد أن فرقة الحرس قد تركته وعلم أن وزراء القيصر قد ألقى القبض عليهم في بتروجراد . فرأى أنه لودخل العاصمة عنوة بفرقته الهزيلة فإن ذلك يدعو إلى إراقة الدماء وعلى هذا فقد أبلغ الحالة لمر القيادة العام . وبعد مشاروات غير مرضية مع القيصرة التي كانت مضطربة بسبب ما يديه رعية زوجها من عدم الولاء كان يبدو أن ايفانوف — شأنه شأن كثير من أرباب المناصب الكبرى من الضباط — مجبول على الطاعة . ولكنه غير غيور على الدفاع عن نظام الحكم القائم . فعمد أن يتجول بقطاره في الضواحي المجاورة ولأمر ما لم ير من الضروري أن يمد حرس الأسرة الإمبراطوري في قصر اسكندرا بأية قوة .

وفي اليوم التالي انضمت إلى الثورة فرقة الحرس الإمبراطوري المكلفة بحماية الأسرة إلا أن لجنة البرلمان أرسلت مندوبين ليؤكدوا للأسرة أنها موضع حمايتها .

وفي الخامس عشر من مارس — أى بعد أسبوع من بدء الثورة في بتروجراد — التي لم تؤد رغم شدة الاصطدام إلا إلى ١٥٠٠ قتيل أقامت لجنة الطوارئ في مجلس البرلمان من نفسها حكومة مؤقتة وعين البرنس لفوف

رئيساً لمجلس الوزراء . ومليوكوف وزيراً للخارجية وكرنسكى وزيراً للعدل . ودعت الحكومة الجديدة كل موظفي الدولة من مدنيين وعسكريين إلى احترام أوامرها . وكان من أوائل من أطاع الأمر الدوق سيريل ابن عم القيصر فقد قصد على رأس حرسه البحرى إلى قصر توريد وأعلن الولاء .

وفي نفس اليوم أذاعت اللجنة التنفيذية الحمراء — كأنما كان ذلك ردأ على الأمر السابق — أذاعت الأمر « الأول » إلى القوات المسلحة معلنة أن الأمة فى كل الأمور السياسية خاضعة للسوفيت فى بتروجراد — أول لجان الجنود المحلية التى أخذت تتكون وتطالب الجنود ألا يطيعوا إلا أوامر البرلمان التى لاتعارض مع أوامر السوفيت . وألنى الأمر تحية الجنود للضباط وقرر أن تكون الأسلحة لدى لجان الجنود لا لجان الضباط وهكذا أصبحت القوضى نظاماً معترفاً به .

واتفقت الحكومة المؤقتة واللجنة التنفيذية على وجوب استقالة قولوا . ولكن بينما كانت اللجنة التنفيذية وكل مجالس السوفيت مصممة على إلغاء الحكومة القيصرية فوراً كان معظم الوزراء الجدد يرون الإبقاء عليها مع تعديل فى نظام الحكم وتحت حكم قيصر جديد . ولذلك أعد مليوكوف صورة استقالة منه وإقامة ابنه وسنه وقتذاك ١٢ عاماً قيصرأ تحت وصاية عمه الدوق ميخائيل . وقيل أن يحصل على موافقة زملائه أو الحكومة المؤقتة حتى يمكن إعلان ذلك بصفة رسمية قامت لجنة من وزير الحرية الجديد وأحد الوكلاء المحافظين إلى بتروجراد فى صباح يوم ١٥ مارس للحصول على توقيع القيصر على هذه الوثيقة .

ولم يكن فى التاريخ الروسى ولا فى تاريخ العالم أجمع مايدل على أن هذه المحاولة لإقازد الملكية كانت مما يمكن توقعه والسكن فى الظروف القائمة كانت المحاولة أمراً بالغ الدقة .

وقد كان من الجائز نجاحها لو أن الملكيين الروس كانوا على اتفاق فيما يجب عمله وأظهروا شيئاً من الصلابة والمهارة السياسية في القيام بها . وكان يعوزهم شيء من التعاون من الأسرة المالكة وبخاصة من قولوا . ولكن شيئاً من كل ذلك لم يحدث في تلك الظروف .

ولقد قابل قولوا هذه المرة أقصى أزمة في حياته إذا قيست هذه بما قابله من الأزمات البسيطة فيما مضى ، قابلاً بمنح من العظمة والشجاعة وعدم الاهتمام . لقد خرج مع حاشيته من موجيلوف إلى زاركوسيلو بعد مغادرة الجنرال ايفانوف بوقت قصير وأوقف قطاره الخاص عند محطة بسكوت في منتصف المسافة إلى العاصمة . وفي عربة النوم استقبل المبعوثين القادمين من العاصمة في ليل الخامس عشر من مارس . وحياهما بما اعتاد من المجاملة والهدوء وجلس معهما إلى مائدة مستديرة بينما كان سكرتيره الخاص يسجل ما يدور بينهم من الحديث . وأخذ جوشكوف في أدب جم يشرح الظروف التي تجعل الاستقالة أمراً لا مفر منه . وربما كان جديراً به ألا يجهد نفسه في أداء هذه المهمة فقد وصل القيصر من قبل بركات متفق عليها من معظم قادة الجيش بما فيهم عمه الدوق قولوا قائد منطقة القوقاز يلحون فيها عليه بالاستقالة بل لقد رد عليهم ببرقية بالموافقة ، وبناء على إلحاح من كانوا في معيته أوقف إرسال البرقية أو على الأقل حدث محاولة لوقف إرسالها . ولكن هذه الحادثة تظير ما اعتاد عليه من التردد قبل اتخاذ أي قرار . وعندما قرر جوشكوف الانسحاب وكان قولوا يقلب وحده وجوه الرأي قبل أن يدلّ بقراره قال «إني فكرت من قبل في الموضوع وقررت الاستقالة» .

وقد أدهش الرسولين القرار الذي اتخذته القيصر وعدم الاهتمام الذي أظهره في موضوع يتعلق بمصيره ولم يصدّق أنه كان على وعى تام بما ينطوي عليه قراره .

ومما ذكره جوشكوف فيما بعد « كان الأمر في غاية البساطة وعادياً إلى أبعد حد . ويبدو أن الإمبراطور لم يكن ليدرك المأساة الماثلة أمام عينيه » .

وإنما كان في صوت الإمبراطور ما ينم عن تأثره عندما ذكر مستقبل ولي العهد . وفي هذا المجال وحده وضع بعض العراقيين . فلم يوافق على أن يمنح الطفل لقب القيصر فإن هذا يقتضى بعد والديه عنه دائماً وهو ضعيف الصحة ، وهذا الموقف طبعى من والد محب لولده ومع ذلك فقيه دلالة مؤلمة على شعور الأسرة الذى يزيد الارتباك بين أنصار الملكية .

وكان جوشكوف وزميله يدركان أن أى تغيير فى نص الوثيقة خطير ولكنهما رضخا أخيراً إلى إصرار الإمبراطور الذى عبر عنه بأسلوبه الرقيق .

وكان النص الأخير للاستقالة بعد أن أصلحها نقولا « نزولا على رأى مجلس الدوما الإمبراطورى نرى من الأوفق التنازل عن عرش الدولة الروسية والتخلي عن السطة العليا ، ورغبة فى عدم فران ولدنا العزيز نزل عن تراثنا لأخينا الدوق ميخائيل الكساندروفشس وندعو له بمناسبة ارتقائه عرش الدولة الروسية » .

وعندما عاد جوشكوف وزميله إلى بتروجراد فى صبيحة السادس عشر من مارس كان مضمون الرسالة قد عرف فى العاصمة . وكان رأى السوفيت صلباً لا يتزعزع ضد بقاء الحكومة المطلقة ، وكان رأى لدى الحكومة المؤقتة المعارضة التامة لهذه الفكرة وفى تلك الأثناء كان فى قصر الدوق مؤتمر عقد ليقرر قبول الدوق للعرض أو يقرر عدم قبوله . وكان كل الوزراء حاضرين وكذلك كان رئيس مجلس البرلمان حاضراً كذلك ، وبعد انتهاء جوشكوف وشلجين من مهمتهما قصداً توطاً للانضمام إليهم . وكان كرنسكى يرأس الحزب الذى يؤيد ميخائيل فى رفض العرش وكان من رأى مليونوف وجوشكوف قبول العرش بشروط خاصة . وكان من رأى جوشكوف أن يقبل ميخائيل العرش إلى أن يتم

انتخاب مجلس تأسيسى يقرر نوع الحكم الذى يصلح للبلاد . كان هذا الاجتماع — على الأقل — مزية طيبة حقيقية . إنه سوف يدعو الضباط وكبار رجال الصناعة ومعظم النبلاء إلى تأييد الحكومة المؤقتة وربما منحها مزيداً من الإكبار في أعين عامة الفلاحين ومعظم الأحرار الذين كانوا يؤيدون مثل هذا الرأى وأصبحوا يعارضونه لأنهم كانوا يخشون وقوع خلاف صريح — وربما نزاع مسلح — مع مجالس السوفييت . واحتدم الجدل عدة ساعات وكان الحديث مرتبكاً أحياناً وعاطفياً أحياناً وربما كان خيالياً أيضاً في بعض الأحيان . بينما جلس الدوق — وكان فارع الطول ضعيف البنية متمتعاً بمنظر الشباب معروف في أوقات الفراغ بحبه للخيل — في كرسي مريح يصنى إلى الحديث باهتمام ويسأل سؤالاً بين الفينة والفينة ولما يبدى أى رأى وأخيراً طالب إعفاءه من الاشتراك في الحديث وآوى إلى حجرة مجاورة ليحظى بالتفكير الهادئ . ولحق به على وجه السرعة عقرودر يانكو والبرنس لقوف ورأى كل منهما تأييد التنازل . وكان أثر تبادل الرأى الذى أعقب هذا فاصلاً في تقرير مستقبل أسرة رومانوف — على الأقل من الناحية الشكلية . وبعد بضع دقائق عاد الدوق إلى حجرة الاستقبال . وكان متزناً ولكن يعلو وجهه مسحة من الحزن وأعلن قراره . إنه يقبل العرش إذا ما عرضه عليه مجلس تأسيسى ولكنه يرى في الوقت الحاضر أن يتعدى العرش .

وهكذا انتهت السنين الثلاثمائة التى قضتها أسرة رومانوف في الحكم . وعلى النقيض من ذلك الاحتفال الذى تم في اليوم السابق في عربة السكة الحديد في بسكوف كان في احتفال اليوم شيء من مظاهر الإنسانية . وعندما أعلن الدوق رغبته في التنازل عن العرش صاح كرنسكى قائلاً « ياسيدى أنت أشرف الناس » وحذر جوسكوف زملاءه قائلاً « لا أستطيع أن أتبعكم في الطريق الذى اخترته »

ثم خانه اتراته وأردف قائلاً « إنكم تسوقون البلاد إلى الدمار » .

ولا يزال غير الشيوعيين من المؤرخين الروس يجادلون فيما إذا كان اليوم المشئوم — اليوم الثالث من مارس — ١٦ مارس حسب التقويم الحديث في رأى ما كلاكوف — هو الذى حدث فيه التوقيع على وثيقة الموت للديمقراطية الروسية الحديثة . ولكلا الطرفين — الملكيين وغير الملكيين — بعض الحجج التى يستندون إليها . ولعل الحقيقة ليست بينهما بل تجاوزت الطرفين جميعاً . إن الثورة الروسية بعد مارس سنة ١٩١٧ قد تأثرت بعوامل خارجية كما تأثرت بمثل ذلك على الأقل بمن كانوا يعملون على توجيهها فى الداخل . انها كانت تستمد مقوماتها من أزمة المدينة العنيفة العميقة الواسعة الانتشار التى فكت عقابها الحرب ذاتها .

الفصل الخامس عشر

عصر الطبّية السّاصرة

لقد عقد مجوار فينا في الثالث والعشرين من شهر مارس سنة ١٩١٧ أى بعد أسبوع واحد من مؤتمر بترولجراد الذى دعا الدوق ميخائيل إلى رفض عرش روسيا ، اجتماع - سرى وأعضاؤه أوثق اتصالاً - ليس له علاقة مباشرة بالحالة في روسيا ولكن كان له أثر حاسم في سير أحداثها . وكان مقر الاجتماع إحدى الحجرات في حصن لاكسنبرج الذى كان لآل هابسبرج ، على بعد بضعة أميال جنوبى العاصمة النمساوية في الساعة السادسة التى لا تناسب عادة عقد اجتماعات في صباح يوم مظلم شديد البرودة . وبدأ الاجتماع بأربعة أعضاء فقط - الإمبراطور كارل - توفى الإمبراطور فرانسيس يوسف منذ أربعة أشهر - وهو زجل طويل تحيف الجشم في التاسعة والعشرين من عمره ذو شوارب منسقة تدل دائماً ملامحه الجميلة على الجدل المزوج بالحياء . وزوجته الإمبراطورة زيتا تصغره بأربع سنوات ذات عينين سوداوين خيلتين تمان عن قوة البقل . وأخوها الأمير سكستوس وزافير من أسرة بوربون ويدل مظهرها على حقيقة أمرها - كأنهما شابان أنيقان من صلب زوجين من أبناء باريس - ولم تكن زيتا قد شاهدت أخويها اللذين تكن لهما حباً عظيماً منذ سنة ١٩١٤ لأن البلاد التى تنسب إليها بحكم زواجها وبلاد أخويها كانت كل منها في حرب مع الأخرى . وأسرة بوربون بارما إحدى الأسر الملكية الأوربية المختلطة النسب بشكل واضح . فزيتا أميرة إيطالية اكتسبت الجنسية النمساوية المجرية (إن صح هذا التعبير) بينما كان سكستوس وزافير يعيشان في فرنسا ويعدان نفسيهما من الفرنسيين . ونظراً إلى أنهما كانا ممنوعين بحكم هاتون الجمهورية الثالثة - لما فيهما من الدم البوربوني - من الخدمة في الجيش

الفرنسي انضموا إلى جيش ابن عمهما ألبرت ملك بلجيكا ليعملوا في فرقة الإسعاف ورقيا إلى رتبة ملازم ثان . وكان اللقاء الذي يبدو فيه روح المؤامرة إبان شرب برميل القهوة في ذلك البرد الشديد في حصن لكسنبرج لقاء عائلياً . وفي الظروف المحيطة بتلك الأيام لا بد أن يكون لقاء مثيراً للشعور حتى لو لم يكن له غرض آخر . وفي الواقع إنه كان لقاء بحثت فيه الأمور بطريقة الأسلوب السياسي القديم ، ولاشك أنه كان آخر لقاء من نوعه للدرس أمور الدنيا التي لم تكن في شر صورها .

ولم يكن إمبراطور النمسا الجديد ملكاً فيلسوفاً ولا رجلاً حديدياً . لقد كان شاباً مذهباً معقولاً متمديناً من طراز رجال أوروبا الوسطى . محتفظاً بمظهر أجداده ولكنه تحلى عن كثير من روح الإقطاع الذي كان يصبغ الأسرة إبان حكم عمه الكبير فرانسيس يوسف . وكان كارل مثل عمه فرانسيس فرديناند في ولائه الشديد لأسرته وإمبراطوريته . وكان يشبهه كذلك في ذكائه حيث أدرك أن حبه لأسرته يقتضى تنويع بلاده . وعلى النقيض من عمه لم يكن من رجال الحرب . لقد كان يكره الحرب وكان يرى أنه إذا لم تنته في أسرع وقت هذه الحصومات الدامية تلك الحصومات التي جلبها حق الحكومة النمساوية نفسها فإن نهاية الإمبراطورية آتية لا ريب فيها . وكانت المشكلة هي كيف يكون انسحاب النمسا من الحرب . وكثيراً ما كان يبحث هذا الأمر عندما كان ولياً للعهد بينما كان يدفع عربة أحد أبنائه أمامه في زهرته المفضلة في حديقة شونبرون . وكل محاولة نمساوية تهدف إلى معرفة الوسائل التي تؤدي إلى اتفاق على الصلح بالطرق الدبلوماسية أو أشباهها لا بد فاشلة حيث تقضى عليها حليفتها الألمانية . وكان كارل يعلم ذلك . فالسلم إذن لا يمكن الوصول إليه من الطريق الشريف المستقيم . إن المؤامرة هي الطريق الموصل إلى السلام .

وما إن انتهت مراسم تنصيب كارل حتى شرع في إعداد مؤامرة السلام . وقد لا يكون مسلكه فيها شريفاً بالنسبة إلى حلفائه — رغم أنه لم يفكر على ما يبدو في صلح منفرد يؤدي إلى ترك ألمانيا تحت رحمة القدر فضلاً عن أن مثل هذا الصلح عظيم الخطورة سياسياً بل وشخصياً كذلك . ومنع هذا صمم الإمبراطور الشاب الذي كانت زوجته تشجعه بل وتدفعه دفعاً وهي واقعة تحت نفوذ الفاتيكان على القيام بهذه المحاولة . وعقد العزم على استخدام صهره نائبين غير رسميين عنه ليسبرا غور رؤساء حكومات الحلفاء ، واتصلا فعلاً بالحلفاء عن طريق العلاقات العائلية . وفي أثناء قيامهما بما كلفا به أعطيت لهما أوراق مزورة هربت من سويسرا إلى النمسا وقلت سرّاً إلى لكسنبرج . ولم تكن المهمة التي كلفا بها سهلة ولا آمنة وهو ما بلغاه إلى أختهما ولكنهما قبلتا القيام بها أخيراً نزولاً على رجائها العاطفي : « فكرا في آلاف الرجال الساكنين المقيمين في جحيم الخنادق والذين يقتلون بالآلاف كل يوم وارجعا إلى » .

وكانت المهمة طريقة ليس لها لون سياسي ولكنها لم تكن خالية من المسؤولية . وصمم سكستوس وزايفر على أن يستوضحا الحكومة الفرنسية عن المهمة للقاء عليهما قبل البت في القيام بها وتقابلا عدة مرات مع الرئيس بوانكاريه ورئيس الحكومة المسيو برياند الذي شجعهما في صراحة تامة . وكان الإمبراطور يتق في وزير خارجيته الكونت زرينين (ثقة لسوء الحظ غير تامة) وكان زرينين هذا رجلاً طويلاً نحيفاً شاحب اللون يتم مظهره على أنه حانوتى جاء ليلقى نظرة على الجثة . وقد انضم للشايبين الذين يعملان لإقرار السلم عندما انتبها من حديثهما الخاص ولقت نظرهما إلى مواطن الخطر التي قد يجداها في طريقهما . وكان الحديث مشبهاً للمهمة ولكنه كان مفيداً . وفي نهاية الاجتماع الثانى الذى تم في نهاية اليوم نفسه سلم زرينين الأميرين مذكرة أعدها بمنتهى العناية والملك كانت قاصرة :

على الأمور المألوفة يبين فيها موقف الحكومة النمساوية ، الذى يكون أساساً لمفاوضات السلم الرسمية .

ودس كارل فى أيديهما — دون أن يبلغ زرنين — خطاباً مكتوباً باليد إلى بوانسكاريه كان صريحاً إلى حد بعيد. وفى هذا الخطاب الذى كان مكتوباً بخط أنيق — وان كان غير خال من الأخطاء اللغوية الفرنسية — عرض الإمبراطور الشاب استعمال كل نفوذه الشخصى لإقناع حلفائه الألمان بالاعتراف « بحقوق الفرنسيين العادلة » فى الألزاس واللورين — وهو عرض مثير فى هذه الظروف ، واقترح كأساس آخر للسلام العام الجلاء عن بلجيكا وإعادة استقلال الصرب عل أن تتعهد الصرب بالقضاء على أى دعاية فى بلادها للجامعة الصربية . بل إن كارل أثار إمكان منح الصرب ثغراً على البحر الأدرياتي .

وكان للخطاب وقع فى باريس وأسرع اسكندر ريبو الذى خلف المسيو برياند فى رئاسة الوزارة إلى إبلاغ البريطانيين عن التطور الجديد . وكان تعليق رئيس الوزراء البريطانى دافيد لويد جورج بعد حديث بينه وبين ريبو فى أبريل « هذا صلح » . كان هذا الأمل يهز العواطف .

ولم يكن لدى الحلفاء كرة بلورية يستطيع ساستهم أن يقرأوا فيها المستقبل ، حتى أبعد الناس نظراً كان لا يستطيع التنبؤ بما للصلح الذى يعرضه كارل من أثر إذا تم فى منع سلسلة من الكوارث كبشفة روسيا وبلقنة أوروبا الوسطى وهتلة ألمانيا ونشوب الحرب والثورة فى أوروبا مرة أخرى واغتصاب دول وإقامة ستار حديدى يقسم قلب أوروبا إلى قسمين مستقلين . ومع هذا فإنهاء الحياة فى الخنادق كان عملاً مثيراً فى حد ذاته . ومع أن قادة الغرب كانوا لا يستطيعون أن يتنبؤوا بأحداث روسيا العارمة إلا أنهم كانوا فى غاية القلق لما قد يحدث هناك ،

وبعضهم — ومنهم بريان — كان يساورهم الجزع مما عساه أن يحدث إذا ما اتسعت الإمبراطورية النمساوية . ومن هنا كانت استجابة الفرنسيين والإنجليز لفكرة الصلح مع شيء من الحيطة . وتقرر جس نبض الدول المتحالفة — إيطاليا ورومانيا (وكانت روسيا مشغولة بثورتها الداخلية بحيث لم تكن تعد عند ذلك من الدول المعنية بالأمر) دون إفشاء كل ظروف بعثة اميرى بوربون بارما . وأبدى كارل الدليل على إخلاصه في الاقتراح الذى يعرضه بمحاوَلته تليين الألمان وبخاصة في مسألة الأتراس واللورين . وأكد كارل حاجة النمسا الملحة إلى الصلح دون أن يفشى سر اتصاله بالدول المتحالفة وحذر حلفاءه بأن اشتراك أمريكا في الحرب سيكون له أوخم العواقب بالنسبة لدول أوروبا الوسطى . ولذلك كان الصلح دون إحراز النصر أفضل من الهزيمة . وأشار على زرينين بالتلميح عن إمكان التنازل عن شطر من غاليسيا النمساوية إلى ألمانيا إذا قبلت التنازل عن الأتراس واللورين أو عن جزء منها للوصول إلى اتفاق عام .

وقد ساد الاعتقاد حوالى شهر كامل بأن هناك أملا في أن لحديث الصلح بعض النتائج ، ثم أخذت العقبات تتجمع . فالألمان كانوا يرفضون رفضاً باتاً ما عرضه عليهم إمبراطور النمسا وقال له إمبراطورهم في شيء من السخرية في حديث خاص بينهما في بادهم مبرج « إنك كنت دائماً تصنى إلى كلام نساتك » ثم إن ريبو قلت حماسته لمفاوضات الصلح عندما سمع هذا الحديث . وكان الرومانيون والإيطاليون بخاصة يعارضون في المفاوضات معارضة أشد . وحلفاء ألمانيا هؤلاء (أو علاؤوها) أمكن إغراؤهم بالدخول في الحرب مع الحلفاء بما وعدوا في اتفاقات سرية بمغانم كثيرة من الدولة النمساوية (وكانت هناك معاهدات سرية أخرى على حساب تركيا بمنح الدردنيل إلى روسيا وفلسطين لليهود . وسوريا للفرنسيين) وكان في غاية السخاء فيما يتعلق بالأتراس واللورين التي لم تكن تابعة له وكان

أقل سخاء فيما يتعلق برومانيا وإيطاليا فلم يعدهما بما يروى ظمأها بشيء مما يملكه .

وأخيراً تبخر كل أمل في الصلح بعد أن كان يقوى في فترات متقطعة في أواخر سنة ١٩١٧ . ثم ساد التفاؤل عندما أظهرت ألمانيا اهتماماً بمقتراحات الصلح التي قدمها البابا بندكت الخامس عشر . ولكن لم يكن لهذه الحركة أية نتيجة . وكانت النتيجة لرغبة كارل الطيبة في إنقاذ أوربا هي الإسراع في سقوط الدولة النمسية على ما سنراه في فصل لاحق . ويعزو بعض المؤرخين فشل الإمبراطور الشاب رغم نواياه الطيبة إلى افتقاره إلى قوة العزيمة — ويعزوه بعضهم إلى جشع إيطاليا أو تلاعب فرنسا أو روح ألمانيا الحربية ، بل قد يوجه الاتهام إلى الرئيس ولسن على أنه أحد كبار المذنبين بتخلفه . والواقع لو كانت لديه أنباء صحيحة عن الموقف أو كان أحسن فهما للموقف السياسي في كل من النمسا وروسيا لضمن الديمقراطية للعالم بثمان أقل مما دفعه شعب الولايات المتحدة بتأييد مسعى الصلح بنفوذه الأدبي وبقوته الحربية سنة ١٩١٧ (وقد اقترح ولسن في ديسمبر سنة ١٩١٦ على المتحاربين أن يبينوا أهدافهم السلمية لتكون أساساً للمفاوضات . وكان خطاب كارل يتفق مع روح هذا الاقتراح) .

والحقيقة أنه بمجيء ربيع عام ١٩١٧ لم يكن هناك قائد بعينه مسئولاً أو دولة بعينها مسئولة عن إضاعة الفرصة السانحة للصلح والسلام . لأن زمام الأعمال الحربية قد أفلت من جميع الأيدي . ومع أن كل الأمم المتحاربة — باستثناء أمريكا التي لم تدخل الحرب إلا من مدة وجيزة وروسيا التي كانت شبه خارجة منها — أصبحت ديكتاتوريات، إلا أن الحكم فيها لم يكن في يد دكتاتور أو حتى في يد أوليغاركية حرة . وبعبارة أخرى لم يكن في أيدي حفنة قليلة من الرجال . بل كان في يد الأجهزة الإدارية التي كانت موجودة — أو التي أنشئت — لتوجيه القوى

القومية العامة إلى إحراز النصر . ولعب بعض هذه الأجهزة دوراً كبيراً في محادثات السلام سنة ١٩١٧ وكان قيمة هامة من وجهة النظر الخاصة بموضوع هذا الكتاب . فإنها كانت تعمل على نطاق واسع ، وكان لها أثر كبير في اشتعال الثورات التي حدثت في السنتين الأخيرتين في الحرب وكذلك التي حدثت بعد الهدنة .

لقد أصبحت الطرق المختلفة التي تلجأ إليها الأمم معالجة الأمور بينها مألوفة لدينا من جراء الحرب الباردة بين الغرب وأمم الكتلة الشيوعية في السنوات العشر التي أعقبت الحرب العالمية الثانية .

وقد أحسنت الصحف التعبير عن ذلك تحت عنوان « الحرب النفسية السيكلوجية » أو « الحرب الباردة » (والمبارتان — من الناحية السياسية على الأقل — لهما معنى واحد تقريباً ، ويفضل التعبير الأول في الولايات المتحدة والثاني في بريطانيا . ولهما مدلول عام يشمل مجموعة كبيرة من أنواع النشاط الذي يتراوح بين أعمال الدعاية وإثارة الحركات الثورية والقيام بحرب العصابات) . وهذه الألفاظ حديثة نسبياً وكذلك بعض الأساليب التي تتبع في الحروب النفسية . ولكن نمط الأعمال الحربية النفسية ترجع إلى فجر التاريخ الإنساني بل ربما رجعت إلى ما قبل ذلك . فإن حفيف الأفعى وصياح القرد هما بعض أنواع الأساليب الحربية النفسية وشبهه باصبيحات الحرب التي يرسلها الهندي الأمريكي ، وعبارات الفخار التي كان الإغريق في عصر هوميروس ينشدق بها ، والسحر والشعوذة التي تقوم بها الطيبة الساحرة في العصور البدائية . وفي جميع العصور ما يسمى بخيانة سانت جورج أى

رشوة جنود الأعداء أو ضباطهم ليخونوا قضيتهم بالأساليب التي كان يستخدمها معظم أصحاب الفتوحات العظيمة من القواد . ولقد كانت الأسلحة النفسية لهذه الكتيبة الأسطورية هي التي يعزى إليها النصر في موقعة فالى أول نصر حربي أحرزته الثورة الفرنسية ، أكثر مما يعزى إلى شجاعة جنودها . وقبل أن يقوم جيلز وزير الدعاية الألماني بحملته في عهد هتلر بمن طويل استخدم نابليون نشرات الدعاية المطبوعة كسلاح من الأسلحة الحربية . وكان الطابور الخامس الذي نظمه جون بول جونز من أهل البلاد ، هو الذي مهد لاستيلاء جنود بحرية الولايات المتحدة على شواطئ طرابلس ، كما أن استخدام الرئيس جيمس بولك لأمثال هذه الأساليب الحربية النفسية هو الذي أعانه على الوصول إلى تحقيق أهدافه .

ومع ذلك فقد استخدمت هذه الحيل السوداء في الحرب (والسياسة أيضاً) في الحرب العالمية الأولى بانتظام وعلى نطاق واسع لم يسبق له مثيل حتى أصبحت إحدى الوسائل الحديثة في الحرب ولأول مرة في التاريخ . أنشئت حينذاك أجهزة ماهرة متخصصة في كافة الطرق الدعائية غير الشريفة التي تسند الجيوش في ميادين الحرب ، وتؤازر الشرطة في الداخل . وهكذا نشأت تلك الظاهرة الحديثة العجيبة — ظاهرة المحارب النفسى (أو السياسى) .

وفي مبدأ الحرب كان الاهتمام — على الأقل في ميدان الدعاية — في مجال الدفاع أكثر منه في مجال الهجوم ، ومسلطاً على الجبهة الداخلية في البلد المحارب (وهذه نفسها من المفاهيم الحديثة) وكان لذلك أسباب كثيرة أحدها الأهمية المتزايدة للعامل الاقتصادى في العملية الحربية وهو ما جعل الروح المعنوية للفلاح

والعامل الصناعى موضع اهتمام لدى القائمين بالحرب، والثانى — وهو ما سبقت الإشارة إليه — كان الضغط الشديد الذى يقع على أعصاب المحارب فى جبهة القتال . ويدخل فى موضوع الروح المعنوية — مدنياً أو جريبياً — الفكرة التى أخذت تظهر منذ القرن الثامن عشر من تأكيد حق الفرد فى الحياة والحرية والجرى وراء السعادة .

ويقول الأستاذ هارود لاسول كتابه « طرق الدعاية فى الحرب العالمية » إن الدعاية « هى تسليم بما يشود الضر من صلابة فى رأى » . ومنذ القرن العشرين — أو على الأقل منذ العشرة الأعوام الأولى منه — لم يعد فى الإمكان أمر الناس بالنزول عن جبههم فى الحياة الهائثة إذا عن لحاكم أن يصدر أمره بذلك . إنما الأمر الآن يقتضى الاقتناع . ولقد سهل مهمة الإقناع انتشار التعليم وسهولة المواصلات ، ومن الطبيعى (وإن كان يبدو عجيباً عند النظرة الأولى) أن تكون أسوأ الدعايات وأشدّها غلواً ، تلك التى كانت فى البلاد الغربية الديمقراطية ، حيث كان الرجل العادى — على حد تعبير لاسول — أشد الناس عناداً .

وكان من أنماط الدعاية الغربية التى قصد منها إذكاء الروح المعنوية والتى كانت تدعى للهزيمة وأقصى وقفاً على النفوس الاعتماد الخاطى على إذكاء مشاعر الجماهير بما يذاع عليها من شعارات مثل « إلى الحرب للقضاء على الحرب » (والذى أوحى بهذا ج. هـ . ولز) ومثل (أعدوا العالم للديمقراطية) المقتبسة من رسالة للرئيس ولسن إلى المؤتمر الثانى فى أبريل سنة ١٩١٧ . ولا شك فى أن الساسة الذين أرادوا استغلال آمال الجماهير بهذه العبارات الرنانة كانوا الضحية الأولى لدعاياتهم .:

ومن العجب العجاب — إذا نظرنا إلى تلك الدعاية — أن نرى رجالاً أذكاء من ذوى رأى — وفيهم المؤرخ النابه — قد خدعوا وظنوا أن من الممكن بهذه المجازر أن تنشئ عالماً أفضل . وقد أيقظ شكوك الجماهير فى البلاد الغربية فى حياة أفضل التهديد الذى ألقاه هتلر يهدد فيه بما بقى لهم من الحريات الأساسية .

ولقد كانت دعاية الكراهية أشد فتكاً فى نتائجها النهائية من الدعاية المبنية على المثل العليا التى أسىء توجيهها . والخطأ الأكبر فى هذا المجال أيضاً كان من ناحية الديمقراطية . فى فرنسا كان مصنع التزييف الذى تموله الحكومة سراً ، ينتج الصور الفوتوغرافية الزائفة لأطفال رضع بلجيكيين قطعت أذرعهم أو لساء مزقت صدورهن حراب الألمان وسيوفهم أو لمصانع لعمل الصابون من الجثث الآدمية . وكان البريطانيون أقرب إلى الحكمة قليلاً ولكنهم قلما يتورعون عن ذكر وحشية « المون » (وهذا وصف مقتبس من خطاب وجهه القيصر إلى رجال بحريته عند قيام ثورة البوكسير فى الصين) وبعد عشرين سنة كانت الآثار التى خلفتها دعاية الوحشية الحربية فى عقول الشعوب — والتى ظهرت حقيقتها بعد انتهاء الحرب — كانت لا تزال قائمة حتى إن مكاتبى الصحف الأمريكين لقوا صعوبات عظيمة فى إقناع أصحاب الصحف إعادة طبع الأنباء الصحيحة للفظائى النازية .

ومع تقدم الحرب أخذت وسائل الدعاية لدى كبرى البلاد المحاربة تزداد شدة وتتفوق تنظيماً حتى إن البريطانيين نشئوا وزارة مستقلة للإعلام تحت إشراف

أحد كبار رجال الصحافة — لورد بيفربروك — وكانت الدعاية الموجهة للبلاد المعادية لإدارة شبه مستقلة تحت إشراف منافس بيفربروك — هو لورد نورثكليف . وبعد دخول أمريكا الحرب بيضعة أيام أسس الرئيس ولسون لجنة الأنباء العامة تحت رئاسة جورج كريل الصحفي الأمريكي المعروف مع منحه حرية التصرف المطلقة في الدعاية الداخلية والخارجية مع قيامه بالرقابة على الصحف كذلك . وقد أنشأ الفرنسيون والألمان والإيطاليون أجهزة للدعاية لاتقل نشاطاً عن ذلك . وفي جميع البلاد التي اشتركت في الحرب كانت إدارة الدعاية على اتصال وثيق بالهيئة العليا الحربية والمراقبين الحربيين وبالشرطة السرية وإدارة المحاربات . ومن ذلك شبكة كبيرة متطوعة (وأحياناً مأجورة بصفة سرية) من الصحفيين والكتاب والساسة — وكانت النتيجة لهذا قيام سلسلة قوية من الهيئات التي كان شعارها انتقال الحرب إلى نهايتها الأليمة . ولعل ضغط هذه الهيئات المحبة للحرب على الألمان والحلفاء كان هو العامل القوي في وأد فكرة الصلح التي كان الإمبراطور كارل في مارس سنة ١٩١٧ يأمل تحقيقها .

وربما كان النشاط السياسي الذي قامت به الدول المحاربة لإضعاف الروح المعنوية لدى أعدائها أو إيجاد الفرقة بينهم . أكبر عامل يحول دون مقاضات الصلح . والهدوء في الخنادق يسهل نشر الدعاية ضد الحرب بأساليب بدائية كإلقاء المطبوعات على خطوط الأعداء من الطائرات القليلة الارتفاع . ويدعو كذلك إلى البحث عن حل سياسي بدلاً من الانتصار الحربي . وكما طال أمد الهدوء في ميدان الحرب قويت المحاولة لإثارة الاضطراب في صفوف الأعداء وأصبحت لكل أقلية عنصرية أو دينية ، وكل جماعة ساخطة هدفاً للإثارة والدعاية . وكذلك كان يستغل كل ما تشع به أي جماعة من كراهية أو خوف أو طمع

وكذلك كان يشجع كل أمل لاسترداد الأقاليم التي فقدت . وعادة كان لا يقبل العمل مع أعداء الوطن إلا غلاة المتطرفين من زعماء الأقليات . ومع ذلك فأحياناً كانت شدة الدكتاتوريات إبان الحرب أو شدة الحرب نفسها تدفع قادة الأقليات المسؤولين أو المعتدلين إلى العمل مع الأعداء ، وفي مثل هذه الظروف ينقلب اعتدالهم إلى تطرف وينجحون أحياناً في مطالبة حليفهم الجديد بمطالب جديدة لم تخطر لهم من قبل على بال .

وقصة حياة توماس مازاريك — ابن حوذى بوهيمى — الذى أصبح مؤسس الجمهورية التشيكوسلوفاكية وأول رئيس لها تمثل جانباً من حياة قادة الأقليات وأعمالهم . قبل الحرب كان وجه مازاريك الريفى الذى يدل على ما كابد من جهد والذى تزينه لحية الأستاذية الإجبارية منظرأ مألوفاً فى الأوساط السياسية والثقافية فى الإمبراطورية النمساوية . وكان أستاذاً للفلسفة فى جامعة براغ وفينا . واضعاً لعدة مؤلفات ممتازة فى نواحى الفكر المختلفة . كما كان الرئيسى السياسى البارز للأقلية التشيكية وممثلها القوى فى البرلمان النمساوى . وقد كانت خطبه الرصينة الأسلوب ، القوية الحجج ، المبينة على الوثائق ، ضربات يوجهها إلى الإمبراطور دون رحمة ، وكان ناقدأ مرأ لسياسة الدولة الثنائية الخارجية معدداً ماتقوم به من إخلال بالشرف أو تقرير للظلم فى معاملتها للشعوب الخاضعة لها . وكان مازاريك الذى اقترن بأمرىكية تدعى شارلوت جاريك ديمقراطياً صميلاً كما كان وطنياً تشيكياً . ولكنه ظل إلى قيام الحرب يخدم الإمبراطور رئيساً للمعارضة التى تدين له بالولاء .

وعندما قامت الحرب واستدعى الشعب التشيكى للحرب تحت العلم الهاابسبرجى ضد الأخوة السلاف فى الصرب وروسيا كان وقع ذلك على أعصاب

أشد الوطنيين التشيك اعتدالا شديدا إلى أبعد الحدود ، قامت حركة سرية للمقاومة في براج ، واختير مازاريك رئيساً لها في الخارج . وفي ديسمبر سنة ١٩١٤ هرب هذا السياسي الفيلسوف المبجل وهو في الخامسة والستين من عمره إلى سويسرة وبدأ حياة الثائر المتآمر الجديدة . وسرعان ما انضم إليه زميله الشاب الذي يمتاز بوطنية المتطرفة إدوارد بنيس ، وهو أستاذ علم الاجتماع في جامعة براج في الثلاثين من عمره ، الذي اقترن اسمه بأبجد أحداث التاريخ التشيكي وأشد مآسيه وقعا .

ونتيجة لأعمال الضغط التي وحدث صفوف التشيك ، وتبعاً لمتعضيات النضال صارت حركة التشيك القومية حركة الاستقلال التشيكي ، ثم صارت أخيراً حركة الاستقلال التشيكي السلوفاكي . ثم أخذت تشتد حتى لم تكن لتقبل أى تفاهم مع صاحب السلطان المقتصب . وأخيراً أصبح تفتت الإمبراطورية النموية المجرية هو الهدف الصريح الذي لا يتغير ، لجماعة المهاجرين التي يرأسها مازاريك وبنيس . وفي سنة ١٩١٥ انتقلوا إلى باريس وأسسوا بمعرفة الحلفاء جمعية قومية تشيكية ، وعملوا بنصيحة كثير من المؤرخين والصحفيين الفرنسيين والبريطانيين بغيرة عظيمة على تأليب الجنود النموسيين المجرين . وأمطروا المجندين من بوهيميا ومن سلوفاكيا ، التي كانت تحت حكم المجر بالمشورات المطبوعة . ونظموا أعمال الجاسوسية السرية ومنظمات المقاومة السرية ، وبثوا الدعاية والثقافة بين أسرى الحرب التشيك . وكان نجاحهم واضحاً وبخاصة في الجبهة الروسية . وزعمون أنهم نجحوا عند نهاية الحرب في إقناع ٤٠٠٠٠٠ جندي في الجيش النموسى المجرى من التشيك والسلوفاك والسلاف بترك الجيش ، وأن ١٢٠٠٠ جندي في جيش الدوق فردريك وحده شقوا المحاولة ترك الخدمة . وكثير ممن هجروا الجيش من التشيك والسلوفاك ومن الأسرى خدموا في الكتائب التشيكية التي نظمت للحرب (م ٢٩ — الأسر)

في جانب الحلفاء، سواء في الغرب أو في الجبهة لروسية، وكانت الفرقة التشيكية في الجبهة الروسية عظيمة الأهمية بوجه خاص، حيث بلغت عند قيام الثورة الروسية حوالى ٤٠٠٠٠٠ من الجنود المدربين. وكان عليها أن تقوم بدور في الحرب الأهلية الروسية.

وما أبداه مازاريك وبنيس من الكفاية الممتازة في النضال السياسى لم يكن موجها ضد دول وسط أوروبا دون غيرها.

ومما قاله لبعض مؤيديه في توضيح رسالته « لا يمكن الحصول على الاستقلال بالتحدث عن الاستقلال. يجب أن نحمل حكومات الدول المتحالفة وذوى النفوذ من السياسيين والنواب والصحفيين على العطف على مطالبنا. يجب أن تقتنع أوروبا السياسية أن قيام الدولة التشيكية أمر ضرورى، أى أنها ضرورية للحلفاء كذلك». وفي فصل الربيع من سنة ١٩١٧ عندما بدأ الإمبراطور كارل يحبس النبض لعقد الصلح لم تكن دول الغرب مقتنعة كل الاقتناع بأن دولة تشيكية مستقلة ضرورية أو مفيدة. ورأى لويدي جورج في يناير سنة ١٩١٨ أنه من المستحسن أن يعلن بصراحة أن تفتيت النمسا والمجر لم يكن من أهداف الإنجليز الحربية، وردد الرئيس ولسن نفس المعنى في رسالته إلى مؤتمر الثامن من يناير سنة ١٩١٨ (نفس المؤتمر الذى أعلن شروط ولسن الأربعة عشر)^(١) وحتى في الوقت الذى كان ريبوت ولويدي

(١) وشروط ولسن الأربعة عشر أمدت محاربى الحلفاء السياسيين بقدر من أعظم ذخائرهم، ولكن من الخطأ ومن الظلم أن يكون لها المقام الأول في هذا المجال. لأن هذه الشروط من أهم النصوص الأساسية في هذا القرن. وزيادة على ذلك فرغم تحررها وتأكيدها لحق تقرير المصير لكافة الشعوب - وبخاصة الشعب البولوني وشعوب الإمبراطورية النمساوية المجرية - فإنها لم تكن متعارضة مع مبادئ الأسرية (العائلية) والمبادئ الإمبراطورية. وكلتا الأسرتين الهاابسبورج والموهنزولرن حاولتا الحصول على صلح على أساس شروط ولسن الأربعة عشر ولكنهما ارتكبتا خطأ الانتظار حتى تداعت عروشهما.

جورج يقبلان الرأى فى خطاب كارل، عطل نشاطهما فى بحث الصلح مع النمسا .
التزامات الحلفاء الضمنية إلى اللجنة القومية التشيكية .

وفى المدة الباقية من سنة ١٩١٧ خفت الحركة لجملة أسباب ليس أقلها شأناً
قدرة التشيك على الدعاية والسياسة السرية ، ولعل النصر الأخير للحرب السياسية
على الحكمة والمرونة السياسية كان فى انعقاد ما يدعى مؤتمر الشعوب المظلومة فى
النمسا والمجر فى روما فى أبريل سنة ١٩١٨ ، وقد حضره مندوبون عن المنظمات
التشيكية واليوغوسلافية، وممثلون عن الترانسلفانيين البولنديين والرومانيين (كانت
ترانسلفانيا التى منحت رومانيا معظمها بعد الحرب — إقليم على حدود المجر وتابعة
لها ، وسكانها من أجناس مختلفة) وأقر المؤتمر قيام «جبهة مشتركة» للشعوب المظلومة
مهمتها تقويض الدولة الثنائية وتفتيتها .

ومع أن المؤتمر لم يكن انعقاده رسمياً ، فقد نظمته هيئة مقاومة الهابسبرج فى
الإدارات الحرية السياسية للحلفاء ، وأذيعت قراراتها فى جميع الأنحاء بأمر من
إدارات الدعاية بها (وكان أحد الصحفيين الذى أعان على إقناع الرأى العام فى
بيلاده بأن بلقنة وادى الدانوب كله يخدم قضية الحرية والمدنية، شاب إيطالى نابه
يدعى بنيتو موسولانى أحد الاشتراكيين المتحمسين السابقين وكانت الإعانات
المالية العديدة التى تقاضاها من الهيئة الفرنسية السرية هى التى سهلت تحوله
إلى قضية الحرب لتصبح الدنيا مهداً للديمقراطية . (وهى عملية تدل — فى
ضوء التاريخ اللاحق — على انتصارات الطيبات المزيفات الوضيعات)

ومع أن إمبراطورية الهابسبرج كان مقدراً لها أن تكون من أتس ضحايا
الحرب السياسية التى صحت وأطالت الحرب من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨ ، إلا

أنها لم تكن مخبة بريئة . فقد رأينا من قبل الدولة الثنائية تبدأ حربها السياسية الهجومية في أوكرانيا وفي بولندا الروسية قبل حادث القتل في سراجيفو .

وعندما بدأ إطلاق الرصاص كانت إحدى فرق الحرية البولندية التي أعد النمسيون تسليحها مستعدة للانضمام إلى طليعة الجيش الألماني النمسي الذي يقوم بالهجوم على غاليسيا الروسية .

وكان قائد الفرقة البولندية يوسف بلسودسكي - الذي صار فيما بعد أول رئيس لبولندا المستقلة - لا يقل كفاية في المؤامرات عن قرينه (وعدويه) مازاريك وبنيس ، ولكنه كان يخالفهما في جميع الأمور الأخرى . وهذا الرجل الغامض الضئيل الجسم ذو الرأس الصغير والعينين الخضر اوين الحساستين . كان فيه ما ينم عن أنه فنان وحالم ، ولكن أحلامه كانت أشبه بالأحلام المزعجة التي يراها غيره من الناس . وقد بدأ يشتغل بالدسائس والمؤامرات تقريباً منذ بدأ في التنفس ، ويعد حتى بالقياس إلى مستوى الثوريين الروس - إرهابياً عنيفاً .

وفي أثناء الحرب الروسية اليابانية عمل على الحصول على عون من اليابان القيام بثورة بولندية - وسواء حصل على هذا العون أم لم يحصل عليه فإن ذلك موضع خلاف - وأعماله في قيادة حرب العصابات في أثناء ثورة سنة ١٩٠٥ لم تكن أقل من أعمال ستالين مع جماعته القوقازية . ولكن كل جهود الهيئة الحربية السياسية الألمانية والنمسية في شد أزره وتقويته لتتخذ منه عميلاً لدولتي الوسط تعتمدان عليه ، لم تأت كما كان متوقعاً بأية نتيجة .

وبعد البيان الألماني النمسي الذي اعترف باستقلال بولندا سنة ١٩١٦ ، الذي اقتضى تحرير كل بولندا الروسية ، هدأت حماسة بلسودسكي في محاربة جيوش القيصر ، وأصبح كما يرى من وجهة النظر الألمانية والنمسية حليفاً شرساً . وعلى أساس

كثير من المبررات اتصل بالبولنديين في روسيا وفرنسا . وأخذ يظهر الود للغرب بأسلوبه السرى . وأخيراً تضايق منه الألمان مما دفع لودندورف إلى أن يقوم بسجنه في إحدى القلاع .

ولم يكن بلسودسكى المنعص الوحيد للودندورف في مجال الحرب السياسية ، فإن الأطباء الألمان السحرة بمعونة لودندورف نفسه ، ينبغي أن ينسب إليهم أجد عملية وأفضل عملية في الوقت نفسه في تاريخ الحرب السياسية ، وهى تشجيع الثورة البلشفية ومعوتها .

وعند ما عثر جيش الولايات المتحدة المنتصر في عام ١٩٤٥ على الخبأ الذى كانت فيه وثائق وزارة الخارجية الألمانية ، كان من بينها كثير من الوثائق التى تتعلق بالحرب العالمية الأولى ، والتى يدفع أحلافنا الروس كثيراً لو تمكنوا من الحصول عليها قبل غيرهم .

وكانت إحدى الأوراق التى لها أهمية خاصة مذكرة بتاريخ ٩ من مارس سنة ١٩١٥ فيها برنامج مفصل عن الحرب السياسية الألمانية الموجهة ضد روسيا القيصرية . وفى هذه الورقة الاقتراحات المألوفة من نفس الجسور والدعاية بالهزيمة بين الجنود الروس .

وفىها حث على الاتصال بالمعارضة الاشتراكية ومساعدتهم مادياً ، وكذلك منظمات الأقليات السياسية (ما عدا اليهود الصهيونيين الذين يرى واضع الخطة أنهم عاجزون عن القيام بأى عمل سياسى) . وياقت النظر فى هذه الورقة الوهمية الكبرى تعلقها على العمل مع زعماء المهاجرين من البلاشفة الروس الذين كانوا يعدون فى الغرب فى ذلك الوقت من المنشقين العقائديين المتطرفين .

وكانت التوصية الأولى من بين التوصيات الإحدى عشرة التي تمحورها المذكورة لتنفيذ الخطة ، تنص على « المساعدة المالية لفريق الديمقراطيين الاشتراكيين (البلاشفة) الذين يقاومون الحكومة القيصريّة بكل الوسائل الممكنة » وكان الاتجاه العام للمذكرة عجيب كذلك .

وتتضمن فقرة أخرى هذه العبارة « وهكذا ستدمر جيوش دولنا الوسط والثورة الروسية المركزية السياسة الهائلة التي هي عماد الإمبراطورية القيصريّة ، والتي ستكون خطراً على السلم العالمي ما بقيت ، وستدك قلاع الرجعية السياسية في أوروبا » .

ومثل هذه اللغة غريبة في ورقة رسمية للحكومة الإمبراطورية الألمانية ، التي لم تكن حينذاك حصناً للحرية السياسية أو نصيراً للسلم العالمي . ويبدو أن العقل الذي أعدها واسع المعرفة مقتدر على الإبداع . وليس في هذا شك ، فإن واضع المذكرة كان هو د . اسكندر هلفاند الملقب ببارفوس ، الذي كانت آخر أخباره التي عرفناها أنه كان اليد اليمنى لتروتسكي في سوفيت بطرسبرج سنة ١٩٠٥ . وكان لبارفوس كثير من النقاد ، ولكن أحداً لم ينتقده لنقص في سعة معرفته وأصاليته . وقبل أن نين كيف اتخذت كتابة بارفوس السبيل إلى ملفات وزارة الخارجية الألمانية ، وقبل ذكر ما ترتب على مقترحاته يحسن أن نوجز صورة لهذه الشخصية غير المستقيمة وحياة هذا الممثل القدير .

كان بارفوس يهودياً روسياً ولد سنة ١٨٦٩ ، ودرس في ألمانيا وانضم في وقت باكر إلى الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني . وكان من متطرفي الجناح اليساري الذي يرأسه روزا لكسنبرج ، ومع أنه اشترك في تحرير « إسكر » صحيفة لينين ، إلا أنه ظل بعيداً عن النزاع الذي كان بين البلشفيك والمنشفيك ، الذي شطر

المهاجرين الروس إلى شطرين . وكان أقرب صديق إليه من بين الثوار الروس تروتسكى ، صاحب نظرية استمرار الثورة التي كان بارفوس يؤيدها . وكان تروتسكى من جانبه يقدره تقديراً عظيماً من حيث هو تأثير ومفكر . وفي سنة ١٩٠٤ أقام تروتسكى وزوجته في منزله في ميونيخ وها في طريقهما إلى روسيا . وفي هذا الوقت كتب مقدمة لكتاب ألفه تروتسكى . وتروتسكى يصف صاحبه بأن له رأساً ضخماً سمياً كراس الكلب . وفي هذا الوقت الباكر كانت ملابسه أنيقة ، ترعج أناقته الأوساط الثورية الجادة ، وكان له عيب عجيب منتقد ، وهو أنه كان يريد أن يجمع قدراً كبيراً من المال - من أجل الثورة طبعاً . كان صاحب دار للنشر نجحت أولاً ثم منيت بالخسارة بعد ذلك . ولكنه كان يفكر في مشروع أكثر طموحاً وهو إصدار صحيفة ماركسية كبرى يومية تحرر بلغات ثلاث . وكان لابد له أن يكون واسع الثراء حتى يستطيع أن يقوم بهذا العمل ، ونظراً إلى أن الثورة ليس لها أن تنتظر فلا بد أن يحصل على الثراء بخطى سريعة . وفي ثورة سنة ١٩٠٥ ساعده اهتمامه بالمسائل المالية على القيام بمشروع جريء ، ولكنه صحيح من الناحية الفنية ، يقتضى التصرف في احتياطي الذهب لدى الحكومة القيصرية الذي كاد أن يؤدي إلى تدهور الروبل الروسى . واشترك بارفوس بمعونة تروتسكى في تحرير صحيفة يومية يسارية في سانت بطرسبرج ، وربما أوحى بكثير من الخطط الثورية إلى السوفييت . وكان لديه الوقت في الفترات التي يخلو فيها من الدسائس والمؤامرات للقيام ببعض النشاط الدولى . وعندما قبضت عليه الشرطة أخيراً حيرهم وجود دفتر به خمسون تذكرة لأحد المسارح في جيبه . وظنوا أنه يعد لأحد الاضطرابات . والواقع أنها كانت لدعوة بعض أصحابه لاجتماع برى . وحظى بارفوس بالسجن ثم بالنفى مع تروتسكى ، وأمكنه أن يهرب مثله إلى الغرب . وفي صيف سنة ١٩٠٧ سحب تروتسكى وأسرته في رحلة إلى ساكسونيا .

ويبدو أن اهتمامه بالثورة أخذ يفتري شيئاً فشيئاً بينما قويت لديه الرغبة في الثراء. وترك ألمانيا — بتشجيع من الشرطة الألمانية — واشتغل بالأمور المالية والصحية في البلقان. وعند قيام الحرب كان في القسطنطينية، وقد كاد أن يحقق أحلامه في الغنى بما حصل عليه من تعهدات للجيش الألماني. ولما أغضبه موقف بعض أصدقائه السابقين غير الوطنى من متطرفى الحزب الديمقراطى الاشتراكى الألمانى — عد نفسه ألمانياً — رغم أصله الروسى — فقد انفصل عنهم، وصار أصدقاءه الجناح الأيمن من الحزب. ثم إياه عرض خدماته على السفير الألمانى فى القسطنطينية، وسرعان ما روج الدعاية الانفصالية سراً فى أوكرانيا، وأصدر صحيفة للدعاية الألمانية فى بخارست، كما قام بأعمال أخرى. وأدى نجاحه فى هذه الأعمال إلى اهتمام وزارة الخارجية الألمانية به عندما وصل إليها عن طريق السفارة اقتراحاته بقيام أعمال ثورية هجومية ضد الروس، واستدعى إلى برلين لحضور أحد المؤتمرات. وكانت المذكرة التى جاء ذكرها فيما سبق إحدى نتائج هذا المؤتمر.

وأعقب ذلك أعمال أخرى. فاقسم الخصاص فى الإدارة الأجنبية الألمانية التى كان يرأسه د. ديجورجن (الذى عمل فيما بعد سفيراً لألمانيا لدى النازيكين من قبل جمهورية فيمار وهتلر) لتنسيق العمليات الحربية السياسية ضد روسيا، أعطى يازفوس جواز سفر ألمانيا ومبلغاً مبدئياً من المال مقداره ٢٥٠.٠٠٠ ريال لينفق منه (وما أسرع ما طلب خمسة ملايين ريال)، وتقرر أن يكون مقره فى كوبنهاجن تحت ستار تأسيس معهد للدراسة هناك.

وقبل سفره إلى هناك زار سويسرة وحادث كثيراً من المهاجرين الروس، وكان منهم لينين. وكان يعامله بشيء من الحيطة لأنه — فى رأى البعض — كان يرى فيه منافساً له، ولكنه لم يمتنع عن أن يتعاون معه. بل قد شجع لينين

أحد أصدقائه على قبول العمل بأجر في معهد كوبنهاجن الذى قدمه بارفوس إليه . ومن المصادفات العجيبة أن ظهر أن هذا الصديق هو جا كوب فورستنبرج الملقب بجانتسكى الديمقراطى الاشتراكى البولندى النمساوى ، الذى استطاع أن يحصل قبل الحرب على تصريح من الشرطة ليقم لينين فى غالىسيا . ومن أصدقاء لينين الموثوق بهم والذى عمل معه فى كوبنهاجن ، الصحفي الماركسى المعروف كارل رادك ، وهو من رعايا الإمبراطور فرانسيس جوزيف ، ولكنه مثل فورستنبرج رجل دولى فى ظاهره وبلشئى فى حقيقته . وكل من الرجلين كان يعرف الكثير عن أعمال بارفوس فى روسيا ، وظلا يطالعان لينين على نشاطهما . وكان لينين بوسائل أخرى على اتصال مؤقت بعميل سرى ألمانى فى استكهلم يدعى كسكويلا . وهو مهاجر أستونى وثائر ماركسى سابق . وكان قد أسس شبكة سرية يسارية لا علاقة لها ببارفوس ونشاطه . ومن هنا ندخل إلى لب الجدل الذى ظل قائماً حوالى نصف قرن ، وهو هل كان لينين نفسه « عميلاً » ألمانياً ؟ .

وكان الجدل يدور حول معرفة ما إذا كان صاحباً لينين فورستنبرج وراك يعلمان أنهما بعمليهما مع بارفوس إنما يعملان من أجل القيصر ، وإن كان ذلك كذلك ، فهل يعملان بموافقة لينين . ولم تقم أية دلالة تاريخية لإثبات أحد هذين السؤالين أو نفيه . والدليل المستمد من ملفات وزارة الخارجية الألمانية يقوى الاعتقاد بأن المساعدين النمساويين لبارفوس يعلمان الجهة التى تمده بالمال ، كما يعلمان السبب الذى من أجله تمده بهذا المال الكثير .

وإذا لم يكونا يعلمان فلا بد أنهما يفرضان أن العصفورة هى التى أتت بالمال ، وعلى هذا فقد كان فورستنبرج وراك عميلين ألمانين على نحو ما ، ولكن لم يكن من المحتمل أن يكونا العميلين اللذين يمكن للحكومة الألمانية أن تعتمد عليهما

في إطاعة أوامرها . (وحتى بأفورس وكسكويل وهما أكثر اتصالا وارتباطاً بالألمان ، لم يكونا الآلة المسخرة دائماً في أيدي الألمان) وكانا في صميم شعورهما يعملان لنصرة لينين لا لنصرة القيصر .

وبعد نجاح البلاشفة في روسيا أصبح رادك أحد عملاء السوفييت الكبار الذي حاول إذكاء الثورة بعد الحرب ، بينما خدم فويرستبرج الحكومة السوفيتية بإخلاص في عدة مراكز ذات مسئولية . ومن الجائز أن كلا الرجلين لم يعترفا للينين بأنهما يأخذان المال من الحكومة الألمانية ، وأنهما يعملان بالاشتراك مع الجهاز الحربي السياسي الألماني لخدمة قضية الثورة . ولكن لو لم يكونا صريحين كل الصراحة معه فمن العسير أن نصدق أنه يثق فيهما بالقدر الذي ظهر فيهما من الثقة .

والواقع أن كثرة الأدلة وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية حول علاقة حكومة القيصر والبلشفيك في أثناء النزاع الباكر ، تجعل الجدل حول الدور الذي لعبه لينين جدلاً عقيماً . فإذا ما وافق على التعاون بين بعض مساعديه البارزين وبين أعداء بلاده — وهو ما يبدو محتملاً وإن لم يكن من الأمور المؤكدة — فقد عمل ذلك عن طريق غير مباشر، ولم يجعل للألمان حجة عليه، وهكذا لم يكن عميلاً للألمان بل كان عميلاً حرّاً غير خاضع لهم . ومن جهة أخرى كان الألمان يمدون منظماته السرية في روسيا بالمال عن طريق بارفوس وكسكويل ، سواء أكان يعرف ذلك أم كان يجهله . وكانوا يهربون وسائل الدعاية سرّاً إلى روسيا . كما قدموا للثائرين المؤن والذخائر . وأعطوا لهم مساعدات مالية عن طريق أعمال تجارية متسعة قام بها بارفوس . ولئن أفاد الثوريون الاشتراكيون والبلشفيك وكثير من منظمات الأقليات من المعونات السرية الألمانية، فإن كثيراً منها وصل إلى أيدي البلاشفة . ثم إن الألمان نشروا الدعاية بين أسرى الحرب الروس إلى مدى متسع، وكان

أحد القائمين بها رومان مالنوفسكى أحد زملاء لينين القدامى وأحد العاملين في الأخرانا .

وفي مقابل ما أدته ألمانيا للبلاشفة، فقد قدمواهم للألمان — سواء بعل لينين أم بدون علمه — كثيراً من الأسرار الهامة (وهناك إشارة واضحة إلى هذا العمل في وزارة الخارجية الألمانية) .

وكانت المعونة الصادقة الألمانية لقضية البلاشفة السباح للينين بعد ثورة مارس بالعودة إلى روسيا عن طريق ألمانيا . إذ لم يكن له أى طريق آخر يمكن الإطمئنان إليه غير ذلك . ونشأت الفكرة — كما عرف فيما بعد — لدى المهاجرين البلاشفة في سويسرة ، وقام بالاتصال بالألمان بطريق غير رسمى أحد قادة الاشتراكيين السويسريين ، والحكومة السويسرية . وربما كان هناك اتصال قبل ذلك بين بعض المهاجرين والعملاء الألمان متعلق بهذا الموضوع ، ولكن ليس على هذا أى دليل في ملفات وزارة الخارجية الألمانية .

وجاء أول ذكر رسمى ألماني لهذا الموضوع في البرقية التي أرسلها السفير الألماني في برن في ٢٣ من مارس سنة ١٩١٧ — وبناء على المعلومات التي وصلتته من وزارة الخارجية السويسرية — مينة رغبة قادة الثوار الروسين في سويسرة في العودة إلى وطنهم عن طريق ألمانيا .

ويظهر أن الجانب الروسى والجانب الألماني في بادئ الأمر كانا يقدران كل التقدير ما لهذا العمل من أثر في الحرب السياسية . وكان لينين فعلا على علم بأن ظهور أى تواطؤ مع حكومة القيصر سوف يسقطه من أعين الشعب الروسى،

ويعرضه عند وصوله إلى بلاده إلى المحاكمة للتجسس لصالح العدو . وامتنع عن القيام بأى اتصال مباشر بممثلى الحكومة الألمانية فى سويسرة، وتفاهم على ترتيب الرحلة عن طريق وسيط محايد، هو الاشتراكى السويسرى فرتر بلاتن .

وكان فى تعليقاته إلى بلاتن أن يتمسك بالشروط الآتية: — أن تكون العربى التى يحتاز بها المهاجرون الأرض لألمانية فوق القانون الحلى، وألا يقبل فى العربى من غير المهاجرين ألا من يسمح لهم بلاتن بذلك . وأن يكون ثمن تذكار السفر هو الثمن العادى . وألا يحصل تفتيش على تصريحات السفر عند دخول الأرض الألمانية وعند مغادرتها . وأن يقبل المهاجرون الروس حسنو النية فى هذه الرحلة دون نظر إلى أنهم من أنصار الحرب أو من المعارضين لها . ثم إن بلاتن أصر على ضرورة الاحتفاظ بسرية هذه المسألة، وعلى عدم إشارة الصحف الألمانية إليها حتى لا يتعرض المهاجرون للخطر .

وأظهر الألمان فهما صحيحاً للموضوع، وأبدوا أنهم متعاونون فى جميع هذه النقط، وظهر تقديرهم لضرورة حماية سمعة المسافرين فى كثير من الوثائق التى فى وزارة الخارجية الألمانية، ولم تثر السلطات الحربية أو البوليسية أى اعتراض على حمايتهم، وكان تأكيد هذه الحماية هو الذى يقلقها، وأحيل القرار النهائى للسماح بالرحلة إلى أعلى السلطات الحكومية والحربية فى البلاد بما فى ذلك لودندورف والتمبصر .

ونستدل من إحدى المذكرات التى فى ملفات وزارة الخارجية أن غليوم اهتّم اهتماماً كبيراً بل اعتماداً غير معقول إلى حد ما بهذا الموضوع . ففيها أن « صاحب الجلالة القيصر اقترح اليوم فى أثناء تناوله طعام الإفطار ضرورة إعطاء الاشتراكيين الروس المسافرين عبر البلاد الألمانية الكتب البيضاء وغيرها من الكتب كرسالة

عيد القيامة وخطاب المستشار، وذلك لتتور غيرهم في وطنهم . وفيما لو لم يسمح للمهاجرين بدخول السويد فإن القيادة العليا للجيش ستكون مستعدة لإدخالهم إلى روسيا عن طريق المواصلات الألمانية .

وأخيراً غادرت جماعة لينين ومعهم بلاتن زيورخ في التاسع من أبريل بعد اشتباك قوى وقع بين المعارضين والمؤيدين من المتظاهرين الذي قدموا لوداعهم . وكانوا ٣٢١ منهم ١٩ من البلاشفة بما فيهم لينين ، وثلاثة من المنشفيك اليساريين وستة من جماعة اليهود ، وأربعة غير مشتغلين بالسياسة ، منهم طفل في الرابعة من عمره، وانضم رادك للقطار عند الحدود الألمانية .

ويقول ونستون تشرشل « لقد قتلوا لينين في عربة مقفلة — كجريمة الطاعون — من سويسرا إلى روسيا » . وكما استعمل لفظ الجريمة هنا على سبيل المجاز فقد استعملت العربة المقفلة أيضاً على سبيل المجاز . وكان مرور القطار في ألمانيا غير ملفت للنظر ، وكان للروس عربة خاصة ظلت مقفلة باتفاق الطرفين وكانت تلحق بالقطارات المختلفة في أثناء الرحلة ، وكان معهم بعض الأطعمة، وأمدتهم الألمان بمساعدة بلاتن بشيء من الأغذية ، كما أمدوهم باللبن لغذاء الأطفال ، وجاء في إحدى المحطات ضابط في لباس مدني — وكانت تعليمات القيادة العليا تقضي بأن يكون الضابط من الضباط « ذوي الدراية » — وزار العربة وتحدث مع بلاتن، وأكد له السويسري أن الروس شاكرون للمعونة التي قدمتها لهم الحكومة الألمانية . وعند مدينة فرانكفورت انفصلت العربة عن القطار وتأخر السفر بضع ساعات، وتعطلت كذلك في براين وقتاً طويلاً . وبلغت مدة الرحلة كلها يومين، وقد قضت الليلة الثانية في ساستز وهي ميناء صغيرة على البحر البلطي حيث بقي الروس معزولين فيما أسمته وزارة الخارجية الألمانية المكان الطيب الذي أعد لهم .

ومن ساستز عبرت الجماعة البحر إلى مالو في السويد ، وأعطتهم الحكومة السويدية بناء على طلب الألمان حق الدخول إلى فنلندا . ثم لبثوا مدة في استوكهولم حيث تحدث لينين مع جانتسكى وغيره من البلاشفة المقيمين في السويد ، ورفض مقابلة بارفس مع أنه كان على مقربة منه . ثم حملهم قطار سويدي إلى حدود فنلندا حيث تركهم بلاتن وانتقل المهاجرون في زحافات إلى الأرض الروسية (وفنلندا كانت لا تزال خاضعة للحكم الروسى) ثم ركبوا القطار إلى بتروجراد .

وكان وصول لينين إلى المحطة الفنلندية في بتروجراد في مساء السادس عشر من أبريل . وكان يتوقع القبض عليه . ولكن بدلا من ذلك كان هناك حشد كبير — جزاء ما كان يستمتع به من شهرته بالاستقامة في قيادته الثورية — وجاعة من البلاشفة ترفرف فوقهم أعلام النصر ، وفي أيديهم باقة ضخمة من الزهور لتحية المهاجرين العائدين من المنفى . بل كان في الاستقبال الرئيس المنشفيك شيدز ورئيس اللجنة السرية لتحيته رسمياً باسم سوفيت بتروجراد وباسم الثورة . وفي الخطاب الذى أعده شيدز إعداداً خاصاً للترحيب بهم كد تأكيذاً قوياً لأهمية التعاون التام بين سائر الجماعات الديمقراطية في روسيا والحاجة الملحة إلى تأييد الثورة ضد أعدائها « من الداخل ومن الخارج » ويقول شامد عيان (الكاتب المنشفيكى ومؤرخ الثورة سوخانوف) إن لينين — وهو في قبته المستديرة المصنوعة من الفراء — لم يلاحظ شيدز ورداً على التحية صرف نظره عن المندوبين الرسميين وخاطب الجماهير « أيها الرفاق الأعزاء والجنود ورجال البحرية والعمال .. إنه ليسعدنى أن أحيى في أشخاصكم الثورة الروسية المنتصرة . كما أحيى فيكم طليعة الجيش الجماهيرى العالمى . إن الحرب الاستعمارية التى تقوم على النهب والسلب هى بداية الحرب الأهلية فى أوربا كلها . ومن اليوم ستنهار الرأسمالية .. فلتحيا الثورة الاشتراكية العالمية » وفى خطاب آخر عند مغادرته للمحطة استنكر « المذبحة الإمبريالية الشائنة » .

وفي هذا المجال كان كلامه إعلان الحرب على الحكومة المحلية، ونداء صريحاً لتنظيم الخروج على الحكومة . وكان البلاشفة المحليون الحاضرون — وفيهم كامينوف وستالين — غير راضين ، وكان ممثلو الأحزاب الثورية الأخرى ساخطين . . بل لقد سمع سوكانوف في آخر النهار جندياً يعلن « يجب أن تنفذ حرابنا في مثل هذا الرجل » . ومن وجهة النظر الألمانية سار كل شيء على ما يرام . تقول برقية السفير الألماني في استوكهلم في ١٧ من أبريل « دخول لينين روسيا ناجح إنه يتصرف كما نود تماماً » .

ولو أن المحاربين السياسيين الألمان رأوا النصوص الصحيحة لخطب لينين في محطة فنلندا ، فلربما شاب الإعجاب الذي أبدوه لمهارتهم بعض القلق لما يتوقع حدوثه في المستقبل البعيد .

الفصل السابع عشر

إلى النجاة مرة

كان الحكم الذى أصدره القدر على الأسرة الإمبراطورية الروسية بعد استقالة قولو الثانى من بعض الوجوه حكماً فريداً فى تاريخ الأسرات الملكية المهذومة . فلا القيصر ولا زوجته ماتا ميتة الشهداء فى سبيل الحكم المطلق، ولا هما ماتا ميتة كبش الفداء الرسمى نظير جرائمه . فبعد مدة قضياها فى حبس مؤلم مرهق للأعصاب ذبحا مع أطفالهما لأسباب واهية قضت بها ظروف الثورة القاسية ، التى تذكرنا بأفراغ الغازات السامة فى ألمانيا المحتلة أكثر مما تذكرنا العربات الفرنسية فى القرن الثامن عشر أو مشاتق إنجلترا فى القرن السابع عشر، ولم تكن التجربة القاسية التى حلت بهما إلا حاشية للمأساة الهائلة التى مثلتها الثورة الروسية . ومع ذلك فهذه الحاشية من النوع الذى يلقى ضوءاً قوياً على سائر أجزاء الموضوع العامض . وإذا ما تتبعنا حياة قولو رومانوف الطويلة وأسرته فى ظل الحكومة المؤقتة ، ثم فى ظل البلاشفة إلى نهايتها المؤلمة فى الدار التى فى إيكاترينبرج فإن ذلك نلذكنا بالحقيقة البشرية — الحقيقة البشرية التى تستحق الرثاء غالباً — التى تحمى وراء البريق المعدنى للتصميمات التاريخية التى تمجدها عن الأنظار ، ولكنها تكشف أمام الأنظار فى الوقت نفسه أكثر من أى تحليل صريح بعض النظم الأساسية السياسية أو النفسية التى عطلت تجربة روسيا القصيرة فى الحكم الديمقراطى، ومهدت السبيل إلى قيام نظام استبدادى جديد لا يضعف ولا يلين .

ويبدو أن أحداً لم يفكر تفكيراً جدياً فى أمر مستقبل قولو فى الأيام القليلة التى تلت استقالته . وقد دلت سرعة استعداده للتنازل عن العرش لأخيه — وقد

تخلى في الوقت نفسه عن القيادة العامة للجيش — على إخلاصه في التنازل . وقد تعقد الموقف بعض الشيء من الناحية القانونية بامتناع الدوق ميخائيل مؤقتاً عن قبول العرش، ولكن لم يكن هناك أى دليل على أنه كان لدى نقولا أقل فكرة في استرداد العرش لنفسه أو لولده بعد تنازله (حقاً إن اسكندرا سمعت مرة وهى تتمم « سيغير الشعب رأيه يوماً ما ويدعو ألكسيس وعند ذلك يعود كل شيء إلى مجراه الطبيعي). وعلى النقيض من ذلك تخلى القيصر السابق عن الطريق تأييداً للحكومة المؤقتة . وفي رسالة الوداع التى وجهها للجيش من موجيليف في ٢٠ من مارس سنة ١٩١٧ تبرأ من نظرية الحكم المطلق واعترف بالنظام الجمهورى الذى اخترعته روسيا في انتظار الجمعية التأسيسية . وبما كتبه نقولا « بعد تنازلى عن عرش روسيا بالنسبة لشخصى ولابنى إلى الحكومة المؤقتة القائمة بموافقة البرلمان ، إني أدعو الله أن يعين روسيا على السير في طريق المجد والرخاء » .

ولا شك أن القيصر السابق كتب رسالته الآتية على أمل حث الجيش على الاستمرار في القتال إلى أن يتم له النصر : « إن الذى يفكر في الصالح الآن ، وكل من يسعى إلى الصلح، يخون بلاد آبائه وأجداده » وكانت توصيته الأخيرة بقبول سلطة الحكومة المؤقتة ، مقرونة بالاضطلاع بالدفاع عن « وطننا المجيد و طاعة أولى الأمر منكم » . وسلطة المجالس الأعلى للجيش التى يظهر في ثناياها خشية مجالس السوفييت تظهر في نص الرسالة ، ولكن ليس فيها ما يتعارض مع الثورة من وجهة نظر الحكومة الجديدة . وبينما كانت حماسة كرنسكى للاستمرار في الحرب قاترة في بداية الحرب ، إلا أن أغلبية الوزراء كانوا متحمسين ومصممين على بقاء روسيا محاربة إلى جانب حلفائها كما كان نقولا ومعظم قادة الجيش .

وعندما غادر نقولا موجيليف في الرابع والعشرين من مارس في حراسة ثلاثة رسل أرسلوا من العاصمة ، كان التفاهم قائماً على نحو ما بين الجيش والحكومة

للمؤقتة ، على أن يعيش في عزلة في زار سكوسيلو ، حتى يتم إعداد الترتيب اللازم لسفر الأسرة الإمبراطورية كلها إلى إنجلترا عن طريق مورمانسك . وعندما ركب القطار ، أدت له التحية العسكرية ، ولكن في نفس هذه اللحظة تقريباً ، تقدم الجنرال كورنيوف قائد منطقة بتروجراد من اسكندرا في سارسكوسيلو ، وقال : « يا صاحبة الجلالة . إن واجبي الثقيل في أن أنبئك بقرار الحكومة المؤقتة . وهو أن تعتبرى نفسك مقبوضاً عليك من الآن » ، وأصبح مركز القيصر السابق مؤلماً عند وصوله في اليوم التالي . ففي محطة البلد الصغير نزل من القطار عدد كبير من الحاشية ، أو رجال الحرس الخاص به ، الذين كانوا يراقبونه في موجيليف ، واختفوا وتركوا سيدهم السابق إلى مصيره المحتوم . وعندما قام بتحية الحرس عند باب قصر اسكندر لم يرد عليه التحية أحد .

وكان المسجونون الرسميون أو المحجوزون هم نقولا واسكندرا وابنتهما الكبرى أولجا ، وهى بنت طويلة مليئة الجسم في الثانية والعشرين . وتاتيانا في العشرين ، ومارى في الثامنة عشرة ، وأناستاسيا في السادسة عشرة ، وألكسيس . وفى العهد السابق في الثالثة عشرة ، وكان يميل للرح والعبث . وكان يبدو على نقولا أثر السنين الطويلة ، والأثر الثقيل لما حل به في الأشهر القليلة الماضية . وأخذ شعر رأسه ولحيته يتغير لونه ، كما أخذت التجاعيد العميقة تظهر في وجهه ، وربما كان التغير الذى بدا في وجه اسكندرا التى كانت تتمتع بالجمال الرائع أشد وقعاً . ومع أنها لم تتجاوز حينذاك الخامسة والأربعين ، فقد بدت امرأة ضعيفة مسنة يقعدها المرض الذى أعابها في أرجلها وقلبها .

وكان يشارك الأسرة الإمبراطورية السابقة السجن ، وإن كانوا أحراراً في الخروج إذا رغبوا فيه ، ثلاثة من الحاشية ، الكونت بنشندورف ، والبرنس جلجوركى ومدام ناريشكينيا ، وهى آخر من عمات سيدة ملابس القصر ،

والدكتور بوتكين طبيب الأسرة ، ومربيات البنات ومساعدتهن ومعلم ولى العهد السابق ، ومعلمة اللغة الانجليزية ، وعدد من الخدم الأمناء (وكانت أنا فيروبوفا تعيش فى القصر فى أثناء الثورة فرضت ، بالحصبة التى أخذتها من الأطفال المرضى بها ونقلت إلى السجن بناء على أمر كرنسكى لأنها أعانت اسكندرا على حرق بعض المستندات الهامة . وكانت مسئولية الإشراف والمحافظة على جميع هؤلاء مقسمة بين الكولونيل كورفتشنيكو ، ويعمل مديراً للقصر ، والكولونيل كوييلنسكى رئيس حامية زارسكوسيلو ، وهو ضابط شهم رقيق القلب ذو ميول ملكية .

واتخذ قرار القبض على الأسرة الإمبراطورية السابقة فى العشرين من مارس بناء على طلب كرنسكى ، بوصفه وزيراً للعدل . وكان المظنون فى أول الأمر أنه إجراء مؤقت . وقد أوحى بهذا القرار عوامل متناقضة شأن كثير من أعمال الحكومة المؤقتة . كان أحدها الرغبة الخالصة فى سلامة المالكين السابقين . وكان كرنسكى مصمماً على ألا يعمل ما عمله مارا فى الثورة الفرنسية ، وهو ما أبلغه إلى الاجتماع الذى عقده السوفييت فى بتروجراد ، وطالبوا بإعدام بقولا ، ثم كان الاقتراح الثانى بتقديم الإمبراطور السابق للمحاكمة أمام هيئة محايدة ، وسيلة إلى وقف اندفاع المتطرفين إلى اتخاذ إجراءات سريعة . وهناك ما يحمل على الظن أن الضغط الواقع على الحكومة المؤقتة من اليسار ، كان من الممكن الصمود له ، وأن هناك سبباً آخر لتوقيع أمر القبض الذى تحول إلى حكم بالإعدام على أسرة رومانوف . ويقول كرنسكى فيما بعد : « بينما كان العمال والفلاحون فى مجموعهم لا يعبأون كثيراً بسياسة القيصر الخارجية ، أو سياسة حكومته ، فإن أولى الرأى والطبقة الوسطى ، وبعض كبار الضباط كانوا يرون فى سياسة القيصر الخارجية والداخلية ، وفى دسائس القيصرة بصفة خاصة ، جنوباً وانحماً إلى دفع البلاد إلى الهاوية ، لا لشيء إلا للحصول على صالح منفرد ، والتحالف مع ألمانيا » ، ومن

المشكوك فيه كثيراً، أنه حتى من كانوا يهتمون أسكندر بأنّها عميلة ألمانية، كانوا يعتقدون تفاضياً نقولاً عما قيل من تعويق الجهود الحربية . إنّ التهم الشنيعة التي وجهت للحكام السابقين ، أدت بعض الأغراض من وجهة نظر الحكام الحاليين . فقد ساعدت على أن تبدو الحرب وكأنّها حرب الشعب ، وجعلت استمرارها واجباً ثورياً ووطنياً معاً . بل شارك بعض الملكيين فيا وجهه للإمبراطور السابق من نقد . وفهم الحلقاء الموقف على وجه السرعة . ورغم احتجاج الملك جورج الخامس الشديد — وقد يكون آخر رجل شريف وأول رجل شريف في الدول المتحالفة ، فقد استردت الحكومة البريطانية ما سبق أن عرضته من إيوائها للأسرة الحاكمة السابقة ، وكذلك الحكومة الفرنسية ، وكانت تحت رئاسة كليمنصو ، الوريث الصحيح لتقاليد اليقويين — لم تكن مهتمة بمصير الرجل الذي كان أصدق حليف لبلاده . لم تكن دكتاتوريات الحرب القائمة تزيد التفاهم مع حاكم مطلق سابق يستمد حكمه من الحق الإلهي .

وشكلت لجنة خاصة للتحقيق في بتروجراد في ١٨ من مارس لتتظّر « في المخالفات التي قد يكون الوزراء السابقون وكبار الموظفين ارتكبوها في أثناء قيامهم بمهام وظائفهم » . وقد وسع كرنسكي اختصاصها حتى تشمل التحقيق في تصرفات الإمبراطور والإمبراطورة ، وبخاصة من حيث إخلاصهما للأمة التي يحكمونها ، وتحولت اللجنة من الناحية العملية إلى هيئة تبحث عما عسى أن يكون أساساً لتهمة الخيانة العظمى ضد نقولا واسكندرا . وقام كرنسكي نفسه بعمل المدعى العام في بعض المناسبات ، ووجه لزوجين عدة استجوابات . وكانت اللجنة لا تزال توالي عملها في التحقيق عندما جاء البلاشفة إلى الحكم . وكان كل بحث قامت به اللجنة يدل تماماً على عدم إمكان إثبات التهمة الكبرى ، ومع أن عملها كان

سيهي مادة طبية مؤرخي المستقبل، إلا أنها لم تقم بأى مجهود للكشف عن مسئولية القيصر الشخصية في بعض الجرائم الذي ارتكبها ضد الإنسانية بعض الموظفين باسم القيصر نفسه، واللجنة لم تصدر حكماً ولكنها وقعت العقوبة على نحو ما. فإن تصرفاتها أذاقت بقولا واسكندرا طعم سوء المعاملة التي أذاقتها حكم القيصر للرعية كثيراً، وإلى هنا روعيت العدالة تماماً — عدالة القصص التي تقرر العين بالعين والروح بالروح.

وبحجة منع الاتفاق السري بين الزوجين أصدر ترنسكى أمراً بعدم الجمع بين بقولا واسكندرا إلا في وجبات الطعام، حيث يصرح للأسرة بالاجتماع مع المراقبة الشديدة. على أن يقتصر الحديث على المسائل التافهة (وهذا الأمر ليس عسيراً بين وسط الرومانوف العائلي) وكان لا يسمح بالزيارة لأحد إلا بتصريح من ترنسكى. وكان التنزه في الحديقة مقصوراً على بعض ساعات النهار، وكان بقولا وأولاده يحاطون بمن يلاحظهم كلما خطوا أية خطوة بينما كانت اسكندرا تلازم مقعدها المزود بعجلتين ولا تتأخره عادة. وظل هذا النظام الدقيق سارياً لمدة شهر من الزمان. وبعد أن حقق كرنسكى مع الحكام السابقين ثمانى أو عشر مرات، انتهى إلى أنه من الحماقة اتهامهم بالخيانة العظمى. وكان لقاءهم بهم بارداً في مبدأ الأمر، ثم أخذ يتغير أمام حالة بقولا المحزنة.

وأعاد لهم حرية الحركة داخل القصر، وحاول أن يصرّفهم عن التفكير المرهق في أمر مستقبلهم. وأكد لبقولا أن المفاوضات جارية في أمر التجاؤمهم إلى إنجلترا أو فرنسا. وأن اعتقال الأسرة ليس إلا إجراء مؤقتاً لحمايتهم، وليس هناك مطلقاً ما يدعو للخوف. وقد استبعدت الحكومة المؤقتة بناء على مشورة كرنسكى الحكم بالإعدام.

وسرعان ما توضّح لنقولاً ومن يحيط به أن هذه التأكيدات لا يوثق بها .
 وبينما كان موقف الحكومة المؤقتة من حيرتها في معاملة الحكام السابقين زادت
 معاملة الجنود المكلفين بمجراتهم شدة وقسوة . وحتى صغار الضباط انتهبوا هذه
 الحالة العدائية أو ظنوا أن الواجب يقتضى أن يكونوا كذلك . حدث مرة عند تغيير
 الحرس أن مدّ نقولاً يده كعادته ليصافح الضابط الذى انتهت مدة عمله فأبى أن يمد
 يده إليه ، وعندما سأله القيصر السابق وقد وضع يده على كتف الضابط « لم هذا
 يا صاحبي ؟ » أجاب الضابط وقد رجّح خطوة إلى الوراء : « عندما مد الشعب يده
 إليك لم ترد التحية ، والآن لا أمد يدي إليك » .

ومثل هذه الحوادث تعكس كغيرها أثر الدعاية اليسارية في الجيش ، وهى
 ليست من عمل البلاشفة والحكومة المؤقتة فحسب ، بل عمل السوفييت وهم
 متعاونون في الظاهر مع الحكومة المؤقتة ، بينما يعملون سرا على تقويض نفوذها ،
 وأحياناً دون أى اكتراث بالتزام السرية . وعقب قيام الثورة مباشرة تأسس
 في سارسكو سيلو مجلس السوفييت مثل مجلس بتروجراد ، وميراً على سياسة النفوذ
 الثنائى ألحق بالحرس المحلى ضابط سياسى من قبلهم . واستطاع كوبلتسكى
 أن يبعد هذا الشخص وهو ضابط له ميول ثورية عن القصر ، ولكن لم يستطع
 من منعه إثارة الجنود ، رغبة في إذكاء نار حقدهم على الأسرة الإمبراطورية ،
 إثارة الشك لدى الحكومة المحلية . واتهم الضابط الذى ألحق بالحرس بالحرس
 أسرة روماتوف بالمؤامرة على الجمهورية ، كما اتهم رجال الحكم في بتروجراد
 بالتساهل مع هؤلاء المتآمرين . وعلى هذا فواجب الجنود والعمال في سارسكوسيلو
 أن يضاعفوا نشاطهم ويقظتهم وأن يقبضوا على القانون بأيديهم إذا لزم الحال .
 ولا شك أن هذه الإثارة قد سممت عقول الجنود ضد هؤلاء السجناء ، الذين
 يجرسونهم . وأخذوا ينظرون إلى القيصر السابق وأسرة على أنهم مجرمون
 خطرون وعاملوهم معاملة المجرمين . وأخذ النظام يختل شيئاً فشيئاً ، والحراس الذين

كانوا في أول الأمر موضع الثقة من وجهة نظر الحكومة المؤقتة أخذوا يظهر
دلائل السخط ، ولا شك أنه كانت هناك عوامل تدعو إلى فتور المهمة بين
الجنود الذين كان مقرهم في زارسكوسيلو . وهذه الظاهرة أصبحت فعلا منتشرة
في البلاد كلها في ربيع سنة ١٩١٧ وصيفها . وأخذ الوثائق يضيق حول أعناق
الحكام الجدد في بتروجراد كما كان يضيق حول أعناق الحكام في سارسكوسيلو
ولربما كان علينا عند هذه النقطة أن نقطع الحديث عن أيام الأسرة الإمبراطورية
الأخيرة ، لنلقى نظرة سريعة على الموقف في روسيا في أثناء الأشهر الأولى من الحكم
الديمقراطي .

كان أكثر ما يدعو للألم في العهد الذي أعقب ثورة مارس في روسيا
مباشرة أنه كان عهداً للأمل . ولقد شق عدد من رجال الشرطة وعدد من
الضباط إبان ثورة بتروجراد أو بعدها مباشرة . ولكن الشعب الروسي برهن
على أنه لا يضم أي شعور بالانتقام ممن ظلمه في العهد السابق ، ولم تبق الحكومة
للبلاء حياتهم فحسب ، بل أبت لهم أملاهم كذلك . وكانت حوادث
الحريق العمد والنهب أندر إلى حد بعيد في الريف الروسي منها في أثناء الاضطرابات
الثورية في سنة ١٩٠٥ . وكانت الاضطرابات التي تقصد بها الخروج على النظام
والعبث الإداري عامة — وبخاصة في الجيش — ولكنها قلما كانت مصحوبة
بالعنف . وأساء الروس استخدام الحرية التي عثروا عليها حديثاً بكل الطرق
الممكنة إلا فيما يتصل بالتمتع بها . هذا التمتع جعلهم راضين وسط هذه الفوضى . ولقد
كانت المغالاة في حرية الكلام أخطر ما منحتة الثورة للبلاد . فبعد الرقابة
والتجسس اللذين كانا مفروضين عليها في العهد القيصري ، كان من دواعي
السروور عند كل روسي أن يعبر عن رأيه بكل حرية . واستسلم الروس كلية لهذه المتعة
دون الشعور بأية مسئولية . وكان العهد هو العهد الذهبي للدهاء . وكانت روسيا

الديمقراطية مسرحاً للخطباء . ففي كل مدينة كبيرة كانت جميع المصانع والمكاتب والشوارع منبراً للخطابة والكلام .

وبما لاحظته أحد الزوار الغربيين في بتروجراد في أواخر أبريل أن « الجماهير تبحث في الشوارع لأية مناسبة . فإذا وقف رجل ليتحدث مع رجل آخر انضم إليهما كل من يترجمهما ليستمعوا إليهما، وما أسرع ما تجدد الرجل الأول يلقي خطاباً يشرح فيه مذهبه والمعارضون على خطابه يردون عليه ويفندون كلامه » .

ومن عجب أن البلاشفة ، رغم كثرة من لديهم من المثيرين المديدين بالنسبة إلى غيرهم من الأحزاب الأخرى ، لم ينجحوا في المعارك التي تكون ميادينها في الشوارع والتي تتصارع فيها الآراء والمبادئ ولا تراق فيها الدماء ، وبخاصة إذا كانت الجماهير هي الهدف الأول من المعركة . وكان هدف الفلاح الروسي والعامل الروسي والجندي الروسي في سنة ١٩١٧ لقمة العيش والسلام ، ولكنهم جميعاً لا يرضون بالمذابح الأهلية ولا بالدعاية للهزيمة وسيلة للحصول على أهدافهم . وكان سعى لينين الحثيث للحصول على السلطان ومنهجه في الدكتاتورية الثورية ودعوته للصالح السريع بأى ثمن ، كل ذلك أثار نفوس الروس اليساريين وبعض أتباعه وعندما أعان في يونيو أمام مؤتمر السوفييت الروس أن البلاشفة على استعداد للقبض على أزمة الحكم في أية لحظة، وأن أول عمل يقومون به سيكون شنق خمسين أو مائة من الرأسماليين ، رد عليه ترسكي حاقاً « أنتم أيها البلاشفة . من أنتم ؟ هل أنتم اشتراكيون أم في شرطة العهد الماضي ؟ » . ولم يكن المؤتمر وحده هو الذي همل لهذا التأنيب . بل كان معظم الشعب الروسي .

ومع ذلك فالبلاشفة الذين أثر فيهم لينين بجرأته ودفعهم دفعاً بإرادته ساروا في طريقه دون تردد . وكان كثير من جهودهم — كما في العهد القيصري — موجهاً

إلى التنظيمات السرية وبث الروح الثورية، ولكن كانت أعمالهم في بعض المستويات ظاهرة. ولم يعنوا كثيراً بالمتقنين، وعجزوا عن كسب الجماهير— وحتى بعد حصولهم على الحكم. كان ترتيبهم في الانتخابات الأخيرة الحرة (أو شبه الحرة) بعد الثوريين الاشتراكيين — حزب الفلاحين القديم — ولكنهم نجحوا أكثر من أى حزب آخر في أن ضموا إليهم ما يسمى العمود الفقري لكل ثورة — الجنود والعمال الذين يؤقون أقوى دعامة الانقلاب والثورة.

والكسب الجديد الذى حصل عليه لينين، كان تروتسكى الذى وصل من أمريكا في مايو وانضم رسمياً إلى البلاشفة في يوليو. وكان له اسم مدوى في دوائر الثورة الروسية بسبب الدور الذى قام به في ثورة ١٩٠٥، وهو الآن وهو في الثانية والثلاثين في أوج قوته الثورية، وتروتسكى بعينه القاتمتين البراقبتين وراء منظاره، وخصلة شعره النافرة التى تخالها تقذف في سكونها بالشرر الكهربى وشواربه الكثنة التى تملأ الإنسان رهبة — كان المنافس الوحيد لكرنسكى — أو المتفوق الوحيد عليه كخطيب الجماهير. وأهم من ذلك من وجهة نظر البلاشفة أنه من رجال المؤامرات المحسكين، ومن منظمى الثورات المقتدرين، وهو وعبرى في وضع التنظيمات والخطط في الحرب الثورية. وبينما كان لينين يمثل قوة الدفع التى لا تقهر لدى البلاشفة، والقلب النابض بينهم، كان تروتسكى هو الذى يصنع النصر. إنها لشركة هائلة — روبسيير مع نابليون — ولا شك في أن نظام يهدده مثل هذا المزيج المريع من الكفايات القتالة يكون مهموماً، وربما لم تحظ أية حركة ثورية في التاريخ بما حظيت به ثورة البلاشفة في سنة ١٩١٧ من قيادة ممتازة ناجحة في أسنى المستويات. ولا شك أنها كانت أحد أسباب نصرهم النهائى — ولكنها لم تكن السبب الوحيد -

جاء في مذكرات السير بروس لوكهارت أن اللورد بيغز بروك الناشر البريطاني سأل كرنسكى مرة عندما قدمه سير بروس لوكهارت إليه في أحد نوادى لندن « هل كنتم تتغلبون على البلاشفة لو وقعتم صلحاً منفرداً ؟ » وكان رد كرنسكى « لا شك في ذلك ويجب أن نكون في موسكو الآن » .

وكان المجال يسمح بشيء من الشك بسبب المعارضة التى واجهها كرنسكى، والضعف الملائم لازدواج نظام الحكم فى روسيا الذى ساعد على بنائه . وفضلاً عن ذلك فقد أضعاف كرنسكى آمال الروس فى مستقبل ديمقراطى لفشله فى الوصول إلى حل واضح لمشكلتين من أعمق مشكلات البلاد . إحداها تعطش الفلاحين الشديد لامتلاك الأرض ، الذى استغله اليساريون بأن أخذوا يطالبون بالإسراع فى توزيع المزارع الخاصة . والثانية أمانى الشعوب التى كانت فى الإمبراطورية الروسية من بولنديين وفنلنديين وأوكرانيين وشعوب البحر البلطى ، والأقليات من الأجناس الأخرى . وكل هذه الشعوب المضطهدة أخذت تتحرك بعد ثورة مارس ، ولو وضعت خطة لنظام فيدرالى قوى لهذه الشعوب تخففت من حدة نزعتها الانفصالية ولكانت عاملاً على كسب طبقاتها الوسطى حلفاء للديمقراطية الروسية ضد تهديد البلاشفة . ولكن بدلاً من ذلك حدث ما ذكره المؤرخ الألمانى جورج فون روك إذ يقول « بقيت الحكومة المؤقتة كما كانت من قبل ، أسيرة للتفكير المركزى الضيق القومى لحكم القيصر المنصرم » وزاد تباعد الأقليات .

ولا شك أن الحكومة المؤقتة بمحاولتها استمرار الحرب أضعفت الفرصة البسيطة التى كانت أمامها فى البقاء . ويدل جورج كنان بالحجج القوية على أن الصلح العام هو الملجأ الوحيد الذى كان فى إمكانه حماية الحكم الديمقراطى فى روسيا .

ثم إن الرئيس ولسن الذى كان يدعو فى خطابه الذى ألقاه فى الثانى من أبريل سنة ١٩١٧ إلى إعلان الحرب على دول الوسط ، وحيا الأمور المدهشة الجريئة التى حدثت فى الأسابيع الأخيرة فى روسيا، لم يخط أية خطوة نحو السلام — بل فعل العكس — وكان شأنه شأن جميع قواد الحلفاء، وبدلاً من ذلك طلبوا من الروس الاستمرار فى الحرب إلى بلوغ النصر . وعندما وعد مليوكوف فى أوائل مايو أن روسيا ستلتزم بهذه السياسة — وكان الوعد الذى تقيد به قد سجله فى مذكرة بعث بها إلى الحلفاء — أثار بعمله هذا أول أزمة سياسية فى العهد الحديث .

وهددت الجيوش الفنلندية بالعصيان، وقامت الاضطرابات فى العاصمة، ولتهديد النفوس استقال مليوكوف وجوشكوف ، وأدخل البرنس لقوف عدداً من الاشتراكيين المعتدلين فى الوزارة، وصار كرنسكى وزيراً للحربية .

ولم يكن الإنذار كافياً ، فالحلفاء لم يضغطوا على الحكومة المؤقتة للبقاء فى الحرب فحسب — وهذا وزير الدولة إليهوروت يبلغ الروس فى صراحة وإيجاز « إن لم تحاربوا فلا قروض » ، وذلك عندما وصل على رأس بعثة أمريكية فى يونية — بل أخذوا يلحون فى وجوب قيام الجيوش الروسية المنهكة بالقوة بالمعجوم .

ورغم شكوك كرنسكى من قبل استجاب على وجه السرعة وبمجانسة بالغة لهذا المطلب الانتحارى . وطاف بالجنادى فى لباس الفلاحين وقبعة الجنود وأخذ يتحدث إلى الجيوش . واستبدل بالجنرال ألكسيف القائد العام مع الجنرال بروسيلوف أعظم القواد الروس وأشهرهم ميلاً للاشتراكية . وأخذ يعمل على إقناع السوفيت الحريين بالتعاون مع هيئة الضباط فى إعادة النظام . وفى الجبهة الداخلية بدأ حملة قوية ضد دعاة المزممة، ثم إن اللجنة التنفيذية لسوفيت بتروجراد تعاونت وأذاعت

نداء إلى الجنود بأنهم الآن لا يحاربون من أجل القيصر ، ولا من أجل بروتوبوف أو راسبوتين أو الأغنياء ، ولكنهم يحاربون من أجل حرية روسيا ومن أجل الثورة .

وكانت استجابة الجيش لذلك عجيبة . وفي ليلة واحدة بدا كأنه عاد من جديد قوة محاربة فعالة . وفي أول يوليو بعد أن قضت المدفعية يومين في الاستعداد، تقدمت ٣١ كتيبة من بين الخنادق عند جبهة غاليسيا واندفعت نحو العدو في حماسها المعهودة، وتقدموا تقدماً طيباً خلال يومين ، ثم هدأ الهجوم . وعندما أصبح جنود الصاعقة الروس وكذلك الجنود الاحتياطيون منهوكي القوى ، قام الألمان بهجوم مدمر ، وانهارت الجبهة الروسية . وقع هذا عندما أخذ الجندي الروسي يستعمل حقه الانتخابي بقدمه كما عبر عن ذلك لينين فيما بعد .

وفي اليوم الذي بدأ الهجوم الألماني المضاد قامت ثورة يسارية ضد الحكومة المؤقتة في بتروجراد، وكان في مقدمتها بحارة فوضيون من قاعدة كرونستاد البحرية ، يؤيدهم سراً — وربما يحرضهم — البلاشفة . ولبت الشك يحوم حول النتيجة بعض الوقت ، ثم جمعت الحكومة قوة كافية من القوزاق وغيرهم من الجنود الموالين وقضت على العصيان بعد مطاردة استمرت ثلاثة أيام في الشوارع ، واختبأ لينين ثم هرب أخيراً إلى فنلندا . أما تروتسكى وعدة من قادة البلاشفة الذين لم يرتضوا ما في الحرب من ضعة فقد سجنوا ، وأغلقت مراكز رئاسة البلاشفة في قصر الراقص كرزنسكايا ، كما أغلقت برافدا صحيفة الحزب .

وهذا الفشل الذي منى به اليساريون في يوليو أنقذ إلى حين الحكومة المؤقتة من نتائج الكارثة التي أصابت الجبهة الحربية ، وجاء بكرتسكى

إلى رئاسة الحكومة ، محل البرنس لقوف في ٢٠ من يوليو وقضى دور البلاشفة في الاضطرابات على ما قد كان يعتقد كرتسكى من أن لينين وتروتسكى ورفقاءها قادة اشتراكيون «معتدلون» ، وربما أكثر تطرفاً بعض الشيء من غيرهم ولقد تحقق كرتسكى من أن البلاشفة كانوا من المتأمرين الخطرين الذين لا سبيل إلى إصلاحهم - والأدلة التي جمعتها إدارة الجاسوسية الحربية على أن لينين كان عميلاً ألمانياً مأجوراً أعبت دوراً هاماً فيما اكتسبه كرتسكى من الخبرة السياسية ، واستغل كفايته الممتازة في العناية ضد البلاشفة ، واتخذ الأدلة غير المؤكدة أساساً لحملة قاسية من الطعن في البلاشفة . من بين التهم التي وجهها إليهم - بأنهم أثاروا عمداً ثورة يوليو يوحى من الألمان لتقوية الهجوم المضاد على جبهة الحرب في غاليسيا ، والأدلة التي حصل عليها كرتسكى سنة ١٩١٧ ولو أنها قريبة من الصدق لم تكن أدلة صادقة ، لقد دفعته إلى الخط من شأن خصومه - فلو كان زعماء البلاشفة عملاء لدى الألمان ومن المغامرين لمجرد كسب المال لما كانوا من الخطورة في المنزل التي وصلوا إليها فيما بعد ، وهذا يفسر كيف أن الحملة التي عملت على تشويه سمعة الحزب بعد أن أثارت زوبعة من السخط عليه هدأت ولم تعد تهم الشعب الروسي (١) .

(١) زاد الألمان معونتهم المالية للبلاشفة بعد ثورة مارس ولكنهم لم يكونوا في حاجة إلى أي أوامر تأتيهم من الخارج لناواة الحكومة المؤقتة ، والبرقية التي أرسلت من وزارة الخارجية الألمانية إلى مركز رئاسة الجيش تضع الأمر في نصابه . « يبدو أن روسيا أضفت حلقة في سلسلة الأعداء والمصلحة تقضى لإضعافها أو إلزائها إن أمكن ، وهذا هو هدف النشاط السري الذي نريد تنفيذه في روسيا ، والذي يقضى تقوية السياسة الانفصالية ومساعدة البلاشفة ، ولم يكن البلاشفة بقادرين على إصدار صحيفتهم إلا بالمعونة التي يحصلون عليها منا ، وقد صاروا الآن هم أصحاب الساطة في روسيا » ثم إن البرقية بعد ذلك تدعو إلى استمرار المعونة على أساس أن مصلحة الألمان بقاء الباشفيك في الحكم ، ولا يمكن أن يقال إن هناك تأثيراً عليهم ، لكن الذي يقال إن معونة ألمانيا المالية لهم ساعدت على فوزهم .

وما إن حل منتصف أغسطس حتى كان البلاشفة قد استردوا خسائرهم السياسية التي خسرها في يوليو ، رغم أن زعماءهم كانوا لا يزالون في المنفى أو مقبوضاً عليهم . والتاريخ في كثير من الأحيان سريع المغفرة لمن كان كبير الإقدام ، وعادت الاضطرابات في المصانع وبين صفوف الجيش المنحل . ومجلس السوفييت في بتروجراد - الذي كان في أول الأمر يظهر تأله لظلم البلاشفة - أخذ يبتعد عن الحكومة مرة أخرى ، وفي الوقت نفسه أخذت العناصر المحافظة في روسيا التي هالبت لسياسة كرنسكى في قمع نشاط البلاشفة تفقد الثقة فيه كخص يعتمد عليه ضد الثورة ، وأخذت الأرض تهتز تحت أقدام كرنسكى . ورغبة منه في وقف الكارثة ، قام بحملة إجراءات ملتوية مأكرة - ولعلها وحشية - على مسرح الأحداث السياسية التي عجلت بوقوعها ، وكان أحد البؤساء الذين لحقهم سوء الحظ هو القيصر السابق .

وقد اطمأن أفراد أسرة رومانوف ككثير من رجال العهد السابق للحالة التي كانت عليها البلاد في شهر يوليو ، واستردوا الثقة في قدرة الحكومة المؤقتة على إقناذ روسيا من المأساة . ومما كتبه قولاً عندما سمع بالمعارك التي حدثت في شوارع بتروجراد « يا لها من فوضى ، ومن حسن الحظ ظل الجنود مواليين للحكومة واستتب النظام » .

وكان جنود قلعة تسارسكوسيلو بمن بقوا مواليين للحكومة ، ولكن ولاءهم كان ككل شيء في روسيا مؤقتاً ، فمالبت أن تبدل ، وكان السجناء في القصر يعرفون سوء الظروف السياسية من شدة قسوة الحراس ، وفي نفس الوقت كانت مجالس السوفييت في تسارسكوسيلو وفي بتروجراد توجه النقد للحكومة لتدليلها الأسرة الإمبراطورية السابقة .

وكان القرار بنقل القيصر السابق وأسرته بعيداً عن منطقة العاصمة قبل

اضطرابات يوليو، وأخبر به قولاً، ولم يدهشه أو يقلقه ما أنبأه به كرنسكى فى أغسطس من وجوب تنفيذ القرار دون أى تأخير جديد، وقد سحب الانتقال الذى تم فى الصباح الباكر من ١٤ من أغسطس شىء من الصخب. فقد كان الحرس ناقلين للسلاح للمسجونين بأن يأخذوا من متاعهم ما يشتهون، ولأنهم كانوا لا يودون أن يتركوا السجن مطلقاً. فقد كان المنطق يقضى فى رأيهم « بأن يحاكموا فى السجن لا فى بتروجراد، إذ لا أمل فى هربهم هنا، وعلى كل حال كان الأفضل أن يتم كل شىء دون أية محاكمة ». واستعمل كرنسكى كل وسائل الإقناع حتى أمكنه أن ينقل الأسرة وحاشيتها فى أمان إلى القطار الخاص الذى كان معداً لهم، وخاطب فى صرامة حرس القطار قائلاً « اذكروا أن الإنسان لا يضرب الخصم الميت ».

وكان اعتقاد أسرة رومانوف إلى آخر لحظة أنهم فى طريقهم إلى ضيعتهم فى القرم. ويقال إن قولاً لم يعرف - حتى غادر القطار تسارسكوسيلوا - أن وجهته توبلسك فى غرب سيبيريا، واختيار هذا المكان الريفى السحيق - وهو ليس على الخط الحديدى إلى فلاديفستك وآخر جزء فى الرحلة يقتضى ركوب باخرة نهريّة - يدل على تعقد الظروف السياسية فى روسيا وتعقد أخلاق كرنسكى.

وقد يكون آمن للأسرة أن تكون فى الجنوب حيث يسود بعض الملكيين أو على الأقل بعض المحافظين، ولكن الرحلة بالقطار قد تستدعى حرصاً قوياً، وإرسال هذا الحرس قد يحدث أزمة سياسية، وتوبلسك فى الواقع لم تلفحها رياح الثورة التى اجتاحت روسيا الأوربية، فبى آمن للأسرة وستكون بعيدة عن أعين سواد الشعب. وقد يكون من الممكن نقلهم يوماً ما إلى اليابان، وتوبلسك إحدى مدن سيبيريا التى بنى إليها عادة السياسيون وغيرهم من ذوى الجرائم، وهى معروفة بأن فيها

سجناً ومنجم ملح ، ولا يستطيع أحد أن يتهم كرنسكى بعدم الولاء للثورة
يارسال أسيرة رومانوف إلى سيريا ، بل فيها الدليل على أنه الابن الباريا لثورة ،
وأنه صادق الولاء لحزب اليسار .

وكان هذا الدليل مفيد من وجهة نظر كرنسكى لأنه كان يقترب في ذلك
الوقت من اليمين ، وقد وافق على إعادة عقوبة الإعدام في الجيش ، وعين الجنرال
كورنيوف وهو إدارى حازم قائداً عاماً للجيش .

وربما كان قتل الأسرة الإمبراطورية إلى هذا المنفى إجراءً ماهراً . ولكن
مهارة الإجراء ليست أهم ما يتطلبه موقف كرنسكى . وكان هم كرنسكى أن يحظى
بثقة واحترام العناصر الحكومية العديدة من اليمين واليسار ، وهى لا تنحجم عن
السير وراءه وقبول سياسته إذا وثقت أنه يعرف الطريق الذى يسير فيه . ولم
يطمئن أحد لخفة يده التى قتل بها أسيرة رومانوف إلى توباسك ، بل لعل مهارته
زادت ما لدى الروس من عدم الثقة به . ومن الجائز أن تصرفه في هذا الموضوع
كان في ذاته عاملاً هاماً فيما نشأ بينه وبين الجنرال كورنيوف من سوء التفاهم .
وقد كان على كل حال دليلاً على تخاذله وعدم إخلاصه ، مما أدى إلى القطيعة التامة
بين الرجلين .

ولم يكن كرنسكى بطبيعة الحال هو وحده المسئول عما حدث . فقد كان
كورنيوف يعوزه النضج السياسى ، فضلاً عن أنه كان عجولاً شديد الطموح ،
وكلها عوامل لها نصيب فيما حدث ، وكذلك الدسائس أو الضغوط التى قام بها
حلفاء روسيا : فبينما كان الملحقان الإنجليزى والفرنسى يدفعان كورنيوف ، كانت
سفارة الولايات المتحدة تحضه على عدم الإذعان لمطالبهما . لقد كان الرجلان في
أول الأمر متفقين ، أو ظنا أنهما على اتفاق على الحاجة إلى اليد القوية في الجيش

وفي الحكومة على السواء ، ثم بدأ كورنيوف يشعر بأن كرنسكى يحاول التخلص من الاتفاق الذى بينهما ، بينما أخذ كرنسكى ينظر إلى كورنيوف كمنافس قوى ، وعامل خطير يهدد الديمقراطية الروسية . وزاد من هذه المخاوف التأييد الصارخ الذى جاءه من اليمين ، والذى سرعان ما عرف « بالكورنيوفية » . وكورنيوف ابن رجل من قوزاق سيبيريا ، لم يكن ملكياً ، ولكنه كان يؤمن بأنه لا ينقذ الأمة من القوضى إلا نوع من الحكم يكون أشد بأساً من الحكومة المؤقتة . وكان فعلاً يستعد للقيام بانقلاب حربى ضد مجلس سوفيت بتروجراد ومؤيديه اليساريين . وأوهم كرنسكى صاحبه المشاكس أنه يوافق على ما اعتزم القيام به ، ولكنه قد لا يكون لديه إلمام تام بمداه الكامل . وكانت المسألة كلها مبنية على تبادل انعدام الثقة بين الرجلين ، مما أدى إلى أن كلا منهما كان يعمل من وراء الآخر ، وبذلك زاد سوء ظن الواحد منهما فى الآخر . وأخيراً عندما زحف كورنيوف بفرقه فى ٩ من سبتمبر على بتروجراد أوقعه كرنسكى فى بعض الاتهامات وأقاله من عمله :

وكان رد كورنيوف على ذلك إصدار بيان ضد الحكومة المؤقتة ، وأمر إلى الفرسان بقيادة كريموف أن تحتل العاصمة ، فاستنجد كرنسكى بسوفيت بتروجراد ودعا العمال إلى حمل السلاح . وحرص تروتسكى البلاشفة — وهو فى سجنه — على الالتفاف حول الحكومة ، وهكذا ظهرت جبهة غير رسمية من الأهالى ، وأخذ أتباع لينين الأسلحة التى ألقيت إليهم بلهفة عظيمة . ويبدو أن أتباع كورنيوف لم يكونوا يتوقعون المقاومة الجهادية ، ثم إن خطر الحرب الأهلية أوهن من عزيمتهم ، فاستسلم الجنرال كريموف دون مقاومة ، ثم قضى على نفسه بالانتحار ، وقبض على كورنيوف وأركان حربه دون مقاومة كذلك .

وكانت هذه نهاية المحاولة الثورية ، كما كانت بطبيعة الحال خاتمة لموقف كرنسكى.

العدائي من البلاشفة . الذين كانوا يجمعون منذ يوليو الماضي بين أكثر العناصر اليسارية مسئولية ، وبين أكثر العناصر اليمينية ذكاء . وأطلق صراح تروتسكى ومعظم من كان مسجوناً من قادة البلاشفة ، وأعلن كرنسكى الجمهورية محتفظاً لنفسه بمركز رئاسة الجمهورية ، والقيادة العليا للقوات المسلحة ، وأقام حكومة جديدة فيها كثير من اليساريين ، ومنهم وزير الحربية الجديد الجنرال فركوفسكى الذى كان ملحقاً عسكرياً فى بلغراد عند وقوع حادث سراجيفو ، واعتمدت فى تأييدها السياسى على العناصر الساذجة من اليساريين غير الشيوعيين . من المنشفيك والثوريين الاجتماعيين ، وبعض المنشقين المتحالفين .

ولقد كانت ثورة كورنيلوف حدثاً يجمع بين الغرابة والمهلك فى التاريخ الروسى ، وكان هذا القائد الضئيل ذو العينين المغوليتين ، والقم البجامد يتصرف إذا حزب الأمر ، كما يتصرف كرنسكى . وكان هذا المحامى الاشتراكى السابق الذى أصبح اسمه شعاراً للحرية الضعيفة الرخوة يقوم بدور ينطوى على الميوعة والاستهتار . وكان انتقاله من حليف اليمين المعتدل فى سرعة البرق إلى اليسار المعتدل مجرد خفة يد ، بل كان أشبه بالألعاب البهلوانية الخطيرة ، واللعب على العقلة العالية دون أى وقاية تقيه من أثر السقوط ، ولم يكن مرجح هذه الأعمال الانتحارية إلى القنوط وإعما إلى الإفراط فى الثقة . وكان كرنسكى يعتقد أنه متى فرغ من القضاء على حركة كورنيلوف التى سبق أن شجعها يكون قد انتصر انتصاراً عظيماً على اليمينيين واليساريين جميعاً . وبينما كان لا يثق كل الثقة فى إخلاص البلاشفة من حيث إنهم ثوريون ، كان على علم تام بأنه لا يمكن الاطمئنان إليهم من حيث إنهم حلفاء . وكان كل اعتماده على مهارته وقدرته على التفوق عليهم . وعلى قدر ما أثرت العوامل الأيديولوجية فى أخطائه الحربية ، كان فشله الذى يتجلى عادة فى عجز العقل الأدبى عن فهم الوسط الاجتماعى الذى يعمل فيه . وكان كرنسكى

يظن أنه هو منقذ الديمقراطية ، كما كان يفترض أن رأى العام الديمقراطي في صفه . وإذا كان على حق — وهو أمر مشكوك فيه — فهو رأى غير مسلح وغير منظم ، ومن النوع الذى لا يفوز فى أى انتخاب ، فضلاً عن الثورة . وكان الأحرار الروس مستعدين للتنازى عن التفاصيل ، لا لأن الحرية والواقعية أمران متعارضان ، بل لأن التعليم الذى تلقته الطبقة الروسية الراقية القديمة ، والذى غذى الأنماط الخخانة من الحرية لم يبال كثيراً بالواقع الاجتماعى والسياسى الحديث .

وهناك عامل — أقوى بكثير من غيره — يساعد على توضيح عجز معظم القيادات الروسية المعارضة للبلاشفة — سواء أكانت من الأحرار أم من المحافظين — وبخاصة ضعف الخلق الذى كان أهم صفة مشتركة فيها . وهو أن الحكومة المؤقتة — رغم أنها إلى حد ما — ملأت الفراغ الذى نتج عن انهيار الحكم المطلق ، إلا أنها عجزت عن أن توحى بالهبة اللازمة لسلطان الحكم . إذ أن اختفاء القيصر المفاجئ — وكان يمثل الأبهة العميقة — ترك الشعب الروسى ، وبخاصة الطبقة الحاكمة منه بلا قيادة ، ولم يكن الشعور بهذا النقص وليد العاطفة ، بل كان شعوراً مستمداً من واقع الحياة . وكانت روسيا القديمة أشد مجتمعات العالم الحديث بيروقراطية ، وأعظمها تدرجاً فيها فى الرتب ، وحتى مراتب الشرف فيها كان مرجعها إلى الألقاب التى نالها أصحابها فى أثناء الخدمة العامة . وكانت عملية إصدار القرارات فى روسيا تجرى من الموظف الكبير إلى الموظف الصغير ، وكان التنسيق — حينما يكون — يأتى من السلطة العليا . وكانت القطارات تسير فى مواعيدها — إذا قدر لها ذلك باسم القيصر ، فلا بد إذن من إرادة قوية مستبدة تحمل محل الإرادة السابقة المستبدة . ويبدو أنه لم يكن لأحد مثل له هذه الإرادة المستبدة غير لينين ، وأما خصومه وقد انقطع ما بينهم وبين أية سلطة مركزية يحترمونها ، مع عدم تعودهم على المبادأة ، وخوفهم من تحمل المسؤولية ، وافتقارهم إلى التعاون الذى

— ٤٩٥ —

نراه لدى جميع الشعوب الغربية ، فلم يستطيعوا أن يعملوا معاً أو حتى يتفقوا . وكانوا أحياناً يترددون وينكشون . وأحياناً يندفعون إلى العمل دون تردد في غير الوقت المناسب ، وفي بعض المناسبات كانوا يضحون بحياتهم في قضايا خاسرة ، وفي مناسبات أخرى كانوا يستسلمون إذا عرض لهم أقل الأخطار وأبسط الصعاب . وكانوا يتنازعون فيما بينهم لأوهى الأسباب ، وفي الظروف النادرة التي كانوا يتفقون فيها على هدف معين لم يكن في استطاعتهم بذل الجهود لتحقيقه ، وكان يبدو أن أنصار القيصر — بعد تنازله عن العرش — أصبحوا لا يستطيعون حتى ضبط مواعيد العمل حسب الساعات المحددة .

إن القشل الجماعي الذي منيت به الصفوة المختارة من الروس لمواجهة تحدي الثورة — كما في ثورة كورنيوف الفاشلة وغيرها — يدل على قصور تديبيرهم على القيادة ، كما يدل أيضاً على أن المجتمع الروسي — لا الحكومة الروسية وحدها أصبح منهاراً ، وهذا يصدق في توبلسك رغم مظاهر الهدوء الوقتي فيها ، كما يصدق في بتروجراد وفي الجبهة الغربية .

وجرت الحياة لفترة وجيزة في سهولة ويسر لآل درومانوف في توبلسك أكثر مما كانت في تسارسكوسيلو ، وأعدت لهم دار الحاكم السابق للمنطقة مسكناً مريحاً بل فاخراً ، وكان معهم من الحاشية والخدم حوالي أربعين شخصاً ، وكانت الأغذية لديهم كافية . ولئن انقطع نقولاً عن نزواته الطويلة في تسارسكوسيلو فقد أخذ ينشر الأخشاب طلباً للرياضة . إلا أن الأسرة لم تحس بضيق أكثر من ذي قبل إذ سمح لها بالذهاب إلى الكنيسة في البلد مرة كل يوم ، وكانت الكنيسة مباحة للمواطنين ، وكان سكان المدينة لا يخشون الحرس الذي كان يرافق الأسرة ، وكانوا يحيون حكاهم السابقين باحترام كلما شاهدوهم . ولقد جعل جو المدينة

الريح ، والذي لم يكن متأثراً بروح الثورة ، الجنود أنفسهم أكثر تأدباً في معاملة مسجونهم ، وكان الحرس الآن تحت قيادة الكولونيل كوبانسكى وحده ، الذى لم تبدل مشاعره الملكية — وكان الحرس هو الهيئة العسكرية الوحيدة فى المنطقة ، ولهذا كان النظام بطبيعة الحال حسناً .

وجاء أول إنذار بالخطر المحدث — من وجهة نظر المنفيين الملكيين — وهو قدوم مندوبين سياسيين إلى توبلسك فى ، سبتمبر أرسلهما كرفسكى لمراقبتهم ، وهذه الميمة فيها دلالة على زيادة نفوذ اليساريين على الحكومة المؤقتة بعد ثورة كورنيوف ، وكلا المندوبين كانا من الثوريين الاشتراكيين ذوى العقائد المتطرفة ، وكلاهما خدما فى سيبيريا أيام الحكم المطلق . ومع أن المبعوث الأول ، وهو من الثوريين المثاليين من الطراز القديم ، كان يعامل أعداءه المقيهورين بحنان ظاهر ، إلا أن وجود مبعوثين زاد من برودة الجو الذى كان معتدلاً إلى هذا الوقت فى سيبيريا ، ولم يكونا فى نظر أسرة رومانوف وبخاصة فى نظر اسكندر أفضل من البلاشفة ، وكان كوبانسكى أبعد نظراً ، ولكنه كان يلوم المندوبين لإفسادها النظام ، والولاء بين رجال الحرس نتيجة لتوجيهاتها ، ولا شك أن موقف الجنود قد تغير من منتصف سبتمبر ، ولكن قد يكون ذلك منبعثاً من فقد الثقة فى حكم كرنسكى ، وربما كان لذلك سبب آخر هو عجز الحكومة عن الوفاء بوعدها بزيادة الأجور أكثر مما هو راجع إلى عوامل أيديولوجية .

وفى نوفمبر وصلت الأنباء إلى غرب سيبيريا بنجاح حركة البلاشفة فى العاصمة ، وعم الحزن والتلق كثير من الدوائر ، وحتى فى محيط الفيصر السابق لم يكن لها الأثر البائل الذى كان ينتظر « عشرة الأيام التى هزت العالم » (والعبارة عنوان أول تقرير من جون ريد عن ثورة نوفمبر فى بتروجراد) لم تهز توبلسك فى أول الأمر . إن لهذا الهدوء النسبي أسباباً شائعة .

السبب الأول أن أتباع لينين لم يبعثوا في ذلك الوقت الإعجاب أو الكراهية أو الرعب الذى بعثوه فى النفس فيما بعد إذا كانوا شيوعيين . فقد كان كل الماركسيين نظرياً كذلك ، وكانوا أيضاً متعجلين الوصول إلى منتهى أهدافهم ، ولهذا لم يجمعوا عن اتباع الوسائل المتطرفة ، ولكن كان فى روسيا من هم أكثر تطرفاً منهم كالقوضويين وبعض الثوريين الاشتراكيين اليساريين . ولم تكن قد ظهرت بعد الصورة المنحرفة الساخرة التى كانت للبشفية فى عهد ستالين . وكل ما كان فى فكر ستالين أو مسلكه من المبادئ التى كانت تشير إلى الأحداث المريعة القادمة ، لم يقدرها خصومه . وفى نظر كل جميع الروس الرجعيين كالقيصر ، كان كل الثوريين بما فيهم الثوريون الديمقراطيون سفاحين ، وكانوا مكروهين إلا من حيث اعترافهم بضرورة الحرب من أجل روسيا وطنهم . ومع أن نقولا نفسه كثيراً ما نظر إلى روسيا على أنها ضيعة أسرته الخاصة إلا أنه كان فى قرارة نفسه قومياً وطنياً على طريقته . ويبدو أن أشد ما آلمه من حيث سير الأمور فى بروجراد أن الذين قضاوا على أزمة الحكم رجال يعدم هو دوليين ومن أنصار السلام . وكان هذا رأى كثير من البلاشفة أنفسهم . وكان شعور نقولا نحو البلاشفة يشبه من بعض النواحي شعور بنت الثورة الأمريكية نحو اليونسكو . وعادة النظر إلى الأمور فى شيء من الرعب والفرع ، تमित مرا كز الإدراك التى يتوقف عليها مصير الإنسان .

والسبب الثانى أن الظروف التى مكنت البلاشفة من القبض على أزمة الحكم أوجت بالعقيدة التى انتشرت بين الشعب بأن الأحداث سوف تنتزع الحكم منهم فى أمد غير بعيد . وحلم الشيوعية كما فسره البلاشفة وحلفاؤهم المتطرفون قد استهوى بلا ريب عقول العمال الروس وأثار حماسهم ، ولكن لم يستهو الشعب بصفة عامة . وفى بروجراد نفسها لم يغز البلاشفة إلا بأغلبية ضئيلة فى الانتخابات الأخيرة لمجلس السوفيت المحلى . والثورة التى قامت ضد الحكومه المؤقتة — على

ما وصفها جون ريد وهو شاهد عيان ، وكان أحد المؤمنين بها إيماناً صادقاً — لم تترك تلك الحماسة العارمة التي ميزت ثورة مارس . وقد كانت كما نعرف ثورة مدبرة أوحى بها لينين (وكان قائدها فيما بعد) . وكان النقيب الأوفر تنظيمًا لتروتسكى الذى استخدم في براعة كل إمكانيات رئاسة مجلس السوفيت في بتروجراد التي شغلها أخيراً . وأخفيت الاستعدادات للثورة بالقول بأنها إجراءات دفاعية ضد هجوم جديد من أنصار كورنيلوف ، وأن الحكومة لابد أن تبدأ بالجولة الأولى في المعركة . وفي ليل ٦-٧ من نوفمبر قام جنود البلاشفة — ولا سيما جنود الحرس الأحمر الذين أمدهم كرنسكى دون تفكير بالأسلحة في نزاعه مع كورنيلوف — واحتلوا عدداً من الأماكن الرئيسية في المدينة ، وانضم إلى البلاشفة بحارة السفينة أورورا التي كان كرنسكى قد أمر أن ترسو في العاصمة في سبتمبر ، وكذلك انضم إليهم بعض وحدات مدافع الميدان وغيرهم من الجنود الثائرين . ومعظم من كانوا مقيمين على الولاء من وحدات الجيش القوية التي كان من الممكن أن تستخدمها الحكومة في قمع الثورة كما فعلت في ثورة يوليو ، نقلت من العاصمة خوفاً من ثورة يمينية ثانية . وكانت القوات الموالية في بتروجراد في ذلك الوقت غير كافية . وبعد أربع وعشرين ساعة تحت نيران المدافع من « أورورا » اضطرت الحكومة إلى التسليم . ولعله كان من حسن حظ البلاشفة . أنه بينما قبض على معظم الوزراء كان كرنسكى يدبر أمره ووجهه إلى مقر القيادة في بسكوف ، وألح إلحاحاً شديداً في طرد المختصين من العاصمة ، فأعده هجوماً مضاداً لم يلبث أن فشل قبل أن يبدأ . وامتنع كثير من القواد الذين كانت السلطة لا تزال في أيديهم عن معونة الرجل الذي كان في رأيهم سبب ما حل بالبلاد من بلاء ، بينما خشى بعض القواد العمل خوفاً من مجالس السوفيت العسكرية . وأخيراً أقنع كرنسكى القائد القوزاقى كرازنوف أن يتقدم نحو العاصمة ومعه حوالى ٧٠٠ جندي مجهزين ببعض الأسلحة . ومهما كانت

قدرته على الاستيلاء على العاصمة فقد فشلت مهمته لتأخر القيام بها بسبب إضراب دعا إليه عمال سكة الحديد، على اعتقاد منهم بأن الإضراب احتجاج مفيد على ثورة البلاشفة. وبعد مناوشات مع بعض الجنود الحمر في تسارسكوسيلو أظهر القوازي شيئاً من السخط والتذمر، فكف كرنسكى عن القتال وهرب مخفياً (وأخيراً هرب بمعونة عميل بريطاني يدعى بروس لكهارت إلى فنلندا واختفى في طيات التاريخ.. وفي موسكو قام البلاشفة بثورة تأييداً للثورة في العاصمة، وتمكنت من النجاح لعدم تنسيق المقاومة ضدها.

جاء النصر السيامى إلى البلاشفة — كالنصر الحربى — غيائاً. فعندما كان مندوبو جميع السوفييت في روسيا يتأهبون لعقد مؤتمر في تروجراد قام البلاشفة بثورتهم ضد الحكومة المحلية. (وعمد ترونسكى إلى تحديد قيام الثورة بوقت افتتاح المؤتمر) وحتى في هذا المؤتمر الذى يمثل العناصر الثورية في الجماهير الروسية لم يكن للبلاشفة أغلبية مطلقة. وإنما حصلوا على الأغلبية الاسمية عندما خرج معارضوهم المنشفيك والثوريون الاشتراكيون المعتدلون احتجاجاً على الثورة، بدلا من بقائهم في المجلس، ومنع البلشفيك من محاولة إضفاء الصفة القانونية على الاجتماع، وعلى هذا فقد كان مؤتمراً أبتر لا يشمل إلا مندوبى البلاشفة والجانب المنشق من الثوريين الاشتراكيين، الذين أقروا في اليوم التالى نظام هيئة الحكم الجديدة — مجلس مندوبى الشعب — الذى أسسه ورأسه لينين. وثورة نوفمبر التى أتت بتلك النتائج الخطيرة لم يكن مظهرها يدل على عظيم وقعها في أثناء قيامها إلا في نفوس الموالين لها، وكذلك كان ساطان السوفييت الذى انبعث عن هذه الثورة واهياً في نظر خصومهم. ولا شك أن السوفييت لو أنهم تصرفوا تصرف من سبقوهم لما وصلوا إلى هذه النتيجة.

أما من ناحية توبلسك فإن ضعف الحكم الجديد في بتروجراد يظهر في فشله في إثبات سطوته المحلية . ففي الأسابيع الأولى التي تلت قيام الثورة لم تكن منطقة توبلسك بيضاء ولا حمراء ، بل كانت كمعظم المناطق الريفية البعيدة عن مراكز الصناعة محتفظة بلونها القديم ، وتدل الخطابات التي كانت اسكندرا تبث بها إلى أنافيروبونا وسائر صديقاتها في عام ١٩١٨ على زيادة القلق الشخصي والألم العميق على أحوال روسيا لا على دفع مأساة واحدة نزلت بهم دون التمكن من دفعها . وكانت تتحدث عن استسلام زوجها « وبروده » في احتمال ما يلقاه من محن في لهجة يمتزج فيها الإعجاب والحنق الشديد .

وأصبح المندوبان السياسيان اللذان بعث بهما كرنسكى إلى توبلسك من رجال لينين — لا على وجه التأكيد — وبقياً حيث كانا . وأعجب من هذا أنه لا الكولونيل كورنسكى قبض عليهما باسم الثورة التي أخذت ترفع رأسها في الجنوب ، ولاها قبضا عليه بوصفه ملكياً لم يتحول . ولم تصل الأوامر لا بإعدام الأسرة الإمبراطورية السابقة ولا بعودتهم إلى العاصمة للحجاة . وإنما خفض البلاشفة ما كانت تجريه عليهم الحكومة المؤقتة من النفقات ، حتى بلغت بهم الحالة المحزنة إلى انعدام الثقة فيهم لدى حوانيت المنطقة . وعند انتهاء العام كان يشغل اسكندرا رتق ملابس زوجها وأولادها ، ونسج جوارب من الصوف بدلا من آخر جورب كان لابنها الضعيف . لقد زادت وطأة قسوة الأيام عليهم في توبلسك مما يتجلى في مذكرة تقول في آخر يوم من سنة ١٩١٧ (وهو أيضاً آخر يوم كتب فيه مذكراته) « بعد تناول الشاي افترقنا لننام ولم ننتظر بدء العام الجديد . يا إلهى يا رب أتعذ روسيا » .

ورغم هذه الحالة السيئة المحفوفة بالأخطار ، لم يفقد نقولا وأسرته شجاعته .
 وبعض خطط إنقاذهم كانت قريبة التحقيق - أو هذا ما تصوروه - والقصة بديعة على
 نحو ما ولكنها - كعظم التاريخ الروسى - أشبه بالقصص التى يضعها كاتب
 من الدرجة الثالثة فى جهد كبير خالية من جمال المناظر العاطفية ، وحبكة التأليف .
 والرجل الذى وضع فيه آل رومانوف ثقتهم ، شاب مغامروسيم المنظر حاول الحديث
 يدعى سولوفيف ، وكان ضابطاً سابقاً على صلة بأحد القواد الذين يميلون إلى اليسار .
 ومن المصادفات أيضاً أنه صهر لجرميجورى راسبوتين ، فقد اقترن بابنته ما ترونا
 سنة ١٩١٧ فى توبلسك ، وبعد أيام من قرانه أصبح على صلة بالقيصرة السابقة
 وزوجها . وعرفهم سولوفيف بنفسه على أنه عضو موثوق به فى جمعية سرية
 إمبراطورية تدعى « أخاء سانت جون » فى توبلسك . وأنبأهم أنه أرسل إلى
 سيبيريا لنجاستهم . ولم يصعب عليه - بطبيعة الحال - إقناعهم أن خلاصهم قريب ،
 وأقنعهم ألا يكون لهم علاقة بأية جماعة أخرى قد تعرض عليهم معونتها حتى
 لا تتفشل خطط أخاء سان جون فى إنقاذهم . وأبلغهم سولوفيف أن هذه الجماعة
 مقرها فى تيومن أقرب محطة على سكة الحديد السيبيرية ، وسينزل فيها ، ويحىء من
 حين إلى حين إلى توبلسك لينبئ سادته بسير الأمور فى خطة إنقاذهم ، ومع
 أن هذا الأخاء كان من وحي الخيال إلى حد كبير فإنه لم يكن من عمل رجل واحد . لقد
 كان لسولوفيف عملاء فى روسيا الأوربية أثبتوا وجودهم بمعهم المعونات الكبيرة
 ممن يعطون على الحكم الإمبراطورى . ولما عاد أحد شباب الكشافة من رحلته
 التى أرسلته إليها إحدى جماعات بتروجراد التى تضم أنافىروبوا ، عاد يحمل نبأ
 اضطلاع صهر راسبوتين بإفاد الأمرة الإمبراطورية . وأقنعت أنا زملاءها
 المتأمرين معها أن يمتنعوا عن الإشارة إلى عمل سولوفيف ، وأن يقصروا نشاطهم

على جمع التبرعات لنجاح مهمته ، وبعملها هذا أعانت دون وعى منها على تقرير مصير أصحابها الذين فى النفى . وحذر سولوفيف رسولا لإحدى الجمعيات القيصرية الأخرى قدم إلى تيومين بالألا يكون له علاقة مباشرة بالأسرى الذين فى توبلسك .

وهذه الثقة فى نبل سولوفيف وكفايته هى التى أعانت أسرة رومانوف على تحمل شدة وطأة الشتاء القارس فى سيبيريا ، وكانت الصعاب التى يلاقونها فى الأسر تزداد يوماً بعد يوم ، وساءت معاملة الحراس لهم - الذين أبوا أن يتلقوا الأوامر من أى إنسان ، ولم تضعف الثقة التى كانت فى قلب أسكندرا حتى آخر مارس سنة ١٩١٧ ، عندما مرت كتيبة من الجيش الأحمر قادمة من أو مسك تحت القيادة البلشفية واخترقت شوارع توبلسك . كانت القيصرة السابقة مقتنعة بأن هؤلاء ليسوا إلا جماعة أخاء سولوفيف مختفين فى ثياب الجنود المجر . وقالت لإحدى البنات « هاهم أولاء بعض الروس الطيبين » .

وفى أثناء الحرب الأهلية انضم سولوفيف للجيش الأحمر فى سيبيريا . وقبض عليه البيض فيما بعد هو وزوجته . ونجح فى الهرب بشكل ما إلى برلين ، وعاد فى العشرينات من القرن العشرين . وما زال أمر هذا الرجل غير معروف : أكان عميلاً لألمانيا أم عميلاً للبلاشفة ؟ أم رجلاً جريئاً ، أم مجرد رجل مغامر غير مسئول . وعلى كل حال ، لقد كان كصهره المتوفى إحدى وسائل القدر العجيبة المميته ، إنه لم يقم بأية محاولة جدية لإيقاظ أسرة رومانوف من توبلسك ، ولكن كان وجوده فى تيومين معوقاً لكل محاولات إيقاظهم فى وقت كانت فيه فرصة الإيقاظ سائحة .

ولقد كان من الجائز تغير الظروف لولا انقسام الملكيين الروس على أنفسهم بسبب فضيحة راسبوتين ، تلك الفضيحة التي سوأت سمعة الحكومة الملكية حتى في عقول الكثير ممن كانوا من قبل من أنصارها . مما قاله الجنرال ألكسيف وهو من أكبر منظمى الحركة المناوئة للبلاشفة لصديق له من الملكيين « إن ما أعلمه عن حقيقة الحكم المطلق السابق هو ما يدعوني الآن إلى الامتناع عن أى عمل لصاحبه » . كما أن بعض زعماء الحركة البيضاء التي أخذت تتبلور في جنوب روسيا ، وفيما بعد في سيبيريا في أثناء شتاء سنة ١٩١٧ - ١٩١٨ ، ملكيون وبعضهم اشتراكيون . ولم تكن الحركة تهدف مطلقاً إلى عودة أسرة رومانوف إلى العرش . ويبدو أن إقناذ حياة الأسرة الإمبراطورية السابق لم يكن له المسكانه الأولى في عقول أنصار الحكم السابق .

ومن المحتمل أن حدثت محاولة لإقناذ القيصر السابق وأسرته أو بعض أسرته ، بعد اختفاء سولوفيف من الميدان ، ولكن لهذا قصة عجيبه . وقبل الدخول في تفاصيل هذه القصة قد يكون من المفيد ذكر موجز للأحداث التي وقعت على المسرح السياسى في أثناء الأشهر القليلة لحكم السوفييت الجديد .

أصبح لينين في الثامن من شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ رئيساً لمجلس نواب الشعب ، وهو المجلس الذى حل محل الحكومة المؤقتة ، وكان يبدو أن الأمل في بقائه في الحكم أكثر من بضعة أسابيع ضئيل جداً . إذ لم يكن للدكتاتورية البلشفية أى أساس قانونى متين ، وليس لها قوة حرية تستند إليها ، وكانت موضع الكراهية والازدراء من أفراد الشعب الذين يؤدون الأعمال الحكومية الرسمية ، فضلاً عن أن رأى العام كان لا يؤيدها . وفي انتخابات المجلس التأسيسى في

اليوم الخامس والعشرين من نوفمبر — والتاريخ محدد من قبل ثورة البلاشفة — كان مجموع الأصوات التي نالوها أقل من ربع أصوات الناجحين . وحصل الثوريون الاشتراكيون على أغلبية المقاعد ، إذ حصلوا على ٣٧٠ مقعداً من ٧٠٧ ، بينما حصل البلاشفة على ١٧٥ مقعداً ، وحصل حلفاؤهم السياسيون الثوريون الاشتراكيون اليساريون على أربعين مقعداً — ولقد صوت أكثر من نصف الشعب في جانب الاشتراكية ، ولكن ضد البلشفية ، كما لاحظ ليونارد شايبرو ، وأمام هذه النتيجة شرع لينين في إظهار الفرق بين البلاشفة وسائر الاشتراكيين : وهو احتقار البلاشفة لمبادئ الديمقراطية . وعندما اجتمع المجلس التأسيسي في ١٨ من يناير سنة ١٩١٨ ورفض اقتراحاً بلشفياً يؤيده الثوريون الاشتراكيون ، أمر لينين الحرس الأحمر باحتلال المجلس وطرد الأعضاء ، وكان هذا خاتمة الديمقراطية الرسمية . وأعلن لينين في صراحته الفظيعة المعروفة أن حل المجلس التأسيسي يعني إنكار الديمقراطية إنكاراً كاملاً ، وإقرار المفاهيم الدكتاتورية . ومنذ ذلك الوقت كانت كل مقاومة أو معارضة للحكم المطلق الجديد تعتبر عملاً ضد الثورة . ورغبة من البلاشفة في وقف كل « معارضة للثورة » شهبوا سلاح الإرهاب الثوري في صورة « لجان الأمن » التي عرفت باسم الشيكا ، وكان تصريح أول رئيس للشيكا — فلكس دزر شنشكي الذي أصبح فيما بعد كبير قضاة التحقيق في الحكم البلشفي « لاتعتقدوا أنني أعني بالعدالة الشكلية .. إنني سأعمل على صنع السيف الثوري الذي يقضي على جميع الثورات المعارضة » .

وكان لينين من الذكاء بحيث لا يعتمد على الإرهاب وحده . فبينما كان متأهب للقضاء على منافسيه اليساريين بالقوة ، اعتنق أحد مبادئ الثوريين

الاشتراكين التي كان البلاشفة يغيثونها في أول عهدهم بوصفها بالسوقية . وبدلاً من تأمين الأرض التي يمتلكها الأفراد وفقاً للمبادئ البلشفية الصحيحة ، أصدر لينين أمراً يسمح للجان القروية بأن تستولي على الأرض وأن توزعها على الفلاحين ، وهو ما سبق لها أن قامت به قبل استيلاء البلاشفة على الحكم . واعتمد لينين قبل أي شيء آخر على مافي لفظ «السلام» من قوة سحرية . وفي أول خطاب ألقاه في مؤتمر السوفييت في الثامن من نوفمبر وجه نداء إلى جميع البلاد المحاربة أن تشرع في المفاوضات على أساس « سلام عادل ديمقراطي » ، دون الاستيلاء على أي إقليم أو دفع أية تعويضات ، ونشرت الحكومة الروسية مرسوم السلام المتفق مع هذه المبادئ ، ووضعت نصوصه في مذكرة سياسية قام بإرسالها إلى الدول المشتبكة في الحرب تروتسكي ، بوصفه مندوب الشعب للشئون الخارجية .

واقترحت المذكرة بصفة خاصة القيام بمفاوضات للوصول إلى هدنة عامة ، وعندما أغفل حلفاؤها هذا الاقتراح ، وقعت الحكومة السوفيتية في ١٥ من ديسمبر هدنة مستقلة مدتها أربعة أسابيع مع ألمانيا والنمسا والمجر . وتمت مفاوضات الصلح بين روسيا ودولتي الوسط في پرست ليتوفسك إحدى مدن روسيا الغربية ، التي احتلها الألمان فيما بعد في ٢٢ من ديسمبر ، وكان من نتائجها أنها تركت أثرا سيئا في الدولة الروسية الناشئة ، كما أعانت على نقل جرائم الثورة إلى شرايين الإمبراطورية الألمانية .

وكان يرأس الجانب الروسي جوف ثم تروتسكي نفسه . ورغم أنه ولينين كانا ممن يهتمون بالحقائق كما يدعيان ، فقد وقعا في الفخ الذي نصب لهما . فقد كانا يعتقدان أن البروليتاريا في البلاد الغربية سينهجون منهج الروس الثوري في مدى أشهر أو أسابيع ، واعتمدا على ما قد يكون لضغط العمال الألمان على قادة الحرب وساسة (٣٢ م — الأسر)

البلاد . ثم إن الاتصالات السرية التي تمت بين الألمان وبعض زملائهم أعطتهم فكرة خاطئة عن شروط الصلح التي كانت ستعرضها ألمانيا أو توافق عليها .

وعندما استيقظ البلاشفة وجدوا أمامهم مأساة مرعبة ، فقد طلبت دولتا الوسط أولاً تنازل روسيا عن بولندا ومناطق البحر البلطى . ثم أضيف إلى الشروط الاعتراف باستقلال فنلندا . ثم جاءت الطامة الكبرى : يجب على روسيا أن تعترف باستقلال أوكرانيا الذى سبق للحكومة المعارضة للبلاشفة والمالية للألمان الاعتراف به فى كيبين فى أول يناير ، وأحس بعض المندوبين النمساويين بل والألمان أيضاً أن الحكم السوفيتى المزعج فى مازق ، إلا أن ذلك لم يقلق لودندورف دكتاتور ألمانيا فى ذلك الحين . وكان أهم هدف لديه تقسيم روسيا ، ومع أن هذا يتضمن القضاء على أسرة رومانوف ، إلا أنه يبدو أن إمبراطور ألمانيا وافق عليه . والواقع أنه قامت منافسات شديدة بين الأسر الحاكمة الألمانية الصغيرة حول توزيع الغنائم التى سوف يصيبنها من الدولة الشرقية . فدوق ورتمبرج مثلاً كان يطلب لتوانيا وأمير هيس فنلندا ، كما كان غليوم يعززم الاحتفاظ بلقب دوق كورلاند لنفسه وهى جزء من لاتفيا .

ولقد قضى حكم البلاشفة على وحدة الجيش الروسى من حيث هو أحد عوامل القوة ، وأصبحت الحكومة السوفيتية فى الواقع تحت رحمة الألمان المنتصرين ، ورغبة منها فى القيام بضغط على الألمان لمقاومة ضغطهم عليها ، عمدت إلى الدعاية المثيرة بين الأسرى النمساويين والألمان لديها ، مما قد يكون له أثر إذا طالت مدة الدعاية والإثارة بينهم ، ولكنه لا ترجى منه فائدة سريعة . واستعمل تروتسكى كل ماله من مكر ليطيل أمد المفاوضات . ولكن عندما استأنف الألمان تقدمهم الهجومى نحو العاصمة فى أول مارس ، قبلت حكومة البلاشفة الصلح الذى أملاه لودندورف ،

الذى تنازلت فيه روسيا عن ربع مساحتها ، وعن حوالى ثلاثة أرباع مصانع الحديد والصلب فيها . واستقال الثوريون الاشتراكيون من الحكومة احتجاجاً على قبول هذه الشروط ، وأعقب هذا انقسام البلاشفة على أنفسهم ، ولقى لينين عتاً كبيراً فى إقناع تروتسكى بالتخلي عن أحلامه فى مقاومة الجيش الألمانى عن طريق التخريب وحرب العصابات ، وشجع الروس البيض فى الجنوب ، ما تضح من ضعف البلاشفة. رآحتمهم ماعدوه إهداراً للصالح الوطنى ، فرفضوا الثورة المعارضة بمعونة البريطانيين والفرنسيين .

وفى ربيع سنة ١٩١٨ تقدمت قوى كبيرة يقودها أليكسينف وكورنيولوف ثم كرازنوف ودنكين ، من شمال القوقاز إلى حوض نهر الدون ، كاتدخلت اليابان عسكرياً منضمّة إلى حركة مقاومة البلاشفة فى الولايات الشرقية . وظهرت بعض القوات البريطانية الروسية فى المنطقة الشمالية عند مارمانسك . وهكذا قامت الحرب الأهلية فى البلاد الروسية — وهى أشد الحروب الفاصلة أثراً ، بل أعظم الحروب ضراوة وقسوة فى التاريخ الحديث — وانتشرت فى جميع الأنحاء ، وفى بعض البلاد المجاورة حتى سنة ١٩٢١ ، تجر وراءها الفقر والحرمان والمرض .

وعندما رأى لينين أن حزبه يعارضه وحلفاءه ينكرونه وأعداءه الثوريين يوجهون إليه الهجمات المسلحة ، تحقق — بعد أن نقل مقر الحكومة إلى موسكو فى مارس سنة ١٩١٨ — أن إقراره لصالح برست ليتوفسك يجعل روسيا ودیعة فى يد ألمانيا الإمبراطورية ، كما أدرك أن الحكم البلشفى سوف يبقى ماأرادت ألمانيا له البقاء ، وعلى هذا فلا بد من انتهاج سياسة التعاون ، بل سياسة المشاركة إلى أجل قصير . أما السياسة الضرورية الطويلة المدى فيجب أن يكون أساسها الاستعداد لاستئناف الحرب مع الدولة الظالمة — ربما بمعونة الحلفاء — والتخلص

من أغلال معاهدة برست ليتوفسك الجائرة . وربما كان موقف الألمان إزاء البلاشفة أكثر تعقيداً . كان أشبه بموقفها إزاء الشعوب « المتحررة » من الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية بعد أربع وعشرين سنة ، كان خليطاً من الخداع والمكر والطمع وعدم الانسجام . ورغبة من ألمانيا في سحب أكثر ما تستطيع من الجنود لتحشروهم في الميدان الغربي وفي ضمان وصول مايلزها من الغلال والمواد الخام ، لم تعمل على إرهاق روسيا لتلايدفعها ذلك إلى إلغاء معاهدة برست ليتوفسك . بل الواقع أنها كانت ترى مد السوفييت بالمعونة الاقتصادية والمالية (وهذا مافعله الألمان فعلاً في صيف سنة ١٩١٨) لتلايخلف السوفييت حكومة أشد عداوة للألمان منهم . والبرقية التي أرسلها سفير ألمانيا في روسيا إلى وزير خارجية ألمانيا في مايو سنة ١٩١٨ جاء فيها « أرسلوا مبالغ أكبر ، فإن في صالحنا أن نظل السوفييت في الحكم . وفي نفس الوقت كان لودندورف مصمماً على بقاء روسيا في حالة ضعف حتى يسهل استغلالها بعد انتصار ألمانيا في الحرب ، كما كان يود أن يستنزف كل نقطة من دمائها . وكانت سياسة لودندورف هي الصورة المكبرة لبعض آكلي لحوم البشر ، الذين كانوا يبقون أسراهم على قيد الحياة ، ويقتطعون أجزاء من لحومهم على مدى الأيام . وهكذا بينما كان الوفد الألماني الذي قدم إلى موسكو مقر الحكومة من مارس سنة ١٩١٨ يؤيد البلاشفة ضد الحركات الثورية في الجنوب ، التي كان الحلفاء يؤيدونها ، كان الألمان يؤيدون القوات المناوئة للبلاشفة في أوكرانيا في محاربة الحر الموالين للحكومة المركزية .

وزاد المعركة سوءاً بعض العوامل الأيديولوجية ، إذ كان بعض القادة البيض يميلون إلى الحلفاء ، ولكن البعض الآخر كانوا مستعدين للحصول على المعونة من أية جهة ، بل كان منهم من كان موالياً للألمان ، وكان من رأى الألمان إعداد

ما يشبه الفريق الثاني في الألعاب الرياضية ليتولى الحكم إذا ما غجز البلاشفة عن العمل أو غلبوا على أمرهم . ولكن البيض الموالين للألمان كانت أغليتهم ملكيين . وإعادة أسرة رومانوف قد تعوق خطة الألمان في تفتيت روسيا .

ومما كتبه رئيس البعثة الألمانية في أوائل يونية « إن المجاعة في طريقها إلى روسيا وهم يحاولون القضاء عليها في رعب شديد . والناس يقتلون بالآلاف . وليس هذا هو الخطر الأكبر ، ولكن الإمكانيات المادية التي يستطيع البلاشفة بها أن يحتفظوا بالحكم قاربت النفاذ . ولتسهيل عودة روسيا ، وبالتالي عودة الإمبريالية إلى روسيا ليس بالأمر المرغوب فيه . ولكن قد لا يكون هناك مفر من التطور ، وهو بين ما يعانيه البلاشفة من صعاب ، ويشير إلى ضرورة الاتفاق مع خلفائهم المحتمل محييتهم .

وكان من رأى لودندورف نفسه أن الواجب يقضى بالاتصال بغير البلاشفة . فقد كتب في ٩ من يونيه قال : « لو أننا نتفاوض الآن مع البلاشفة وحدهم ، فإن علينا أن نتصل بمجاعات البيض الملكيين حتى تكون حركاتهم خاضعة لميولنا إذا ما قبضوا على السلطة » .

هذا هو المنظر الخلفي للعقد حتى نهاية الفصل الأخير من مأساة أسرة رومانوف .

ومع أن نهر توبول السريع الجريان كان لا يزال متجمداً والثلوج متراكمة تحت أشجار البلوط القائمة ، والربيع في طريقه إلى توبلسك يحمل معه الشعور بعودة الحياة في نهاية الشتاء ، إلا أن أنباء سيئة قد وصلت إلى مسامع القيصر السابق وأسرته . ففي الثاني والعشرين من أبريل سنة ١٩١٨ قدم مندوب خاص

من حكومة موسكو واخترق شوارع توبلسك على رأس ١٥٠ من الجنود الجر ، وكانت المدينة خاضعة لنفوذ البلاشفة الكامل أكثر من شهر . والواقع أن فرقتين متنافستين كانتا تحتلانها معاً ، إحداهما من أمسك والثانية من إكاترينبرج في جبال الأورال ، وفوق ذلك كان للحرس القائم على حراسة الأسرة الإمبراطورية مجلسه السوفيتي الخاص ، وطررد المندوبين اللذين أرسلهما كرنسكي (وكان الجنود متفاهمين تفاهاً شفهياً مع قائدهم الاسمي الكولونيل كويلنسكي) . والحاكم الجديد واسمه فاسيلي يا كوفليف قبول بتحفظ شديد من الجميع ، ولكنه كان يحمل عدة أوامر هامة ممهورة بتوقيع اللجنة البلشفية المركزية فيها ، وكانت موجهة إلى رجال الحكم المحلي لمعونة تامة في أداء مهمته الخاصة ، وكانت تبيح له أن يقتل فوراً كل من يخالف أمره . والمهمة التي كانت منوطة به هي — كما أخبر كويلنسكي — نقل الأسرة الإمبراطورية السابقة إلى مكان آخر رفض أن يسميه . وأنبأ يا كوفليف نفس النبأ إلى مجلس سوفيت توبلسك ، وجنود الحرس الخاص . ورغم رفضه ذكر البلد الذي سينقل إليه أسرة رومانوف فقد فهم من حديثه أنه موسكو حيث تكون المحاكمة .

وفي مقابلته الخاصة بنقولا واسكندرا في ٢٥ من أبريل ألقى إليهما بتلميحات فهمها منها شيئاً آخر . وعلى أساس ما دار بينهم من حديث يبدو أن نقولا فهم أنه يا كوفليف عميل ألماني في زى مندوب بلشفي ، وأن مهمته الحقيقية تسليم الأسرة إلى الألمان لغرض سياسي سيء ، بل كانت اسكندرا أكثر صراحة في تشاؤمها . كانت تعتقد أن الألمان يريدون أن يمسكوا بزوجها ليحصلوا على التوقيع على معاهدة برست ليتوفسك . ومما قالت له إلى معلم ابنها السويسري « يجب ألا أترك نقولا وحده في مثل هذه الظروف . إنهم يريدون منه التوقيع على ما يخل بالشرف بما يوجهونه من التهديد لأسرته ، وإن من واجبي أن أمنع ذلك » . وكان شعور

اسكندرا بالخطر قوياً ، لا على حياة زوجها بل على شرفه ، حتى إنها قررت السفر في اليوم التالي ٢٦ من أبريل معه ومع يا كوفليف ، تاركة أولادها وألكسيس المريض الذى كان في حالة خطرة بسبب سقوطه من ملحة وجيزة - حتى يعود إليهم يا كوفليف . وأخيراً انضمت ابنتها ماري وستة من التابعين إلى المسافرين .

وكانت الرحلة أشبه بالقصص الخيالية مشحونة بالأحداث المهيمة .

وكان يبدو أن يا كوفليف يهيمه جداً ألا يمر يا كاترنبرج التى كان مجلسها السوفيتى يطلب سحق أسرة رومانوف ، وحاول الوصول إلى روسيا الأوربية بطريق ملتو ماراً بأمسك ، ولكن القطار الذى اختاره أوقفه الحرس الأحمر قبل أن يصل ، وعندما أبرق إلى موسكو يطلب منها التعليمات أمر أن يتصد إلى إكاترنبرج ، وعندما وصل إليها قبض على جميع أفراد الجماعة ، ونزع السلاح من جنود يا كوفليف ثم سجنوا ، بينما وضع آل رومانوف كلهم تحت الحراسة المشددة في دار أحد التجار المحليين . وأظهر يا كوفليف الأوامر التى لديه أمام سوفيت إكاترنبرج ولكن ذلك لم يحد شيئاً ، وأخيراً سافر إلى موسكو بعد أن هدد بتوقيع العقاب على من وقف في طريق الأوامر التى لديه . ولم يسمع عنه أى نبأ إلا ما أبرق به فيما بعد إلى رجال كتيبته الذين ظلوا في إكاترنبرج ، وكان نص برقيته . « اجمعوا أفراد الفصيلة وعودوا . أنا استقلت ولست مسئولاً عن النتائج » .

ولم يبق أى دليل على أن يا كوفليف كان فعلاً أحد عملاء ألمانيا ، ولا أثر مطلقاً لأية محاولة ألمانية جديّة لضمان سلامة القيصر السابق وأسرته ولا إقازهم . ولكن من المحتمل أن كل هذه القصة المشوشة الخاصة بيا كوفليف ومهمته الفاشلة ، لها علاقة ببعض المناقشات الحزبية أو الخلافات السياسية على أعلى مستوى بلشفي ، وبالأمورات السرية الألمانية في روسيا .

ومن حيث مصير أسرة رومانوف كان البيت الذى نزّلوا فيه فى إكاترنبرج هو الذى انتهت عنده قصتهم . فهو ببناء أبيض كبير من طابقين ، رطب وفيه مظاهر الفخامة ، أشبه بالملابس الداخلية القذرة تحت قميص منشى ، وهو مقام على منحدر أحد التلال ، حتى إن الطابق الأرضى فيه يتخذ مخزناً للأمتعة ، وفى الطابق الثانى من الدار شرفة طويلة ، وردهة صغيرة لها سور من الخشب يؤدى فيها نقولا حركاته الرياضية البدنية ، وكثيراً ما كان يرى وهو يسير حاملاً ابنه المريض على ذراعيه (وسائر أبنائه قدموا إلى إكاترنبرج فى ٢٣ من مايو) ، ونظراً إلى أن معظم ملابسه التى جاء بها إلى سيبيريا بليت أو فقدت ، ومنعاً من أن يسخر منه الحرس ، اعتاد أن يلبس سراويل عادية ، وسترة خالية من الشارات العسكرية على أكتافها ، وأياً كان لباسه فقد كان مظهره أنيقاً ومحترماً .

وكان نقولا واسكندرا وأبنهما ينامون فى حجرة واحدة ، والبنات فى حجرة أخرى . وشارك الأسرة فى هذا الأسر الدكتور بوتكين وخمسة من الخدم . وكان السادة والخدم يأكلون معاً من وعاء واحد فى حجرة طعام الناجر . وكان الحراس الذين يروحون ويحيثون فى الحجرة يبطء شديد يأكلون على مرأى من الأسرة . وكثيراً ما سكر الحراس وضايقوا المسجونين بأغنياتهم الثورية أو القذرة ، أو ساروا وراء البنات فى طريقهن إلى دورات المياه ، ملقين على أسماعهن النكات التى لا تليق ، ولكن معاملتهم للأسرة كانت غير شاذة . وظل أحد القساوسة يقوم بالفروض الدينية إلى أواخر سبتمبر ، وكانت الأعمال اليومية فى إكاترنبرج فى غاية البساطة . كان كل الأفراد يستيقظون فى الثامنة ثم يجتمعون للصلاة ، وكان غداؤهم فى الثالثة ، وبعد نزهة قصيرة يتناولون عشاءهم فى التاسعة ، ثم يتأهبون للراحة فى أثناء الليل . وكان نقولا يقرأ كثيراً ، بينما اسكندرا وبناتها يمضين وقتهن فى أشغال الإبرة ، وكان الجميع يغنون معاً فى بعض الأحيان .

وجميع الشهود — بما فيهم الخدم والحراس أو رجال الهيئات المحلية البلشفية الذين استجوبهم البيض — أجمعوا على أن نقولا واسكندرا لم يكونا محتفظين بكرامتهما فحسب ، بل كانا هادئين كذلك . وهدوء حياتهما العائلية ظل ملازما لهما لم يكدره الضيق الذي يترتب على وجودهما في السجن . وكان اهتمامهما بالواجبات المنزلية دون الواجبات الرسمية — وهو من أكبر أخطأهما أيام الحكم — قد صار الآن سببا للسوء بحياتهما بدلا من أن يكون في الأعمال النافذة فيها . ولم يكن لنقولا من الفضائل الجديرة بالرجال إلا الجلد إلى حد كبير على احتمال الآلام ، وكانت ألزم صفة له في إكاترنبرج : وكانت اسكندرا سيدة بيت ذات سلطان مطلق فيه ، وعندما تحطمت أحلامها — وكان زوجها وأولادها تحت رحمة الغير — أصبح اهتمامها الأموى فوق اهتمامها بنفسها وآمالها .

وهذه التجربة التي عاشها آل رومانوف كانت شديدة الوقع على أعصابهم ، لأن خلاصهم كان قريبا جداً ، ولكن كلما اقتربوا منه زاد خطره عليهم . لقد كانت القوات البيضاء تتقدم تحت قيادة دينكين إلى المنطقة التي لم يكن لها بعد لون سياسى ثابت ، بين نهر الفولجا وجبال أورال . وفي أواخر مايو انقلبت القوة التشيكوسلافية وقوامها ٤٠٠٠٠ جندي على البلاشفة وانسحبت نحو فلاديفستك بعد صلح برست ليتوفسك وقاموا بهجوم نحو الغرب ، وبعد قليل قامت الاضطرابات ضد البلاشفة في سيبيريا وشرق روسيا . وأخذ النشكيون يقتربون من إكاترنبرج ومعهم من انضم إليهم من البيض . وأدرك لينين ألا مندوحة من استيلاء البيض على المدينة . ويبدو أنه خشى ما يترتب على نجاة الأسرة الإمبراطورية السابقة وبخاصة ألكسيس ، الذي يعده كثير من الملكيين الوارث الشرعى للعرش ، إذ ربما أدى ذلك إلى اتحاد القامئين بالحركات الثورية ضد البلاشفة (وفي الواقع قد تؤدي إلى عكس ذلك) ، وفضلا عن ذلك . أخذت

العلاقات بين البلاشفة والألمان تسوء لزيادة الصلة بين الألمان والملكيين اليمينيين . وعلى هذا فلم يعد مهما كيف يتصرف القيصر عند سماعه بمقتل ابن عمه أواسكندرا الألمانية المولد بيد البلاشفة . وربما كان الاهتمام بهذه المسألة هو السبب الهام في عدم قتلها قبل ذلك .

ومن عجب أن ما قرر مصير أسرة رومانوف كان ثورة ضد البلاشفة ، قام بها الثوريون الاشتراكيون الأعداء الأقدمون للملكية ، والأعداء الحاليون للبلاشفة ، وقد امتلأوا بالحماسة الوطنية والمشاعر التحررية .

وقد نظم الثورة الإرهابي الكبير بوريس سافسكوف الذى ساعد في تنفيذ اغتيال الدوق سرجيوس سنة ١٩٠٥ ، بمعونة الأموال الفرنسية وبعض الجماعات التحررية . وقامت في موسكو في السادس من شهر يوليو ، وبدأت بمقتل الكونت مرباخ سفير ألمانيا (وكان هدف الثوار القطيعة بين الألمان وحكومة السوفييت) . وسرعان ما انتشرت الثورة إلى ٢٣ مركزا آخر ، وكانت خطر أعلى البلاشفة مدة من الزمان . وربما كانت قسوة لينين وسرعة إجراءاته من أسباب إنقاذ حكمه . فهو لم يقض على الثورة أينما وجدت فحسب ، بل طهر الأرض التي تحيط بها ، وأمر بسلسلة من الأعمال الإرهابية القاسية ، يرهب بها كل من حدثته نفسه بالقيام بثورة مضادة للبلاشفة في أى مكان . وعلى مدى ما تصل إليه أيدي لجان الأمن في البلاد الروسية ، كانت تسوق أمامها أثرياء الريف والنبلاء والكهنة والضباط السابقين والطبقة المتوسطة من كل لون وترميهم بالرصاص بأمر من لينين ، بالملئات أولا ثم بالألوف . وربما كانت أسرة رومانوف وخاصة القيصر السابق ، أخف من قاسى من استبداد البلاشفة . ولكنهم كانوا مثلا بارزا للارهاب في عقول الجماهير . وكان قتلهم وصمة العهد بشارة ملونة بالدماء .

وعملية الذبح (وهذا أنسب لفظ لما حدث) قام بها فريق من لجان الأمن
برئاسة ضابط يدعى يوروفسكى ، الذى حل بأمر من موسكو محل الحرس المحلى
فى يوليو .

وفى منتصف ليلة ١٦ - ١٧ من يوليو أيقظ يوروفسكى قولا وأمرته
وأمرهم بارتداء ملابسهم والانتقال إلى أحد المخازن فى الطابق الأرضى ، بحجة
أن الحرب فى شوارع المدينة قريبة من المكان (والواقع أن البلاشفة والبيض
استولوا فعلا على المدينة فى ٢٥ من يوليو) . وعندما اجتمع قولا وابنه بين يديه
واسكندرا والبنات الأربع والطبيب والخدم الثلاثة فى إحدى الحجرات الصغيرة ،
قرأ يوروفسكى عليهم على عجل حكم الإعدام ، ودون أى إنذار آخر صوب مسدسه
إلى قولا ، وعندما نفذ الإعدام على ألكسيس وعلى إحدى أخواته ، كان لا يزال فيهما
رمق ، فقصى عليهما الحراس بحراهم . ثم قتلوا الكلب الصغير الذى كان معهم ،
وبعد ذلك فقتلوا القتلى بحثا عن أية مجوهرات أو وثائق ، ثم وضعوا الجثث على
عربة نقلتها إلى مكان مهجور ، وهناك صب عليها بعض البترول وأشعلت فيها
النار . ثم دفنت البقايا المحترقة فى حفرة ، وعند الانتهاء أرسلت برقية إلى موسكو
وفيهما (أبلغوا سفر دلوفا أن كل الأسرة كان مصيرها مصير كبيرها) .

وفى الليلة التالية ١٨ من يوليو أعدم خمسة دوقات من الأسرة ، ودوقتان إحداها
إليزابيث أخت اسكندرا ، فى ظروف مماثلة وعلى مقربة من إكاترينبرج . أما الدوق
ميخائيل الذى تنازل قولا له عن العرش ، فقد هرب ثم اختطف قبل
عدة أيام من ذلك الفندق فى برم غربى إكاترينبرج الذى كان معتقلا فيه ، ويبدو
أنه قتل أيضا . ونجا اثنان من الأسرة بقاء حتى قادا الحركة الملكية - وأحدهما
الانقسام فيها - وهما عم القيصر السابق الدوق قولا والدوق سيرل ابن عم
القيصر الخلع .

وعلم الشعب الروسى بمقتل الإمبراطور السابق من نشرة رسمية صدرت في موسكو في التاسع عشر من يوليو ، معلنة أن حكم الإعدام قد صدر ضد قولا رومانوف ونفذه السوفييت في إكاترينبرج . والمعروف الآن حتى في البلاد الروسية أن لينين هو الذى أمر بالإعدام ، بينما أحد أعضاء الحكومة المركزية ويدعى جاكوب سفردلوف هو المسئول عن وضع التفاصيل مع الحكام المحليين في إكاترينبرج . ولم ينشر أى شئ من الجهات الرسمية عن مقتل القيصرة وأولادها . وعندما قدم مستشار البعثة السياسية الألمانية احتجاجا قصيرا على مقتل قولا ثم سأل عن مصير بقية الأسرة ، أفهم أنهم نقلوا إلى مكان أكثر أمنا من إكاترينبرج ، ثم أطلقت الإشاعات والأبناء التى تحمل هذا المعنى ، ثم جرت محاولات لتحمل على الاعتقاد بأن الدوقات في أسرة رومانوف الذين قتلوا في برم أو قريبا منها قد فروا واختفوا في فوضى الحروب الأهلية .

ولا داعى إلى أن نذرف الدمع على أى فرد من أسرة رومانوف على أساس أنهم شهداء قضية خاسرة (وبشعة بطبعها) ، وإن كان جديرا بنا أن نحترم ذكرى قولوا واسكندر على أنهما ممثلان يمثلان العصر الفسكتورى في رباطة جأشهما . وعلى كل حال لقد كانا اثنين من ركاب باخرة احتفظا بخلفهما الكريمة ، ولم يهرعا إلى زوارق النجاة عندما أخذت سفينة حياتهم تغرق بركابها ولم تكن أسرة رومانوف هي الأسرة الوحيدة التى قتلت في أثناء الحرب الأهلية الروسية . وكما يحدث في كل المعارك دائما كان لكل طرف فظائمه وشهداءه وسفاحوه . ولم يكن القتل الذى حدث في إكاترينبرج وبرم هو الأمر البارز الذى يلفت النظر ، ولا شخصية القتلى — إذ من وجهة نظر النتيجة السياسية في روسيا لا يهم كثيرا موت معظم أسرة رومانوف أو بقاؤهم — ولكن المهم هو أسلوب القتل . فقد كان السفاحون يتميزون بطابع القرن العشرين

في نزعتة الاستبدادية ، أو بعبارة أدق كانوا يتميزون بما اشتهرت به سطوة الجماهير من مناهضة مقومات الحضارة .

لم يكن ما حدث في روسيا عابراً ولا مجرد رمز ، ذلك لأن الأنظمة الحكومية - شأنها شأن الأفراد - لا تتكون شخصيتها بفعل البيئة وحدها ، بل لنظام الحكم دخل في تكوين هذه الشخصية ، وكان ما حدث في إكاترينبرج وهرم من قتل رد فعل طبيعي للأحداث ، وبقي هذا الطابع الدموي يسيطر على الحكم السوفيتي لجيلين متتاليين ، وعلى غرار السذاجة الشعبية القديمة أله الشعب السوفيتي حكامه الجدد وجعلهم الخلفاء الحقيقيين للأسرة البائدة ، والورثة الشرعيين لتقاليد آل رومانوف من حيث الشنق وقطع الرؤوس واستعمال السموم .

الفصل السابع عشر

نَحَايَةُ آلِ هَوَهَنْزَلَرَنْ

يقول مثل ألماني إن من يشعل النار في دار جاره لا يستطيع الشكوى إذا سقط الشرر على داره . وليس من الحق أن هذا المثل الألماني ذكره أحد الأطباء الحريين أو المدنيين المشعوذين، الذين دبروا عودة لينين إلى روسيا في القطار المقلل الشهير في أبريل سنة ١٩١٧ . وكانت لديهم المناسبات العديدة لتذكره بعد سنة واحدة ، عندما وصل صاحب السعادة سفير اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية الرقيق أدولف جون إلى برلين ليستولى على دار السفارة الخالية رقم ٧ بشارع أنتردن ليندن . وكان اختياره لهذه المهمة منطقياً ، إذ أنه كان رئيس الوفد الذي قام بمفاوضات الصلح مع ألمانيا قبل ستة أسابيع ، وانتهت بمعاهدة برست ليتوفسك . وكما كان أول سفير للسوفيت لدى بلاط القيصر وحكومته كان أيضاً سفيراً ممتازاً من وجهة نظر السوفيت . وهذا السفير الذي له وجه الساميين الرقيق الإحساس ذو اللحية السوداء والمنظار الذهبي ، والذي يرتدى معطفاً ياقته من القراء وقبع رياضية ، والذي بعثته الثورة العمالية ، كان له ملامح البورجوازيين ، إلا أن المظاهر لا يمكن أن تكون أكثر خداعاً .

وكان جوف صديقاً حميماً لتروتسكي منذ كان في فيينا ، وكان معه تلك الفتنة من المثقفين ، الذين سبق أن لعبوا دوراً هاماً في تنظيم ثورة أكتوبر ، وكان كالمنسوب الأحمر الشهير — من مدبري المؤامرات المحترفين البارزين ، وظلت عنقه تقترب من المشنقة وتبتعد عنها مدة طويلة . وفي الواقع كان تروتسكي هو الذي أهذه من السجن في سيبريا ليتولى مفاوضات الصلح .

وكان مع السفير ثلاثمائة موظف من رجاله . وكان أول عمل رسمي له أن علق على مبنى السفارة المطرقة والمنجل ، وأبى أن يقدم بنفسه أوراق اعتماده إلى القيصر . وكان في عداد ضيوفه الذين دعاهم لأول غداء رسمي ألمانان يساريان قضيا مدة في السجن ، لارتكابهما جريمة الخيانة وإثارة الفتن ، وهما كارل لينبخت وروزا لوكسمبرج . وسرعان ما صارت السفارة السوفيتية المركز الرئيسي للاشتراكيين المستقلين وغيرهم من الثوريين ، الذين أسسوا فيما بعد أول حزب ألماني شيوعي .

وكانت « خطابات مبارتا كوس » السرية التي أذاعها هذا الحزب وسيلة لنشر دعاية ضد الحرب منذ سنة ١٩١٦ ، وزاد انتشار هذه الدعاية كثيراً حتى إن أكثر من سبع صحف للاشتراكيين المستقلين ، كانت تتلقى المعونة المالية التي كان جوف قد خصصها لشتون الدعاية . وكان كثير من ملحقى السفارة الذين لا يدل مظهرهم على أنهم من الهيئة السياسية ، يترددون ذهاباً وإياباً بين موسكو وبرلين محتمين بالحصانة الدبلوماسية ، ومع هذا فلم تمنع التقاليد الدبلوماسية موظفى السفارة من الحضور إلى الاجتماعات الألمانية اليسارية ، وإلقاء الخطب الحماسية . وأفلقت كية الأمتعة التي تنقل من موسكو إلى برلين في « الحقيبة الدبلوماسية » الحكومة الألمانية ، التي كانت على علم بأن نشرات خطيرة وأسلحة توزعها السفارة الروسية على اليساريين المتطرفين .

وقلما أخفى جوف الدور الذي كان يقوم به للحض على الثورة . وبما كتبه هو نفسه فيما بعد « من الضروري أنؤكد أنه في الاستعداد للثورة الألمانية كانت السفارة الروسية تعمل طول الوقت مع الاشتراكيين الألمان » .

وتقد أبدى لودندورف وهوفمان مخاوفهما في مبدأ الأمر من دخول « حصان

طروادة» البلشني إلى العاصمة الألمانية . حتى إن وزارة الخارجية الألمانية والمستشار الإمبراطوري والاشتراكيين المعتدلين أجمعوا على إنه كان من الخطأ السماح للبلاشفة بأن تكون لهم بعثة دبلوماسية في ألمانيا قبل التوقيع على معاهدة الصلح العام . ونظراً إلى أن التمايل الدبلوماسي كانت تحول دون الحصول على دليل يؤدي إلى قطع العلاقات ، لجأ الألمان أخيراً إلى فكرة ذكية ولكنها جريئة ، إذ جاء الشرطة بربطة بملاءة بنشرات خطيرة مزورة ووضوها في «الحقيبة الروسية» وودبروا إسقاطها عمداً في محطة سكة الحديد مما أدى إلى فتحها .

وطرد جوف ورجاله كلهم في ٧ من نوفمبر سنة ١٩١٨ . وفي هذا التاريخ كانوا قد آتموا رسالتهم . ولا بد أن السفير الروسي قد ذكر وهو في قطاره المعلق وعلى فيه ابتسامة الرضى حفلة الغداء التي أقامها منذ بضعة أيام . لقد كان حاضراً فيها كارل ليننخت وروزا لوكسمبرج بعد خروجهما من السجن ، وشرب الجماعة نخب العصيان البحري الذي حدث في كيل . ويقول المؤرخ البريطاني جون هويلر بنت « حتى في هذا التاريخ المبكر أصبح للدبلوماسيين البلاشفة شهرة عظيمة في جردة صنعهم لشراب الشمبانيا » وكان كارل ليننخت لا يرى القرصة مناسبة لقيام الثورة ، وعلى النقيض من ذلك كان جوف قد قال « في مدى أسبوع واحد سيرفرف العلم الأحمر على دور الحكمة الألمانية » .

ولاشك أن نشاط جوف السري الهدام لم يكن إلا أحد العوامل في انهيار ألمانيا . وكان لكفائته في نسج خيوط المؤامرات نصيب كبير في الثورة الألمانية . إلا أن أثر البلشفية الروسية في وسط أوروبا وفي غربها بعد سنة ١٩١٧ لا يمكن أن يعزى إلى الدعاية فحسب مهما اتسع مداها وحسن توجيهها ، وإنما هذه القارة التي دمرتها أقسى الحروب فتسكا رأت نور الثورة المضيء في أفق الشرق ، نور

الأمل للانسانية المعذبة . وقد أ كسبت لينين معارضته القوية للحروب والتي كان يؤيدها رغبة حكومة السوفييت في الصلح بلا ضم ولا تعويضات -- أ كسيته شهرة عظيمة في أعين مفكرى الغرب، وإن كان منهم من كان يمتق الاتجاهات الاستبدادية التي ينطوى عليها الحكم البلشفى الاستبدادى -- ومن هؤلاء روزا لوكسمبرج .

وكان النجاح السيايى للمثل العليا البلشفية يقاس بنوع الطبقة التي كانت تعطف على لينين أو تؤيده في خارج روسيا . وفي أكثر الحالات كان أكثر الناس اقتناعاً هم صفوفه المنتمين إلى الحركات العمالية والحركات الاشتراكية . وكذلك ساعد أسرى الحرب الذين عادوا إلى ألمانيا بعد معاهدة برست ليتوفسك في نشر سموم الثورة والدعاية لوقف القتال ، وكان يصحبها الدعاية البلشفية ، أو ما قاساه الأسرى من ألم الأسر أو ما يرجونه من قيام الثورة . وكان أثرهم في المدنيين وفي الجنود الذين خاضوا المعارك الدموية الأخيرة في الغرب كبيراً جداً . كما أن بعض الشعارات مثل « السلام والطعام » كان لها سحر عجيب في استسلام كتائب كاملة للحلفاء دون أية مقاومة في أغسطس سنة ١٩١٨ . وكان الجنود المنسحبون من الميدان يسخرون في مروح من الجنود الصامدين للقتال .

ومع هذا فلم يكن الإعياء الشديد من الحرب ولا الدمار الذى حل بالبلاد ولا الخيانة هي التي أدت إلى انهيار ألمانيا في نوفمبر سنة ١٩١٨ . وإنما عندما اندحرت ألمانيا حرياً في ميدان القتال، وعندما أعلنت القيادة العليا الهزيمة علانية بطلبها توقيع الهدنة، عند ذلك فقد الأمل في النصر وفي الحكومة الأهالى الذين أنهكتهم الحرب، والذين قضوا أربع سنوات في الحرمان وشفط العيش، مما أدى إلى إغماء العمال في المصانع . في تلك اللحظة دون غيرها خاتمتهم عادات الطاعة المشربة بها نفوسهم تحت تأثير الدعاية الثورية .

وفي مارس سنة ١٩١٨، وقد خرجت روسيا من الحرب وجنود أمريكا لا يزالون يواصلون التدريب في المعسكرات تحت القيادة العليا الألمانية عن « معركة القيصر » التي كان يراد بها أن تكون المعركة الهجومية الأخيرة والقاضية ضد الحلفاء في الغرب . واتضح فيما بعد أن هذا اللقب الضخم الذي منح لهذه المعركة أو بعبارة أخرى لسلسلة المعارك لم يكن إلا تحية غر « للسيد الأكبر » ولم تكن أية ضربة موجبة للحلفاء من الضربات القاضية . وفي يوليو أخذ المد يتحول إلى الجانب الآخر، ورأى الجنرال لودندورف الجيوش الأمريكية وهي تتدفق إلى الميدان في زيادة مستمرة ، عدا ١٩ كتيبة كانت من أغسطس الماضي لدى الجنرال برشينج في جانب ، وفي الجانب الآخر انضمار الاحتياطي الألماني، فلم يبق لدى الألمان أى أمل في النصر في ميدان القتال . ولكنه أبى أن يقوم بأى عمل في سبيل الصلح، كما أبى أن يبلغ الحكومة ، وقال « إن وزارة الخارجية يكفيها الآن ما تشعر به من فرح، وإنها لكارثة لو عرفت حقيقة الموقف الحربي . ثم إن القيادة العليا التي كانت تملئ إرادتها على الحكومة بل وعلى القيصر كانت موقنة بأنه لا أساس للشك في أن النصر مكفول لنا » . وما إن حل شهر سبتمبر حتى كانت جميع انتصارات الربيع قد تبخرت ، وكل دعائم دولي الوسط قد تقوضت ، وكانت النمسا على وشك الانهيار . وفي ٢٦ من سبتمبر خرجت بلغاريا من الحرب .

ثم خارت أعصاب لودندورف فجأة، إذ كان رئيس هيئة أركان حرب الجيش الألماني يستشفى في سبا بجمهاها المعدنية . وفي مساء اليوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر سكنت فجأة هممة الحديث الخافتة وصدام كموب الأحذية وصليل المهايمز المعدنية ، التي حلت محل صوت فتاجين الشاي في ظل أشجار النخيل في فناء فندق بريطانيا في عهد السلام ، عندما قدم الجنرال لودندورف يحيط به

مساعدوه ووجهه أكثر احتقانا مما لو كان مصابا بالحمى ، ودخل مكتب المارشال هندنبرج ، وأخبره وهو يلهث ، والمارشال أشبه شيء بتمثال من خشب لأحد كلاب سانت برنارد ، بأن الهدنة يجب أن توقع دون أدنى تأخير ، وأن تشكل في الحال حكومة ألمانية جديدة في وسعها أن تحصل على شروط طيبة للصالح ، على أساس شروط ولسن الأربعة عشر .

وفي اليوم التالي قصد رئيس هيئة أركان الحرب والقائد العام وفي عتقهم مهمة ممضة إلى فيلا القيصر ، وهي بناء كبير في أعلاه برج مرتفع وله شرفة وسقف مبنيان على النمط النورمندى الحديث الذي يشاهد إلى الآن في مباني جزيرة لونج ، تقع وسط أكثر من مائة فدان من الأرض المعتنى بها على منحدر التل الواقع خارج مدينة سبا ، وسبق الاستيلاء عليه من أحد الشيوخ البلجيكيين .

وكان كثير من أثاث القصر الملكي البلجيكي في لاهن . وهناك مخبأ للوقاية من القنابل يمكن الدخول إليه عبر أحد مخازن الأمتعة ، وله باب للخروج يستعمل عند الخطر عبر سرداب تحت الأرض ينتهي بأجرة من الأشجار بنى للسيد الأكبر . وأحسن غليوم بنصيب أكبر من السعادة هنا في سبا أكثر منه في برلين ، حيث — كما قيل — كانت « الأرض تشرق جلد قديمه » . وكان يتمسك بحرافة أنه السيد الأكبر للحرب على رأس جيوشه الألمانية . وكانت الصحف تنشر صورته بين الحين والحين ، وهو يزور الخنادق مرتديا سترة الميدان الرمادية ، وعلى رأسه القبعة المعدنية المدية المشهورة ، المحببة إلى محررى صحف الحلفاء ، وكان معظم هذه الصور مأخوذا على مقربة من الفيلا ، حيث حفر خندق ووضعت أكيس من الرمل لتظير المكان في شكل ميدان القتال (١) . ولقد

(١) قبل الاستقالة بوقت قليل كان المظنون أن القيصر ربما حظى بنصيب أكبر من حب الشعب لو أنه زار أحد ميادين القتال المكشوفة . وكان يوافق بشيء من القصور . =

أسر مرة لأحد زائريه في مركز قيادة الحرب بإحساس العارف بنصيبه من أعباء الحرب قال : « إن القيادة العامة لا تجربني بشيء ، ولا تكلفني بشيء . ولو ظن أحد في ألمانيا أني أقود الجيش فهو مخطئ . إني أشرب الشاي وأقطع الخشب وأقوم بنزهتي ومن وقت إلى آخر - إذا شاءت القيادة - أسمع أن كيت وكيت قد حصل » .

وقد أجمعت الروايات على أن القيصر تلقى الأنباء بهزيمة الجيوش الألمانية وأن الهدنة لابد من السعي للحصول عليها بسرعة برابطة جاش نادرة . وتلقى في سهولة ويسر قرار إعلان الحكم الثباتي وتشكيل حكومة جديدة، نظراً إلى أن القيادة العليا للجيش قد قررت ضرورة ذلك الأمر . ولو أن القيصر قابل حجج لودندورف للاسراع بالتنفيذ بشيء من الغلظة . وقال له : « كان في إمكانك إبلاغي ذلك منذ أسبوعين . أنا لا أستطيع صنع المعجزات » .

ويقول المؤرخ السويسري فون ساليس : « لم يقاوم غليوم مطابقاً رغبات القيادة العليا وكذلك لم يعارضها عندما أرادت أن تعزو للغير أسباب الهزيمة، وأن تلقى على أحزاب البرلمان عار تخفيف وقع الهزيمة على الشعب ، وعقد صلح مزرع الأعداء » . وعلى العكس عندما هبت رياح الرعب من سبا ، واعترض المستشار الجديد البرنس ماكس فون بادن على العجلة على أنها منافية للدبلوماسية ، اعتماداً على أن الموقف الحربي قد لا يكون سيئاً إلى هذا الحد ، رد القيصر بحدة قائلاً :

= وعندما يعود كان يحكى قصة الزيارة المؤلة . وكثيراً ما سقطت القنابل على مقربة من القطار الامبراطورى .

وكثيراً ما كان يترنم أمام حاشيته بقوله :

إن الجيان يموت قبل موته ألف مرة

ولكن الشجاع لا يموت إلا مرة

والواقع أنه لم يتعد في زيارة الميدان المواقع الخلفية من ساحة الحرب .

«إنك لم تستدع إلى هنا لتضع العراقيل أمام القيادة العليا» .

وكان البرنس ماكس — وهو أحد أبناء عمومة القيصر وحفيد قولولا الأول قيصر روسيا وولى العهد التالى لإمارة بادن الألمانية — رجلاً مؤدباً وصاحب آراء حرة، متزنة . وفى الرابع من أكتوبر لجأت حكومته — وهى أول حكومة فى تاريخ ألمانيا تتألف من روساء مسئولين ، وتضم قادة اشتراكيين ، أمثال فيليب شيدمان وجوستاف باور — إلى الرئيس ولسن تطلب الهدنة على أساس شروطه الأربعة عشر عن طريق الحكومة السويسرية . وبذلك أعلن الشعب الألمانى كله والعالم أجمع أن ألمانيا خسرت الحرب ومنيت بالهزيمة . ومن المحتمل أن لودندروف وهندنبرج لم يطلعا على خطب الرئيس ولسن . وكانت هناك حاجة ماسة إلى الهدنة لإقناع الجيش الألمانى من الفناء ، وكان من رأيهما أن السلام لاوصول إليه إلا عن طريق المفاوضات . ولكن الأرض التى كانت تحت أقدامهما الآن أصبحت غير ثابتة . والتأخير قضى على الروح المعنوية لدى الشعب الألمانى . والجنود الذين فى الخنادق والذين أصيبوا بأفدح الهزائم منذ إعلان الحرب لا يرون أى مبرر للتأخير . ثم ماذا يحول درن السلام ؟ . إن مذكرة الرئيس ولسن فى الرابع عشر من أكتوبر كان فيها الإجابة عن هذا السؤال ، إذ لفت النظر إلى أحد شروطه ، وهو «القضاء على كل سلطة أينما كانت تحاول منفردة وبطريقة سرية وبناء على رغبتها الخاصة تكبير السلام العالمى» .

وكان واضحاً أن هذا الشرط يشير أولاً وبالذات إلى الحكومة الألمانية . وساد الاعتقاد بأن تنازل الإمبراطور عن العرش قد يؤدى إلى صلح أفضل . وكان تنازل غليوم محور حديث الجميع فى كل الأوساط : فى مكاتب الحكومة وفى صالونات البيوت والمجتمعات السياسية وفى سيارات الركوب ماعدا الصحف ، فإن كل ذكر للتنازل كان موضع رقابة شديدة . أما فى المجتمعات اليسارية

المتطرفة فكانت الصيحات المدوية التي تنادى بسقوط الإمبراطور عالية
كالصيحات التي تنشد السلام .

وكان من رأى البرنس ماكس — ضماناً للحفاظ على أسرة هوهنزولرن —
أن يتنازل القيصر فوراً عن العرش لالولى العهد المسئول عن الهزيمة الشائنة في معركة
فردن إلى غير ذلك من الأمور التي تدبته — بل إلى ابن ولى العهد البرنس غليوم
الذى بلغ من العمر اثنتى عشرة سنة ، إلا أن القيصر لم يوافق على ذلك . ولكى
يتجنب الضغط الشديد على كاهله فى برلين عاد إلى سبا حيث كانت القيادة العليا
لا تزال مؤيدة له . وكان البرنس ماكس يوفد إليه رسولا بعد آخر يلح عليه
فى التنازل عن العرش . وفى إحدى المرات سأل القيصر غاضباً أحد الرسل — وكان
وزيراً بروسيا قدم إليه فى أول نوفمبر — « كيف تستطيع التوفيق بين هذه المهمة
وبين يمين الولاء التي أدبته لملكك ؟ » . ولم يدر القيصر أن الوقت قد فات .

فى ٢٨ من أكتوبر حدث تمرد بين رجال البحرية فى ولسهافن . وفى أول
نوفمبر امتد العصيان إلى أسطول البحار العليا فى كيل . وفى الرابع من نوفمبر
نشبت ثورة عنيفة فى كل ألمانيا الشمالية .

وتقع مدينة كيل على حافة خليج جميل فى البحر البلطى ، وتشرف على منطقة
من أجمل المناطق البحرية العميقة الغور فى أوروبا . وقبل الحرب كانت السفينة
هوهنزولرن ذات الألوان الذهبية والبيضاء الساحرة موضع إعجاب السواح وهى
راسية فى انتظار قدوم القيصر وحاشيته . وكان يقضى وقتاً غير قصير فى كيل ،
حيث يحلو له أن يستضيف العظماء والأثرياء . محاطاً برمز عظمة ألمانيا ، ولعبته
الباهرة — الأسطول الألماني . ولكن الصورة تغيرت فى الرابع من نوفمبر
سنة ١٩١٨ . والقوة البحرية هناك فى الميناء لم يلحقها ضرر . وقد ظلت منزوية

فى الميناء منذ موقعة جوتلاند فى يونية سنة ١٩١٦ . وكان عمل البحارة طيلة سنتين كاملتين تنظيف السفن وتلميع النحاس وتحمية الضباط الحادى الطبايع ، أما اليوم فإن الأعلام الحمراء ترفرف فوق أعلى السفن الحربية الداكنة ، ويسير الآلاف من البحارة العصاة فى شوارع المدينة ، ينشدون المارسيليز ويحملون الأعلام ذات اللون الأحمر كذلك . وفى هذه الصورة يرى بعض الضباط وكانوا لا يحملون سلاحا ويضعون على صدورهم الشارات الحمراء . وكان بالميناء عدة غواصات موالية للقيصر ، ولكنها هربت من الميناء ، أما بحارة الغواصات الأخرى فقد أقاموا أول منظمة للثورة الألمانية التى عمت فى اليومين التاليين جميع المدن الساحلية فى شمال ألمانيا .

وكان العصيان قد بدأ قبل ذلك بأسبوع أى فى ٢٨ من أكتوبر ، عندما صدر الأمر إلى الأسطول الألماني بأن يذهب إلى بحر الشمال لتخفيف الضغط على الجيوش الألمانية المترجعة على طول سواحل بلجيكا . وسرعان ما انتشرت الإشاعة من سفينة إلى سفينة — وللبحارة منذ زمن طويل طريقة خاصة فى نقل الأنباء فيما بينهم بالإشارة — بأنه قد تقرر التضحية بالأسطول فى معركة كبيرة أخيرة ضد الأسطول البريطانى الهائل ، على أساس أن ذلك خير من الاستسلام . ونظراً إلى بقاء عدد من دعاة الجامعة الألمانية المتحمسين الذين كانوا ينادون باتباع هذه الخطة فقد كان الخطر فيما يبدو حقيقياً ويقتضى التصرف السريع . وأطلقت النيران المشتعلة فى عدة سفن ، وامتنع البحارة فى عدة سفن أخرى عن الإقلاع . وبقي الأسطول فى الميناء ، ولكن قبض على المتمردين وسجنوا . ولم تؤد محاولات إعادة النظام إلا إلى زيادة ثورة البحارة اشتعالا . وأصبح البحارة أبطال الساعة . وكان يكفى ظهور عدد من البحارة لقيام الثورة فى مدينة بعد مدينة فى شمال ألمانيا .

وفى السابع من نوفمبر قطعت السكة الحديدية الموصلة إلى برلين لحماية

العاصمة . ولكن العدوى كانت قد امتدت إلى جنوب ألمانيا ، وزعزعت أسس الدولة الفيدرالية ، إذ قامت الثورة في ذلك اليوم في ميونيخ . وكان رئيس الثوار أحد البافاريين في الحادية والخمسين من عمره ويدعى كورت أيزنر .. وهو صحنى سبق أن تولى توجيه حملة ضد الحرب قبل قيامها ، وأيده جماعة قليلو العدد ولكنهم مخلصون من العمال وأصحاب الرأي ، وكانت آراؤه سبباً في انفصاله عن الأغلبية الاشتراكية ، كما كانت سبباً في الحكم عليه بتهمة الخيانة ، ثم أفرج عنه في الوقت المناسب لتنظيم اجتماع جماهيري أدى إلى ثورة ميونيخ . وكان الاجتماع على أرض سوق ميونيخ ، وفي حماسة بالغة طالب اثنا عشر من الخطباء أحدهم بعد الآخر القيصر بالتنازل عن العرش . ولما زادت حماسة الجماهير انتظم الجنود الذين كانوا يستمعون إلى الخطب في صفوف ، وساروا وراء أيزنر إلى أقرب الشكنات ، حيث أمكن بسهولة إقناع الجنود بالانضمام إليهم . ثم زاد عدد الجنود في أثناء اختراق المدينة ، كما انضمت إليهم إحدى الفرق الموسيقية . وسرعان ما احتل القديئون الثائرون مباني الحكومة ومحطات السكة الحديد ومكاتب البريد ، وفي المساء أنشئ مجلس سوفيت من العمال والجنود برياسة أيزنر ، واتخذ مقرأ له مصنع البيرة وأعلن بافاريا دولة اشتراكية .

وعندما اشتعلت الثورة — كان لودفيج ملك بافاريا — ذلك الرجل الرزين ، أهدذرية لودفيج الأول العظيم — يسير مع بناته في الحديقة الإنجليزية وهي متنزه مستطيل قليل العرض ، تتمد وجه المعتنى بها وبحيراته الصناعية وشلالاته وأكشاكه إلى شمال المقر الرسمي للملك في الجانب الآخر من المدينة المواجه للسوق ، وفي هذا المكان قابله أحد أفراد رعيته ونصح له في شيء من التجلة المزوجة بالاهتمام بالعودة إلى قصره .

وهناك أبلغه وزرائه أن الجمهورية قد أعلنت . فعمل هو وأسرته قليلا من الأمتعة في أيديهم وغادروا المدينة في سيارة غير مصحوبين بالحرس ولم يتعرض لهم أحد ، ونزلوا في برختسجادن .

وفي ١٣ من نوفمبر تنازل لودفيج رسمياً عن العرش ، وأحل جميع الموظفين والجنود البافاريين من يمين الولاء الذي أقسموه . وهكذا كانت أسرة برختسجادن هي الأسرة الأولى التي استسلمت للنظام الجديد في ألمانيا . ويقول كورت أيزنر في هذا الشأن « حكمت أسرة برختسجادن بافاريا سبعة عشر عاماً ، وأنا تخلصت منهم في سبع ساعات بمجموعة سبعة رجال » .

وما إن حل أول نوفمبر حتى انهارت جميع العروش الألمانية . ويقول رالف هازول لوتس في مؤلفه القيم (الثورة الألمانية) .. وأخذت الأعلام الحمراء ترفرف فوق القصور الملكية ، واختفت الشعارات الملكية من المحاكم والصحف ومن عالم التجارة » .

ومع أن بيوت أمراء ألمانيا كانت تمثل الدعائم التقليدية لولاء الولايات للإمبراطورية ، إلا أن انهيارها أدى إلى قيام حركة قوية تطالب بالانفصال عن الإمبراطورية ، وكان أحد شعارات بافاريا في أثناء الثورة « البعد عن الإمبراطورية الانفصال عن بروسيا » بينما سبق لنواب الولايات البولندية والدانمركية ونواب الإلزاس واللورين ، أن أعلنوا انفصالهم في جلسة علنية للبرلمان .

وهكذا كانت ألمانيا مهددة في وقت واحد بالشيوعية وبتقويض وحدتها القومية . وكان من الضروري لتجنب هذين الخطرين أن تتولى الحكومة المركزية نفسها قيادة الحركة الثورية ، والسير بها في طرق قومية بعيدة عن مواطن

الخطر . ويبدو أن هذه الفكرة مرت في وقت واحد في خاطر البرنس ماكس فون بادن وقادة الديمقراطيين الاشتراكيين المحافظين وبخاصة فردريك إبرت . ولقد وجه المستشار السؤال التالي إلى إبرت « هل إذا ذهبت إلى سبا وحصلت على تنازل من القيصر ، أيمكنني أن أعتمد على معونتك في مقاومة الثورة الاجتماعية ؟ » فأجاب إبرت وهو من رجال الجيش القدامى ، وألبسته استقامته الاحترام الكثير « لست في حاجة إلى الثورة الاجتماعية . إني أمقتها كما أمقت الإنم » .

وكان المستشار وإبرت يعرفان شدة تعلق الألمان بالنظام الملكي ، ولذلك بذلا كل جهد لإقحام الأسرة الإمبراطورية بتضحية كبير الأسرة ، ولكن القيصر لم يتعاون معهما . لذلك يئس البرنس ماكس وبعث باستقالته ، وكان مريضاً بالأقلونزا التي كانت منتشرة حينذاك في جميع أنحاء أوروبا ، إلا أنه لم يقبلها ورفض طلب التنازل ، وفشل كل رجاء قدم إلى هندنبرج للتدخل في هذا الشأن كذلك . إذ أن هذا الجندي القديم لا يستطيع حتى أن يفكر فيما يسىء إلى مليكه الذي أقسم له بيمين الولاء .

وفي ٨ من نوفمبر انتهت الحرب من وجهة النظر الألمانية . ففي هذا اليوم في مكان خلا من غابة كبين ، وفي إحدى العربات التي أعدت لتكون مطعماً وأُلحقت بقطار المارشال فوش ، أجابت لجنة الهدنة الألمانية التي يرأسها وزير الدولة ماتيئاس إرزبرجر « بنعم » عن سؤال المارشال فوش الموجز « هل تطلبون هدنة ؟ » . ثم أخذت اللجنة تسمع إلى الشروط التي فرضت على ألمانيا مادة مادة ، وقد تليت بالفرنسية أولاً ثم بالألمانية . وأخذت وجوه أعضاء اللجنة تصفر وتجمد . وأجهش بالبكاء بصوت مسموع المترجم الألماني الشاب ، لأن الهدنة أريد بها أن تضع ألمانيا تحت رحمة المنتصرين ، وهو ما كان يرمى إليه فوش . ولم يكن

القيصر يدري حتى مساء ٨ من نوفمبر ماسوف تتمخض عنه مأساة غابة كمين . وكان في أول النهار قد أمر باتباع خطة ترمى إلى أن يعيد الجيش السلام إلى الدولة ، ولم يتحول مطلقاً عن الاعتقاد بأن الجيش الذى أقسم يمين الولاء لأوامر القيصر كان كالدرع بين الثورة وبين الأسرة الحاكمة . وظلت القيادة العليا إلى هذه اللحظة ترى من غير المناسب أن تكشف له حقيقة الحالة . وعندما وقف على حقيقة الأمر كان يرى أن واجب الجيش يقضى عليه بطاعة الأمر ، وأن واجبه أن يتولى قيادة الجيش . ولقد تحدث بهذا المعنى إلى البرنس ماكس الذى ظل بمحادثته تليفونياً حوالى نصف ساعة بمحدث صادر من القلب ، بوصفه أميراً ألمانياً ومن ذوى قرابته ، ليوافق على التنازل السريع عن العرش ، وأمام إصرار القيصر على الامتناع عن التنازل رجاء الاستشار أن يعفيه من العمل ، ولكن غليوم رفض إخلاء سبيله وقال له فى سخرية : « إنك طلبت الهدنة فلا بد أن تبقى لتنفذ شروطها » .

وكانت هذه هى آخر ليلة فى تاريخ الإمبراطورية . وفى هذه الليلة ذهب آخر قيصر إلى فراشه دون أن ينبئه رجاله بأن خطته أضغاث أحلام ، وألا شئ مطلقاً فى وسعه أن يصد الثورة التى تقرر قيامها فى برلين فى اليوم التالى .

وأرسل أمر غليوم بأن توضع خطة مقاومة الثورة إلى القائد الجديد الجنرال ولهم جرونر (كان لودندورف قد تنحى عن مكانه بسبب المرض العصبى الذى أصابه ، وبسبب مطالبة حكومة براين برأسه) ، وهذا الضابط ابن ضابط سابق من جنوب ألمانيا معروف بسداد رأيه وكفايته الإدارية . وكان منافساً للودندورف ، ولكنه أغفل لأنه لم يكن لا ينتمى إلى طبقة رجال الحرب . ولما بلغت تعليمات القيصر قرر أن إخفاء الحقائق لم يعد مناسباً للظروف ، وفى حديث يفيض بالشعور والإخلاص وضع الحقائق واضحة أمام رئيسه هندنبرج الذى كان مركزه فى القيادة العليا يوصف بمركز الصفر العظيم الاحترام .

وأبلغ — وهو أبعد ما يكون عن الولاء المطلق للإمبراطور — المارشال العجوز أن الجيش هو في طليعة الثورة ، وأن مجالس الجنود العمال استولت على مراكز السكة الحديد ومستودعات الذخيرة وعلى كل الجسور التي على نهر الراين . ولا يمكن تنفيذ الخطة التي أمر بها الإمبراطور ، فبكى هندنبرج وبكى فون بلسن ، وهو في السابعة والسبعين من عمره . وكان أركان حرب الإمبراطور غليوم الأول ، وكان شعاره « يجب ألا يبلغ القيصر إلا الأبناء السادة » ، إلا أن أحداً لم يذهب ليرى غليوم في برجه العاجى . وأبلغ البرنس ماكس فون بادن القيادة الحربية العامة تليفونياً أنه إذا لم تنشر أنباء التنازل في الصفحات الأولى من صحن الصباح لتطلع عليها الجماهير وقت الإفطار ، فسيحتشد العمال في الشوارع بعد استراحة منتصف الصباح بناء على تعليمات القيادة الاشتراكية .

وقدمت إلى القيصر مع وجبة الإفطار التحذيرات وتوسلات التنازل التي وردت من برلين . إلا أن ذلك لم يمنعه من القيام بما اعتاد — أن يقوم به عليه القوم — من المشى الهادئ وعصاه في يده والوقوف أحياناً والحديث الجاد في أثناء المسير . وأبلغ الحراس الذين كانوا عند الأبواب أنه سوف يبقى على مقربة منهم ، وأمر أن يستدعى إذا ما قدم هندنبرج . وكان الصبح مليئاً بالضباب ، وقطرات النداء تنساقط من فروع الأشجار الجافة . ولكن يبدو أن البرد نشط الإمبراطور ، فأخذ يطيل التحدث عن أخطار البلشفية إلى الضابط المرافق له . وأنباء وهما يمران بجوار أحواض الزهور القائمة من أثر الصقيع أن الحقاء لابد عاجزون عن رؤية الخطر الذى تتعرض له ألمانيا من جرائها . وكان من رأيه أن هذه الحركات الثورية — ولو أنها متعبة — يمكن القضاء عليها . وأخيراً قال « فى إمكاننا التغلب على هذه الصعاب بعمل حربي سريع » . ولكن ساعة الجدل كانت آتية . لقد جاء أحد الحراس مسرعاً يعلن قدوم المارشال .

وفي الحجرة التي أسدلت فيها الستائر بإحكام، وكانت النار تشتعل في الموقد، كان ستة رجال في ملابس الميدان الرسمية واقفين يعضون شفاههم ويحركون أقدامهم قدماً بعد أخرى في اضطراب وقلق. وشرع هندنبرج في الكلام بعد أن بذل جهداً كبيراً في ضبط أعصابه، بينما كان القيصر يمد يديه ليدققها على النار.

كان هذا الجندي العجوز ذو الرأس الكبير الأشيب يرجو القيصر قبول استقالتهم والدروع تملأ عينيه، وقال إنه لا يستطيع بوصفه ضابطاً بروسيا ولم يستطع تكملة الحديث، فأشار إلى جرونر أن يتمم الحديث الذي بدأه وأن يبلغ الإمبراطور أن نهايته قد حلت. فالموقف كما يراه لا أمل فيه. والجيش قد هزم، وألمانيا في قبضة رجال الثورة، وأصبح المستحيل أن تجمع ألمانيا بين حرب الأعداء وحرب أهلية. والجيش لا يمكن الاعتماد عليه، وخطة الإمبراطور لا يمكن تنفيذها، والموقف يقتضى طلب الهدنة السريعة غير المعلقة على أى شرط. ومع أن جرونر لم يشارك سائر الضباط البروسيين شعورهم الغريب في تقدسهم للسيد الأعلى إلا أنه تجنب ذكر لفظ «التنازل». وكان يأمل أن يفهم جميعاً من هذا العبء الثقيل، وأن يستنتج بنفسه الخاتمة التي لا مفر منها.

وقطع السكون الرهيب أحد الضباط الموجودين الذين استمعوا إلى البيان الذي أوصحه جرونر بصبر نافذ. وكان يبدو دون أن ينبس بكلمة واحدة أنه يستأذن القيصر في الكلام. وكان الكونت فردريك شولنبرج - الذي وصف في معظم المذكرات بأنه ضابط بروسى من المدرسة القديمة وعلى خلق عظيم - كبير ياوران ولى العهد (والد ضابط بروسى أعدم بعد اتهامه بالاشتراك في مؤامرة ضد هتلر سنة ١٩٤٤) وقد نفى بكل حماسة أن الجيش لا يعتمد عليه. وقال: «أعطوا الجيش وقتاً كافياً للنوم والتخلص من قلمهم. فبعد ثمانية أيام أو عشرة سيكون

كل شيء على ما يرام. وسيكون الجيش تواقاً لمحاربة الهزائم اليهود وتجار الحرب
الذين خانوه» . . .

وانضم إلى الرأي الجنرال فون بلسن في حماسة عظيمة، ثم أعقب ذلك مناقشة
الموضوع . وبعد أن استمع غليوم إلى رأي الطرفين جنح إلى رأي جديد، وهو أن
يتولى على الأقل قيادة الجيش في عودته إلى وطنه في نظام تام بعد التوقيع
على الهدنة.

وتنهى جرونر متضيقاً لأن القيصر لم يفهم الآن حقيقة الموقف . وصمم على
مصارحته بكل شيء فقال : «سيعود الجيش إلى أرض الوطن في نظام تام تحت
إمرة قواده لا تحت إمرة جلاتك . لم يعد الجيش موالياً لجلالتك» . وأصابته هذه
الكلمات القيصر في الصميم، فالتفت إلى جرونر وقال : «أريد يا صاحب السعادة
أن تثبت صحة ما تقول» . ثم نظر إلى هندنبرج نظرة استيضاح للأمر فلفظ بعض
الكلمات المهذبة، ولكنه قال إنه يعترف أنه لا يمكن الاعتماد على ولاء الجنود .
وعند ذلك أصبح الموقف دقيقاً للغاية .

وفي هذا السكون المريب أصبح صوت المسرة والصوت المزعج الذي يتولى
الرد على أسئلة برلين لا يمتثلان . وأجل القيصر الاجتماع، وفتحت نوافذ الحجرة،
وأبلغ أحد الضباط أن المستشار على التليفون يود التحديث مع جلالته . ثم ذهب
المجتمعون إلى الحديقة، وعاد جرونر الذي تحداه القيصر أن يثبت صحة ما يقول
إلى الفندق البريطاني حيث كان عدد من ضباط الجيش مجتمعين، وكانوا قد أتوا
من ميدان القتال ساعة الفجر بناء على طلب القيادة. وكانوا في شدة البرد والتعب
والجوع، ولم يعد لهم أحد طعام الإفطار نظراً للقوضى السائدة، ولم يعرفوا سبب
دعوتهم إلا ما استنتجوه من الوجوم المكفهر والعيون المحترقة وتجنب القيادة
(٣٤٢ - الأسر)

الإجابة عن أسئلتهم. وقبل الساعة العاشرة وصل المارشال عمر العينين صاحب اللون ، وعرف منهم صورة مريعة للموقف في أرض الوطن وفي جبهة القتال ، وأعقب ذلك سكون يشبه سكون أهل القبور ، لا يقطعه إلا ما يتفوه به رئيس أركان حرب القيصر الذى حضر الاجتماع مصادفة . وبعد أن سألهم هندنبرج بعض الأسئلة أمر أحد الضباط أن يوجه أسئلة إلى التسعة والثلاثين ضابطاً كل منهم على انفراد .

وكان عليه أن يسأل سؤالاين أحدهما: هل يستطيع القيصر أن يسترد سلطانه على ألمانيا بمعونته جيشه؟ فرد واحد فقط: « بنعم » - ٢٣ « بلا » - ١٥ ردوا ردوداً مبهمه . وكان السؤال الثانى: هل يتقدم الجيش لمحاربة البلاشفة فى ألمانيا ؟ . فكان جواب ٨ « بنعم » - ١٩ « بلا » - وأجاب ١٢ « غير محقق » .

وعاد جرونر إلى الفيلا حوالى الساعة الواحدة . وكان القيصر لا يزال فى الحديقة واقفاً بين عدد من الضباط ، يتحدث بصوت جهورى ويشير بيده اليمنى ، وكان هناك أيضاً ولى العهد الذى وصل حوالى الظهر ، وكان حزيناً لمنظر والده . وجاء فى مذكراته عن القيصر فى هذه اللحظة « كان وجهه شاحباً وتدل ملامحه على الإجهاد . إني حزين من أجله » .

وفى أثناء النقاش الذى جرى فى الحديقة كان الضباط الذين فى بيت القيصر الحربى - شولنبرج وولى العهد - الجميع يتقدمون بالنصيحة إلى الرجل السيء الحظ الذى سوف يتقرر مصيره . إنه الآن يمسك بالقشة التى مدت إليه . إنه مستعد أن يضحي لمنع الحرب الأهلية (لقد حكم طويلا وعرف أن الحكم عمل غير مشكور ، فليتركه لغيره عليه يكون خيراً منه) ، ومستعد أن يتنازل بصفته إمبراطور ألمانيا لا ذلك بروسيا . ويجب أن يبقى ملكاً على بروسيا وعلى رأس جنوده البروسيين .

وكان الرجال الذين أخذوا يسرون ذهاباً وإياباً فوق حصي المشي الجليل مشغولين بالموقف، بحيث لم يعد لحديثهم أى معنى إزاء زحمة أحداث التاريخ . وكانت البرقيات ترد متوالية بأن الثورة قامت فى ميعادها المقرر ، وأن بعض الكتائب العظيمة الولاء للإمبراطور قد رفعت العلم الأحمر ، وظل التليفون يدق فى الفيلا ، إذ كان مكتب المستشار فى برلين يريد معرفة ماتم فى موضوع التنازل عن العرش . وكان جواب المكتب فى سبأ أن القرار موضع التفكير الآن .

وعندما رأى الإمبراطور جرونر سألته عما وصل إليه من بيانات عن الحالة . فما كان من جرونر - وهو أشبه بناظر مدرسته عليا فى الريف لولا حلته الرسمية - إلا أن أوما برأسه ، فقرأ الضابط الذى كان يرافقه نتيجة الاستفتاء الذى أجرى بين الضباط ، ثم تلخص الإحصاء فى صوت مرتفع : « إن الجيش مخلص لجلالتكم . ولكنه مجهد وقد حماسته . ولا يريد إلا أمراً واحداً، الراحة والسلام، ولا يرضى أن يتصدى للبلاد حتى تحت قيادة جلاتكم » .

ثم أعقب ذلك فترة سكون أخرى قطعها شولنبرج بكلمة حماسية عن قسم الضباط للعلم ، والرئيس الأعلى للحرب .

ثم نطق جرونر - وهو الوحيد الذى كانت كلماته مناسبة لمقتضى الحال - بالحكم الذى ختم به العهد : « يمين الولاء للعلم ؟ الرئيس الأعلى للحرب ؟ ما هذه إلا مجرد ألقاظ » .

ويبدو أنه لم يكن هناك ما يقال بعد ذلك إلا القليل ، وفلا كان ما قيل جد قليل . لقد جاء رسول يجرى من البيت يحمل أخباراً جديدة من برلين : « لقد ألفت زمام الموقف من أيدينا ، وفرق الجيش تنضم الواحدة بعد الأخرى إلى

البلاشفة . وظل غليوم ضامناً بغض الوقت ، ثم أصدر قراره الأخير بوصفه قيصر ألمانيا . إنه يقبل التنازل بصفته إمبراطوراً لا باعتباره ملكاً لبروسيا . ولا بد من قبول الهدنة ، وأن يكون هندينبورج الرئيس الأعلى للجيش .

ثم أذن للضباط أن ينصرفوا ، وذهب للغداء ، ثم اجتمعت لجنة لصياغة عبارة التنازل . وكان هذا جهداً ضائعاً كما تبين بعد قليل ، فإن القرار لم يعد من اختصاص غليوم .

وكان الغداء الذي أعد في حجرة الطعام في الفيلا على مائدة مزدانة بالزهور المقطوفة حديثاً من الحديقة ، من الذكريات المؤلمة التي يذكرها ولي العهد . وكان القيصر غارقاً في تفكير عميق يقضم شفته العليا بعصبية ظاهرة . ولم يكن أى فرد يقطع هذا السكون ، وظل الطعام في الأطباق . ولما انتهى الغداء وانسل غليوم في وجوم هو وابنه وشولنبرج وبعض الضباط المخلصين إلى حجرة الجلوس لتناول القهوة ، إذا بالبواب قد فتح ، وسمع صوت منخوق من الحجرة المجاورة : « أسمح جلالتيك أن تتفضل بالقدوم إلينا لحظة واحدة » وكان الأميرال هنتز مندوب وزارة الخارجية في سبا لا يزال قابضاً بيد مرتعدة على سماعة التليفون ، وكانت الساعة الثانية عندما ما طلب براين ليلغها نص التنازل . وقاطعه المتكلم من لدن المستشار في مبدأ الحديث في شيء من الغلظة قائلاً : « أهو التنازل أخيراً ؟ » . وعندما تلا هنتز الفقرة المتعلقة بتنازل القيصر بصفته إمبراطور ألمانيا لا بصفته ملك بروسيا صاح المتحدث في برلين قائلاً : « هذا جنون » . وقبل أن ينتهي هنتز من البيان قاطعه ثانياً : « إن صورة التنازل قد طبعت ، وتباع الآن في الشوارع ، وهي معي الآن . وسأقرأها لتعلم ما بها » .

كان المتكلم باسم البرنس ماكس على التليفون طوال الصباح ، ليحصل على

النص النهائي للتنازل من سبا . ولذلك لم يعرف أن المستشار في منتصف الساعة الثانية عشرة (لاعتقاده أن التنازل قد أعيد ولشدة الاضطرابات في الشوارع) قد بعث ببيان لوكالة واث . يعلن فيه قرار الإمبراطور بالتنازل عن العرش بالإصانة عن نفسه ، وبالنيابة عن ابنه ولي العهد . وفي منتصف الساعة الأولى ، يذاع إعلان جميع الحراس العصيان ، بما فيهم فرقة الإمبراطور إسكندر وهي مفخرة غليوم ، تتنازل البرنس ماكس عن سلطته إلى إيرت .

وإذا كانت النشرة ذات العناوين الضخمة الخاصة بالتنازل مفاجأة لمدوب المستشار (وهو الآن المستشار السابق) في برلين ، فإن نص التنازل الذي أعلنته وكالة الأنباء كان مفاجأة مذهلة لمتن المسكين في سبا . وقد أنبأ بها القيصر الذي وقف مشدوهاً وهو يشرح له الموقف .

كانت هذه الإهانة التي وجهت إلى الإمبراطور هي التي أذهلته هو وضيوفه . « أطلقت ألسنتهم : » لم نسمع بمثل هذا من قبل . . . قرار يتزع من يدى . . . خيانة . » ثم تلى ذلك كتابة عدة برقيات ، وأوامر بإحضار الأسلحة إلى الفيلا ، وأوامر بحضور هندنبرج وجروزر فوراً . وما بدا من تصميم غليوم على المقاومة ، شجع ولي العهد على أن يستأذن للخروج . فقد كانت الحاجة ماسة إلى وجوده في ساحة القتال . ووصلت شروط الهدنة إلى سبا ولكن أحداً لم يدرسها ، وكان القتال لا يزال دائراً في جميع الخطوط . وبما قاله ولي العهد : « لم أكن أتصور عندما سلمت عليه أنى سأراه (القيصر) ثانية بعد مضي سنة في هولندا » .

وعاد إلى مركز القيادة هندنبرج وجروزر ومستشاروهم يعتمدون مؤتمراً لتقرير ما يجب عمله مع ملكهم وقائد جيشهم المطرود . لقد أوضح جروزر من

قبل رأيه في حديث غير رسمي له مع هندنبزج وبلسن . لقد كان رأيه أن يقصد الإمبراطور إلى جبهة القتال ويعمل على أن يلتقي فيها مصرعه، وهو ما أفرغ القائدين الآخرين ، ولم يقره غليوم (لاعتبارات إنسانية دينية سامية) علماً بأن هذا الرأي لم يبلغ إليه رسمياً .

ومما جاء في مذكرات القيصر السابق « يرى البعض أنه كان على الإمبراطور أن يقصد إلى إحدى الفرق في جبهة القتال ، وأن يهجم بنفسه بها على العدو وأن يعمل على أن يلتقي مصرعه في هذا الهجوم . إن مثل هذا العمل لا يؤدي إلا إلى منع الوصول إلى اتفاق على الهدنة فحسب بل يترتب عليه التضحية بأرواح الكثير من الجنود » .

ثم إن غليوم يذكر في مذكراته أيضاً أن « موت البطل » في جبهة القتال فيه انتهاك لمبادئ المسيحية ، ولا يتفق مع مركزه الشرفي ككبير أساقفة الكنيسة الإنجيلية الألمانية . ويبدو أن رأى رئيسهم السابق كان معروفاً لدى المجتمعين في الفندق البريطاني . وعلى كل حال فإن رأى جرونر الذى كان من الممكن أن ينقذ الملكية لو أنه نفذ في الوقت المناسب ، أصبح لا يمكن تنفيذه في التاسع من نوفمبر ، وكان من المستحيل أن يعود القيصر إلى وطنه . إذ كانت الطرق المؤدية إلى ألمانيا مملوءة بالثوريين الحمر ، ولم تعد سبا نفسها آمنة ، وأخذت مجالس الجنود تتجمع في الظهور . وكانت وجوه الناس تعلوها الكآبة ، ولا أحد يؤدي التحية العسكرية للضباط ، إذا ما ظهروا في شوارع البلدة الصغيرة ، مما قابله البلجيكيون بالسرور والسخرية . ولم يكن من المحقق أن الكتيبة المنوط بها حراسة الإمبراطور قد بقيت على ولائها . ولما ذكر هندنبزج قتل قيصر روسيا وأسرته في إكاترنبرج صمم على وجوب رحيل الإمبراطور فوراً

قبل فوات الفرصة ليلجأ إلى بلد محايد . ووافق على الرأى أخيراً جرونوا
وسائر الرجال .

وعادوا في الساعة الرابعة بعد الظهر لينبثوا القيصر بقرارهم ، فلما رآهم صاح
قائلاً لهم « يا إلهي أنتم تجتمعون ثانياً » . ثم التفت إلى جرونو وقال له في حق
شديد « لم يعد لكم رئيس أعلى للحرب الآن » . وكان واضحاً أنه في حالة
لا تمكنه من التعاون معهم . ولاحظ أحد الضباط الموجودين أن لا بد من
مرور بعض الوقت حتى يصدر الإمبراطور قراره ، وأخيراً سمح غليوم بأن تتخذ
« الإجراءات التحضيرية » للهجرة إلى هولندا .

وكانت هذه الإجراءات قد أعدت من قبل سواء أرضى بها أم لم يرض .
ويذكر شهود ذلك العهد أن ضابطاً هولندياً مضى في البلد عدة ساعات في صباح
ذلك اليوم وأدبت بعض التمرينات الحربية من أجله . وكان أداء هذه التمرينات
في ذلك اليوم لا معنى له ، مما أدهش المراقبين المحليين لخروجها عن المألوف ،
وكان اختيار هولندا وتفضيلها على سويسرة ليلجأ إليها القيصر لأنها على
مسيرة أربعين ميلاً فحسب من سبا ، بل لأنها أيضاً كانت ملكية .

ولم يكن من السهل على غليوم ، وقد قضى هذه الأعوام الكثيرة من حياته
وهو يخفي مآلديه من الشك والتردد — أن ينتهي إلى رأى في موضوع هجرته .
وقد راق له في فترة ما فكرة التضحية بحياته بضمن غال ، محاطاً بأتباعه الخالصين
في فيلته المحاصرة ، حتى كاد أن يأمر بإحضار الأسلحة إلى مقر إقامته . ولكنه عندما
انتهى النهار وأخذ الظلام يرخي سدوله على الكون ، اقتنع بالعودة إلى قطاره
الخاص الذي كان يستخدمه مقرأً متنقلاً للقيادة، وكان دائماً مستعداً تحت تصرفه .

وحتى هذه اللحظة كان غير موافق على فكرة الهجرة . وعندما وصل .

إلى القطار، ونجد رسالة من القيصرية التي كانت في بوتسدام تنبئه فيها أنها على ما يرام، وترجو أن يكون بخير. وهنا صاح الإمبراطور « يريدون مني الرخيل إلى هولندا، وزوجتي باقية هنا... إن هذا يزعجني ».

ورآه ضابطان بحريان وهو في طريقه إلى عربة الأكل في القطار مصمماً على البقاء، وقد رجاه الضابطان إعفاءهما من الخدمة فقال لهما « لا.. يجب أن تبقيا فاني باتي ». ثم طرق المائدة بيده في عنف وقال : « لا . لا . أنا باتي هنا ولن أسافر ». ولم يقرر الموافقة على السفر إلا بعد العاشرة مساءً، وقال في تصميم « ولكن لن يكون ذلك إلا غداً ». وبينما كان هندنبرج يداف إلى فراشه، جاء إليه بلسن لينبئه أن سيده وافق أخيراً على السفر إلى هولندا صباح الغد. ورغم ما كان يقاسيه من الإجهاد قرر المارشال العبور الإسراع إلى القطار، إلا أن بلسن نصحه بالأفضل ذلك قائلاً « يجب عدم إقلاق القيصر مرة أخرى في هذه الليلة، وفي الغد متسع للمقابلة ».

وبينما كانت نعمة النسيان قد جلت برأس القائد العام العبور كان رئيس أركان حربه يعمل طوال الليل. لقد كان حل مسألة الأسرة أمراً هيناً، وقد لا يكون جروزر متفقاً مع الاشتراكي الألماني الذي قال « إن خير خدمة يؤديها غليوم لبلاده بعد أن حكمها مدى ٣١ عاماً هي مغادرة البلاد ». ولكن بما يخفف الأمور على كاهل الإنسان قدرته على الاهتمام بالمسائل الخطيرة.

وكان أهم ما يشغله عودة الجيش الألماني إلى البلاد في نظام تام وإقازد ألمانيا من الثورة البلشفية. وقد أبلغت شروط الهدنة إلى سبا في نفس اليوم، ومن شروطها جلاء الجيش الألماني عن بلجيكا وعن الأتراس واللورين في مدى خمسة عشر يوماً، حتى تتمكن قوات الحلفاء من احتلال الضفة اليسرى لنهر الراين، ويتسلم المنتصرون كل الأسلحة الألمانية. وكان من الضروري أن يكون لدى

ألمانيا حكومة قوية تستطيع المساومة في هذه المطالب ، وكان مفتاح الموقف في برلين . وأمسك جرونر بالتليفون الذي يربط القيادة العليا مباشرة بمكتب المستشار وقال البرنس ما كس لإبرت بعد الظهر قبل سفره إلى بادن حيث كانت هناك ثورة صغيرة « اعمل كل ما في وسعك للبلاد » ، وأجاب إبرت حزينا « لقد أعطيت الدولة اثنين من أبنائي » ، ولكنه ما كان يدرى تماما خدماته المقبلة لبلاده . كانت الهزيمة مضافة إلى الحرب الأهلية تفزعه وليس أمامه من يستطيع الاعتماد عليه ، لقد جلس حزينا يستمع إلى ضجيج الجماهير تحت نوافذ حجرة المستشار .

ثم دق جرس التليفون وأمسك بالساعة في عصبية ظاهرة ، وسرى عنه كثيراً صوت جرونر ، إذ أن كلا من الرجلين يعرف الآخر ويحله ، ودخل إلى لب الموضوع من أقصر الطرق وسأل « هل إبرت يرغب في إعادة النظام ؟ » فقال إبرت بكل حماسة « نعم » ، وانتهى الرجلان إلى اتفاق سريع : يعمل جرونر على استتباب النظام في الجيش وإعادةه إلى البلاد في نظام تام . ويعاون إبرت ضباط الجيش في القضاء على البلشفية ، ويعمل على ألا يحول أى شئ دون انتظام حركة المواصلات . وكان من المتفق عليه بقاء هندنبرج على رأس الجيش .

ولقد حدد هذا الحديث التليفوني مستقبل الجمهورية الألمانية . سيؤيد الجيش الحكومة الثورية ، وعلى هذا الأساس سوف تكون قادرة على تحمل مسئولية الهدنة . وربما لم يدرك إبرت أنه كان يسلم الحكم الجديد للجيش إلا أن جرونر الماهر في تدبير الخطط الحربية كان لديه بما يبرر استسلامه لنوم هادى عميق : لقد أدت الأعمال الهامة التي يتطلبها ذلك اليوم .

وفي هذه الأثناء كان غليوم مهتا بمسألة خاصة له . ففي منتصف الساعة

الجماسة من صباح يوم الأحد العاشر من نوفمبر غادر قطاره محطة سبا إلى جوف الليل المليء بالضباب . وكان من بين من لم يعلموا بسفره قبل الفجر رئيس وزارته المدنية المعين حديثاً كلنزفون دلبروك، ومع أنه سارع بمغادرة برلين في الليلة السابقة ليموت بجوار سيده ، تمكن من اجتياز الحصار الثوري ، إلا أنه عقب وصوله إلى سبا بعد شروق الشمس بمدة وجيزة عرف والأمرى يملأ جوانحه أنه قد تأخر بضع ساعات عن موعد لقائه مع الموت .

ولم يحدث أى خطأ فيما اتخذ من ترتيب لنجاة القيصر . وقد خرج سائقه من المدينة في أثناء الليل في سيارة جردت من أية إشارة تشير إلى صاحبها، على أن ينتظر على مقربة من سكة الحديد على بعد بضعة أميال من الحدود الهولندية . وانضمت إليه عشر سيارات أخرى في الطريق في المكان المعين، وكان الضوء الصادر منها خافتاً بسبب الضباب الكثيف الذى ملأ الجو عند وصول القطار الذى يقل الإمبراطور . وكان الظلام ما يزال غمياً في المكان . وسار غليوم وقد التف بمعطفه إلى سيارته التى فى المقدمة ودلف إليها، وركب من معه السيارات الأخرى .

ووصل الركب إلى إحدى نقط الحدود عند أيدن في الساعة ٧ر٣٠ صباحاً قبل وصول أى موظف هولندى ذى مكانة يستطيع التصرف فى مثل هذا الموقف . ولما جاء الموظفون عاملوا اللاجئين بأدب جم ، ولكنهم صمموا على مراعاة بعض الرسميات .

قد أعيد بعض أفراد الجماعة من ضباط الجيش على أساس أنهم من رجال الحرب ، كما طلب من غليوم أن يودع سيفه لدى إدارة الجرك لحفظه بها . وبعد قليل وصل إلى قلعة أمرنجن فى هولندا التى سوف يقضى بها الأشهر الأولى من منفاه المريح . وقال لمضيفه بعد أن مدرجليه أمام الموقد طلباً للدفء « والآن

ياعزى الكونت «أود أن أشرب فنجاناً من الشاي الإنجليزي الساخن» .

وبعد يومين وصل إلى هولندا ولى العهد ، مع أنه وعد قواد فرقته وعداً أكيداً بأنه باق فى الجيش . ولربما سجل التاريخ من حوادث الهجرة ما كان آلم أو أبعد عن اللياقة من هذه الهجرة ، ولكن قل ما كان أكثر ضعة منها .

ومن الناحية الرسمية البحتة لم تنته مدة حكم الهوهنزولرن البالغة ٢٥٠ سنة إلا فى الثامن والعشرين من نوفمبر سنة ١٩١٨ ، عندما وقع غليوم وهو فى منفاة وثيقة . التنازل عن العرش بوصفه ملك بروسيا وإمبراطور ألمانيا (وتنازل ولى العهد عن حقوقه فى العرشين فى أول ديسمبر) . وهكذا انتقل واجب رعاية حياة ستين مليوناً من الألمان الذين أنهكتهم الحرب وكذلك عبء قبول شروط الهدنة الجائرة التى أملاها الأعداء المنتصرون — إلى رجال الحكم الجديد فى برلين . فهم الذين عليهم رآب الصدع ولم الأشلاء المبعثرة .

ولم يكن فردريك إبرت وزملاؤه من دعاة الثورة . فقد ظلوا منذ سنة ١٩١٤ يؤدون جلائل الأعمال التى تتطلبها تقوية الجيش الألمانى ، واكتسبوا بذلك لقب الاشتراكيين الصالحين ، ولى إبرت رجاء البرنس ما كس فون بادن ، وقبل أن يكون مستشار الدولة لبس السترة الرسمية والياقة المنشأة ، ولم تكن آراؤه أشد تطرفاً من الدوق الذى حل محله . وقد كان يؤيد مثل البرنس ما كس حكومة حرة نيابية شبيهة بالحكومة البريطانية ، وكان يود إقامة نظام الوصاية فى شخص أصغر أبناء غليوم البرنس أوجست ولهم ، والواقع أن نظام الحكم فى ألمانيا قد تقرر دون أن يشترك إبرت فيه . فبينما كان يتناول غداءه مع زميله شيدمان فى مطعم الريشتاج بعد ظهر يوم ٩ من نوفمبر ، اقتحم المبنى وفد من العمال لإلقاء كلمة . فترك شيدمان غداءه ، ولما أطل من الشرفة أنبأه أحد أتباعه أن ليننخت يعتزم

أن يعلن قيام حكومة جمهورية سنوفيتية من القصر الإمبراطوى ، قالنى شيدمان خطابا قصيرا على الجموع الثائرة وختمه بفضل سرعة بديته بهذه العبارة « لقد تقوضت الملكية البالية الفاسدة . فلتحيا الحكومة الجديدة ، ولتحيا الجمهورية الألمانية » وهكذا قامت الديمقراطية أرتجالا لمنع قيام ثورة جماهيرية .

وقد احتدم غضب إبرت لإعلان صاحبه الذى صارت له الغلبة، ولكنه أدرك أنه أتى خطابته فى الوقت المناسب. فلقد كانت الجموع ذات الوجوه السكالحة والملابس الزرّة تتدفق من الضواحي إلى قلب المدينة ترفرف فوق رؤوسها الأعلام الحمر، ومنعها من أطلق سراحيهم من المسجونين وأسرى الحرب فى هرج شديد . وعندما أطل فون بيلوف — وهو رجل عجوز — من النافذة فى فندق ألدون رأى أن دنياه قد زالت قال « قلما رأيت من قبل مثل هذه البشاعة . لقد رأيت عددا من الشبان وعلى أذرعهم شارات الديمقراطية الاشتراكية، وكانوا لا يسيرون فرادى وينقضون على أى ضابط يلبس الصليب الحديدى أو إشارة التقدير ، ثم يوثقون ذراعيه إلى جانبيه ويمزقون الشارة على كتفه » .

وكان يبدو للمراقب السريع التأثير أن أول يوم فى حياة الجمهورية الألمانية — ١٠ نوفمبر — هو آخر يوم فى حياتها .

وكان فى عناوين الصحف الكبيرة التى نشرت نأيا رحيل القيصر بعض ما أقلق أهالى العاصمة عندما كانوا يقرءون الصحف ويتناولون طعام الإفطار. والصحف نفسها فى كثير من الأحوال لبست أثوابا جديدة ، فمثلا صحيفة لو كاله انتسايجر صارت (العلم الأحمر) ، ولكن إبرت كان — مع ذلك — يعتقد أن الأمور لم تسؤ إلى الحد الذى تدل عليه الظواهر : واعتمادا على اتفاقه التليفونى مع جرونر شرع يعمل فى الحال على إقامة حكومة مؤقتة — وهى من مستلزمات اتفاق الهدنة ، وليضطلع بأعباء الحكم إلى أن يتم انتخاب الجمعية

التأسيسية، وأخذ يغرى الاشتراكيين المستقلين على الانفصال عن جناحهم البلشفي المتطرف، بأن عرض عليهم الاشتراك معه في الحكومة. وبعد أن قضى يوماً كاملاً وطرفاً من الليل في جدال عنيف وتهديد خطير أمكه أن يصل إلى هدفه بإقامة حكومة مؤقتة، لكنها قانونية وقوية، تستطيع أن تتكلم باسم الجمهورية الألمانية الجديدة.

وفي الساعة ٢١٥ صباحاً من يوم ١١ من نوفمبر أبلغ إرزبرجر هذه الأنباء السارة إلى مندوب الحلفاء الخاص بالهدنة في ريتوند. وبلغت محادثات الهدنة آخر مرحلة فيها (وإلى هذه اللحظة لم يكن لدى إرزبرجر ما يمكنه من القول بأنه يمثل أولاً يمثل حكومة ألمانية مختصة بقبول شروط الهدنة من الحلفاء. وكان الفرنسيون أكثر ارتباكاً لجهلهم بسير الأمور في برلين، وحاول إرزبرجر مرة في تلك الظروف أن يفسر برقية وردت إليه تنتهي بهذه الكلمات « المستشار الإمبراطوري شلوس » إذ لم يتبين ما إذا كانت البرقية تدل على ظهور قائد جديد للثورة في براين أم لا، لأن شلوس معناها في الألمانية «قف». وبعد ثلاث ساعات وخمس دقائق انتهى التوقيع الرسمي على اتفاقية الهدنة التي أنهت أعظم حرب حدثت في العالم حتى هذه اللحظة.

والسرور الذي أخرج الناس عن قوارهم والذي حيوا به أنباء وقف القتال في باريس ولندن وفي الولايات المتحدة لم يكن له إلا صدى ضعيف في برلين، التي كانت لا تزال تردد صدى انهيار الملكية. وبالنسبة إلى الألمان غطى على سكون الحنادق زجاجة الجماهير الثائرة في الشوارع، وكان وقف القتال في الغرب نذيراً يقرب نشوب حرب أهلية في ألمانيا.

الفصل الثامن عشر

سُقُوطُ بَيْتِ هَابِسُجْرَجْ

عند غسق اليوم الحادى عشر من نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وبينما كانت الجماهير الكبرى من القرح تهتف وتغنى فى ميدان التايمز والشانزليزيه ويكادلى احتفالا بانتهاء الحرب ومولد الأمل ، مرت سيارتان بجانب الحراس ذوى الملابس الزرقة الواقفين عند الباب الخلفى لقصر شونبرون ، وهم بعض الحرس الوطنى النمساوى للنشأ حديثاً ، ومع أن السائقين كانا من رجال الحاشية الإمبراطورية الموثوق بهما، إلا أن السيارتين كانتا من سيارات الأجرة العادية .

وفى تلك اللحظة كان عمال مصنع فلورسدورف للصلب قد قاموا بمظاهرة عند مدخل القصر الرئيسى ، فخرج السائقان لاستعارة سيارتين لكيلا يلفتا النظر إلى ركابهما العظام . وكانوا: زوجين شابين يبدو عليهما الإجهاد، ومعهم عدد أطفال بيض البشرة مأمورين بالانزاع السكون . وهم كارل إمبراطور النمسا ، وملك المجر وزوجته الإمبراطورة زيتا وأولادها الخمسة ، ومعهم ما اتسعت له السيارتان من متاع فى طريقهم إلى المنفى . وكان المكان الذى يقصدون الالتجاء إليه مؤقتاً قلعة إكارنساو الباردة، على بعد خمسة عشر ميلاً من المدينة التى كانت تابعة فى ذلك الوقت لملكمة المجر .

وقد كانت الثورة قد نشبت فى فيينا ، وزادها اشتعالاً أبناء الانقلاب الذى حدث فى ألمانيا . ومع أن كارل كان قد تنحى عن الحكم راضياً ، وكان وزراؤه السابقون فى تلك الآونة يجلسون جنباً إلى جنب مع الوزراء الاشتراكيين الذين خلفوهم فى الوزارات الإمبراطورية الملكية ، يبصرونهم فى يسر وسهولة بأعبائهم الجديدة ، ويتبادلون معهم النكات القديمة على الموقف ، إلا أن حالة الجماهير (٣٥٢ — الأسر)

الجماعة في المدينة كانت غير مستقرة . وكان يبدو أن من الحكمة من جميع الوجوه أن يغادر الملك الخلع وأسرتة المدينة فوراً دون أن يلتفت النظر إلى خروجه .

ويبدو لنوى النظرة السطحية أن فرار آخر أباطرة يت هابسبرج من عاصمة أجداده يفتقر إلى شيء من الطرافة الدرامية ، رغم ما تتطلبه الظروف من عجلة . وكان يبدو على كارل التأثير أكثر من الأسمى . ولم يكن من الواضح تماماً معرفة الأثر السريع لهذا الحادث، شأنه شأن كثير من الأحداث الفاصلة في تاريخ هذه الأسرة التي ظلت تحكم ثلاثمائة سنة كاملة .

ومع أن كارل كان في الواقع قد غادر البلاد نهائياً ولن يسترد أى تاج من التيجان الكبيرة التي أجبر على التخلي عنها ، إلا أنه لم يدرك أن القصة وصلت إلى نهايتها . وقبل كل شيء لم تكن هذه أول مرة يجبر فيها أحد أفراد أسرة هابسبرج على مغادرة فيينا نتيجة للثورة . ولكن حادث سنة ١٨٤٨ يعتبر سابقة يمكن الاستناد عليها في احتمال عودة كارل . وعند ما نزل عن عرشه حرص على ألا ينزل عن حقوقه . وقد كان لا يزال من الوجهة الفنية ملكاً على المجر . ورغم أنه لن يحكم بوصفه إمبراطوراً ، فقد كان من العسير عليه — وعلى أى واحد غيره — أن يلم المائماً تماماً بمحدود الإمبراطورية التي نزل عنها . ولم تكن الخللجات الأخيرة لهذه الدولة الثنائية أقل غموضاً من الحالة القانونية لهذه الدولة . وزاد من ميوعة الموقف والجو الذي ساد نهايته غير الحاسمة إلى حد ما، اختيار ميعاد رحيل الأسرة الإمبراطورية . فلو أن ذلك قد تم قبل مواعده بيومين لكان أكثر خطورة ، ولو أنه تم بعد بضع ساعات فلربما عد عملاً بطولياً .

إلا أن كارل فشل في اختيار وقت رحيله ، كما فشل في معظم أعماله إبان حكمه القصير .

ومن العسير أن نجعل من الخطوب التي تعكر صفو الحياة مأساة عظيمة ،
 ولكن رغم البساطة السطحية أو تنافر الأحداث ، كان انهيار أسرة هابسبرج
 مأساة حقيقية ، لا من حيث نتائجها التاريخية النهائية فحسب ، بل من حيث طريقة
 حدوثها . ولقد ورث كارل تقاليد المزعمة من الأسرة ، ومع أنه كان لا يحسن
 التصرف في أى أمر حتى في المصائب ، إلا أنه أيد ذلك التقليد إلى أقصى حد .
 وإذا كانت القصة يعوزها الجانب الدرامى ، فإنها جمعت في شكل عجيب واضح
 بين حتمية القدر وبين الشعور بإمكان تجنب وقوع الكارثة . وهى تذكر المرء بطائرة
 أفلت قيادها من السائق عند الهبوط ، وقد تغلبت على عدة صعاب صغيرة
 ونثرت قطعاً من الحطام الملتهب على مدى ميل كامل من مكان الهبوط ،
 ثم تنتهى الرحلة باصطدامها وتحطيمها . وكان كارل هو ربانها النعس الذى جاهد
 بكل شجاعة دون جدوى إلى اللحظة الأخيرة مع القدر الذى لا يرحم ، ومع
 أخطائه هو .

ومن عجب أن فشله ظل مثيراً لدى رجال الفكر إلى الوقت الحاضر ، فهو لم
 يمكن وحشاً جباراً مثل عبد الحميد ، ولا قزماً عاجزاً مثل ثيودور ، ولا مخادعاً مثل
 غليوم . كان من الممكن أن يكون كائى واحد منا لولا أنه حسن النية أكثر
 من معظم الناس ، وأقل اكترائاً بالشدائد ، وأكثر صبراً لأحداث الأيام .

إن هذا الوريث لأبجد ستة قرون ، وفروسية القرون الوسطى ، يكاد أن
 يتمص شخصية من يتوق لأن يكون بطلاً جديداً فى العصر الحديث : « الابن
 الصغير فى قبضة الظروف الجبارة » إن مأساة هذا الرجل جذيرة بأن تروى .

إن كارل — كما ذكرنا من قبل — خلف عمه العظيم فرانسيس جوزيف فى
 الحادى والعشرين من نوفمبر سنة ١٩١٦ ، الذى كان ينتظر قضاءه المحتوم بما

جبل عليه من وقار عادى خالص : لقد كان مصاباً بالتهاب رئوى ، ولذلك طلب إليه أن يغادر مكتبه مبكراً فى الليلة السابقة ، ولكنه ترك تعليمات بأنه على استعداد للمقابلات فى الصباح كعادته . غير أنه فارق الحياة قبل طلوع النهار . ولم تكن كاترينا شرأت صديقته الوحيدة حاضرة . فقد رأى أن يمنحها رؤيته فى أثناء مرضه . وأرسلها إلى كوخه الحديدى فى صحبة كارل وهو فى التاسعة والعشرين . وكان عمه يدعو به بالرجل الطيب . وبعد أسبوع — عندما انتهت الصلاة على الميت ، وأقيمت الشعائر الدينية التى لا تؤدى فى الوقت الحاضر إلا عند دفن البابوات ، وسار الإمبراطور الشاب على رأس موكب الجنازة فى شوارع فيينا — اعتقد بعض المشاهدين أنهم رأوا آية استثناف العلاقة بين شعب فيينا الجامع الذى أنهكته الحرب وبين الأسرة الحاكمة ، إذ أن الشعب لم ير الإمبراطور السابق منذ أمد طويل ، وقد أصبح أسطورة فى خيالهم . وهاهو ذا شاب متواضع ، تبدو عليه مظاهر الشباب فى ملابس الميدان عارى الرأس ، ويمشي بينه وبين زوجته ذات الجسم الضئيل الجمال بالسواد من رأسها إلى أخمص قدميها ، ابنه أوتو فى سترته وجواربه البيضاء وشعره الذهبى والملابس العادية المهندمة لطفل فى الرابعة من عمره فى تلك الأيام . وفى هذا العالم الذى يسير قدماً نحو التفكك كان هذا دليلاً قاطعاً على اطمئنان الطبقة الوسطى الذى لن تراه فيينا ولا الإمبراطورية مطلقاً فى الأيام القادمة . لقد كانت الجنازة ذاتها شيئاً آخر : كانت آخر تأكيد قوى للتقاليد العظيمة . وبينما كان جثمان الإمبراطور السابق يرقد رقدته الأبدية ، كانت كل ساعة تمر تتقاضى ضريبة باهظة من أرواح الشباب التى كانت أجسادهم المتعفنة تتحول إلى تراب فى ميادين القتال فى فردن ونهر السوم وإيزونزو حيث يحاصر النمسيون والإيطاليون للمرة التاسعة فى معركة هائلة غير حاسمة . وقليل جداً ممن كانوا على جانبي الطريق فى فيينا هم الذين لم يدركوا أن ما يشهدون إنما هو مجدهم الغابر الذى يشيع إلى مقره الأخير .

شهد أمريكي القمامة التي صاحبت موكب الجثمان قبل أن يسمح بوضعها مع أمثالها في كنيسة كابوشين . وبما روى أنه عندما اقترب الموكب من المدفن تقدم فارس مدجج بالسلاح ، وطرق الباب المغلق ، وعند ذلك أطل راهب ملتحف في عباءة من نافذة صغيرة ثم سأل « من بالباب ؟ » . فكان الجواب « جثمان صاحب الجلالة المعظم إمبراطور النمسا وملك المجر في حاجة إلى أن يلج المدفن » .

فأجاب الراهب « لا علم لنا بمثل هذا الشخص هنا ، وهأنذا أكرر من بالباب ؟ » .

عندئذ قال الفارس وهو ينحنى في تواضع « أخ مسكين مخلوق مثلنا يرجو الدخول ليرتاح الراحة الأبدية » .

فقال الراهب « ادخل » ، وعند ذلك فتحت الأبواب ، وحمل اللحدون الصندوق الثقيل وأودعوه للدفن المظلم .

لقد مات فرانسيس جوزيف ، ودفن وفقاً للقوانين القديمة قدم الأسرة الحاكمة ، ولكن لم تكن هناك قوانين لموت الأسرة ذاتها ، ولقاء الإمبراطورية التي كانت تحكمها . وكان الشاب الضعيف الذي كان عليه أن يؤدي الدور الأخير لا علم له بتلك القوانين — لأنه لم تكن هناك قوانين — ولم يزد صوته على المستوى العادي .

وكان كارل ابن أوتو المشهور « أكثر الدوقات أناقة » الذي مات في عام سنة ١٩٠٦ بسبب الإفراط الشديد في الأكل والشرب ، وكان الوريث بعد موت عمه فرانسيس فرديناند الذي حرم أولاده من وراثة العرش ، وأشرف على تعليمه أمه البسيطة وقساوسة الجزويت ، وكان مستوى تعليمه متوسطاً كما كان

العرف وقتئذ بالنسبة لأبناء الأسر الملكية . وانتهت مرحلة تعليمه بدخوله جامعة
براج حيث عرف — ما لم يعرف أحد من آباءه — آمال الأقليات دون أن يبصر
بمشكلة حكمهم المعقدة . ولقد قضى كارل الستين الأولين من الحرب في كثير
من المدن المحصنة ، وعلى رأس بعض فرق الجيش في الجبهة الإيطالية حيث كان
محبوباً من رجاله لبساطته .

ونظراً لأنه كان إمبراطوراً من أسرة هابسبرج أو في الواقع أحد أفراد
هذه الأسرة — كان رجلاً ذا شذوذ عجيب ، فمع أنه أكثر أعضاء الأسرة تمشياً
مع العصر الحديث ، وأكثرهم استنارة في الشؤون السياسية والاجتماعية منذ عهد
الإمبراطور المستبد الطيب جوزيف الثاني — وكان له ثلاثة تليفونات على مكتبه
ويحب قيادة السيارات بسرعة فائقة — فقد كانت له في كثير من الوجوه شخصية
القرون الوسطى . ومع أن فضائله كانت بورجوازية أكثر منها بطولية إلا أنه يذكر
أحياناً الأبطال الدينيين مثل سانت لويس ، وإدوارد المعترف (يبدو أن أسرته
رغم شدة تدينها أحياناً لم تنجب حاكماً أكثر منه تديناً) ، ونظراً إلى أنه جاد
في طباعه متمتع بنشاط الشباب وحماسته ، عظيم الثقة بسائر الناس ، لم يكن محباً
للطبوعين على السخريّة من قدامى رجال الحاشية الذين لا شك كانوا يهزأون
بجبهه القطرى لفعل الخير أحياناً .

ولم يكن لسكارل معتقدات دينية قوية فحسب ، بل كان يعبر عنها ملتزمة
نصوصها الدقيقة مما كان يربك حاشيته ، سواء في الناحية السياسية أو في الحياة
الخاصة . وثمن عدم احتساء الخمر شيئاً غريباً لا ضرر منه فإن عدم الموافقة على
إلقاء القنابل على مدن الأعداء وتدمير ما لديهم من كنوز الفن كان مما يعدّه
الكثيرون من الخلل العقلي الخطير .

في الواقع كان كارل عدواً لدوداً لكل ضروب العنف سواء أكان قانونياً أم غير قانوني ، وكان يعدّه منافياً للمسيحية . كان يتحدث مرة مع الكونت إردودي ، وهو أحد أصدقاء الطفولة وأحد أعضاء المجلس الحربى ، فجرى الحديث بينهما سهلاً ، حتى إن الكونت بدأ يفخر بأنه يستطيع تقليد توقيع الإمبراطور تقليداً دقيقاً ، فضحك كارل ببساطة ، ثم أربد وجهه فجأة . وبأسلوب أشد صرامة من أسلوبه المعروف رجا إردودي ألا يستخدم كفايته الآتية فى إعدام أى شخص بتوقيع إمبراطورى مزور . وفى مناسبة أخرى متصلة ببعثة أمراء بوربون بارما السرية روى إردودي أنه اضطر إلى إلقاء أحد الجواسيس فى بئر السلم ، فصاح الإمبراطور « أرجو ألا يكون الشاب المسكين قد كسر عنقه » ، وحدث مرة فى إحدى ليالى شهر فبراير سنة ١٩١٨ أنه بينما كان كارل مسافراً إلى بودابست ، وصلت إلى القطار الإمبراطورى برقية تلتبس العفو عن أربعة عصاة كان اليوم موعد إعدامهم ، ولم ير رئيس الحرس الإمبراطورى أن من المناسب إقلاق سيده وهو نائم بمثل هذه المسائل التافهة ، ونفذ الإعدام فى موعده . وعندما استيقظ الإمبراطور وعلم بأمر البرقية احتد مع مساعده وخطابه بنف قائلاً « كان عليك أن توقظنى ، ما أنا إلا رجل كسائر الرجال » .

وطالما حاول عبثاً أن يطبق المثل العليا للمسيحية فى الأعمال السياسية . ولكن محاولاته فى هذا الشأن كان يعوزها الإصرار القوى . وكان من السهل أن يثنيه عن فكرته من يحيطون به من رجاله مع أنه لم يكن فى ضعف قيصر روسيا ولا فى تردد قيصر ألمانيا وعدم ثباته .

وكانت زيتا التى اقترن بها سنة ١٩١١ قد قوت لديه الاعتداد بالهدف ، ولو أن حكمها على الأمور كان أبعد عن الصواب من حكمه ، وكانت امرأة نشيطة

راغبة في أن يكون لها دور في سياسة الدولة، وكانت تميل بلا شك إلى التحكم والتسلط في بعض الأحيان . وكما كان زوجها أقوى خلقاً من هؤلاء ، كانت زيتا أحسن صحة وأقوى عقلاً من اسكندرا ، ولكن لم يكن لديها من الوقت ما يسمح لها بالتدخل ، فبين سنة ١٩١١ وسنة ١٩٢٢ اتحدت الأسرة بثمانية أطفال ، وكانت شديدة الاهتمام بالقيام بواجبات الأمومة كلها ، وكانت من الناحية السياسية أشد رجعية من زوجها ، وبينما كان كارل يبغى تطبيق المبدأ الفيدرالي للدولة ، وهو المبدأ الذي تمخضت عنه عقول أشجع رجال فرانسيس فريدناند وأغروه بقبوله قبل مقتله ، كانت زيتا — كما يقول بعض النقاد — ترى في النظام الفيدرالي المقترح مجموعة من الدوقيات والممالك التي يرأس كل منها أمير من أسرة بوربون بارما ، ولم يكن كارل — رغم ديمقراطيته ونظرته الحرة للأمور مما دعا برلمانياً متحمساً لها وصفه بأنه إمبراطور الشعب — يتحدث في المسائل الشعبية . لقد كان يعتقد في رسالة الأسرة ، وكان اهتمامه بحماية الأسرة هو الذي جعله يريد تحرير شعوب الإمبراطورية .

وفي الوقت الذي ارتقى فيه كارل العرش كانت القوى الطاردة التي تعمل على تمزيق الإمبراطورية في أوج قوتها . وفي أوائل الحرب أجل الكونت شتورج رئيس الوزراء انعقاد البرلمان ، وما قاله (ماالبرلمان إلا وسيلة لغاية ، فإذا فشل في مهمته فلا بد من استخراج وسيلة أخرى) .

وفي أكتوبر سنة ١٩١٦ أمام إصرار شتورج على رفض إلغاء القرار ، أطلق عليه الرصاص شاب اشتراكى يدعى فردريك أدلر — الذى سيقوم فيما بعد بدور هام في الحركة الشيوعية — ابن الزعيم الديمقراطي الاشتراكى فكتور أدلر في أثناء تناول غدائه في أحد المطاعم العصرية ، وأراد كارل أن يثبت ميله إلى الإصلاح

التحررى بدعوة البرلمان إلى الانقباد فى ربيع سنة ١٩١٣ ، وصار البرلمان حينذاك المنبر العام لمطالبة الأقليات بالاستقلال .

وفى أثناء وزارة الكونت شتورج التى اتسمت « بالصمت والضغط » زاد الفساد الذى كان يسير بخطى سريعة لهدم أسس الإمبراطورية ، وكانت الأقليات قبل سنة ١٩١٤ لا تطمع إلا فى مساواتها بالعناصر التى كان لها الغلبة فى الإمبراطورية - الألمان والمجر - ولكن الألمان فى الإمبراطورية النمسية الذين كانوا يماربون مع الألمان فى ألمانيا جنباً إلى جنب لم يكونوا مستعدين للنزول عن شئ مما يستأثرون به من الحقوق ، كما أن المجر كانوا يحتلون مركز الحراس على خيرات الإمبراطورية ، وهذه الأقليات التى يزيد عددها بجمعة على عدد الألمان والمجر ، الذين لهم السيادة السياسية فى البلاد ، قد حولها الضغط فى أثناء قيام الحرب من فئات نافذة ولكنها مخلصه ، إلى فئات منشقة متآمرة .

وأمام الحركات القومية التى كان أدنى ما تهدف إليه الاستقلال التام لم تكن آمالة فى قيام دولة فيدرالية بعيدة عن التحقيق فحسب ، بل كانت مبنية على الأوهام . والواقع أن كارل لم يكن لديه ما يهبه لها . وقد ترك نفسه يقع فى الفخ الذى وضعه له رئيس وزراء المجر الكونت تيزا بأن حشه على أن يذهب إلى بودابست ليتوج ملكاً على المجر (وهو احتفال تجنبه فرانسيس جوزيف من قبل) ، وهناك أقسم على أن يحمى الدستور المجرى « وأن يحافظ على سلامة الأرض التى يحميها تاج سانت ستيفن » . وهذا القسم لم يحل دون تأييد حقوق الأقليات التى تظلمها المجر فحسب ، بل منعه من احترام الحياة النيابية فى بوهيميا ، وهو ما وعد به عند اعتلائه العرش ، وهى من البلاد التى تخضع جزئياً لسلطان المجر .

توجد صورة لحفلة التتويج بها كارل وزيتا وأوتو ولى العهد وهم يجلسون فى

جمود على كرامى مذهب من طراز القصور الملكية القديمة الى انتهى عهدها .
وعلى رأس كارل تاج سانت ستيفن وهو أكبر مما يليق برأسه ، ويده صولجان
يمسك به بأسلوب غير لائق كأنه أحد التلاميذ . وكان عنق زينا جامداً من أثر
ما يحمله رأسها من الحلية الذهبية التى يعاوها صليبوالتي يضغط على شعرها الأسود ،
وكان أوتو الصغير يبدو بشعره المجعد وعباءته المبطنه بجلد السنجاب والريش الذى
عل رأسه ، كأنه أمير سرك ، ويدل مظهرهم جميعاً على أنهم قد لبسوا ما لبسوا
لعمل استعراضى .

وقد أدرك كارل وزينا معاً أن هذا الوضع كان لا أثر له ما دام مرتبطين
بالجر من ناحية وبألمانيا من ناحية أخرى، ولقد رأينا أن مفاوضات كارل السرية
مع الحلفاء ليحصل لرعيته على السلام الذى تتوق إليه انتهت بالفشل . وفى نهاية
سنة ١٩١٧ رأينا كيف أبدى جميع المتحاربين عزمهم على استمرار الحرب إلى
النهاية إحقاقاً لقضيتهم العادلة . وفى السابع من أكتوبر أرسلت سبع فرق ألمانية لتقوية
النموسيين فى جبهة إزونزو ، وكان الشعور السائد فى ألمانيا أنه لا بد من نصر باهر
ليزيل عن النموسيين الإحساس باليأس الذى استولى على نفوسهم ، وقد رفعت روح
النموسيين المعنوية الهزيمة المنكورة التى منى بها الإيطاليون الممقوتون فى كاپورتو ،
وهى التى أوحى إلى هنجواى بقصته « وداعاً للسلاح » ، كما أنها جعلت النمسا
أكثر تعلقاً ببرلين واعتماداً عليها .

وعندما أعلنت الحكومة الألمانية فى أكتوبر أن « ألمانيا لن تنازل مطلقاً
عن الأتراس واللورين » ردد صدى هذه العبارة فى خضوع تام وزير خارجية
النمسا الكونت كزنين وقال « نحن نحارب من أجل الأتراس واللورين كما يحارب
الألمان من أجل تريستا »

ولقد كان الكونت سيمى الحظ الذى كشف دون وعى منه قصة أمراء البوربون هو الذى ألصق بالحكومة الفضيحة التى أدت إلى المحاولة الأخيرة . وكانت الأمور فى الربيع من سنة ١٩١٨ تجرى على ما تود النمسا ، أكثر منها منذ بضعة شهور . لقد خرجت روسيا ورومانيا من الحرب وأصبح الجيش الإيطالى فى حالة عجز مؤقت ، وأصبح أهالى دولتى الوسط بفضل معاهدة برست ليتوفسك أكثر أملا فى الحصول على قدر أكبر من مواد التوئين ، بل كانوا أكثر أملا فى تحسن الحالة عموماً .

وكان الهجوم الألمانى الكبير فى أثناء الربيع الذى أريد به ضرب الحلفاء ضربة قاطعة قد بدأ فى ييكاردى .

ورأى الكونت كزنين وهو يتظاهر بالعظمة على مسرح اتفاقية برست ليتوفسك - أن الأمر يتطلب شيئاً من السيكلوجية الحربية ، وقد أكد فى إحدى خطبه فى بلدية فيينا فى ٢ من أبريل أنه رفض أخيراً عرضاً فرنسياً لمفاوضات الصلح ، لأن الشروط المقترحة صممت على إعادة الألاس والورين إلى فرنسا . (كان كزنين يشير إلى محادثات جديدة سرية هى التى دعت إليها سويسرا من مندوبين فرنسيين ونمساويين ، كانت النمسا على ما يبدو هى التى دعت إليها) . وكان يريد بهذه العبارة الخالية من الفطنة تحية الفريق النمساوى بقرار أن فرنسا هى التى تسعى للخروج من الحرب ، رغم سياسة كلنصو التى أعلنها على رؤوس الأشهاد بأن فرنسا مستحاربة إلى أن تحصل على النصر .

وكان رد الترموجزاً وقاسياً ونشرته الصحف ، قال : « إن الكونت كزنين يكذب » ، ولم ير كزنين أن تنهى المسألة عند هذا الحد واشتبك مع كلنصو فى جدل

عنيف ، رغم أن مركزه كان ضعيفاً ، لأنه لم يكن على علم بالخطاب الذى أرسله الإمبراطور إلى بوانكاريه ، رغم أنه وافق على بعثة أمراء البوربون السرية منذ سنة مضت . ولكي يخرس كزنين أذاع كلنصو فى باريس أن لديه خطاباً من الإمبراطور بخصوص الصلح ، فأسرع كارل بإرسال برقية إلى القيصر يكذب ذلك ، فما كان من كلنصو الذى لم يكن الصبر أقوى فضائله إلا أن نشر صورة الخطاب ليكون تحت نظر جميع الناس .

وكانت المسألة فى الموضوعات المعقدة التى تكون أحياناً حاسمة أكثر من المعارك العظمى أو الأفعال السياسية الخطيرة . كما كان فيها العنصر الهام فى مأساة حياة كارل نفسه . إذ ياجرائه مفاوضات للصلح وراء ظهر حليفه ضحى بأحد واجباته الخلقية من أجل واجب آخر ، واتباع وسيلة دينية للوصول إلى غرض شريف ، لقد اعتهم السلام فوق الشرف . ومع أنه تصرف وفق ظروف معينة فإنه لم يخضع لهذه الظروف خضوعاً تاماً . فقد وقف عندما كاد أن يصل إلى حافة الباطل . وبهذه البرقية إلى غليوم وقع فى الباطل . ولا بد أن شعوره الشخصى بمعنى الشرف وضميره غير المتأثر بعرض الحياة الدنيا والذى ورثه عن أحد أسلافه فى القرون الوسطى كان فى نزاع مرير مع تقاليد الدبلوماسية المترنيخية . انقصر مترنيخ لأن مانت لويس أثبت أنه أصدق نصيحاً .

وظهر إمبراطور النمسا كاذباً أمام العالم . ولم تكن أوروبا قد وصلت فى تلك الأيام حتى إبان خلجات الموت التى كانت تعانيتها إلى الحالة التى تستطيع أن تنتهك حرمة الآداب العامة . كان السفراء يكذبون — على أن الكذب أمر عاوى لديهم — وكان رؤساء الوزارة لا يتحرون الحقيقة فى أقوالهم وأعمالهم ، وربما عدوا المعاهدات كما فعل بتيان هوافيج قصاصات ورق . وكان الملوك أنفسهم يغشون

ويخدعون في بعض المناسبات ، ولكنهم لم يوقعوا على أ كذوبة رسمية ولا سيما في كتاب يوجهونه إلى ملك زميل .

ولم يكن نشر برقية كارل إلى القيصر طعنة دامية إلى مكانته الشخصية بوصفه ملكاً فحسب ، ولكنها لوئث وطمست معالم السحر التي كانت تحيط بعرش أسرة هابسبرج ، الذي كان الصلة الوحيدة الباقية التي تربط بين شعوب الإمبراطورية . ولعل أخطر حادثة في سلسلة الكوارث التي نتجت عن غلطة كزنين التي ارتكبها بحسن نية (لقد خسر وظيفته بسببها ، ولكنه كوفيٌ بصليب سان ستيفان المرصع بالماس) أن كان على كارل أن يذهب إلى كانوسا لينفاهم مع حلفائه البروسيين الذين كان يكرههم ويخشاهم حينئذ أكثر من أي وقت مضى . وكانت كانوسا في ذلك الوقت مقر قيادة الجيش الألماني في سبا التي ذهب إليها كارل في مايو . وكان ثمن العفو عنه - كما تقول أحد المصادر - الوحدة التامة الحربية والسياسية والاقتصادية بين الإمبراطوريتين ، وهي أوثق وحدة تمت بينهما في أي زمن من الأزمان ، ولقد فقد كارل بذلك آخر فرصة لديه لأي عمل مستقل .

وإزاء هذا التطور سكت آخر المدافعين الأشداء عن آل هابسبرج في معسكر الحلفاء ، وأصبح لا يمكن الدفاع عن السياسة التي تقضى ببقاء الدولة الثنائية حتى لا يختل ميزان القوى في أوروبا بسبب ألمانيا ، كما أصبح نداء بنيس بسقوط النمسا هو سياسة الحلفاء . وأيلت الأحداث التي كانت تقع داخل هذه الإمبراطورية المتداعية سياسة الحلفاء وقرارهم . ولم يكن الإمبراطور ولا وزارته المتعاقبة قادرين على عمل أي شيء إزاء موقف الأقليات العدائي ، وبلغت

الجلبة في برلمان فيينا حيث كانت الأقليات تعلن حقوقها في عنف شديد جداً لم يسبق له مثيل من قبل .

وأعلن أحد نواب التشيك في يوليو سنة ١٩١٨ في البرلمان « أننا نعتبر النمسا جريمة قديمة للقرون ضد الإنسانية . ومن أسى واجبتنا القومية ألا نزعى لها عهداً كلاً وأينا استطعنا . سنمقتها وسنحارب ضدها وسنحطمها بإذن الله تحطياً » . وفي أكتوبر صرح نائب تشيكي آخر يدعى ستانك : « مع أن الشعب التشيكي لم يرق قطرة من دمه راضياً من أجل دولتي الوسط ، إلا أنه ضحى مسروراً بكل ما يمكنه ، إنهم قد عملوا كل ما في وسعهم لانتصار الحلفاء » ثم صاح قائلاً : « إن يوم الحساب قريب » ولقد قوبل كلامه بالاستحسان من بعض النواب والصياح ورفع أغطية المكاتب من البعض الآخر . هذا وكانت الأقليات تقابل صيحات النمساويين الألمان « خيانة » بـذف ملفات الأوراق والمحابر .

وأخذت الدعاية للهزيمة والانفصال تقوى كلما وهنت آمال الربيع ، وأظلمت الدنيا في نظر دولتي الوسط . ثم إن نجاح هجوم الحلفاء في الغرب وافق هجومهم في بلاد البلقان ، الذي بدأه من سالونيك جيش الحلفاء بقيادة فرانتش القائد الفرنسي ، ولم يكن الكسب الذي حصلت عليه النمسا بمعاهدة برست ليتوفسك ليعدل الخسارة الاقتصادية التي منيت بها نتيجة لحصار الحلفاء .

ولم تكن النمسا في أواخر صيف سنة ١٩١٨ قد تحولت إلى عدة قوميات متنافسة فحسب ، بل أصبحت جزراً مستقلة استقلالاً اقتصادياً ، وتعاوى الواحدة منها الأخرى . ومنعت المجر ما لديها من التمتع عن سائر المناطق ، كما احتفظت كل منها بما لديها من مواد الغذاء . وأصبحت أسباب

المعيشة غير محتملة في المدن وبخاصة في فيينا . وصار ضغط الجماهير في طاب الخبز والسلام أمراً لا يمكن مقاومته .

وفي ٤ من أكتوبر انضمت الحكومة النمساوية إلى الألمان في طلب هدنة من الرئيس ولسن مبنية على شروطه الأربعة عشر .

وفي السادس من أكتوبر دون انتظار الرد من ولسن بذل كارل دون جدوى آخر ما في وسعه ليحتفظ لأسرته بشيء من المكانة في خضم الأحداث حينذاك ، فأصدر بياناً اعترف فيه للمنطقة غير المجرية من الإمبراطورية بأن تكون دولة فيدرالية ذات استقلال ذاتي لشعوبها . ولقد أصر الإمبراطور على استثناء المجر في هذا البيان تحت تهديد رئيس وزراء المجر بالألا يمد البلاد بما يلزمها من مواد التموين إذا امتنع الإمبراطور عن الموافقة . وكانت النتيجة بطبيعة الحال أن فقد البيان ما كان يحتمل أن يكون له من أثر في القوميات النائرة ، وفي استدراج عطف الرئيس ولسن .

وظلت الطبقة المجرية الحاكمة عاجزة كل العجز عن تناول مسألة الأقليات إلا من زاوية الجانب المجرى الطامع في التسلط . وحاول كارل قبل إصدار البيان أن يضم المجر إلى جانبه ، وأرسل إليهم الكونت تيزا رئيس مجلس الوزراء المجرى من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩١٧ ل يبحث معهم الوسائل التي تؤدي إلى العيش بسلام مع السلاف في جنوب المجر . وقد بلغ سخط ذلك الكونت المسن على مهمته في سراييفو أنه عندما وصل إلى سراييفو كشر عن أنيابه للأعيان الذين كانوا يدلون إليه بشكاواهم ، وعندما قالوا له : « ليس مستحيلاً أن تغلب على أمرنا . ولكن لا بد أن تقطعك إرباً قبل ذلك » .

وقاطع التشيك اللجنة التي وكل إليها تطبيق البيان . وغادر الاجتماع سلاف الجنوب ، وأبى الألمان أن يتدخلوا ، ورفض الأوكرانيون المشروع ، ولم يحضر البولنديون ، ولم تر الأقلية الإيطالية أن البيان يطبق عليها . وعد الأهالي بصفة عامة ، أن البيان يحمل الاعتراف بالقشل ، ولما أحست الحكومة الإمبراطورية باهتزاز الأرض تحت أقدامها انحطت روحها المعنوية .

وبدلاً من أن يكون البيان دعامة لتقوية بنيان الحكومة المشيد من الورق ، كان هو معول هدمها وانهارها ، وأصبحت المجالس النيابية بمقتضى النظام الفيدرالى الجديد برلمانات معدة من قبل للدول الجديدة التي تنشأ فى أقل من شهر من بقايا الدولة الثنائية العتيقة .

ووصل رد الرئيس ولسن على طلب الصلح فى ٢١ من أكتوبر ، وقد وصفه وزير الخارجية الجديد الكونت بوريان ، بأنه « القنبلة التي مزقت هيكل الدولة » وكانت النقطة الأربع عشرة لا تطلب أكثر من « أوسع مجال للحكم الذاتى » للأقليات ، وهو مطلب أقره البيان الذى أصدره الإمبراطور . ولكن الرئيس الأمريكى فى مذكرته الأخيرة — وقد اعترف بالمجلس الوطنى التشيكوسلوفاكى حكومة الأمر الواقع — قرر أنه لم يعد حراً فى قبول مجرد الحكم الذاتى للتشيكوسلافيين واليوغسلافين أساساً للصلح . وأصر على أن هؤلاء « هم الذين يقررون — دون — ما يرويه محققاً لآمالهم » ، وهذه المذكرة مضاعفاً إليها سرعة تقدم جيوش الجنرال فرانست قوت عزيمة القائمين بالثورة التي قسمت الإمبراطورية إلى أجزاء مختلفة ، وقضت على سلطان الحكم الإمبراطورى .

وكان التشيك أول من أفلتوا من الحكم الإمبراطورى . وقد سبق أن اعترف الحلفاء بأشراكهم فى الحرب معهم فى صيف سنة ١٩١٨ ، وفى ١٨ من أكتوبر

أعلن مازاريك رسمياً استقلال تشيكوسلوفاكيا في واشنطن. ورفع العلم الجديد بألوانه الثلاثة على داره . وقد أراد بذلك أن يسبق تصرفه بيان كارل ، ويؤثر على الرئيس ولسن التأثير الصالح . وكان البيان الذى أذاعه فى هذا الشأن على حد تعبيره « مصوغاً فى عبارة تذكر الأمريكين بإعلان استقلالهم » . وهذه التذكرة أفادت فعلاً . وفى الواقع نبه الرئيس ولسن الإمبراطور كارل إلى أن الاعتراف باستقلال التشيك هو ثمن الصلح بل جزء من الثمن . وأملاً فى حمل التشيك على الإبقاء على شئ من العلاقة بالعرش النمساوى ولو اسمية — أبلغ كارل نص المذكرة الأمريكية إلى كبار القانونيين فى الأحزاب التشيكية ، وسمح لهم بالسفر إلى جنيف لإجراء محادثات مع بنيس الذى أصبح وزير خارجية الدولة التشيكية المؤقتة فى الخارج .

ولقد قضى أى أمل فى الاتفاق على بقاء العلاقة بين تشيكوسلوفاكيا والإمبراطورية نتيجة لما كان لمذكرة ولسن من أثر على الجماهير التشيكية عندما نشرت رسمياً فى براج فى ٢٨ من أكتوبر . وعلت صيحات الفرح من الجماهير التى كانت واقفة فى انتظار آخر الأخبار أمام إدارات الصحف ، عندما نشرت المذكرة . ثم أخذت الجماهير تملأ الشوارع وتلف جميع الشارات المهابرجية من حوائت الطباق والمباني العامة . وحمل هذا الشعور الفياض الذى تجلى فى المظاهرات الوطنية الشعبية لجنة براج القومية على أن تقبض بيدها على أزمة الحكم . فى هذا الوقت كان الجوع والحرمان يخيمان على البلاد . فكان أول مبنى استولت عليه الجماهير مخزن القل الذى كان مقر هيئة التوطين العامة . ولم يقاوم الموظفون النمساويون . وبناء على أوامر من فيينا سحب الحاكم العسكرى الجنود المجرين الذين كانوا يعملون فى الشوارع ، وحمل الموظفون النمساويون أمتعتهم وغادروا مستسلمين . وعندما حل المساء ورأى أهالى براج شباب النوادى الرياضية يحفظون

(٣٦٢ — الأسر)

النظام فى شوارع المدينة فهموا أنهم حصلوا فعلا عن الاستقلال . وبعد يومين أعلن المجلس الوطنى التشيكي تأييده للاتحاد مع المناطق التشيكية فى بوهيميا ومورافيا وسيليزيا (لم ينضم السوفاك الذى كانوا خاضعين للحكم المجرى إلى الجمهورية إلا بعد طرد سادتهم القدامى سنة ١٩٢٠ ، وكذلك منطقة روثنيا التى تجاور الكربات التى نص الدستور على استقلالها الرسمى) . وفى ١٤ من نوفمبر أعلن المجلس الوطنى فى أول جلساته حرمان أسرة هابسبرج من كل حق فى أراضى بوهيميا ، وأعلنت الجمهورية فى البلاد واختارت توماس مازاريك أول رئيس لها .

وكانت الشعوب السلافية الجنوبية ثانياً من انفصل عن الإمبراطورية . ولقد حاربوا من أجل استقلالهم فى ظروف قاسية بوجه خاص . وقد تلقوا أول طعنة من آل هابسبرج ، وهى التى سببت للصرب أن تقامى أربع سنوات من الموت والدماء . ومع أن الصربيين استطاعوا بعد أربعة أشهر من الهجوم النمساوى فى أغسطس سنة ١٩١٤ ردالجنرال بوتيرك وجيشه إلى الحدود ، إلا أنهم وقعوا فريسة للتيفوس سنة ١٩١٥ ، الذى قضى على ٣٠٠٠٠٠٠ نفس منهم كما تعرضوا لهجمات شديدة قام بها الألمان والنمساويون والبلغار . وفى شتاء ١٩١٥—١٩١٦ انسحب ما بقى من الجيش الصربى ، وانسحبت الحكومة والوصى البرنس اسكندر ووالده المريض الملك بطرس عبر جبال ألبانيا والجبل الأسود إلى ساحل البحر الإدرىاتى ، وبعد هذا الانسحاب الذى لم يعرف له مثيل فى شدته فى جميع عهود التاريخ انتشل من بقى منهم ونقلوا إلى جزيرة كورفو فى سفن الحلفاء ، حيث قابل قادة سلاف جنوب الإمبراطورية المهاجرون ، الحكومة الصربية المنفية ، ووقعوا معاً فى ٢٠ من يوليو سنة ١٩١٧ عهداً مشتركاً بأتلاف الصربيين والكروات والسلافين وعزمهم على إنشاء حكومة ملكية نيابية ديمقراطية تحت حكم أسرة كاراجورجيفيك

وفي السادس من أكتوبر عقد مجلس وطني من الصربيين والكروات والسلافين في زغرب ، وهي أكبر مدينة للسلاف في جنوب الإمبراطورية ، وسلم جاك كرواتيا إلى المجلس بناء على تعليمات واردة من كارل أزمة الحكم في ٢٩ من أكتوبر . وأعلن المجلس الوحدة مع الصرب ، وقطع كل العلاقات بالمناطق النمسية والمجرية . وفي ٤ من ديسمبر أعلن قيام دولة الصربيين والكروات والسلافين والتي عرفت فيما بعد باسم يوغوسلافيا تحت وصاية البرنس اسكندر ، الذي صار فيما بعد الملك اسكندر الأول . وهكذا تمت الوحدة بين سلاف الجنوب تحت القيادة الصربية التي من أجلها تأمر المتآمرون في سراييفو ، ومات من أجلها الشبان الثلاثة برنسيب وكابرينوفيك وجرايز الذين أفلتوا من حكم الإعدام لصغر سنهم ، ماتوا بعد أن مرضوا بالسل في السجن إبان الحرب ، ونقلت جثثهم سنة ١٩٢٠ إلى سراييفو ، ودفنوا في مقابر المدينة بجوار شركائهم الذي دفعوا حياتهم في سبيل حرية بلادهم .

أما التلميذان اللذان حكم عليهما بالسجن فقد أطلق سراحهما بعد سقوط الإمبراطورية ، وحتى الأقلية البولندية في الدولة الثنائية خرجت عليها . ولا يزال عالقا بالأذهان أن طمع آل هوهنزولرن وآل هابسبرج وآل رومانوف إبان القرن الثامن عشر دعا إلى تقسيم بولندا وإزالة اسمها من للمصور الجغرافي . وكان للنمسا الجزء الأصغر منها ، وحظي البولنديون في هذه المنطقة بمنزلة مرموقة ، وبلغ من القوة العددية للنواب البولنديين في برلمان فيينا أنه لم تؤلف وزارة إلا دخلوا فيها . وكان معظم البولنديين يعدون الألمان والروس هم المعتصبون لحقوقهم ، وكانت عداوتهم للنمسيين بسيطة . وتحول النواب البولنديون في البرلمان النمسي إلى صفوف المعارضة بعد معاهدة برست ليتوفسك ، والثورة الروسية . وفي الخامس عشر من

أكتوبر أبلغوا المجلس أنهم أصبحوا لا يعدون أنفسهم من رعايا الدولة الثنائية - وإنما هم مواطنون في الدولة البولندية التي استردت كيائها .

وأثبت عازف البيان - أجناس بادروفسكى الذى كان على رأس جمعية المهاجرين الوطنية في باريس - أنه في دعايته لبولندا في الولايات المتحدة لا يقل عن مازاريك في دعايته لتشيكوسلوفاكيا ، وإليه يرجع الفضل في أن يكون ضمن شروط ولسن الشرط الثالث عشر الذى يقضى بوجوب قيام دولة بولندا المستقلة بعد الحرب واتصالها بالبحر . وفي آخر أكتوبر أخذ النمسيون يحلون عن غاليسيا ، وفي ١٤ من نوفمبر سنة ١٩١٨ قبض على أزمة الحكم في وارسو بلسودسكى الذى أطلقته الثورة الديمقراطية الاشتراكية من السجون الألمانية ، وأخيراً توحدت الحركات الاستقلالية الثورية البولندية المختلفة .

وفي يناير سنة ١٩١٩ ألف بادروفسكى وزارة ائتلافية ، وأقيم بلسودسكى رئيساً للدولة .

وهكذا - حتى قبل قيام الثورة في فيينا التى كلفت كارل عرشه - انفض عن أسرة هابسبرج كل الأقليات التى كانت تحكمها (وزيادة على من انضم إلى تشيكوسلوفاكيا وبولندا ويوغوسلافيا انضمت ترانسلفانيا إلى رومانيا واستردت إيطاليا المنطقة التى يغلب فيها العنصر الإيطالى) وبقي قاب الإمبراطورية : الدولتان الكبيرتان النمسا والمجر .

وبقى لدى كارل ولدى كل من يرى أن بقاء أسرة هابسبرج أهم من بقاء الإمبراطورية شيء من الأمل . وكانت النمسا - المجر حتى بعد أن أصبحت مقصورة على عنصرها الكبيرين دولة متوسطة السعة . ولم يكن هناك ما يمنع - من الناحية النظرية - من بقائها واحتفاظها بالملكية . ولكن كثيراً من العوامل

كانت من الناحية العملية لا تؤيد بقاءها ، مثل المبادئ* الولسنية التي كانت تجتاح أوروبا ، وكثرة أخطاء كارل ، وحالة القلق الاجتماعى الذى نشأ عن الجماعات فى الحبر ، وتدهور الروح المعنوية لما تتوقعه النمسا من الهزيمة ، وضياح هيتها وعدم تقدرتها على مجرد البقاء لضياح معظم أجزائها ، وربما كان أكثر فاعلية من كل ذلك عامل التفيت الذى أصيبت به .

كانت الكارثة النهائية التى منيت بها الإمبراطورية هى عندما بلغت سلسلة الحركات الثورية أقصى مداها فى المركز الألمانى المحرى فى الإمبراطورية ، وزاد اشتعالها اقتطاع أجزاء كبيرة من المناطق السلافية . وبينما كانت الثورات الوطنية فى الشعوب التابعة تنطوى على انتقال سلمى للسلطة من حكومة منهارة لا يعدو أن يكون اعترافاً لما سبق أن تم فى الواقع ، كان تفيت قلب الدولة لابد أن يؤدى إلى انطلاق القوى المدمرة المتفجرة ، وكان فى نفس الوقت النهاية الاجتماعية والسياسية والوطنية ، النهاية الملكية والملكية الإمبراطورية . لقد بدأت هذه النهاية فى وقت واحد تقريباً فى عاصمتى أسرة هابسبرج ، وفى جبهة القتال .

وفى الرابع والعشرين من أكتوبر قام الحلفاء بهجوم شديد فى الجبهة الإيطالية عندنهر بياف ، وظل الجيش النمساوى يقاوم يومين كاملين ، يستمد القوة من تقاليد القديمة وما امتاز به من تدريب طيب ، رغم أن الجنود كانوا فى ثياب رثة ، منهوكى القوى من الجوع والأنفلونزا والملاريا .

ويقول الكاتب الاجتماعى أتوبلور فى هذا الشأن « فى جبهة القتال يبدو أن الإمبراطورية تعتمد فى بقاءها على الوحدة الشاملة لجميع الشعب التى هى شعار الجيش » . ومع هذا فمن قلب الجيش ومن داخل الثكنات نشأت النورة النمساوية .

ولم يكن العصيان نابغاً — أول ما ينبع — من فرف العمال الصناعيين أو من

الأسرى الذين أطلق الروس سراحهم ، بل كان من أكثر جنود الإمبراطورية حماساً وأعظمهم بأساً من الجريين .

وبعد يومين من بدء هجوم الحلفاء أبلغ قائد أحد الفرق الجرية أنه بعد أن اصطف جنود إحدى الفصائل أمامه في نظامها المعتاد ، تقدم منها أحد الجنود وأدى التحية وأنبأه أن النصيلة ترفض أن تحتل المكان المعد لها ، وعندما صدر الأمر باقتبض على هذا الجندي صاحت النصيلة كلها كما لو كانت ذات صلات واحدة « لانسمح بذلك » ، وكانوا لا يزالون واقفين في نظام . وعندما سئلوا على انفراد أقسموا أنهم مستعدون للقتال إلى آخر نفس من حياتهم — ولكن دفاعاً عن حدود بلادهم — ونظراً إلى أن البرلمان الجري كان قد طالب من قبل بعودة الجنود الجريين ، أصبح لا مفر من عودتهم مع جميع الفرق التي انتشرت فيها هذه الحركة . ومن الطبيعي أن من دعوا من الجنود ليحلوا محل جنود الجر — وقد سمعوا غنائهم وهتافتهم لعودتهم إلى وطنهم — قد أصابتهم العدوى بعد قليل . وأعقب هذا عصيان فرقة البترول الشهيرة لما أصابها من الهزيمة والتقهقر ، وسار الجنود نحو وطنهم للدفاع عن أموالهم وأهليهم مما عسى أن يصيبهم ، وكل ما حدث في الجيش من مأخذ فردية أو جماعية نشر القوضى في شتى الإمبراطورية .

وفي تلك الأثناء حدث اضطراب من نوع عجيب في پوادبست فنذ عهد كوست انقسمت القومية الجرية بين حب عنيف للوطن وحماسة بطولية في الجهاد ضد ظلم النسويين ، وبين العزم الأكيد في اضطهاد الأجناس الخاضعة لحكم الجر (يشاهد اليوم مثل هذا الازدواج في قومية جنوب إفريقية وغيرها من القوميات التي كانت خاضعة للاستعمار) . وبلغ هذا الشعور أقصاه بسبب الهزيمة ومبادئ الرئيس ولسن .

وكما زاد الشعور بمقوق الأقليات الوطنية زاد إقتناع الجر بأنهم جديرون بأن يشعروا هذا الشعور، وطالما كانوا قادرين على مقاومة حركة التحرر بين الأقليات التي يحكمونها، قانونها بكل شدة. وعندما أصبحت المقاومة متعذرة عليهم انضموا للحركة كما انضم حراس السجون إلى ثورة المسجونين الذين هم في حراستهم. وزيادة على هذه العدوى العاطفية أحس كثير من أصحاب الأملاك بأن خير وسيلة لإقناذ ما يمكن إقناذه في هذا الاضطراب العام أن يكونوا ديمقراطيين — وكانوا يشعرون في قرارة أنفسهم أن كل عظماء الرجال ولدوا أحراراً ومتساوين — ويعتقدوا مبدأ ولسن الظافر الذي ينص على حق تقرير المصير (الذي قد يجنب الجر ضرراً بليغاً لو طبق بأمانة).

وكان قائد حركة الجر الواسنية أروستقراطيا، وأصبح من المصلحين المتطرفين، ويدعى ميخائيل كارولي، واثن كان من العلوان يقال إن زملاء من كبار المللك قد بهرتهم مبادئه فقد أحجموا بعد نظرهم عن الانضمام إليه، ثم أخذوا يذكرون أن هذا الرجل الضال قد يكون يوماً ما نافعا، وانضحت قائده فعلا عندما كان الجنرال فرانشت يقترب من حدود الجر، لأنه كان من أنصار الفرنسيين، فقد كان مبعداً في فرنسا عند قيام الحرب الأولى، ولكن أفرج عنه بعد ذلك ليعمل — كما قيل — عند وصوله إلى وطنه على إنهاء الحرب.

وبدا انفصال الجر عن الإمبراطورية وسط كثير من مناظر الإرهاب والعنف، ففي ٢٤ من أكتوبر في بوادبست هجمت جماهير الدهماء على البرلمان ذى الأبراج والمبنى على الطراز القوطى على ضفاف الدانوب، وحطموا المقاعد. وقامت اضطرابات عنيفة تحت صورة تنويج فرانسيس جوزيف لم تهدأ إلا بعد أن قدم رئيس الوزراء استقالته.

وهيأت الفوضى الناجمة عن هذا الموقف لكارولى فرصة التصرف ، فأعلن تكوين المجلس الوطنى الجرى تحت رياسته لتنظيم الانفصال عن النمسا ومنح حق الانتخاب لجميع الشعب ، والإصلاح الزراعى ، وسرعة الاتفاق على الصلح ، ورغم كراهية أعيان البلاد لعبارة الإصلاح الزراعى فإنهم لم يقاوموه ، وتركوا كارولى ينظم المجلس الثائر الذى أقامه لأنه منحهم خير فرصة للحياة . وفى البرلمان أعلن كارولى أنه صديق لفرنسا . (ومن الأسف أن فرانشت لم يؤثر فيه هذا هذا القول وفرض على الجبر شروطاً صارمة للهدنة أجبرت بمقتضاها على الجلاء عن جميع المنطقة الجنوبية الشرقية من المجر) .

ورغبة من كارل فى إقرار ما لا يستطيع منعه ، عين — وهو لا يزال ملك المجر — كارولى رئيساً للوزارة تليفونياً من فيينا فى ٣١ من أكتوبر . وفى نفس الليلة لقي الكونت ستيفن تراختفه ، وهو أكبر منافس لكارولى ، حيث افتحم القتلة داره وقتلوه .

وأقسم كارولى يمين الولاء للملك ، ولكن المظاهرات الشعبية امتلأت بها شوارع بودابست بعد أن رجع الجنود من جبهة القتال ، مما أجبره على الاستقالة بعد بضعة أيام ، فقد كان رأى الذى أبداه مؤيدوه من الاشتراكيين أنهم « يريدون رئيساً للوزارة من قبل الشعب لا بناء على أمر ملكى » .

وزاد شعور الكراهية لدى العمال والفلاحين الألمان والنمسيين لما قاسوه من الويلات فى أثناء الحرب .

ومما نشرته إحدى الصحف النمسية فى ٣ من نوفمبر أن الجنود الألمان الذين كان لابد لهم أن يعبروا المجر فى طريقهم إلى بلادهم ، وصلوا إلى الحدود عراة ، وقد انتزعت منهم ملابسهم بما فيها الملابس الداخلية جميعها .

وكان التناقض العجيب - والميت - في انهيار إمبراطورية آل هابسبرج ما اكتشفه أخيراً الشعب النمسي - وهو من الجنس الألماني صاحب النفوذ فيما بقي من النمسا - أنه قومية مغمورة ، (وربما مقهورة على أمرها) فيها .
 ولقد ظل مشغولاً ستانة سنة كاملة يساعد الأسرة الحاكمة في إدارة إمبراطورية متعددة القوميات إلى حد لم يكن لديه من الوقت ما يسمح بتنمية قومية خاصة به ، وكانت القومية في نظر النمسيين حتى أكتوبر سنة ١٩١٨ تبدوا اضطراباً صلبانياً تصاب به معظم الأقليات القومية في طور معين من أطوار تطورها . وأحسوا بصدمة عند ما تنبهوا إلى ذلك ، لأنهم كانوا أيضاً إحدى الأقليات دون أن يدركوا ذلك .

وعلى هذا فلهم أيضاً حق تقرير المصير الذي تحدث عنه ولسن ، والذي وعد إمبراطورهم الطيب كل شعوب إمبراطوريته به . واعتماداً على تصريح الإمبراطور الصادر في ١٦ من أكتوبر ، اعتبر النواب النمسيون في مجلس الريخسترات أنفسهم « المجلس النيابي » الذي نص عليه التصريح تحت عنوان « المجلس الوطني المؤقت للدولة الألمانية النمسية » ، ولكي تكتسب قوميتهم التي عثروا عليها ، بل ليكتسب استقلالهم الصبغة الرسمية ، رأى النواب أن يجتمعوا في المرنجاسه حيث أعلنت ثورة سنة ١٨٤٨ . وتحت قيادة الأحزاب الثلاثة تكون مجلس لحكم الدولة الجديدة . وإن هذا التصرف ليعد انفصلاً لو كانت هناك إمبراطورية باقية يمكن الانفصال منها . ولكنه لم يكن من قبيل الثورة الصريحة على أسرة هابسبرج . وأبدى الحزب الاشتراكي المسيحي ، وهو أحد الأحزاب الكبيرة ، في صراحة تامة رأيه في أن تكون أسرة هابسبرج حاكمة لدولة ملكية نيابية . وكان الديمقراطيون الاشتراكيون يرون من حيث المبدأ أن تكون النمسا جمهورية ، إلا أن كثيراً من رجال الحزب كانوا متعلقين - كما تنبأ ستالين بهذا قل

الحرب في سخرية — بالأسرة التي كانوا يعارضونها في ولاء تام . وقد اقترح أحد النواب الاشتراكيين للخروج من هذا المأزق قيام حكومة جمهورية بالنمسا يكون الإمبراطور كارل أول رئيس لها .

وعلاوة على أن المجلس ترك للتطورات المقبلة تحديد نوع الحكم في النمسا الجديدة ، فإنه أغفل تعيين الحدود الجغرافية للدولة . ولذلك اشتكى المستشار الاشتراكي الجديد كارل رنر « إننا لانستطيع أن نحصل الضرائب حتى نعرف حدود المنطقة التي نحصلها منها » .

وقد أحجمت الحكومة الجديدة — انتظاراً لجلاء الأمور — عن طرد الوزارة الإمبراطورية الأخيرة برئاسة هينريش لاماش أستاذ كارل القديم . وظل الوزراء الاشتراكيون الجدد ثلاثة أسابيع يجلسون في مبنى الوزارة مع الوزراء القدامى يتعلمون منهم أوليات المسائل الإدارية .

ولم يقاوم رجال الحكم الإمبراطوري النظام الجديد . ومما أسر به كارل إلى أحد خلائه « كل ما آتمناه هو أن تصفى الأمور في سهولة ويسر » . وأحست حكومة رنر أن عبء التصرف مع الأسرة الحاكمة لا يقع على النمسا وحدها . وكانت الأحداث تقترب بسرعة من أزمة فاصلة .

وفي ٢٧ من أكتوبر تقدم كارل تحت شدة ضغط المجلس الحربي بطلب الاتفاق على الهدنة ، وتم الاتفاق على الهدنة في ٣ من نوفمبر . وأدى عدم التحقق من موعد الهدنة ، إلى أن أتى النمسيون السلاح قبل الإيطاليين . ويقول أحد الجنود — كورت فون شوشنج : « قوبلت أبناء الهدنة بارتياح . وأعقب هذا تجمع الجنود وهو أمر لم نفقه له معنى ... لأننا كنا نؤمن بأن أبناء الهدنة صحيحة ... إذ صدر إلينا الأمر بالسير في نظام إلى الجسر المقام على نهر تاجليامنتو عند دنيانو ، وما إن

وصلنا إلى النهر حتى فوجئنا بالجنود الاسكتلنديين يأمرونا بإلقاء أسلحتنا . . .
وسألنا ونحن في بالغ الأذى عن تفسير الأمر ، فكان الجواب أن الإمبراطور
والحكومة أرادا خديعتنا بإعلان الهدنة قبل موعدها لمنع الجنود من الرجوع
إلى وطنهم .

وقد ترتب على هذه الهدنة الكاذبة أسر حوالى ١٠٠٠٠٠٠ نسوى
حسنى النية في أيدي الإيطاليين . وانطلق كثير من الجنود عائدين إلى بلادهم
بأية وسيلة من وسائل النقل استطاعوا أن يستخدموها تاركين أسلحتهم . واحتلوا
محطات سكة الحديد بعد أن داسوا على ضباطهم ، ثم امتطوا ظهور العربات
عند ما عجروا عن العثور على غيرها من وسائل النقل .

ومما نشرته إحدى صحف فيينا في ٧ من نوفمبر أن جثث ٢٩٧ جندياً وجدت في
بضعة الأيام القليلة الأخيرة في أنفاق السكة الحديد الجنوبية . ونظراً إلى أن معظم
الطرق الحديدية تتجه إلى فيينا ، فقد جاء إليها آلاف من الجنود، وعمد الكثيرون
منهم وبخاصة من ينتمون إلى القوميات المحكومة إلى السلب .

وكان في المدينة كذلك حوالى ٦٠٠٠٠٠٠ عامل لا عمل لهم بعد وقف
الصناعات الحربية ، كلهم جائعون وفي ثياب رثة . ولم تكن معسكرات
الأسرى خارج فيينا في حراسة محكمة . وفي وسط هذه الظروف زاد الخوف من
إطلاق سراح المسجونين جملة في العاصمة ، حيث كان الجنود ينزعون الشارات
الإمبراطورية من ملابسهم ومن ملابس ضباطهم في كثير من الأحوال .

وأخذت الصورة الرهيبة لتدفق الجماهير على شونبرون حيث تقيم الأسرة
الإمبراطورية ، تتضح أكثر فأكثر في عقول أعضاء وزارة لا ماش . وانتهت

جلسة الوزارة الأخيرة إلى احتدام الجدل حول تفضيل اقتراح التنازل عن العرش أو انتظار خلع الإمبراطور . وظل يتمسك إلى تلك اللحظة الحزب المسيحي الاشتراكي والأحزاب الوطنية الألمانية بفكرة قيام حكومة ملكية نيابية ، ولرجال السياسة النموسيين كفاية بممازاة في المساومات التي يمكن أن تأتي بنتيجة عند المفاوضة مع الحلفاء وإقناعهم بفائدة بقاء النظام الملكي ، ولكن هرب قيصر ألمانيا في ١٠ من نوفمبر وقيام جمهورية ديمقراطية اشتراكية في ألمانيا ، والخوف من عدوى الثورة ، كل ذلك نبه الوزراء الإمبراطوريين إلى ضرورة إعلان تنازل الإمبراطور عن العرش ، وإلا أصبح الموقف غير محتمل .

وفي صباح يوم السبت ١٠ من نوفمبر حوالى الساعة التي اجتاز فيها غليوم حدود هولندا لاجئاً ، كانت الصلاة تقام في الكنيسة الملكية في شونبرون ، وبينما كانت تتلى الصلاة بين بكاء المصلين وتنهدياتهم اتجهت الأنظار جميعاً بعيون غرقى بالدموع إلى الشاب التهدم الراكع بجوار مدفن فرانسييس جوزيف ، وكان هذا آخر العهد برؤية كارل في مكان عام . وفي يوم الاثنين حضر وزراؤه إلى القصر مبكرين ، وكانت أيديهم فعلاً متقلصة من شدة التأثر ، ورجوه وهم في هذه الحال أن يستمع إلى نصيحة فيناء ، فيوقع على الأقل على التنازل عن العرش مؤقتاً ، وهناك صاحب رئيس الوزراء قائلاً « الآن يا صاحب الجلالة . الآن » وأخذ يكرر هذه العبارة في عصبية شديدة .

ولم يكن كارل يتخذ أى قرار هام دون استشارة زيتا . وهذا ما فعله في هذه اللحظة . لقد ألقت نظرة على النص المقترح للتنازل ، وصاحت في هياج شديد « إن الملك لا يمكن أن يتنازل . ولكن يمكن أن يخلع . إنى أفضل أن أموت معك هنا وعند ذلك يخلفنا أوتو ، وإذا ما خلع هو أيضاً فالأسرة أعضاؤها كثيرون » .

ولم تكن فى الواقع الورقة المعروضة على كارل لتوقيعها وثيقة للتنازل ، وهو ما بينه الوزير لاماش للإمبراطورة عندما هدأت أعصابها . والحقيقة أنه لم يكن فى الموقف خيار . لقد قال الوزير بعد ذلك إن البلاد لا تحتل حرباً أهلية . ثم وقع الإمبراطور .

وقد تضمن البيان الذى أذيع فى مساء هذا اليوم التنازل : « إني لا أزال كما كنت دائماً أشعر بالحب القوي نحو أمتي . ولن أضع من شخصي عقبة فى سبيل تقدم الشعب . وإني أعترف مقدماً بالقرار الذى تتحدد فيه النمسا الألمانية نوع الحكومة القادمة . لقد قبل الشعب الحكومة التى اختارها ممثلوه ، وإني متنازل عن نصيبي فى حكم البلاد » .

(لم يتنازل كارل عن العرش باسمه مطلقاً . كما لم يتنازل عن حقوق أسرته ، ولا يزال ابنه أوتو يدعى لنفسه الحق فى عرش النمسا) .

وكان كارل متردداً فى مغادرة البلاد ، ولم يكن هناك ما ينجشاه من أصحاب رنر الاشتراكيين الطيبين بعد أن تنازل عن العرش ، ومع ذلك فلم يكن سلطان العهد الجديد مستقراً تماماً ، وكان الجيش الذى كونه الشعب على عجل لا يمكن الاعتماد عليه ، وكثرت الاضطرابات والاصطدامات فى هذه المدينة الجائعة وبخاصة بعد عودة الأمري النمساويين بعد انتقامهم المبادئ الباشقية فى روسيا . وقد أخذت حرارة الثورة تزداد بانتظام طول النهار ، وقد كانت إنذاراً بالانفجار الرهيب الذى حدث بعد ذلك . وعند آخر النهار ، وقد انضم للثوار عمال مصانع فلورسدورف للصابون — لم تعد تشعر الأسرة — بل لم تكن الأسرة — فى أمان . وأخيراً أذعن كارل وهو حزين لنصيحة إردودى ، وسمح له بإحضار السيارات للسفر ، بينما كانت الحفائب تملأ على عجل بالحاجيات الضرورية والنفائس الثمينة .

ومع ذلك صمم كارل قبل أن يقصد إلى مناه على إقامة احتفال جنازى بسيط ، وذهب أولاً هو وزيتا والأطفال إلى الكنيسة للصلاة . ثم اجتمع كل أفراد الحاشية الذين سيقون في فيينا والقليلون الذى سيراقدونه إلى المنفى فى حجرة الاستقبال الكبرى فى القصر ، وشد على يد كل منهم بعناية كبيرة متحدثاً إليه بكلمة أو كلمتين بأسلوبه البسيط . وعلى كل لم يكن حادث الخروج ثقيل الوطأة على النفس . وفى اليوم التالى — ١٢ من نوفمبر أطلق مائة مدفع تحية لمولد الجمهورية النمساوية . لم تكن ولادة سهلة ، ولا بد أن كثيراً من أهالى فيينا قد ابتسموا فى شئ من الأسى للكلمات التى ختم بها المستشار رنر خطابه عندما قال « إن الديمقراطية اليوم قد صارت هى قانون العالم أجمع ، ونحن لا نستطيع أن نخالف العالم ، ولا نريد أن نخالف العالم ، ويجب ألا نحيد عن الطريق الذى رسمه العالم للمدينة الحديثة » ، وبينما كانت الجماهير تقوم بتحية الجمهورية الجديدة حدث تباطؤ غير مفهوم فى رفع العلم الأحمر والأبيض للجمهورية النمساوية ، ذلك أن عدداً من الجماهير البلشفية اقتحموا مبنى البرلمان واستولوا على العلم وحاولوا انتزاع جزئه الأبيض قبل تفريقهم ، وانجملت المعركة عن قتيابين ، ولم يسمع للاستقلال أية تحية .

ولم يكن يخطر ببال النمساويين الذين كانوا يقيمون فى دولة تعدادها ٥٠٠.٠٠٠ نسمة تشغل معظم أوروبا الوسطى ، أن النمسا الألمانية — الحديثة النشأة الجغرافية ، وعلى رأسها مدينة فيينا تستطيع أن تعيش معتمدة على نفسها . وزيادة على ذلك فإن قيام الثورة الديمقراطية فى ألمانيا أزالَتْ مؤقتاً أى تفكير فى القومية النمساوية التى نشأت حديثاً . (وهى ان تكون إلا بعد تجربة طويلة مدى السنين العديدة) ، وأحس النمساويون الديمقراطيون الاشتراكيون الذين كانوا يسيطرون على الحكومة الجديدة أنهم على صلة قوية بإخوانهم الألمان ، وعلى هذا الأساس ، بينما تنص المادة الأولى من القانون الأساسى الذى يحدد نوع الحكم الذى

أقره المجلس التأسيسي المؤقت بعد كثير من البحث والقوضى على أنه النظام الجمهورى، تنص المادة الثانية على « أن النمسيين الألمان جزء لا يتجزأ من الجمهورية الألمانية ». وعندما قضى النواب النمسيون على آخر أثر للسلطة الإمبراطورية عمدوا أن يضعوا الأساس الإدارى لمزيج من وطن آل هابسبرج وألمانيا الديمقراطية الحديثة . لقد انتهوا إلى إيجاد أمة دون أن يقصدوا إلى ذلك . وهكذا كان التناقض هو قانون الإمبراطورية الهابسبرجية حتى فى حالة الموت ، وسنبحث فيما يلى ما ترتب على هذا عندما امتنع الحلفاء عن المواقفة على الاتحاد بين ألمانيا والنمسا . ويكفى فى هذا المقام أن نقرر أنه عند إعلان الجمهورية النمسية أسدل الستار على الفصل الأخير من مأساة آل هابسبرج .

وبقى ملحق المأساة قبل أن يخيم الظلام على المسرح إلى الأبد (عدا محاولتين متوترتين يائستين لعودة الملكية) . وقد وقع هذا فى اليوم التالى يوم ١٣ من نوفمبر عند إيكارتساو . حيث كان كارل وزيتا يعملان فى إعداد عملية إطعام وتدفئة الأسرة — تلك العملية العادية الثقيلة . فقد وصل مندوب أرسله كارولى من بودابست — وهو فى الثورة المجرية أشبه بكرنسكى فى الثورة الروسية — ومعه تعليمات مؤداها أن يتنازل كارل عن التاج الثانى — تاج المجر . واستقبل الإمبراطور السابق الثوار المجريين كما استقبل من قبل الثوار النمسيين ووافق فوراً على مطلبهم موافقة مقرونة بالشرط الوحيد الذى اشترطه وصم عليه فى فيينا .

فهو لا يتنازل عن حق أسرته فى المجر كما لا يتنازل عنه فى النمسا، وإنما يتنحى عن الاشتراك فى حكومتها . ورضى مندوبو المجر بهذا ، ووقع على التنازل فوراً فى نفس المكان الذى انتصر فيه رودولف آل هابسبرج جد كارل الأعلى منذ

٦٥٠ سنة على البوهيميين فى السهول اقريبية من إرتساو ، وبدأ تاريخ الأسرة المجيد .

ومما كتبه أحد خلفاء كارل الجمهوريين — ويدعى كورت فون شوشنجر وهو مستشار سابق ساء حظه فى آخر أيامه :

« لم يسؤ حظ أحد من الحكام كما ساء حظ كارل . وليس الأمر الذى يعنى الآن هو هل كان ملكاً عظيماً ، وهل كان يحظى بالنصيحة الطيبة دائماً وهل يفعل ما يجب عمله دائماً ، ولكن الحقيقة أنه كان رجلاً طيباً وشجاعاً وشريفاً ، ونموسياً صادقاً ، لا يريد إلا الخير ، وأنه يحتمل فى الشدائد ما لا يحتمله كثير من الناس . ولقد ظلت هذه الحقيقة سرّاً مجهولاً مدة غير وجيزة » .

إنه لمن العسير أن يكتب رثاء لأسرة هابسبرج وإمبراطورية هابسبرج أصدق من هذا القول (فى إنجازاته وصحته) . ويقول كاتب من أذكى الكتاب الحاليين وهو الصحفي البريطانى جوردون شبرد « لعل أعدل حكم على الإمبراطورية النمسية القديمة أنها وجدت قبل وبعد أوانها . لقد كانت الإمبراطورية النمسية والنمسيون دوليين قبل الوقت المناسب وقوميين بعد الوقت المناسب » .

وذلك لأن الفكرة القومية القوية التى قامت على أساسها الدول التى كانت تتكون منها الإمبراطورية النمسية سنة ١٩١٨ خمدت بمجرد انتصارها . وليس من المؤكد لو أن إمبراطورية النمسا والمجر ظلت قائمة بعد الحرب العالمية الأولى على أساس انتصارها فى الحرب أو على أساس عقد هدنة بينها وبين أعدائها ، ما قامت الحرب العالمية الثانية ، ومن المعقول فى هذه الحالة أن الإمبراطورية النمسية لا بد أن تسير الزمن مثل الإمبراطورية البريطانية .

ولكن الكارثة التي أصابت الإمبراطورية النمساوية هي أنها لم تبق قائمة بعد الحرب بعد أن حاربت حتى نهايتها الأليمة ، وأنها عجزت من قبل عن أن تسير الزمن الذي مهد الطريق لقيام الحرب . وقد يكفي — عند قراءة تاريخ أسرة هابسبرج — أن ندرك أن التاريخ مثل سائر التجارب الإنسانية الأخرى ما هو إلا قصة محزنة . وتنطبق هذه النظرة على محاولة ولسن في أن يقيم عالماً جديداً على أقاض العالم القديم . إن ميزة أسرة هابسبرج الحقيقية — إن كانت لهم ميزة ما — على من وكل إليهم تصفية ترائبهم، هي أن عظمة الدور الذي كانوا يؤدونه لم تنسهم حقيقة المأساة التي كانوا يعيشونها . لقد كان لديهم بشكل واضح جداً ما كان ينقص صانعي السلام في فرساي — الشعور بالمأساة .

الفصل التاسع عشر

عشرة الاضطرابات

إن العالم القديم الذى وجدته ونستون تشرشل ذا جمال فاتن إبان عظمته الغاربة كان ذا منظر موحش عندما خيم الظلام على ما فيه من الخرائب ، ولم تكن ميادين القتال هى وحدها الأماكن الخربة فيه ، بل شمل الخراب أنظمة المجتمع وعقول الناس ، إذ أن الصدمة العنيفة التى صاحبت الهزيمة أو الثورة ، والاختفاء المفاجئ للرموز التقليدية للسلطة عملاً بين عشية وضحاها تقريباً على إيجاد جيل من السياسيين مرضى العقول . وكان أدواف هتلر — الممثل الجهنمى لهذا الجيل — فى دور النقاهة من عى مؤقت أصيب به من غاز سام فى معركة نهر إمبر الرابعة ، عندما حمل إلية رجل الدين الملحق بالمستشفى أنباء الهزيمة ، وهرب القيصر وانتهاء الحكم القيصرى . كتب هتلر عن ذلك فيما بعد فقال « لقد أظلم كل شىء ثانية أمام ناظرى . وعدت مترنحاً متعثراً إلى حجرة نومى ، وألقيت بنفسى على السرير ودفنت رأسى الملتهب فى الوسادة » ، والذى نعلمه الآن أن الشيطان كان يحرسه فى أثناء اليأس الذى خيم عليه .

والفوضى التى أعقبت انهيار الإمبراطوريات الثلاث التى كانت الدعامات المتينة لنظام الحكم القديم فى أوروبا لم تكن مع ذلك فوضى خلقية أو عاطفية . ، لقد كانت الحكومات النهاراة مسئولة عن أمور كثيرة أولها الحرب — ولكنها أدت على كل حال الدور الذى كان لابد من أدائه . وأمكنها أن تقى العالمويلات ما فى القلوب من عداوة وخاوف وأطماع ظلت تتجمع فيها أجيالا عدة . وأطلق انهيار هذه السلطات الدولية — أو على الأقل المحلية — وزوال تلك الارتباطات الإمبراطورية التى كان الناس راضين بها عدة قرون علق على أوروبا سيلا شنيعاً من

الأطباع القومية المتعارضة، وحزازات الأقليات الملتهمية والمطالبة بالأقاليم المقتصبة في العصور التاريخية (وقبل التاريخية)، والآمال الاجتماعية التي لا يمكن تحقيقها، والتعصبات السياسية المتنافسة. ثم قام نزاع عنيف ثلاثي بين القومية الولسونية والباشيفية والملكية الفاسدة الرجعية التي كانت تواقفة إلى التجديد عن طريق العودة إلى الجذور القبلية للحكم المطلق. وبينما كان مؤتمر السلام يعقد أولى جلساته في باريس في ١٨ من يناير سنة ١٩١٩ وأمامه تلك المهمة الثقيلة — مهمة تصفية مشكلات العالم القديم، كانت في أوروبا شرقي نهر الراين في بعض أنحاء آسيا تغلّى مراحل الحرب الأهلية والحلية، وفي بعض هذه المناطق ظلت نار الحرب مشتعلة وظل الاضطراب سائداً مع ما يحبه من الجوع والطاعون مدة أربع سنوات كاملة، بعد أن أعلن نفيير السلام اتفاق الهدنة من ريتوند.

ولقد بلغ من استمرار الاضطرابات وانتشارها من أوروبا إلى الشرق الأدنى - ووسط آسيا أنها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من عمل مؤتمر السلام. ولقد أدى ذلك إلى زيادة للمشكلات أمام ساسة الحلفاء المجتمعين في باريس لوضع الخطط اللازمة لقيام نظام عالمي جديد، وضاعفه ما ارتكبه الساسة من أخطاء أو ظلم. ولم تتولد جميع ما أصب أوروبا من نكبات بعد ذلك من معاهدة فرساي على ما قيل في بعض الأوقات. ولكن فرساي لم تكن إلا أول الحلول التي وضعت بعد الحرب (كانت معاهدة لوزان آخر حل ولم يوقع عليها حتى يوليو ١٩٢٣). وفضلاً عن الوثائق السياسية الرسمية كان هناك كثير من القرارات الإدارية والحرية مما يقرره ممثلو الحلفاء المقيمون في باريس المندوبون عن البلاد المنتصرة. (ولعل أسوأ قرار اتخذوه كان ذلك القرار غير الإنساني الذي يقضى باستمرار حصار العدو الذي يعانى الجوع حتى يتم التوقيع على أول معاهدة للصالح). وكانت نتيجة التفاعل بين الاضطرابات التي نتجت عن الظلم المفروض من أعلى والظلم الملازم للاضطرابات التي نشأت تلقائياً

من تحت الطبقة الدنيا زيادة القوة في أنياب النار التي أحس حيلنا بأثرها بعد عشرين سنة .
وعلى هذا الأساس يمكن أن يقال إن الحرب الثانية بدأت في أعقاب الحرب
الأهلية . وعلى هذا فهذه القصة ليست داخلية في مجئنا الحاضر . وما دامت الفترة
الفاصلة بين الحرب الشاملة والسلم الشامل من نوفمبر ١٩١٨ إلى ديسمبر ١٩٢٣
تقريباً لم تقدر أهميتها الكبرى ، فيكفي أن نسجل بعض الاتجاهات العريضة
والأحداث الفاصلة التي لها تأثير مباشر على المرحلة الأخيرة في تاريخ أوروبا في عهد
الأسرات الملكية ، وهو عهد التصفية .

والنمط الغالب في هذا العهد كان نمط الثورة ، والثورة المضادة . وكما حدث
في روسيا قبل ذلك بعام ، أدت الثورات الديمقراطية في وسط أوروبا في آخر ١٩١٨
إلى محاولات شيوعية لإقامة دكتاتوريات يسارية ، أدت بدورها إلى عودة أشد قوى
الرجعية المتصلة بالحكم المطلق البائد في صورة أكثر ضرراً . وكانت ألمانيا والنمسا
والجر بصفة خاصة ميادين حرب للمتطرفين من الجانبين . وكان للحركات
الشيوعية في هذه الدول جذور محلية عميقة ، إلا أن عدوى البلشفية في روسيا التي
انتشرت في الغالب عند عودة أسرى الحرب وتمريض المحرضين الثوريين الذين
بعثت بهم حكومة السوفييت ليؤلبوا العمال ضد حكوماتهم الديمقراطية ، كانا لها
الأثر الأكبر .

واقعد كانت سنة ١٩١٩ نوعاً من التمرين لعام ١٩٤٥ أكثر بكثير مما يدرك
الناس بصفة عامة . لقد حاول لينين محاولة طموحة — وتقريباً ناجحة — أن
يستخدم أسلحة الجيش الأحمر — وهو ما حاول ستالين أن يعمل به بعد جينين وأحد
ليفرض البلشفية على أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية . ولا يدل تحليل الاضطراب الذي

— ٥٩٢ —

كان في أوروبا في الوقت الذي كانت تجرى فيه مفاوضات الصلح إلا على أن الحرب الأهلية الروسية كانت في طريقها إلى الغرب .

وفي الوقت الذي استسلم فيه الجيش الألماني للحلفاء في فرنسا كانت الحرب الأهلية الروسية مشتتة منذ سنة تقريباً . وكانت الصفة الغالبة على النزاع وهي التي بينها بوضوح باسترنالك في الدكتور زيفاجو ، ترجع في الغالب إلى القوضى المنتشرة في كثير من أنحاء الريف الروسي فيما وراء جبهات القتال المائعة . وزاد الحالة سوءاً ما قامت به جماعات حرب العصابات والجنود غير النظاميين والمغامرين والجرمين ، علاوة على الإرهاب المنظم في البلاد الذي يمثله مذبحة آل رومانوف والقوات الحمراء والبيضاء المعارضة . ومع ذلك أصبحت الحرب حرباً كبرى وأصبحت الجيوش الرئيسية المعادية لبعضها البعض ذات خبرة فنية في الحروب .

وكان البيض (ونعني بهم كل القوى المناوئة للبشفية من صفوف الاشتراكيين أو الفلاحين السذج إلى الملكيين) ضعافاً بصفة عامة في القيام بأي عمل ، ولكن الحلفاء كانوا يمدونهم بالعتاد الحربي كما كانوا يؤازرونهم أحياناً ببعض الكتائب المحاربة . (وفي أثناء الحرب الأهلية الروسية تدخلت القوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية والألمانية واليونانية والصربية والتشيكية والبولندية واليابانية بشكل ما تأييداً لقضية القوات البيضاء) .

وفي صيف سنة ١٩١٨ كادت القوات البيضاء أن تنجح في هزيمة القوات الحمراء . ولو لم يقم الألمان بمساعدة الحكومة البشفية المتداعية لكان في وسعهم أن تبرز النصر . وفي كل من السنتين التاليتين كانت القوات البيضاء تحت قيادات مختلفة ، وبمعونة من البلاد المختلفة ، قاب قوسين أو أدنى من النصر النهائي لها ، وكاز

سبب الهزيمة عدم التنسيق بين القوات الحاربة للبشفية في روسيا وعدم الاتفاق بين الحلفاء على الوقت المناسب والمكان الملائم لشد أزرها .

وإذا اتجهنا إلى الجانب البلشفي نجد أن ضغط الحرب الأهلية لم يزد من قسوة البلاشفة وعدوانهم للعالم البورجوازي جميعه — على أنه يمثل أصحاب النفوذ الإمبريالي — فحسب، بل إنه جعل من الجيش الأحمر الحديث التكوين مصدراً عظيماً للنفوذ . ولقد كان الجيش الأحمر من عمل تروتسكى إلى حد كبير . وقد استعان في إعداده لكي يكون عاملاً حريياً صالحاً بوسائل كانت في بعض الأحيان سيئة في نظر الماركسيين . سأل تروتسكى لينين بمناسبة ما أبداه لينين مرة من الاهتمام بوجود ضباط الحكم السابق في الجيش « هل تعرف عدد الضباط السابقين الذين يحاربون الآن في جيشنا ؟ » فأجاب لينين قائلاً « لا » .

قال تروتسكى « ثلاثون ألفاً ، (والواقع أنهم قرابة أربعين ألفاً) .

وكان تروتسكى يعتمد أيضاً اعتماداً كبيراً على كتائب أجنبية مرترقة من المجر والصين وغيرها ، وكان لوجود هؤلاء المحترفين أو شبه المحترفين أثر في تعليم شباب العمال والفلاحين المتحمسين ، ولكن غير المدربين الذين في الجيش . وتقوية روحهم المعنوية .

ثم إن نشاطه الشخصي وحكمه الصحيح على الأمور وشجاعته هيأت العناصر الجهورية للنصر . ولقد أقام أشهراً متواصلة في قطاره المصفح ينتقل من جهة مهددة إلى جهة أخرى مهددة ، وربما قاد بنفسه هجوماً فاصلاً أو وقف تحت وابل من النيران لتقوية جيوشه المدافعة .

وما كادت هجمات الجيش الأبيض سنة ١٩١٨ تبوء بالفشل حتى أخذ

الألمان ينسحبون من المناطق الروسية أو المناطق التي كانت روسية من قبل ،
والتي كانوا يحتلونها بحكم معاهدة برست ليتوفسك ، وانقضت البلاشفة على المناطق
الخالية من الجيوش وغيروا نظم الحكم القومى المحلى التى كان الألمان يؤيدونها ،
وألحقوا المناطق المحررة بجمهورية الاتحاد السوفيتى ، وأسرع الحلفاء بالمعونة الحربية إلى
بولندا وإلى من بقى من القوات المناوئة للشيوعيين فى أوكرانيا الغربية ، ونشأ
موقف معقد فى مناطق البaltic بين قوات الحلفاء وجيش روسيا البيضاء المتجه
إلى بتروجراد ، و فرق غير نظامية من الألمان ، وعدد من الوطنيين المحليين الذين
كانوا يعدون كل من عداهم من الغزاة الفاتحين وحاول السوفيت إعادة غزو
فنلندا إلا أن الفنلنديين بمعونة حرية غير رسمية من الألمان استطاعوا صدّهم .

ووقف المد البلشفي الأحمر سنة ١٩١٩ عندما كاد الهجوم المضاد للقوات
البيضاء يستولى على بتروجراد ويهدد موسكو . وفى سنة ١٩٢٠ وقع الجيش
البلشفي ثانية فى الخطر عندما حاصرت قواته : جيش القرم الذى يقوده الجنرال
رانجل آخر وأقوى قادة الجيش الأبيض ، والجيش البولندى بمعونة الفرنسيين
الزاحف من الشمال (كان البولنديون - بعد أن قضوا على الشيوعيين المحليين -
يقاتلون فى حرب قومية للغزو الإقليمي) . ولقد كان نجاح الجيش الأحمر فى رفع
هذا الحصار هو الذى كاد أن يفتح أبواب أوروبا الوسطى للبلشفية . ورجع رانجل
إلى القرم وأصبح محصوراً فيها (واضطر أخيراً إلى إجلاء ما بقى من جيشه بحراً
فى نوفمبر سنة ١٩٢٠) ثم تحولت الجيوش الحمراء بقيادة الجنرال توكاشفسكى
— وهو ضابط قيصرى سابق اعتنق الشيوعية — إلى محاربة البولنديين . وكان
توكاشفسكى الذى أصبح فيما بعد أحد زعماء استالين البارزة صاحب مبدأ استراتيجى
جديد وهو : الثورة من الخارج ، وبعبارة أخرى استخدام الجيش الأحمر لمحل
الشيوعية إلى كل أوروبا ، كما حلت جيوش نابليون مبادئ الثورة الفرنسية إليها .

وهيأت له الحرب مع بولندا الفرصة لتطبيق نظريته . ويبدو فيما لاقاه من السهولة في تحطيم الجيوش البولندية وسرعة زحفه في بولندا ، دليلاً على صحة نظريته .

ولقد نجح البولنديون أخيراً بمعونة الفرنسيين المادية وإرشاداتهم في وقف التقدم الروسى عند نهر الفستولا على مسافة من وارسو في ١٤ من أغسطس سنة ١٩٢٠ . وهذا التاريخ من التواريخ التى تستحق الذكر فى الغرب . ويقول لينين فيما بعد فى هذا الموقف : « لو أن بولندا صارت سوفيتية لتحطم النظام الدولى الذى وضع بمناسبة الاتيصال على ألمانيا . ولم يكن لفرنسا دولة حاجزة تستطيع بها أن تقى ألمانيا من روسيا السوفيتية » والدولة الحاجزة التى يشير إليها لينين كانت بلا شك بولندا الضالعة مع الغرب المعادية للشيوعية ، ولعله كان مخطئاً فى مازعم أن الفرنسيين فى ذلك الحين يهتمهم وقاية ألمانيا من البلشفية ببقاء بولندا حاجزاً بين الدولتين ، ولكنه كان مصيباً فى قوله إنه فى حالة إذا ما قضى على هذا الحاجز فإن ألمانيا المهوكة القوى سوف تكون لقمة سائغة أمام الضغط البلشفى ، وسوف تتمحى من أوروبا سيادة الحلفاء الجديدة . ومع ذلك فنحن نفعل بعض جوانب القصة . إذ ليس سبب إنقاذ أوروبا من البلشفية راجعاً إلى صد توكاشفسكى عند وارسو ، ولكنه راجع إلى فشل لينين منذ سنة أو سنتين فى محاولة نشر الثورة فى أوروبا الوسطى بالوسائل السياسية والمؤامرات . وإذا أردنا الدقة فإن ذلك راجع إلى رموس الجسر الثورية التى نجح فى إقامتها ، أزيلت سنة ١٩٢٠ . وعلى هذا فيحسن بنا أن نعود إلى سنة ١٩١٨ لنمسك بخيوط هذه المؤامرة .

وبفضل تعضيد السفير الروسى جوف أصبح الألمان الاشتراكيون اليساريون المجتمعون فى مؤتمر سبارتاكوس برياسة ليننخت وروزا لوكمبرج

الحلفاء المذهبيين للبشيفية الروسية في الوقت الذي تنازل فيه القيصر عن عرشه . وكما سبق القول لعبوا دوراً كبيراً في ثورة برلين في نوفمبر ، وكانوا متألمين لأن المستشار إيرت والاشتراكيين المعتدلين منعوها في اللحظة الأخيرة من أن تكون كالثورة الروسية . لقد كانوا يمتقنون كثيراً الجمهورية الديمقراطية البرجوازية كما يمتقنون أصحاب إيرت وشيدمان وسائر « الخونة » ألقوا بثورة العمال في النهر بإنشائهم هذه الجمهورية . وكانوا مستعدين للثورة ضد الحكومة الألمانية الجديدة إذا ماسنحت لهم فرصة النصر . وفي ضوء ما فهموا من النظرية الماركسية كانوا على ثقة من أن الفرصة لا بد ستتاح لها عاجلاً .

وكان أصحاب القيادة الفكرية من البلاشفة يتبعون سير الثورة الألمانية من موسكو بقدر ما يستطيعون وبشغف شديد . فقد كان لألمانيا ، وهى وطن كارل ماركس ، منزلة خاصة ، وأهمية كبرى في عقول كل الاشتراكيين الأوربيين في ذلك الوقت . ولم يكن البلاشفة أقل اقتناعاً من ألمان مؤتمر سبارتاكوس ، بل لعلمهم كانوا أكثر اقتناعاً منهم بأن الوقت قد حان ليحطم العمال في جميع أنحاء العالم سلاسلهم ويمدوا أيديهم إلى إخوانهم الروس لنصرة قضيتهم الثورية . وعلى هذا الأساس وبهذه العقيدة قام لينين وتروتسكى بالمغامرة الخطيرة — مغامرة الثورة والدكتاتورية في روسيا . ولو كان تقديرهما للموقف العالمى خاطئاً لكانت مغامرتهم حسب وجهة النظر الماركسية الصحيحة فاشلة . وكان المظنون حينذاك أن الثورة الاشتراكية لا تنجح إذا قامت في دولة واحدة ، لأن الرأسمالية الدوالية سوف تتحد للقضاء عليها .

وكان يبدو في الأيام الأولى السوداء من الحرب الأهلية أن هذا هو ما يحدث في روسيا السوفيتية ومن الواضح الآن أن التاريخ — كعادته دائماً مع أبنائه

الخلصين ، يقدم لنا البرهان على أنهم دائماً غير مخطئين . وكان الموقف لا يتطلب إلا دفعة خفيفة ، وكانت ألمانيا هي التي قامت بهذه الدفعة . ولكي يحصل لينين عليها بعث بالصحفي النمساوي البولندي السابق كارل رادك ، كلبه الحارس الأمين أيام الحرب ، وأحد جماعة بارفس ، إلى برلين مزوداً بالتعليمات السرية لتنظيم الثورة الشيوعية الألمانية والقيام بها . وكان عليه أن يمد ليننخت بالمعونة المالية والنصيحة الفنية وبالأسلحة كذلك . وكان عليه أيضاً تنظيم جماعة سبارتا كوس المفككة إلى حد ما ، وتأليف حزب شيوعي على النمط الروسي التأم على تدمير المؤامرات . ولقد ظهر هذا الحزب البلشفي الألماني في ٣٠ من ديسمبر سنة ١٩١٨ .

وبينا كان الجيش الأحمر يتقدم في مناطق البحر الباطي متجهاً نحو حدود بروسيا الشرقية ، وقيم حكومات سوفيتية اسمية في أثناء تقدمه ، بدأت مجالس العمال والجنود تكون في مدن شمال ألمانيا ، وأصبحت العارك أحداثاً عادية في شوارع برلين .

وقبل حلول عيد الميلاد بيومين سارت فرقة من البحارة كانت تحتل الاسطبلات الإمبراطورية منذ قدمت من كيل في ٨ من نوفمبر وقد أثارها تأخير المرتبات وتحريض الإسبارتاكين لها (وهو اسم البلاشفة حينذاك) إلى دار المستشارية واحتلتها . وقطعت جميع أسلاك التليفون ماعدا السلك الذي يصل بين المستشار إبرت ومركز القيادة العام للجنرال جرونر . وطلب المستشار في مرح مركز النجدة ، وفي الوقت الذي وصل فيه الجنود والذين بعث بهم جرونر غادر البحارة المكان ، وقد أخذوا أحد المندوبين الاشتراكيين رهينة معهم . ونحوت محاولة إجلائهم عن الإسطبلات في اليوم التالي إلى معركة حربية ، ومع أن الجنود كانوا مزودين بالمدافع إلا أنهم منوا بخسارة كبيرة في الأرواح . وظل المحتلون

في أماكنهم (ولم يتم إجلاؤهم إلا بعد مفاوضات مع الحكومة انتهت بأن يصرف لهم مرتباتهم المتأخرة) .

وكان هذا نصراً للبلاشفة ولكنه نصر قرر مصيرهم ، إذ أصبح إبرت ، وقد أزعجت الأحداث الدامية في ليلة عيد الميلاد، على استعداد لتلقى العون من أى مصدر . وكان كلامه الصريح عن الرغبة في التخلص من الإسبارتاكيين ، ومن مجالس السوفييت العسكرية والعالمية ، بل ومن أعضاء الحكومة الاشتراكيين اليساريين، ينطوى على اتهامهم ، الأمر الذى لم يسمع من قبل ، بقرار أن القوة لا بد أن تقابل بالقوة ، وأقام جوستاف نوسكه وزيراً للدفاع الوطنى ، وهو رجل الجمهورية القوي الذى حظى بتقدير القيادة العليا منذ أحسن التصرف في ثورة كيل . وكان جزاراً سابقاً ، واشتغل بالسياسة عن طريق نقابات العمال حتى صار خبير الحزب الديمقراطي الاشتراكي في المسائل الحربية . وليس لديه مالى إبرت من الشعور بالحرج عند سفك الدماء . وبما قاله : « لا بد أن يكون أحد الناس شارب الدماء » . وقد كان مستعداً كل الاستعداد لمحو البلاشفة ، ولكن بأى شئ ؟

وكان الجيش النظامى منهوك القوى فضلاً عن انحطاط روحه المعنوية ، ولم يكن الجنود أكثر رغبة في القتال في حرب أهلية في جانب الحكومة الاشتراكية منهم في جانب القيصر . وكان الذى يداعب عقولهم « مألحى العودة إلى دورنا لنقضى عيد الميلاد مع أهلينا » . وكانت خير طريقة لمنع هرب الجنود منحهم أجازات ، ولم يبق في براين إلا عدة مئات من الجنود ، ولكن عند محاربة اليساريين المتطرفين كان لدى إبرت ونوسكه من الحلفاء أكثر مما يخطر لها على بال . ففي الثامن من يناير دعاها أحد الضباط لزيارة معسكر حربي بجوار براين حيث رأيا قوة عدتها أربعة آلاف رجل ، دربوا وسلحوا بطريقة سرية . وكانت رؤيتهما لهذه القوة مفاجأة لهما .

وكان هؤلاء المتطوعون — الذين قال عنهم أحد ضباط الهيئة العامة ويدعى كورت فون شليشر إنهم « لا يعرفون جمعيات الجنود السوفيتية ، ولا يعرفون إلا بنادقهم وضباطهم » — الطليعة لكثير من الكتائب الحرة التي تكونت في جميع أنحاء ألمانيا . وكانت هذه الجيوش الخاصة — كما في حرب الثلاثين — لا تدين بالولاء إلا للضابط الذي كان يدرّبها ويقودها ويمدها بالسلاح والعتاد .

وعندما رأى نوسكه ذلك — وكان صف ضابط وقت الحرب — سره مارأي وقال لإبرت « كن مطمئناً . كل شيء سيكون على مايرام » . (وسرعان ما انتشرت حركة الجيوش الحرة في الجهات البلطيقية والبولندية حيث امتعت فرق بأكملها عن الموافقة على شروط الهدنة . وظل الجنود وأسلحتهم تحت تصرف ضباطها وزاد عدد الجيوش الخاصة . وحاربت هذه القوات غير النظامية ببسالة عظيمة ضد البلاشفة وضد البولنديين غير الشيوعيين الذين كانوا يتسللون إلى سيليزيا الألمانية) .

ولم يمض شهران على هزيمة المحافظين الألمان حتى عرفوا اعتدال حكومة إبرت . وأخذ الموظفون في الإدارات الإمبراطورية السابقة الذين دعمهم الحكومة المؤقتة للبقاء في وظائفهم — لعدم وجود من يحل محلهم — في الوزارات والمصارف والمحاكم يحسون بالراحة والاطمئنان ، ويعدون العدة لإقامة نظام حكومي وفق إرادتهم . وبدأ الساخطون في الجيش يعملون سراً ضد الحكومة التي كان رؤساؤهم يؤيدونها . وبعد مضي ستة أسابيع من الهدنة أسست جمعيتان سريتان من الضباط لحماية طبقة القادة السابقين .

وبعد قليل عاد الجنرال لودندورف إلى برلين ، وكان قد غادر البلاد سراً بعد الهدنة يلبس نظارة سوداء ، وأخذ يستقبل زواراً متكررين في جناح منفصل في فندق

أدلون . وبينما كانت الحكومة تحاول أن تسير بالبلاد في أمان في أثناء القيام بانتخاب جمعية تأسيسية ، كانت الدلائل تنذر بقرب وقوع حرب أهلية فيها . وظهر على جدران المدينة ليلاً نشرات كتب فيها « اقتلوا اليهود . واقتلوا ليننخت » . وكانت الشوارع في النهار مملأة بالمظاهرات الشيوعية ، وكان القادة البلشفيون في يأس تام . فلقد خرجت الثورة من أيدي الطبقات العاملة . وعاد للضباط نفوذهم . وأخذت جماهير الشعب تبحث عن قيادة جديدة لها . وأيد المؤتمر الذي ضم مندوبين عن مجالس العمال ومجالس الجنود في ألمانيا دعوة الجمعية التأسيسية رغم اعتراض الشيوعيين ، وحدد يوم ١٩ من يناير سنة ١٩١٩ للانتخاب ، وكان الأمر يتطلب معرفة قوة كل فريق قبل ذلك .

وفي ٦ من يناير سنة ١٩١٩ حاول فريق من الجنود الشيوعيين في سيارات مصفحة بتحريض صريح من رادك اقتحام المستشارية . بينما كان أكثر من ١٠٠٠ من المؤيدين محتشدين عند إنتردن ليندن . واحتلت فرق أخرى دار الطباعة الحكومية ومحطات السكة الحديد وعدداً من الشكنات . وغزا ثلاثمائة من الشيوعيين بقيادة أحد البحارة وزارة الحرب ، وأعلن ليننخت قيام حكومة مؤقتة ، وظلت برلين في قبضة الحمر ثلاثة أيام ، وقام نوسكه بحركة مضادة في ٩ من يناير ومعه عدد من الجنود النظاميين والمتطوعين مزودين بالمدافع ، وفي ١١ من يناير اقتحم حوالى ٣٠٠٠ من الجنود المدربين مجلس النواب وفي ١٥ يناير كانت برلين ثانية في يد الحكومة .

وكان القصاص قاسياً وأكسب وزير الحرب لقب (نوسكه السفاح) . وقبض ضباط من فرسان الحرس على القائدين البلشفيين كلرل ليننخت وروزا لوكسمبرج في الضواحي وجاءوا بهما إلى رئاسة الجيش في فندق عدن في برلين .

وقد سحب الضباط روزا لوكسمبرج الشمطاء الهزيلة إلى تير جارتن حيث ضربته بالرصاص بعد ما لقيت من سوء المعاملة الشيء الكثير، وألقيت جثتها في قناة لاندفير . وأطلق الرصاص على ليننخت وهو يحاول الهرب . لقد بدأ المستقبل المولم يتضح للعيان .

واستمر البلاشفة يقاتلون رغم أنهم كانوا بلا قيادة ، وكانت الأحداث التي وقعت في ألمانيا في الفترة من يناير إلى مايو سنة ١٩١٩ أشبه بالأحداث التي قضت على الحكومة في باريس في ربيع سنة ١٨٧١ . وبأمر من الحكومة كانت فرق الجنود الموالية والمتطوعين يقضون على الثورة الشعبية بكل عنف ، وحيثما كان الحكم للجماهير كان الجيش يعمل على تقويضه . وهكذا كان الألمان يقتلون الألمان بقسوة شنيعة .

كتب أحد جنود الفرقة الحرة إلى أسرته يقول « لا تسامح ولا عفو، نحن نطلق الرصاص حتى على الجرحى . إن الحماسة شديدة إلى درجة غير معقولة » . وفي السادس من فبراير اجتمعت الجمعية الوطنية لإصدار نظام الحكم النيابي، لا في برلين حيث كان الشيوعيون في أوج قوتهم ، ولكن في فيهار برعاية جيته وفي حي « قناسة » الجنرال ميركر ، وهم بعض الفرق الحرة التي اعترفت بها الحكومة المؤقتة . (أظهرت انتخابات يناير تجدد قوة اليمينيين وتنبأت بعودة الطبقة الوسطى) ، ثم فشلت محاولة البلاشفة للتقدم نحو فيهار وفرقة الجمعية الوطنية ، ولكن إضراب موظفي سكة الحديد منع الاتصال بين فيهار وسائر أنحاء ألمانيا .

وفي مارس شب القتال المرير ثانية في برلين، وزادت الدعاية الروسية حماسة العمال إلى حد مخيف، حيث كانوا يعتقدون أن ألمانيا ستكون أول ميدان تنتصر فيه الثورة العالمية ، نتيجة للنقص المريع في الأغذية (لا يزال الحلفاء حتى هذه) (٣٨ - الأسر)

— ٦٠٢ —

اللحظة يحاصرونها) وبسبب إجراءات القمع الشديدة التي يقوم بها الجيش ، وفيما بين الإضراب العام الذي ناء بكل كسله على برلين في ٣ ، مارس واسترداد نوسكه للضواحي الشرقية في ١٤ من مارس ، تسببت المدافع وحوادث القتل من كلا الجانبين في موت ١٢٠٠ نسمة وجرح ١٠٠٠٠ ، ولما انتهى « أسبوع برلين الدامي » لم يكن العمال بدون قيادة فحسب ، بل خلت أيديهم مما كان يصل إليهم من الذخيرة بسبب كثرة من ترك الجيش من الجنود بعد الهدنة .

وكانت ميونيخ المسرح الثاني للحرب الأهلية ، وقامت جمهورية سوفيتية في بافاريا في ٧ من أبريل وأبدت رغبتها في الاتحاد مع روسيا والمجر بعد خمسة أسابيع من الفوضى ، جاءت على أثر وفاة كورت أيزنر المثالي اليساري الذي كان على رأس ثورة نوفمبر في ميونيخ . وكان نتيجة تنبيهه لحقوق بافاريا وتصريحه بمسؤولية ألمانيا في الحرب أن عد العدو الأول للوطنيين . وفي ٢١ من فبراير أطلق عليه الرصاص في أحد الشوارع شاب من النبلاء يدعى الكونت أركو فالي (وفي نفس اليوم قتل شيوخ أحد الأعضاء الاشتراكيين الديمقراطيين في حكومة أيزنر) . وقد حملت الاضطرابات التي جاءت نتيجة لذلك الوزارة البافارية على مغادرة ميونيخ التي استولى عليها مجلس العمال ومجلس الجنود .

واستطاع بحار من كيل وبعض ذوى النشاط من البلاشفة بتوجيه أحد عملاء البلاشفة في موسكو أن يؤسسوا حكومة إرهابية فيها ، بينما كان مندوبو الشعب في الجمهورية السوفيتية الجديدة مشغولين في شئونهم الخاصة القريبة . وأعلن من يدعى دكتور تب - الذي كان يشرف على الشؤون الخارجية - الحرب على سويسرة وورتمبرج ، وكان السبب الذي أبداه « أن الكلاب لم يواظبوا على إعارته ٦٠ قاطرة . وإني متأكد من الانتصار عليهما » .

وفي أول مايو بعد معركة حربية حامية بأمر من نوسكه احتلت القوات الحكومية ميونيخ وشارت فرق الجنود الحرة لمن قتل من الرهائن على يد الشيوعيين وترك جثثهم الممزقة في ساحة الألعاب الرياضية في لويتهولد وخلال هذه الفوضى السياسية التي كانت تسود ميونيخ في ذلك الوقت كان أي فرد يستطيع إذا لم يكن قائداً لعدد من الرجال أن يكون جاسوساً أو سفاحاً في تلك البيئة الرهيبة، بيئة البطش والانحلال، بدأت حياة هتلر السياسية. لقد قدم إلى ميونيخ في أوائل عام ١٩١٩ بعد مدة قضاها حارساً في أحد معسكرات السجن، ثم صار مخبراً من مجلس الجيش لاصطياد مرتكبي الجرائم الشنيعة من المجرم. وكعمل سري للجيش قابل لأول مرة جماعة سياسية صغيرة - حزب العمل الألماني (وكان لفظ «عمل» في رأى رؤسائه يضمن له الاتصال عن قرب بهذا الحزب) الذي كان الوسيلة لوصوله إلى الحكم.

وعند حلول شهر مايو سنة ١٩١٩ أي بعد ستة أشهر من نهاية الحرب وهنت قوة الثورة التي قامت بها الطبقات العاملة، ولكن حكومة إبرت عجزت عن معرفة صديقها من عدوها.

وكانت الحكومة في رأى اليساريين المتطرفين مكونة من «الخونة الاشتراكيين» الذين أخرجوا الجماهير الألمانية من الثورة الشعبية التي كانت تهدف إلى إقامة عالم جديد حر. وكانت في رأى الوطنيين تتكون من «مجرمي نوفمبر» الذين طعنوا ألمانيا - التي لم تقهر - في ظهرها بمؤامراتهم الماركسية. والنظام النيابي الجديد لم يكن قد نفذ بعد، والمجلس التأسيسي كان لا يزال يوالى اجتماعه في قيار عندما قدم الحلفاء إلى ألمانيا صك الحرب. إن شروط معاهدة فرساي التي نشرت

— ٦٠٤ —

في برلين في ٧ من مايو كانت أشبه بالضربة القاضية . كيف كان ردهم عليها ؟
ذلك ما سنراه بعد قليل .

وفي جميع أنحاء النمسا وبخاصة فيينا حيث كانت الأوراق القذرة مبعثرة على
الحشائش التي تحيط بالتمائيل ، وحيث النواذ الحكة الإغلاق لا تستطيع رد البرد
القارس طيلة شتاء سنة ١٩١٨ — ١٩١٩ ، اتبع الهجوم البلشفي الشيوعي على النظام
الديمقراطي ، نفس الطريقة التي اتبعت في ألمانيا . ومع ذلك كانت قيادته أقل
بنيًا مما كان في ألمانيا . ولم يحقق للعمال من العون ما تحقق لهم في ألمانيا .

وقد بدأ الشيوعيون النمسيون بوحى من موسكو ، ولكن دون أن يكون
وراءهم محرض ملهم مثل رادك — ينظمون قبل نهاية سنة ١٩١٨ فرقًا محاربة
تسمى بالحرس الأحمر ، قوامها الفارون من الجيش والعاطلون من العمال . وكان
يدرب هؤلاء عادة أسرى الحرب المسرحين بعد أن تبشفوا في روسيا . وكانت
المعارك تنشب في شوارع المدينة من وقت لآخر في يونية سنة ١٩١٩ ، وحاول
البلاشفة القيام بانقلاب ضد الحكومة . ومع أن الاشتراكيين النمسيين كانوا
مثل الاشتراكيين الألمان في اعتدالهم وإن كانوا أشد تعلقًا بمبادئهم منهم إلا
أنهم يختلفون عنهم في أنهم رفضوا العون من الجيوش الخاصة المينية التي بدأت
تظهر في النمسا كذلك وقاوموا تهديد الشيوعيين بما كان للدولة من القوات دون
غيرها ، أي بشرطة بلدية فيينا والحرس الأهلي . وكانت الهيئة الأولى تحت
رياسة رئيس الشرطة الإمبراطوري السابق شوهر ، وكان ولا يزال مخلصًا وكفؤًا
وكانت الهيئة الثانية على الأقل مخلصه (رغم أن بها عددًا كبيرًا من الضباط
القدامى الذين كانوا في الجيش الإمبراطوري فقد كانت رياستها للجنة ، كما كان
الحال في روسيا أيام كرنسكي) ، وبعد قتال عنيف في شوارع العاصمة لم يستمر طويلا

فر البلاشفة وضارت الحكومة الديمقراطية الاشتراكية حاكمة البلاد بصفة اسمية ، على الأقل ، وكان الحاكم الحقيقي في ذلك الوقت هو الجوع . وكانت الاضطرابات أو المنازعات التي تعكر الأمن في الجمهورية في أولى سنواتها راجعة إلى نقص الأغذية أكثر من رجوعها إلى أسباب سياسية .

وكثيراً ما حدث التصادم بين الحرس الأهلى وجمعيات أصحاب الأملاك عندما يقومون — بناء على أمر الحكومة — بتفتيش البيوت والمزارع والقنادق وحتى الملاجىء والأديرة ، للبحث عما عسى أن يكون بها من أغذية مكسبة مخترنة . ولم يكن في وسع الحرس الأهلى دائماً أن يحول دون النهب والسلب ، فكثيراً ما كان الإغراء قوياً فيشتبك في عملية النهب . ففي فبراير سنة ١٩١٩ بينما كان بعض مندوبى العمال يسرون في شوارع لنز في طريقهم إلى إحدى المصالح الحكومية الرئيسية للاحتجاج على نقص الألبان واللحوم ، تحولوا فجأة إلى فئة من الناهيين على نحو ما كان يفعل بعض الصبية ، واقتضوا معهم على أحد المطاعم من أجل الطعام . وامتدت نشوة النهب والسلب إلى جميع الحوانيت والمطاعم في المدينة .

وفي أبريل عام ١٩١٩ حدثت اضطرابات في فيينا بسبب الجوع مات فيها بعض خيول الشرطة . وما ذكره أوتوباور الزعيم الاشتراكي « إن المتظاهرين اقتضوا على الخيل التي سقطت على الأرض ، وانتزعوا قطع اللحم من الجثث التي لا تزال ساخنة ، وحملوها إلى دورهم كأشياء لذيذة حرموا منها مدة طويلة من الزمان » وفي الجرحا في ألمانيا والنمسا — واجهت البلاد انفجارات للقوات الاشتراكية التي كانت محتبسة مدة الحرب ، وتدخلت الحكومة السوفيتية في موسكو لتقوية الحركة أملاً في نشر الثورة في أوروبا لاعتقادها أن سلامتها تتوقف على ذلك .

ولم يكن الكونت كارولى - وهو رجل مهذب من رجال الصالونات - بالرجل
 القدير على مواجهة الموقف . رغم أنه أظهر إدراكه لأعظم مشكلة فى الجمر بتوزيع
 أملاكه على الفلاحين . ولكن المجريين الذين كانوا قد حاربوا فى جميع جبهات
 القتال المترامية الأطراف فى الإمبراطورية الثنائية - رغم ما هم فيه من رخاء نسبي -
 رأوا الآن بلادهم التاريخية أصبحت معرضة للغزو من نواح عدة . وعندما عاد
 الجنود من الميدان جردهم كارولى من السلاح ليؤكد ميوله السلمية وليقضى على
 عناصر الثورة . ورأى - وهو مستسلم - استيلاء يوغوسلافيا على الجزء الجنوبي
 من الجمر ، والجيش الرومانى يمتاز حدود ترانسلفانيا ، والجنود التشيك يدخلون
 سلوفاكيا . وفى مارس سنة ١٩١٩ ، أمر ممثل الحلفاء فى بودابست جنود الجمر
 بالانسحاب إلى داخل الجمر قائلين إن الحدود الحرية الجديدة هى الحدود السياسية
 القادمة الناشئة .

وكان لهذا وقع ثقيل على الكونت كارولى الذى كان قومياً أكثر منه
 ديمقراطياً ، فاستقال ، وهكذا أفسح المجال للثورة الاشتراكية الكامنة تحت النظام
 الإقطاعى الجائر ، الذى زاد من وطأته فى السنوات الأربع الأخيرة ما جناه تجار
 الحروب من الأرباح الفاحشة .

وظلت الباشقية تحكم الجمر خمسة أشهر التالية . وكان حاكمها وهو صحفى
 يهودى يدعى بيلاكون أسيراً عند الروس الذين دربوه وأمدوه بتسندات مزورة
 وزودوه بقدر من المال وأعادوه إلى الجمر على أساس أنه من خير عملهم . وكان
 يبدو بوجهه العريض التتارى ورأسه الحليق وقسوته الوحشية وسوقيته المتأهبة ،
 كأنما هو الصورة المجسمة للارهاب الأحمر . ولم يكن فى مبدأ الأمر مؤيداً من
 الديمقراطيين الاشتراكيين فحسب ، بل كان مؤيداً كذلك من كثير من الطبقة

المتوسطة والدوائر الحربية ، آملا في أن تساعد روسيا المجر على استرداد أملاكها الضائعة. ثم توطلت العلاقة بين المجر وموسكو وبين الجمهورية السوفيسية في ميونيخ ، ولكن المعونة الأجنبية التي طالنا تنغى بها بيلا كون لم تتحقق مطلقاً. وقد وصل إلى علم الحلفاء . ماتم في عهد بيلا كون الاستبدادى القصير من مصادرة للأموال وحرق للمساكن وزج في السجون ومحاكمات ظالمة . وكانت مطالب الحلفاء غير المعقولة هي التي ساقطت المجر إلى البلشفية . وكثيراً ما تردد على الألسن في تلك الظروف « أن الحلفاء يستحقون هذا الجزاء » .

ويعصف سير هارولد نيكلسن أحد أعضاء الوفد البريطانى في مؤتمر في باريس ، والذي صلب الجنرال سمس إلى بودابست في أبريل سنة ١٩١٩ باعتباره عضواً في اللجنة الدولية، حفلة الشاي المحزنة التي أقيمت في فندق هنتاغرا للزائرين ، لقد أدهش نيكلسن وجود الردهة غاصة بالمجرين الأرستقراطيين الذين يحمسون شراب الليمون على أنغام أوركسترا غجرية. ولم يدرك إلا بعد وقت طويل أن فيما يشهده أمراً غير عادى وسجل شعوره في مذكراته فقال « لقد انتهت فجأة إلى أن كل مائدة في صمت تام . ولم ينبس أحد بينت شفه في أثناء احتساء شراب الليمون . فإذا ما رجع أحد البصر بغتة فإنه يرى عيونا كثيرة وجلة ، ويرى وراء هذه العيون استغاثة صامتة مؤثرة واسعة، واستمر هذا السكون الخفيف مع نواح السكان ، وعلى مرأى من الحراس الذين يرقبون كل محاولة للخروج . لقد اتضح أن كل هذا الجمع المختشد الصامت من الناس إنما خرجوا من السجن هذا الأصيل » .

وبسبب مغامراته العسكرية قدم بيلا كون الضربة القاضية للبلاد ولحكمه . فقد قامت فرق الجيش الأحمر التي أنشأها بمعونة ضباط من الجيش الإمبراطورى بهجوم على التشيك والرومانيين. ولكن النجاح الذى صادفه في أول الأمر لم يدم

— ٦٠٨ —

طويلا . ففي يوليو سنة ١٩١٩ قام الرومانيون بهجوم مضاد واحتلوا بودابست . وبقيت موسكو في معزل عن هذه الحرب لانشغالها بحربها الأهلية . و فريلا كون وصحبه إلى فيينا . وجلا الرومانيون أخيراً في نوفمبر بعد إلحاح كثير من الحلفاء ، ورحلوا يحملون كل ما يمكن حمله معهم .

وبعد حيل هؤلاء دخل بودابست جيش معارض للثورة بقيادة أمير البحرية السابق في الدولة الثنائية ميكلوس فون ناجييانا هورتى وأخدير بطمؤيدى بيلا كون في أعمدة النور ويزج اليهود في كثرة مريعة . وعلى الجملة فرض على البلاد حكماً إرهابياً أبيض يدل على أنه لم يتعلم شيئاً من العهد الأحمر السابق ومن الغلو في تصرفاته . وأخيراً في يناير سنة ١٩١٠ أجريت الانتخابات بأمر الحلفاء لانتخاب أعضاء المجلس التأسيسي بالاقتراع السرى . وأظهرت الانتخابات أغلبية ملكية ذلك ، لأن أحزاب اليسار قاطعت الانتخاب احتجاجاً على ظلم البيض . وسرعان ما ألغى المجلس كل القوانين التي أصدرتها حكومة كارولى ويلا كون . وعادت المجر إلى الملكية . وأقيم هورتى وصياعلى العرش . وهكذا كانت المجر مملكة بلا ملك يحكمها أمير البحار بلا أسطول .

وانتخابات المجر لم تبدل على قوة الاتجاه المعارض للشيوعية فحسب ، ذلك الاتجاه الذى أخذ يقوى في أواسط أوروبا وبخاصة في المناطق الزراعية — بل دلت بما لا مجال للشك فيه على الانصراف عن الاتجاه الجمهورى الذى كان قد عم القارة الأوربية منذ سقوط الملكية الروسية سنة ١٩١٧ . وكان من الطبيعى أن حاول كارل إمباطور النمسا السابق الذى لم يتخل رسمياً عن ألقابه الملكية استغلال اللوقت . فعادر منفاه الأمن المريح في سويسرة (طرده نهائياً الحكومة النمساوية ،

وصادرت أملاكه في مارس سنة ١٩١٩) وحاول مرتين أن يتسلل عائداً إلى المجر مطالباً بعرشه الخالي .

وفي المحاولة الثانية— وكانت أكثر طرافة من المحاولة الأولى — في أكتوبر سنة ١٩٢١ نزل من طائرة خاصة — تصحبه زينا وهي حامل — في إحدى مناطق الحدود التي كان الإرهابيون المجر يحاولون منع إعادتها إلى النمسا .

وكما هي العادة كانت النصيحة التي أسديت إليه غير سديدة ، وكان فشله في المحاولة الأولى قد زاد الشعور العدائى ضد آل هابسبرج مؤقتاً على الأقل . ورفض هورتى وهو ذلك الذى لا يعرف إلا الجدل ، الاعتراف به ملكاً شرعياً للبلاد . . بل أرسل شرذمة من الجنود للقضاء بسرعة على هذه اللغامة المهلهلة . وكانت مهمة سهلة ، إذ كانت أشبه شئء بانقضاض الشرطة على جماعة وهم يسكرون في إحدى الضواحي وكانوا قد أفلتوا من يد العدالة . وعند ذلك ترك أنصاره مافى أيديهم من بنادق وتفرقوا . وقبض على كارل وزيتا ونفيا إلى الأبد من المجر ، وأصدر البرلمان المجرى قراراً رسمياً بجرمان أسرة هابسبرج من كل الحقوق في المجر (ومن عجب أن ذلك لم يحصل من قبل) وأعاد للشعب حقه القديم في أن يكون له اختيار الملك .

وكانت هناك عدة عوامل تحول دون عودة أسرة هابسبرج إلى المجر علاوة على حظ كارل السيء ورفض هورتى والتخلي عن الدور الذى قام به . وكان أحدها الموقف الدولى . إذ كانت عودة الأسرة إلى أية بقعة في البلاد التى سبق أن حكمتها كابوساً كثير الحدوث في براج وبخارست وبلجراد . فلو تمكن كارل من العودة إلى العرش المجرى فقد كان من المحتمل أن يؤدى ذلك إلى

تدخل الحلفاء عسكرياً . وحتى المحاولة الهزيلة التي قام بها كانت سبباً في تعبئة الجيوش في البلاد المجاورة للبحر . ورغبة في منع أية أزمة في منطقة الدانوب نفى كارل بناء على إلحاح من إنجلترا إلى جزيرة ماديرا حيث قد هجره الجميع ما عدا زيتا وأولاده . ومات في أول أبريل سنة ١٩٢٢ مصدوراً ويائساً .

ومع ذلك فليس هذا كل القصة . لقد كان لدى كارل من الشفقة ومن التدين ومن المدنية ما حال دون نجاحه في بلورة الرجعية لمقاومة الديمقراطية في أوروبا . لقد انتهى عهد الملكية لا لأن عهد الاستبداد قد ولى ، ولكن لأن أنماطاً منه أشد وأقوى أخذت في الظهور . وفوق هذا لم تعد الأسرات القديمة تحظى بتقدير رعائياها القدامى ، لأنها صارت دولية أكثر منها محلية مثل آل هابسبرج . ومع أن المبادئ الولسنية قد وهنت باعتبارها ديمقراطية ، إلا أن الشعور الوطني الذي أثارته مبادئه ولسن الأربعة عشر كان أقوى ما يكون في أوروبا ، وأقوى من ذلك في الإمبراطورية النمسية بوجه خاص .

ولقد كانت الحرب الأهلية الروسية أكثر معركة في أوروبا ولكنها لم تكن المعركة الوحيدة فيها . وكانت الحرب بين روسيا وبولندا حرباً قومية كما كانت مذهبية . أما المعارك في منطقة البaltic فقد كانت إلى حد ما حروباً للتحرر القومي أثارتها القوميات الجديدة في لاتفيا وليثونيا وإستونيا . ولقد حدث نزاع شديد بين البولنديين والتشيك في أوائل عام ١٩١٩ على منطقة تيشن في الجنوب الشرقي من سيليزيا كل منهما يدعى ملكيتها . وبعد سنتين قامت حرب غير معلنة بين ألمانيا وبولندا بسبب ما يدعيه كل منهما في سيليزيا . وقام خلاف شديد كذلك بين إيطاليا ويوغسلافيا على الساحل الدلاشي . وفي سنة ١٩٢٠ قامت معركة ظلت متأججه ثلاث سنوات كاملة في هضبة الأناضول وهي المنطقة التركية الآسيوية .

وكانت المعركة مزيجاً من الثورة الديمقراطية ضد بقايا الحكم التركي المستبد ومن الحرب الوطنية للمطالبة بالاستقلال القومى وطرد المستعمرين . وكانت هذه الحرب التركية - كسائر الحروب المحلية فى ذلك الوقت - هى التى أظهرت فى شكل واضح فشل صانعى السلام - أو صانعى العالم - المجتمعين فى باريس الذين أرادوا تصفية الأسرار الساقطة دون (على حد تعبير ولسن) « أن يأتوا بعناصر جديدة . أو يذكروا العناصر القديمة للخلافات والعداوات » وسيكون البحث عن كيفية هذا الفشل وسببه وأثره فى العالم فى الفصل الأخير الذى لا تقل مأساه عن غيره من الفصول .

الفصل العشرون

السلام الذي وُلد ميتًا

لن يجد أى إنسان شهد - ولو على شاشة التلفزيون - مؤتمر سان فرانسيسكو سنة ١٩٤٥ الذى تولت عنه الأمم المتحدة أية ، صعوبة فى أن يتخيل الجلو الذى بدأ فيه مؤتمر الصلح فى باريس يباشر عمله سنة ١٩١٩ ، لقد كان بادياً فيه نفس الشعور بالارتياح لإنشاء مرحلة جديدة ، ونفس الأمل الباسم فى مستقبل الإنسانية، ونفس الاهتمام الصادق بقضية الإنسان ، ونفس الإيمان القوى بقدرة الخبراء - إذا أطلق الحُكام لهم والشعوب حرية العمل - على القضاء على المشكلات الكثيرة الناشئة عن حماقات البشر وآمالهم وانحرافاتهم . ومع ذلك فبين المؤتمرين فرق واحد شاسع . ففى سنة ١٩١٩ كانت هذه الصورة من التفاؤلات غير ظاهرة فى عقول الناس . ولذلك لم تؤد مطلقاً إلى العمل على إزالة ماترب عليها من آمال كاذبة . وهكذا كانت مثالية صانعى السلام فى باريس فى بعض جوانبها أقوى حماسة وأكثر قابلية للعطب من مثالية بناء العالم فى مؤتمر سان فرانسيسكو .

ولقد أبدع سير هارولد نيكلسن فى وصف حالة المؤتمر فى مبدأ وجوده فى كتابه « بناء السلام » (الذى ألفه سنة فى ١٩١٩) ، وهو أفضل وثيقة كتبت عن المؤتمر ومن أعظم الاعترافات السياسية فى العصر الحاضر .

وإذ يقارن بين نظرة الجيل الذى عاش فيه والنظرة الساخرة التى كانت لبناء السلام فى مؤتمر فيينا الذين أجهدوا أنفسهم لإعادة بناء أوروبا الملكية بعد أن أنهكتها الثورات والحروب، يروى ذكرياته الشخصية فى أثناء سفره إلى باريس فى أوائل يناير سنة ١٩١٩ ليضطلع بأعباء العمل الذى كلف به فى المؤتمر « لقد شعرت

عندما اقترب القطار من سانت دنيس بأنى على علم تام بالأخطاء التى ارتكبها
الأرستقراطيون الذين مثلوا إنجلترا سنة ١٩١٤ ، سواء منهم الذين ضلوا طريق العمل
والرجعيون والعاطفيون .

« لقد كانوا يعملون فى سرية تامة ولكننا — من ناحية أخرى كنا نحصل
على القرارات الصريحة التى يصلون إليها ، وكانت شعوب العالم تشاركنا فى كل
ما يتعلق بالمفاوضات .

« وفى فينا كانوا يؤمنون بمبدأ « التعويضات » ولكننا كنا نؤمن بالقومية
وبحق الشعوب فى تقرير المصير . . . فالشعوب والأقاليم — كما تنص المبادئ
الأربعة (لرئيس ولسن) ويجب ألا تكون مادة للمقايضة تتغير بين الحكومات
كأنها قطع من الأثاث أو قطع من الشطرنج .

« وفوق ذلك فقد كنا مسافرين إلى باريس لإنهاء حرب فحسب ، بل لبناء
نظام جديد للحكم فى أوربا . ولم نكن نخطط للسلام فقط ، بل كنا نخطط للسلام
الدائم الخالد . لقد كنا نحس بأن لنا رسالة سماوية عليا . . . »

وباستثناء ولسن ، لم يكن المندوبون الرسميون بالمؤتمر (وعددهم ٧٠ مندوبا يمثلون
٢٧ دولة) كيرى الأمل . ويبدو أن معظمهم فى نظر نيكلسن وزملائه كانوا
مهتمين بالغنائم ، وكان فى حاجة إلى المعلومات التاريخية والجغرافية المفصلة عن
أوربا التى كانت تمكن الخبراء الشبان من بيان حدود الدولة المثالية ، ولم يبد على
رؤساء الوفود تلك النظرة البلاء عند ذكر بعض الأماكن فحسب ، بل إن لويدي
جورج أخذ يستهزئ مرة بالمتخصصين بادعائه علنا أنه لم يسمع قط فى حياته
عن تيشن^(١)

(١) فى الجنوب الشرقى من سيليزيا .

ويبدو أن الرأي العام في أوروبا كلها كان مختلفاً إلى حد ما ، وكان الشعور بالأمل عاماً في كل مكان تقريباً . فبعد هذا الليل الطويل من سفك الدماء والظلم كان هناك ظمأً شديداً لدى كل الناس لا للسلام وحده ولكن للعدالة والإخاء . إلا أن شعور الكراهية والخوف الذي نشرته أبواق الدعاية بكل قسوة بين الناس كان ما يزال مخيماً على عقول المنتصرين والمهزمين على السواء ، وزاد حدة الشعور ماجرى به العرف والتقاليد من نهب للغويين وأسرهم . فإذا كانت هناك مسألة واحدة يتفق عليها المثاليون والساخرون والخبراء والأشخاص العاديون والمنتصرون والمهزومون فهي وقوع مسؤولية الآلام والمآسى الأوروبية على كاهل الحكومات المستبدة البائدة . وكانت الحرب هي الثمرة الملعونة للاستبداد والظلم والفساد ، وكان الغرض من مؤتمر السلام في باريس أن يكون نصراً وتدعياً للديموقراطية العالمية .

وكان الرائد الأول بلا شك لهذه العقيدة الجديدة وودرو ولسن نفسه . الذي كان نيكلس يسميه « نيا » ولم يكن ولسن (٦٣ سنة) بمجدائه العالي وملابسه العادية ومنظاره الذي يدل على أستاذيته ورأسه الكبير ولونه الشاحب وأسنانه القبيحة التي توحى بمحضان من أكلة اللحوم ، ملفتاً للنظر ، بل كان أقل شهراً بالنبي منه بالجراح العصري ، الذي يقف دون أن يدعو عليه التأثير بجوار أصحاب الملايين وهم على فراش الموت ، ويؤيد تشخيص المرض . ومع أن الفرق بينه وبين القيصر اسكندر الشاب المندفع في مؤتمر فيينا لاحد له ، إلا أن ولسن كان أعظم سلطاناً في مؤتمر باريس . سياسياً وفكرياً من اسكندر في المؤتمر السياسي في فيينا . ورغم تحذير أخلص نصحاؤه صمم الرئيس ولسن على أن يرأس شخصياً وفد الولايات المتحدة ووصل في ديسمبر . وقبل افتتاح المؤتمر قام بجولة زار فيها عواصم دول الحلفاء في الغرب ، (م ٣٩ — الأسر)

وأينما حل كانت تهرع إليه الجماهير لتحيته . وكانت رياسته للمؤتمر على ما يبدو أولاً لا نزاع فيها . فزيادة على منزلته بصفته حائزاً على جائزة نوبل للسلام التي منحت له سنة ١٩١٩ ، كان يملك أقوى جيش في العالم (لأنه كان الجيش الوحيد الذي لم تنهك قوته) ، والأغذية التي كانت أوروبا الجائعة في حاجة إليها، والذهب الذي يحول دون إفلاسها . وكان عنده أيضاً الإيمان القوى .

وخلاصة المبادئ الولسنية تتضمنها ثلاثة نصوص أساسية هي : النقطة الأربع عشرة التي أعلنت في ٨ من يناير سنة ١٩١٨ . والمبادئ الأربع التي أعلنت في ١١ من فبراير سنة ١٩١٨ . والنقاط الخاصة الخمس التي أعلنت في ٢٧ من سبتمبر سنة ١٩١٨ . والنصان الأولان هما أساساً وثيقتان تستحقان التقدير ، وهما واقعيتان وعلى مستوى رفيع من التفكير الإنساني في العصر الذي أعلنتا فيه . (والنقاط الخمس زيادة على أنها قابلة للجدل متعلقة بإنشاء عصبة الأمم) ولما كانت محاولة أولية لإزالة ما تهدم من نظام الحكم القديم المنهار في أوروبا وإقامة أسس قوية لنظام جديد، فإنها لا تستحق ماوجه إليها من ازدراء منذ إعلانها ، بل إن كثيراً من الشروط التي تشملها ما يزال صحيحاً في هذه الأيام ، والواقع أنها زادت على مر الزمن قوة حجة ورسوخ قدم .

وجدير بنا أن نتلوها في هذا المقام ، وها هي ذى النقطة الأربع عشرة موجزة فيما يلي : -

١ - اتفاقيات الصلح تكون علنية ، والمفاوضات التي توصل إليها علنية كذلك . وبعد تمام الصلح لا يجوز الاتفاق دولياً على أى شيء ، بل يجب أن تعمل الدبلوماسية في صراحة دائماً ، وفي وضوح النهار (أو على مرأى من الجميع) .

— ٦١٩ —

٢ — حرية الملاحة المطلقة في جميع البحار ماعدا « المياه الإقليمية في السلم وفي الحرب على السواء » .

٣ — إزالة جميع الحواجز الاقتصادية بقدر الإمكان .

٤ — أخذ وإعطاء الضمانات الكافية لتخفيض التسليح إلى أقل مستوى يتفق مع الأمن المحلي .

٥ — تسوية جميع الدعاوى الاستعمارية تسوية حرة صادقة منزهة عن الغرض ، على أساس أن تكون مراعاة مصلحة الشعوب المحكومة بمائلة لمراعاة المطالب العادلة التي تطالب بها الدولة الحاكمة .

٦ — الجلاء عن جميع البلاد الروسية — ومنح روسيا الفرصة العاجلة لتقرير نظامها السياسي وسياستها الوطنية ، وعصبة الأمم ترحب بعضويتها وتقدم أكثر من الترحيب ، مع احتفاظها بالنظام الذي ترتضيه في حرية تامة ، ومنحها كل مساعدة ممكنة .

٧ — الجلاء عن بلجيكا وإعادة كيائها .

٨ — الجلاء عن فرنسا ورد المناطق المحتلة إليها ، وإعادة الأتراس والالورين إليها .

٩ — إعادة تعيين الحدود الإيطالية بحيث تتفق مع التخطيط القومي المعروف .

١٠ — منح شعوب النمسا والمجر أكبر فرصة للحصول على الاستقلال الذاتي . (ملحوظة : هذه النقطة عدلت فيما بعد ونصت على الاستقلال التام بدلا من الحكم الذاتي) .

— ٦٢٠ —

١١ — الجلاء عن رومانيا والصرب والجبل الأسود . ومنح الصرب طريقاً إلى البحر .

١٢ — ضمان السيادة للمنطقة التركية من الإمبراطورية العثمانية . ويتقرر للقوميات التابعة الأمن التام والفرصة الكاملة للحصول على الاستقلال الذاتي . فتقرر حرية الملاحة في المضائق .

١٣ — إقامة دولة بولندية مستقلة تمثل جميع المناطق التي يسكنها البولنديون ولا ينازعهم فيها أحد، ومنحها حق الوصول إلى البحر .

١٤ — إنشاء جمعية عامة للشعوب بناء على اتفاق ، بقصد منح الضمانات المشتركة للاستقلال السيامي والوحدة الإقليمية للدول الكبيرة والدول الصغيرة على السواء .

والمبادئ الأربع ملخصة فيما يلي :

١ — كل جزء من التسوية النهائية لأي موضوع يجب أن يكون مبنياً على عدالة هذا الموضوع .

٢ — يجب ألا تنقل الشعوب والبلاد من دولة إلى أخرى كأنها سلع منقولة أو أدوات للعب .

٣ — كل اتفاق إقليمي يجب أن يكون لمصلحة سكان الإقليم ، لا تسوية للدعوى المختلفة التي تدعيها الدولة المتنافسة .

٤ — كل العناصر الوطنية المحددة يجب أن تمنح كل وسائل البقاء الممكنة دون إدخال عناصر جديدة . أو بعث عناصر قديمة للخلاف والحزازات .

وهناك عبارة قدم بها ولسن للمبادئ الأربعة فأصبحت في حكم مبدأ خامس،
وهي أن معاهدة الصلح النهائية يجب ألا تشمل تقريراً بضم أية منطقة أو منح أية
إعانة، أو دفع أى تعويض .

وإذا كان في شروط ولسن الأربعة عشر والمبادئ الأربعة أى عيب
خطير ، فإنه يمكن في إيمانها الساذج بالدبلوماسية المكشوفة ، وفي افتراضها
الضمنى أن أكبر عيب في الدبلوماسية العالمية القديمة كان في سريتها أكثر مما
كان في عدم تحملها المسؤولية. لقد كان في تنظيم المؤتمر وفي نماذج عمله ما يدل على قراءة
التاريخ المعاصر قراءة خاطئة . لقد عقدت جلسات المؤتمر بكامل أعضائه في حجرة الساعة
في قصر كيه دورساي ، الذي لم يذكرنا ما فيه من نجف بلوري وكرامى مذهبة وستائر
حريرية بمظاهر الدبلوماسية القديمة فخسب ، بل كان يذكرنا بقصة من أسوأ
قصصها — قصة التأميرين فرنسا وروسيا القيصرية — الذي جعل قيام الحرب أمراً
لا يمكن تجنبه . وفضلا عن ذلك ، فإن الأسلوب الذي اتبعه الرؤساء الثلاثة في المؤتمر
— ولسن وكننصو ولويد جورج — في إصلاح العالم كان يذكرنا أحياناً بالتجارب
غير الموقفة في الدبلوماسية الشخصية التي كان يقوم بها « ولي » و « نسكى » . بل
حررت بنا فترات في هذا المؤتمر ذكرتنا في ألم شديد بالملوك في مؤتمر فيينا حيث
كانوا ينقلون الشعوب في البلاد من دولة إلى أخرى كأنها سلع أو أدوات للعب
(وكانت النتيجة النهائية ذلك الصلح الذي كان أقل حوراً وأكثر إنسانية من
صلح باريس) . ولقد قيل عن كننصو — وكان في الثامنة والسبعين من عمره ، وهو
(كما يقول نيكلسن) أشبه بالغوريلا المصنوعة من العاج الأصفر ، بمواجهه الكثيفة
البيضاء وشواربه التتارية المدلاة — إن لديه فكرة واحدة تحمده هي فرنسا وفكرة
بواحدة لا تحمده هي الجنس البشرى بما فيهم الفرنسيون .

أما لويد جورج بعرفه الكثيف الأبيض ، ونشاطه العظيم ، وعاطفته المتأججة ، فكان أقل واقعية ، ولكن أقدر على أداء أعمال متنوعة . وليس له مثيل في سرعة البت في الأمور . قال عنه ابنه « إنه رجل لا يمكن إلا أن تعجب به ولا يمكن إلا أن تحبه ، وإن كان من الجائز ألا تغفو عن أخطائه » . ويرسم نيكلسن صورة لا تنسى لرؤساء المؤتمر الثلاثة وهم منكبون على خريطة جغرافية كبيرة على أرض مكتب الرئيس ، يقطعون أوصال الإمبراطورية العثمانية في سرود (يجب طرد تركيا من أوروبا ومن أرمينيا ، ويجب أن تحصل اليونان على منطقة أزيد ، وتعطى إيطاليا الوصاية على جنوب آسيا الصغرى ... وتأخذ فرنسا ما بقي) .

وهذه القصة تمثل الاتجاهين المختلفين لرؤساء المؤتمر ، اللذين يكملان بعضهما البعض ، والمسئولين عن ضياع أمل أوروبا . فأما الأول فقد كان عدم إدراك — أو الامتناع عن الاعتراف — أن الإمبراطوريات التي كانت تحكمها الأسرات القديمة — رغم شرورها وآثامها — قد حققت إلى حد ما التعايش السلمي لمجموعات من الناس ، قضت عليهم ظروف الزمان والمكان أن يعيشوا في صعيد واحد ، وبهذا قامت فعلا بدور حيوي وبخاصة من الناحية الاقتصادية . وكما يبدو لم يدرك من قادة الحلفاء إلا مازاريك وبنس أنه لا بد من بديل ولنسى يقوم مقام حكومة آل هابسبرج في وسط أوروبا . (ومن سوء الحظ أن لفكرتهما — وسط أوروبا تحت حكم السلاف — مساوئها) . أما الخطأ الثاني الشنيع فهو عدم مراعاة مبادئ ولسون ، وبخاصة النص الذي يحذر من « إدخال عناصر جديدة تدعو للخلاف والعداوة » عند بحث بعض الحالات .

وبعد هذا التدهور في باريس انتشرت في الولايات المتحدة أسطورة مؤداها أن طمع الحلفاء وفاد الناس وفاقهم تغلب على مثالية العالم الجديد وأدى إلى إفساد الصلح .

وهذه الحكاية تتفق مع ما هو معروف عن سذاجة الأمريكيين الفطرية وحيث
الأوربيين ، ولكنها أغفلت أن ولسن نفسه كان أكبر خائن للمبادئ الولسنية
وبعض أصحاب الرأي يلومون مستشاريه أو خصومه السياسيين في بلاده، وبعضهم
يلقى التبعة على عيوبه هو: ضيق عقله وغروره واستقامته وتعصبه وما في طبعه من التردد
الممزوج بالصرامة. ويصفه الكولونيل هاوس بقوله: « إذا نزل الرئيس من مقعده السامى
واحتدم في النقاش مع سياسة الدول الأخرى على قدم المساواة، فإنه يصير رجلاً
عادياً كسائر الرجال ». وسجل كل من لويد جورج - وكان يحس بأنه أقرب إلى
نفس ولسن من سائر سياسة البلاد الحليفة - وونستن تشرشل - الذى كان لا يطيعه -
رأيهما في شخصيته. فكتب عنه لويد جورج في مذكراته عن المؤتمر «أن ولسن هو أوضح
مثل رأيته في حياتي لازدواج الشخصية، والشخصيتان التى يتكون هو منهما
لا يتقابلان مطلقاً ولا يمتزجان... فهو يتكون من الذهب الخالص ومن الطين،
وكلا العنصرين باد للعين المجردة . وهو أعجب من رأيته ممن يمتزج فيه الرجل
الشريف بالرجل العايب، والرجل المثالى الممتاز بالرجل المملوء بالخرافات الدينية» .
وهو في رأى تشرشل يمثل جيكل وهايد في التباين بين ولسن المثالى العالمى
ولسن رئيس الحزب الديمقراطى فى جبروته وقوة نزعتة . وقد كتب عنه في « أزمة
العالم » . قال : « كانت نظرتة إلى مستقبل العالم جدية مثل نظرتة إلى مصالح أفراد
حزبه . كان يهتم بالسلام لجميع الشعوب ، ولكن لا يهتم بالتفاهم مع الحزب
الجمهورى في وطنه. كان ذلك بطاقة المرور في يده ، ولكن كان فيها القضاء عليه
وعلى أمور كثيرة أخرى » .

والواقع أن خيانة ولسن لمبادئه ترجع - كما يوضح نيكلسن في مذكرته عن مؤتمر السلام - إلى الاختيار المتعمدين مظهرى الشخصية الولسية . ففي أثناء البحث فى كثير من المسائل التمهيدية مع زملائه أعضاء المؤتمر ضحى الرئيس مراراً بالنقط الأربع عشرة (بل وبالمبادئ الأربعة) فى مقابل المواقفة على حل عصبية الأمم . علماً بأن ولسن لم يكن هو الذى ابتدع الفكرة، فهى خلاصة جملة مقترحات ترجع إلى القرن السادس عشر ، ولم يكن هو المسئول عن كتابة النص الابتدائى لعصبة الأمم الذى كان الخبراء البريطانيون والفرنسيون أعدوا بجوئاً تمهيدية له قبل دخول أمريكا الحرب . ولكنه أضفى على الفكرة من الأهمية أكثر من زملائه . وأيدها بحماسة أقوى من سائر الناس . وكان أكثر دراية بالدور الذى صوف تضطلع به . ومهما كانت أخطاؤه بوصفه سياسياً عالمياً فإنه كان من أعظم أصحاب الرسائل السياسية فى جيلنا الحاضر ، وفى أى جيل آخر . وكان الحلم الذى يراوده عظيماً فى موضوعه كحل لينين . وقد تخيل ولسن عصبية الأمم فى صورة قريبة جداً من صورة الحكومه العالمية الحقيقية - وكانت إحدى نقاطه الخاصة الخمس المتعلقة بها تنص على منع كل المحالفات وحتى التجمعات الاقتصادية بين أعضائها - ولا شك أن منطقته أوهه هو أن سلطتها ستكون قادرة على حماية المصالح الشرعية للأقليات ، التى عمد صانعو السلام إلى قيامها .

ولم يكن ذا أهمية أن تظهر فى أوروبا مواطن جديدة للظلم ، أو تبقى بعض المواطن القديمة فيها ، مادامت قد اخترعت آلة لاصطناع العدالةتوهى عصبية الأمم . ولا شك أن من الممكن التغاضى عن بعض الشر إذا أمكن إنشاء جهاز لعمل الخير . وهذا هو الخطأ .

ومن الأسباب الكثيرة التي أدت إلى فشل عصبة الأمم آخر الأمر أنها لم تشيد على صخرة العدالة ، وإنما أقيمت على أسس واهية دعت إليها الظروف المسيطرة على المؤتمر .

وأخذت الحقيقة تتضح قبل أن ينتهى المؤتمر من عمله . ولم تكن نتيجة محاولة استبدال الدبلوماسية الصريحة بالدبلوماسية السرية إلا اجتماع مساوى النظامين ، مع عدم الاحتفاظ بمحاسن أى نظام منهما . وإذا تم الاتفاق بشأن بعض الأقاليم بصفة سرية وكاد لا يتفق مع قواعد العدالة ، نشبت المشاحنات العنيفة بين المندوبين . ولم من مرة اصطدم ولسن مع كلمنصو الذى نشب أظافره فى وادى السار ومنطقة الراين ، واشتد النزاع كثيراً لتخليصهما من برائته - كما اصطدم مع المندوبين الإيطاليين - مع رئيس الوزراء فيتوريو إمانويل وأولاندو ووزير الخارجية سدى سونينو . لقد كان فى معاهدة لندن السرية (أبريل سنة ١٩١٥) نص يمنح إيطاليا جنوب التيرول وشمال دلتاشيا ومعظم الجزائر السلاشية وجزائر البوديكانيز الآلهة بالسكان اليونانيين . ولا شك أن مطالب إيطاليا كانت تقابل بالرفض من جميع الجهات ، وبخاصة من قبل يوغوسلافيا الدولة الحديثة .

ولما كانت كل من بريطانيا وفرنسا لا تستطيع أن تسحب وعدها مع حليفها وشريكها فى الحرب ، فقد أصبح على عاتق ولسن أن ينكر على إيطاليا جزاءها الذى تستحقه فى مقابل نصف مليون إيطالى فقدتهم فى الحرب . ولقد أدى ذلك إلى غضب الحكومة الإيطالية والرأى العام الإيطالى . وغادر المؤتمر أورلاندو وسونينو ، وأخيراً أمكن الوصول إلى اتفاق أعرج لم يرض الطرفين المتنازعين

وإيطاليا بصفة خاصة ، فضلا عن خروجه على مبدأ ولسن الخاص بحق تقرير
المصير .

(لم تبلغ إيطاليا سن الرشد بوصفها دولة مستقلة ذات سيادة إلا أخيراً ، ولم
تصبح لها مطامع إمبراطورية إلا بعد أن استولى منافسوها الأقوياء على أئمن الغنائم
الاستعمارية . ولذلك فرغم النضج الفكرى لدى الصفوة الإيطالية فى معظم
النواحى الأخرى ، فإن القومية الإيطالية أظهرت آيات روما نسبة المراهقة المتأخرة .
ولقد كانت الانتهازية غير المسئولة فى السياسة الخارجية الإيطالية عاملاً فى إعداد
مسرح الحرب العالمية الأولى — عاملاً أهم بكثير مما يستطيع حيز محدود فى هذا
الكتاب أن يستوعبه — ثم إنها لعبت دوراً أشد خطورة لإشعال نار الحرب
العالمية الثانية . وكان قادة البلاد الغربية فى فرساي وبعد فرساي مترددين بين
عدم الاهتمام بمطالب إيطاليا وبين الاستجابة لمطالبها السياسية) .

وكانت أسوأ المظالم الإقليمية أو المحافظات الإقليمية التى تضمنتها معاهدات
الصلح — مع أنها كانت سيئة للغاية — روح الانتقام التى سادتها وبخاصة
فى المعاهدة الألمانية ، فقد اشترط ولسن عدم فرض تعويضات تأديبية ،
إلا أن العقلية الحقيقية المسيطرة على المؤتمر الذى يتألف من زعماء غير مسئولين
فى البلاد المنتصرة ، أجاد وصفها سير إريك جدرس أحد وزراء لويد جورج فى
وعده فى أثناء جولة انتخابية له فى ديسمبر سنة ١٩١٨ قال (سأعصرها » يعنى
ألمانيا » ، حتى تسمع أنينها) .

وأجبرت الصورة النهائية للمعاهدة المندوبين الألمان على الاعتراف بمسئولية

بلادهم وحدها عن قيام الحرب . ولعل هذا أسوأ اجترأ على التاريخ ارتكبهته الحكومات المتمدينة . وطالبت بمحاكمة القيصر وغيره من القادة الألمان بصفتهم مجرمي الحرب، ودعت ألمانيا إلى دفع تعويضات عن كل مالحق الحلفاء من إضرار في أثناء الحرب، وبعد انتظار تقدير ما يجب عليها دفعه حدد أخيراً هذا المبلغ الخيالي وهو ٣٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار ، تدفع منه في مايو سنة ١٩٢١ قسطا قدره ٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار . وربما كان النص على أن ألمانيا هي المسئولة عن الحرب وجسامة التعويضات الخيالية من العوامل الرئيسية لظهور هتلر بعد ذلك .

ورغم أن النص على تجريد ألمانيا من السلاح كان معقولا إلى حد ما ، فإنه لم يكن أقل وقعا من فداحة التعويضات في جرح الكرامة الوطنية الألمانية . لقد حدد الجيش الألماني بمائة ألف مقاتل، وحرمت وسائل الدفاع الثقيلة بما فيها الطائرات الحربية، واقتصرت السفن الحربية على ست سفن، وحرمت حيازة الغواصات . وأُتيح للحلفاء احتلال منطقة الراين مدة خمس عشرة سنة (أو تزيد إذا لزم الأمر) ، وجعلت منطقة الجانب الأيمن من نهر الراين بعرض ٣٠ ميلا منطقة محايدة ، واعتبرت الأنهار الألمانية دولية ، كما تقرر فتح قناة كيل لسائر الدول .

وحتى وصول الوفد الألماني للصلح في ٢٩ من أبريل، لم تدر أية مناقشة بين الحلفاء وبين خصمهم في شروط الصلح المنتظر . وكان رئيس الجانب الألماني الكونت بروكدورف رانتساو بصفته وزير الخارجية — رجلا ضخم العنق يدل مظهره على نبالة عنصره . (قال مرة إننا في أسرتنا نعتبر البوربون أولاد سفاح) . وقد نبه إلى ما يحتمل أن يصادفه في مؤتمر الصلح ولكنه أبى أن يصدق ما نبه إليه . . .

وظهر استياؤه الشديد في تعليقاته الرسمية على شروط الحلفاء التي وضعت في أثناء أحد الاجتماعات القصيرة بين المنتصرين والمهزومين في فندق تريانو في فرساي، فيقول في صوت مختنق « نحن نعرف قوة الكراهية التي تقابل بها هنا . وقد سمعنا ذلك المطلب القاسي الذي يجبرنا المنتصرون على قبوله بسبب هزيمتنا، وعقابا لنا كجرمين يطلبون منا الاعتراف بأننا وحدنا المجرمون دونهم ، إن مثل هذا الاعتراف سيكون أ كذوبة إذا نطق بها لسانى » .

وكان الجواب الألماني كريما معتدلا ومؤثرا إلى حد ما ، ولكن لويد جورج الذى أحس باعتدال عبارته يذكر أن تأثيره في نفوس مندوبى الحلفاء أثلفه بقاء راتساو جالسا عند قراءته ، بينما وقف كلمنصو عند إعلان افتتاح جلسة المؤتمر . وعد تصرف راتساو متفقا مع صلف الألمان ، وهو ما جعل الرئيس ولسن ينهى الموضوع فجأة . ويقول لويد جورج في مذكراته تعليقات على هذا الموقف « لقد التفت إلى قاتلا : أليس هذا صورة من أخلاقهم ؟ » .

ولم يدرك الألمان على العموم الألم العميق الذى تركته أهوال الحرب وفظائع النواصات في عقول أعدائهم . ولم يقدرُوا كذلك فداحة الهزيمة التى حلت بهم ، كما أنهم لم يدركوا أن الهدنة كانت ملجأهم الأخير في موقفهم الحربى اليائس ، وأن القيادة العليا التى سعت إلى الهدنة فى إلحاح شديد . وكان الألمان بصفة عامة يظنون أن الهدنة ليست إلا إجراء دعت إليه ظروف الحرب وأنها سوف تؤدى إلى السلام العادل الذى يتوق إليه الجميع والذى وعدهم به ولسن . والآن وقد تخلصوا من القيصر وانتصروا على الثورة وأصدروا لأنفسهم دستورا نموذجيا للديمقراطية ، فقد توقعوا أن تقبل دولتهم عضوا له مكانته في هيئة الأمم الجديدة . وكانت هذه الهيئة الدولية الجديدة محل تقدير بخاصة لدى ذلك الجيل من الألمان الذى نشأ ، في ظل الظروف القاسية . ويقول المؤرخ لودفيج دهيو

« لقد وعدهم ولسن في مبادئه بالتححرر من قيودهم وتخليصهم من النظام القديم الخانق... وإقامة نظام محايد سلمى . ولكنه جاءهم بحل عجيب لكل المشكلة الألمانية ».

وأثار إعلان شروط المعاهدة حقناً عاماً ويأساً ذريعاً في جميع أنحاء ألمانيا . وعمق الإحساس بالظلم الذى سببته هذه الشروط في نفوس الألمان ، تلك المعاملة المزرية التى عومل بها المندوبون الألمان في مؤتمر السلام ، إذ وضعوا فيما يشبه قفص الجرمين . ونسى الألمان حربهم لأهلية بضعة أسابيع ، وكان لصيحة المستشار شيدمان « ألا فتذبل كل يد تمتد للتوقيع على مثل هذه المعاهدة » صدى في صدر كل ألماني . وفي جميع الاجتماعات التى عقدت في أنحاء ألمانيا عموماً كانت الصيحة المدوية الغاضبة تطالب بالامتناع عن توقيع معاهدة فرساي . وأحست الحكومة أن نتيجة هذا سوف تكون بعث الحرب من جديد ، ولم يكن الحلفاء وبخاصة الفرنسيين في حالة تسمح بالتساهل ، ودلّوا على سلطتهم بأن سمحوا بقيام الجمهورية القصيرة الأجل في حوض نهر الراين في أول يونيو سنة ١٩١٩ . وكان حصار الحلفاء ما يزال قائماً ، والألمان على حافة الموت جوعاً . وأبلغت القيادة العليا الألمانية الحكومة وهى مشمئزة ، أن استئناف الحرب مسألة لا شك فيها . وفي الرابع والعشرين من يونيو واقتت الوزارة الألمانية على إنذار الحلفاء النهائي ، وأبلغت كلمنصو قبولها شروط الصلح بلا أى قيد .

وتم التوقيع على الصلح مع ألمانيا في ٢٨ من يونيو سنة ١٩١٩ في فرساي ، وسمى في سجلات التاريخ بمعاهدة فرساي ، وأقيمت حفلة التوقيع في صالة المرايا القمخمة التى في القصر الملكى ، والتى تشبه الآثار القرونوية ، إرضاء لجنون العظمة الذى كان من صفات لويس الرابع عشر ، الذى تهتز لذكري عظمته أعطاف أكثر الفرنسيين تقديرأ للجمهورية . وجلس على رأس المائدة التى على شكل حدوة حصان كرئيس للدولة كلمنصو ، ذلك الجمهورى القح والوطنى الصميم . وكان ولسن على يمينه ولويد

جورج على يساره، وكان اليوم يوم مجده — يوم النمر . وهذا الرجل العظيم الذى قاد أمة متهالكة إلى النصر والذى كان يسىء إلى مندوبى الصلح باعتداده الشديد بعظمته، عرف طريق السجن والنفى فى شبابه . ولكن الحصار الألمانى لباريس سنة ١٨٧١ هو الذى يذكره ولا ينساه . وكان حفل توقيع المعاهدة فى فرساي هو انتقام كلمنصو من ألمانيا لإذلالها فرنسا عندما أعلن بسمارك قيام الإمبراطورية الألمانية فى صلاة المرايا نفسها منذ نصف قرن . وقد اشتملت المعاهدة على تصميمه الظاهر على أن تظل ألمانيا فى حالة ضعف دائماً لا تستطيع معه محاولة غزو فرنسا مرة ثانية .

وبينا كانت طلقات المدافع خارج القصر تؤدى التحية والشعب يهلل تهليلاً يسمع على مسافات بعيدة ، كان المندوبان الألمان الدكتور مولر والدكتور بل — فى حالة من الغم اصفرت لها وجوههما وجهدت لها أجسامهما — يوقعان باسئهما الوثيقة الطويلة التى سوف تربط على الدوام الديمقراطية الألمانية الناشئة بيوم العار القومى .

ولقد سمع نكلسون رد كلمنصو على تهينة أحد زملائه بينما كانت عيناه تفيض بدموع الغبطة وهو يقول « نعم ، إنه يوم جميل » . ولم يكن كل من شهوده متفقين فى رأى . فيقول الكولونيل هاوس ، وهو أكثر المندوبين الأمريكين حكمة « إنه لشديد الشبه بما كان يحدث فى الأيام الحالية عندما كان المنتصر يربط المهزم بعجلات عرشه » . وكانت آخر الكلمات التى سجلها نكلسون تعليقاً على ذلك اليوم التاريخى « إلى فراشى ، لقد سئمت الحياة » .

وباستثناء العبارة المتعلقة بجريمة الحرب بالتعويضات الخيالية التى لم يدفع منها إلا قسط واحد ، لم تكن المعاهدة الألمانية بالقسوة التى صورتها الدعايات فيما بعد . وإنه لخطأ يدعو للأسى أن تكون الأداة الدبلوماسية التى عاقبت ألمانيا لهزيمتها فى الحرب هى نفسها التى كانت سبباً فى إنشاء عصبة الأمم التى سوف تكون دعامة النظام العام فى أوربا . ولم يتحسن الموقف بالمعاهدات الأخرى التى

انضمت إليها - وكلها أعدت في مؤتمر باريس - معاهدة السلام النموية التي وقعت في سان جرمان (بجوار باريس) في ١٠ من سبتمبر سنة ١٩١٩ ، والمعاهدة التي وقعت في نيولى إحدى ضواحي العاصمة الفرنسية في ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩١٩ ، والمعاهدة المجرية التي وقعت في قصر تريانو بفرساي في ٢٤ من يونيو سنة ١٩٢٠ ، ومعاهدة سيفراتي نهشت جسم الدولة العثمانية والتي وقعت في ٢٠ من أغسطس سنة ١٩٢٠ ، واستبدلت بها فيما بعد معاهدة لوزان المعتدلة لأسباب سوف نذكرها فيما بعد .

وكانت أوروبا الجديدة بوجه عام من عمل مؤتمر السلام في باريس مع شيء من التعديل نتيجة للاستفتاءات المحلية التي جرت بعد ذلك على أساس شروط المعاهدات المختلفة . ولكن بنيت حدود بعض البلاد الشرقية والشمالية الشرقية في أوروبا على أساس اتفاقات أخرى . جاء بعضها نتيجة غير مباشرة لمعاهدة برست ليتوفسك ، وبعضها لفوضى الحرب الأهلية في روسيا (لم تدع روسيا السوفييتية للمؤتمر رغم أنه قرر فصل بعض الأقاليم عنها) .

وظهرت تسعة بلاد مستقلة وهي فنلندا ولا تينيا ولتوانيا وإستونيا ، وكانت من قبل مقاطعات روسية ، واستردت بولندا كيائها وكانت مقسمة بين روسيا والنمسا وألمانيا ، وكذلك تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا وافصلت النمسا عن المجر لأول مرة وأصبحت كل منهما دولة مستقلة ذات سيادة . واختفت ثلاثة بلاد كانت قائمة قبل الحرب ، وهي المملكة الثنائية والصرب والجبل الأسود (انضم الأخيران إلى يوغوسلافيا الجديدة التي تحكمها أسرة كراجير جفيك وهي الأسرة الحاكمة في الصرب) . أما التغيير الذي طرأ على خريطة آسيا الصغرى فسأتناوله بالبحث على افراد .

وقعدت روسيا نتيجة للثورة الروسية والحرب فنلندا والولايات التي على البحر البلطي ، والولايات البولندية السابقة وبعض المناطق في أوكرانيا وبسارايا (التي ضمت إلى رومانيا) .

وسلخت عن ألمانيا جميع مستعمراتها بمقتضى معاهدة فرساي ، وقسمت بين فرنسا والكومنولث البريطانى وبلجيكا واليابان ، وأعادت الألزاس واللورين إلى فرنسا ، وعهدت بحقول الفحم الغنية فى منطقة السار للإدارة الفرنسية ، وتنازلت عن مقاطعتي يوين ومالميدى إلى بلجيكا ، وأعادت شمال شنرويج إلى الدانمارك .

وكانت أفدح خسارتها فى الشرق . فزيادة على المنطقة البولندية السابقة كان عليها أن ترد إلى بولندا منطقة كبيرة من سيليزيا ، كانت دائماً منطقة خلاف مع طريق موصل إلى البحر البلطى — أغلب سكانه من البولنديين — يفصل بروسيا الشرقية عن بقية الإمبراطورية الألمانية . وانتزعت من ألمانيا ميناء دانزيج القديمة التى كان معظم سكانها من الألمان وأصبحت ميناءً حراً تحت إشراف إدارة دولية . (وضمت ميمل ، وهى مدينة ألمانية أخرى إلى ليتوانيا) . وكان وضع دانزيج والمر البولندى فيما بعد الأساس الذى بنى عليه هتلر دعواه فى إشعال نار الحرب العالمية الثانية .

وحرمت بلغاريا من مينائها على البحر الإيجهى ، وسلمت أجزاء كبيرة من أملاكها إلى اليونان ورومانيا (وحصلت رومانيا على أكبر كسب من وراء معاهدات الصلح ، وحصلت أيضاً على ترانسلفانيا المجرية) ، وحصلت إيطاليا من النمسا على التيرول الجنوبى وترنتينو وميناء تريست العظيمة ، ولكنها أجبرت على التخلي عن دعواها فى الجزر السلاشية وفى ألبانيا .

وكانت النمسا والجزر أكبر ضحايا معاهدات انسلام . إذ كانت خسارة الجزر ١٩٢٠٠ كيلو متر من مجموع مساحتها البالغ قدرها ٢٨٣٠٠٠ كيلو متر أو فقدت من سكانها ١٠٦٤٩٤١٦ من مجموع السكان البالغ عددهم ١٨ و ٢٦٤٥٣٣ نسمة وزيادة على المناطق التى يغلب فيها العنصر السلافى فى الإمبراطورية القديمة التى أعلنت استقلالها فى يوغوسلافيا

— ٦٣٣ —

وبولندا وتشيكوسلوفاكيا خسرت الإمبراطورية عدداً من الأقليات الألمانية أو
المجرية ، وأصبحت تابعة للدول التي استقلت عنها وإلى إيطاليا ورومانيا ، فأصبح
حوالي ٣ ٠٠٠ ٠٠٠ مجري تابعين لغير وطنهم .

ورغم احتجاج النمسا فقد انتقل أكثر من ٣ ٠٠٠ ٠٠٠ ألماني نمسوي
إلى تشيكوسلوفاكيا ، وأكثر من ٢٥٠٠٠٠ إلى إيطاليا (في جنوب التيرول) بناء
على معاهدات الصلح .

وكان من أشق المسائل في شرق أوروبا ووسطها تعيين حدود وطنية تتفق
ولو على وجه التقريب مع حدود الجنسيات واللغات . وحتى إذا نجح الرئيس
ولسن في التمسك بحق تقرير المصير في كل مكان متنازع عليه ، فلم يكن هناك بد
من أن تشمل الدول الجديدة التي ورثت الدول القديمة أعداداً كبيرة من الأقليات
داخل حدودها . وفي حوض الدانوب وفي البلقان خليط من الأجناس لا يمكن
التخلص منه إلا باقتل الجماعي أو بالجلاء الجماعي . وفي كثير من الظروف أغفل
ساسة باريس نظرية تقرير المصير إنغفالاً تاماً واعتمدوا في تعيين الحدود على أسس
حربية أو على أثر إقطاعي قديم . وهذه تشيكوسلوفاكيا ، إنها صورة جديدة من
صور القرن العشرين لدولة بوهيميا التي كانت في القرون الوسطى . وهي تمثل هذه المشكلة
على أوسع نطاق . لقد كان تعداد سكانها في سنة ١٩٢١ — ٣٦٤ و ٣٧٤ و ١٣ منهم
٤٣١ ٧٤٥ مجرياً و ١٢٣ و ٣١٢ ألمانيًا — ويعرفون باسم ألمان السودان ،
وكان لهم فيما بعد دور في الأزمة الدولية التي أدت إلى قيام الحرب العالمية الثانية —
مقابل التشيك والسوفاك البالغ عددهم ٨٩٣٧ و ٨٧٦٠ نسمة .

والحقوق التي تتمتع بها الأقليات الجديدة في شرق أوروبا ووسطها تختلف من
جماعة إلى جماعة ومن دولة إلى دولة . ولقد كانت معاملة الألمان في تشيكوسلوفاكيا
(م ٤٠ — الأسر)

طبية، ولكنهم كانوا مع ذلك غير راضين، ويمكن أن يقال مثل هذا القول عن التشيك في الدول الشائبة .

أما المجريون في رومانيا ويوغوسلافيا فكانت معاملتهم معاملة السلاف أيام كانوا في المجر، فهم بطبيعة الحال ساخطين وناقضين . وعلى العموم يبدو أن حال الأقليات العنصرية كان أفضل قليلا في دول بعد الحرب مما كان في إمبراطوريات قبل الحرب .

ولعل الاضطراب الاقتصادي الناجم عن معاهدة الصلح كان أشد خطراً . وكان وقعه في النمسا أيضاً أشد مما في غيرها . لقد كانت الإمبراطورية النمساوية سوقاً عاماً لحوالى خمسين مليوناً من العملاء، ووضعت الدول التي ورثتها قيوداً جبركية بعضها ضد بعض منذ اللحظة الأولى التي رفعت فيها أعلامها . ولم تعد النمسا وحدة اقتصادية قوية في أوروبا ذات الحماسة الوطنية الشديدة بعد الحرب بعد أن أصبح سكانها ٦٥٠٠٠٠٠، أكثر من ثلثهم محتشدون في العاصمة كأنها رأس ضخمة في جسد ضئيل منكش على حد تعبير جون جنتر . وكان النمساويون يقدرون مشكلتهم هذه، وكانوا يودون أن يتحدوا مع الجمهورية الألمانية الحديثة، ولكن معاهدات الصلح منعت الاتحاد بقرار من الدول المنتصرة لخوفها من ازدياد قوة ألمانيا . وهكذا فرض على النمسا الاستقلال الذي كان النمساويون يرهبون .

وقد كفر صانعو السلام من الحلفاء عما اقترفوه من أخطاء ومظالم وخيانات بإقامة ما يعد مفخرة لهم . إذ شيدوا في جنيف في ١٠ من يناير سنة ١٩٢٠ عصابة الأمم التي هي أول برلمان للإنسان في تاريخ البشرية . وربما — عند استعراض تاريخ الإنسان وهو يتعثر في سيره نحو إنشاء دولة عالمية واحدة — سوف يعد إنشاء عصابة الأمم أهم ما نتج عن مؤتمر السلام في باريس، أو ما نتج عن الحرب العالمية

الأولى ، ولم تكن إمكانيات هذه المنظمة لإصلاح الأخطاء أو ملء الثغرات التى نتجت عن معاهدات الصلح تتناسب مع المهمة الملقاة على عاتقها حتى ولو اشتركت روسيا السوفيتية والولايات المتحدة فيها منذ البداية . إذا الواقع أن روسيا ظلت يعزل عنها، كما قرر مجلس الشيوخ الأمريكى فى ١٩ من مارس سنة ١٩٢٠ عدم الموافقة على معاهدة فرساي وبالتالى عدم الموافقة على الانضمام إلى عصبة الأمم . وفى نفس اليوم رفض الموافقة على معاهدة الأمن مع إنجلترا وفرنسا . وكانت هذه لطمعة لم تتفق منها أوروبا — وفى الواقع العالم كله — إفاقة كاملة .

وكما هى العادة دائماً فى الشئون الإنسانية كانت الدوافع لدى « تلك الجماعة الصغيرة من الرجال العنيدين » (وهو ما أطلقه ولسن على خصومه فى مجلس الشيوخ فى مناسبة سابقة) الذين حاولوا دون اشتراك أمريكا فى عصبة الأمم — معقدة ومركبة . إذ كانت فكرة عصبة الأمم فى نظر الساسة الأمريكين الذين نشأوا فى ظل مبدأ منرو — ومايزالون يرون العزلة مبدأ قوياً — لم تكن فكرة مخيفة بل فكرة مرعبة . فهى لم تكن تمثل عندهم تطور فكرة معرفة العالم لنفسه فحسب، بل وهى الفكرة التى أخذت تتبلور فى أمريكا وفى غيرها من البلاد، بل رأوا فيها انتقالاً ثورياً نحو المستقبل . ولا بد أن نذكر فى هذا المقام أن ميثاق عصبة الأمم كان وثيقة أكبر جرأة بالنسبة إلى الجو السياسى فى سنة ١٩١٩ من ميثاق الأمم المتحدة سنة ١٩٤٥ . والواقع أننا إذا نظرنا إلى الموضوع من بعض الزوايا الخاصة نجد أن عصبة الأمم تجربة أكثر جرأة من الناحية الدولية من الأمم المتحدة، حتى فى الوقت الحاضر . ومع ذلك فالذى قضى على عصبة الأمم بصفة نهائية ليس على وجه التحديد ما تراءى للأنتظار من صور الحكومة العالمية، بل العلاقة المميته بين نصوص التعويضات والعقوبات التى فرضتها معاهدة فرساي، وبين ميثاق عصبة الأمم . ولقد انضم كثير من الأمريكين الأحرار إلى المؤيدين للعزلة الأمريكية

في عدم تأييد الهيئة التي رأوا فيها عاملاً على بقاء الظلم والتسلط . وفوق هذا كانت حزبية ولسن الساذجة تمنعه من استجداء تأييد كبار الجمهوريين الذين كان كثير منهم يؤيدون عصبة الأمم أو أية منظمة دولية أخرى . رسواء في واشنجتون أو في باريس فإن ولسن رئيس الحزب هو الذي قضى على ولسن مصلح العالم .

ولقد كان عدم تعضيد النواب الأمريكيين له معطلا للعصبة عند بدء تكوينها، كما أنه شجع العناصر الأوربية التي كانت تحاول تقويض دعائم السلام بالعنف ، وأغضب الذين كانوا يريدون الإبقاء عليها بالقوة إلى أجل غير مسمى . ولم يقع فيما بين الحربين العالميتين أى شيء أكثر من هذا ليجعل قيام الحرب الثانية أمراً محتملاً . وبالإضافة إلى جراح الحرب وجراح الثورة جاءت طعنات هذا الصلح المشوه . إن هذه الجراح الثلاثة الدامية التي أصابت التاريخ هي التي قضت على النظم السياسية والاجتماعية والثقافية في الحياة الأوربية التي استمرت من سنة ١٩١٩ إلى ١٩٣٩ .

وأعلن دستور فيمار في ألمانيا في ١١ من أغسطس سنة ١٩١٩، ونظراً إلى أنه انبثق في أثناء قيام الثورة الفاشلة التي عاصرت إقرار معاهدة فرساي (يوليو ١٩١٩)، ونظراً إلى أنه كان مؤيداً من كبار الديمقراطيين الذين استسلموا للمعاهدة . فإن جمهورية فيمار كانت الهدف الأول لضربات الوطنيين المتطرفين الذين دأبوا حتى ذلك الحين على معاداة الشيوعيين ومقاومة الاعتداء البولندي في المنطقة الشرقية . ولم يكن بين الوطنيين الألمان من يؤمن بالمبادئ الديمقراطية إلا القليل . والآن أصبحت موضع كراهيتهم . ورغبة في تخليص ألمانيا من القيود التي فرضتها فرساي عليها كان من الضروري — كما قال أحد العلماء الألمان إلى المراسلة الأمريكية سيجيريد شولتز — حماية الألمان من أن يكونوا « ديمقراطيين مستضعفين » . وسألت

«المراسلة الأمريكية» ومن هو في رأيك الديوقراطي المستضعف؟»، فكان رده المملوء بالاحتمار والسخرية . ماذا؟ هو أى ألماني ينسى أن الواجب الأول عليه هو الحرب من أجل ألمانيا العظمى . ولم يكن أدولف هتلر هو الذى ألقى هذا القول ولا أحد من عامة الشعب الذين يهرعون تحت العلم الذى يرفعه . كان شاباً بروسيا مثقفاً من أسرة طيبة . هو الكاتب إرنست فون سالومون . ومع أنه كان ضمن من اتهموا بغيل رجل الصناعة السياسى اليهودى وولتر ثاوى (وهو رجل وطنى عظيم كقاتليه) إلا أنه لم يكن صعلوكاً ولا متعصباً به جنة . إنه لم يكن إلا واحداً من آلاف الألمان الذين نشئوا على عبادة القيصر والوطن، وتحول مؤقتاً إلى مجرم مجنون من أثر الانحلال المتعدد . وآخر عمل جنونى اشترك فيه خون سالومون ما يدعى ثورة كاب فى مارس سنة ١٩٢٠ التى كانت تهدف إلى تقويض الجمهورية وإعادة الملكية آخر الأمر .

وفى الثالث عشر من مارس سنة ١٩٢٠ أعلنت الثورة ضد الحكومة فرقة إيرهارد إحدى فرق الجيش الأهلى (التى أمرت لجنة المراقبة التابعة للحلفاء بمحلبها) تحت قيادة الجنرال فراى هروولتر فون لوتفنز، وهو أرسقراطى من المدرسة القديمة . وتقدم العصاة يرفرف فوقهم العلم الإمبراطورى، وتعزف لهم موسيقى الجيش إلى حيث استقبلهم الجنرال لودندورف الذى كان العقل المدبر لهذا العصيان . وقبل ساعة واحدة من مطلع النهار وبعد إعلان الإضراب العام هرب أعضاء الحكومة من براين فى السيارات .

وأبت القيادة العليا للحكومة أن ترفع إصبعاً واحدة دفاعاً عن الجمهورية بحجة أن الجنود الذين كانوا يحاربون كل منهم بجوار الآخر من مدة وجيزة لا ينتظر أن يطلق بعضهم الرصاص على البعض الآخر، إلا أن الثورة فشلت بعد أيام ثلاثة نتيجة لعجزها وبسبب الإضراب العام . وهرب رئيسها الأسى الذى كان أمريكياً

ألمانيا ويدعى ولف جانج كاب في سيارة أجرة لابساً قبعة عالية رثة غطى بها وجهه. ونقل لودندورف إدارة المؤامرات التي يشرف عليها إلى ميونيخ وعادت الحكومة. وطمعاً في أن يسود السلام، سمح لفرقة إيرهارد أن تغادر المدينة في نظام عسكري. وتذكر سيجريدشولتز المراسلة الأمريكية وهي تطل من نافذة فندق أدلون « إنه عندما سار الجنود إلى إنتردن ليندن رفعوا بنادقهم وصوبوها إلى مئات المدنيين العزل من السلاح على جانبي الطريق، وكانت نتيجة هذا الإجراء الذي لم يستغرق إلا بضع دقائق، أن امتلأت ساحة الفندق بالكثير من القتلى والجرحى. »

وكان فشل ثورة كاب هزيمة للقومية الملكية التي كان ينادى بها اليونكرز ولكنه لم يكن نصراً حقيقياً للديمقراطية الألمانية. وانتقل مركز الثورة ضد الجمهورية وضد قرارات فرساي، كما انتقلت قيادة الحركة الوطنية من أيدي القواد البروسيين إلى أيدي هتلر الجاويش السابق المولود في النمسا، وزميله في الحزب الكابتن إرنست روم.

وفي مارس سنة ١٩٢٤ أعاد هتلر تنظيم حزب العمال الألماني الذي ينتمي إليه على أساس منهج أميل إلى منهج المحافظين. ثم أسماه في الشهر التالي « حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني »، ثم اتخذ أعضاء الحزب لهم شارة على الأذرع، رأى « الفوهرر » أن تكون حمراء. كما اتخذوا شعاراً لهم الصليب المعكوف: لن تعمر الديمقراطية في ألمانيا ولا في العالم طويلاً...

لقد كانت الاشتراكية القومية الألمانية نتيجة للحالة الصعبة التي جاءت على

أثر الهزيمة الحربية وتنازل القيصر ، وفداحة نصوص معاهدة فرساي ، والخوف من البلشفية . وكانت ألقاظها وأساطيرها مستمدة إلى حد كبير من دعاية الوحدة الألمانية في عهد ولهدين ، وما كان يجري على ألسنة النمساويين والروس من كلام ضد الصهيونية . وكانت لهذه الاشتراكية من المبادئ ما استمدته من الفاشية الإيطالية التي كان رئيسها وكبير مفكرها الجاويش السابق بنيتو موسوليني ، الذي كان أول زعيم شعبي في الغرب ينجح في القيام بحركة جماهيرية أساسها إلباس الحكم المطلق ثوباً جديداً برأقائزيمه الشعارات الشعبية أو الاشتراكية ، ويقترن بفكرة التعصب الشديد للقومية . وكما كان الحال في ألمانيا تماماً فقد خلقت قسوة شروط الصلح وما تسبب عنها من ألم ممض والخوف من البلشفية في إيطاليا الظروف المناسبة لمناهضة اليمينيين للديموقراطية الالسنية وللقيادة التقليدية التي كانت للكنيسة والعرش . وكان موسوليني وهو الرجل الذي له من القوة والجبروت أكثر مما يظن عادة — قد أسس حزبه في مارس سنة ١٩١٩ . وفي أكتوبر سنة ١٩٢٢ بعد ثلاث سنوات من النزاع الاجتماعي والاضطراب السياسي الذي عمل الفاشيون أصحاب القمصان السود ما في وسعهم لإذكائه ، أمر (ومن الحكمة أنه لم يشترك فيه) مائة ألف من أنصاره بالزحف على روما ، وكان بعضهم يحملون الأسلحة معهم .

ونجحت هذه الحيلة الكبرى ، وأقام فكتور إمانويل الثالث (ما أسف له فيما بعد) الصحفي الاشتراكي السابق رئيساً لحكومة إيطاليا . وبعد شهر منحه الملك والبرلمان السلطة الدكتاتورية « لإعادة النظام » ، وظل موسوليني يحتفظ بمظهر التمسك بالحكم النيابي (الحكم النيابي المحاط بالسياط لكل من راودته نفسه باستعمال المعارضة ، ثم أخذ سلطانه يزيد شيئاً فشيئاً حتى أتم تشييد الصرح الجديد للاستبداد . وبعد فترة وجيزة كان السائحون الأجانب يقرأون الشعارات الدالة على جنون العظيمة معلقة على جدران القصور « إن الدوتشي لا يخطئ » .

وكان للفاشية الألمانية والإيطالية تأثير على الجماهير الأوربية على أساس أنها صور للثقل العليا الديمقراطية . ولكنها كانت زيادة على ذلك معبرة عن إحساس الجماهير بالحاجة إلى الأبوة التي حرّموا منها بعد أن كانت موجودة لدى الحكومات الملكية . لقد قام مارد الحكم المطلق في لباسه البراق وسلاحه الجديد من أكوام الرماذ التي خلقتها الحروب .

ومن قبل ظهر في الأفق حكم مطلق جديد — أو على الأقل — حاكم مطلق جديد على أقطاف إمبراطورية عبد الحميد . فقد بدا للعيان موقف غريب في العاصمة العثمانية في نهاية الحرب . فمع أن الهزيمة سواء أكانت كلية أم جزئية — أسقطت كلا من قولاً الثاني و غليوم الثاني والإمبراطور كارل . إلا أنها وطلدت مركز محمد السادس ابن أخى عبد الحميد على عرشه . وكان الحاكم الحقيقي للإمبراطورية العثمانية إبان الحرب هو القائد الشاب السابق أنور باشا ، ولم يكن محمد الخامس الذى أجلسه الأتراك على العرش عندما خلعوا عبد الحميد ، إلا تمثالا خالياً من الروح ، ولو لم يسمح لولى العهد محمد وحيد الدين أن يخلف محمداً عند وفاته سنة ١٩١٨ ، إلا لأنه أوهم كل الناس مدى أربعين سنة كاملة أنه غر لا إرادة له . والحقيقة أن محمداً السادس كانت له أخلاق عمه المتوفى (مات عبد الحميد مطمئناً راضى النفس ، فى أحضان إحدى الجواري ، منذ بضعة أشهر) . كما كان له أيضاً ما فيه من خداع ، واشتهاء إلى الحكم ، وما فى طباعه من جبن .

وعندما كانت تركيا تسعى لعقد الصلح ، غادر البلاد أنور باشا ليبدأ حياة المغامرة ، ومات فى موقعة حرية مجهولة الاسم فى وسط آسيا ، واسترد محمد شيئاً من النفوذ الذى كان يسعى إليه ويطمع فيه . وقد كان على علم بأن الحلفاء المنتصرين فى الحرب يفضلون السلطان الوديع على القائد الشاب المتعصب ، كما قدر

بحق أن تأييد الحلفاء سوف يضمن له البقاء على العرش ، مادام خاضعاً لهم .
وكان يدرك أن الحلفاء الآن لابد أن يختلفوا فيما بينهم — وبخاصة إذا استخدم
السم كما فعل عمه من قبل — وعند ذلك يسترد حريته . وهذه السياسة إذا نظرنا
إليها من حيث الإبقاء على حقوق الأسرة ، هي سياسية عملية ، ولكنها في نظر
من لم ينشأ بين الحريم ، سياسة فيها كثير من المهانة إذا أريد تنفيذها .

ومنذ معاهدة مودروس للهدنة في ٣٠ من أكتوبر سنة ١٩١٨ التي ألفت تركيا
على أساسها السلاح ، أصبحت القسطنطينية محتلة احتلالاً حرياً مقنعاً بجنود الحلفاء ،
الذي كانت السيطرة فيه للقوة البريطانية ، وتمزق القناع عندما دخل الجنرال
فرانشيه دسبيرى العاصمة العثمانية ممطياً جواداً أبيض قدمته له البالية اليونانية على
رأس فصيلة من الجنود الفرنسيين ، وكان في إجراءاته هذا إشارة ساخرة إلى دخول
محمد الثانى القسطنطينية فاتحاً ومنتصراً سنة ١٤٥٣ . وكان من بين من شهدوا
هذا التحدى بعيون ممتدة وشفاه مطبقة مصطفى كمال أحد الشباب الأتراك الذى
أصبح فى رتبة الجنرال والذى له أجد تاريخ فى الجيش التركى . وإلى هذا القائد
يرجع الفضل فى فشل إنزال جنود الحلفاء فى جاليبولى ، وبعد الحرب عاد إلى
ما كان يشغله قبل الحرب بهمة لا تعرف الملل ، أعنى أنه عاد إلى النشاط السياسى
السرى .

وفى أبريل سنة ١٩١٩ أرادت الحكومة أن تنفيه نفياً أدبياً فعينته مفتشاً عاماً
لل قوات التركية فى مجاهل الأناضول الشرقية ، وعلم قبل رحيله بأن فرقتين يونانيتين
نزلتا فى أزمير على الساحل الإيحي من تركيا ، كما نزلت بعض القوات الإيطالية فى
أضالياجنوبها ، تمهيداً لتنفيذ خطة الحلفاء فى أقصى أطراف الإمبراطورية التركية
(وكان من ضمن مظاهر هذه الخطة استقلال أرمينية واستقلال البلاد العربية ،

وإعلان الحماية البريطانية على فلسطين والحماية الفرنسية على سوريا) . ويقول إرفان أورجا أحد كتّاب تاريخ حياة مصطفى كمال « عندما نزل مصطفى كمال في شهر مايو في ميناء سامسون على البحر الأسود ، فتح ذراعيه متجهًا نحو سماء الأناضول الفسيحة وبدأ أوقع وأحزن زحف في التاريخ التركي » . وسواء أصبحت هذه الرواية أم لم تصح فإنها تبين جانبًا من حياة كمال الدينية . إنها تمثل الروح التي بدأ بها كمال ثورته . إن هذا الضابط المولود في سالونيك من أسرة ألبانية فيها شيء من الدم الإسرائيلي قد ترك أوروبا وراءه واتجه نفسيًا وعاطفيًا إلى الوطن الآسيوي لأجداده التورانيين ، وأراد أن يعمل ما يجعل العالم كله — أو على الأقل — اليونانيين والفرنسيين والإنجليز يرتعدون . والثورة الكمالية التي اكتملت صورتها من روح منشأها وتعاليمه فيها الكثير من الفاشية الإيطالية والاشتراكية الوطنية الألمانية . وكانت الكمالية تشمل بعض العناصر الوطنية والحرية والاجتماعية بل العنصرية أيضًا . ومع أن الحكم كان مطلقًا إلا أنه لم يكن معرضًا لكره الديمقراطية ، التي كانت مصدر شقاء هتلر وموسوليني — وربما كان ذلك لأن المعاهدة التي عقدها تركيا مع الحلفاء لم تقرر حكمًا ديمقراطيًا ، وإنما كان الحكم فيها للسلطان الذي يعاونه عدد من الباشوات الخاضعين لسلطة الحلفاء .

ولقد أبدى كمال بعض الألم عندما لفت نظره إلى مقال في صحيفة أجنبية توازن بينه وبين موسوليني ، وقال « أليس من المؤلم أن أقارن بذلك العملاق الراضى كل الرضى عن نفسه بمحذاته الطويل الذى يستطيع أن يقضى به على أى إنسان دون أن يشعر بالألم لحظة واحدة » والكمالية — ولو أن هذا اللفظ لم يعم استعماله بعد — هى حركة مضادة للاستعمار تؤيد الحرب التي تهدف إلى الحصول على الاستقلال . وهى الرائد الأول ، والملمهم لكثير من الثورات القومية التي نجحت

في رفع النير الغربي عن كاهل السكان في جميع أنحاء العالم الإسلامي .

وكانت البداية الرائعة للثورة الكمالية في ١٩ من يونيو سنة ١٩١٩ في سيواس وهي مدينة شرقي أقره يوم أعلن مصطفى كمال أن الحكومة التي في القسطنطينية واقعة تحت نفوذ الأجانب، وطالب باجتماع مؤتمر يمثل البلاد في الأناضول . وكان نمو الحركة داعياً إلى تغيير الحكومة في القسطنطينية، والدعوة إلى إجراء الانتخابات التي نال فيها الكماليون أغلبية عظمى . واجتمع النواب المنتخبون في أقره ، ووافقوا بالأغلبية على إعلان الاستقلال التركي .

وكان أن رد الحلفاء على هذا باحتلال المباني الحكومية في عاصمة السلطان، ومحل البرلمان، وبالقبض على عدد من الوطنيين وفيهم، فرفض أعضاء برلمان مصطفى كمال، ولكن معظمهم كانوا طلقاء في أقره ، وهناك اجتمعوا في ٢٣ من أبريل سنة ١٩٢٠ على هيئة مجلس قومي وأعلنوا عدم الاعتراف بالحكومة الصورية في القسطنطينية وانتخبوا مصطفى كمال رئيساً للجمهورية .

ولقد اعتدنا كثيراً أن نرى انتصار الحركات القومية في المناطق الخاضعة للنفوذ الأجنبي، حتى إننا نجد صعوبة في أن ندرك على بعد عظم الثورة الكمالية أو تقدر قيادة كمال الباهرة . ولقد كانت القومية التركية قوية ولكنها في سنة ١٩٢٠ ، كانت ماتزال في مستهل ظهورها ، وكانت لاتزال خامدة . وكان الشبان قوميين من نوع ما ، ولكن رغم لقبهم لم يكونوا جميعاً من الأتراك . ثم إن حركة الإصلاح في عهد أنور قد وقفت ولم تتقدم أية خطوة . ولكن كمال أذكى نار المثل الثورية لعام ١٩٠٨ . وربط أهدافه بمصلحة الأتراك دون غيرهم من رعايا الإمبراطورية التركية . وكثيراً ما كان يردد القول بوجوب إقناذ الأمة

التركية من الهلاك، ولكن كثيراً من المستمعين إلى كلامه ما كانوا يدركون تمام الإدراك أن أمة بهذا الاسم في حيز الوجود : إنهم لم يصبحوا أتراكاً إلا من أثر ماسمعه من أحاديثه . ولم يكن التحول سهلاً ولا سريعاً، ووجد صعوبة كبيرة في إقناع زملائه الضباط بأن الولاء لهذا الغرض السامى وهو الولاء للأمة التركية يسبق الولاء للسلطان ، وربما كانت الصعوبة الكبرى في إقناع الفلاحين الأناضوليين أولئك بذلك ، الذين عاشوا تحت ضغط الحرمان والحروب ، إن الوقت قد حان لعودتهم إلى الميدان تحت قيادته وهو أمر كانوا يظنون ألا فائدة منه وأنه قضية خاسرة .

ولم تكن القضية التي تشغل هذا الجندي الطموح من القضايا التي لا يأمل في نجاحها ، ولكنها كانت تتطلب النضال ضد كثير من العقبات . ومع أن عبقريته الحربية كانت عاملاً كبيراً في النصر النهائي إلا أن السر الحقيقي في قدرته القيادية يكمن في شيء آخر . فكانت له — مثل لينين موهبة القيادة ، وكان يمثل القومية التركية كما كان لينين يمثل الثورة البلشفية الروسية ، وقد اندمج في التاريخ اندماجاً كاملاً حتى صار أسيراً للقضية التي يتولى الدفاع عنها . وحتى عيوبه الشخصية صارت جزءاً من حياته التاريخية ، وكان يقضى السويقات القليلة التي كان يبيعها لنفسه في مجون وعردة كأنما يرى أن كل شيء لا يستحق التفكير إلا عندما يكون الأمر مؤدياً إلى النهضة الوطنية .

وأرسل محمد السادس مرة أخرى إلى الأناضول — مقلداً في هذا عبد الحميد — جماعة من المسلمين المتعصبين ليثيروا الرجعيين ضد كمال ، وهكذا كانت أمامه حرب أهلية زيادة على ما كان يشغله من المشكلات . كما أن الحلفاء كانوا يحرضون ضده الأرمن وسائر الأقليات على الثورة من جديد، ثم إن اليونانيين بدأوا الزحف

فى قوة عظيمة — ولكنها مشوبة بالاندفاع الأهوج — نحو أقره من الساحل . وظلت الحرب المريرة مشتعلة فى آسيا الصغرى زهاء سنتين . ولكن كالا استطاع بما لديه من قوة عزيمة وشدة شكيمة أن يقضى على كل مقاومة ، وأن يرد الغزاة الأجانب على أعقابهم . وتم جلاء اليونانيين بعد هزيمة منكرة أعقبها خروج جماعى للوطنين المسيحيين ، وارتكب الطرفان كثيراً من الفظائع ، فالتساء اعتدى عليهم وصابن . والرجال ضربوا حتى فارقوا الحياة ، والأولاد طعنوا بالحرا ب . وحرقت المباني وسممت الآبار . وفى سبتمبر سنة ١٩٢٢ جلا آخر ما بقى من الجنود والمهاجرين اليونانيين من أزمير بجرأ . وأتلف كل مالا يمكن نقله حتى لا يقع فى أيدي الأتراك المكروهين . واستخدمت كل وسائل النقل فى الجلاء . وقد ألهمت مناظر الحرب فى المنطقة خيال إيرنست همنجواى وقد كان يحوس خلال المنطقة كلها مراسلا لإحدى الصحف وقد أوجت إليه بوصف رائع . وكمل نفسه راعه منظر أزمير ، ولكن الذى ملك عليه حواسه إنما هى النيران التى اشتعلت عقب الجلاء .

ولقد روى الكاتب الفرنسى بنواميشان قول كمال لبعض الضباط وقد استولى عليهم الرعب بمناسبة الحريق « إن هذا معناه أن بلادنا قد تخلصت من الخونة والنفعبين وأنها من الآن أصبحت محررة ومخصصة للأتراك دون غيرهم » .

ويروى بنواميشان أن مصحفى كمال ترك النيران مشتعلة ثلاثة أيام دون أية محاولة لإطفائها .

وجلا الحلفاء عن القسطنطينية فى أغسطس سنة ١٩٢٣ يصحبون السلطان الإسمى معهم . وأعلنت الحكومة التركية رسمياً فى أقره لا فى دار الخلافة

العثمانية — في ٢٩ من أكتوبر . ونزعت من محمد السادس كل الحقوق الزمنية وسمح لابن أخيه أن يخلفه في الخلافة الإسلامية كظل الله في الأرض . ولقب كمال بالغازي تكريماً له ، وفي اللقب إشارة إلى (إبادته للكفار) وفيه شيء من السخرية لأنه ملحد — وانتخب رئيساً للجمهورية . وبعد خمسة أشهر ألغى الخلافة وهي وظيفة السلطان الدينية ، ونفى جميع أفراد الأسرة العثمانية من الأرض التركية .

وهكذا أنهى حكم الأسرة العثمانية . ولقد كان تحطيم هذه التماثيل الدينية بداية لأعنف ثورة في العالم جاءت من عل منذ عصر بطرس الأكبر في روسيا .

ولئن قص بطرس لحي الروس ، فإن كمال رغبة منه في أن يجعل تركية دولة حديثة قوية أمر بالآلبس الباشوات الطرايش الحمراء التقليدية . بل لطم أحد الوزراء المصريين مرة على وجهه لأنه حضر اجتماعاً رسمياً مرتدياً غطاء رأسه المنوع ، وكان أشد عنفاً مع الأتراك إذا ما حاول أن يجبرهم على تنفيذ أوامره .

ويقول عنه جون جنتر : « إن هتار بالنسبة إليه رجل لين وموسوليني بالنسبة إليه رجل متألق معطر » وعلى النقيض من سائر أصحاب السلطان الحديثين لم يشيد دكتاتوريته من أجل شخصه وإنما من أجل شعبه . وبعد أن قضى على المعارضة في البلاد خطأ الخطوة التي لم يرقم بها أحد غيره — لقد خلق المعارضة بمرسوم أصدره . وهكذا أصبحت تركيا بلاداً ديمقراطية على الأقل من حيث الشكل . وكان من إصلاحاته فرضه الألقاب لأسماء الأعلام تشبهاً بالغرب واختار لنفسه لقب أتاتورك — أبو الأتراك — وهو جدير بهذا اللقب في حياته الخاصة وحياته العامة جميعاً .

وعندما انتهى القتال بين الحلفاء وبين تركيا الحديثة أمكن تصفية المشكلات

الأخيرة الباقية من تراث الإمبراطورية العثمانية القديمة ، كما أمكن وضع حدود الشرق الأدنى بعد الحرب ، وأعيد النظر في معاهدة سيفر ، وأمكن تعديل بعض نصوصها وإن كان بعضها قد نفذ من قبل . لقد احتفظت تركيا بالقسطنطينية وراقيا الشرقية ، كما احتفظت بالمضيقيين وبقى لها شاطئ آسيا الصغرى والأناضول ومرتفعات أرمينيا ، ونزلت عن قبرص لبريطانيا التي كانت تحتلها من قبل ، كما نزلت عن جزر الوديكانيز إلى إيطاليا . وحصل العرب الذين اختارهم لورنس للقيام بحرب العصابات في صف بريطانيا على حريتهم . ووضعت المناطق الخصيبة من البلاد العربية والمناطق التي كان يحتمل وجود البترول فيها تحت الانتداب الفرنسي والبريطاني . ووضعت فرنسا يدها بعد حرب قصيرة على الإقليمين الموضوعين تحت وصايتها سوريا ولبنان رغم وعد لورنس بأن تكون دمشق ذات النخيل السامق والمساجد العديدة لأصدقائه العرب . وحصلت بريطانيا على العراق وفلسطين ، ومع أن العرب قد وعدوا بفلسطين إلا أن بريطانيا مالأت الصهيونيين ، ومهدت لهم إقامة وطن لهم فيها .

وشيئاً فشيئاً أخذت ثورة الجماهير المتشاحنة تهدأ وأصوات المدافع تخفت في أوروبا ، رغم أن بعض الاضطرابات البلشفية أو الفاشية كانت تحدث من وقت إلى آخر في أوائل العشرينات من القرن العشرين . وبدأت تبرأ الجراح التي خلفتها الحرب . ولكن الجراح السياسية والاقتصادية والاجتماعية ظلت دامية . ولم يؤد سقوط الملكيات الاستبدادية في وسط أوروبا وشرقها وجنوبها الشرق إلى زيادة الحريات الشخصية بدرجة ملحوظة في تلك المناطق . وقامت بعض الدكتاتوريات على نحو ما في معظم البلاد (وكانت تشيكوسلوفاكيا تحت رئاسة مازاريك من الاستثناءات السعيدة) على أن بعض الظروف خففت إلى حد ما وطأة هذه الدكتاتوريات : ففي روسيا الحديثة كان الاستبداد يصحبه الأمل بأن

التضحيات التي يمتثلها الشعب مؤدية إلى سعادة قادمة . وفي البلاد التي نشأت من تفكك الإمبراطورية النمساوية كان من موجبات رضى الناس فيها أن الشرطة الذين يسيئون إليهم كانوا من ذوى قرابتهم ودينهم ومن نفس الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها . ولئن رأى البعض في هذا شيئاً من السلوى فإن غيرهم ، كالكروات ، رآه في يوغوسلافيا مثلاً سلوى غير واضحة .

وبما لاشك فيه أن المساواة أصبحت أكثر انتشاراً في أوروبا الحديثة عما كانت عليه من قبل ، ولكن بعض الجماعات وبعض الأفراد كانوا أكثر مساواة من غيرهم .

وبما لاحظته ج . ر . فون ساليس السويسرى أن الحزبات بين الحاكمين والمحكومين وبين من يملكون ومن لا يملكون ظهرت في صورة أقوى منها قبل الحرب . ومما كتبه : « يبدو أن التقاليد المقدسة القديمة والعلاقات المبنية على الاحترام المتبادل بين الحاكم والمحكومين قد اختفت ، وأنه لم تقم علاقة سياسية جديدة ولا رابطة أدبية تسترشد بها الجماعات والأفراد في علاقتهم بالدولة » .

وبمثل هذا التطاحن — كما يقول فون ساليس — كانت تقوم العلاقات بين الدول رغم وجود عصبة الأمم . لقد حاول ولسن — وبريان من بعده — أن يجعل من الإخاء الذى دأب خيالهم حقيقة سياسية ، حتى إن الكتاب مثل رومان رولان وولز حاولوا نشره في الغرب ، كما حاول ماكسيم جوركى وغيره من كتاب السوفييت نشره في الشرق ، إلا أن هذا الحلم تبدد أمام حقيقة سياسية أقدم من حقيقة القومية التي كانت — على حد تعبير فون ساليس — « أقوى وأبقى من فكرة الأمن الجماعى الذى كان من اختصاص عصبة الأمم » — حتى إن عصبة الأمم نفسها أصبحت بمضى الوقت منبراً للدعائيات القومية . ومبدأ السوفييت الذى يقضى بالقوة

العالمية لا بالإقناع ولا بالاقضاء ولكن بالقوة والإلزام ، كان أيضاً قاضياً على المبادئ^١ الولسنية) .

وكانت الحالة الاقتصادية بعد الحرب ومفاوضات الصلح سيئة في البلاد الأوربية التي انهارت حكوماتها الملكية . وفلا عانت كل البلاد المتحاربة ماعدا الجمهورية الروسية التي كانت لها مشكلاتها الخاصة من التضخم المالى وما صحبه من نزول قيمة النقد في أوائل العشرينات من القرن العشرين، وكانت الكارثة المالية شديدة في النمسا وألمانيا ، وأشد في ألمانيا بصفة خاصة .

وفي النمسا حيث حدث التضخم المالى قبل ألمانيا ولم يصل إلى النسبة المروعة التي وصل إليها في ألمانيا ، حل بها « موسم عجيب للسياحة » استمر بها بعض الوقت . إذ كان في وسع الرجل الإنجليزي الفقير أن يقيم في فندق فاخر بأجر أزهد مما ينقذه في مسكنه في بلده . وقدم ألوف من البافاريين إلى سالزبرج يشترى الملابس والأدوية ويحاولون أسنانهم . وأخيراً نظم إشراف ذفيق على الجمارك عند الحدود وأمكن منع التهريب إلا تهريب البيرة التي كان البافاريون يهربونها في أمعائهم . ويقول الكاتب ستيفان زفايج وكان يقيم في سالزبرج في ذلك الحين « المحطة في كل ليلة مكان صاحب حقاً مملوءا بالسكرارى الذين يصخبون ويعربدون ويتشاجرون . وكان بعض هؤلاء يصيبهم الإعياء من الإفراط في الشراب ، فيقتلون على نقالات إلى القطارات ويعادون إلى بلادهم في صخب وغناء لا يصدران إلا عن الخمورين » . ثم ثار النمسيون لأنفسهم عندما ثبتت قيمة الكرون النمسى وانحط المارك الألمانى، وتكررت القصة عبر الحدود ولكنها في هذه المرة كانت من الجانب الآخر .

وصف زفايج الحالة فقال : « ستبقى بيرة الحرب هذه التى بين فترتى التضخم من أعمق ذكرياتى ، ذلك لأنها كانت تعكس مجلاء — فى صورة دقيقة ساخرة — الشخصية العامة المهزوزة لإنسان ذلك العصر » .

ولقد قد المارك الألمانى ربع قيمته فى أثناء الحرب ، وزادت التعويضات — وكانت حوالى ثمن الدخل السنوى من الانهيار الذى أصيبت به ألمانيا بعد الحرب . (ولكيلا نشى الصورة التى عقلت بأذهاننا يجدر بنا أن نذكر أنه بعد وقف التعويضات — بناء على الموافقة الرسمية على تأجيلها — وبعد عجزها عن دفع ديونها الأجنبية استهلكت ميزانية هتلر الحربية سدس الدخل القومى) ، وفى نوفمبر سنة ١٩٢١ أصبح كل ٢٠٠ مارك لاتساوى إلا دولاراً واحداً . وفى نوفمبر سنة ١٩٢٣ قفز الدولار إلى ٤ بلايين من الماركات . وفى أوج التضخم كان ثمن الصحيفة اليومية ٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ مارك ، وكان ثمن طابع البريد اثنى عشر بليون مارك .

ثم أصبحت عقود التأمين وودائع الادخار وسندات الحكومة لاقية. لها وكل من كان يدخر وكل من كان يقتصد فى أمور معاشه أصبح من المعدمين ، وبين عشية أو ضحاها أصبح من كانوا يغامرون ويسرفون فى الإنفاق أو يستدينون من الأغنياء .

وكانت الصدمة الاقتصادية التى أصابت الألمان والطبقة المتوسطة فى أوروبا بسبب التضخم المالى مريعة . بل كانت الصدمة النفسية والأدبية أدهى وأمر . وعندما تضعع إيمانهم بقيمة النقود والفضائل المتصلة بالتعامل المالى ، فقدت الطبقات الوسطى ثقتها لا فى الحكومة فحسب ، بل فى المجتمع كله وفى الله وفى القيم الإنسانية نفسها . وكان الألم النفسى أشد وقعاً بسبب حدوثه عقب الصدمة التى أصابت الناس

بانهيار رمزسلطان الحكم . ثم إن هذه الحالة قد صحبها هلع قاتل : فقد لاي موت الألمان الفقراء من الطبقة الوسطى جوعاً — على أن بعضهم مات فعلاً من الجوع — ولكنهم كانوا مهددين بفقدان احترامهم الشخصى بهذا الانتقال إلى طبقة المعدمين أو الطبقة الدنيا على أحسن الفروض ، فلم يكن عجباً أنهم اتقادوا لمشينة هتلر الذى حول ثورته الجنونية إلى تهديد ثورى .

وفى عدا روسيا كانت الطبقة الأرستقراطية أقل تأثراً بنتائج الحرب والثورات من الطبقة المتوسطة . فلقد كان أغلب ثروتهم فى الأرض التى لم تنزل قيمتها كثيراً إبان التضخم المالى . ولو كانت مرهونة فى مقابل مبلغ كبير فقيها لالمكها فائدة كبيرة ، ولم يكن من طبع الطبقة الأرستقراطية — على عكس الطبقة المتوسطة — جعل القدرة على إيفاء الدين مساوية للاحترام ، أو اعتبار كثرة المكاسب المادية دليلاً على الحياة التقية وجزاء لها . ومع ذلك حرّمها انهيار النظام الملكى — الذى كانت خدمته مهمتهم الوراثة — من سبب بقائهم الاجتماعى . واستمر بعض النبلاء فى خدمة المجتمع فى الأعمال التقليدية التى كانوا يباشرونها ، كضباط فى الجيش أو سياسيين — وقلما عينوا وزراء أو محافظين — وأصبحت فرصهم للملء هذه الوظائف أقل مما كانت قبل الحرب وبخاصة فى الدول الحديثة التى كانوا يمثلون فيها قبلاً الطبقة الحاكمة الأجنبية . وقبل بعضهم بشجاعة أعمالاً يدوية أو أعمالاً حقيرة كقيادة السيارات الأجرة ، وحراسة بعض الأندية الليلية ، أو الخدمة فى مطاعم باريس . واشتغل بعضهم فى الأعمال التجارية .

ومع ذلك أخذ الكثيرون منهم يقومون بأعمال فضولية مستترة ، وسرعان ما انحطت أقدارهم كما يحدث عادة لجميع الفضوليين الاجتماعيين . واختفت الحدود بين الطبقات التى كانت تلاحظ قبلاً بكل دقة ، وإن بقيت فى العواصم فترة

أطول . ويقول دوق وندسور في مذكراته « قصة ملك » ... « إن عوامل التبديل في أوائل العشرينات لم تتعمق بعد كثيراً في نظام المجتمع البريطاني بحيث تقضى على الأناقة المعتادة . ففي أثناء ما يدعى بالموسم اللندنى يستمر الرقص في وست إند من منتصف الليل إلى الصباح . . ويمكن قضاء الأمسيات في أحد النوادي الباسمة ، وقد أصبحت عصرية ومحترمة لدى الجميع » .

ومن بين من نحى عن الحكم من الأمرات الملكية أميرة هابسبرج أشد الأمرات تمسكاً بتقاليد الدنيا القديمة . ولقد قام بترية الدوق أوتو ابن الإمبراطور كارل أمه الإمبراطورة السابقة زيتا على أساس احتمال عودته إلى عرش آبائه . وكان الاحتمال معقولا إلى سنة ١٩٣٨ أن تعود الملكية — على الأقل في النمسا — ورغم أن الأمل أخذ يضعف ، فإن أوتو كان يعنى عناية خاصة بأن يسلك في حياته العامة وحياته الخاصة المسلك الذى يتناسب مع من يحتمل جلوسه على العرش . وكان كثير من أعضاء أسرة هوهنزولرن أقل تأثقا أو أقل سوء حظ، رغم أن الفرص التى تهيأت لعودتهم إلى ألمانيا كانت أكثر مما فى النمسا . وعاش غليوم عيشة متواضعة لا بأس بها (وامتنعت الحكومة الهولندية أن تخرجه من البلاد ليحاكمه الحلفاء فى جريمة الحرب) حتى توفى سنة ١٩٥١ . أما ولي العهد السابق الأمير فردريك ولهم فلم تكن حياته بعد الحرب مفيدة من أية ناحية . فكان يقضى وقته فى القهى ، وكان فى وقت ما مؤيداً لهتلر ، ومات فى عام ١٩٥١ .

وأخذت الأساطير ترسم العشرينات من القرن العشرين فى صورة المرح الشديد والغليان الخلاق . وفى الواقع كانت عصر الشباب المتقد . عصر البنات والرقص . إنه عصر همنجواى وسنسكر لويس وسكوت فزجيرالد ود . هـ . لورنس وجيمس جويس ، وعصر السيريلية فى الفن . وانتهت حشمة النساء التى

كانت وانحمة قبل الحرب . وعندما نزلت قيمة النقد ارتفعت ذبول ملابس النساء .
ففي عام ١٩١٩ كانت على بعد ست بوصات من الأرض ، فأصبحت سنة ١٩٢٥
فوق الركبة عند تثبيت الأثمان .

وكان يصحب هذه الحرية في اللبس ثورة ضد كل قيد على العقل والجسم
وبخاصة عند الشباب . وكانت البنت الأمريكية التي تمثلها كلارا بو بشعرها الذهبي
في أفلام السينما تعد بنتاً مثالية بالنسبة إلى أختها الأوربية عند بلوغها سن الرشد
وسط الأصنام المحطمة في الإمبراطوريات الهاوية . ويقول الكاتب زفايج «إن جيل
ما بعد الحرب في وسط أوروبا ثار على كل قاعدة جبا في الثورة ، حتى على
قواعد الطبيعة ، وقواعد الجنس الأزلية . وصار الشذوذ الجنسي والانتهاك
في الشهوات هما القاعدة لديه ، لا بدافع من الغريزة ، ولكنه نوع من الثورة على
مظاهر الحب التقليدية والعادية . وظهر التطرف الثوري في الفن كذلك . ولا شك
أن كل عنصر مفهوم في كل شيء قد قضى عليه : كالإيقاع والموسيقى والمائلة
في الصور ، والوضوح في اللغة . ألا ما أعظم فوضى هذه الأيام وما أبعدها
عن الحقيقة » .

والواقع أن هذه السنوات كانت خيالية . ومع أنها كانت كلها طيشاً ، إلا
أنها لم تكن مرحلة كما يجب من بلغ منا منتصف العمر أن يذكرها . وحتى
في الجري وراء ما يرضى الحواس كان هناك شيء من فقدان الحس الروحي
والعاطفي ، ففي غرة ويلات الحرب وصدومات الثورة وخداع المعاهدات فقد
الأوروبيون الثقة في مستقبل مشرق ، وهو ما كان يضيء حياة آبائهم وأجدادهم .
وقد تتقدم الصناعات ، ولكن لم يعد هناك أي أمل في أن يؤدي تقدمها إلى
حياة أهنأ . إن الصباح المشرق في عصر الطيران — ولقد تقدم الطيران تقدماً

محسوساً بسبب الحرب — لم تفتتح له قلوب الناس على الأقل في أوروبا — ولا الصباح المشرق في عصر الراديو — (افتتحت أول محطة لإذاعة الولايات المتحدة في بتسبرج سنة ١٩٢٠) ومما قاله ج. ك. تشسترتون. «من العجب أن تبتدع البشرية آلة تحدث كل العالم في الوقت الذي لا يجد فيه الإنسان أى كلام يوجه للناس». ولكن بعض الناس وجدوا ما يتحدثون به — شبنجلر في التاريخ مثلاً وهمنجواي وهكسلي وإفلين ووفى الأدب ، ولكنها لم تكن رسالة سارة . ففكرة شبنجلر في حتمية انحطاط المدنية الأوربية أخف وقماً على النفس من نظرية همنجواي في انحطاط العلاقات الإنسانية . وإذا كانت منتبرناس مكاناً كئيباً في رأى الكاتبة لادى برت ، فإن فينا بعد الحرب — وقد صارت خاوية على عروشها بعد أن دار التاريخ دورته — كانت أكثر كآبة وحزناً . ولكن برلين وهى بابل عصر الجاز كانت أتعس البلاد جميعاً .

يقول زفايج ثانية عن برلين في سنة ١٩٢٠ « لدى خبرة تامة بالتاريخ، ولكن لم يكن بها من آيات البختون ما بها الآن بهذه النسبة المريعة ، وما كان في النسا ليس إلا بعض ما نراه الآن في برلين . وحتى روما في عصر سوتونيوس لم تشهد مثل هذا المجون الذي نراه في مراقص برلين ، ولكن كان أشد ما تأباه النفس في العلاقات الغرامية أنها كانت غير صادقة . وكل من عاش هذه الأيام وهذه السنوات كان يشعر بالألم والحسرة ومحس بالكارثة القادمة » .

والكارثة التى يشير إليها زفايج كانت — بالطبع — هى ظهور هتلر واستيلائه على الحكم ومحاولة سيادته العالم . ولم تكن الثورة النازية الفاشستية لتدل على تبدل الأمور بعد الثورة بالنسبة للقيم التقليدية أكثر مما تدل على فقد هذه القيم . ولقد كان يمكن تحت ما تلى الحرب من صخب وغضب تكرار

لفشل القيادات على نطاق أوسع، الأمر الذى كان أساس انهيار أوروبا القديمة. وكان إفلاس الحكام الجدد — سياسياً وروحياً واجتماعياً — أولئك الذين خلفوا الملوك والأسرات الأرستقراطية والمتوسطة أظهر للعيان من إفلاس من سبقهم من رجال الحكم . وفى هذا العهد لم يكن فشل القيادة مقصوداً على قارة بعينها أو على طبقة دون طبقة . وعندما تنسكت أمريكا للبادئ الولسنية لم تعمل أى شئ لبقية أنحاء العالم . وبما صادفته أمريكا من المشكلات أيام وارن هاردينج وكالفن كوليدج ، اتضح أنها لا تكاد تقل تخلفاً عن النمسا فى عهد فرانسيس جوزيف. وحتى تحول مركز الحكم والسلطان فى أوروبا من الإمبراطوريات الوسطى إلى الديمقراطيات الغربية ، وتبدل مناط الحكم فى الدول المتهارة من طبقة الحكام التقليدية إلى العناصر الاجتماعية الجديدة ، لم يهيا للعالم الغربى طريقاً أفضل من الاتجاه القديم، فبالدون وبنس كررا أخطاء إرنتال وجراى. وسياسة ستالين الخارجية فيها من التعقيد ما كان فى سياسة قوللا . ومنذ سنة ١٩١٤ أخذت الأمور تتغير بسرعة لا مثيل لها فى كل مجال، مما جعل محاولة الحياة الفردية والجماعية فيها فى غاية الصعوبة . لقد صار التاريخ قاطرة أفلتت من قائدها وجرت بمنتهى السرعة .

وفى ثنايا الحركة الأخلاقية التى قامت فى أوروبا بعد الحرب ، بين الطبقات المتهارة، برز أمل واحد للانسانية، وهو أمل ما يزال ماثلاً أمامنا فى الوقت الحاضر ذلك الطراز المؤثر الحديث من التماثيل — التى تقيمها البلاد المتحاربة تمجيداً لذكرى من استشهدوا فى الحرب. إن قبر الجندى المجهول فى مدافن أرلنجتون الوطنية وقبر المحارب المجهول ونصبه فى لندن واللوح الرخامى الذى لا يشير إلى اسم بعينه، والشعلة المقدسة التى تحت قوس النصر فى باريس، تعكس معنى أكثر مما تدل عليه من اتجاه جديد فى فن العمارة الجنائزية . لقد كرم كل مجتمع بعد كل حرب

موتاه من الأبطال ، ولكن مجتمعا الحاضر كان أول من اختار بطلا مجهولا .
ولو سمع هذا الكلام منذ خمسين عاما لبدأ فيه تناقض كبير .

ومع ذلك فلم يكن تكريم الجندى المجهول مهما كان بسيطاً — أمراً
جائز الوقوع في النمسا والمجر في عهد فرانسييس جوزيف أو في روسيا في عهد
تقولا أو في ألمانيا في عهد غليوم . وإنما هذه الحرب الحديثة وهذا الأسلوب
الحديث من التفكير والإحساس نحو الحرب — هو الذى جعل هذا الاتجاه
ذا معنى خاص ، كما جعل لهذا التمثال وقعا خاصا في النفس . إن تغييرا عميقا اجتماعيا
من نوع ما ، وقد يكون تفسيرا تاريخيا ، هو الذى دفع إلى هذه الرمزية . وربما كان
ذلك لأن مجتمعا لا معالم له ، كما أنه مجتمع جاهيرى ، فنحن لذلك نستطيع اختيار
البطل الذى لا اسم له .

وربما كان لذلك دلالة أخرى . فقد تكون هذه القبور الغامضة ليست
نصبا مقامة « لشعبية » الرجل العادى لحسب بل هى أضرحة مقامة لإنسانيته .
وربما تدل على تطور بسيط ولكنه هام في أنماط عقولنا ، لامن حيث المساواة ،
ولكن من حيث سعة الظروف الإنسانية والمكانة المتعلقة بها ، في كل زمان وفي
كل مكان ، في أخرج الظروف ... في أسوأ الظروف . وهناك دلائل أخرى على
تطور وجهات النظر الفردية التى صحبت تقدم العالم بعد الحربين العالميتين في إنشاء
المؤسسات التى تهدف إلى التعاون العالمى .

والآن وقد تضائل شعور الفخر بالأعجاد البسيطة للقبيلة التى ينتمى إليها
الفرد ، فأيسر لنا أن نشيد بانتمائنا للقبيلة الكبرى التى ينتمى إليها الإنسان ،
والتغير الذى حدث هو من العمق والدقة بحيث إننا لسنا على يقين بأنه حدث ،
ولكن من المحتمل أنه حدث فعلا . وعلى هذا فلنا أن نقرر مطمئنين حقيقة

نختم بها هذه القصة — قصة سقوط وانهايار وبعث الاستبداد . قصة القادة الذين لا يبصرون والجاهير الخدوعة . قصة الأخطاء القديمة التي لا تنسى والأخطاء الجديدة التي تفرض . والثورات التي تؤدي إلى الحرب والحروب التي تؤدي إلى الثورات . والسلام الذي يتقرر ، والآمال التي تبدو أمام الأعين ثم تختفي ، وخطوات القهرى الراسعة والخطوة الضيقة إلى الأمام .

وقد يكون التقدم أقل مما يكفى للتعويض عن التأخر المؤلم ، ولكن هذه الحقيقة يمكن أن تقال عن خطوة خطاها الإنسان في تقدمه من الحضيض إلى ذروة المجد .

تصويب

جاء في صفحة ٢٥٧ كيشيه بعنوان حافز وقبر الحكم المطلق وصحته
حافز وقبر الحكم المطلق .

كما جاء في صفحة ٤٧٣ كيشيه بعنوان الفصل السابع عشر وصحته الفصل
السادس عشر .

مطابع سجل العرب
٩ عماد الدين - بنان الدكة
تليفون ٥٢٣٠٩

